

**الإمام علي عليه السلام
وحروب التأويل**

الإمام علي عليه السلام وحروب التأويل

دراسة دينية - تاريخية - عسكرية معاصرة

الجزء الثاني

الحسين أحمد السيد

الكلية الحقوقية محفوظة محفوظة ومسجلة

الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

الفصل الثالث

خوض المعركة والقتال (الجميل الكبرى)

١. تنظيم المعركة

لدينا نوعان رئيسيان للمعركة (هجوم، ودفاع) ولكل نوع منها حالياً تنظيم مستقل ودقيق بسبب تنوع القوات وكثرة الأسلحة الفتاكة في العصر الراهن نتعرض إليها بلمحة سريعة هنا لأن تنظيم المعارك قديماً كان ذاتياً من القوات وارتجالياً من القادة لوضوح العدو وبساطة المعدات القتالية..

أولاً: تنظيم المعركة.. وتنظيم المعركة يشمل النقاط الرئيسية التالية..

١. تفهم المهمة:

أ. هدف الأعمال القتالية:

ب. مهمة المقاتلين والوحدات:

ج. وقت الجاهزية:

٢. حساب الوقت:

٣. تعليمات أولية:

٤. تقدير الموقف:

أ. العدو..

ب. الصديق..

ج. الأرض..

د. الفصل والطقس..

٥. الاستطلاع الشخصي:

٦. إتخاذ القرار.. ويجب أن يشمل ما يلي:

أ. معلومات عن العدو..

ب. مهمة الوحدات والقوات..

ج. معدلات الإستهلاك..

د. وقت الجاهزية..

هـ. القائد العام الإمام علي عليه السلام

و. النواب بالمعركة..

الإمام الحسن السبط عليه السلام هو النائب والوصي ، ومن بعده أخيه

الإمام الحسين السبط عليه السلام..

٢. مواصفات المعركة

الزمان: ما بين (١٥ - ١٨) جمادى الأولى عام (٣٦) (المروج واليعقوبي وأسد الغابة وتاريخ الإسلام للذهبي والتاريخ الصغير..) وتاريخ الرسالة التي بعثها أمير المؤمنين عليه السلام للكوفة تؤيد هذه الرواية لأنها مؤرخة (في جمادى الأولى من سنة ست وثلاثين)

وقيل: بل بنفس الأيام من جمادى الثانية من العام ذاته..^(١)

مُدَّة الحرب

* أربع ساعات مابين الظهر والمغرب فقط.. (اليعقوبي ١٨٣/٢)

* يوم واحد وليلة.. (الطبري ٥٢٣/٤)

* ثلاثة أيام من القتال من الفجر وحتى الغروب.. (ابن أبي الحديد).

* المكان: البصرة وفي (الزبوقه) من ضواحيها.^(٢)

أو (الزاوية) وهي حي من أحيائها^(٣).

أو (الخريبة) من الأحياء.^(٤)

الأعداد: العدد العام للجميع كان (٥٠٠٠٠) خمسين ألفا..

جيش الحق: (١٦٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠) على أكبر الروايات.

من المدينة (٧٠٠) من المهاجرين والأنصار..

من جبال طيء (فيد) (٦٠٠) بقيادة عدي بن حاتم الطائي.

(١) (الطبري والكامل والطبقات والعقد الفريد والبداية والنهاية والمستدرک ..)

(٢) (الطبري ٤٦٦/٤، الكامل ٣٣٦/٢، الفتوح ٤٦٣/٢)

(٣) (المروج ٣٧٠/٢، ابن الخياط ١٣٥)

(٤) (اليعقوبي ١٨٢/٢، الأخبار الطوال ١٤٦)

بذي قار تجمع: بقي أمير المؤمنين عليه السلام /١٥/ يوما تجتمع إليه
العساكر من الكوفة (٧٠٠٠-١٢٠٠٠) في البر والنهر، ومن طيء (٢٠٠٠) ومن
الأعراب (٥٠٠٠). والإمام الباقر عليه السلام يحدد العدد الكلي لجيش الحق
ب(١٢٠٠٠) عند وصوله البصرة..

جيش الناكثين: (٣٠٠٠٠) (الطبري والكامل والبداية والفتوح)

من مكة (٩٠٠ - ١٠٠٠) مسرعين خوف الطلب من الأمير..

من تجمع الطريق فوصلوا البصرة ب(٣٠٠٠) رجل..

التجمع العام فيها وصل (٢٠٠٠٠ - ٣٠٠٠٠) مقاتل..

محور تحرك جيش الحق: المدينة المنورة - الربذة - فيد - الثعلبية
- آساد - ذي قار - عبد القيس - الخريبة (أو الزاية، أو الزابوقة)..
محور تحرك جيش الناكثين: مكة المكرمة - ذات عرق - الربذة -
الحوأب - حفر أبي موسى - الحفير - المربد - الخريبة (أو الزاوية أو
الزابوقة)..
القيادات لجيش الحق: وشعارهم: (يا محمداه، يا محمداه)

- القائد العام: أمير المؤمنين علي عليه السلام يركب على بغلة رسول
الله ﷺ التي بقيت إلى زمن معاوية، لابسا درعه (ذات الفضول)..
قائد الخيالة: عمار بن ياسر..

قائد الرجالة: محمد بن أبي بكر..

قائد الساقة: هند المرادي..

قائد المقدمة: عبد الله بن عباس..

قائد الميمنة: الإمام الحسن السبط عليه السلام ومعه مالك الأشتر..

قائد الميسرة: الإمام الحسين السبط عليه السلام ومعه عمار بن ياسر.

صاحب الراية: محمد بن الحنفية..

- قيل: أنها راية رسول الله صلى الله عليه وآله (البيضاء) عظيمة تملؤ المرح.

- وقيل: هي راية رسول الله صلى الله عليه وآله (السوداء) والتي تسمى (بالعقاب).

قيادة جيش الناكثين: وشعارهم: (يا ثارات عثمان)

- صاحبة الجمل: السيدة عائشة بنت أبي بكر..

قائد عام: الزبير بن العوام..

قائد الخيالة: طلحة بن عبيد الله..

قائد خيالة الميمنة: مروان بن الحكم..

قائد خيالة الميسرة: هلال بن وكيع الدارمي..

قائد الرجالة: عبد الله بن الزبير..

قائد رجالة الميمنة: عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد..

قائد رجالة الميسرة: عبد الرحمن بن الحارث..

- صاحب الراية: عبد الله بن حكيم..

خسائر الأرواح (القتلى)

اليعقوبي (نيف وثلاثون ألفا) (ج ٢/١٨٣)

الشيخ المفيد (٢٥٠٠٠) بحيث (٥٠٠٠) من جيش الحق و(٢٠٠٠٠) من

الناكثين فيؤكد رواية العقد الفريد الناضرة لجيش البصرة فقط.

العقد الفريد (٢٠٠٠) (٣/٣٢٤). وتؤيدها رواية أم أفعى العبدية التي دخلت إلى عائشة بعد الجمل فقالت: يا أم المؤمنين، ما تقولين في امرأة قتلت ابناً لها صغيراً؟ قالت: وجبت لها النار.. قالت: فما تقولين في امرأة قتلت من أولادها الأكابر عشرين ألفاً؟ قالت: خذوا بيد عدوة الله.. (العقد الفريد ٣/٣٢٨، عيون الأخبار لابن قتيبة: ١/٢٠٢)

ويذكر ابن الزبير (١٥٠٠) بحيث (٥٠٠٠) إلى (١٠٠٠)..
 مروج الذهب (١٣٠٠) (٢/٣٦٠).

تاريخ الطبري (١٠٠٠) (٤/٥٣٩). وأعتقد أن هذه الرواية تعتمد على ما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام عن أصحاب الجمل: وقد - والله - علمت أنها الراكبة الجمل (الذي حذرهما رسول الله ﷺ من ركوبه) لا تحل عقدة، ولا تسير عقبة، ولا تنزل منزلاً إلا إلى معصية؛ حتى تورد نفسها ومن معها مورداً يقتل ثلثهم، ويهرب ثلثهم، ويرجع ثلثهم.^(١)

وصل الإمام علي عليه السلام إلى البصرة قبل جيشه في صباح يوم ١٥/ جمادى الآخرة من سنة ٣٦/ للهجرة.. وكانت المعركة بعد خمسة أشهر فقط من البيعة العلوية الشريفة.. وفي اليوم الثالث لوصول أمير المؤمنين عليه السلام للزابوقة..

كان الجو عاصفاً شديداً الرياح، والجو خريفاً قريباً من الشتاء، والطقس يميل إلى البرودة لا سيما في الليل..

والإستطلاع الشخصي هي من أهم الخطوات التي تجب عليه، وعلى القائد القيام بها شخصياً أو بمن يثق به وذلك قبل إتخاذ القرار النهائي للمعركة يلقي نظرة فاحصة لساحة المعركة وما حولها..

وبعد هذه الإجراءات كافة يبقى الأهم بالنسبة للقائد.. ألا وهو القرار..
أي قرار المعركة وكان يعبر عنه قديما بالخطب الحماسية التي يلقيها
القائد العام للجيش ويعطي في نهايتها الإذن بالبراز الفردي الذي كان
عرف الحروب القديمة..

وأما أمر القتال حاليا فإنه يجب أن يشمل عددا من النقاط كذلك وهو
ورقة العمل الأساسية للعسكر جميعا..

١.٢. وصف جيش الحق

وقد ذكر المسعودي المؤرخ في مسير ووصف جيش الحق بقيادة
الإمام علي عليه السلام ما صورته ما كتالي، قال: أخبرنا المنذر بن الجارود
العبدي قال: لما قدم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام البصرة دخل مما
يلي الطف فجاء إلى الراوية فخرجنا ننظر..

فمرّ بنا فارس على فرس أشهب عليه ثياب بيض وقلنسوة بيضاء
متقلدا سيفاً وبيده راية في ألف من الناس، فقلنا: من هذا؟ ف قيل: هذا أبو
أيوب الأنصاري صاحب منزل رسول الله ﷺ..

ثم مر بنا فارس على فرس أشقر عليه عمامة صفراء و ثياب بيض
متقلدا سيفاً متنكباً قوساً في ألف من الناس، فقلنا: من هذا؟ قيل: خزيمة
بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين..

ثم مر فارس آخر على فرس كميت متعمماً بعمامة صفراء من تحتها
قلنسوة بيضاء وعليه قباء أبيض مصقول متقلدا سيفاً متنكباً قوساً في
ألف، قلنا: من هذا؟ قيل: أبو قتادة الأنصاري..

ثم مر بنا فارس آخر على فرس اشقر عليه ثياب بياض وعمامة
سوداء قد أسدلها بين يديه ومن خلفه شديدة الأدمة متقلدا سيفاً متنكباً

قوسا في ألف من الناس ، قلنا: من هذا؟ قيل: عمار بن ياسر..

ثم مر بنا فارس على فرس اشقر عليه ثياب بياض وقلنسوة بيضاء وعمامة صفراء متنكبا قوسا يخط الأرض برجليه سناط في ألف من الناس ، قلنا: من هذا؟ قيل: قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري.

ثم مر بنا فارس على فرس اشقر ما رأينا أحسن منه وجها عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد أسبلها بين يديه ومن خلفه بيده لواء ، قلنا: من هذا؟ قيل: عبد الله بن عباس..

ثم مر بنا فارس أشبه الناس به عليه مثل لباسه فقلنا: من هذا؟ قيل: قثم بن العباس..

ثم أقبلت الرايات وأقبل فارس يشبههما فقلنا: من هذا؟ فقيل: معبد بن العباس.

ثم أقبلت كتيبة عليهم الدروع متعممين بعمائم بيض شاكين في السلاح يقدمهم رجل كأنه كبيرهم خير نظره في الأرض أكثر من نظره إلى السماء كأنما على رؤوسهم الطير وعن يمينه شاب حسن الوجه وعن شماله شاب حسن الوجه وبين يديه شاب بيده راية عظمت وخلفه شاب في عدة شباب معهم قلنا: من هؤلاء؟ فقالوا: أما هذا فعلى بن أبى طالب وهذا الحسن والحسين (عليهم سلام الله) عن يمينه ويساره وهذا محمد بن الحنفية بين يديه ومعه الراية وهذا خلفه عبد الله بن جعفر وهؤلاء ولد عقيل معه وهؤلاء المشايخ فهم أهل بدر فجاء حتى ترك الراية فصلى أربع ركعات ثم رفع يديه ثم قال: اللهم رب السماوات وما أظلت ورب الأرضين وما أقلت ورب البحار وما جرت ورب الرياح وما درت ورب الشياطين وما أضلت هذه البصرة أسألك من خيرك الذي فيها وأعوذ بك

من الشر الذي فيها، اللهم إن هؤلاء القوم قد بغوا علينا وخلعوا طاعتي ونكثوا بيعتي فاقبل بقلوبهم واحقن دماء المسلمين فإن أبوا فانصرني عليهم^(١).

المدة: وهناك روايتان لمدة الحرب فقد ذهب معظم المؤرخون إلى أنها قضيت بيوم واحد، أو بجزء يوم (أربع ساعات بعد الزوال فقط)، ولكن عز الدين بن أبي الحديد ينقل عن أبي مخنف وكتابه المصنف خصيصا عن معركة الجمل، أن المعركة دامت ثلاثة أيام منذ الفجر وحتى المغرب..ولكن كتب التاريخ الأخرى فإنها تعول على الطبري الذي يقول بأنها دامت يوم وليلة.. فالأمر مشتبه شيئا ما إلا أن المؤكد أنها كانت معركة حاسمة وجريئة وسريعة قلّ نظيرها..

ونأخذ الخطوط العامة التي اتفق عليها المؤرخون لنعطي صورة شبه حقيقية لمجريات المعركة..فيروى أن أمير المؤمنين عليه السلام بعد أن نزل في الزابوقة (ساحة المعركة) راح بالمراسلة والتفاوض للقوم أملا منه بحقن الدماء رغم يقينه بالعكس، وأنهم مستحقون القود بمن قتلوا من أهل البصرة والسبابة.. فأرسل إليهم وجوه البصرة أولا، ثم وجوه الصحابة وكبارهم ثانيا، ثم بعث حبر الأمة عبد الله بن العباس ليحاور القوم ويقيم عليهم الحجة بعد الحجة القائمة عليهم من أنفسهم..

ولما أعيوه بتجبرهم، وضاق صدره بغرورهم خرج إليهم بنفسه الشريفة وحاسرا دون سلاح فأقام الحجة عليهم جميعا، وإليك بعض تلك المراسلات والمناقشات التي سبقت المعركة لتعلم كم كان أمير المؤمنين عليه السلام حريصا على السلام والسلم مع أولئك هم حرصوا كل الحرص على القتال وسفك الدماء..

(١) شرح إحقاق الحق للسيد المرعشي: ج ٢٣/٣٢.

فأول وصوله للبصرة دعا عمران بن حصين وأبا الأسود الدؤلي فوجهما لطلحة والزبير فلم يرجعا إليه بجواب يحمده فأمر أصحابه أن لا يبدؤوهم ولا يرموهم بسهم ولا يطعنوهم برمح ولا يضربوا بسيف وقال: ليس بعد الدماء تقية فاصطفوا للقتال، فرموهم أولئك بالنشاب فقال علي عليه السلام: اعدروا إليهم.. فخرج علي عليه السلام بنفسه على بغلة رسول الله صلوات الله وسلاماته عليه حاسرا ليس عليه سلاح فنادى: يا زبير، اخرج إليّ، فخرج إليه الزبير وهو شاك في سلاحه فقبل لعائشة: إن الزبير قد خرج إليه، فقالت: واثكل أسماء! فاعتنق كل واحد منهما صاحبه وقال علي عليه السلام: ويحك يا زبير! ما أخرجك؟

قال: دم عثمان، قال: قتل الله أولانا بدم عثمان، أتذكر يوم لقيت رسول الله صلوات الله وسلاماته عليه وهو راكب حماره فضحك إلى رسول الله صلوات الله وسلاماته عليه فقلت أنت: ما يدع علي زهوه برسول الله، فقال: ليس به زهو أتجبه يا زبير؟ فقلت: الله وولي أحبه، فقال: أما إنك ستقاتله وأنت له ظالم،

فقال الزبير: أستغفر الله لو ذكرتها ما خرجت فكيف أرجع الآن وقد التفت خلفنا الأبطال هذا والله العار الذي لا يغسل، فقال علي: يا زبير، أرجع فالعار خير من النار قبل أن تجمع العار والنار، فرجع الزبير وهو يقول:

اخترت عارا على نار من حجة
إني بقوم لها خلق من الطين
نادى على بأمر لست أجهله
عار لعمرك في الدنيا وفي الدين

فقلت حسبك من عدل أبا حسن

فبعض هذا الذي قد قلت يكفيني^(١)

فقال له ابنه: أين تذهب وتدعنا؟ فقال: يا بني إن عليا ذكرني أمرا كنت له ناسيا قال: لا والله ولكنك فررت من سيف بني عبد المطلب إنها طوال حداد يحملها فتية أنجاد، قال: لا والله يا بني ذكرني ما أنسانيه الدهر فاخترت العار على النار.. أنا حين تعيرني لا أنا لك ثم قلع سناناه وشدّ في ميمنة علي عليه السلام فقال: افرجوا له فقد هاجه، ثم شدّ في الميسرة ثم رجع.. وشد في القلب ثم رجع إلى ابنه فقال: أيفعل هذا جبان؟! ثم مضى وكان من أمره ما كان..

ولما فشلت جميع محاولات أمير المؤمنين عليه السلام لتجنب القتال وأبى الناكثون إلا المواجهة، وفي ميدان القتال وقف الإمام علي عليه السلام في مواجهة الناكثين على أول طريق البغي الطويل.

كان الإمام يركب بغلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وروى البلاذري أنها بقيت إلى زمن معاوية وكان محمد بن الحنفية يرفع راية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السوداء والتي تعرف بالعقاب.

وروي أن الأم عائشة كانت على جمل يدعى عسكر اشتراه لها يعلى بن أمية. وكان الجمل لواء القوم ومقر قيادتهم وألبسوا هودج أمهم الأدرع ووضعوا عليه جلود البقر، وكان شعارهم المعروف (يا ثارات عثمان)..

وفي لحظات السكون وقبل بدء المعركة بأمر القتال من القيادة الحكيمة لجيش الحق خرج طلحة والزبير.

فخرج إليها الإمام علي عليه السلام حتى اختلفت أعناق دوابهم فقال

(١) الجمل لزامن بن شدقم: ص ١٣١ عن مروج الذهب: ٣٧٢/٢.

الإمام عليه السلام: لعمرى قد أعددتما سلاحا وخيلا ورجالا. فهلا أعددتما عذرا يوم القيامة فاتقيا الله. ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا. ألم أكن حاكما في دمكما. تحرمان دمي وأحرم دمكما فهل من حدث أحل لكم دمي؟

قال طلحة: ألبت الناس على عثمان.

فقال الإمام: ﴿يَوْمَذِيُوفِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ (النور: ٢٥).. يا طلحة، تطلب بدم عثمان! فلعن الله قاتل عثمان! يا طلحة أجئت بعرس رسول الله تقاتل بها وخبأت عرسك في البيت، أما بايعتني؟

قال: بايعتك والسيف على عنقي!!

ثم التفت الإمام عليه السلام إلى ابن عمته صفية، وقال: يا زبير ما أخرجك؟ قال: أنت! ولا أراك لهذا الأمر أهلا ولا أولى به مني!؟

فقال الإمام عليه السلام: أأست له أهلا بعد عثمان. قد كنا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا^(١).

لقد كان الزبير أكثر صراحة فعندما سأله الإمام عن سبب الخروج حدثه عن الحكم والكرسي ولم يحدثه عن عثمان ودمه المهدور بأيديهم..

وروي أن سيدنا عمارا دنا من موضع أم المؤمنين وقال: ماذا تدعين؟ قالت: الطلب بدم عثمان^(٢).

فقال: قاتل الله في هذا اليوم الباغي والطالب بغير الحق. ثم قال: أيها

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣/ ٢٤٠.

(٢) موسوعة الإمام علي عليه السلام للري شهري: ج ٥/ ٢٠٨ عن مجمع الزوائد: ج ٤/ ٤٧٩.

الناس إنكم لتعلمون أينما المماليء في قتل عثمان.

وما أن انتهى عمار حتى جاء في اتجاه أم المؤمنين فوارس أربعة.

فهتفت: فيهم رجل عرفته ابن أبي طالب ورب الكعبة، سلوه ما يريد؟

فقال لها أمير المؤمنين عليه السلام: أنشدك بالله الذي أنزل الكتاب على رسول الله ﷺ في بيتك.. أتعلمين أن رسول الله ﷺ جعلني وصيا على أهله وفي أهله؟ قالت: اللهم نعم. قال: فما لك؟ قالت: أطلب بدم أمير المؤمنين عثمان.. قال عليه السلام: أريني قتلة عثمان..

وبعد أن بيّن الإمام وصايته عليها ومسؤوليته عنها. سألها عن قتلة عثمان فقال: أريني قتلة عثمان، فإذا كانت قد جاءت بالقوات من أجل هذا فعلها إن كانت تعرفهم أن تدلّ الإمام عليهم كي تجري محاكمتهم وتحقق دماء المقاتلين، وإن كانت لا تعرفهم فما فائدة الحشد فلقد كان من الواجب أن تعطي للإمام فرصة ليجمع أطراف القضية.

هذا ولقد روى أن أم المؤمنين صفية قالت للنبي لما حضرته المنية: فإن حدث، حدث فألى من؟ قال: إلى علي بن أبي طالب عليه السلام..

وروي أنه لما سار أمير المؤمنين عليه السلام من ذي قار قدم صعصعة بن صوحان بكتاب من الإمام علي عليه السلام إلى طلحة والزبير وعائشة يعظم عليهم حرمة الإسلام ويخوفهم فيما صنعوه وقبيح ما ارتكبوه من قتل من قتلوا من المسلمين وما صنعوا بصاحب رسول الله ﷺ عثمان بن حنيف رضي الله عنه وقتلهم المسلمين صبرا ووعظهم ودعاهم إلى الطاعة..

قال صعصعة رضي الله عنه: فقدمت عليهم فبدأت بطلحة وأعطيته الكتاب وأدبت الرسالة فقال: الآن حين عصّت ابن أبي طالب الحرب ترفق لنا.. ثم جئت إلى الزبير فوجدته ألين من طلحة ثم جئت إلى عائشة فوجدتها

أسرع الناس إلى الشر فقالت: نعم قد خرجت للطلب بدم عثمان والله لأفعلن، وأفعلن.. فعدت إلى أمير المؤمنين عليه السلام فلقيته قبل أن يدخل البصرة فقال: ما وراءك يا صعصعة؟ قلت: يا أمير المؤمنين رأيت قوما ما يريدون إلا قتالك.. فقال: الله المستعان^(١).

ثم دعا عبد الله بن عباس فقال: انطلق إليهم فناشدهم وذكرهم العهد الذي لي في رقابهم.. قال ابن عباس: جئتهم فبدأت بطلحة فذكرته العهد فقال لي: يا ابن عباس والله لقد بايعت عليا واللعج (وهذا اسم سيف الأشر) على رقبتني..

فقلت له: أنا رأيتك بايعت طايعا أولم يقل لك علي قبل بيعتك له: إن أحببت أبايعك فقلت: لا بل نحن نبايعك؟ فقال طلحة: إنما قال لي ذلك وقد بايعه قوم فلم أستطع خلافهم والله يا ابن عباس إن القوم الذين معه يغرونه وقد لقيناه فسيسلمونه أما عملت يا ابن عباس إنني جئت إليه والزبير ولنا من الصحبة ما لنا مع رسول الله، والقدم في الإسلام وقد أحاط به الناس قياما على رأسه بالسيف فقال لنا: يهزل إن أحببتما بايعت لكما فلو قلنا نعم افتراه يفعل؟ وقد بايع الناس له فليخلع نفسه ويبايعنا لا والله ما كان يفعل وحتى أن يغري بنا من لا يرى لنا حرمة فبايعناه كارهين وقد جئنا نطلب بدم عثمان فقل لابن عمك إن كان يريد حقن الدماء وإصلاح أمر الأمة فليمكننا من قتلة عثمان فهم معه ويخلع نفسه ويرد الأمر ليكون شورى بين المسلمين فيولوا من شأؤوا فإنما علي عليه السلام رجل كأحدنا وإن أبى أعطيناه السيف فما له عندنا غير هذا.

قال ابن عباس: يا أبا محمد لست تنصف ألم تعلم أنك حصرت عثمان حتى مكث عشرة أيام يشرب ماء بئره وتمنعه من شرب الماء حتى

(١) الجمل للشيخ المفيد: ص ١٦٧.

كلمك علي في أن تخلي الماء له وأنت تأبى ذلك ولما رأى أهل مصر فعلك وأنت صاحب رسول الله ﷺ دخلوا عليه بسلاحهم فقتلوه ثم بايع الناس رجلا له من السابقة والفضل والقراة برسول الله ﷺ والبلاء العظيم ما لا يدفع وجئت أنت وصاحبك طائعين غير مكرهين حتى بايعتما ثم نكثتما فعجب والله إقرارك لأبي بكر وعمر وعثمان بالبيعة ووثوبك على ابن أبي طالب..

فوالله ما علي ﷺ دون أحد منكم؛ وأما قولك يمكنني من قتلة عثمان فما يخفي عليك من قتل عثمان؛ وأما قولك إن أبي علي ﷺ فالسيف فوالله إنك تعلم أن عليا لا يتخوف.
فقال طلحة: إيها الآن دعنا من جدالك.

قال فخرجت إلى علي ﷺ وقد دخل البيوت بالبصرة فقال: ما ورائك فأخبرته الخبر، فقال: اللهم افتح بيننا بالحق وأنت خير الفاتحين ثم قال: ارجع إلى عائشة واذكر لها خروجها من بيت رسول الله ﷺ وخوفها من الخلاف على الله عز وجل ونبذها عهد النبي ﷺ وقل لها: إن هذه الأمور لا تصلحها النساء وإنك لم تؤمري بذلك فلم ترضى بالخروج عن أمر الله في تبرجك وبيتك الذي أمرك النبي بالمقام فيه حتى سرت إلى البصرة فقتلت المسلمين وعمدت إلى عمالي فأخرجتهم وفتحت بيت المال وأمرت بالتنكيل بالمسلمين وأبحت دماء الصالحين فارعي وراقبي الله عز وجل فقد تعلمين أنك كنت أشد الناس على عثمان فما عدا مما بدا.

قال ابن عباس: فلما جئتها وأديت الرسالة إليها وقرأت كتاب علي ﷺ عليها. قالت: يا ابن عباس ابن عمك يرى أنه قد تملك البلاد لا والله ما بيده منها شيء إلا وبيدنا أكثر منه. فقلت: يا أماه إن أمير

المؤمنين عليه السلام له فضل وسابقة في الإسلام وعظيم عناء.

قالت: ألا تذكر طلحة وعناءه يوم أحد؟ قال فقلت لها: والله ما نعلم أحدا أعظم عناء من علي عليه السلام. قالت: أنت تقول هذا ومع علي أشياء كثيرة.. قلت: الله، الله في دماء المسلمين..

قالت: وأي دم يكون المسلمين إلا أن يكون علي يقتل نفسه ومن معه.. قال ابن عباس: فتبسمت فقالت: مما تضحك يا ابن عباس؟ فقلت: والله معه قوم على بصيرة من أمرهم يبذلون مهجهم دونه قالت: حسبنا الله ونعم الوكيل.

قال: وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام أوصاني أن ألقى الزبير وإن قدرت أن أكلمه وابنه ليس بحاضر فجئت مرة أو مرتين كل ذلك أجده عنده ثم جئت مرة أخرى فلم أجده عنده فدخلت عليه وأمر الزبير مولاه شرحسا أن يجلس على الباب ويحبس عنا الناس فجعلت أكلمه فقال: عصيتم إن خولفتكم والله لتعلمن عاقبة ابن عمك، فعلمت أن الرجل مغضب فجعلت ألاينه فيلين مرة ويشتد أخرى. فلما سمع شرحسا ذلك أنفذ إلى عبد الله بن الزبير وكان عند طلحة فدعاه فأقبل سريعا حتى دخل علينا.

فقال: يا ابن عباس دع بنيات الطريق بيننا وبينكم عهد خليفة ودم خليفة وانفراد واحد واجتماع ثلاثة وأم مبرورة ومشاورة العامة. فأمسكت ساعة لا أكلمه ثم قلت: لو أردت أن أقول لقلت..

فقال ابن الزبير: ولم تؤخر ذلك؟ وقد لحم الأمر وبلغ السيل الزبى.. قال ابن عباس فقلت: أما قولك عهد خليفة فإن عمر جعل الشورى إلى ستة نفر فجعل نفر أمرهم إلى رجل منهم يختار لهم منهم ويخرج نفسه منها فعرض الأمر على علي فحلف عثمان وأبى علي أن يحلف فبويع

عثمان فهذا عهد خليفة وأما دم خليفة فدمه عند أبيك لا يخرج أبوك من خصلتين أما قتل وأما خذل وأما الانفراد واجتماع ثلاثة فإن الناس لما قتلوا عثمان فزعوا إلى علي فبايعوه طوعا وتركوا أباك وصاحبه ولم يرضوا بواحد منهما وأما قولك إن معكم أما مبرورة فإن هذه الأم أنتمأ أخرجتها من بيتها وقد أمرها الله تعالى أن تقرر فيه فأبيت أن تدعها وقد علمت أنت وأبوك أن النبي ﷺ حذرهما من الخروج، وقال لها: يا حميرا إياك أن تنبحك كلاب الحوآب وكان منها ما قد رأيت وأما دعواك مشاورة العامة فكيف يشاور فيمن قد اجتمع عليه وأنت تعلم أن أباك وطلحة بايعا طائعين غير كارهين..

فقال ابن الزبير: الباطل والله ما تقول يا ابن عباس وقد سئل عبد الرحمن بن عوف عن أصحاب الشورى فكان صاحبكم أخيههم عنده وما أدخله عمر في الشورى إلا وهو يقرفه ولكنه خاف فتقه في الإسلام وأما قتل خليفة فصاحبك كتب إلى الآفاق حتى قدموا عليه ثم قتلوه وهو في داره بلسانه ويده وأنا معه في الدار أقاتل دونه حتى جرحت بضعة عشر جرحا وأما قولك إن عليا بايعه الناس طائعين؛ فوالله ما بايعوه إلا كارهين والسيف على رقابهم غضبهم أمره..

فقال الزبير: دع عنك ما ترى يا ابن عباس جئنا لتوفينا..

فقال له ابن عباس: أنتم طلبتم هذا والله ما عددناك قط إلا منا بنو هاشم لأنهم أحوالك ومحبتك لهم حتى إدراك ابنك هذا فقطع أرحامهم.. فقال الزبير: دع عنك هذا^(١)..

(١) الجمل للشيخ المفيد : ص ١٧١.

٢.٢. الإمام علي عليه السلام ينظم الجيش

ولما عاد رسل أمير المؤمنين من طلحة والزبير وعائشة بإصرارهم على خلافه وإقامتهم على نكث بيعته والمباينة له والعمل على حربه واستحلال دماء شيعته وأنهم لا يتعظون بوعظ ولا ينتهون عن الفساد بوعيد

كَتَبَ الكَتَائِبَ، وَرَتَّبَ العَسَاكِرَ واستعمل:

على مقدمته عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ..

وعلى ساقته هند المرادي ثم الجملي وهو الذي قال فيه عمر بن الخطاب: سيد أهل الكوفة اسمه اسم امرأة.

واستعمل على كافة الخيل عمار بن ياسر..

وعلى جميع الرجالة محمد بن أبي بكر..

وفَرَّقَ الرايات من بعده فجعل:

على خيل مذحج خاصة هند الجملي..

وعلى رجالتها شريح بن هاني الحارثي..

وعلى خيل همدان سعيد بن قيس..

وعلى رجالتها زياد ابن كعب بن مرة..

وعلى خيل كندة حجر بن عدي..

وعلى خيل بجيلة ورجالتها رفاعه بن شداد..

وعلى خيل قضاة ورجالتها عدي بن حاتم..

وعلى خيل خزاعة وأفناء اليمن عبد الله بن زيد..

وعلى رجالتها عمرو بن الحمق الخزاعي..

وعلى خيل الأزد جندب بن زهير..

وعلى رجالتها أبا زينب الذي شهد على الوليد بن عقبة بشرب
الخمير وكان سبب صرفه وأقام الحد عليه..

وعلى خيل بكر بن وائل عبد الله بن هاشم السدوسي..

وعلى رجالتها حسان بن مخدوع الذهلي..

وعلى خيل عبد القيس من أهل الكوفة زيد بن صوحان العبدي

وعلى رجالتها الحرث بن مرة العبدي..

وعلى خيل بكر بن وائل من أهل البصرة سفيان بن ثور الدوسي..

وعلى رجالتها الحصين بن المنذر وهو الذي قال فيه أمير
المؤمنين عليه السلام يوم صفين:

لمن راية سوداء يخفق ظلها

إذا قيل قدمها حصين تقدما

وعلى المهازم خاصة جوهر بن جابر الخفري..

وعلى الذهليين خالد بن المعمر السدوسي..

وعلى خيل عبد القيس من أهل البصرة المنذر بن الجارود العبدي..

وعلى خيل أسد قبيصة بن جابر الأسدي..

وعلى رجالتها العكبر بن وائل الأسدي وهو الذي قتل محمد بن
طلحة في ذلك اليوم..

وعلى خيول أهل الكوفة من بني تميم عمير بن عطار..

وعلى رجالتها معقل بن قيس وهو الذي سبى بني ناجية..

وعلى خيل قيس غيلان من أهل الكوفة عبد الله بن الطفيل البكالي..

وعلى رجالتها قرة بن نوفل الأشجعي صاحب النخيلة..

وعلى خيل قريش وكنانة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص المرقال..

وعلى رجالتها هاشم بن هاشم..

وعلى من صار إليه من تميم البصرة جارية بن قدامة السعدي

وعلى رجالتها أعين بن ضبيعة فأحاط العسكر يومئذ من الفرسان

المعروفين والرجالة المشهورين على/١٦٠٠٠/ ستة عشر ألف رجل.

ولما بلغ طلحة والزبير أن أمير المؤمنين عليه السلام كتب الكتاب

ورتب العساكر وتيقنوا منه الجدد وأيقنوا منه القصد والحرب عمدا على

الاستعداد لها وكان أهل البصرة قد اختلفوا عليهما وقعد الأحنف في بني

سعد (حيث عسكر بوادي السباع) وكانا يظنان أنه معهم فأخلف ظنهم

وتأخر عنهما الأزد لقعود كعب بن شور القاضي عنهما وكان سيد الأزد

وأهل اليمن بالبصرة فأنفذ إليه رسوليها يسألانه النصر لهما والقتال

معهما فأبى عليهما وقال: أنا أعتزل الفريقين..

فقالا: لئن قعد عنا كعب خذلتنا الأزد بأسرها ولا غنى لنا عنه فصارا

إليه واستأذنا عليه فلم يأذن لهما وحجبهما فصارا إلى عائشة فخبراها

خبره وسألها أن تسير إليه فأبت وراسلته تدعوه إلى الحضور عندها

فاستعفاها من ذلك.

فقال طلحة والزبير: يا أم إن قعد عنا كعب قعدت عنا الأزد كلها

وهي حي البصرة فاركبي إليه فإنك إن فعلت لم يخالفك وانقاد لرأيك

فركبت بغلا وأحاط بها نفر من أهل البصرة وصارت إلى كعب بن شور
 فاستأذنت عليه فأذن لها ورَحَّبَ بها فقالت: يا بني أرسلت إليك لتنصر
 الله عَزَّوَجَلَّ فما الذي أخركَ عني؟

فقال: يا أماء لا حاجة لي في خوض هذه الفتنة.. فقالت: يا بني اخرج
 معي وخذ بخطام جملي فإني أرجو أن يقربك بي إلى الجنة واستعبرت
 باكية.. فرق لها كعب بن شور وأجابها وعلق المصحف في عنقه وخرج
 معها فلما خرج والمصحف في عنقه قال غلام من بني وهب وقد كان
 عرف امتناعه وتأنيه عن خوض هذه الفتنة يقول:

أيا كعب رأيك ذاك الجزيل
 أمثل من رأيك الخاطل
 أتاك الزبير يدير الأمور
 وطلحة بالنقل الشاكل
 ليستدرجك بما زخرفا
 وأمك تهوي إلى نازل
 وقد كانت الأم معصومة
 فأضحت فرائس للأكل
 تخط بها الأرض مرحولها
 ترد الجواب على السائل
 فألفيتها بين حي السباع
 وعرضتها للشجى الشاكل
 بحرب علي وأصحابه
 فقد أزم الدهر بالكاهل

فأبديت للقوم ما في الضمير
 وقلت لهم قولة الخاذل
 فأخطأهما منك ما أملاه
 وقد أخلفا أمل الآمل
 وما لك في مصر من نسبة
 وما لك في الحي من وائل
 فلا تجزعن على هالك
 من القوم حاف ومن ناعل^(١)
 ولما نهض كعب بن شور مع عائشة في الأزد اجتمع رأي طلحة
 والزبير على تكتيب الكتائب واستقر الأمر معهما:
 على أن الزبير أمير العسكر خاصة ومديره..
 وطلحة في القلب..
 واللواء مع عبد الله بن حزام بن خويلد..
 وكعب بن شور مع الأزد..
 وعلى خيل الميمنة مروان بن الحكم..
 وعلى رجاله الميمنة عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد..
 وعلى خيل الميسرة وهم بنو تميم وسائر قبائل قضاة وهوازن هلال
 بن وكيع الدارمي الذي خرج عن رأي الأحنف
 وعلى رجاله الميسرة عبد الرحمن بن الحرث بن هشام وقد ضم إليه
 الحباب يزيد..

(١) (في تاريخ الطبري (ج ٥ - ص ٢١٣) ذكره بالسين)

وعلى خيل قيس عيلان مجاشع بن مسعود..

وعلى رجالتهم جابر بن النعمان الباهلي..

وعلى خيل الرباب عمرو بن يثربي..

وعلى رجالتهم خرشنة بن عمرو العتيبي..

وعلى من انحاز إليهم من ثقيف عبد الله بن عامر بن كريز..

وعلى أفناء أهل المدينة عبد الله بن خلف الخزاعي..

وعلى رجالة مذحج الربيع بن زياد الحارثي..

وعلى رجالة قضاة عبد الله بن جابر الراسبي..

وعلى من انحاز إليهم من ربيعة مالك بن مسمع.(هو مالك بن مسمع

بن سيار بن جحدر من آل بكر بن وائل وفد أبوه مسمع على النبي ﷺ وأسلم ثم ارتد وقتل بالبحرين قصاصا عن كلب قتله لقوم من عبد القيس كما في حياة الحيوان للجاحظ^(١)).

ولما تقرر أمر الكتائب في الفريقين فخرج كل فريق بقومه وقام خطبائهم بالتحريض على القتال.

٣.٢. خطبة عبد الله بن الزبير:

فقام عبد الله بن الزبير في معسكرهم فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس إن هذا الرّعث والوعث (يعني أمير المؤمنين ﷺ) قتل عثمان بالمدينة ثم جاءكم ينشر أموركم بالبصرة وقد غضب الناس أنفسهم ألا

(١) (ج ١ - ص ١٣٠) وفي معارف ابن قتيبة ص ١٨٤ إذا غضب مالك غضب معه مائة ألف سيف وفي الطبري (ج ٧ - ص ١٦٨) كان عثماني العقيدة خرج إلى معاوية بعد قتل عثمان وفي ابن الأثير (ج ٤ ص ١١٢) كان معه يوم صفين

تنصرون خليفتم المظلوم ألا تمنعون حريمكم المباح ألا تتقون الله في عطيتكم من أنفسكم أترضون أن يتوردكم أهل الكوفة في بلادكم اغضبوا فقد غوضبتم وقاتلوا فقد قوتلتم إن عليا لا يرى أن معه في هذا الأمر أحد سواه والله لئن ظفر بكم ليهلكن دينكم ودنياكم. وأكثر من نحو هذا القول وشبهه^(١).

٤.٢. خطبة الإمام الحسن السبط عليه السلام

فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليه السلام وقال لولده الحسن عليه السلام قم يا بني فاخطب.. فقام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس قد بلغتنا مقالة ابن الزبير وقد كان والله يتجنى على عثمان الذنوب وقد ضيق عليه البلاد حتى قتل وإن طلحة راکز رايته على بيت ماله وهو حي وأما قوله إن عليا ابتز الناس أمرهم فإن أعظم حجة لأبيه زعم أنه بايعه بيده ولم يبايعه بقلبه فقد أقر بالبيعة وادعى الوليعة فليأتي على ما ادعاه ببرهان وأنى له ذلك وأما تعجبه من تورد أهل الكوفة على أهل البصرة فما عجبه من أهل حق توردوا على أهل باطل ولعمري والله ليعلمن أهل البصرة وميعاد ما بيننا وبينهم اليوم نحاكمهم إلى الله تعالى فيقضي الله الحق وهو خير الفاصلين^(٢).

فلما فرغ الإمام الحسن عليه السلام من كلامه قام رجل يقال له عمر بن محمود وأنشد شعرا يمدح الإمام الحسن عليه السلام..^(٣)

(١) الجمل للشيخ المفيد : ص ١٧٥.

(٢) ن. م.

(٣) (ذكر الشعر ابن أبي الحديد في شرح النهج (ج ١ ص ٤٩)

٥.٢. خطبة طلحة

قال فلما بلغ طلحة والزبير خطبة الإمام الحسن عليه السلام ومدح المادح له قام طلحة خطيباً في أصحابه وقال: يا أهل البصرة قد ساق الله إليكم خير ما ساقه إلى قوم قط؛ أمكم وحرمة نبيكم وحواري رسول الله وابن عمته ومن وقاه بيده، إن علياً غصب الناس أنفسهم بالحجاز وتهيأ للشام يريد سفك دماء المسلمين والتغلب على بلادهم فلما بلغه مسيرنا إليكم وقصدنا قصدكم وقد اجتمع معه منافقوا مضر وأنصار ربيعة ورجالة اليمن فإذا رأيتم القوم فاقصدوا قصدهم ولا ترعوا عنهم وتقولوا ابن عم رسول الله وهذه معكم زوجة الرسول وأحب الناس إليه وابنة الصديق الذي كان أحب الخلق إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقام إلى طلحة رجل يقال له: خيران بن عبد الله من أهل الحجاز كان قدم البصرة وهو غلام فقال: يا طلحة والله ما تركت جنبا صحيحا عليه بشتكم ربيعة ومضر واليمن وإن كان القول كما تقول فإننا لمثلهم وهم منا ونحن منهم وما يفرق بيننا وبينهم غيرك وغير صاحبك ولقد سبقت إلينا من علي عليه السلام بيعة ما ينبغي لنا أن ننقضها وإننا لنعلم حالكم اليوم وحالكم أمس.

فهزم القوم به (أي أرادوا قتله) فمنعهم بنو أسد فخرج منهم ولحق بمنزل ابن صهبان مستخفيا إشفاقا على دمه منهم.

وقام الأسود بن عوف لما سمع طلحة يشتم الأحياء من ربيعة ومضر واليمن..

فقال: يا هذا إن الله لا يفرق بيننا وبين مضر وإن أهل الكوفة منا كمن شهد الأخ إلى الأخ وإنما خلفنا القوم في هوان فاعفنا مما ترى. ثم خرج

فلحق بعمان ولم يشهد الجمل ولا صفين^(١).

٦.٢. خطبة أمير المؤمنين عليه السلام

وبلغ أمير المؤمنين عليه السلام لخط القوم واجتماعهم على حربه فقام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ثم قال: أيها الناس إن طلحة والزبير قدما البصرة وقد اجتمع أهلها على طاعة الله وبيعتي فدعواهم إلى معصية الله تعالى وخلافي فمن أطاعهما منهم فتنوه ومن عصاهما قتلوه وقد كان من قتلها حكيم بن جبلة ما بلغكم وقتلهم السبابجة وفعلهما بعثمان بن حنيف ما لم يخف عليكم وقد كشفوا الآن القناع وأذنوا بالحرب وقام طلحة بالشم والقبح في أديانكم وقد أرعد وصاحبه وأبرقا وهذان امران معهما الفشل ولسنا نريد منكم أن تلقوهم ليظنوا ما في نفوسكم عليهم ولا ترون ما في أنفسكم لنا ولسنا نرعد حتى نوقع ولا نسيل حتى نمطر وقد خرجوا من هدى إلى ضلال ودعوناكم إلى الرضا ودعونا إلى السخط فحل لنا ولكم ردهم إلى الحق والقتال وحل لهم بقصاصهم القتل وقد والله مشوا إليكم ضرارا وأذاقوكم أمس من الجمر فإذا لقيتم القوم غدا فاعذروني الدعاء وأحسنوا في التقية واستعينوا بالله واصبروا إن الله مع الصابرين.

فقام إليه حكيم بن مناف حتى وقف بين يديه وقال:

أبا حسن أيقظت من كان نائماً

وما كل من يدعى إلى الحق يسمع

وما كل من يعطى الرضا يقبل الرضا

وما كان من أعطيته الحق يقنع

(١) الجمل للشيخ المفيد: ص ١٧٧.

وأنت امرء أعطيت من كل وجهة
محاسنها والله يعطي ويمنع
وما منك بالأمر المؤلم غلطة
وما فيك للمرء المخالف مطمع
وإن رجالا بايعوك وخالفوا
هداك وأجروا في الضلال فضيعوا
لأهل لتجريد الصوارم فيهم
وسمر العوالي والقنا تنزعزع
فإني لأرجو أن تدور عليهم
رحى الموت حتى يسكنوا ويصرعوا
وطلحة فيها والزبير قرينه
وليس لما لا يدفع الله مدفع
فإن يمضيا فالحرب أضيق حلقة
وإن يرجعا عن تلك فالسلم أوسع
وما بايعوه كارهين لبيعة
وما بسطت منهم إلى الكره إصبع
ولا بطيا عنها فراقا ولا بدا
لهم أحد بعد الذين تجمعوا
على نقضها ممن له شد عقدها
فقصراهما منه أصابع أربع
خروج بأم المؤمنين وغدرهم
وعيب على من كان في القلب أشجع

وذكرهم قتل ابن عفان خدعة
وهم قتلوه والمخادع يخدع
فعود علي نبعة هاشمية
وعودهما فيما هما فيه (خروج)^(١)

ثم نادى أمير المؤمنين علي عليه السلام الزبير: يا أبا عبد الله، اخرج إليّ.
فقال له أصحابه: يا أمير المؤمنين، تخرج إلى الزبير الناكث
بيعته وهو على فرس شاك في السلاح وأنت على بغلة بلا سلاح؟ فقال
علي عليه السلام: إن عليّ من الله جنة واقية؛ لن يستطيع أحد فراراً من أجله؛
وإني لا أموت ولا أقتل إلا على يدي أشقاها كما عقر ناقة الله أشقى
ثمود.

فخرج إليه الزبير.. فقال عليه السلام: أين طلحة؟ ليخرج. فخرج طلحة.
فقال عليه السلام: نشدتكما بالله، أتعلمان وأولوا العلم من آل محمد
وعائشة بنت أبي بكر (أن أصحاب الجمل وأهل النهروان ملعونون على
لسان محمد صلوات الله عليه وآله وقد خاب من افترى؟

فقال الزبير: كيف نكون ملعونين ونحن من أهل الجنة؟
فقال علي عليه السلام: لو علمت أنكم من أهل الجنة لما استحللت
قتالكم.

فقال الزبير: أوما سمعت حديث سعيد بن عمرو بن نفيل وهو يروي
أنه سمع رسول الله صلوات الله عليه وآله يقول: (عشرة من قريش في الجنة).؟
قال علي عليه السلام: سمعته يحدث بذلك عثمان في خلافته.

(١) الجمل للشيخ المفيد: ص ١٧٨.

ثم قال علي عليه السلام: لست أخبرك بشئ حتى تسميهم فسمهم.
قال: فلان وفلان وفلان، حتى عدت تسعة، فيهم أبو عبيدة بن الجراح
وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل.

فقال علي عليه السلام: عددت تسعة، فمن العاشر؟
قال الزبير: أنت..

فقال علي عليه السلام: أما أنت فقد أقررت أنني من أهل الجنة، وأما ما
ادعيت لنفسك وأصحابك فإني به لمن الجاحدين.. والله إن بعض من
سميت لفي تابوت في جب في أسفل درك من جهنم، على ذلك الجب
صخرة إذا أراد الله أن يسر جهنم رفع تلك الصخرة فأسعرت جهنم.
سمعت ذلك من رسول الله صلوات الله عليه وآله، وإلا فأظفرك الله بي وسفك دمي بيدك،
وإلا فأظفرك الله بك وبأصحابك.. فرجع الزبير إلى أصحابه وهو يبكي..

ثم أقبل على طلحة، فقال: يا طلحة، معكما نسائكما؟ قال: لا.
قال: عمدتما إلى امرأة موضعها في كتاب الله القعود في بيتها فأبرزتماها
وصنتما حلائلكما في الخيام والحجال؟ ما أنصفتما رسول الله صلوات الله عليه وآله من
أنفسكما حيث أجلستما نسائكما في البيوت وأخرجتما زوجة رسول
الله صلوات الله عليه وآله وقد أمر الله أن لا يكلمن إلا من وراء حجاب.

أخبرني عن صلاة عبد الله بن الزبير بكما، أما يرضى أحدكما
بصاحبه؟ أخبرني عن دعائكما الأعراب إلى قتالي، ما يحملكما على
ذلك؟

فقال طلحة: يا هذا، كنا في الشورى ستة مات منا واحد وقتل آخر،
فنحن اليوم أربعة كلنا لك كاره.

فقال له علي عليه السلام: ليس ذلك عليّ، قد كنا في الشورى والأمر في يد غيرنا وهو اليوم في يدي.. أرأيت لو أردتُ - بعد ما بايعتُ عثمان - أن أردّ هذا الأمر شورى، أكان ذلك لي؟

قال: لا. قال عليه السلام: ولم؟ قال: لأنك بايعت طائعا.

فقال علي عليه السلام: وكيف ذلك، والأنصار معهم السيوف مخترطة يقولون: (لئن فرغتم وبايعتم واحدا منكم، وإلا ضربنا أعناقكم أجمعين) فهل قال لك ولأصحابك أحد شيئا من هذا حيث بايعتماني؟ وحجتي في الاستكراه في البيعة أوضح من حجتك وقد بايعتني أنت وصاحبك طائعين غير مكرهين، وكنتما أول من فعل ذلك، ولم يقل أحد: لتبايعان أو لنقتلنكما! فانصرف طلحة ونشب القتال^(١).

٧.٢. أمر القتال

نعم؛ دعاهم الإمام علي عليه السلام إلى ما فيه الصلاح من الكف عن الدماء والرجوع إلى الطاعة فأبوا إلا القتال، ولا بد للقائد الناجح من أن يعطي تعليمات القتال لعناصره يوضح لهم فيها عدوهم وما يريد من حربهم، وما يريدون هم أنفسهم من تلك المعركة، وأنجح السبل للوصول إلى النصر المؤزر بأقصر وقت وأقل الخسائر..

٨.٢. توجيهات القتال

ولقد حذرهم أمير المؤمنين عليه السلام أنظرهم وأنذرهم ثلاثة أيام ليكفوا ويرعوا فلما علم إصرارهم على الخلاف قام في أصحابه وقال:

عباد الله انهذوا(انهضوا) إلى هؤلاء القوم منشرحة صدوركم فإنهم

(١) سليم بن قيس: ص ٣٢٩.

نكثوا بيعتي وقتلوا شيعتي ونكلوا بعاملي وأخرجوه من البصرة بعد أن آلموه بالضرب المبرح والعقوبة الشديدة وهو شيخ من وجوه الأنصار والفضلاء ولم يرعوا له حرمة وقتلوا السبابة رجالا صالحين وقتلوا حكيم بن جبلة ظلما وعدوانا لغضبه الله تعالى ثم تتبعوا شيعتي بعد أن ضربوهم وأخذوهم في كل عايبة وتحت كل رابية يضربون أعناقهم صبرا..

ما لهم قاتلهم الله أنى يؤفكون فانهضوا إليهم عباد الله وكونوا أسودا عليهم فإنهم شرار ومساعدوهم على الباطل شرار فالقوهم صابرين محتسبين موطنين أنفسكم إنكم منازلون ومقاتلون قد وطنتم أنفسكم على الضرب والطعن ومنازلة الأقران فأى امرئ أحس من نفسه رباطة جأش عند الفزع وشجاعة عند اللقاء ورأى من أخيه فشلا أو وهنا فليذب عنه (أي عن أخيه الذي فضله الله عليه) كما يذب عن نفسه فلو شاء الله لجعله مثله^(١).

فقام إليه شداد بن شمر العبدي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد فإنه لما كثر الخطأؤون وتمرد الجاحدون فزعنا إلى آل نبينا الذين بهم ابتدأنا بالكرامة وهدانا من الضلالة الزموهم رحمكم الله ودعوا من أخذ يميننا وشمالا فإن أولئك في غمرتهم يعمهون وفي ضلالهم يترددون.

قال ثم إن أمير المؤمنين عليه السلام رحل بالناس إلى القوم غداة الخميس لعشر مضين من جمادي الأولى^(٢)..

(١) الجمل للشيخ المفيد : ص ١٢١.

(٢) ن . م . ص ١٧٩.

على ميمنته الإمام الحسن عليه السلام مع مالك الأشتر النخعي..

وعلى ميسرته الإمام الحسين عليه السلام مع عمار بن ياسر..

- وأعطى الراية محمد بن الحنفية ابنه. (و كان لمحمد يوم البصرة عشرون سنة لأن ولادته سنة (١٦) للهجرة^(١). ولا بدع في ابن (حيدرة) إذا كانت له مواقف محمودة في الجمل وصفين والنهروان وكانت الراية معه فأبلى بلاء حسنا سجله له التاريخ وشكره الإسلام بعد ما يحدث النبي ﷺ عن أغزر الصفات الحميدة في لطالبيين وهي الشجاعة فيقول ﷺ: (لو ولد الناس أبو طالب كلهم لكانوا شجعانا) كما نص عليه الوطواط في غرر الخصائص ص ١٧ في باب حفظ الجوار وخطبته التي ارتجلها يوم صفين في مدح أبيه عليه السلام وهو واقف بين الصفين تشهد له بالفصاحة والبلاغة على أتم معانيها فهو جليل القدر عظيم المنزلة)

ثم قال الإمام عليه السلام: عباد الله، اتقوا الله، وعضوا الأبصار. واخفضوا الأصوات، وأقلوا الكلام، ووطئوا أنفسكم على المنازلة والمجادلة والمبارزة والمناضلة والمبادلة والمعانقة والمكادمة والملازمة.. فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون.. ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم.. واصبروا إن الله مع الصابرين..

اللهم ألهمهم الصبر وأنزل عليهم النصر وأعظم لهم الأجر..^(٢)

(١) نعرف ذلك من قول المسعودي في التنبيه والأشراف ص ٢٨٣ وسبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص ص ١٦٩ وابن كثير في البداية (ج ٩ - ص ٣٨) أنه توفي سنة إحدى وثمانين عن خمس وستين سنة.

(٢) الطبري ج ١١/٥، شرح النهج الحديدي: ٢٦٤، صفين: ٢٠٤.

ثم نادي مناديه: لا يتبع مدبر، ولا يذفف على جريح، ولا يقتل أسير، ومن أغلق بابه فهو آمن ومن ألقى سلاحه فهو آمن..

رواه ابن أبي شيبة والبيهقي^(١)

ثم نادي المنادي: لا تبدؤوا القوم بالقتال وكلموهم بالطف الكلام. فإن هذا مقام من فلج فيه فلج يوم القيامة.

فنادي معسكر عائشة: يا ثارات عثمان. فقال الإمام: ما يقولون؟ فقال محمد بن الحنفية: يقولون يا ثارات عثمان فرفع الإمام يديه وقال: اللهم؛ كبّ اليوم قتلة عثمان لوجوههم..^(٢) اللهم خذ بأيديهم وأقدامهم..^(٣)

وسار الإمام علي عليه السلام حتى وقف موقفا ثم نادى في الناس: لا تعجلوا حتى أعذر إلى القوم ودعا عبد الله بن العباس فأعطاه المصحف وقال: امض بهذا المصحف إلى طلحة والزبير وعائشة وادعهم إلى ما فيه وقل لطلحة والزبير ألم تبايعاني مختارين فما الذي دعاكما إلى نكث بيعتي وهذا كتاب الله بيني وبينكما..

قال عبد الله بن العباس: فبدأت بالزبير وكان عندي أبقاهما علينا وكلمته في الرجوع وقلت: له إن أمير المؤمنين عليه السلام يقول لك ألم تبايعني طائعا فبم تستحل قتالي؟ وهذا المصحف وما فيه بيني وبينك فإن شئت تحاكمنا إليه..

قال: ارجع إلى صاحبك فإننا بايعنا كارهين وما لي حاجة في محاكمته.. فانصرف عنه إلى طلحة والناس يشتدون والمصحف في يدي

(١) (كنز العمال ٣٣٥/١١)

(٢) (كنز العمال ٣٣٨/١١)

(٣) (البداية والنهاية ٨/٧)

فوجدته قد لبس الدرع وهو محتبي بحمائل سيفه ودابته واقفة فقلت له: إن أمير المؤمنين عليه السلام يقول لك: ما حملك على الخروج وبما استحللت نقض بيعتي والعهد عليك..

قال: خرجت أطلب بدم عثمان.. أیظن ابن عمك أنه قد حوى على الكوفة وقد والله كتبت إلى المدينة يؤخذ لي بمكة.. فقلت له: اتق الله يا طلحة فإنه ليس لك أن تطلب بدم عثمان وولده أولى بدمه منك هذا أبان بن عثمان ما ينهض في طلب دم أبيه..

قال طلحة: نحن أقوى على ذلك منه قتله ابن عمك وابتز أمرنا.. فقلت له: أذكرك الله في المسلمين وفي دمائهم وهذا المصحف بيننا وبينكم والله ما أنصفتكم رسول الله إذ حبستم نساءكم في بيوتكم وأخرجتم حبيسة رسول الله..

فأعرض عني ونادى بأصحابه: ناجزوا القوم فإنكم لا تقومون لحجاج ابن أبي طالب فقلت: يا أبا محمد أبالسيف تخوف ابن أبي طالب أما والله ليعاجلنك السيف.. فقال: ذلك بيننا وبينكم.

قال فانصرفت عنهما إلى عائشة وهي في هودج وقد دُفِف بالدروع على جملها (عسكر) وكعب بن شور القاضي أخذ بخطامه وحولها الأزد وضبة فلما رأتني قالت: ما الذي جاء بك يا ابن عباس؟ والله لا سمعت منك شيئاً ارجع إلى صاحبك وقل له ما بيننا وبينك إلا السيف.. وصاح من حولها ارجع يا ابن عباس لئلا يسفك دمك.

فرجعت إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأخبرته الخبر وقلت: ما تنتظر والله لا يعطيك القوم إلا السيف فاحمل عليهم قبل أن يحملوا عليك. فقال عليه السلام: نستظهر (نستعين ونتقوى) بالله عليهم..

قال ابن عباس: فوالله ما رمت من مكاني حتى طلع عليّ شابهم كأنه جراد منتشر، فقلت: ما ترى يا أمير المؤمنين إلى ما يصنع القوم مرنا ندفعهم..

فقال عليه السلام: حتى أعذر إليهم ثانية.. ثم قال: مَنْ يأخذ هذا المصحف فيدعوهم إليه وهو مقتول وأنا ضامن له على الله الجنة^(١)..

في رواية بلال بن ثوير السندوسي: أنه لما تقابل العسكران عسكر أمير المؤمنين عليه السلام وعسكر أصحاب الجمل جعل أهل البصرة يرمون أصحاب علي حتى عقروا (جرحوا) منهم جماعة فقال الناس: يا أمير المؤمنين إنه قد عقروا بظلمهم فما انتظارك بالقوم؟

فقال علي عليه السلام: اللهم إني أشهدك قد أعذرت وأنذرت فكن لي عليهم من الشاهدين.. وتقلد بسيفه واعتجر بعمامته واستوى على بغلة النبي ﷺ ثم دعا بالمصحف فأخذه بيده وقال: أيها الناس من يأخذ هذا المصحف فيدعو هؤلاء القوم إلى ما فيه؟ قال: فوثب غلام من مجاشع يقال له مسلم عليه قباء أبيض فقال له: أنا آخذه يا أمير المؤمنين.. فقال له علي عليه السلام: يا فتى إن يدك اليمنى تقطع فتأخذه بيدك اليسرى فتقطع اليسرى ثم تضرب عليه بالسيف حتى تقتل..

فقال الفتى: لأصبر لي على ذلك يا أمير المؤمنين.. قال فنادى علي عليه السلام ثانية والمصحف في يده فقام إليه ذلك الفتى وقال: أنا آخذه يا أمير المؤمنين قال: فأعاد عليه مقالته الأولى فقال الفتى: لا عليك يا أمير المؤمنين فهذا قليل في ذات الله (نصر دين الله) ثم أخذ الفتى المصحف وانطلق به إليهم فقال: يا هؤلاء هذا كتاب الله بيننا وبينكم.. قال: فضرب

(١) موسوعة الإمام علي عليه السلام للري شهري: ج ٢٢٠/٥ عن الجمل للشيخ المفيد .

رجل من أصحاب الجمل يده اليمنى فقطعها فأخذ المصحف بشماله فقطعت شماله فاحتضن المصحف ب صدره فضرب عليه حتى قتل (رحمة الله عليه)^(١)..

فقلت عائشة: اشجروه بالرماح فقبحه الله.. فتبادروا إليه بالرماح فطعنوه من كل جانب وكانت أمه حاضرة فصاحت وطرحت نفسها عليه وجرتته من موضعه ولحقها جماعة من عسكر أمير المؤمنين عليه السلام أعانوها على حمله حتى طرحته بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام وهي تبكي وتقول:

يا رب إن (مسلمًا) دعاهم
يتلو كتاب الله لا يخشاهم
فخضبوا من دمه قناهم
وأهم قائمة تراهم
تأمرهم بالقتل لا تناهم^(٢)

وأبا عبد الله الغنوي يقول: إنا لجلوس مع علي بن أبي طالب عليه السلام يوم الجمل إذ جاءه الناس، فقالوا: لقد نالنا النبل والنشاب.. فسكت.. ثم جاءه آخرون يهتفون به وقالوا: قد جرحنا فقال عليه السلام: [يا قوم] من يعذرني من قوم يأمروني بالقتال ولم تنزل بعد الملائكة؟

فقال: إنا لجلوس ما نرى ريحا ولا نحسها إذ هبت ريح طيبة من خلفنا، والله لو وجدت بردها بين كتفي من تحت الدرع والثياب.. قال: فلما هبت الريح صب أمير المؤمنين عليه السلام درعه (أي لبسها)، ثم قام إلى

(١) الفتوح لابن الأعمش: ج ٢/٤٧٢، شرح النهج: ١١١/٩.

(٢) (تاريخ الطبري (ج ٥ - ص ٢٠٥)

القوم، فما رأيت فتحا كان أسرع منه.^(١)

وقيل: فلما رأى أمير المؤمنين عليه السلام ما قدم عليه القوم من العناد واستحلوه من سفك الدم لحرام رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إليك شخّصت الأبصار وبسطت الأيدي وأفضت القلوب وتقربت إليك بالأعمال ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين..

ثم دعا ابنه محمد بن الحنفية فأعطاه الراية وهي راية رسول الله ﷺ وقال: يا بني هذه راية لا ترد قط ولا ترد أبدا..

قال محمد: فأخذتها والريح تهب عليها فلما تمكنت من حملها صارت الريح على طلحة والزبير وأصحاب الجمل فأردت أن أمشي بها فقال أمير المؤمنين عليه السلام: قف يا بني حتى آمرّك.

ثم نادى بجنده: أيها الناس لا تقتلوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تهيجوا امرأة ولا تمثلوا بقتيل.. فبينما هو يوصي قومه إذ أظلنا نبل القوم فقتل رجل من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام فلما رآه قتيلا قال: اللهم اشهد ثم رمي ابن عبد الله بن بديل فقتل فحملة أبوه عبد الله ومعه عبد الله بن العباس حتى وضعناه بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام فقال عبد الله بن بديل: حتى متى يا أمير المؤمنين ندلي نحورنا للقوم يقتلوننا رجلا رجلا قد والله أعذرت إن كنت تريد الاعتذار..

وهكذا اصطفت الخيول وفي الحظّات الأخيرة، قال عليه السلام لأصحابه: لا تعجلوا على القوم حتى أعذر فيما بيني وبين الله ﷻ وبينهم، فقام إليهم، فقال: يا أهل البصرة هل تجدون علي جورا في حكم الله؟ قالوا:

(١) (الخرائج والجرائح للراوندي ج ١ ص ٢١٤: ٥٧ والبحار: ٨/ ٤٣٦، أمالي الطوسي: ٢/

لا..

قال: فحيفا في قسم (جمع القسمة) قالوا: لا..

قال: فرغبت في دنيا أخذتها لي ولأهل بيتي دونكم فنقمتم علي فنكثتم بيعتي؟ قالوا: لا..

قال: فأقمت فيكم الحدود وعطلتها عن غيركم؟ قالوا: لا..

قال: فما بال بيعتي تنكث وبيعة غيري لا تنكث؟ اني ضربت الأمر انفه وعينه فلم أجد الا الكفر أو السيف.. ثم ثنى إلى أصحابه فقال: إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿وَأِنْ تَكْثُرُوا أَتَمَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢].

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: والذي فلق الحبة وبرئ النسمة واصطفى محمدا بالنبوة انهم لأصحاب هذه الآية وما قوتلوا منذ نزلت.^(١)

ثم قال محمد بن الحنفية: فقال لي أمير المؤمنين عليه السلام: رايتك يا بني قدمها وبعث في الميمنة والميسرة ودعا بدرع رسول الله فلبسه وحزم بطنه بعصابة أسفل من سرتة ودعا ببغلة الشهباء وهي بغلة رسول الله ﷺ فاستوى على ظهرها ووقف أمام صفوف أصحابه فوقفت بين يديه باللواء وهو للحرب مستعد فجاء قيس بن عباد وأنشأ يقول:

هذا اللواء الذي كنا نحفُّ

به مع النبي وجبريل لنا مددا

ما ضرَّ مَنْ كانت الأنصارعيته

أن لا يكون له من غيرها أحدا

(١) تفسير نور الثقلين للحويزي ج ٢ ص ١٨٨، البحار: ج ٣٢/ ١٨٥.

قوم إذا حاربوا طالت أكفهم بالمشرفية حتى يفتحوا البلدا

فقال الإمام: قد طاب لكم الضراب فقاتلوهم^(١)

ثم نادى عليه السلام: احملوا على القوم، فحملوا فانهزمت ميمنة علي عليه السلام وميسرته. قال بعض ولد عقيل: فأتيته وهو يخفق برأسه من النعاس فقلت: يا عم قد بلغت ميسرتك ما ترى وأنت تخفق نعاساً؟ فقال: اسكت يا ابن أخي فإن لعمرك يوماً لا يعدوه والله ما يبالي عمك إن وقع على الموت أو وقع الموت عليه^(٢)، ثم بعث إلى محمد ابن الحنفية أن أقحم فداك أبي وأمي.

قال: فأبطأ عليه وكان بإزائه قوم من الرماة فكان ينتظر أن يفنى سهامهم ثم يحمل فجاءه، فقال علي عليه السلام: احمل فداك أبي وأمي. قال: والله ما أجد متقدماً إلا على سنان. فقال له عليه السلام: إقحم فلن ينالك إلا سنة لأن للموت عليك جنة، فحمل محمد فسلك بالرماح فوقف عليه علي عليه السلام فضربه بقائم سيفه، وقال: أدركك عرق من أمك^(٣).. (أو أدركك فرع أمك فإن العرق دساس..)

ثم أخذ الراية من يده فحمل الناس معه فما كان أهل البصرة إلا كرماد اشتدت به الريح فاستطار في يوم عاصف فبلغت ميمنتهم إلى مدينة الردف وبلغت الميسرة إلى مقبرة بنى حصن وبلغ القلب إلى بنى عدى، ولقى علي عليه السلام طلحة فقال: يا أبا محمد ما أخرجك علي؟

(١) (الطبري ٣٠٤، ٣٠٥/٥، مروج الذهب ٣٩٩/٢، ابن أبي الحديد ٢٠٨/٣، كنز العمال ٣٣٨/١١، الكامل ١٣٣/٣)

(٢) موسوعة الإمام علي عليه السلام: ج ٥/٢٣٠ عن مروج الذهب: ج ٢/٣٧٥.

(٣) مروج الذهب: ج ٢/٣٧٥.

قال: الطلب بدم عثمان.. قال: قتل الله أولانا بدم عثمان أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، أو ما أنت أول من بايعني ثم نكثت^(١)؟ قال: ﴿فَمَنْ نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ ﴿الفتح: ١٠﴾..

وأما ما كان من وصف أصحاب الجمل عندما نشبوا القتال بأن صفوا صفوفهم وجاؤوا بالجمل المشؤوم الشيطان(عسكر) وعليه اليهودج وهو مُصَفَّح كالدبابة، وفيه القائد الأعلى السيدة عائشة تأمر وتنهي؛ وخطامه في يد كعب بن شور وقد تقلد بالمصحف (أي جعله قلادة في عنقه) والأزد، وبنو ضبة، قد أحاطوا بالجمل كالسوار..

وعبد الله بن الزبير بين يديها..

ومروان بن الحكم عن يمينها..

والزبير يدير العسكر..

وطلحة على الفرسان..

ومحمد بن طلحة على الرجال..

فقال محمد بن الحنفية: قال لي أبي حين رأى القوم قد زحفوا نحونا قدّم اللواء فقدمته وزحف المهاجرون والأنصار فلما رأى القوم قد زحفت باللواء بارزا عن أصحابي رشقوني رشقة رجل واحد فوقفت مكاني وأيقنت منهم وقلت ينقضي رشقهم في مرة أو مرتين ثم أتقدم فلم أشعر إلا وأمير المؤمنين ﷺ قد ضرب بين كتفي بيده ثم أخذ اللواء مني بيده ونادى: (يا منصور أمت) فوالله ما سمعت القوم حتى رأيتهم قد زلزلت أقدامهم وارتعدت فرائصهم والتقى بعضهم ببعض وتزايلوا لترى عائشة موضع كل فريق منهم..

(١) الجمل لابن شدقم: ص ١٣٨، مروج الذهب: ج ٢/ ٣٧٤.

ونادت عائشة: يا بني الكرة، الكرة اصبروا فإنني ضامنة لكم الجنة.. فحقّوا بها من كل جانب واستقدموا حتى دنوا من عسكر أمير المؤمنين عليه السلام ولَفَّت عائشة نفسها ببردة كانت معها وقلبت يمينها على منكبها الأيسر، والأيسر إلى الأيمن كما كان رسول الله ﷺ يفعل عند الاستسقاء، ثم قالت: ناولوني كفا من تراب.. فناولوها فحثت به وجوه أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وقالت: شأته الوجوه كما فعل رسول الله ﷺ بأهل بدر..

قال: وجَرَّ كعب بن شور بالخطام، وقال: اللهم إن أردت أن تحقن الدماء وتطفي هذه الفتنة فاقتل عليا.. ولما فعلت عائشة من السب المبرح وحصب أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام قال عليه السلام: وما رميت إذ رميت ولكن الشيطان رمى وليعودن وبالك عليك إن شاء الله..

وأنشدت أم ذريح العبدية من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام

عائش إن جئت لتهزمينا
وتنشري البر لتغلبينا
وتقذفي بالحصبات فينا
تصادفي ضربا وتنكرينا
بالمشرفيات إذا غزينا
نسفك من دمائكم ماشينا^(١)

وتقدم عمار ومالك الأشتر مصلتين سيفهما نحو القوم ونادى أمير المؤمنين: يا محمد بن أبي بكر إن صرعت عائشة فوارها وتولّى أمرها^(٢).. فتضعض القوم حين سمعوا ذلك واضطربوا وأمير المؤمنين عليه السلام واقف

(١) الجمل للشيخ المفيد: ص ١٨٦

(٢) ن. م. ص ١٨٣.

في موضعه ثم تراجعوا بعد تضعضهم ورجعت إليهم نفوسهم ونادوا
البراز فتقدم رجل من بني عدي أمام الجمل وبيده السيف وهو يقول:

أضربكم ولا أرى عليا
عممته أبيض مشرفيا
أريح منه قومنا عديا

فشدّ عليه رجل من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام يقال له أمية
العبدي وهو يقول:

هذا علي والهدى سبيله
والرشد فيه والتقى دليله
من يتبع الحق يكن خليله

ثم اختلفت بينهما ضربتان فأخطأه العدوي وضربه العبدي فقتله
فقام مقامه ، رجل يقال له: أبو الحرباء عاصم بن مرة من أصحاب الجمل
وهو يقول:

أنا أبو الحرباء واسمي
عاصم وأمنا أم لها محارم
فشدّ عليه رجل من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وهو يقول:
إليك إنني تابع عليا
وتبارك أمكم مليا
إذ عصت الكتاب والنبيا
وارتكبت من أمرها فريا

وضربه فقتله فقام مقامه رجل من أصحاب الجمل يقال له الهيثم بن
كليب الأزدي وهو يقول:

نحن نوالي أئمة الرضوية
وننصر الصحابة المرضية

فشد عليه رجل من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وهو يقول:

دليلكم عجل بني أمية
وأمكم خاسرة شقية
هاوية في فتنة عمية

وضربه ففلق هامته وخرَّ صريعاً إلى الأرض وبرز من بعده عمرو بن
يثربي^(١) هو أخو عميرة القاضي وفي ابن الأثير^(٢) أن عميرة لم يقتل وبقي
حتى تولى قضاء البصرة لمعاوية

وكان من شياطين أصحاب الجمل فنادى هل من مبارز فبرز إليه
علباء بن الهيثم فاختلفت بينهما ضربتان فقتل علباء رحمه الله فقام مقامه هند
بن المرادي فبادره بالسيف فاتقاه وضربه عبد الله بن الزبير وشغله بنفسه
وثناه هند بن يثري فقتلاه جميعاً فبرز مقامه زيد بن صوحان العبدي
فتضارباً وجاء فارس من أصحاب الجمل ووقف بجانب عمرو يحميه
فطعنه زيد في خاصرته طعنة أثخنه بها وبدر إليه عمرو فضربه فقضى
منها رحمه الله وبدأ عمرو يفتخر ويقول:

أنا لمن ينكرني ابن يثربي
قاتل علباء وهند الجملي
وابن لصوحان على دين علي

فبرز إليه مالك الأشتر فضربه على وجهه ضربة وقع بها على الأرض

(١) (في تاريخ الطبري (ج ٥ - ص ٣١٧)

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣ - ص ٩٨

وحماه أصحابه فنهض وقد تراجعت نفسه، وهو يقول: لا بد من الموت فدلوني على علي بن أبي طالب فلئن بصرت به لأملأن سيفي من هامته فبرز إليه عمار بن ياسر^(١).

كان عمار بن ياسر ضعيفا قصيفا حمش الساقين فاسترجع الناس حين رأوه بارزا فضربه ابن يثربي فنشب في جحفته ثم ضربه عمار فصرعه ورموه أصحاب علي بالحجارة حتى أثنخوه^(٢). كان لعمار يومئذ تسعون سنة فضرب ابن يثربي على رجليه فقطعهما وجيء به إلى علي عليه السلام أسيرا فأمر به فقتل وهو يقول:

لا تبرح العرصة يا بن يثربي
حتى أقاتلك على دين علي
نحن وبيت الله أولى بالنبي

وضربه ضربة هلك منها وخرَّ صريعا فأكب قومه عليه فاحتملوه إلى معسكرهم..ولما رأى أمير المؤمنين عليه السلام جرأة القوم على القتال وصبرهم على الهلاك نادى أصحاب ميمنته (بقيادة الإمام الحسن عليه السلام والأشتر) أن يميلوا على ميسرة القوم (بقيادة صبرة بن عثمان).. ونادى أصحاب ميسرته (بقيادة الإمام الحسين عليه السلام وعمار) أن يميلوا على ميمنتهم (بقيادة هلال بن وكيع)، ووقف عليه السلام في القلب فما كان بأسرع من أن تضعض القوم وأخذت السيوف من هاماتهم مأخذها فانكشفوا وقد قتل منهم ما لا يحصى كثرة وأصيب من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام نفر كثير وأحاطت الأزد بالجمل يقدمهم كعب بن شور وخطام الجمل بيده؛ واجتمع إليهم من كان انفتل بالهزيمة..

(١) تاريخ الطبري (ج ٥ - ص ٢١٧).

(٢) تاريخ الطبري: ص ٢١٠ وابن الأثير (ج ٣ - ص ٩٨).

قال: فوالله لقد رأيت أول قتيل من القوم كعب بن شور بعد أن قطعت يمينه التي كان فيها الخطام فأخذه بشماله وقتل بعد ذلك وقتل معه أخوه وابناه ولما قتل كعب بن شور تقدم غلام من الحذان يقال له وائل بن عمر وهو يبكي ويقول:

يا رب فارحم سيد القبائل
كعب بن شور غرة القبائل
وخير حاف نهم وناعل
وخير مقتول وخير قاتل
أبشر بخير يا كعيب كامل
بنصرك الحق وترك الباطل
فخرج إليه رجل يقال له عبد الرحمن بن هاشم وهو يقول:
لا رحم الله بن شور إذ
مضى ولا تولاه بعفو ورضى
فقد قضى بالجور فيما قد قضى
ودان بالكفر ولم يعص الهوى
واتبع الضلال من أهل العمى
فصار بالفتنة مع من قد هوى
ثم ضرب وائل بن عمر فقتله وبرز رجل من بني قشير يقال له حنثة
بن الأسود وهو يقول:

نحن أصحاب الجمل المكرم
ومانعوا هودجه المعظم
وناصروا زوج النبي الأكرم
ذلك دين الله فينا الأقدم

فخرج إليه رجل من جند الحق شيعة أمير المؤمنين عليه السلام يقال له
عبيد الله بن سالم وهو يقول:

نحن مطيعون جميعا لعلي إذ
أنت ساع في الفساد يا شقي
إن الغوي تابع أمر الغوي
قد خالفت زوج النبي للنبي
وخرجت من
بيتها مع من هوي

ثم ضرب يده بالسيف فقطعها ووقع لجنبه فرام أصحابه تخليصه
وازدحموا عليه فوطئوه فقتلوه بالحوافر والأقدام^(١).

ثم أخذ بخطام الجمل بعده رجل وهو يقول شعرا:

يا آمنا عائش لا تراعي
كل بنيك بطل شجاع

فما برح حتى قطعت يده وطعن فهلك فقام مقامه آخر منهم
فقطعت يمينه وضرب على رأسه فهلك فما زال كل من أخذ بخطام
الجمل رجل قطعت يده وجذ ساقه حتى هلك منهم ٨٠٠/ ثمانمائة رجل
وقيل ذلك اليوم قتل ٧٠/ سبعون رجل من قريش وكان آخر من أخذ بزمام
الجمل رجل من بني ضبة فجعل يقول:

(١) راجع كل ما تقدم، الجمل للشيخ المفيد، وابن شدقم، وكتب التاريخ الأخرى.

نحن بني ضبة أصحاب الجمل
 ننعي ابن عفان بأطراف الأسل
 ردوا إلينا شيخنا ثم نحل^(١)

فبرز إليه الأشر وهو يقول:

كيف نرد نعثلا وقد نحل (أي مات بلي).. وضربه على هامته ففلقها
 فخر صريعا فلاذ بالجمال عبد الله بن الزبير وتناول خطامه بيده فقالت
 عائشة: من هذا الذي أخذ بخطام جملي؟

قال: أنا عبد الله ابن أختك.. فقالت: واثكل أسماء.. ثم برز الأشر
 إليه فخلى الخطام من يده وأقبل نحوه فقام مقامه في الخطام عبد أسود
 واصطرع عبد الله بن الزبير ومالك الأشر فسقطا إلى الأرض فجعل ابن
 الزبير يقول: وقد أخذ الأشر بعنقه ينادي اقتلوني ومالكا.. اقتلوني واقتلوا
 مالكا معي.

قال الأشر: فما سرنني إلا قوله مالكا ولو قال الأشر لقتلوني فوالله
 لقد تعجبت من حمق عبد الله إذ ينادي بقتله وقتلي وما كان ينفعه
 المشؤوم إن قتلت وقتل هو معي ولم تلد امرأة من النخع غيري فأفرجت
 عنه فانهزم وبه ضربة مشخنة في جانب وجهه.

فلما تفرق الناس عن الجمل أشفق أمير المؤمنين عليه السلام أن يعود إليه
 فتعود الحرب فقال: عرقبوا الجمل فتبادر إليه أصحاب الإمام علي عليه السلام
 فعرقبوه ووقع لجنبه وصاحت عائشة صيحة أسمعت من في العسكرين..
 وقد جاءت الروايات من مبارزة القوم وارتجازهم بما يطول شرحه وإنما

(١) (في ابن الأثير (ج ٣ - ص ٩٨) والطبري (ج ٥ ص ٢١٠) الأبيات لوسيم بن عمرو بن
 ضرار الضبي)

اقتصرونا على بعضه للإيجاز والاختصار فيما كان من أمر الجمل وقطع أيدي الآخذين بخطامه وجذ أقدامهم.

٩.٢. رواية أخرى للمعركة

وروى الواقدي عن محمد ابن الحنفية قال: لما نزلنا البصرة وعسكرنا بها وصففنا صفوفنا دفع أبي علي عليه السلام إليّ باللواء وقال: لا تحدثن شيئاً حتى يحدث فيكم.. ثم نام فنالنا نبل القوم فأفزعتة ففزع وهو يمسح عينيه من النوم وأصحاب الجمل يصيحون: يا لثارات عثمان فبرز عليه السلام وليس عليه إلا قميص واحد ثم قال: تقدم باللواء فتقدمت، وقلت: يا أبه في مثل هذا اليوم بقميص واحد؟

قال: (أحرز امرء أجله) والله قاتلت مع النبي ﷺ وأنا حاسر أكثر مما قاتلت وأنا دارع..

ثم دنا كل من طلحة والزبير فكلهما ورجع وهو يقول: يأبى القوم إلا القتال فقاتلوهم فقد بغوا.. ودعا بدرعه (البترء) ولم يلبسها بعد النبي إلا يومئذ فكان بين كتفيه منها متوهياً (مهترئاً بالياً).. قال: وجاء أمير المؤمنين عليه السلام وفي يده شسع نعل فقال له ابن عباس: ما تريد بهذا الشسع يا أمير المؤمنين؟

فقال عليه السلام: اربط بها ما قد توهّى من هذا الدرع من خلفي فقال له ابن عباس: أفي مثل هذا اليوم تلبس مثل هذا؟ فقال عليه السلام: لِمَ؟ قال: أخاف عليك.. قال عليه السلام: لا تخف أن أوتى من ورائي والله يا ابن عباس ما وليت في زحف قط..

ثم قال له: البس يا ابن عباس فلبس درعا سعدياً ثم تقدم إلى الميمنة وقال: احمّلوا، ثم إلى الميسرة وقال: احمّلوا وجعل يدفع في ظهري

ويقول: تقدم يا بني فجعلت أتقدم وكانت إياها حتى انهزموا من كل وجه.

وروى الواقدي عن هشام بن سعد عن شيخ من مشايخ أهل البصرة قال: لما صفَّ علي بن أبي طالب عليه السلام صفوفه أطال الوقوف والناس ينتظرون أمره فاشتد عليهم ذلك فصاحوا حتى متى فصفق بإحدى يديه على الأخرى ثم قال: عباد الله لا تعجلوا فإني كنت أرى رسول الله ﷺ يستحب أن يحمل إذا هبت الرياح.. قال: فأمله حتى زالت الشمس وصلى ركعتين، ثم قال: ادعوا ابني محمدا فدعي له محمد بن الحنفية فجاء وهو يومئذ ابن تسع عشرة سنة فوقف فوقف بين يديه ودعا بالراية فنصبت فحمد الله وأثنى عليه وقال: أما هذه الراية لم تُرد قط ولا ترد أبدا وإني واضعها اليوم في أهلها ودفعها إلى ولده محمدا وقال: تقدم يا بني فلما رآه القوم قد أقبل والراية بين يديه فتضعضوا..

١٠٠٢. ومن تعليمات القتال

قال ابن أعثم: ثم دنت العساكر بعضها إلى بعض واستعرض علي جيوشه فبلغوا عشرين ألفا، واستعرض طلحة والزبير فبلغوا ثلاثين ألفا. ثم قام خطيبا يتوكأ على قوس عربية فحمد الله وأثنى عليه وذكر النبي صلى عليه ﷺ وقال: أما بعد فإن الموت طالب حثيث لا يفوته الهارب ولا يعجزه فاقدموا ولا تتكلموا وهذه الأصوات التي تسمعوها من عدوكم فشل واختلاف إنا كنا نؤمر في الحرب بالصمت فعضوا على الناجذ، واصبروا لوقع السيوف، فوالذي نفسي بيده لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من ميتة على فراشي فقاتلوهم صابرين محتسبين فإن الكتاب معكم والسنة معكم ومن كنا معه فهو القوي أصدقوهم بالضرب فأمرى أحسن من نفسه شجاعة وإقداما وصبرا عند اللقاء فلا يبطرته ولا يرى أن

له فضلا على من هو دونه وإن رأى من أخيه فشلا وضعفا فليذب عنه كما يذب عن نفسه فإن الله لو شاء لجعله مثله^(١).

ثم أمر ابنه محمد بن الحنفية أن يحزم الدرع بعمامته ثم انتضى سيفه فهزه حتى رضي به وغمدته وتقلده والناس على صفوفهم وأصحاب الجمل قد دنوا فأمر أمير المؤمنين عليه السلام بتسوية الصفوف حتى إذا اعتدلت دفع الراية إلى محمد بن الحنفية وقال: تقدم بالراية واعلم أن الراية إمام أصحابك فكن متقدما يلحقك من خلفك فإن كان لمن يتقدم من أصحابك جولة رجع إليك.. وجعل عليه السلام الناس أثلاثا مضر في القلب، واليمن في الميمنة وعليهم مالك الأشر، وفي الميسرة عمار بن ياسر.

وصف أصحاب الجمل صفوفهم فجعلوا على حنظلة هلال بن وكيع وعلى بني عمرو وبني تميم عمير بن عبد الله بن مرقد وعلى بني سعد زيد بن جبلة بن مردان وعلى بني ضبة والرباب عمرو بن يثربي وراية الأزد مع عمرو بن الأشرف العتكي^(٢).

قال محمد بن علي عليه السلام: فالتقينا وقد عجل أصحاب الجمل وزحفوا علينا فصاح أبي امض فمضيت بين يديه أخطوا بالراية خطوا سريعا إلى أن يلحق أصحابنا.. فلاذ أصحاب الجمل ونشب القتال واختلفت السيوف وأبي خلفي يقول: تقدم.. فقلت: ما أجد متقدما إلا على الأسنة.. فغضب عليه السلام وقال: أقول لك تقدم تقول على الأسنة ثق بالله يا بني وتقدم بين يدي على الأسنة. وتناول الراية مني وتقدم يهرول بها فأخذتني حدة فلحقته وقلت: أعطني الراية، فقال لي: خذها وقد

(١) نهج البلاغة: خ ١٢٣.

(٢) الجمل للشيخ المفيد: ص ١٩١.

عرفت ما وصف لي.

ثم تقدم بين يدي وجرد سيفه وجعل يضرب به ورأيته قد ضرب رجلا فأبان زنده وقال: إلزم رايتك يا بني فإن هذا ستكفاه فرمقت لضرب أبي ولحظته وإذا هو يورد السيف ويصدره ولا أرى فيه دما وإذا هو يسرع إصداره فيسبق الدم وأحدقنا بالجمال وصار القتل حوله واضطربنا أشد اضطراب رآه راء حتى ظننت أنه القتل وصاح أبي: يا ابن أبي بكر اقطع البطان فقطعه وتلقوا الهودج فكأن والله الحرب جمرة عليها صب الماء.

وروى الواقدي قال ابن جريح كان محمد بن الحنفية يحمل راية أمير المؤمنين عليه السلام أبيه يوم الجمل ورأى منه بعض النكوص فأخذ الراية منه قال محمد فأدركته وعالجته على أن يردها فأبى علي طويلا ثم ردها وقال: خذها أحسن حملها وتوسط أصحابك ولا تخفض عاليها واجعلها مستشرفة يراها أصحابك ففعلت ما قال لي فقال عمار: يا أبا القاسم ما أحسن ما حملت الراية اليوم.. فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: بعد ماذا؟ فقال عمار: ما العلم إلا بالتعلم^(١).

وروى إبراهيم بن نافع عن سعيد بن أبي هند قال: أخبرنا أصحابنا ممن حضر القتال يوم البصرة أن عليا قاتل يومئذ أشد القتال وسمعوه وهو يقول: تبارك الله الذي أذن لهذه السيوف تصنع ما تصنع ونظر يومئذ إلى سفيان بن حويطب بن عبد العزي وهو يسترجع من الخوف وما التحم من الشر فقال له أمير المؤمنين عليه السلام انحز إلى أصحابي ولا تقتل فانحاز إليهم إلى أن حمل أصحاب الجمل على أمير المؤمنين عليه السلام حملة فإذا هو قد صار في حيزهم فحمل عليه رجل من همدان وعلي عليه السلام يصيح كف عنه والهمداني لا يفهم حتى قطعه إربا إربا فقال عليه السلام: يا ويحه إن

(١) الجمل للشيخ المفيد: ص ١٩٢.

لفته السيوف وقد كان مقتله بغیضاً^(١).

عن صفوان قال لما تصافَّ الناس يوم الجمل صاح صايح من أصحاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: يا معاشر شباب قريش أراكم قد لححتم وغلبتم على أمركم هذا وإني أنشدكم الله أن تحقنوا دماءكم ولا تقتلوا أنفسكم اتقوا الأشر النخعي وجندب بن زهير العامري فإن الأشر يشمر درعه حتى تتبعوا أثره وإن جندبا يخرم درعه حتى يشمر عنه وفي رايته علامة حمراء

وروى معاذ بن عبد الله التميمي وكان قد حضر الجمل يقول لما التقينا واصطففنا نادى منادي علي بن أبي طالب عليه السلام: يا معاشر قريش اتقوا الله على أنفسكم فإني أعلم أنكم قد خرجتم وظننتم أن الأمر لا يبلغ إلى هذا فالله الله في أنفسكم فإن السيف ليس له بقيا فإن أحببتهم فانصرفوا حتى نحاكم هؤلاء القوم وإن أحببتهم فإلي إنكم آمنون بأمان الله..

قال: فاستحيينا أشد الحياء وأبصرنا ما نحن فيه ولكن الحفاظ حملنا على الصبر مع عائشة حتى قتل من قتل منا فوالله لقد رأيت أصحاب علي وقد وصلوا إلى الجمل وصاح منهم صايح اعقروه فعقروه ونادى علي عليه السلام: من طرح السلاح فهو آمن ومن دخل بيته فهو آمن فوالله ما رأيت أكرم عفوا منه.

ولما التحم القتال ناديناهم: مكنونا من قتلة عثمان ونرجع عنكم فننادانا عمار: قد فعلنا هذه عائشة وطلحة والزبير قتلوه عطشا فأبدؤوا بهم فإذا فرغتم منهم تعالوا إلينا نبذل لكم الحق.. فأمسك والله أصحاب الجمل كلهم.

وروى مولى عثمان قال: خرج عمار بن ياسر يوم الجمل إلينا فقال: يا هؤلاء على أي شيء تقاتلوننا؟ فقلنا: على أن عثمان قتل مؤمنا فقال عمار: نحن نقاتلكم على أنه قتل كافرا..

قال وسمعت عمارا يقول: والله لو ضربتمونا حتى نبلغ سعفات هجر لعلمنا إنا على الحق وإنكم على الباطل..

وسمعه والله يقول: ما نزل في تأويل هذه الآية إلا اليوم: ﴿يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال ولما جال الناس تلك الجولة قتل بينهم خلق كثير وسمع أصوات السيوف في الرؤوس كأنها مخاريق..

وروى محمد بن عبد الله بن عمر بن دينار قال قال أمير المؤمنين عليه السلام لابنه محمد: خذ الراية وامض وعلي عليه السلام خلفه فناداه: يا أبا القاسم فقال: لبيك يا أبة، فقال: يا بني لا يستفزك ما ترى قد حملت الراية وأنا أصغر منك فما استفزني عدوي وذلك إني لم أبارز أحدا إلا حدثني نفسي بقتله فحدث نفسك بعون الله تعالى بظهورك عليهم ولا يخذلك ضعف النفس من اليقين فإن ذلك أشد الخذلان قال قلت: يا أبة أرجو أن أكون كما تحب إن شاء الله..

قال: فالزم رايتك فإن اختلفت الصفوف قف في مكانك وبين أصحابك فإن لم تبين من أصحابك فاعلم أنهم سيرونك..

قال: والله إني لفي وسط أصحابي فصاروا كلهم خلفي وما بيني وبين القوم أحد يردهم عني وأنا أريد أن أتقدم في وجوه القوم فما شعرت إلا بأبي خلفي قد جرد سيفه وهو يقول: لا تتقدم حتى أكون أمامك.. فتقدم بين يدي يهرول ومعه طائفة من أصحابه فضرب الذين في

وجهه حتى نهضوهم ولحقته بالراية فوقفوا وقفة واختلط الناس وكدت السيوف ساعة فنظرت إلى أبي يفرج الناس يمينا وشمالا ويسوقهم أمامه فأردت أن أجول فكرهت خلافه ووحيته لي لا تفارق الراية حتى انتهى إلى الجمل وحوله أربعة آلاف مقاتل من بني ضبة، والأزد، وتميم؛ وغيرهم وقد اجتمع الناس حوله واختلطوا وأحدقوا به من كل جانب واستجّن الناس تحت بطان الجمل.. وأرى عليا قد قتل ممن أخذ بخطام الجمل عشرة بيده وكلما قتل رجلا مسح سيفه في ثيابه.. ثم صاح: اقطعوا البطان فأسرع محمد بن أبي بكر فقطعه وأطلع بالهودج فقالت عائشة: من أنت؟ قال: أبغض أهلك إليك..

قالت: ابن الخثعمية؟ قال: نعم ولم تكن دون أمهاتك..

قالت: لعمرى بل هي شريفة دع عنك هذا الحمد لله الذي سلمك..
قال: قد كان ذلك ما تكرهين..

قالت: يا أخي لو كرهته ما قلت ما قلت.. قال: كنت تحبين الظفر وإنني قتلت.. قالت: قد كنت أحب ذلك لكنه ما صرنا إلى ما صرنا أحببت سلامتك لقرايتي منك فاكفف ولا تعقب الأمور وخذ الظاهر ولا تكن لومة ولا عدلة فإن أباك لم يكن لومة ولا عدلة..

قال: وجاء علي عليه السلام فقرع الهودج برمحه وقال: يا شقيراء بهذا وصاك رسول الله ﷺ؟

قالت: يا ابن أبي طالب قد ملكت فاسجح^(١).

وجاءها عمار فقال لها: يا أماه كيف رأيت ضرب بنيك اليوم دون دينهم بالسيف؟ فصمتت ولم تجبه.

(١) الجمل للشيخ المفيد: ص ١٩٧.

وجاءها مالك الأشر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقال لها الحمد لله الذي نصر وليه وكبت عدوه ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] كيف رأيت صنع الله بك يا عائشة؟

فقالت: من أنت ثكلتك أمك؟ فقال: أنا ابنك الأشر..

قالت: كذبت لست بأمك.. قال: بلى وإن كرهت..

فقالت: أنت الذي أردت أن تشكل أختي أسماء بابنها، فقال: المعذرة إلى الله وإليك والله لولا إنني كنت طاويا ثلاثا (كان صائما ثلاثة أيام) لأرحتك منه وأنشأ يقول:

أعائش لولا إنني كنت طاويا
ثلاثا لألفيت ابن أختك هالكا
غدات ينادي والرماح تنوشه
بأضعف صوت اقتلونني ومالكا

فركبت وقالت: فخرتم وغلبتم وكان أمر الله قدرا مقدورا.

ومن قبل نادى أمير المؤمنين عليه السلام محمد بن أبي بكر فقال: سلها هل وصل إليها شيء من الرماح والسهام فسألها قالت نعم وصل إلى سهم خدش رأسي وسلمت من غيره الله بيني وبينكم..

فقال محمد: والله ليحكمن عليك يوم القيامة ما كان بينك وبين أمير المؤمنين عليه السلام حتى تخرجين عليه وتؤلبين الناس على قتاله وتنبذي كتاب الله وراء ظهرك؟

فقالت: دعنا يا محمد وقل لصاحبك يحرسني وكان الهودج كالقنفذ من النبل فرجعت إلى أمير المؤمنين عليه السلام وأخبرته بما جرى بيني وبينها وما قلت وما قالت.

فقال عليه السلام: هي امرأة والنساء ضعاف العقول فتول أمرها واحملها إلى دار عبد الله بن خلف حتى ننظر في أمرها فحملتها إلى الموضع الذي نزلت به في البصرة وإن لسانها لا يفتر من السب لي ولعلي والترحم على أصحاب الجمل.

وروى عن ابن الزبير قال خرجت عائشة يوم البصرة وهي على جملها الشيطان المشؤوم (عسكر) قد اتخذت عليه خدرا ودقته بالدروع خشية أن يخلص إليها النبل وسار إليهم علي بن أبي طالب عليه السلام حتى التقوا فاقتتلوا قتالا شديدا وأخذ بخطام الجمل يومئذ سبعون رجلا من قريش كلهم قتل وخرج مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير ورأيتهما جريحين فلما قتلت تلك العصابة من قريش أخذ رجال كثير من بني ضبة بخطام الجمل فقتلوا عن آخرهم ولم يأخذ بخطامه أحد إلا قتل حتى غرق الجمل بدماء القتلى وتقدم محمد بن أبي بكر فقطع بطن الجمل واحتمل الخدر ومعه أصحاب له وفيه عائشة حتى أنزلوها بعض دور البصرة وولى الزبير منهزما فأدركه ابن جرموز فقتله في وادي السباع. ولما رأى مروان توجه الأمر على أصحاب الجمل نظر إلى طلحة وهو يريد الهرب كذلك، فقال: والله لا يفوتني ثأري من عثمان فرماه بسهم فقطع أكحله فسقط بدمه وحمل من موضعه وهو يقول: إنا لله هذا والله سهم لم يأتني من بعد ما أراه إلا من معسكرنا لله ما رأيت مصرع شيخ أضيع من مصرعي ثم لم يلبث أن هلك..^(١)

(١) (ابن الأثير (ج ٣ - ص ٩٦) وفي الطبري (ج ٥ ص ٢١٥) مات في خربة من دور البصرة لبني سعد ودفن فيها)

١١.٢. أهوال المعركة من صاحبة الهودج..

وروى ابن أبي ميرة عن علقمة بن أبي علقمة عن أبيه قال: جعلنا الهودج من خشب فيه مفاتيح الحديد وفوقه دروع من حديد وفوقها طيالة من خز أخضر وفوق ذلك آدم (جلد) أحمر وجعلنا لعائشة منه منظر العين فما أغنى ذلك عنها من القوم..

وقالت كبشة فدخلت في نسوة من الأنصار على السيدة عائشة فحدثنا بخروجها وإنها لم تظن الأمر يبلغ إلى ما بلغ ثم قالت لقد عمل لي هودج حملني ثم ألبس الحديد ودخلت فيه وقمت في وسط الناس أدعو إلى الصلح وإلى الكتاب والسنة فليس أحد يسمع من كلامي حرفا وعجل من لقينا القتال فرموا النبل وصرعهم القوم حتى قتل من أصحاب علي رجل ورجلان ثم تقارب الناس ولحم الشر وصار القوم ليس لهم همة إلا جملي ولقد دخلت عليّ سهام فجرحتني فأخرجت ذراعها وأرتنا جرحا على عضدها فبكت وأبكتنا.

قالت: وجعل كلما أخذ بخطام جملي رجل قتل حتى أخذه ابن أختي عبد الله فصحت به وناشدته بالرحم أنه يتجافاني.. فقال: يا أم هو الموت يقتل الرجل وهو عظيم الغنى عن أصحابه على نيته خير أن يدرك وقد فارقت نيته فصحت: واثكل أسماء..

فقال: يا أم الزمي الصمت وقد لحم ما ترين.. فأمسكت وكان من معنا فتیان أحداث من قریش لا علم لهم بالقتال ولم يشهدوا الحرب فكانوا جزرا للقوم فإني لعلی ما نحن فيه وقد كان الناس كلهم حول جملي فسكتوا ساعة فقلت خيرا أم شرا ذا سكوتكم ضرر القتال وإذا ابن أبي طالب أنظر إليه يباشر القتال بنفسه وأسمعه يصيح: الجمل الجمل.. فقلت: أرادوا والله قتلي فإذا هو علي بن أبي طالب ومعه محمد

بن أبي بكر أخي ومعاذ بن عبد الله التميمي وعمار بن ياسر وقطعوا
البطان واحتملوا اليهودج فهوى على أيدي الرجال يرفلون به وهرب من
كان معنا فلم أحس لهم خبرا.

ونادى منادي علي بن أبي طالب لا يتبع مدبرا ولا يجهز على
جريح ومن طرح السلاح فهو آمن فرجعت إلى الناس أرواحهم فمشوا
على الناس واستحيوا من السعي فأدخلت منزل عبد الله بن خلف
الخراعي^(١) زوجته صفية بنت الحارث بن طلحة بن أبي طلحة وهي أم
طلحة الطلحات بن عبد الله بن خلف) وإنه منزل رجل قد قتل وأهله
مستعبرون (باكون) عليه ودخل معي كل من خاف عليا ممن نصب
له واحتمل ابن أختي عبد الله جريحا فوالله إني لعلى ما أنا عليه وأنا
أسأل ما فعل أبو محمد طلحة إذ قال قائل: قتل.. فقلت: ما فعل أبو
سليمان (تعني الزبير)؟ فقليل: قد قتل.. فلقد رأيتني تلك الساعة جمدت
عيناى فانقطعت من الحزن وأكثرت من الاسترجاع والندامة وذكر من
قتل فبكيت لقتلهم فنحن على ما نحن عليه وأنا أسأل عن عبد الله فقليل
قتل فازددت غمًا وهمًا حتى كاد ينصدع قلبي فوالله لقد بقيت ثلاثة أيام
بلياليهن ما دخل في فمي طعام ولا شراب وإني عند قوم ما يقصّروا في
ضيافتي وإن الخبز في منازلهم لكثير لكني أذهب أعالج الشبع من الطعام
فما أقدر فنعوذ بالله من الفتنة ولقد كنت ألبت على عثمان حتى نيل منه
ما نيل فلما قتل ندمت وعلمت أن المسلمين لا يستخلفون مثله أبدا كان
والله أجملهم حلما وأعبدهم عبادة وأبذلهم عند النائة وأوصلهم للرحم..

قالت كبشة بنت كعب: فرجعت إلى أبي فقال ما حدثتك به عائشة
فأخبرته بما قالت فقال: يرحم الله عائشة ويرحم الله أمير المؤمنين عثمان

(١) (في تاريخ الطبري (ج ٥ - ص ٢١٩)

هي كانت أشدّ الناس عليه ولقد نزعت وتابت وأرادت أن تأخذ بثاره فجاء خلاف ما أرادت فرحمهم الله جميعاً^(١).

وروى ابن أبي سبرة علقمة عن أمه قال سمعت عائشة تقول: لقد رأيتني يوم الجمل وإن على هودجي الدروع الحديدية والنبيل يخلص إلي منها وأنا في الهودج فهون ذلك عليّ ما صنعنا بعثمان ألبننا عليه حتى قتلناه وجرينا عليه الغواة فنعوذ بالله من الفرقة بين المسلمين^(٢)..

وروي أن عائشة قالت يوم الجمل لخالد بن الواشمة: أنشدك الله أصادقي أنت إن سألتك. قال: نعم..

قالت: ما فعل طلحة؟ قال، قتل! فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون. ثم قالت: ما فعل الزبير؟ قال: قتل! قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون. فقال لها: بل نحن لله ونحن إليه راجعون؛ على زيد وأصحاب زيد.. قالت: زيد بن صوحان؟ فقال: نعم، قالت: خيراً، فقال لها: والله لا يجمع الله بينه وبينهما في الجنة أبداً.

قالت: لا تقل ذاك فإن رحمته واسعة وهو على كل شيء قدير^(٣).

وروي عن زيد الخير بن صوحان من وجوه عدة أنه قال: شدوا عليّ ثيابي ولا تنزعوا عني ثوبا. ولا تغسلوا عني دما. فإني رجل مخاصم - أو قال - فإنا قوم مخاصمون^(٤).

(١) الجمل لابن شدقم: ص ٥١.

(٢) ن. م. ص ١٤٦ بالهامش عن مصنفات الشيخ المفيد: ج ١/ ٣٨١.

(٣) أعيان الشيعة: ١٠٥/٧.

(٤) راجع الغدير للشيخ الأميني: ج ٤٢/٩ عن تاريخ بغداد.

١٢٠٢. تسيير عائشة إلى المدينة

ولما عزم أمير المؤمنين عليه السلام على المسير إلى الكوفة أنفذ إلى عائشة يأمرها بالرحيل إلى المدينة فتهيأت لذلك وأنفذ معها أربعين امرأة ألبسهن العمام والقلانس وقلدهن السيوف وأمرهن أن يحفظنها ويكن عن يمينها وشمالها ومن ورائها فجعلت عائشة تقول في الطريق: اللهم افعل بعلي بن أبي طالب وافعل بعث معي الرجال ولم يحفظ بي حرمة رسول الله فلما قدمنا المدينة معها ألقين العمام والسيوف ودخلن معها فلما رأتهن ندمت على ما فرطت بدم أمير المؤمنين عليه السلام وسبه وقالت: جزى الله ابن أبي طالب خيرا فلقد حفظ في حرمة رسول الله ﷺ.^(١)

وقيل إنه عليه السلام بعث إلى عائشة بعد أيام يأمرها بالخروج والرجوع إلى المدينة المنورة.. وقيل أنها خرجت (السيدة عائشة) يوم السبت غرة رجب وشيعها أمير المؤمنين علي عليه السلام أميالا وسرحه بنيه معها يوما.

ووجه إليها عبد الله بن عباس بمال كثير ثم ذهب إليها بنفسه وشيعها أميالا ووجه معها أربعين امرأة وقيل سبعين من عبد القيس وقال: كن في هيئة الرجال وهى لا تعلم، فسارت إلى أن وصلت المدينة فقبل لها: كيف رأيت مسيرك؟ قالت: كنت بخير ولقد أعطاني فأكثر لكنه بعث مع حرمة رسول الله ﷺ رجالا، فكشفت النساء عن وجوههن وقلن: أنحن رجال، فخرت على وجهها وهى تقول: علي أعرف بالله من ذلك أبى ابن أبى طالب إلا كرما وعلما وحلما والله لوددت أنى لم أقاتله ولم أخرج مخرجي هذا الذي خرجته ولو أن لي من رسول الله ﷺ عشرة من الولد الذكور مثل أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وإنما خدعت وغررت وقيل لي: تخرجين فتصلحين بين الناس فكان ما كان

(١) الجمل للشيخ المفيد: ص ٢٢١، مروج الذهب: ٣٧٩/٢، السياسة والإمامة: ج ١/ ٩٨.

والله المستعان^(١)..

عن يحيى بن أبي العلاء قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: درع رسول الله صلوات الله عليه وآله ذات الفضول لها حلقتان من ورق في مقدمها وحلقتان من ورق في مؤخرها وقال: لبسها علي عليه السلام يوم الجمل^(٢).

عن يعقوب بن شعيب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: شد علي عليه السلام على بطنه يوم الجمل بعقال أبرق نزل به جبرئيل عليه السلام من السماء وكان رسول الله صلوات الله عليه وآله يشد به على بطنه إذا لبس الدرع^(٣).

وقيل أنه تقدم الإمام علي عليه السلام بالراية العظمى، وقتل خلق كثير وجثم غفير من أصحاب الجمل؛ ولم تُرَ واقعة أكثر من قطع الأيدي والأرجل فيها من هذه الواقعة..^(٤)

وقال عبد الله الكاهلي: لما كان يوم الجمل ترامينا بالنبل حتى فנית وتطاعنا بالرماح حتى تكسرت، وتشبكت صدورنا وصدورهم حتى لو سيرت الخيل عليها لسارت.

وكان هدف قوات أم المؤمنين الحفاظ على الجمل، فكان لا يأخذ بالراية ولا بخطام الجمل إلا شجاع معروف من قريش أولا حتى تفانوا، ثم بني ضبة حتى أبيدوا^(٥)

ومن حرص الرجال على الجمل وحبهم له فقد روي أن رجالا من الأزد كانوا يأخذون بعر الجمل فيفتونه ويشمون به ويقولون: بعر جمل

(١) شرح إحقاق الحق للسيد المرعشي: ج ٢٢/ ٤٢٣.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٣/ ٥٤٧، الكامل في التاريخ: ج ٣/ ٢٥٨.

(٣) الكافي للكليني: ج ٨/ ٣٣١.

(٤) (البداية ٧/ ٢٤٣ /)

(٥) (البداية ٧/ ٢٤٤)

أما ريحه مسك..^(١)

وكان معسكر الإمام علي عليه السلام يقولون: لا تزال الحرب قائمة ما دام هذا الجمل واقفا.. ولذلك صاح أمير المؤمنين عليه السلام: اعقروا الجمل وإلا تفانت العرب، فإنه شيطان^(٢)..

وذلك لأن معسكر عائشة يدافعون عنه ويعملون على رفع رأسه وكلما قتل منهم أحد الشجعان سارع الآخر ليمسك بزمام الجمل المشؤوم..

وبعد أن هدا غبار المعركة.. ظهر على أرض القتال عشرة آلاف قتيل على أقل التقادير، وأبسط الروايات..^(٣)

لأنه قيل قتل فيها من أصحاب الجمل ثلاثة عشر ألفا ومن أصحاب الإمام علي عليه السلام خمسة آلاف..^(٤)
أما الجرحى فيكاد لا يحصون..^(٥)

٣. ما بعد المعركة

١.٣ الإمام القائد يكلم القتلى

لما انجلت المعركة بالبصرة وقتل طلحة والزبير وحملت عائشة إلى قصر بني خلف ركب أمير المؤمنين عليه السلام وتبعه أصحابه وعمار بن

(١) (الطبري ٥/٢٦٣)

(٢) شجرة طوبى للحائري: ج ٢/٣٢٤.

(٣) (الكامل ٣/١٣١، البداية ٧/٢٤٧، الطبري ٥/٢٢٢)

(٤) (مروج الذهب ٢/٣٨٧).

(٥) (البداية ٧/٢٤٧)

ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يمشي مع ركابه حتى خرج إلى القتلى يطوف عليهم فمرَّ بعبد الله بن خلف الخزاعي وعليه ثياب حسان مشهرة فقال الناس: هذا والله رأس الناس فقال عِلِّيَّةٌ لَيْسَ بِرَأْسِ النَّاسِ وَلَكِنَّهُ شَرِيفٌ مَنَعَ النَّفْسَ^(١) ثم مر بعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد فقال هذا يعسوب القوم ورأسهم كما ترونه ثم جعل يستعرض القتلى رجلاً رجلاً فلما رأى أشرف قریش صرعى في جملة القتلى قال: (هذه قریش، جدعت أنفي، وشفيت نفسي، لقد تقدمت إليكم أحذركم عض السيوف، فكنتم أحداثاً لا علم لكم بما ترون، فناشدتكم العهد والميثاق، فتماديتم في الغي والطغيان، وأبيتم إلا القتال، فناهضتكم بالجهاد ولكنه الحين (الأجل والموت) وسوء المصرع، فأعوذ بالله من سوء المصرع).

فمرَّ عِلِّيَّةٌ بمعبد بن المقداد بن الأسود (أمه ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب شقيق أبي طالب والد علي عِلِّيَّةٌ وعبد الله والد النبي ﷺ) ومن غرائب الأسرار الالهية إن ابن المقداد يخرج على أمير المؤمنين عِلِّيَّةٌ؛ فقال عِلِّيَّةٌ: (رحم الله أبا هذا، أما إنه لو كان حياً لكان رأيته أحسن من رأي هذا)

فقال عمار بن ياسر: الحمد لله الذي رفعك يا أمير المؤمنين، وجعل خده الأسفل، إنا والله يا أمير المؤمنين ما نبالي من عند عن الحق من ولد ووالد.

فقال أمير المؤمنين عِلِّيَّةٌ: (رحمك الله وجزاك عن الحق خيراً).

ثم إنه عِلِّيَّةٌ مر بعبد الله بن ربيعة بن دراج، فقال عِلِّيَّةٌ: (هذا البائس ما كان أخرجه؟ أدين أخرجه أم نصر لعثمان؟! والله ما كان رأى

(١) راجع هذه الكلمات في الجمل للشيخ المفيد: ص ٢٠٩ وما بعدها.

عثمان فيه ولا في أبيه لحسن).

ثم إنه عليه السلام مر بمعبد بن زهير بن أبي أمية، فقال عليه السلام: (لو كانت الفتنة برأس الثريا لتناولها هذا الغلام، والله ما كان فيها بذى نحيزة (النحيزة: الطبيعة)، ولقد أخبرني من أدركه إنه ليولول فرقا من السيف).

ثم مر عليه السلام بمسلمة بن قرظة، فقال عليه السلام: (البر أخرج هذا! والله لقد كلمني أن أكلم له عثمان في شئ كان يدعيه قبله بمكة، فأعطاه إياه، ثم قال لي لولا أنت ما أعطيته إياه، إن هذا ما علمت بئس أخو العشيرة، ثم جاء المشوم للحين، ناصرا يطالب دم عثمان).

ثم مر عليه السلام بعبد الله بن حميد بن زهير، فقال عليه السلام: (إن هذا أيضا ممن أوضع في قتالنا، ثم إنه يزعم إنه يطلب رضاء الله بذلك، ولقد كتب إلي كتابا يؤذي عثمان فيه، فأعطاه شيئا فرضي عنه).

ثم مر عليه السلام بعبد الله بن حكيم بن حزام، فقال عليه السلام: (إن هذا قد خالف أباه في الخروج، وأبوه حيث لم ينصرنا وقد أحسن في بيعته لنا، وإن كان قد كف وجلس حيث شك في القتال، وما ألوم اليوم من كف عنا وعن غيرنا، ولكن اللوم على الذي قاتلنا).

ثم مر عليه السلام بعبد الله بن المغيرة بن الأخنس بن شريق فقال عليه السلام: (وأما هذا فقتل أبوه يوم قتل عثمان في الدار خرج مغضبا لقتل أبيه، وهو غلام حدث حين قتله).

ثم مر عليه السلام بعبد الله بن عثمان بن الأخنس بن شريق، فقال عليه السلام: (وأما هذا فكأنني أنظر إليه، وقد أخذ القوم السيوف هاربا يغدو من الصف، فنهنت عنه فلم يسمع من نهنت، حتى قتل، وكان هذا مما خفي على فتیان قريش، أغمار لا علم لهم بالحرب، خدعوا واستزلوا،

فلما وقفوا وقعوا فقتلوا).

ثم مرَّ عليه السلام بكعب بن سور، فقال عليه السلام نحّو المصحف وضعوه في مواضع الطهارة ثم قال: (وأما هذا الذي خرج علينا، وفي عنقه المصحف، يزعم أنه ناصر أمه، يدعو الناس إلى ما فيه وهو لا يعلم بما فيه، ثم استفتح وخاب كل جبار عنيد، أما إنه دعا الله أن يقتلني فقتله الله تعالى).

أجلسوا كعب بن شور فأجلس، فقال له عليه السلام: (يا كعب، قد وجدت ما وعدني ربي حقاً، فهل وجدت ما وعدك ربك حقاً؟). ثم قال عليه السلام: (أضجعوه).

ثم مرَّ عليه السلام بطلحة بن عبيد الله (هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عبيد الله بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، وهو ابن عم أبي بكر الصديق، ويكنى أبا محمد، وأمّه الصعبة، وكانت تحت أبي سفيان بن حرب، وقتل وهو ابن أربع وستين، وقيل غير ذلك، ودفن بالبصرة)، فقال عليه السلام: (وأما هذا فهو الناكث لبيعتي، والمنشئ الفتنة في الأمة، والمجلب عليّ، والداعي إلى قتلي وقتل عترتي).

اجلسوا طلحة بن عبيد الله فأجلس، ثم قال عليه السلام له: (يا طلحة، قد وجدت ما وعدني ربي حقاً، فهل وجدت ما وعدك ربك حقاً؟) ثم قال عليه السلام: (أضجعوه)، فأضجع.

كان محمد بن طلحة يوم الجمل مع أبيه، فنهى عليه السلام عن قتله وقال: من رأى صاحب البرنس الأسود فلا يقتله.. (محمد بن طلحة بن عبيد الله القرشي التيمي، أمه حمّة بنت جحش أخت زينب، أتى به أبوه طلحة إلى النبي ﷺ فمسح رأسه وسماه محمداً وكناه أبا القاسم، وفي

تكنيته بأبي سليمان خلاف، وقد رجح ابن عبد البر في الاستيعاب أبا القاسم، وقد قتل يوم الجمل مع أبيه، وكان علي عليه السلام قد نهى عن قتله في ذلك اليوم وقال: إياكم وصاحب البرنس. قال ابن عبد البر: وروى أن عليا مر به وهو قتيل يوم الجمل، فقال: هذا السجاد ورب الكعبة، هذا الذي قتله؟ برّه بأبيه يعنى أن أباه أكرهه على الخروج في ذلك اليوم، وكان طلحة قد أمره أن يتقدم للقتال فتقدم ونثل درعه بين رجله وقام عليها، وجعل كلما حمل عليه رجل قال نشدتك بحاميم، حتى شد عليه رجل فقتله) فقال شريح بن أوفى العبسي، حين أمر أبو طلحة محمد بن طلحة أن يبرز للقتال.. فكان كلما حمل عليه رجل قال: نشدتك بحم.. حتى حمل عليه العبسي فقتله.

وأشعث قوام بآيات ربه قليل
الأذى فيما ترى العين مسلم
على غير شيء غير أن ليس تابعا
عليها ومن لا يتبع الحق يظلم
يذكرني حاميم والرمح شاجر
فهلا تلا حاميم قبل التقدم^(١)

وسار عليه السلام، فقال له بعض أصحابه: يا أمير المؤمنين، رأيتك تكلم كعبا وطلحة بعد أن قتلا، فهل يفقهان ما قلت لهما؟! فقال عليه السلام: (أم والله، إنهما لقد سمعا كلامي، كما سمع أهل القليب كلام رسول الله ﷺ يوم بدر)

ولو أذن لهم في الجواب لرأيت عجباً..^(٢)

(١) الكشف للزمخشري ج ١ ص ١٩

(٢) الإرشاد للمفيد ج ١ ص ٢٤٨

٢٠٣. في البصرة المنهزمة

العبقرية هنا، لا بل العظمة والحنكة السياسية، والقيادة العسكرية الناجحة، وفوق كل ذلك الرسالة الدينية، والمواقف الإيمانية والشجاعة الأدبية والشهامة الهاشمية والإباء العربي والشمم الخالد والعنفوان التالد يتفجر هنا في أرض الزابوقة البصرية..

حيث وقف أمير المؤمنين عليه السلام القائد المنتصر على البغاة بمعركة تعليمية أكثر منها انتقامية، وقال في كلام له عليه السلام بعد حمد الله تعالى والثناء عليه والصلاة على رسوله الكريم ﷺ: أما بعد فإن الله ذو رحمة واسعة ومغفرة دائمة وعفو جمّ وعقاب أليم قضى أن رحمته ومغفرته وعفوه لأهل طاعته من خلقه، وبرحمته اهتدى المهتدون، وقضى أن نقمته وسطواته وعقابه على أهل معصيته من خلقه وبعد الهدى والبيئات ما ضل الضالون، فما ظنكم يا أهل البصرة وقد نكثتم بيعتي وظاهرتم عليّ عدوي؟

فقام إليه رجل فقال: نظن خيرا ونراك قد ظهرت وقدرت، فان عاقبت فقد اجترمنا ذلك وان عفوت فالعفو أحب إلى الله تعالى.

فقال: قد عفوت عنكم فإياكم والفتنة فإنكم أول الرعية نكث البيعة وشقّ عصا هذه الأمة، قال: ثم جلس للناس فبايعوه.^(١)

وبموقف آخر وكلام ثان من كلام له عليه السلام حين قُتل الأعيان والقادة، وانفضّ الناس من أهل البصرة: بنا تسنتم الشرف، وبنا انفجرتم عن السّرار، وبنا اهتديتم في الظلماء، وقر سمع لم يفقه الواعية.. كيف يراعى النبأ من أصمته الصحيحة، رُبط جنان لم يفارقه الخفقان، ما زلت

(١) الإرشاد للمفيد ج ١ ص ٢٥٢

أتوقع بكم عواقب الغدر وأتوسمكم بحلية المغترين، سترني عنكم جلباب الدين وبصرنيكم صدق النية، أقمت لكم الحق حيث تعرفون ولا دليل، وتحتفرون ولا تميهون، اليوم انطق لكم العجماء ذات البيان، عزب فهم امرئ تخلف عني، ما شككت في الحق منذ أريته، كان بنو يعقوب على المحجة العظمى حتى عَقُّوا أباهم وباعوا أخاهم، وبعد الإقرار كانت توبتهم، باستغفار أبيهم وأخيهم غفر لهم^(١).

روى مطر بن خليفة عن منذر الثوري قال لما انهزم الناس يوم الجمل أمر أمير المؤمنين عليه السلام مناديا ينادي أن لا تجهزوا على جريح ولا تتبعوا مدبرا وقسم ما حواه العسكر من السلاح والكراع.

وروى سفيان بن سعد قال قال عمار لأمرير المؤمنين عليه السلام ما ترى في سبي الذرية، قال: ما أرى عليهم من سبيل إنما قاتلنا من قاتلنا ولما قسم ما حواه العسكر قال له بعض القراء من أصحابه أقسم من ذراريهم لنا وأموالهم وإلا فما الذي أحل دماءهم ولم يحل أموالهم فقال عليه السلام: هذه الذرية لا سبيل عليها وهم في دار هجرة وإنما قتلنا من حاربنا وبغى علينا وأما أموالهم فهي ميراث لمستحقيها من أرحامهم فقال عمار رحمته الله: لا نتبع مدبرهم ولا نجهز على جريحهم فقال عليه السلام لا لأنني آمنتهم.

وروى سعد بن جشم عن خارجة عن مصعب عن أبيه قال: شهدنا مع أمير المؤمنين عليه السلام الجمل فلما ظفرنا بهم خرجنا في طلب الطعام فجعلنا نمر بالذهب والفضة فلا نتعرض له وإذا وجدنا الطعام أصبنا منه.. قال: وقسم علي عليه السلام ما وجدته في العسكر من طيب بين نساءنا وقال عليه السلام: مروا نساء هؤلاء المقتولين من أهل البصرة أن يعتدن منهم ولنقسم أموالهم في أهليهم فهي ميراث لهم على فريضة من الله..

(١) البحار: ج ٣٢/٢٣٧ عن الإرشاد للمفيد.

قال: وكان إذا أتى بأسير منهم فإن كان قاتل قتله وإن لم تقم عليه بينة بالقتل أطلقه.. ولما قسّم ما حواه العسكر أمر بفرس فيه كادت أن تباع فقام إليه رجل قال: يا أمير المؤمنين هذه الفرس لي كانت وإنما أعرتها لفلان ولم أعلم أنه يخرج عليها فسأله البينة على ذلك فأقام البينة إنها عارية فردها وقسّم ما سوى ذلك.

٣.٣. ذمه أهل البصرة

وروى نصر بن عمر بن سعد عن أبي خالد عن عبد الله بن عاصم عن محمد بن بشير الهمداني عن الحرث بن سريع قال لما ظهر أمير المؤمنين عليه السلام على أهل البصرة وقسّم ما حواه العسكر قام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسول الله ﷺ وقال:

أيها الناس أن الله عَزَّ وَجَلَّ ذو رحمة واسعة ومغفرة دائمة لأهل طاعته وقضى أن نقمته وعقابه على أهل معصيته يا أهل البصرة يا أهل المؤتفكة؟ يا جند المرأة؟ وأتباع البهيمة رغا فوجفتكم، وعقر فانهمزتم أحلامكم دقاق، وعهدكم شقاق، ودينكم نفاق، وأنتم فسقة مُرَّاق أرضكم قريبة من الماء؛ بعيدة من السماء، خفت عقولكم، وسفهت أحلامكم، شهرتم سيوفكم علينا، وسفكتكم دماءكم، وخالفتكم إمامكم، فأنتم أكلة الآكل، وفريسة الظافر، والنار لكم مدخر، والعار لكم مفخر..

يا أهل البصرة: نكثتم بيعتي، وظاهرتم علي ذوي عداوتي، فما ظنكم يا أهل البصرة الآن؟.

فقام إليه رجل منهم فقال: نزن خيرا يا أمير المؤمنين ونرى أنك ظفرت وقدرت فإن عاقبت فقد أجرمنا وإن عفوت فالعفو أحب إلى رب العالمين.

فقال عليه السلام: قد عفوت عنكم فإياكم والفتنة فإنكم أول من نكث البيعة وشق عصا الأمة فارجعوا عن الحوبة وأخلصوا فيما بينكم وبين الله بالتوبة^(١)..

ولما فرغ عليه السلام من الخطبة وكلامه لأهل البصرة ركب بغلته واجتمع إليه جماعة من شرطة الخميس وطوائف.

ثم أمر عليه السلام مناديه فنادى: من أحب أن يوارى قتيله فليواره؛ وقال عليه السلام: واروا قتلانا في ثيابهم التي قتلوا فيها فإنهم يحشرون على الشهادة وإنني لشاهد لهم بالوفاء^(٢).

ورأيت يومئذ سعيد وأبان ابنا عثمان فجيء بهما إلى علي بن أبي طالب عليه السلام فلما وقفا بين يديه قال بعض من حضر اقتلهما يا أمير المؤمنين عليه السلام فقال: بئس ما قلتم آمنت الناس كلهم وأقتل هذين ثم أقبل عليهما وقال لهما: ارجعا عن غيكما وانزعا وانطلقا حيث شئتما وإن أحببتما فأقيما عندي حتى أصل أرحامكما..

فقالا: يا أمير المؤمنين نحن نبايع فبايعا وانصرفا^(٣).

٤.٣. خطبة الإمام علي عليه السلام:

ولما كتب لأmir المؤمنين عليه السلام بالفتح قام في الناس خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد وآله ثم قال: أما بعد فإن الله غفور رحيم عزيز ذو انتقام جعل عفوه ومغفرته لأهل طاعته وجعل عذابه وعقابه لمن عصاه وخالف أمره وابتدع في دينه ما ليس منه وبرحمته

(١) الجمل للشيخ المفيد: ص ٢١٨

(٢) ن. م. ص ٢١١.

(٣) الجمل للشيخ المفيد: ص ٢٠٤.

نال الصالحون وقد أمكنني الله منكم يا أهل البصرة وأسلمكم بأعمالكم
فإياكم أن تعودوا إلى مثلها فإنكم أول من شرع القتال والشقاق وترك
الحق والإنصاف^(١)..

ثم نزل ﷺ واستدعى جماعة من أصحابه فمشوا معه حتى دخلوا
بيت المال وأرسل إلى القراء فدعاهم ودعا الخزان وأمرهم بفتح الأبواب
التي داخلها المال فلما رأى كثرة ما فيها فقال هذا جناي (أي ذنبي في هذا
المال) ثم قسم المال بين أصحابه فأصاب كل منهم ٦٠٠٠/ ستة آلاف درهم
وكان أصحابه ١٢٠٠٠/ اثني عشر ألف وأخذ كأحدهم فبينما هي بحالها إذ
أتاه آت فقال يا أمير المؤمنين إن اسمي سقط من كتابك وقد رأيت من
البلاء ما رأيت فدفع سهمه إلى ذلك الرجل^(٢).. أي أنه روجي فداه لم يأخذ
شيئا من مال البصرة التي استقتل من أجله أصحاب الجمل..

وروى الثوري عن داوود بن أبي هند عن أبي حرز الأسود قال لقد
رأيت بالبصرة طلحة والزبير قد أرسلوا إلى أناس من أهل البصرة أنا فيهم
فدخلنا بيت المال معهما فلما رأيا ما فيه من أموال قالوا: هذا ما وعدنا
الله ورسوله ثم تليا هذه الآية: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا
فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ (الفتح: ٢٠) وقالوا: نحن أحق بهذا المال من كل أحد
ولما كان من القوم ما كان دعانا علي بن أبي طالب ﷺ فدخلنا معه بيت
المال فلما رأى ما فيه ضرب إحدى يديه على الأخرى وقال: (يا صفراء
ويا بيضاء) غري غيري) وقسمه بين أصحابه بالسوية حتى لم يبق إلا
خمسمائة درهم عزلها لنفسه فجاءه رجل فقال إن اسمي سقط من كتابك
فقال ﷺ: ردوها، ردوها عليه ثم قال: الحمد الذي لم يصل إلي من

(١) البحار: ج ٣٢/ ٢٣٠ عن الجمل والإرشاد للشيخ المفيد .

(٢) الجمل للشيخ المفيد : ص ٢١٤ .

هذا المال شيئاً ووفره على المسلمين^(١).

روى الواقدي أن أمير المؤمنين عليه السلام لما فرغ من قسمة المال قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس إني أحمد الله على نعمه.. قُتل طلحة والزبير وهربت عائشة وأيم الله لو كانت عائشة طلبت حقاً وهانت باطلاً لكان لها في بيتها مأوى وما فرض الله عليها الجهاد وإن أول خطأها في نفسها وما كانت والله على القوم أشأم من ناقة الصخرة (ناقة صالح) وما ازداد عدوكم بما صنع الله إلا حقداً وما زادهم الشيطان إلا طغياناً ولقد جاؤوا مبطلين وأدبروا ظالمين إن إخوانكم المؤمنين جاهدوا في سبيل الله وآمنوا يرجون مغفرة الله وإننا لعلى الحق وإنهم لعلى الباطل ويجمعنا الله وإياهم يوم الفصل وأستغفر الله لي ولكم^(٢).

٥.٣. رسائل الفتح إلى المدينة والكوفة

قال الواقدي ولما فرغ أمير المؤمنين عليه السلام من أهل الجمل جاءه قوم من فتيان قريش يسألونه الأمان وأن يقبل منهم البيعة فاستشفعوا إليه بعبد الله بن العباس فشفعه وأمر لهم في الدخول عليه فلما مثلوا بين يديه قال لهم: ويلكم يا معشر قريش علام تقاتلونني على أن حكمت فيكم بغير عدل أو قسمت بينكم بغير سوية أو استأثرت عليكم أو لبعدي عن رسول الله أو لقلّة بلاء مني في الإسلام.. فقالوا: يا أمير المؤمنين؛ نحن إخوة يوسف فاعف عنا واستغفر لنا فنظر إلى أحدهم.. فقال: له من أنت؟ قال: أنا مساحق بن مخزومة معترف بالزلة مقر بالخطيئة تائب من ذنبي.. فقال عليه السلام: قد صفحت عنكم وأيم الله إن فيكم من لا أبالي بايعني بكفه أو بأسته ولئن بايعني لينكثن.

(١) الجمل للشيخ المفيد: ص ٢١٥

(٢) ن. م.

وتقدم إليه مروان بن الحكم وهو متكئ على رجل فقال له ما بك؟ هل بك جراحة؟ قال نعم يا أمير المؤمنين وما أراني إلا لما بي فتبسم أمير المؤمنين عليه السلام وقال: لا والله ما أنت لما بك وستلقى هذه الأمة منك ومن ولدك يوما أحمرًا وبايعه وانصرف^(١)..

وقيل في ذلك: أنه لما اخذ مروان بن الحكم أسيرا يوم الجمل فتكلم فيه الحسن والحسين عليهما السلام شافعان له، فخلّى سبيله فقالا له: (يبايعك يا أمير المؤمنين) فقال: (ألم يبايعني بعد قتل عثمان، لا حاجة لي في بيعته، أما إن له إمرة كلعة الكلب أنفه، وهو أبو الأكبش الأربعة، وستلقى الأمة منه ومن ولده موتا أحمر)^(٢)..

وتقدم إليه عبد الرحمن بن الحرث بن هشام فلما نظر إليه أمير المؤمنين عليه السلام قال: والله لئن كنت أنت وأهل بيتك لأهل دعة وإن كان فيكم غنى ولكن أعف عنكم ولقد ثقل علي حيث رأيتم في القوم وأحببت أن تكون الواقعة بغيركم فقال له عبد الرحمن: فقد صار ذلك إلى ما لا يجب ثم بايعه وانصرف^(٣).

٦.٣. اعتراف مروان بالظلم:

وروى أبو مخنف عن العدي عن أبي هشام عن البريد عن عبد الله ابن المخارق عن هاشم بن مساحق القرشي قال حدثنا أبي إنه لما انهزم الناس يوم الجمل اجتمع معه طائفة من قريش فيهم مروان بن الحكم فقال بعضهم لبعض: والله لقد ظلمنا هذا الرجل يعنون أمير المؤمنين عليه السلام

(١) الجمل للشيخ المفيد: ص ٢٢١.

(٢) نهج البلاغة: خ ٧٣، الجمل لزامن بن شدقم: ص ١٤٩.

(٣) الجمل للشيخ المفيد: ص ٢٢١.

ونكثنا بيعته من غير حدث والله لقد ظهر علينا فما رأينا قط أكرم سيرة منه ولا أحسن عفوا بعد رسول الله ﷺ تعالوا حتى ندخل عليه ونعتذر إليه فيما صنعناه..

قال فصرنا إلى بابه فاستأذناه فأذن لنا فلما مثلنا بين يديه جعل متكلمنا يتكلم فقال ﷺ: انصتوا أكفكم إنما أنا بشر مثلكم فإن قلت حقاً فصدقوني وإن قلت باطلاً فردوا علي أنشدكم الله أتعلمون أن رسول الله ﷺ قبض وأنا أولى الناس به وبالناس من بعده؟ قلنا اللهم نعم قال فعدلتم عني وبايعتم أبا بكر فأمسكت ولم أحب أن أشق عصا المسلمين وأفرق بين جماعاتهم ثم إن أبا بكر جعلها لعمر من بعده فكففت ولم أهج الناس وقد علمت إني كنت أولى الناس بالله وبرسوله وبمقامه فصبرت حتى قتل وجعلني سادس ستة فكففت ولم أحب أن أفرق بين المسلمين ثم بايعتم عثمان فطغيتم عليه وقتلتموه

وأنا جالس في بيتي وأتيتموني وبايعتموني كما بايعتم أبا بكر وعمر وفيتم لهما ولم تفوا لي وما الذي منعكم من نكث بيعتهما ودعاكم إلى نكث بيعتي..

فقلنا له: كن يا أمير المؤمنين كالعبد الصالح يوسف إذ قال: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

فقال ﷺ: لا تثريب عليكم اليوم وإن فيكم رجلاً لو بايعني بيده لنكث بأسته^(١)، يعني مروان بن الحكم.. ثم رجع إلى خيمته واستدعى عبد الله بن رافع وقال اكتب إلى أهل المدينة:

(١) الجمل للشيخ المفيد : ص ٢٢٢.

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله علي بن أبي طالب. سلام عليكم فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو فإن الله بمنه وفضله وحسن بلائه عندي وعندكم حكم عدل وقد قال سبحانه في كتابه وقوله الحق: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾. وإني مخبركم عنا وعن سرنا إليه من جموع أهل البصرة ومن سار إليهم من قريش وغيرهم مع طلحة والزبير ونكثهما علي ما قد علمتم من بيعتي وهما طايعان غير مكرهين فخرجت من عندكم بمن خرجت ممن سارع إلى بيعتي وإلى الحق حتى نزلت (ذا قار) فنفر معي من نفر من أهل الكوفة وقدم طلحة والزبير البصرة وصنعا بعاملي عثمان بن حنيف ما صنعا فقدمت إليهم الرسل وأعدت كل الأعذار ثم نزلت ظهر البصرة فأعدت بالدعاء وقدمت الحجة وأقلت العثرة والزلة واستعبتهم ومن معهم ممن نكث بيعتي ونقض عهدي فأبوا إلا قتالي وقتال من معي والتمادي في الغي فلم أجد بدا في مناصفتهم بالجهاد فقتل الله من قتل منهم ناكثا وولى من ولى منهم وأعمدت السيوف عنهم وأخذت بالعفو فيهم وأجريت الحق والسنة في حكمهم واخترت لهم عاملا واستعملته عليهم وهو عبد الله بن عباس وإني سائر إلى الكوفة إن شاء الله تعالى.

وكتب عبد الله بن أبي رافع في جمادي الأولى سنة ست وثلاثين من الهجرة.. وكتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى أم هاني بنت أبي طالب (يتم هذا إذا صح ما في تقريب التهذيب لابن حجر ص ٦٢٠ لكنهم من أنها ماتت في أيام معاوية وأما على ما في مناقب ابن شهر آشوب^(١) من أنها

(١) (ج ١ - ص ١١٠) إيران

ماتت أيام النبي ﷺ فلا يتم)

سلام عليك أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فإننا التقينا مع البغاة والظلمة في البصرة فأعطانا الله تعالى النصر عليهم بحوله وقوته وأعطاهم سنة الظالمين فقتل كل من طلحة والزبير وعبد الرحمن بن عتاب وجمع لا يحصى وقتل منا بنو مخدوع وابنا صوحان وعلياً وهندا وثمامة فيمن يعد من المسلمين رحمهم الله والسلام.

وكتب إلى أهل الكوفة:

بسم الله الرحمن الرحيم

من علي أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة. سلام عليكم فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو أما بعد فإن الله حكم عدل لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ وإني أخبركم عنا وعن سرنا إليه من جموع أهل البصرة ومن سار إليه من قريش وغيرهم مع طلحة والزبير بعد نكثهما صفقة إيمانهما فنهضت من المدينة حين انتهى إلي خبرهم وما صنعوه بعاملي عثمان بن حنيف حتى قدمت ذا قار فبعثت إليكم ابني الحسن وعمارا وقيسا فاستنفروكم لحق الله وحق رسوله وحقنا فأجابني إخوانكم سراعاً حتى قدموا علي بهم وبالمسارعة إلى طاعة الله حتى نزلت ظهر البصرة فأعذرت بالدعاء وأقمت الحجة وأقلت العثرة والزلة من أهل الردة من قريش وغيرهم واستعبتهم عن نكثهم بيعتي وعهد الله لي عليهم فأبوا إلا قتالي وقاتل من معي والتمادي في البغي فناهضتهم بالجهاد وقتل من قتل منهم وولى إلى مصرهم من ولى فسألوني ما دعوتهم إليه من كف القتال فقبلت منهم وغمدت السيوف عنهم وأخذت بالعفو فيهم وأجريت

الحق والسنة بينهم واستعملت عبد الله بن عباس على البصرة وأنا سائر إلى الكوفة إن شاء الله تعالى وقد بعثت إليكم زجر بن قيس الجعفي لتسألونه يخبركم عنا وعنهم وردهم الحق علينا وردهم الله وهم كارهون والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

وكتب عبد الله بن أبي رافع في جمادى الأولى سنة ست وثلاثين.

ثم دخل البصرة فخطب خطبته المشهورة الطويلة التي احتوت من الفصاحة والبلاغة وأنواع البديع والمواعظ وذكر عجائب السماوات والأرض والوعد والوعيد وأتى فيها بما حارت فيه العقول.

الفصل الرابع:

النتائج والآثار لمعركة الجمل

وقد اختلفت الروايات في عدد القتلى بالبصرة فقد جاء في بعضها أنهم خمسة وعشرون ألفاً.. وروى عن عبد الله بن الزبير رواية شاذة أنهم خمسة عشر ألف قتيل ويوشك أن يكون ابن الزبير أثبت ولكن القول في ذلك باطل لبعده عن جميع ما قاله أهل العلم فأما الأخبار عن عدد من قطعت يده يومئذ ورجله ثم قتل بعد ذلك فهي مشهورة إنهم كانوا نحو من أربعة عشر ألف رجل..

وبالحقيقة هنا يسجل التاريخ للناكثين السابق إلى عدد من الأمور لم يكن للمسلمين عهداً بها، وأما الفتاوي فدعك منها الآن:

- * هم أول من نكث بيعة الخليفة الشرعي الذي بايعوه..
- * وهم أول من يخرج أم المؤمنين من بيتها لتقود الجيوش..
- * وهم أصحاب أول شهادة زور في الإسلام بماء الحوآب..

- * وهم أول من غدر ونقض الصلح المكتوب مع ابن حنيف.
- * وهم أول من بيّت المسلمين في الليل وأغار عليهم..
- * وهم أول من قتلوا المسلمين صبرا ودون ذنب أحدثوه..
- * وهم أول من تنازعوا على الصلاة من أشباه القادة والأمراء.
- * وهم أول من صلى بهم أبناءؤهم بفتوى أمهم وحكمها عليهم.
- * وهم أول من قادتهم امرأة في الإسلام..
- * وهم أول من كان لواءهم وشعارهم (الجمل الأحمر عسكراً)..

والحقيقة تقول: أن الإمام علي عليه السلام واجه صعوبات كثيرة على طريق الحرب (لاسيما معركة الجمل لأن فتنتها عظيمة وإلى اليوم ملتبسة) وكان تفادي هذه الصعوبات ليس بالأمر اليسير، فهي ستدور بين أهل القبلة وفي كل طرف من الأطراف يوجد رجال من أهل بدر، وعلى رأس هذه الأطراف أعلام لا يمكن تجاهلها، والحرب ستدور بعد أن غاب عن ذهن الغالب الأعم أحاديث كثيرة كان النبي ﷺ يحذر فيها من أمور ويسمى فيها رؤوس الفتن بأسمائهم وأسماء آبائهم كما في حديث حذيفة وغيره.

ولهذا عندما أمر الإمام علي عليه السلام برواية الحديث لم يعط الوقت الكافي لغربلة هذه الأحاديث وبيان مقاصد الصحيح منها، فعندما أصبحت الحرب على الأبواب ظهرت أحاديث الاعتزال والتماس سيوف من خشب والقاتل والمقتول في النار، وأحاديث في أعماقها سلب مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كي تصبح الأمة بلا مهمة وتمهد الطريق لأغليمة قريش، وكان الإمام علي عليه السلام وسط هذه الأمواج المتلاطمة حجة بذاته ومن حوله نجوم ساطعة من الصحابة الكبار كعمار، وزيد، وحذيفة وغيرهم، وفي هؤلاء نصوص من النبي ﷺ

تدعو للالتفاف حول علي عليه السلام وعلى الرغم من هذا فإن الإنسان هو الإنسان.

فالإنسان الذي ارتدي ثياب النفاق بينما كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ وكان من السهل عليه أن يشق طريقه في عهود ما بعد النبي وإن كان في هذه العهود من هو خبير بمعرفة الرجال، ولأن الساحة بها الحق والباطل وبها باطل ابتلع الحق في بطنه ليتكلم على لسانه.

كان الإمام علي عليه السلام يحشد الناس من حوله متفاديا لكل جدل عقيم يكون في صالح التيارات المعادية.. كان يسأل فيجب إجابة الخبير، وكان يعرض عن كل إنسان لا يريد أن ينتظم في جيشه.. وذلك لأنه يعرف نتيجة الحرب مقدما وفقا لما كان النبي ﷺ يخبره.. ومن كان هذا شأنه فهو في دائرة الحجة وليس في دائرة الحشد من أجل الأموال والغنائم وبالعكس الآخرين تماما.

ونحن هنا سنلقي ضوءا على بعض ما كان يجري على أعتاب الحرب، لنرى حجم الصعوبات التي كان الإمام يواجهها وهو يأخذ بالأسباب ليصل إلى نتيجة وهو يعرفها مقدما. وكان يسير في اتجاهها على اتجاهها على الرغم من معرفته أنه مقتول في نهاية طريقها.. لأنه كان يعلم أن الاختبار سنة إلهية جارية، وأن جيله يختبر بأحداث يمثل الإمام نفسه الحق فيها، وأن نتائج هذه الأحداث سوف تمتد إلى أجيال قادمة.^(١)

وأول ضوء نلقيه هنا سيكون على ما برز من طروحات فكرية في هذه الآونة، روي أن الحارث الليثي دخل على أمير المؤمنين فقال: يا أمير المؤمنين. أي فتنة أعظم من هذه، إن أصحاب بدر يمشون بعضهم

(١) (الملاحم والفتن، سعيد أيوب بتصرف)

إلى بعض بالسيف، فقال الإمام: ويحك أ تكون فتنة أنا أميرها وقائدها. والذي بعث محمداً بالحق وكرم وجهه. ما كذبت ولا كذبت. ولا ضللت ولا ضل بي. ولا زلت ولا زل بي. وإني لعلى بينة من ربي. بينها الله لرسوله. وبينها رسوله لي. وسأدعى يوم القيامة ولا ذنب لي. ولو كان لي ذنب لكفر عني ذنوبي ما أنا فيه من قتالهم»^(١)

وروي أن الإمام خطب الناس فقال عن الفتن: إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع. وأحكام تبتدع. يخالف فيها كتاب الله. ويتولى عليها رجال رجالات...»^(٢)

وذكر ابن أبي الحديد: إن الإمام تكلم عن الفتنة. فقال: «عليكم بكتاب الله» أي إذا وقع الأمر واختلط الناس. فعليكم بكتاب الله. وقد قام إليه من سأله عن الفتنة فقال: أخبرنا عن الفتنة وهل سألت عنها رسول الله ﷺ؟ وقد روى كثير من المحدثين عن علي عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال له: إن الله قد كتب عليك جهاد المفتونين. كما كتب علي جهاد المشركين.

فقال علي: يا رسول الله. ما هذه الفتنة التي كتب علي فيها الجهاد؟ قال: قوم يشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله. وهم مخالفون للسنة.

فقلت: يا رسول الله، فعلام أقاتلهم وهم يشهدون كما أشهد؟

قال: على الإحداث (البدع) في الدين. ومخالفة الأمر.

فقلت: يا رسول الله. إنك كنت وعدتني الشهادة. فأسأل أن يجعلها

(١) شرح النهج ابن أبي الحديد: ج ١/ ٢٦٥.

(٢) شرح النهج ابن أبي الحديد ج ١/ ٦٦٧.

لي بين يديك.

قال: فمن يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين. أما إني وعدتك الشهادة وتستشهد. تضرب على هذه. يعني رأسك. فتخضب هذه - يعني لحيتك. فكيف صبرك إذن؟

قلت: يا رسول الله ليس ذا بموطن صبر. هذا موطن شكر.

قال: أجل. فأعد للخصومة فإنك مخاصم.

فقلت: يا رسول الله. لو بيّنت لي قليلاً.

فقال: إن أمتي ستفتتن من بعدي. فتتأول القرآن وتعمل بالرأي. وتستحل الخمر بالنبيذ.. والسحت بالهدية.. والربا بالبيع.. فكن جليس بيتك حتى تقلدها.. فإذا قلدها جاشت عليك الصدور. وقلبت لك الأمور. تقاتل حينئذ على تأويل القرآن، كما قاتلت على تنزيله. فقلت يا رسول الله: فبأي المنازل أنزل هؤلاء المفتونين من بعدك أبمنزلة فتنة أم بمنزلة ردة؟

فقال: بمنزلة فتنة يعمهون فيها إلى أن يدركهم العدل.

فقلت: يا رسول الله؛ أيدركهم العدل منا أم من غيرنا؟

قال: بل منا. بنا فتح الله وبنا يختم. وبنا أَلَفَ الله القلوب بعد الشرك.. وبنا يؤلف بين القلوب بعد الفتنة..^(١)

وقتل المفتونين وشدته وضع في دائرة الذهن. وكان أبو ذر رضي الله عنه يحدث به. قال، قال رسول الله ﷺ «والذي نفسي بيده. إن فيكم لرجلا يقاتل الناس من بعدي على تأويل القرآن كما قاتلت المشركين على

(١) (ابن أبي الحديد ٢٧٧/٣، ورواه وكيع (كنز المال ١٨٣/١٦).

تنزيله. وهم يشهدون أن لا إله إلا الله. فيكبر قتلهم على الناس. حتى يطعنون على ولي الله ويسخطون عمله كما سخط موسى أمر السفينة والغلام والجدار. فكان ذلك كله رضي الله تعالى عنك يا أبا ذر..^(١)

ورغم أن أبا ذر كان يحدث بقتال المفتونين قبل أن يأتي زمانه. إلا أن زمانه عندما جاء، قال من قال: يا أمير المؤمنين أي فتنة أعظم من هذه. ولقد رأينا كيف أجاب الإمام على هذا. ولم تكن هذه العقبة الوحيدة التي أزاحها الإمام. وإنما كانت هناك عقبات وعقبات أوجدتها ثقافات متعددة، وروي أن الحارث بن حوط الليثي دخل على أمير المؤمنين عليه السلام. فقال: يا أمير المؤمنين ما أرى طلحة والزبير وعائشة: أضحوا إلا على الحق.. والحارث ما قال ذلك إلا من بريق العناوين التي يحملها هؤلاء. ولكن الإمام في إجابته أخذ الحارث بعيدا عن البريق والزخرف.

فقال: يا حارث. إنك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك: إن الحق والباطل لا يعرفان بالناس. ولكن إعرف الحق باتباع من اتبعه. والباطل باجتناب من اجتنبه..^(٢)

وعلق الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال على هذا القول فقال: العاقل من يقتدي بسيد العقلاء علي كرم الله وجهه حيث قال: «لا يعرف الحق بالرجال إعرف الحق تعرف أهله». وإذا كانت هناك عقبات فكرية قد واجهت الإمام عليه السلام، فلقد رأينا كيف تعامل الإمام مع أصحاب هذا الفكر بالمنطق وإقامة الحجة عليهم.. وبنفس المنطق واجه الإمام العقبات التي واجهته عند التعبئة العامة قبل الحرب، وكما ذكرنا أن بعض

(١) (رواه الديلمي (كنز العمال ٦٠٦/١١)

(٢) (البيان والتبيين/ الجاحظ ١١٢/٢، تاريخ يعقوبي ١٥٢/٢).

الأحاديث قد ظهرت على السطح ويكمن فيها الاعتزال في غير موضعه.
ومن هذه الأحاديث ما روي عن الأحنف أنه قال: خرجت وأنا أريد
نصر ابن عم رسول الله ﷺ فلقيني أبو بكر فقال: يا أحنف ارجع فإني
سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل
والمقتول في النار.

فقلت: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه قد أراد
قتل صاحبه.. يقول سعيد حوي وهو يعقب على هذا الحديث: إن القتال
مع علي بن أبي طالب كان حقاً وصواباً..^(١)

وورد عن الإمام علي عليه السلام قد حثَّ الناس أن يعقلوا الخبر فقال:
«إعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل رعاية لا عقل رواية.. فإن رواة العلم
كثير ورعاته قليل»^(٢).

وقال: «ما اختلفت دعوتان إلا كانت إحداهما ضلالة»^(٣)

وروي أنه لما بلغه حديث أبو بكر قال: القاتل والمقتول منهم... أي
من أصحاب الجمل لأن القاتل يقتل إنساناً مؤمناً، والمقتول خارج عن
الملة بحربه لإمام زمانه، والرواية المتواترة عند الأمة تقول: من مات ولم
يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية^(٤)..

والعجيب أن طلحة بن عبيد عندما أدركته المنية بسهم مروان الوزغ
بعث عبده وقال له: اذهب إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام وبأيعه عني

(١) (رواه مسلم في الصحيح: ١١ / ١٨)

(٢) شرح نهج البلاغة الحديدي: ج ٥ / ٣٧٤.

(٣) ن. م. ج ٥ / ٤٤٩.

(٤) جامع أحاديث الشيعة: ج ٢٦ / ٥٦.

لأنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من مات وليس في عنقه بيعة مات على غير ملة الإسلام..وفي رواية: يهوديا أو نصرانيا..

ونحن إذا نظرنا في جانب آخر.. نجد أن أبا بكره كان يرجح أن أهل الجمل لن يفلحوا. ووفقا على ترجيحه هذا حدد خطوات نفسه. ولم يحدد خطواته على حديث القاتل والمقتول في النار.

بما روى البخاري عنه أنه قال: «لقد نفعتني الله بكلمة أيام الجمل لما بلغ النبي ﷺ أن فارسا ملكوا ابنة كسرى قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»، وقال في فتح الباري: زاد الإسماعيلي عن طريق عوف «قال أبو بكره: فعرفت أن أصحاب الجمل لن يفلحوا»

مما سبق نعلم أن أبا بكره كان يرجح أن الهزيمة ستصب على أهل الجمل. لكنه قال لمن أراد أن يلتحق بجيش علي «القاتل والمقتول في النار» (وهذا من خوفه على الأحنف من شدة القتال. وترتب على هذا اعتزال الأحنف بأتباعه وكان معه زهاء ستة آلاف مقاتل..

وفي موقف آخر التبست فيها الأمور عند عملية حشد القوات. روي أن الإمام علي عليه السلام ذهب إلى لاهيان بن صيفي. وكان له صحبة. فقام الإمام عليه السلام على باب حجرته وقال له: كيف أنت يا أبا مسلم. قال: بخير. فقال الإمام عليه السلام: ألا تخرج معي إلى هؤلاء القوم فتعينني. قال: إن خليلي (عليه الصلاة والسلام) وابن عمك. عهد إليّ إذا كانت فتنة بين المسلمين أن اتخذ سيفاً من خشب، فهذا سيفي فإن شئت خرجت به معك، فقال الإمام: لا حاجة لنا فيك ولا في سيفك. ورجع من باب الحجرة ولم يدخل»^(١)

(١) (جامع الترمذي ٤٩٠/٤)

لقد رجع الإمام دون أن يوجه أي اتهام إلى أحد.

فكما ذكرنا أن المقام مقام حجة، والاختيار مفتوح. وهو يأخذ بالأسباب ويكدح من أجل نهاية سيقتل شهيدا عندها.. والله يفعل ما يريد ليبتلي الحاضرين وينظر كيف يعملون ويبتلي الذين من بعدهم في مواقفهم من هذه الأحداث. والإمام قبل اتخاذه قرار الحرب في جميع معاركه كان يشاور ثم يضع الجميع أمام قراره وفي قراره لا تجد إلا مصلحة الدعوة.. فعن طارق بن شهاب قال: رأيت عليا عليه رحل رث بالربذة وهو يقول للحسن والحسين عليه السلام: ما لكم تحنان حنين الجارية.. والله لقد ضربت هذا الأمر ظهرا لبطن، فما وجدت بدا من قتال القوم أو الكفر بما أنزل على محمد صلوات الله عليه وآله (١)

إن الإمام إذا رفض القتال فلا معنى لعهد النبي له بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين الخوارج.. لذا فهو يخوض الصعب. ولا يخوض الصعب أحد سواه، وعلى طريق الصعب كان يخفف عن أتباعه فيخبرهم قبل كل معركة خاضها بنتيجتها وأهم معالمها.. قال ذلك يوم الجمل، وأيام صفين، وفي قتال الخوارج.

فالإمام كان يتحرك تحرك الدعوة، يخاطب الحاضر بزاد الماضي الطاهر المطهر. ليعبر الحاضر إلى المستقبل في أمان، وفي علم الله المطلق أن كل حاضر فيه غناء لا يسمع ولا يبصر - وهذا الغناء يسير بزاد الآباء والأهواء، لذا فهو عدو لكل حاضر ولكل مستقبل فيه من الله برهان، وهنا كانت الحجة مهمة يقوم بها الهداة إلى الله حتى لا يكون للغناء على الله حجة يوم لا ينفع مال ولا بنون. وروي أن الإمام عندما بعث إلى الأمصار للإصلاح. كتب أيضا إلى طلحة والزبير وأرسل

(١) (رواه الحاكم (المستدرک ١١٥/٣)، (كنز العمال ٣٤٩/١١)

كتابه مع عمران بن حصين وفيه: أما بعد: فقد علمتما وإن كتمتما أنني لم أرد الناس حتى أرادوني. ولم أباعهم حتى بايعوني. وإنكما ممن أرادني وبايعني، وإن العامة لم تباعيني لسلطان غالب. ولا لحرص حاضر. فإن كتمتما بايعتmani طائعين فارجعا وتوبا إلى الله من قريب. وإن كتمتما بايعتmani كارهين. فقد جعلتما لي عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة وإسراركما المعصية. ولعمري ما كتمتما بأحق المهاجرين بالتقية والكتمان، وإن دفعكما هذا الأمر قبل أن تدخل في. كان أوسع عليكما من خروجكما منه بعد إقراركما به. وقد زعمتما أنني قتلت عثمان. فبيني وبينكما من تخلف عني وعنكما من أهل المدينة. ثم يلزم كل امرئ بقدر ما احتمل. فارجعا أيها الشيخان عن رأيكما. فإن الآن أعظم أمركما بالعار. من قبل أن يجتمع العار والنار. والسلام»^(١)

ثم قال: ما لي ولقريش، ولم يقل: ما لي وطلحة والزبير. وذلك لأن الإمام ينظر إلى مساحة طويلة وعريضة. بصفته خبير بمعرفة الرجال، ثم أخبر عن هذه المساحة الطويلة العريضة فقال: لقد قاتلتهم كافرين. ثم قال خاصف النعل الأول. أي نعل رسول الله ﷺ: ولأقاتلنهم مفتونين. يقول ابن أبي الحديد: لأن الباغي على الإمام مفتون فاسق..^(٢)

ثم ربط الإمام بين ماضي المساحة وحاضرها برباط واحد، فقال: وإني لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم، ثم اختصر أسباب النزاع كله فقال: والله ما تنقم منا قریش إلا أن الله اختارنا عليهم. فأدخلناهم في حيزنا..

في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده إلى سعد بن عبد الله

(١) (ابن أبي الحديد ٥/٩٥)

(٢) (ابن أبي الحديد ١/٤٠٥)

القمي قال: دخلت على أبي محمد عليه السلام بسر من رأى فوجدت على فخذة الأيمن مولانا القائم عليه السلام وهو غلام، وقد كنت اتخذت طومارا وأثبت فيه نيفا وأربعين مسألة من صعاب المسائل لم أجد لها مجيبا فقال لي: ما جاء بك يا سعد؟

فقلت: شوقني احمد بن اسحق إلى لقاء مولانا.

قال: فما المسائل التي أردت أن تسأل عنها؟

فقلت: على حالها يا مولاي، قال: فاسأل قرّة عيني عنها - وأوماً إلى الغلام - فقال الغلام: سلّ عمّا بدا لك منها..

فقلت له: مولانا وابن مولانا إنا روينا عنكم إن رسول الله صلّى الله عليه وآله جعل طلاق نسائه بيد أمير المؤمنين عليه السلام حتى قال يوم الجمل لعائشة: انك قد أرهجت (أرهج الغبار: أثاره) على الإسلام وأهله بفتنتك، وأوردت بنيك حياض الهلاك بجهلك، فان كفت عني غربك (الغرب: الحدة) وإلا طلقتك؟ ونساء رسول الله صلّى الله عليه وآله طلاقهن وفاته.

قال: ما الطلاق؟ قلت: تخلية السبيل، قال: فإذا كان وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله خلت لهن السبيل فلم لا تحل لهن الأزواج؟

قلت: لان الله تبارك وتعالى حرم الأزواج عليهن، قال: وكيف وقد خلّى الموت سبيلهن؟ قلت: فأخبرني يا ابن مولاي عن معنى الطلاق الذي فوض رسول الله صلّى الله عليه وآله حكمه إلى أمير المؤمنين عليه السلام؟

قال: إن الله تقدس اسمه عظم شأن نساء النبي صلّى الله عليه وآله فخصهن بشرف الأمهات، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: يا أبا الحسن إن هذا الشرف باق لهن ما دُمّنَ الله على الطاعة، فأيتّهن عصت الله بعدي بالخروج عليك فأطلق لها في الأزواج، وأسقطها من شرف الأمهات ومن شرف أمومة المؤمنين،

والحديث طويل اخذنا منه موضع الحاجة.^(١)

عن حفص بن غياث، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سأل رجل أبي (صلوات الله عليه) عن حروب أمير المؤمنين عليه السلام وكان السائل من محبيننا فقال له أبو جعفر عليه السلام: بعث الله محمداً عليه السلام بخمسة أسياف ثلاثة منها شاهرة فلا تغمد حتى تضع الحرب أوزارها ولن تضع الحرب أوزارها حتى تطلع الشمس من مغربها شاهرة^(٢).

فإذا طلعت الشمس من مغربها آمن الناس كلهم في ذلك اليوم فيومئذ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، وسيف منها مكفوف وسيف منها مغمود سله إلى غيرنا وحكمه إلينا. وأما السيوف الثلاثة الشاهرة:

فسيف على مشركي العرب قال الله عز وجل: ﴿فَأَقْضُوا الْغُرُوبَ وَالْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِنَّا تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾^(٣). كل (مرصد) أي كل ممر ومجتاز ترصدونهم به.

﴿فَالْخَوَنُكُمُ فِي الدِّينِ﴾^(٤). هكذا في جميع النسخ ولعله سقط منه (إلى قوله) «فهؤلاء لا يقبل منهم إلا القتل أو الدخول في الإسلام وأموالهم وذرائعهم سبي على ما سن رسول الله عليه السلام فإنه سبي وعفى وقبل الفداء. والسيف الثاني على أهل الذمة، قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ

(١) تفسير نور الثقلين للحويزي ج ٥ ص ٣٧١

(٢) (أي مجردة من الغمد. ولعل طلوع الشمس من مغربها كناية عن أشراط الساعة وقيام القيامة)

(٣) (التوبة: ٥)

(٤) (التوبة: ١١)

حُسْنًا ﴿١﴾

نزلت هذه الآية في أهل الذمة ثم نسخها قوله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾^(٢). (عن يد) حال من الضمير في يعطوا اي عن يد مؤاتية غير ممتنعة. أو حتى يعطوها عن يد إلى يد نقدا غير نسية (صاغرون) اي أذلاء. «فمن كان منهم في دار الإسلام فلن يقبل منهم إلا الجزية أو القتل وما لهم فيئ وذرايعهم سبي وإذا قبلوا الجزية على أنفسهم حرم علينا سبيهم وحرمت أموالهم وحلت لنا مناكحتهم ومن كان منهم في دار الحرب حل لنا سبيهم وأموالهم ولم تحل لنا مناكحتهم ولم يقبل منهم إلا الدخول في دار الإسلام أو الجزية أو القتل.

والسيف الثالث سيف على مشركي العجم يعني الترك والديلم والخزر، قال الله **عَزَّوَجَلَّ** في أول السورة التي يذكر فيها «الذين كفروا» فقص قصتهم ثم قال: ﴿فَضْرَبَ الرِّقَابَ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاكَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾^(٣) وقوله **عَزَّوَجَلَّ** أي أكثرتم قتلهم وأغلظتموهم. من الثخن) فأما قوله: «فأما منا بعد» يعني بعد السبي منهم» «وإما فداء» يعني المفاذاة بينهم وبين أهل الإسلام فهؤلاء لن يقبل منهم إلا القتل أو الدخول في الإسلام ولا يحل لنا مناكحتهم ما داموا في دار الحرب. وأما السيف المكفوف فسيف على أهل البغي والتأويل قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ

(١) (البقرة: ٨٣. اي قولاً حسناً، سماه حسناً للمبالغة)

(٢) (التوبة: ٣٠)

(٣) (محمد: ٤)

إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَتِلُوا أَلَيْ تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ؟^(١)

وهذه الآية أصل في قتال أهل البغي من المسلمين ودليل على وجوب قتالهم وعليها بنى أمير المؤمنين قتال الناكثين والقاسطين والمارقين وإياها عني رسول الله ﷺ حين قال لعمار بن ياسر: يا عمار تقتلك الفئة الباغية. فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله واله: إن منكم من يقاتل بعدي على التأويل كما قاتلت على التنزيل، فسئل النبي ﷺ من هو؟ فقال: خاصف النعل يعني أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فقال عمار بن ياسر: قاتلت بهذه الراية مع رسول الله ﷺ ثلاثا وهذه الرابعة والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا السعفات من هجر^(٢) لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل.

وكانت السيرة فيهم من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ما كان من رسول الله ﷺ في أهل مكة يوم فتح مكة فإنه لم يسب لهم ذرية وقال: من أغلق بابَه فهو آمن ومن ألقى سلاحه فهو آمن وكذلك قال: أمير المؤمنين صلوات الله عليه يوم البصرة نادى فيهم لا تسبوا لهم ذرية ولا تجهزوا على جريح (أسرع في قتله) ولا تتبعوا مدبرا ومن أغلق بابَه وألقى سلاحه فهو آمن.

وأما السيف المغمود (في غمده غلافه) فالسيف الذي يقوم به القصاص قال الله عز وجل: ﴿النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ﴾^(٣)

فسله إلى أولياء المقتول، وحكمه إلينا.. فهذه السيوف التي بعث

(١) (الحجرات: ٩)

(٢) (السعفات جمع سعة وهي أغصان النخل. والهجر - بالتحريك -، بلدة باليمن واسم لجميع أرض البحرين وإنما خص هجر لبعد المسافة)

(٣) (المائدة: ٤٥)

الله بها محمداً ﷺ فمن جحدوها أو جحد واحداً منها أو شيئاً من سيرها وأحكامها فقد كفر بما أنزل الله على محمد ﷺ. (١)

عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله ﷺ: لما التقى أمير المؤمنين ﷺ وأهل البصرة نشر الراية راية رسول الله ﷺ فتزلزلت أقدامهم فما اصفرت الشمس حتى قالوا: أمتنا يا ابن أبي طالب فعند ذلك قال: لا تقتلوا الأسراء، ولا تجهزوا على جريح، ولا تتبعوا مولياً، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ومن أغلق بابيه فهو آمن. ولما كان يوم صفين، سأله نشر الراية فأبى عليهم فتحملوا عليه بالحسن والحسين وعمار بن ياسر فقال للحسن: يا بني إن للقوم مدة يبلغونها وإن هذه راية لا ينشرها بعدي إلا القائم صلوات الله عليه. (٢)

والخلاصة: أن مجمل الصعوبات التي واجهت الإمام كانت نتيجة لمنع الحديث النبوي، وعدم الرواية عن رسول الله ﷺ منذ زمن الخليفة الثاني عمر الذي نهى بعض الكذابين كأبي هريرة وغيره عن الحديث، ولكن هذا جرأ الأمويين على نهى الصادقين عن الرواية والإغراء بالسفهاء والكذابين بالحديث المكذوب على رسول الله ﷺ وتكذيب الحديث الصادق عنه ﷺ، ولكن تفاقمت كثيراً جداً في العهد الأموي حيث تفشى الكذب بشكل خطير جداً.

لأن هناك أحاديث تحذير شديدة فيها أسماء رؤوس الفتن الأموية كل ذلك على امتداد ربع قرن كان قد ضاع من ذاكرة البعض أو تناسوه كما في أحاديث حذيفة بن اليمان العالم بأسماء المنافقين.

(١) الكافي للكليني ج ٥ ص ١٠

(٢) بحار الأنوار ج ٥٢ ص ٣٦٧

٤. ابن عباس والي البصرة:

ومما رواه الواقدي عن رجاله قال لما أراد أمير المؤمنين الخروج من البصرة استخلف عليها عبد الله بن العباس ووصاه وكان في وصيته له أن قال:

يا ابن عباس عليك بتقوى الله والعدل بمن وليت عليه وأن تبسط للناس وجهك وتوسع عليهم مجلسك وتسعهم بحلمك وإياك والغضب فإنه طيرة الشيطان وإياك والهوى فإنه يصدك عن سبيل الله واعلم أن ما قربك من الله فهو مباعدك من النار وما باعدك من الله فمقربك من النار واذكر الله كثيرا ولا تكن من الغافلين

وروى أبو مخنف لوط بن يحيى قال لما استعمل أمير المؤمنين عبد الله بن العباس على البصرة خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ثم قال:

معاشر الناس قد استخلفت عليكم عبد الله بن العباس فاسمعوا له وأطيعوا أمره ما أطاع الله ورسوله فإن أحدث فيكم أو زاغ عن الحق فاعلموا أنني أعزله عنكم فإني أرجو أن أجده عفيفا تقيا ورعا وإني لم أوله عليكم إلا وأنا أظن ذلك به غفر الله لنا ولكم.

فأقام عبد الله بالبصرة حتى عمده أمير المؤمنين عليه السلام إلى التوجه إلى الشام فاستخلف عليها زياد بن أبيه وضم إليه أبا الأسود الدؤلي ولحق بأمير المؤمنين عليه السلام حتى سار إلى صفين.

وروى أبو مخنف لوط بن يحيى عن رجاله لما أراد أمير المؤمنين عليه السلام التوجه إلى الكوفة قام في أهل البصرة فقال:

ما تنقمون علي يا أهل البصرة؟ وأشار إلى قميصه وردائه فقال والله

إنهما لمن غزل أهلي ما تنقمون مني يا أهل البصرة وأشار إلى صرة في يده فيها نفقته فقال والله ما هي إلا من غلتي بالمدينة فإن أنا خرجت من عندكم بأكثر مما ترون فأنا عند الله من الخائنين ثم خرج وشيعه الناس إلى خارج البصرة وتبعه الأحنف بن قيس إلى الكوفة.

ولما خرج وصار على غلوة استقبل الكوفة بوجهه وهو راكب بغلة رسول الله ﷺ وقال: الحمد لله الذي أخرجني من أخبث البلاد وأخشنها ترابا وأسرعها خرابا وأقربها من الماء وأبعدا من السماء بها مغيض الماء وبها تسعة أعشار الشر وهي مسكن الجن الخارج منها برحمة والداخل إليها بذنب أما إنها لا تذهب الدنيا حتى يجيئ إليها كل فاجر ويخرج منها كل مؤمن وحتى يكون مسجدها كأنه جؤجؤ سفينة^(١).

نعم؛ خرج أمير المؤمنين عليه السلام من البصرة القريبة من الماء البعيدة عن السماء وتوجه إلى عاصمته السياسية والتي تجمع أشياعه وأتباعه وأنصاره، ألا وهي مدينة الكوفة العتيدة..

(١) الجمل للشيخ المفيد : ص ٢٢٤.

المعركة الثانية

حرب القاسطين في معركة صفين.

﴿وأما القاسطين فكانوا لجهنم حطباً﴾ سورة الجن

مواصفات الحرب

تاريخها: بعد مضي حوالي أربعة أشهر على إخماد فتنة الناكثين بقيادة عائشة وطلحة والزبير، واجه الإسلام العلوي فتنة القاسطين بقيادة معاوية وعمرو بن العاص.. بعد أن مكث في الكوفة أكثر من سنة ونصف السنة، عمل فيها لتنظيم الدولة الإسلامية وتوطيد أركان الحكم بعد كل تلك القلاقل التي تعرضت لها في الأيام الأخيرة لحكم الخليفة عثمان والتي لم تنته إلا بقتله ورميه في حش كوكب، ثم ما كان من أمر الناكثين ومعركتهم في الجمل..

فكان لابد لأمير المؤمنين عليه السلام من أن يلتفت إلى شؤون الحكم، وقضايا الدولة وتنظيم شؤون الأمة الإسلامية، وتثبيت أركان الحكم العلوي الشريف، وكان مما عمله في الكوفة ما يلي:

١. جعل الكوفة عاصمة سياسية جديدة للحكومة الجديدة..
٢. إعادة ترتيب وضع الأمة بعد فتنة الجمل، فعاتب المتخلفين عن نصرته، ولام المتحزبين مع أعدائه، الذين أرادوا شق عصا الطاعة، وتفتيت وحدة الأمة..

٣. بعث الولاة على الأمصار، لا سيما تلك التي لم يبعث إليها فبسط سيطرته على كل المناطق إلا ما كان يسيطر عليها معاوية بن أبي سفيان من أرض الشام..

٤. مراسلة معاوية من أجل تلافي الحرب وويلاتها..

٥. تنظيم الجيش وتقويته، بالتدريب، والتأمين، استعداداً للحرب المحتملة مع أي كان، ففوة الدولة بقوة جيشها وانضباطه..

وفي كل تلك الفترة الممتدة (سبعة عشر شهراً) كان أمير المؤمنين عليه السلام يستقبل الوفود من الزعماء، والشيوخ والأعيان للبيعة فكان يولي عليهم أفضلهم ويرسله من أجل تجهيز الجيوش وبعثها إلى الكوفة.. واختار أمير المؤمنين عليه السلام منطقة (النخيلة) كمركز تجمع للقوات المسلحة فكان بذلك يزجها مباشرة في أجواء المعسكرات القتالية، ويجنب الكوفة مشاكل العسكر الكثيرة، فأمن شرهم، وكسبوا الخير بزيادة التدريب في المعسكرات هناك.. لأن أمير المؤمنين عليه السلام عين القادة، ورفع الأولوية وأعطاهم لأصحابها، ورتب الأحماس، والكتائب لسهولة القيادة، وحصر المسؤوليات..

وبعد عيد الفطر المبارك خرج الإمام علي عليه السلام (في الخامس من شوال عام ٣٦ للهجرة) من الكوفة لإخماد هذه الفتنة التي أعلنها ابن أبي سفيان في بلاد الشام^(١)..

وفي أواخر ذي القعدة^(٢) وأثناء حط الرحال في صفين وقعت معركة خاطفة للسيطرة على شريعة الفرات التي سيطر عليها جيش معاوية قبل وصول الإمام وجيشه، وقد انتهت هذه المعركة بانتصار جيش الإمام

(١) مروج الذهب: ٣٨٤/٢، وقعة صفين: ١٣١.

(٢) تاريخ الطبري: ٥٧٣/٤، الكامل في التاريخ: ٣٦٥/٢.

علي عليه السلام إنتصاراً ساحقاً.

وفي شهر ذي الحجة وقعت مناوشات بين الجيشين^(١)، إلى أن أعلنت الهدنة بين الفريقين في محرم من عام ٣٧^(٢) لحرمة هذا لبشهر الحرام، وأملاً بالصلح، ولكن ما إن انتهت الهدنة حتى وقعت الحرب الحقيقية بينهما في بداية صفر عام ٣٧^(٣) وحمى وطيسها في الثامن من صفر بيوم الهرير وليلته.

وفي العاشر منه^(٤) حينما كان جيش الحق بقيادة الإمام علي عليه السلام على وشك إحراز الانتصار الحاسم، إلا أنها انفضت بحيلة من عمرو بن العاص برفع المصاحف على الرماح والدعوة إلى التحكيم، وهكذا وضعت الحرب أوزارها وعاد الإمام علي عليه السلام إلى الكوفة لتسيير أمور الدولة، وإدارة شؤون الأمة الإسلامية.

مكانها: صفين (بكسرتين وتشديد الفاء - موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس^(٥) وتبلغ المسافة ما بين دمشق والرقة - وهي بقرب صفين - ٥٥٠ كيلو مترا تقريبا^(٦))

زمانها: في صيف عام ٣٧/ للهجرة..

مدتها: مائة يوم وعشرة أيام..

وقائعها: وكانت الوقائع تسعين وقعة..

(١) الطبري: ٥٧٥/٤، البداية والنهاية: ٢٦٠/٧، صفين: ١٩٦.

(٢) الطبري: ٥٧٥/٤، الكامل في التاريخ: ٣٦٧/٢ مروج الذهب: ٣٨٧/٢، صفين: ١٩٦.

(٣) الطبري: ١٠/٥، صفين: ٢٠٢، المروج: ٣٨٧/٢، تاريخ الإسلام: ٥٣٨/٣.

(٤) موسوعة الإمام علي عليه السلام للري شهري: ٢٨٠/٥.

(٥) معجم البلدان: ٤١٤/٣.

(٦) جدول المسافات للقطر العربي السوري: ١٢٧.

عدد المشاركين فيها: ذكرت أعداد متضاربة عن عدد جيشي الإمام علي عليه السلام ومعاوية.. ولعل سبب ذلك يعود إلى أن بعضهم ذكر عدد المقاتلين فقط، بينما أضاف بعض آخر الخدم والغلمان، وزاد عليهم آخرون كل من يرافق الجيوش عادة من جماعات الميرة، والنساء والأطفال ومع أن النصوص التاريخية أشارت إلى أن:

٦. جيش الإمام علي عليه السلام

بلغ قوامه ١٥٠ ألفاً أو ١٢٠ ألفاً أو أكثر من ١٠٠ ألف أو ٩٥ ألفاً أو ٥٠ ألفاً على اختلاف بينها، إلا أن المشهور هو أن عدد جيش الإمام كان تسعين ألفاً.

وتضاربت الروايات أيضاً بخصوص عدد جيش معاوية ما بين ١٣٠ ألفاً ومائة وعشرين ألفاً ومائة ألف و ٩٠ ألفاً و ٨٣ ألفاً و ٧٠ ألفاً (٨) و ٦٠ ألفاً، إلا أن الروايات التي تصرح بأن عددهم كان خمسة وثمانين ألفاً هي الأشهر^(١).

١.٦. قادة جيش الحق

القائد العام: أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام..

قائد خيالة الكوفة: مالك الأشتر وقيل: عمار في بعض المصادر.

قائد خيالة البصرة: سهل بن حنيف.

قائد رجال الكوفة: عمار بن ياسر.

قائد قراء أهل البصرة: مسعر بن فدكي التميمي أو مسعود..

(١) راجع مصادر الأرقام موسوعة الإمام علي للري شهري: ٢٨١/٥.

قائد قراء أهل الكوفة: عبد الله بن بديل وعمار بن ياسر.

صاحب اللواء: هاشم بن عتبة المرقال.

قائد الميمنة: الأشعث بن قيس.

قائد الميسرة: عبد الله بن عباس.

قائد رجاله الميمنة: سليمان بن صرد الخزاعي.

قائد رجاله الميسرة: الحارث بن مرة العبدي.

قلب الجيش: قبيلة مضر.

ميمنة الجيش: أهل اليمن.

ميسرة الجيش: قبيلة ربيعة.

قادة جيش القاسطين

القائد العام: معاوية بن أبي سفيان..

قائد الميمنة: عبد الله بن ذي الكلاع الحميري.

قائد الميسرة: حبيب بن مسلمة الفهري.

قائد خيالة الشام: عمرو بن العاص.

قائد رجاله الشام: الضحاك بن قيس.

قائد الخيالة: عبيد الله بن عمر بن الخطاب.

قلب الجيش: أهل دمشق، وعليهم الضحاك بن قيس الفهريميمية

الجيش: أهل حمص وقنسرين.

ميسرة الجيش: أهل الأردن وفلسطين.

صاحب اللواء: عبد الرحمن بن خالد بن الوليد.

٢.٦. أكابر جيش الحق

شارك في حرب صفين إلى جانب أمير المؤمنين عليه السلام الكثير من أكابر صحابة الرسول ﷺ وغيرهم ممن بذل كل غالٍ ونفيس في سبيل إرساء دعائم الإسلام. وتختلف الروايات في ذكر عددهم؛ فمنها ما يشير إلى أن عددهم كان بين

- ٧٠ و ٨٠ من البدرين..

- ٨٠ و ممن شهدوا بيعة الرضوان..

- ٤٠٠ من سائر الصحابة.

وفي المستدرك على الصحيحين عن الحكم: شهد مع علي عليه السلام صفين ثمانون بدرية، وخمسون ومائتان ممن بايع تحت الشجرة^(١).

وفي تاريخ اليعقوبي: كان مع علي عليه السلام يوم صفين من أهل بدر سبعون رجلاً، وممن بايع تحت الشجرة سبعمائة رجل، ومن سائر المهاجرين والأنصار أربعمائة رجل^(٢).

تاريخ خليفة بن خياط عن عبد الرحمن بن أبيزي: شهدنا مع علي ثمانمائة ممن بايع بيعة الرضوان، قتل منا ثلاثة وستون؛ منهم: عمار بن ياسر^(٣).

(١) المستدرك: ١١٢/٣، الفتوح ٥٤٤/٢.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ١٨٨/٢، تاريخ دمشق: ٤٤٢/١٩.

(٣) تاريخ ابن الخياط: ١٤٨، تاريخ الإسلام: ٥٤٥/٣.

والعقد الفريد: قال معاوية يوما: يا معشر الأنصار! لم تطلبون ما عندي؟ فوالله لقد كنتم قليلا معي كثيرا مع علي، ولقد فللتم حدي يوم صفين، حتى رأيت المنايا تتلظى من أستكم^(١).

مروج الذهب: كان ممن شهد صفين مع علي من أصحاب بدر سبعة وثمانون رجلا: منهم سبعة عشر من المهاجرين، وسبعون من الأنصار، وشهد معه من الأنصار ممن بايع تحت الشجرة؛ وهي بيعة الرضوان من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ تسعمائة، وكان جميع من شهد معه من الصحابة ألفين وثمانمائة^(٢).

وفي مقابل ذلك كان عدد الذين شاركوا في جيش معاوية من الصحابة لا يتجاوز عدد أصابع اليد وهم ممن أسلموا بعد الفتح.

من الشخصيات الصحابية البارزة التي وقفت إلى جانب الإمام علي عليه السلام يمكن الإشارة إلى كل من:

* الإمام الحسن عليه السلام

* الإمام الحسين عليه السلام

* عمار بن ياسر

* سهل بن حنيف

* قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري

* عدي بن حاتم الطائي..

* هاشم بن عتبة المرقال..

* عبد الله بن بديل الخزاعي..

(١) العقيد الفريد : ٩١/٣.

(٢) مروج الذهب : ٣٦١/٢.

* عبد الله بن عباس

* أويس القرني

* أبو الهيثم مالك بن التيهان

* عبد الله بن جعفر

* خزيمة بن ثابت

* سليمان بن صرد الخزاعي

* عمرو بن حمق الخزاعي.

ومن الأعلام الآخرين الذين لم يدركوا عهد الرسول ﷺ وكانوا في جيش الإمام علي عليه السلام في معركة صفين:

* محمد ابن الحنفية

* مالك الأشتر (رئيس أركان جيش الحق).

* الأحنف بن قيس..

* سعيد بن قيس الهمداني..

* حجر بن عدي الكندي..

* أصبغ بن نباتة..

* صعصعة بن صوحان..

* شريح بن هانئ..

* عبد الله بن هاشم بن عتبة..

* جعدة بن هبيرة..

* زياد بن النضر..

٧. وجوه أصحاب معاوية

لم يكن أحد من أصحاب معاوية من السابقين إلى الإسلام، بل كان بعضهم ممن حارب النبي ﷺ سنوات عديدة أو ممن طرده أو لعنه النبي ﷺ، أمثال:

- * عمرو بن العاص. ابن النابغة الملعون..
- * عبد الله بن عمرو بن العاص.. ابن أبيه..
- * عبيد الله بن عمر.. الهارب من الحد بالهرمزان..
- * حبيب بن مسلمة..
- * ذو الكلاع الحميري..
- * الضحاك بن قيس..
- * الوليد بن عقبة.. الفاسق بنص القرآن الكريم..
- * عبد الرحمن بن خالد بن الوليد..
- * أبو الأعور السلمي..
- * بسر بن أرطاة..
- * عبد الله بن عامر..
- * مروان بن الحكم.. الوزغ ابن الوزغ، الملعون ابن الملعون..
- * عتبة بن أبي سفيان.

عدد القتلى فيها: المشهور أن:

- * القتلى من أهل العراق: خمسة وعشرون ألفا..
- * ومن أهل الشام: خمسة وأربعون ألفا وفي قبالتها أقوال آخر - كما نقل عن ابن أبي شيبة - : خمسون ألفا من أهل الشام، وعشرون ألفا من

أهل العراق

وعن يحيى بن معين: من أهل العراق عشرون ألفاً، ومن أهل الشام تسعون ألفاً، ومجموع من قتل بها من الفريقين - في مائة يوم وعشرة أيام - مائة ألف وعشرة آلاف^(١).

أنساب الأشراف: كان علي عليه السلام بصفين في خمسين ألفاً، ويقال: في مائة ألف. وكان معاوية في سبعين ألفاً، ويقال: في مائة ألف. فقتل من أهل الشام خمسة وأربعون ألفاً، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً^(٢).

وفي معجم البلدان: قتل في الحرب بينهما سبعون ألفاً، منهم من أصحاب علي عليه السلام خمسة وعشرون ألفاً ومن أصحاب معاوية خمسة وأربعون ألفاً، وقتل مع علي عليه السلام خمسة وعشرون صاحباً بدرية، وكانت مدة المقام بصفين مائة يوم وعشرة أيام، وكانت الوقائع تسعين وقعة^(٣).

تهذيب الكمال عن الحسن بن عثمان عن عدة من الفقهاء وأهل العلم: كانت وقعة صفين بين علي ومعاوية، فقتلت بينهما جماعة كبيرة يقال: إنهم كانوا سبعين ألفاً في صفر، ويقال: في ربيع الأول، منهم من أهل الشام خمسة وأربعون ألفاً، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً، وكان ممن عرف من أشراف الناس عمار بن ياسر^(٤).

وفي مروج الذهب عن يحيى بن معين: إن عدة من قتل بها من

(١) راجع موسوعة الإمام علي عليه السلام: ٢٨٧/٥.

(٢) أنساب الأشراف: ٩٧/٣.

(٣) معجم البلدان: ٤١٤/٣.

(٤) تهذيب الكمال: ٢٢٦/٢١.

الفريقين - في مائة يوم وعشرة أيام - مائة ألف وعشرة آلاف من الناس؛
من أهل الشام تسعون ألفاً، ومن أهل العراق عشرون ألفاً^(١).

(١) مروج الذهب: ٤٠٤/٢.

الفصل الأول:

المقدمات والإرهاصات

١. السياسة العلوية

بايع المهاجرون والأنصار ومن شهد بالمدينة المنورة من التابعيه بإحسان أمير المؤمنين، ومولى الموحدين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام رغم كراهته لذلك ولكن تحت ضغط الجماهير المؤمنة، وكبار الصحابة كطلحة والزبير وغيرهم قبل البيعة بعد خمسة أيام وتمت بعد أسبوع من مقتل عثمان بن عفان..

أخذت البيعة على رؤوس الأشهاد، وأقر بها العباد، وفرح بها كل الناس حتى النساء والأولاد.. وكالعادة أراد أمير المؤمنين عليه السلام أن يبسط سلطته على البلاد فأرسل العمال والولاة على الأمصار، كالבصرة، والكوفة، ومصر، والشام لم تكن بدعة من الأمر فأرسل إليها عبد الله بن

عباس أولاً ، ثم سهل بن حنيف الأنصاري ثانياً فأرجعته شرطة معاوية من تخوم الشام..

٢. معاوية والبيعة العلوية النورانية

وأمر المؤمنين عليه السلام تعامل مع معاوية معاملة أصولية ودبلوماسية تماماً، ولكن الرجل كان يخبئ ضباً في جيبه، فكان يظهر الطلب بدم ابن عمه عثمان، ويحرض الناس للطلب بدمه ويقول لهم: إن علي بن أبي طالب عليه السلام هو الذي قتله واستولى على مقاليد الخلافة غصبا وكرها من دون مشورة من المسلمين..

وبنفس الوقت كان يرسل رسائل خفية إلى أمير المؤمنين عليه السلام مفادها إذا تركني في ولاية الشام فأنا على العهد والطاعة، وإلا فأنا المطالب بدم ابن عمي وهو قاتله، وهاهم الآلاف المؤلفة من أهل الشام يشهدون لي ويقاتلون بضراوة من أريد..

هذا ما حدث به عمر بن ثابت عن جبلة بن سحيم عن أبيه قال: لما بويع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بلغه أن معاوية قد توقف عن إظهار البيعة له وقال: إن أقرني على الشام وأعمالي التي ولانيها عثمان بايعته..

فجاء المغيرة إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يا أمير المؤمنين إن معاوية من قد علمت وقد ولاه الشام من كان قبلك فوله أنت كيما تتسق الأمور ثم اعزله إن بدا لك.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أتضمن لي عمري يا مغيرة فيما توليته إلى خلعه؟ قال: لا.

قال: فلا يسألني الله عَزَّوَجَلَّ عن توليته على رجلين من المسلمين ليلة سوداء أبدا ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا﴾ [الكهف: ٥١] لكنني ابعث إليه فأدعوه إلى ما في يدي من الحق فإن أجاب فرجل من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم وإن أبى حاكمته إلى الله.

فولى المغيرة وهو يقول:

نصحت عليا في ابن حرب
نصيحة فرد فما مني له الدهر ثانية
ولم يقبل النصح الذي جئته به
وكانت له تلك النصيحة كافية
وقالوا له ما أخلص النصح
كله فقلت له إن النصيحة غالية

فقام قيس بن سعد فقال: يا أمير المؤمنين إن المغيرة أشار عليك بأمر لم يرد الله به فقدّم فيه رجلا وآخر فيه أخرى فان الغلبة تقرب إليك بالنصيحة وإن كانت لمعاوية تقرب إليه بالمشورة. ثم أنشأ يقول:

كادوا من أرسى ثبيرا مكانه
مغيرة إن يقوى عليك معاوية
وكنت بحمد الله فينا موفقا
وتلك التي أراكها غير كافيه
فسبحان من علا السماء مكانها
والأرض دحاها كما هي هيه^(١)

وقال المسعودي: لما قتل عثمان بايعت الناس أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بالخلافة، كتب عليه السلام إلى معاوية بن أبي سفيان

(١) بشارة المصطفى للطبري ص ٢٦٣، الغدير للشيخ الأميني: ج ٢/ ٧٤.

بالشام: (أما بعد فإن الناس قتلوا عثمان من غير مشورة مني، وبايعوني عن مشورة منهم واجتماع، فإذا أتاك كتابي هذا فبايع لي الناس، وأوفد إلى أشراف أهل الشام)^(١)

فلم يكن منه لأمير المؤمنين عليه السلام جوابا بل راح يروغ كالثعلب فأرسل كتابا خدعة لصاحبي الشورى العمريه (طلحة والزبير) يحرضهما على الخلاف ويخاطبهما بأمره المؤمنين، وهما الذين قتلوا ابن عمه كما يدّعي فتأثره عندهما وليس عند أمير المؤمنين عليه السلام، غير أنه كتب كتابا إلى الزبير بن العوام وبعثه مع رجل من بني عبس فمضمونه:

بسم الله الرحمن الرحيم: إلى الزبير بن العوام (أمير المؤمنين) (في البحار: لعبد الله بن الزبير أمير المؤمنين) من معاوية بن أبي سفيان. سلام الله عليكم أما بعد، فإني قد بايعت لك أهل الشام فأجابوني إلى بيعتك فاستوثقتهم كما استوثق الحلف، فدونك الكوفة والبصرة [لا يسبقك عليهما علي بن أبي طالب] فإنه لا شيء بعد هذين المصرين وقد بايعتهم لطلحة بن عبيد الله من بعدك، فعليكما بالظهور في طلب دم عثمان، فأدعوا الناس إلى ذلك بالجد والتشهير، ظفركما الله تعالى وخذل مناوئكما^(٢).

وكتب إلى طلحة:

أما بعد: فإنك أقل قريش في قريش وترا، مع صباحة وجهك، وسماحة كفك، وفصاحة لسانك، فأنت بإزاء من تقدمك في السابقة، وخامس المبشرين بالجنة، ولك يوم أحد وشرفه وفضله، فسارع - رحمك الله - إلى ما تقلدك الرعية من أمرها، مما لا يسعك التخلف

(١) (نهج البلاغة ١: ٢٣٠، بحار الأنوار ٣٢: ٦)

(٢) (الجمال لزامن بن شدقم: ص ٧٥).

عنه، ولا يرضى الله منك إلا بالقيام به، فقد أحكمت لك الأمر قبلي، والزبير فغير متقدم عليك بفضل، وأيكما قدم صاحبه فالمقدم الإمام، والأمر من بعده للمقدم له، سلك الله بك قصد المهتدين، ووهب لك رشد الموفقين، والسلام^(١).

فأمير المؤمنين عليه السلام الخليفة الشرعي الواجب الطاعة يرسل إليه طالبا البيعة له من أهل الشام فيُماطل ويُرسل رسائل مُخادعة بالبيعة لمن يعرفهم يحبون السُّلطة والرئاسة فيغريهم بها ويوجههم إلى مقتلهم بعيدا عنه في أقاصي العراق، فيكون ضرب ضربة مزدوجة فيضعف الجميع وتسلم له قوته، فإذا أردت أن تضعف عدوك فادفعه إلى معركة خارج أرضك فتستنزف قواه وتضعف قدراته..

وهذا ما فعله معاوية وكان الطعم للأسف طلحة والزبير وأمهم السيدة عائشة، وكانت معركة الجمل التي قادها ابن أبي سفيان من بعد لأنها سارت كما خطط لها، فكانت النتيجة شق عصا المسلمين والقاء بأسهم بينهم تحضيراً لمعركة يقودها بنفسه ليخرج منها خليفة وسلطان على العالم الإسلامي، أو لا أقل تسلم له الشام التي يحكمها. علما أن معاوية لا تحقق له الخلافة شرعا لأنه من الطلقاء، فليس له سوابق في الدين، ولا له ذكر في المؤمنين بل هو رأس من رؤوس الأحزاب المحاربة لله ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، دخل في الإسلام كرها، وخرج منه جهرا، وكان كل حلمه أن يتسلط عليه فحكمه دهرا بالمكر والغدر والحيلة..

فقد جاء في خطبة لأمير المؤمنين (سلام الله عليه) يوم صفين قوله: ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمرهم فقالوا لي: بايع؛ فأبيت عليهم، فقالوا لي: بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك، وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق

(١) الغدير للشيخ الأميني: ج ١٠/ ٣٢٩ عن شرح النهج الحديدي: ج ١٠/ ٢٣٥.

الناس.. فبايعتهم، فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني، وخلاف معاوية إياي الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين، ولا سلف صدق في الاسلام، طليق ابن طليق، وحزب من الأحزاب لم يزل الله ولرسوله وللمسلمين عدوا هو وأبوه حتى دخلا في الاسلام كارهين مكرهين، فعجبنا لكم (أوفيا عجا لكم) ولإجلابكم معه، وانقيادكم له، وتدعون أهل بيت نبيكم ﷺ الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم، ولا أن تعدلوا بهم أحدا من الناس، إني أدعوكم إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبيكم ﷺ، وإماتة الباطل، وإحياء معالم الدين^(١).

إذن فلم تفلح جميع الجهود التي بذلت لإقناع الإمام علي عليه السلام بإبقائه معاوية في منصبه، إذ كان لا يرى جواز إبقائه والياً ولو للحظة واحدة.. أما بالنسبة إلى معاوية فهو لم يبايع الإمام ولم يترك أهل الشام يبايعونه.. وبدأ منذ اليوم الأول لخلافة الإمام بالتآمر عليه، ممهداً بذلك الأجواء للصدام العسكري..

وأول سؤال يثار في هذا المجال هو: كيف يمكن تبرير عمل الإمام هذا من الوجهة السياسية؟ ألم يكن من الأفضل أن يبقى الإمام علي عليه السلام معاوية في منصبه في بداية خلافته إلى حين استتباب الأمور، وإلى أن يبايع هو وأهل الشام، ثم يعزله من بعد ذلك لكي لا تقع حرب صفين ولكي تستقر الحكومة الإسلامية بقيادته؟

ألم يكن الحفاظ على وحدة كلمة الأمة وديمومة النظام الإسلامي وهما من أوجب الواجبات، يقضيان بإبقاء معاوية على ولاية الشام ولو مؤقتاً؟

والجواب هو: استناداً إلى ما يتبناه الإمام علي عليه السلام في سياسة وإدارة

(١) صفين ص ٢٢٧، تاريخ الطبري ٦ ص ٤، جمهرة الخطب ١: ١٦١

النظام الاسلامي التي تقوم على قواعد الدين الحنيف يمكن الرد على هذه التساؤلات بكل سهولة.. لأن هذه السياسة توجد بشأنها أمور مهمة لا بدّ من الإشارة إليها هاهنا: فقد دافع ابن أبي الحديد عن هذه السياسة بالتفصيل، ونحن نورد النقاط المهمة فيها ونضيف عليها ما نراه:

١.٢. إبقاء معاوية في منصبه لا يدعوه إلى البيعة..

نقل ابن أبي الحديد^(١) فيما يخص انتقاد سياسة الإمام عليه السلام بعزل معاوية: منها قولهم: لو كان حين بويع له عليه السلام بالخلافة في المدينة أقرّ معاوية على الشام إلى أن يستقر الأمر له ويتوطد ويبيعه معاوية وأهل الشام ثم يعزله بعد ذلك، لكان قد كفي ما جرى بينهما من الحرب.

والجواب على ذلك: إن قرائن الأحوال حينئذ قد كان علم أمير المؤمنين عليه السلام منها أن معاوية لا يبيع له وإن أقره على ولاية الشام، بل كان إقراره له على إمرة الشام أقوى لحال معاوية وأكد في الامتناع من البيعة؛ لأنه لا يخلو صاحب السؤال إما أن يقول: كان ينبغي أن يطالبه بالبيعة ويقرن إلى ذلك تقليده بالشام فيكون الأمران معا، أو يتقدم منه عليه السلام المطالبة بالبيعة، أو يتقدم منه اقراره على الشام وتتأخر المطالبة بالبيعة إلى وقت ثان..

فإن كان الأول فمن الممكن أن يقرأ معاوية على أهل الشام تقليده بالإمرة فيؤكد حاله عندهم، ويقرر في أنفسهم: لولا أنه أهل لذلك لما اعتمده علي عليه السلام معه، ثم يماطله بالبيعة ويحاجزه عنها.

وإن كان الثاني (المطالبة بالبيعة أولاً) فهو الذي فعله أمير المؤمنين عليه السلام.

(١) راجع شرح النهج: ج ١٠/ ٢٣٢ وما بعدها.

وإن كان الثالث فهو كالقسم الأول، بل هو أكد فيما يريده معاوية من الخلف والعصيان.. وكيف يتوهم مَنْ يعرف السَّير أن معاوية كان يبايع له لو أقره على الشام وبينه وبينه ما لا تبرك الإبل عليه من الترات (الثرات) القديمة والأحقاد، وهو الذي قتل حنظلة أخاه، والوليد خاله، وعتبة جده، في مقام واحد (يوم بدر الكبرى)؟!!

ثم ما جرى بينهما في أيام عثمان حتى أغلظ كل واحد منهما لصاحبه، وحتى تهدده معاوية، وقال له: إني شاخص إلى الشام وتارك عندك هذا الشيخ - يعني عثمان - والله لئن انحصت منه شعرة واحدة لأضربنك بمائة ألف سيف..!

وأما قول ابن عباس له عليه السلام: وَلِهْ شَهْرًا وَاغْزَلَهُ دَهْرًا، وما أشار به المغيرة بن شعبة فإنهما ما توهماه وما غلب على ظنونها وخطر بقلوبهما.. وعلي عليه السلام كان أعلم بحاله مع معاوية، وأنها لا تقبل العلاج والتدبير، وكيف يخطر ببال عارف بحال معاوية ونكره ودهائه وما كان في نفسه من علي عليه السلام من قتل عثمان، ومن قبل قتل عثمان أنه يقبل إقرار علي عليه السلام له على الشام، وينخدع بذلك، ويبايع ويعطي صفقة يمينه!

إن معاوية لأدهى من أن يكاد بذلك، وإن علياً عليه السلام لأعرف بمعاوية ممن ظن أنه لو استماله بإقراره لبايع له، ولم يكن عند علي عليه السلام دواء لهذا المرض إلا السيف؛ لأن الحال إليه كانت تؤول لا محالة، فجعل الآخر أولاً..^(١)

٢.٢. إبقاء معاوية كان يزعزع الحكومة المركزية..

لم يكن إبقاء معاوية على ولاية الشام يقوي ركائز حكومة الإمام، بل

(١) شرح النهج: ٢٣٣/١٠ بتصرف.

عل العكس: إنه كان يؤدي إلى زعزعتها منذ البداية.. وقد جاء تحليل ابن سنان في هذا المضممار على النحو التالي: إنا قد علمنا أن أحد الأحداث التي نقت على عثمان وأفضت بالمسلمين إلى حصاره وقتله (كان) تولية معاوية الشام مع ما ظهر من جور وعدوانه، ومخالفته أحكام الدين في سلطانه، وقد خوطب عثمان في ذلك فاعتذر بأن عمر ولاه قبله، فلم يقبل المسلمون عذره، ولا قنعوا منه إلا بعزله، حتى أفضى الأمر إلى ما أفضى.

وكان علي عليه السلام من أكثر المسلمين لذلك كراهية، وأعرفهم بما فيه من الفساد في الدين، فلو أنه عليه السلام افتتح عقد الخلافة له بتوليته معاوية الشام وإقراره فيه، أليس كان يبتدى في أول أمره بما انتهى إليه عثمان في آخره، فأفضى إلى خلعه وقتله؟! ولو كان ذلك في حكم الشريعة سائغاً والوزر فيه مأموناً لكان غلطاً قبيحاً في السياسة، وسبباً قوياً للعصيان والمخالفة، ولم يكن يمكنه عليه السلام أن يقول للمسلمين: إن حقيقة رأيي عزل معاوية عند استقرار الأمر وطاعة الجمهور لي، وإن قصدي بإقراره على الولاية مخادعته وتعجيل طاعته ومبايعة الأجناد الذين قبله، ثم أستأنف بعد ذلك فيه ما يستحقه من العزل، وأعمل فيه بموجب العدل؛ لأن إظهاره عليه السلام لهذا العزم كان يتصل خبره بمعاوية، فيفسد التدبير الذي شرع فيه، وينتقض الرأي الذي عول عليه^(١).

٣.٢. إبقاء معاوية يتعارض مع المباني السياسية للإمام عليه السلام..

وقدّم ابن سنان رداً آخر على الطعن بسياسة عليه السلام في عزل معاوية، وفيه إشارة إلى مبانيه السياسية في الحكم، ويسميه جواباً حقيقياً ويقول

(١) شرح النهج: ٢٤٧/١٠.

فيه: واعلم أن حقيقة الجواب هو أن علياً عليه السلام كان لا يرى مخالفة الشرع لأجل السياسة، سواء أكانت تلك السياسة دينية أو دنيوية؛

* أما الدنيوية فنحو أن يتوهم الإمام عليه السلام في إنسان أنه يروم فساد خلافته من غير أن يثبت ذلك عليه يقيناً؛ فإن علياً عليه السلام لم يكن يستحل قتله ولا حبسه، ولا يعمل بالتوهم وبالقول غير المحقق.

* وأما الدينية فنحو ضرب المتهم بالسرقة؛ فإنه أيضاً لم يكن يعمل به، بل يقول: إن يثبت عليه بإقرار أو بينة أقمت عليه الحد، وإلا لم أعترضه.. وغير علي عليه السلام قد كان منهم من يرى خلاف هذا الرأي، ومذهب مالك بن أنس العمل على المصالح المرسلة، وأنه يجوز للإمام أن يقتل ثلث الأمة لإصلاح الثلثين، ومذهب أكثر الناس أنه يجوز العمل بالرأي وبغالب الظن، وإذا كان مذهبه عليه السلام ما قلناه، وكان معاوية عنده فاسقاً، وقد سبق عنده مقدمة أخرى يقينية، هي أن استعمال الفاسق لا يجوز، ولم يكن ممن يرى تمهيد قاعدة الخلافة بمخالفة الشريعة.. فقد تعين مجاهرته بالعزل، وإن أفضى ذلك إلى الحرب^(١)..

هذا الرأي عملاً بالظاهر ووفقاً لقواعد السياسة والحكم.. ولكن لأمر المؤمنين عليهم السلام له قواعد أخرى يستند إليها باعتباره وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وباب مدينة علمه النورانية، فهو يعلم يقيناً، ويعتقد جازماً ما ستؤول إليه أمور الأمة من الفرقة والتضعع والتشرزم والتسافل حتى يحكمها أعدى أعدائها معاوية بن أبي سفيان ذاك المسخ التافه، الذي لا يعرف له أصل ولا فصل، والأمة مأمورة بقتله، وبقر كرشه إذا تسنم المنبر النبوي الشريف فهو كالقرد لا يجوز له أن يصعد على الأعواد الإسلامية..

(١) شرح النهج: ٢٤٦/١٠.

فمنطق الإمام علي عليه السلام الديني الذي التفت إليه ابن سنان وافتخر به ابن أبي الحديد هو نصف الحقيقة، والنصف الآخر هو العلم اليقيني بتفاصيل ما سيحدث له في حربه مع معاوية.. ولذا تراه - روعي له الفداء - كان دائماً يقول لهم: لقد أخبرني خليلي رسول الله صلى الله عليه وآله عن هذا القول أو هذا العمل، أو أن الأمة ستغدر بك، وأن أشقاها سيخضب لحيتك من دماء رأسك، في شهر الله، وفي ليلة القدر..

٤.٢. رفضاً لسياسة المداينة

وأمر المؤمنين عليه السلام لا يداهن، ولا يماكر، ولا يخادع، ولا يغدر، ولا يفجر، في السياسة وغيرها.. فحياته كما سياسته تحكمها المبادئ والقيم الإلهية من أول لحظة من حياته الشريفة، وحتى آخر نفس منها.. ولذا تراه ولد في جوف الكعبة وقلب البيت العتيق، وانتقل عنها من محراب مسجد الكوفة.. ألم تقرأه يقول: فزت ورب الكعبة؟ فيروى في مروج الذهب عن ابن عباس قال: قدمت من مكة بعد مقتل عثمان بخمس ليال، فجئت علياً أدخل عليه، فقبل لي: عنده المغيرة بن شعبة، فجلست بالباب ساعة، فخرج المغيرة، فسلم عليّ، وقال: متى قدمت؟ قلت: الساعة، ودخلت على علي عليه السلام وسلمت عليه.. قلت: أخبرني عن شأن المغيرة، ولم خلا بك؟

قال: جاءني بعد مقتل عثمان بيومين، فقال: أخلصني، ففعلت، فقال: إن النصح رخيص، وأنت بقية الناس، وأنا لك ناصح، وأنا أشير عليك أن لا ترد عمال عثمان عامك هذا، فاكتب إليهم بإثباتهم على أعمالهم، فإذا بايعوا لك، واطمأن أمرك، عزلت من أحببت، وأقررت من أحببت.

فقلت له: والله، لا أداهن في ديني، ولا أعطي الرياء في أمري. قال:

فإن كنت قد أبيت فانزع من شئت، واترك معاوية؛ فإن له جرأة وهو في أهل الشام مسموع منه، ولك حجة في إثباته، فقد كان عمر ولأه الشام كلها.

فقلت له: لا والله، لا أستعمل معاوية يومين أبدا. فخرج من عندي على ما أشار به، ثم عاد، فقال: إني أشرت عليك بما أشرت به وأبيت علي، فنظرت في الأمر وإذا أنت مصيب لا ينبغي أن تأخذ أمرك بخدعة، ولا يكون فيه دلسة.

قال ابن عباس: فقلت له: أما أول ما أشار به عليك فقد نصحك، وأما الآخر فقد غشك^(١).

ثم قال ابن عباس للإمام علي عليه السلام: أنا أشير عليك أن تثبت معاوية، فإن بايع لك فعلي أن أقلعه من منزله.

قال عليه السلام: لا والله لا أعطيه إلا السيف، ثم تمثل:

فما مية إن متها غير عاجز

بعار إذا ما غالت النفس غولها

فقلت: يا أمير المؤمنين، أنت رجل شجاع، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: الحرب خدعة؟! فقال علي: بلى. قلت: أما والله، لئن أطعني لأصدرن بهم بعد ورود، ولأتركنهم ينظرون في أدبار الأمور، ولا يدرون ما كان وجهها، من غير نقص لك، ولا إثم عليك.

فقال لي: يا بن عباس، لست من هنياتك ولا هنيات معاوية في شيء تشير به علي برأي، فإذا عصيتك فأطعني.

فقلت: أنا أفعل، فإن أيسر ما لك عندي الطاعة، والله ولي

(١) مروج الذهب: ٣٦٤/٢، الطبري: ٤٤٠/٤، الكامل: ٣٠٦/٢.

التوفيق^(١).

٥.٢. الإمام يدعو معاوية إلى البيعة

نعم؛ أرسل أمير المؤمنين عليه السلام كتاباً لمعاوية من أجل أخذ البيعة له من أهل الشام والقدوم عليه لتأكيدهما في المدينة.. ومما قال في الكتاب: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان: أما بعد، فقد علمت إعداري فيكم، وإعراضي عنكم، حتى كان ما لا بد منه ولا دفع له، والحديث طويل، والكلام كثير، وقد أدبر ما أدبر، وأقبل ما أقبل، فبايع من قبلك، وأقبل إليّ في وفد من أصحابك.. والسلام^(٢).

وبرواية أخرى أنه: لما بوبع الإمام علي عليه السلام كتب إلى معاوية: أما بعد، فإن الناس قتلوا عثمان عن غير مشورة مني، وبايعوني عن مشورة منهم واجتماع، فإذا أتاك كتابي فبايع لي، وأوفد إلي أشرف أهل الشام قبلك..^(٣)

وكان رسول أمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية سبرة الجهني، فقدم عليه فلم يكتب معاوية بشيء، ولم يجبه، ولم يرد رسوله، وجعل كلما تنجّز جوابه (أي طلب الجواب) لم يزد على قوله:

أدم إدامة حصن أو خذا بيدي

حرباً ضروساً تشب الجزل والضرم

في جاركم وابنكم إذ كان مقتله

شعاعاً شيب الأصداء واللمما

(١) البداية والنهاية: ٢٢٩/٧.

(٢) نهج البلاغة: كتاب/ ٧٥/ البحار: ٣٤٠/٣٢.

(٣) شرح نهج البلاغة ١/ ٢٣٠.

أعياى المسود بها والسيدون فلم يوجد لها غيرنا مولى ولا حكما

وجعل الجهنى كلما تنجز الكتاب لم يزده على هذه الأبيات، حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان، وفي صفر دعا معاوية برجل من بني عبس ثم أحد بني رواحة يدعى قبيصة، فدفع إليه طومارا مختوما عنوانه: من معاوية إلى علي، فقال: إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار، ثم أوصاه بما يقول.. وسرّح رسول الإمام علي عليه السلام ليعود إلى أميره عليه السلام..

وخرجا فقدا المدينة في ربيع الأول لغرته، فلما دخلا المدينة رفع العبسي الطومار كما أمره، وخرج الناس ينظرون إليه، فتفرقوا إلى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض، ومضى يدخل على علي عليه السلام، فدفع إليه الطومار ففض خاتمه فلم يجد في جوفه كتابة، فقال للرسول: ما وراءك؟ قال: آمن أنا؟ قال: نعم إن الرسل أمانة لا تقتل. قال: ورائي إني تركت قوما لا يرضون إلا بالقود.

قال: ممن؟ قال: من خيط نفسك، وترك ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق.

فقال: مني يطلبون دم عثمان! أأست موتوراً كثره عثمان؟! اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان^(١)..

فأرسل أمير المؤمنين عليه السلام إلى عبد الله بن عباس، وقال: عليه السلام: سرّ إلى الشام فقد وليتكها.

فقال ابن عباس: ما هذا برأي؛ معاوية رجل من بني أمية، وهو ابن

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٤٣، الكامل في التاريخ: ٣١٠/٢.

عم عثمان وعامله على الشام، ولست آمن أن يضرب عنقي لعثمان، أو أدنى ما هو صانع أن يحبسني فيتحكم عليّ.

فقال له علي: وَلِمَ؟ قال: لقراءة ما بيني وبينك، وإن كل ما حمل عليك حمل عليّ، ولكن اكتب إلى معاوية فمَنِّه وعِدْهُ.

فأبى علي عليه السلام وقال: والله لا كان هذا أبداً^(١)..

وبرواية عن محمد وطلحة: بعث علي عليه السلام عماله على الأمصار فبعث.. سهل بن حنيف على الشام، فأما سهل فإنه خرج حتى إذا كان بتبوك لقيته خيل، فقالوا: من أنت؟ قال: أمير. قالوا: على أي شيء؟ قال: على الشام، قالوا: إن كان عثمان بعثك فحيهلا بك، وإن كان بعثك غيره فارجع! قال: أو ما سمعتم بالذي كان؟ قالوا: بلى؛ فرجع إلى علي عليه السلام..^(٢)

وذلك لأن البيعة ثابتة على أهل الشام وولاتهم، لأن تعيين الخليفة على المهاجرين والأنصار وأهل الحل والعقد منهم، وليس لمتشهي أو طامع أن يقول لم أحضر البيعة فلا بيعة في عنقي.. هذا ما قاله الإمام علي عليه السلام في كتاب له إلى معاوية بن أبي سفيان:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فإن بيعتي بالمدينة لزمته وأنت بالشام؛ لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل فسموه إماماً، كان ذلك لله رضا، فإن خرج من أمرهم

(١) (تاريخ الطبري: ٤٢/٤٤٠)

(٢) (تاريخ الطبري: ٤٢/٤٤٢، البداية والنهاية: ٧/٢٢٩).

خارج بطعن أو رغبة ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى ويصليه جهنم وساءت مصيرا.

وإن طلحة والزبير بايعاني، ثم نقضا بيعتي، وكان نقضهما كردهما، فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون.. فادخل فيما دخل فيه المسلمون؛ فإن أحب الأمور إليّ فيك العافية، إلا أن تتعرض للبلاء، فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت الله عليك..

وقد أكثر في قتلة عثمان فادخل فيما دخل فيه المسلمون، ثم حاكم القوم إليّ أحملك وإياهم على كتاب الله.. فأما تلك التي تريدها فخدعة الصبي عن اللبن، ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان.. واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة، ولا تعرض فيهم الشورى، وقد أرسلت إليك وإلى من قبلك: جرير بن عبد الله وهو من أهل الإيمان والهجرة، فبايع ولا قوة إلا بالله..^(١)

٦.٢. سياسة معاوية في جواب الإمام علي عليه السلام

قيل أنه اجتمع عند معاوية: عتبة بن أبي سفيان، والوليد بن عقبة، ومروان بن الحكم، وعبد الله بن عامر، وابن طلحة الطلحات، فقال عتبة: إن أمرنا وأمر علي لعجب، ليس منا إلا موتور محاج؛ أما أنا فقتل جدي، واشترك في دم عمومتي يوم بدر.. وأما أنت يا وليد فقتل أبك يوم الجمل، وأيتم إخوتك.. وأما أنت يا مروان فكما قال الأول:

وأفלתهن علباء جريضا

ولو أدركنه صفر الوطاب

قال معاوية: هذا الإقرار فأين الغير.. (أي غير هذا)؟

(١) نهج البلاغة: الكتاب ٣٧.

قال مروان: أي غير تريد؟

قال: أريد أن يشجر^(١) بالرماح.

فقال: والله إنك لهازل، ولقد ثقلنا عليك..

ذاك رأي معاوية وأهل بيته من اللعناء، وأصحابه من اللقطاء يريدون أن يثأروا من الإسلام، ويطعنوا أمير المؤمنين عليه السلام بالرماح.. ولكن أمير المؤمنين عليه السلام أرسل بكتاب مع جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية من أجل البيعة وحقن الدماء ولا ينتشر خبر التمرد السفيفاني على الدولة والخلافة الإسلامية.. فأوصل جرير الكتاب وراح ينتظر الجواب..

وذات يوم أتى معاوية جريراً في منزله، فقال: يا جرير؛ إني قد رأيت رأياً.

قال: هاته.. قال: أكتب إلى صاحبك يجعل لي الشام ومصر جباية، (أي ولاية الشام سلطة مطلقة، ومصر أموالاً فقط) فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة في عنقي، وأسلم له هذا الأمر، واكتب إليه بالخلافة.

فقال جرير: اكتب بما أردت، وأكتب معك.. فكتب معاوية بذلك إلى الإمام علي عليه السلام.. فكتب الإمام علي عليه السلام إلى جرير: أما بعد، فإنما أراد معاوية ألا يكون لي في عنقه بيعة، وأن يختار من أمره ما أحب، وأراد أن يُريثك (يؤخرك، ويمهلك) حتى يذوق (يختبرهم ويعرف رأيهم) أهل الشام.. وإن المغيرة بن شعبة قد كان أشار عليّ أن أستعمل معاوية على الشام وأنا بالمدينة، فأبيت ذلك عليه.. ولم يكن الله ليراني أتخذ

(١) يطعن.

المضلين عضداً، فإن بايعك الرجل، وإلا فأقبل^(١)..

إن كل مَنْ له أدنى معرفة بمعاوية ونزعتة المتسلطة، ونفسيته الطامحة للحكم، وحقده على بني هاشم، وحسده لأمر المؤمنين عليه السلام كان على يقين من أن معاوية لن يبايع إلا تحت بوارق السيوف، فراح أهل المشورة والرأي من أصحاب الإمام عليه السلام يشيرون عليه بالاستعداد لحرب معاوية والشام..

فقال الإمام علي عليه السلام بكلام له وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد للحرب بعد إرساله جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية: إن استعدادي لحرب أهل الشام وجرير عندهم إغلاق للشام وصرف لأهله عن خير إن أرادوه.. ولكن قد وُقِّت لجرير وقتاً لا يقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً.. والرأي عندي مع الأناة، فأرودوا^(٢) ولا أكره لكم الإعداد.. ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه، وقلبت ظهره وبطنه، فلم أر لي فيه إلا القتال أو الكفر بما جاء محمد صلى الله عليه وآله، إنه قد كان على الأمة وإلٍ أحدث أحداثاً وأوجد الناس مقالاً، فقالوا ثم نقموا فغيروا^(٣)..

وبالفعل فكان معاوية لا يهدأ ليلاً ولا نهاراً وهو يفكر بالحيل، ويرسل إلى رفاقه بالدهاء والمكر والخديعة لعله فاتته خدعة هنا، أو حيلة هناك.. فكان أول مَنْ أرسل إليه أخاه بالدهاء عمرو بن العاص وراحا يخططان للأمر بروية وهدوء، فكان لابد لهما من الوقت اللازم لإنضاج الطبخة المسمومة لهذه الأمة المرحومة..

وروى الطبري وغيره: أنه عندما قتل عثمان وعلم بمبايعة الناس

(١) تاريخ دمشق: ١٣١/٥٩، الإمامة والسياسة: ١١٥/١، صفين.

(٢) أمهلوا (مجمع البحرين: ٧٥٣/٢)..
(٣) نهج البلاغة: خ ٤٣، البحار: ٣٩٣/٣٢.

لعلي وما وقع لأهل الجمل.. (وجاءته رسالة معاوية) ارتحل إلى الشام وهو يبكي كما تبكي المرأة ويقول: وا عثماناه، أنعي الحياء والدين.. حتى قدم دمشق..^(١)

فوجد أهل الشام يحضّون معاوية على الطلب بدم عثمان، فقال عمرو: أنتم على الحق اطلبوا بدم الخليفة المظلوم..^(٢)

فقال معاوية لعمرو: بايعني.. فقال: لا والله لا أعطيك من ديني حتى أنال من دنياك.. قال: سل، فقال: مصر طعمة.. فأجابه إلى ذلك وكتب له به كتاباً^(٣) وكانت مصر في نفس عمرو بن العاص لأنه هو الذي فتحها في زمن عمر بن الخطاب.. ويقول الجاحظ: فكان لعظمها في نفسه وجلالتها في صدره، وما قد عرفه من أموالها وسعة الدنيا، لا يستعظم أن يجعلها ثمناً من دينه..^(٤)

وروي أنه عندما خرج عمرو من عند معاوية، قال له ابنه: ما صنعت؟ قال: أعطانا مصر طعمة.. قالوا: وما مصر في ملك العرب! فقال: لا أشبع الله بطونكما إن لم تشبعكما مصر..^(٥)

وقال الجرجاني: لما بات عمرو عند معاوية وأصبح أعطاه مصر طعمة له، وكتب له بها كتاباً، وقال: ما ترى؟ قال: امض الرأي الأول.. فبعث مالك بن هبيرة الكندي في طلب محمد بن أبي حذيفة فأدركه فقتله، وبعث إلى قيصر بالهدايا فوادعه.

(١) (الطبري ٢٣٣/٥، الكامل ١٤٠/٣)

(٢) (الطبري ٢٣٤/٥، الكامل ١٤١/٣)

(٣) (مروج الذهب ٣٩٠/٢، الكامل ١٧٩/٣ الطبري ٥٦/٦)

(٤) (ابن أبي الحديد ٣٢١/١)

(٥) (ابن أبي الحديد ٣٢٢/١)

ثم قال: ما ترى في علي؟ قال: أرى فيه خيراً، أذاك في هذه البيعة خير أهل العراق، ومن عند خير الناس في أنفس الناس، ودعواك أهل الشام إلى ردّ هذه البيعة خطر شديد، ورأس أهل الشام شُرحبيل بن السَّمط الكندي، وهو عدوٌّ لجريّر بن عبد الله المُرسَل إليك، فأرسل إليه ووطن له ثقاتك فليفشوا في الناس: أن علياً قتل عثمان، وليكونوا أهل الرضا عند شُرحبيل، فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ما تحب، وإن تعلقت بقلب شُرحبيل لم تخرج منه بشيء أبداً..

وقنع معاوية بهذا الرأي فكتب إلى شُرحبيل: إن جريّر بن عبد الله قدِمَ علينا من عند علي بن أبي طالب عليه السلام بأمر فظيع، فأقدم.

ودعا معاوية يزيد بن أسد، وبسر بن أرطاة، وعمرو بن سفيان، ومخارق بن الحارث، وحمزة بن مالك، وحابس بن سعد الطائي، وهؤلاء رؤوس قحطان واليمن، وكانوا ثقات معاوية وخاصّته، وبني عم شُرحبيل بن السَّمط، فأمرهم أن يلقيه ويخبروه: إن علياً قتل عثمان.. فلما قدم كتاب معاوية على شُرحبيل وهو بحمص استشار أهل اليمن فاختلفوا عليه، فقال له عبد الرحمن بن غنم الأزدي وهو صاحب معاذ بن جبل وخته، وكان أفقه أهل الشام فقال: يا شُرحبيل؛ إن الله لم يزل يزيدك خيراً مُدّ هاجرت إلى اليوم وإنه لا ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من الناس، ولا يغيّر الله ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، إنه قد ألقى إلينا قتل عثمان، وأن علياً قتل عثمان فإن يك قتله فقد بايعه المهاجرون والأنصار، وهم الحكماء على الناس، وإن لم يكن قتله فعَلَامٌ تصدق معاوية عليه؟ لا تهتك نفسك وقومك، فإن كرهت أن يذهب بحظها جريّر فسِرْ إلى علي عليه السلام فبايعه على شامك وقومك..

فأبى شُرحبيل إلا أن يسير إلى معاوية، فبعث إليه عياض الشمالي

وكان ناسكا هذا الشعر الجميل:

يا شرح يا ابن السمط إنك
بالغ بود علي ما تريد من الأمر
ويا شرح إن الشام شأمك ما بها
سواك فدع قول المضلل من فھر
فإن ابن حرب ناصب لك خدعة
تكون علينا مثل راغية البكر
فإن نال ما يرجو بنا كان ملكنا
هنيئا له، والحرب قاصمة الظهر

قال: لما قدم شرحبيل على معاوية تلقاه الناس فأعظموه، ودخل على معاوية فتكلم معاوية فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا شرحبيل! إن جرير بن عبد الله يدعوننا إلى بيعة علي، وعلي خير الناس لولا أنه قتل عثمان بن عفان، وقد حبست نفسي عليك، وإنما أنا رجل من أهل الشام، أرضى ما رضوا، وأكره ما كرهوا.. فقال شرحبيل: أخرج فانظر.. فخرج فلقية هؤلاء النفر الموطؤون له، فكلهم يخبره بأن علياً قتل عثمان بن عفان.. فخرج مغضباً إلى معاوية، فقال: يا معاوية أباي الناس إلا أن علياً قتل عثمان، ووالله لئن بايعت له لنخرجنك من الشام أو لنقتلنك.

قال معاوية: ما كنت لأخالف عليكم، وما أنا إلا رجل من أهل الشام. قال: فرَّد هذا الرجل إلى صاحبه إذاً..

قال الراوي: فعرف معاوية أن شرحبيل قد نفذت بصيرته في حرب أهل العراق، وأن الشام كله مع شرحبيل.. فخرج شرحبيل فأتى حصين بن نُمير، فقال: ابعث إلى جرير فليأتنا فبعث إليه حصين: أن زرنا، فإن عندنا شرحبيل بن السمط، فاجتمعا عنده، فتكلم شرحبيل فقال:

يا جرير؛ أتيتنا بأمر ملفف (ملفق) لتلقينا في لهوات الأسد، وأردت أن تخلط الشام بالعراق، وأطرات علياً وهو قاتل عثمان، والله سائلك عمّا قلتَ يوم القيامة.

فأقبل عليه جرير، فقال: يا شرحبيل؛ أما قولك: إني جئت بأمر ملفف.. فكيف يكون أمراً ملففاً وقد اجتمع عليه المهاجرون والأنصار، وقوتل على رده طلحة والزبير؟!

وأما قولك: إني ألقيتك في لهوات الأسد.. ففي لهواتها ألقيتَ نفسك، وأما خلط العراق بالشام فخلطهما على حق خير من فرقتهما على باطل.

وأما قولك: إن علياً قتل عثمان.. فوالله ما في يدك من ذلك إلا القذف بالغيب من مكان بعيد، ولكنك ملت إلى الدنيا، وشيء كان في نفسك على زمن سعد بن أبي وقاص.

فبلغ معاوية قول الرجلين، فبعث إلى جرير فزجره ولم يدر ما أجابه أهل الشام وكتب جرير إلى شرحبيل:

شرحبيل يا ابن السمط لا تتبع الهوى

فمالك في الدنيا من الدين من بدل

وقل لابن حرب: مالك اليوم حرمة

تروم بها ما رمت فاقطع له الأمل

فلما قرأ شرحبيل الكتاب دُعر وفكر، وقال: هذه نصيحة لي في ديني ودنياي؛ ولا والله لا أعجل في هذا الأمر بشيء وفي نفسي منه حاجة، فاستتر له القوم ولفف له معاوية الرجال يدخلون إليه ويخرجون، ويعظمون عنده عثمان ويرمون به علياً، ويقىمون الشهادة الباطلة والكتب

المختلقة، حتى أعادوا رأيه وشحذوا عزمه، وبلغ ذلك قومه فبعث ابن أخت له من بارق - وكان يرى رأي علي بن أبي طالب عليه السلام فبايعه بعد، وكان ممن لحق من أهل الشام وكان ناسكا - فقال:

لعمر أبي الأشقى ابن هند لقد رمى
شرحبيل بالسهم الذي هو قاتله
ولفف قوما يسحبون ذيولهم
جميعاً وأولى الناس بالذنب فاعله

فلما بلغ شرحبيل هذا القول قال: هذا بيعث الشيطان، الآن امتحن الله قلبي، والله لأسيرن صاحب هذا الشعر أو ليفوتنني.. فهرب الفتى إلى الكوفة.. وكاد أهل الشام أن يضطربوا على معاوية.

وبعث معاوية إلى شرحبيل بن السمط فقال: إنه كان من إجابتك الحق، وما وقع فيه أجرك على الله، وقبله عنك صلحاء الناس ما علمت، وإن هذا الأمر الذي قد عرفته لا يتم إلا برضا العامة، فسر في مدائن الشام، وناد فيهم: بأن علياً قتل عثمان، وأنه يجب على المسلمين أن يطلبوا بدمه.. فسار فبدأ بأهل حمص فقام خطيباً، فقال: يا أيها الناس؛ إن علياً قتل عثمان بن عفان، وقد غضب له قوم فقتلهم، وهزم الجميع وغلب على الأرض، فلم يبق إلا الشام، وهو واضع سيفه على عاتقه، ثم خائض به غمار الموت حتى يأتاكم أو يحدث الله أمراً، ولا نجد أحداً أقوى على قتاله من معاوية، فجدوا وانهضوا..

فأجابه الناس إلا نساك أهل حمص، فإنهم قاموا إليه فقالوا: بيوتنا قبورنا ومساجدنا، وأنت أعلم بما ترى، وجعل شرحبيل يستنهض مدائن الشام حتى استفرغها، لا يأتي على قوم إلا قبلوا ما أتاهاهم به، فبعث إليه النجاشي بن الحارث وكان صديقا له:

شرحيل ما للدين فارقت أمرنا
ولكن لبغض المالكي جرير
وشحناء دبت بين سعد وبينه
فأصبحت كالحادي بغير بغير
وتترك إن الناس أعطوا عهدهم
عليها على أنس به وسرور
إذا قيل: هاتوا واحدا يقتدى
به نظيراً له لم يفصحوا بنظير
لعلك أن تشقى الغداة بحربه
شرحيل ما ما جئته بصغير^(١)

فبهذه الصورة البشعة من الشهادات المزورة والكتب المختلقة تمت
بيعة معاوية لقتال علي أمير المؤمنين عليه السلام.

وفي تاريخ دمشق عن الكلبي: كان علي عليه السلام استشار الناس،
فأشاروا عليه بالقيام بالكوفة غير الأشر، وعدي بن حاتم، وشريح بن
هانئ الحارثي، وهانئ بن عروة المرادي، فإنهم قالوا لعلي: إن الذين
أشاروا عليك بالمقام بالكوفة إنما خوَّفوك حرب الشام، وليس في حربهم
شيء أخوف من الموت، وإياه نريد، فدعا علي عليه السلام الأشر، وعدياً،
وشريحاً، وهانئاً.. فقال: إن استعدادي لحرب الشام، وجرير بن عبد الله
عند القوم صرف لهم عن غي إن أرادوه، ولكني قد أرسلت رسولا،
فوقَّت لرسولي وقتاً لا يقيم بعده، والرأي مع الأناة فاتئدوا ولا أكره لكم
الأعذار^(٢)..

(١) صفين لابن مزاحم: ص ٥١.

(٢) الإمامة والسياسة: ١١٤/١، تاريخ دمشق: ١٣٠/٥٩.

٧.٢. استعداداً لحرب معاوية في الشام

قلنا من قبل أن أمير المؤمنين عليه السلام كان على تهيئة واستعداد لحرب معاوية وعصاة الشام قبل حرب الجمل التي أججها معاوية وقادها الناكثون، ولنتذكر الأمر نأخذ هذه الرواية من تاريخ الطبري، قال: استأذن طلحة والزبير علياً في العمرة فأذن لهما فلحقا بمكة وأحب أهل المدينة أن يعلموا ما رأي علي عليه السلام في معاوية وانتقاضه، ليعرفوا بذلك رأيه في قتال أهل القبلة أيجسر عليه أو ينكل عنه.. فدسوا إليه زياد بن حنظلة التميمي - وكان منقطعاً إلى علي عليه السلام - فدخل عليه فجلس إليه ساعة، ثم قال له علي عليه السلام: يا زياد تسير؟ فقال: لأي شيء؟ فقال: تغزو الشام.

فقال زياد: الأناة والرفق أمثل.. وقال:

ومن لا يصانع في أمور كثيرة
يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم
فتمثل علي عليه السلام وكأنه لا يريده:

متى تجمع القلب الذكي وصارماً
وأنفأ حمياً تجتنبك المظالم

فخرج زياد على الناس والناس ينتظرونه، فقالوا: ما وراءك؟

فقال: السيف يا قوم، فعرفوا ما هو فاعل^(١).. ودعا علي عليه السلام محمد ابن الحنفية فدفع إليه اللواء، وولى عبد الله بن عباس ميمنته، وعمر بن أبي سلمة - أو عمرو بن سفيان بن عبد الأسد - ولاء ميسرته، ودعا أبا ليلى بن عمر بن الجراح ابن أخي أبي عبيدة بن الجراح فجعله على

(١) تاريخ الطبري: ج ٣/ ٤٦٥.

مقدمته، واستخلف على المدينة قثم بن عباس، ولم يول ممن خرج على عثمان أحداً، وكتب إلى قيس بن سعد أن يندب الناس إلى الشام، وإلى عثمان بن حنيف، وإلى أبي موسى مثل ذلك، وأقبل على التهيؤ والتجهز، وخطب أهل المدينة فدعاهم إلى النهوض في قتال أهل الفرقة، وقال:

إن الله عَزَّوَجَلَّ بعث رسولا هاديا مهديا بكتاب ناطق وأمر قائم واضح لا يهلك عنه إلا هالك، وإن المبتدعات والشبهات هن المهلكات إلا من حفظ الله، وإن في سلطان الله عصمة أمركم، فأعطوه طاعتكم غير ملوية ولا مستكره بها، والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام، ثم لا ينقله إليكم أبدا حتى يأرز الأمر إليها، انهضوا إلى هؤلاء القوم الذين يريدون أن يفرقون جماعتكم، لعل الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق وتقضون الذي عليكم.

فبينما هم كذلك إذ جاء الخبر عن أهل مكة بنحو آخر وتمام على خلاف، فقام فيهم بذلك، فقال: إن الله عَزَّوَجَلَّ جعل لظالم هذه الأمة العفو والمغفرة، وجعل لمن لزم الأمر واستقام الفوز والنجاة، فمن لم يسعه الحق أخذ بالباطل، ألا وإن طلحة والزبير وأم المؤمنين وقد تمالؤوا على سخط إمارتي، ودعوا الناس إلى الإصلاح، وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم، وأكف إن كفوا، وأقتصر على ما بلغني عنهم.

ثم أتاه أنهم يريدون البصرة لمشاهدة الناس والإصلاح، فتعبدى للخروج إليهم وقال: إن فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين، وما كان عليهم في المقام فينا مؤونة ولا إكراه، فاشتد على أهل المدينة الأمر فتثاقلوا^(١).

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٤٤.

هوية رؤساء القاسطين

١. معاوية بن صخر (أبو سفيان)

يطول الحديث عن هذا الرجل الداهية، الذي لخص - في جسده الضخم كتلا من اللحم الحرام المنتن، وفي نفسه الفاسدة المجرم، وفي دينه الباطل المنافق، وفي حياته الممتدة لأكثر من ثمانين سنة الماجن - كل المفاسد لبني آدم في هذه الدنيا..

ويكفيه هجاء أنه من بني أمية نسبا - ويعلم الله فقط لمن هو بالحقيقة - الذين قدمنا الحديث عن أصلهم الرومي، المعرق بالعبودية والرّق للعرب، والعبد الرقيق يحقد على الحر الكريم، والرجل المجهول الزنيم يحسد العربي الأصيل، وهذا ثابت في الدراسات النفسية والعلمية الحديثة - وليت معهدا من المعاهد العالمية المختصة بعلم النفس تدرس لنا نفسية بني أمية عامة ومعاوية خاصة لتعرف أمتنا المرحومة أسباب هذا الحقد العجيب عليها من هؤلاء اللقطاء الطلقاء - فليس للرجل أصلا معروف، لا أبا عطوف ولا أما رؤوف، ولا سمعة طيبة، ولا عملا مشرفا،

ولا ذكرا يعتدُّ به العقلاء..

وإليك هذا المجلس للإمام الحسن السبط عليه السلام يبين حقيقة بني أمية وعلى رأسهم معاوية، وهذا الحديث يغنينا عن الإطالة أو التكلف..

فتكلم الإمام الحسن بن علي عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ﷺ ثم قال: أما بعد: يا معاوية! فما هؤلاء شتموني ولكنك شتمتني فحشا ألفته، وسوء رأي عرفت به، وخلقا سيئا ثبت عليه، وبغيا علينا عداوة منك لمحمد وأهله، ولكن اسمع يا معاوية! واسمعوا فلاقولن فيك وفيهم ما هو دون ما فيكم. أنشدكم الله أيها الرهط أتعلمون أن الذي شتمتموه منذ اليوم صلى القبلتين كليهما وأنت بهما كافر، تراها ضلالة، وتعد اللات والعزى غواية؟

وأنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كليهما: بيعة الفتح وبيعة الرضوان؟ وأنت يا معاوية! بإحداهما كافر، وبالأخرى ناكث. وأنشدكم الله هل تعملون أنه أول الناس إيماناً؟ وأنت يا معاوية! وأباك من المؤلفة قلوبهم تسرون الكفر وتظهرون الاسلام، وتستمالون بالأموال.

وأنشدكم الله أستم تعلمون أنه كان صاحب راية رسول الله ﷺ يوم بدر؟ وأن راية المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه، ثم لقيكم يوم أحد ويوم الأحزاب ومعه راية رسول الله ﷺ ومعك ومع أبيك راية الشرك، وفي كل ذلك يفتح الله له، ويفلج حجته، وينصر دعوته، ويصدق حديثه، ورسول الله ﷺ في تلك المواطن كلها عنه راض، وعليك وعلى أبيك ساخط،

وأنشدك الله يا معاوية! أتذكر يوما جاء أبوك على جمل أحمر وأنت تسوقه وأخوك عتبة هذا يقوده فراكم رسول الله ﷺ فقال: ألهم العن

الراكب والقائد والسائق، أنتسى يا معاوية! الشعر الذي كتبته إلى أبيك لما هم أن يسلم تنهاه عن ذلك.

يا صخر لا تسلمن يوما فتفضحنا
بعد الذين ببدر أصبحوا مزقا
خالي وعمي وعم الأم ثالثهم
وحنظل الخير قد أهدى لنا الارقا
لا تركنن إلى أمر يكلفنا
والراقصات به في مكة الخرقا
فالموت أهون من قول العداة لقد
عاد ابن حرب عن العزى إذا فرقا
والله لما أخفيت من أمرك أكبر مما أبديت.

وأنشدكم الله أيها الرهط! أتعلمون أن عليا حرم الشهوات على نفسه بين أصحاب رسول الله ﷺ فأنزل فيه: يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم. وإن رسول الله ﷺ بعث أكابر أصحابه إلى بني قريظة فنزلوا من حصنهم فهزموا فبعث عليا بالراية فاستنزلهم على حكم الله وحكم رسوله، وفعل في خير مثلها

ثم قال: يا معاوية! أظنك لا تعلم أنني أعلم ما دعا به عليك رسول الله ﷺ لما أراد أن يكتب كتابا إلى بني جذيمة فبعث إليك ونهمك إلى أن تموت، وأنتم أيها الرهط نشدتكم الله ألا تعملون أن رسول الله ﷺ لعن أبا سفيان في سبعة مواطن لا تستطيعون ردها،

أولهن (يوم الهجرة): حين خرج من مكة إلى المدينة وأبو سفيان جاء من الشام، فوقع فيه أبو سفيان فسبه، وأوعده، وهم أن يبطش به، ثم صرفه الله ﷻ عنه.

والثانية يوم العير: حيث طردها أبو سفيان ليحرزها من رسول الله
والثالثة يوم أحد: قال رسول الله: الله مولانا ولا مولى لكم، وقال
أبو سفيان لنا العزى ولا عزى لكم، فلعنه الله، وملائكته، ورسله،
والمؤمنون أجمعون.

والرابعة يوم حنين: يوم جاء أبو سفيان يجمع قريش وهوازن، وجاء
عينية بغطفان واليهود، فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا، هذا: قول
الله عَزَّوَجَلَّ أنزل في سورتين في كليهما يسمي أبا سفيان وأصحابه كفارا،
وأنت يا معاوية يومئذ مشرك على رأي أبيك بمكة، وعلي يومئذ مع
رسول الله ﷺ وعلى رأيه ودينه.

والخامسة: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُٗ﴾^(١) وصددت
أنت وأبوك ومشركو قريش رسول الله، فلعنه الله لعنة شملته وذريته إلى
يوم القيامة.

والسادسة يوم الأحزاب: يوم جاء أبو سفيان بجمع قريش، وجاء
عينية بن حصين بن بدر بغطفان، فلعن رسول الله القادة والأتباع، والساقة
إلى يوم القيامة. فقل: يا رسول الله أما في الأتباع مؤمن؟ قال: لا تعيب
اللجنة مؤمنا من الأتباع، أما القادة فليس فيهم مؤمن، ولا مجيب، ولا
ناج.

والسابعة يوم الثنية: يوم شد على رسول الله ﷺ اثنا عشر رجلا،
سبعة منهم من بني أمية، وخمسة من سائر قريش، فلعن الله تبارك
وتعالى ورسول الله من حل الثنية غير النبي ﷺ وسائقه وقائده.

ثم أنشدكم بالله هل تعلمون أن أبا سفيان دخل على عثمان حين

(١) (الفتح: ٢٥)

بويع في مسجد رسول الله ﷺ فقال: يا بن أخي هل علينا من عين؟ فقال: لا. فقال أبو سفيان: تداولوا الخلافة يا فتیان بني أمية فوالذي نفس أبي سفيان بيده، ما من جنة ولا نار. وأنشدكم بالله أتعلمون أن أبا سفيان أخذ بيد الحسين حين بويع عثمان وقال: يا بن أخي أخرج معي إلى بقيع الغرقد، فخرج حتى إذا توسط القبور اجتريه فصاح بأعلى صوته: يا أهل القبور! الذي كنتم تقاتلوننا عليه صار بأيدينا وأنتم رميم. فقال الحسين بن علي عليه السلام: قبح الله شيبتك، وقبح وجهك، ثم نتر يده وتركه، فلو لا النعمان بن بشير أخذ بيده ورده إلى المدينة لهلك.^(١)

وفي لفظ سبط ابن الجوزي: وأنت يا معاوية! نظر النبي ﷺ إليك يوم الأحزاب فرأى أباك على جمل يحرض الناس على قتاله وأخوك يقود الجمل وأنت تسوقه فقال: لعن الله الراكب والقائد والسائق، وما قابله أبوك في موطن إلا ولعنه وكنتم معه، ولاك عمر الشام فخنثه، ثم ولاك عثمان فتربصت عليه، وأنت الذي كنت تنهى أباك عن الاسلام حتى قلت مخاطبا له:

يا صخر لا تسلمن طوعا فتفضحنا

وكنتم يوم بدر واحد والخندق والمشاهد كلها تقاتل رسول الله ﷺ وقد علمت الفراش الذي ولدت عليه.

قال الأصمعي والكلبي في المثالب: معنى قول الحسن عليه السلام لمعاوية: قد علمت الفراش الذي ولدت فيه. إن معاوية كان يقال إنه من أربعة من قريش. (والزمر مخشري عدّ أربعة دون صخر بن حرب أبو سفيان المدعو إليه الرجل):

(١) راجع تذكرة السبط ص ١١٥، شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٠٢، جمهرة الخطب ١: ٤٢٨

- عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي.
- مسافر بن (العبد ذكوان) أبي عمرو.
- العباس بن عبد المطلب
- وإلى الصباح مغنى أسود كان لعمارة (والد عتبة بن أبي سفيان)
- صخر بن حرب أبي سفيان. وهؤلاء كانوا ندماء أبي سفيان وكان منهم من يتهم بهند. فأما عمارة بن الوليد كان من أجمل رجال قريش. وأما مسافر بن أبي عمرو فقال الكلبي: عامة الناس على أن معاوية منه لأنه كان أشد الناس حبا لهند، فلما حملت هند بمعاوية خاف مسافر (من أبيها عتبة) أن يظهر أنه منه، فهرب إلى ملك الحيرة (عمرو بن هند) فأقام عنده، ثم إن أبا سفيان قدم الحيرة فلقيه مسافر وهو مريض من عشقه لهند وقد سقى بطنه فسأله عن أهل مكة فأخبره..^(١)
- وقيل: إن أبا سفيان تزوج هنداً بعد انفصال مسافر عن مكة، فقال له أبو سفيان: إني تزوجت هنداً بعدك فازداد مرضه وجعل يذوب فوصف الكي فاحضروا المكاوي والحجام، فبينا الحجام يكيه إذ حبى (ضرب) الحجام فقال مسافر: قد يحبى العير والمكواة في النار. فسارت مثلاً، ثم مات مسافر من عشقه لهند.
- وقال الكلبي: كانت هند من المغيلمات وكانت تميل إلى السودان من الرجال فكانت إذا ولدت ولداً أسود قتلتة..

قال: وجرى بين يزيد بن معاوية وبين إسحاق بن طابة بين يدي معاوية وهو خليفة فقال يزيد لإسحاق: إن خيراً لك أن يدخل بنو حرب كلهم الجنة. أشار يزيد إلى أن أم إسحاق كانت تتهم ببعض بني حرب،

(١) السبط في التذكرة ص ١١٦

فقال له إسحاق: إن خيراً لك أن يدخل بنو العباس كلهم الجنة. فلم يفهم يزيد قوله وفهم معاوية، فلما قام إسحاق قال معاوية ليزيد: كيف تشاتم الرجال قبل أن تعلم ما يقال فيك؟ قال: قصدت شين إسحاق. قال: وهو كذلك أيضاً. قال: وكيف؟

قال: أما علمت أن بعض قريش في الجاهلية يزعمون أنني للعباس. فسقط في يدي يزيد.

وقال الشعبي: وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هند يوم فتح مكة بشيء من هذا فإنها لما جاءت بتابعه وكان قد أهدر دمها فقالت: على ما أبايك؟ فقال: على أن لا تزنين.

فقالت: وهل تزني الحرة؟ فعرّفها رسول الله ﷺ فنظر إلى عمر فتبسّم، وضحك عمر من قولها حتى أسفرت (هرت) نواجذه^(١)

وقال الزمخشري: وكان معاوية يعزى إلى أربعة إلى أبي عمرو بن مسافر. وإلى عمارة بن الوليد. وإلى العباس بن عبد المطلب. وإلى الصباح مغنى أسود كان لعمارة. قالوا: وكان أبو سفيان ذميماً، قصيراً، وكان الصباح عسيفاً (أجيراً) لأبي سفيان شاباً وسيماً فدعته هند إلى نفسها - وقالوا: إن عتبة بن أبي عتبة بن أبي سفيان من الصباح أيضاً - وإنما كرهت أن تضعه في منزلها فخرجت إلى أجياد فوضعتة هناك، وفي ذلك قال حسان:

لمن الصبي بجانب البطحاء
في الترب ملقى غير ذي مهد

(١) شرح النهج الحديدي: ج ١٨/ ١٧.

نجلت به بيضاء آنسة من

عبد شمس صلبة الخد؟^(١)

وقال ابن أبي الحديد في شرح النهج: كانت هند تذكر في مكة بفجور وعهر..^(٢)

وأما الذين نزهوا هنداً عن هذا القذف، فنذكر لهم حديث الفاكهة الذي ذكره أبو عبيد معمر بن المثنى؛ وفي كتاب لزياد بن أبيه مجيباً معاوية عن تعيينه إياه بأمه سمية: وأما تعيينك لي بسمية فإن كنت ابن سمية فأنت ابن جماعة.^(٣)

عن أبي سهيل التميمي قال: حج معاوية فسأل عن امرأة من بني كنانة كانت تنزل بالحجون يقال لها: دارمية الحجونية. وكانت سوداء كثيرة اللحم فأخبر بسلامتها فبعث إليها فجيء بها فقال: ما جاء بك يا ابنة حام؟ فقالت: لست لحام إن عبتني، أنا امرأة من بني كنانة، قال: صدقت أتدري لما بعثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله، قال: بعث إليك لأسألك عَلامَ أحببتِ علياً وأبغضتني؟ وواليتي وعاديتني؟ قالت: أو تعفيني؟ قال: لا أعفيك.

قالت: أما إذا أبيت فإني أحببت علياً على عدله في الرعية، وقسمه بالسوية، وأبغضتك على قتال مَنْ هو أولى منك بالأمر، وطلبتك ما ليس لك بحق، وواليت علياً على ما عقد له رسول الله ﷺ من الولاء، وحبّه المساكين، وإعظامه لأهل الدين، وعاديتك على سفكك الدماء، وجورك

(١) ربيع الأبرار ج ٣/٥٥١، شرح النهج: ٣٣٦/١، البحار: ٣٣/٢٠١.

(٢) شرح النهج ١: ١١١

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٦٨

في القضاء، وحكمك بالهوى.

قال: فلذلك انتفخ بطنك وعَظُمَ ثدياك، وَرَبَّتْ عجيزتك؟

قالت: يا هذا بهند والله كان يضرب المثل في ذلك لا بي.

قال معاوية: يا هذه أربعي فإننا لم نقل إلا خيرا، إنه إذا انتفخ بطن المرأة تم خلق ولدها، وإذا عظم ثدياها تروي رضيعها، وإذا عظمت عجزتها رزن مجلسها.. فرجعت وسكنت..

ثم قال لها: يا هذه هل رأيتِ علياً؟ قالت: أي والله..

قال: فكيف رأيته؟ قالت: رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك، ولم تشغله النعمة التي شغلتك..

قال: فهل سمعتِ كلامه؟

قالت: نعم والله، فكان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت صداً الطست.. قال: صدقتِ، فهل لك من حاجة؟

قالت: أو تفعل إذا سألتك؟ قال: نعم. قالت: تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها، قال: تصنعين بها ماذا؟ قالت: أغذوا بألبانها الصغار، وأستحيي بها الكبار، وأكتسب بها المكارم، وأصلح بها بين العشائر..

قال: فإن أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي بن أبي طالب؟ قالت: سبحان الله أو دونه.. فأنشأ معاوية يقول:

إذا لم أعد بالحلم مني عليكم

فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم؟

خذيها هنيئاً واذكري فعل ماجد جزاك على حرب العداوة بالسلم

ثم قال: أما والله لو كان عليّ حياً ما أعطاك منها شيئاً..

قالت: لا والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين.^(١)

لأن البغي وما يتبعه من فساد في مكة المكرمة كان ينشره بني أمية وأمثالهم وهذه الحالة تولد عداً وكرهاً خفياً بين هؤلاء السفهاء وبين الكرام الشهام الأصلاء.. فالشهم الشريف يأنف ويتعفف عن العتل الزنيم، والتافه اللئيم، والمجتمع عادة يكره ويعزل اللقطاء وأبناء الزنا فيحقدون عليه بالمقابل ويتمنون فساده ليكونوا فيه طبيعيين كغيرهم تماماً..

وأعتقد جازماً: أن هذا الرجل الغير طبيعي شكلاً ومضموناً كان يعيش في حياته عقدة أسمها (علي بن أبي طالب عليه السلام)، ودليلي في ذلك؛ أنه - ورغم كل ما ناله من سعة ملك وسلطان - كان لا يدخل إليه أحد رجلاً أو امرأة إلا وكان يذكر علي بن أبي طالب عليه السلام باحثاً عن فضائله طالباً أمثالها منهم بدفع المال وقيل الرجال..

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على عقدة حقد، أو خصلة حسد متأصلة في حنايا نفس هذا الإنسان المنكوس على عقبه، المركوس في نار النقص، وتفاهة الأصل المجهول وإن كان يفتخر بأبي سفيان، ويقول: لو أن أبا سفيان أنجب الناس كلهم لكانوا حلماء.. وهنا عقدة أخرى، تكمن بحالة الشك بنسبه فيفتخر بأبيه ليقول: أنه ابن صخر بن حرب.. ولكن هيهات؛ أن يثبت ذلك..

ولذا وكما ورث معاوية عداوة بني هاشم عن أبيه فقد ورث النصيب

(١) العقد الفريد ١: ١٦٢، بلاغات النساء لابن أبي طاهر ص ٧٢

الآخر أيضا عن أمه هند بنت عتبة بن ربيعة فقد كانت شديدة العداوة والبغض للنبي ﷺ بمكة ولما تجهّز مشركوا قريش لغزوة أحد - بعد أن قُتل كبار أهلها وولدها حنظلة في بدر الكبرى - خرجت معهم تحرّض المشركين على القتال ولما مروا بالأبواء حيث قُبرت أم النبي ﷺ آمنة بنت وهب ﷺ أشارت هند على زوجها ومَنْ معه من المشركين بنبش قبرها وقالت: لو نبشتم قبر أم محمد - وفي رواية بحثم - فإن أسر منكم أحد فديتم كل إنسان بأرب من آرابها (أي جزء من أجزائها)..

فقال بعض قريش: لا يُفتح هذا الباب.. ولما التقى الناس بأحد قامت هند والنسوة اللاتي معها وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ويقلن.

ويها بني عبد الدار
ويها حماة الأدبار
ضربا بكل بتار
نحن بنات طارق
نمشي على النمارق
إن تقبلوا نعانق
وإن تدبروا نفارق
فراق غير وامق

وقال أبو دجانة الأنصاري: سمعت إنسانا يُحمّس الناس حمسا شديدا يوم أحد فعمدت إليه فلما حملت عليه بالسيف ولول فعلمت انه امرأة فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن اضرب به امرأة. ولما انتهت الواقعة في أحد بقرت هند بطن سيدنا حمزة (رضوان الله عليه) وأخرجت كبده فلاكتها في فمها البغيض فلم تستطع أن تسيغها (تبلعها) فلفظتها (رمتها)

من فمها).. ولما بلغ الخبر رسول الله ﷺ أنها أخرجت كبد حمزة..
قال: هل أكلت منها شيئاً؟ قالوا: لا.. قال: إن الله قد حرّم على النار
أن تذوق من لحم حمزة شيئاً أبداً.
ولذا عرفت بـ(هند الهنود آكلة الكبود)^(١)..

وكان حسان بن ثابت يهجوها وزوجها على مسمع من النبي ﷺ
ومشهد من أصحابه ويقذفها بما اتهمت به من الزنا ولم ينكر عليه
النبي ﷺ شيئاً مما هجاهما به وهذا في علم الرواية والحديث يُسمى
تقريراً وهو حجة عند القوم، ومن ذلك قوله شعراً يذكر فيه خروجها إلى
أحد قال:

أشرت لكاع وكان عاداتها
لؤم إذا أشرت مع الكفر
لعن الإله وزوجها معها
هند الهنود طويلة البظر
ونسيت فاحشة أتيت بها
يا هند ويحك سبة الدهر
فرجعت صاغرة بلا ترة
مما ظفرت به ولا وتر
زعم الولائد أنها ولدت
ابنا صغيراً كان من عهر^(٢)

فهل هذا الذي يذكره حسان من عهر هل هو معاوية، أم حنظلة، أو

(١) الفخري: ١٠٣.

(٢) النصائح الكافية لابن عقيل: ص ١١٣.

يزيد، أو غيرهم فالعلم عند الله..

وقد أمر رسول الله ﷺ بقتلها يوم الفتح لما فعلت بحمزة من تمثيل ولما كانت تؤذي رسول الله ﷺ بمكة فجاءت إليه مع النساء متخفية وأسلمت خوفاً من القتل لا حباً بالرسول، ولا إيماناً بالإسلام الحنيف.

وأما جدته: فهي (حمامة) وكفاه وكل آل أبي سفيان أن تكون هذه جدتهم.. فقد كانت من أصحاب الرايات المذكورة.. وذكر أن عقيل بن أبي طالب عليه السلام جاء مرة إلى عند معاوية وفي نهاية المجلس قال له معاوية: أخبرني عن نفسي يا أبا يزيد!

قال: تعرف حمامة؟ ثم سار.. (أي ترك المجلس وسار عنه).

فألقي في خلد معاوية شكاً، قال: أمّ من أمهاتي لست أعرفها! فدعا بنسايين من أهل الشام، فقال أخبراني أية أم من أمهاتي يقال لها: «حمامة» (لست أعرفها؟). فقالا: نسألك بالله لا تسألنا عنها اليوم.

قال: أخبراني أو لأضربن أعناقكما! ولكما الأمان.

قالا: فإن حمامة جدة أبي سفيان وكانت بغيا وكان لها بيت تؤتى فيه.^(١)

وذكر أهل الأخبار أن أمية بن عبد شمس جدّ هذه الطائفة ذهب إلى الشام لما نافر عمه هاشما فأقام بصفورية وزنى بأمّة يهودية ولها زوج يهودي فولدت ولداً على فراش اليهودي فاستلحقه أمية به مع أن الولد للفراش وسماه ذكوان - الذي قيل فيه أنه عبده - وكناه أبا عمرو ووفد به مكة وهو الذي أعطاه زوجته فدخل بها وهو عنده..

وهذا الرجل (أبو عمرو) هو والد أبي معيط وهو والد عقبة المقتول

(١) (الغارات: ج ٢ ص ٥٥٣. والبحار: ج ٤٢ ص ١١٥)

بدر صبرا(أسيرا)..

والحديث يطول حول أصول هذه العائلة التي لا يعرف لها في الأصل أصول تذكر بين قبائل العرب..

١.١ معاوية ابن من؟

قال أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني: أن مسافر بن أبي عمرو بن أمية كان من فتيان قريش جمالا وشعرا وسخاء قالوا فعشق هنداً بنت عتبة بن ربيعة وعشقه فأتهم بها وحملت منه قال: بعض الرواة فقال معروف بن خربوذ فلما بان حملها أو كاد قالت له اخرج فخرج حتى أتى الحيرة فأتى عمرو بن هند الشاعر والملك، فكان ينادمه وأقبل أبو سفيان بن حرب إلى الحيرة في بعض ما كان يأتيها فلقي مسافرا فسأله عن حال قريش والناس فأخبره وقال له: فيما يقول وتزوجت هنداً بنت عتبة فدخله (أي مرض مسافر من هذا الخبر) من ذلك ما اعتل معه حتى استسقى بطنه قال ابن خربوذ فقال مسافر في ذلك.

ألا إن هنداً أصبحت منك محرماً

وأصبحت من أدنى حموتها حما

وأصبحت كالمقمور جفن سلاحه

يقلب بالكفين قوساً وأسهما

قال وخرج يريد مكة فمات بموضع يقال له هباله ودفن بها..^(١)

ومن مخازي هذه العائلة الفاضحة الشيء الكثير مما ذكرته كتب التاريخ والأنساب، فعبد شمس تبني أمية الرومي، وأمّية يتبنى ذكوان ويهبه زوجته، وأبو سفيان يدعي زيادا لأنه ذات يوم زنا بأمه البغي سمة -

(١) (النصائح الكافية - السيد محمد بن عقيل ص ١١٣)

والعياذ بالله - ومعاوية يرى أحدهم - وهو في ملكه وأوج عزه وسلطانه - مع إحدى نسائه فيحلم عنه - كما يقولون - ويتركه بشرط أن لا يذكر ذلك لأحد.. وما زالوا على هذه الأخلاق الجاهلية في الديانة والخبائث حتى بعد أن سيطروا على مقاليد الحكم في دولته العتيدة فألحق زيادا بأبيه وكان من قصته ما يجلب العار ويغضب الجبار..

وإليك هذه القصة من قصصه الدالة على نفسه ونفسيته في عالم النقاء، والشرف، والشهامة، والرجولة، والدين.. وهي:

٢٠١. قصة أرينب بنت اسحق

وهي تفريقه بالحيلة بين (عبد الله بن سلام) القرشي وزوجته (أرينب بنت إسحاق)^(١) حين تعشقها خميره يزيد ليزوجه بها معاونة له على الإثم والعدوان وقد روى القصة كلها ابن قتيبة في كتاب الإمامة والسياسة.. وخلاصة الرواية هي قال: لما بلغ معاوية عشق يزيد وهيامه بأرينب بنت إسحاق من وصيف له يقال له رفيق.. فقال له معاوية: اكتم يا بني أمرك واستعن بالصبر فان البوح غير نافع ولا بد مما هو كائن..

وكانت أرينب مثلاً في أهل زمانها جمالا وكمالا وكثرة مال وكانت تحت ابن عمها عبد الله بن سلام القرشي وكان له منزلة عند معاوية وقد استعمله بالعراق وقد امتلأ معاوية همًا وغمًا بأمر يزيد فأخذ في الحيلة والنظر فيما يجمع بينهما حتى يرضي يزيد فاستدعى زوجها من العراق عجلاً يبشره بأمر له فيه كامل الحظ فلما أنزله منزلاً حسناً ثم دعا معاوية أبا هريرة، وأبا الدرداء وكانا بالشام فقال لهما: إني لي ابنة أردت نكاحها ليهتدي بي من بعدي فأني أخاف أن يعضل الأمراء بعدي نساءهم وقد

(١) السياسة والإمامة للدينوري: ج١/٢١٧.

رضيت لها عبد الله بن سلام لدينه وفضله وأدبه فاذكرا ذلك عني واني كنت جعلت لها الشورى في نفسها غير أنني أرجو أن لا تخرج من رأيي..

فخرجنا إلى عبد الله بن سلام وأعلماه بما قاله معاوية فسُرَّ به وفرح وحمد الله ودعا لمعاوية ثم بعثهما إلى معاوية خاطبين عليه فلما قدما قال لهما معاوية: إنكما تعلمان رضاي بذلك فادخلا عليها واعرضا عليها ما رضيت لها.. فدخلوا وأعلموها بكل ما جرى وكان معاوية قد لَقَّنَهَا ما يريد أن تجيب به.. (أي علمها كي تنطلي الحيلة على الرجل). فقالت: عبد الله بن سلام كفوء كريم، وقريب حميم، غير انه تحته أرينب بنت إسحاق وأنا خائفة إن تعرض لي غيرة النساء فأتولى منه ما يسخط الله ولست بفاعله حتى يفارقها.. (أي لا أرضى به حتى يطلقها).. فأخبرا عبد الله بن سلام بالأمر ففارق زوجته (طلقها الغشيم) وأشهدهما على طلاقها.. فأظهر معاوية كراهيته طلاقها وقال: لا استحسنه ولو صبر ولم يعجل كان أمره إلى مصيره (أي لو صبر لأقنعتها به إيغالا بالحيلة)، فانصرفا في عافية ثم عودا لتأخذا رضاها..

ثم أخبر يزيد بما كان من طلاق أرينب، ثم عادا إلى معاوية فأمرهما بالدخول إليها ليسألها فدخلوا عليها وأعلموها بطلاق أرينب طلبا لمسررتها.. فقالت: انه في قریش لرفيع وان الزواج هزله جد والأناة في الأمور أوفق واني سائلة عنه حتى أعرف دخيلة خبره ومستخيرة فيه ومعلمتكما بخيرة الله..

ثم انصرفا وأعلموا عبد الله بن سلام فقال:

فإن يك صدر هذا اليوم

ولّى فإن غداً لناظره قريبُ

ولم يشك الناس في غدر معاوية إياه وتحدثوا به ثم استحشما عبد

الله بن سلام وسألهما الفراغ من أمره فأتياها فقالت لهما: إني سألت عن أمره فوجدته غير ملائم لي ولا موافق لما أريد لنفسي..

فعلم عبد الله انه قد خُدِعَ فقال متعزياً: ليس لأمر الله راد ولا م الناس معاوية على خديعته وجرأته على الله ولما انقضت أقرأؤها (عدتها) وجه معاوية أبا الدرداء إلى العراق خاطباً لها على ابنه يزيد فخرج حتى قدمها وبها يومئذ الحسين بن علي عليه السلام فقدم أبو الدرداء زيارة الإمام الحسين عليه السلام والتسليم عليه على مهمته فرحب به الإمام الحسين عليه السلام وأجله وأخبر أبو الدرداء بمهمته..

فقال الإمام الحسين عليه السلام: لقد ذكرت نكاحها فلم يمنعني إلا تخير مثلك فأحطبها علي وعليه وأعطها من المهر ما أعطها معاوية عن ابنه.. فلما دخل عليها أبو الدرداء قال لها: قد خطبك أمير هذه الأمة وابن الملك وولي عهده يزيد بن معاوية، وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله الحسين بن علي فاختاري أيهما شئت فسكتت طويلاً ثم فوضت أمرها إليه.. فقال: أي بنية ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله أحب إليّ وأرضاها عندي فتزوجها..

الإمام الحسين عليه السلام وساق لها مهراً عظيماً وبلغ معاوية ما فعل أبو الدرداء فتعاضمه جداً وقال: من يرسل ذابلة وعمى يركب خلاف ما يهوى ورأيي كان من رأيه أسوأ ولقد كنا بالملامة أولى وكان عبد الله بن سلام قد استودعها قبل فراقه بدرات مملوءة دراً هو أعظم ماله وأحبه إليه وكان معاوية قد جفاه وقطع جميع روافده لتهمته إياه بالخديعة ولم يزل يقصيه حتى عيّل صبره وقلّ ما في يده فخرج راجعاً إلى العراق يذكر ماله الذي كان استودعه أرينب ولا يدري كيف يصنع ويتوقع جحودها لطلاقه إياها من غير شيء أنكره ونقمه عليها ولما قدم لقي الإمام الحسين عليه السلام وسلم عليه وقال: قد علمت جعلت فداك ما كان من قضاء الله في طلاق

أرينب وكنت استودعتها مالا عظيما درا فذكرها أمري واحضضها على الرد فان الله يحسن عليك فلما انصرف الحسين عليه السلام إليها قال لها: قد قدم عبد الله بن سلام وهو يشني عليك ويذكر انه استودعك مالا فأدي إليه ماله..

فقلت: صدق وانه لمطبوع عليه بطابعه ثم لقي ابن سلام.. فقال: ما أنكرت وزعمت أنها لكما دفعتها لها بطابعك ثم دخل عليها وقال: الإمام الحسين عليه السلام: هذا عبد الله يطلب وديعته فأديها إليه.. فأخرجت البدرات فوضعتها بين يديه فشكرها وحثا لها من ذلك الدر حثوات واستعبرا جميعا(بكيا)..

فقال الإمام الحسين عليه السلام: اشهد الله أنها طالق ثلاثا.. اللهم انك تعلم أنني لم أتزوجها لمال، ولا لجمال، ولكن أردت حبسها على بعلمها وأرجو ثوابك على ذلك..

فعاد وتزوجها عبد الله بن سلام بعد انقضاء عدتها، وحرمها الله على يزيد السكير والحمد لله..

أما أبو سفيان كان أيضا من سادات (بل من طغاة) قريش في الجاهلية، وعده محمد بن حبيب من زنادقة قريش الثمانية..^(١)

وكان رأساً من رؤوس الأحزاب (الذين شنوا كل الحروب) على رسول الله ﷺ في حياته..^(٢)

٣.١. وصية والديه

في البداية والنهاية عن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف:

(١) (المحبر ص ١٦١)

(٢) (الأغاني ٦/ ٣٤٣ - ٣٤٤)

قال أبو سفيان - لمعاوية - : يا بني ، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا ، فرفعهم سبقهم وقدمهم عند الله وعند رسوله ، وقصّر بنا تأخيرنا ، فصاروا قادة وسادة ، وصرنا أتباعا ، وقد ولك جسيما من أمورهم فلا تخالفهم ؛ فإنك تجري إلى أمد ، فنافس فإن بلغته أورثته عقبك^(١) ..

البداية والنهاية عن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف: قالت هند - لمعاوية فيما كتبت به إليه - : والله يا بني إنه قل أن تلد حرة مثلك ، وإن هذا الرجل [أي عمر بن الخطاب] قد استنهضك في هذا الأمر ، فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت^(٢) ..

٤.١. عمر بن الخطاب ومعاوية

لم أستطع أن أتجاوز هذه النقطة إلا أن أذكر بها لأنها ملفتة للنظر فعلاً ، ألا وهي العلاقة ما بين عمر بن الخطاب مع كل من معاوية وعمر بن العاص .. فما هو السر هنا؟

فبالألمس القريب وحين كان الحبيب المصطفى ﷺ مسجى بين أهله يهيئونه ويبكون عليه بدمع الشؤن ، ودماء العيون ، والأصحاب ينتخبون خليفتهم في السقيفة المشئومة ، وعندما رجع أبو سفيان من خارج المدينة ورأى الناس قد بايعوا أبا بكر رعى وأزبد وقال: أين الأضعفان علي والعباس والله لأشدن من أزرهما فما بال هذا الأمر في أذل بيتا في قريش ..

وقال للإمام علي عليه السلام: يا أبا الحسن لو شئت لأملأها عليهم خيلاً

(١) تاريخ مدينة دمشق : ج ٧٠/ ١٨٦ ، البداية والنهاية : ج ٨/ ١١٨ .

(٢) البداية والنهاية : ج ٨/ ١١٨ .

ورجالاً..إني أرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم..

فلماذا هذه الوصايا من أبي سفيان، وهند الهنود لولدهما بالطاعة المطلقة له؟ ولماذا هذه العلاقة المميزة لمعاوية مع الخليفة العادل مع كل ولاته إلا مع معاوية فإنه: لا يأمره ولا ينهاه عن شيء؟

وما زال يذكره إلا بالإعجاب والإكبار ويصفه بفتى قريش وابن سيدها؟ ولمن السيادة على قريش والعرب بل على الدنيا هل هي لأبي سفيان وصبيان أمية، أم لرسول الله ﷺ وأهل بيته الأطهار؟

فقد روى في البداية والنهاية عن الزهري: أنه ذكر معاوية عند عمر بن الخطاب، فقال: دعوا فتى قريش وابن سيدها؛ إنه لمن يضحك في الغضب، ولا ينال منه إلا على الرضا، ومن لا يؤخذ من فوق رأسه إلا من تحت قدميه..

وفي تاريخ الطبري عن أبي محمد الأموي: خرج عمر بن الخطاب إلى الشام، فرأى معاوية في موكب يتلقاه، وراح إليه في موكب، فقال له عمر: يا معاوية! تروح في موكب وتغدو في مثله، وبلغني أنك تصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك!

قال: يا أمير المؤمنين إن العدو بها قريب منا ولهم عيون وجواسيس، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزاء..

فقال له عمر: إن هذا لكيد رجل لبيب أو خدعة رجل أريب..

فقال معاوية يا أمير المؤمنين مُرني بما شئت أصر إليه..

قال: ويحك! ما ناظرتك في أمر أعيب عليك فيه إلا تركتني ما أدري

أمرك أم أنهاك^(١)!

(١) تاريخ الطبري: ج ٣٣١/٥.

وفي سير أعلام النبلاء: لما قدم عمر الشام، تلقاه معاوية في موكب عظيم وهيئة، فلما دنا منه، قال: أنت صاحب الموكب العظيم؟ قال: نعم. قال: مع ما بلغني عنك من طول وقوف ذوي الحاجات ببابك؟ قال: نعم. قال: ولم تفعل ذلك؟ قال: نحن بأرض جواسيس العدو بها كثير، فيجب أن نظهر من عز السلطان ما يرهبهم، فإن نهيتني انتهيت..

قال: يا معاوية! ما أسألك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب الضرس لئن كان ما قلت حقاً؛ إنه لرأي أريب، وإن كان باطلاً؛ فإنه لخدعة أديب.

قال: فمرني. قال: لا آمرك ولا أنهاك.

ف قيل: يا أمير المؤمنين! ما أحسن ما صدر عما أوردته.

قال: لحسن مصادره وموارده جشمناه ما جشمناه^(١).

وفي تاريخ الطبري عن سعيد المقبري: قال عمر بن الخطاب: تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية!

٥.١. معاوية بالأحاديث والأقوال

أما معاوية فلم يكن في الجاهلية بدعا عن أبويه وذويه في حروبهم لرسول الله ﷺ والمسلمين، ولما رأى أن أباه أقبل يسلم، خاطبه بقوله:

يا صخر، لا تسلمن فتفضحنا

بعد الذين ببدر أصبحوا مزقا

وأسلم معاوية بعد الفتح في مَنْ أسلم وكان نصيبه من غنائم حنين مائة ناقة وأربعين أوقية أسوة بغيره من المؤلفلة قلوبهم الذين تألف

(١) سير أعلام النبلاء: ج ٣/١٣٣، وجشمناه: حملناه وكلفناه.

النبي ﷺ قلوبهم بذلك.^(١)

ومن أعظم ما يدل على استخفافه بالنبي (عليه وآله الصلاة والسلام) ما جاء في مسلم حيث تكرّم (النبي ﷺ) عليه واستكتبه في مَنْ استكتب من أصحابه، وبعث النبي إليه ذات يوم ابن عباس يدعوه ليكتب له، فوجده ابن عباس يأكل، فأعاده النبي إليه يطلبه. إلى ثلاث مرات، فقال النبي فيه: (لا أشبع الله بطنه)^(٢)..

ويعلق صاحب البداية والنهاية - بعد ذكر كلام النبي ﷺ قائلاً: وقد كان معاوية لا يشبع بعدها، ووافقته هذه الدعوة في أيام إمارته، فيقال: إنه كان يأكل في اليوم سبع مرات طعاما بلحم، وكان يقول: والله لا أشبع وإنما أعىي (أي أتعب من الأكل ولا أشبع منه)..

واللطيف أن بعضهم فهم من هذا الحديث: انه لا يدخل الجنة أبدا لان أهل الجنة لا يجوعون وهو لا يشبع..

وفي تهذيب التهذيب أن النسائي صاحب المسند كان أفقه مشايخ مصر في عصره، وأعرفهم بالصحيح والسقيم، وأعلمهم بالرجال، فلما بلغ هذا المبلغ حسدوه، فخرج إلى الرملة ثم إلى دمشق ولما وصلها سئل عن فضائل معاوية، فقال: أما يرضى رأساً برأس حتى يفضل، والله ما أعلم له فضيلة إلا دعاء رسول الله ﷺ عليه: لا أشبع الله له بطناً.. فضربوه بالنعال في الجامع حتى كاد أن يموت فقال: أخرجوني إلى مكة، فأخرجوه وهو عليل وتوفي مقتولاً شهيداً بسبب قوله الحق بحق معاوية. وخرج رسول الله في سفره، فسمع رجلين يتغنيان... فقال النبي: (انظروا

(١) أحاديث عائشة للعسكري ص ٢٩٤

(٢) (أنساب الاشراف ١/ ٥٣٢) (ومسلم في صحيحه ٨/ ٢٧) (وشرح النهج ١/ ٣٦٥)

من هما؟)، فقالوا: معاوية وعمرو بن العاص، فرفع رسول الله يديه فقال: (اللهم اركسهما في الفتنة ركسا، ودعّهما إلى النار دعّا)^(١)

عن عبد الله بن عمر قال: خرج رسول الله من فج فنظر إلى أبي سفيان وهو راكب، ومعاوية وأخوه أحدهما قائد والآخر سائق، فلما نظر إليهم رسول الله قال: أَللّهُم العن القائد والسائق والراكب. قلنا: أنت سمعت رسول الله ﷺ قال: نعم، وإلا فصمتا أذناي كما عميتا عيناي..^(٢)

عن البراء بن عازب قال: أقبل أبو سفيان ومعه معاوية فقال رسول الله ﷺ: أَللّهُم العن التابع والمتبوع، أَللّهُم عليك بالأقيعس، فقال ابن البراء لأبيه: من الأقيعس؟ قال: معاوية..^(٣)

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: يطلع من هذا الفج رجل من أمتي يحشر على غير ملتي. قال: وتركت أبي يلبس ثيابه فخشيت أن يطلع فطلع معاوية..^(٤)

وفي لفظ ابن مزاحم: يطلع عليكم من هذا الفج رجل يموت حين يموت على غير سنتي..^(٥)

وفي الحديث المرفوع المشهور أنه ﷺ قال: إن معاوية في تابوت من نار في أسفل درك منها ينادي: يا حنان يا منان الآن وقد عصيت قبل

(١) (مسند أحمد ٤/٤٢١) (في صفين لنصر بن مزاحم ص ٢٤٦) (ابن عقيل ص ٥٩ من النصائح الكافية)

(٢) (كتاب صفين مصر ص ٢٤٧) (الطبري ١١/٣٥٧) (ابن الجوزي في التذكرة ١١٥)

(٣) (كتاب صفين ط مصر ص ٢٤٤)

(٤) (تاريخ الطبري ١١: ٣٥٧) العتب الجميل ص ٨٦

(٥) (كتاب صفين ص ٢٤٧)

وكننت من المفسدين..^(١)

عن أبي ذر الغفاري الذي ما أظلت الخضراء أصدق منه، قال لمعاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول وقد مررت به: أَللّهم العنه ولا تشبعه إلا بالتراب..

وعن أبي ذر الغفاري قال لمعاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إست معاوية في النار. فضحك معاوية وأمر بحبسه.

وعنه مرفوعا: إذا ولي الأمة الأعين الواسع البلعوم الذي يأكل ولا يشبع فلتأخذ الأمة حذرهما منه. قال أبو ذر: أخبرني رسول الله ﷺ بأنه معاوية. وفي لفظ: لا يذهب أمر هذه الأمة إلا على رجل واسع الصرم، ضخم البلعوم.

عن أبي سعيد الخدري، وعبد الله بن مسعود مرفوعا: إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه. وفي لفظ: يخطب على منبري فاقتلوه. وفي لفظ: يخطب على منبري فاضربوا عنقه. وفي لفظ أبي سعيد: فلم نفعل ولم نفلح. وقال الحسن البصري: فما فعلوا ولا أفلحوا.^(٢)

وقال: الأعمش عن الحسن البصري أنه، قال: قال رسول الله ﷺ: إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه. فتركوا أمره فلم يفلحوا ولم ينجحوا.^(٣)

وعن أبي سعيد الخدري أن رجلا من الأنصار أراد قتل معاوية فقلنا له: لا تسل السيف في عهد عمر حتى نكتب إليه.. قال: إني سمعت رسول

(١) (تاريخ الطبري ١١: ٣٥٧، كتاب صفين ص ٢٤٣).

(٢) (كتاب صفين ٢٤٣، ٢٤٨ ط مصر، تاريخ الطبري ١١: ٣٥٧، تاريخ الخطيب ١٢، ١٨١،

شرح ابن أبي الحديد ١: ٣٤٨، كنوز الدقائق للمناوي ص ١٠، اللثالي المصنوعة ١: ٤٢٥

٤٢٤، تهذيب التهذيب ٢: ٤٢٨

(٣) (اللثالي المصنوعة ١: ٤٢٤، ٤٢٥)

الله ﷺ يقول: إذا رأيتم معاوية يخطب على الأعواد فاقتلوه. قالوا: ونحن سمعناه ولكن لا نفعل حتى نكتب إلى عمر فكتبوا إليه فلم يأتهم جواب حتى مات.

والديلمى عن عبد الله بن شبل قال: قال رسول الله ﷺ: اللهم العن معاوية واجعل قلبه قلب سوء وأملاً جوفه من رصف جهنم.^(١)

٦.١. رأي الإمام علي عليه السلام بمعاوية

رأي الإمام علي عليه السلام هو رأي الإسلام الحنيف، وهو رأي الرسول العظيم ﷺ، وهو مأخوذ من القرآن الكريم لا شك في ذلك.. وهو رأي رجل عصمه الله، ورباه وعلمه رسوله فلم يكن ليقول قولاً نابعا من نفسه الشريفة، أو يقول ما هو ناتج عن حالة العداء بين الطرفين فأمر المؤمنين عليه السلام يعطي الرجل حقه، ويصفه بما هو فيه وهو أعلم به من كل أحد من هذه الأمة وغيرها..

وهنا أقتطف كلمات لها معنى بخصوص معاوية من الرسائل المتبادلة، وأترك التفصيل والشرح لغيري من العلماء المختصين..

من كتاب لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية: أتاني كتابك كتاب امرئ ليس له بصر يهديه، ولا قائد يرشده، دعاه الهوى فأجابه، وقاده الضلال فاتبعه - إلى أن قال: - وأما شرفي في الإسلام وقرابتي من رسول الله ﷺ وموضعي من قريش فلعمري لو استطعت دفعه لدفعته. وفي لفظ: فقد أتني منك موعظة موصلة، ورسالة محبرة، نمقتها بضلالك، وأمضيته بسوء رأيك، وكتاب امرئ ليس له بصر يهديه، ولا قائد يرشده، قد دعاه الهوى فأجابه، وقاده الضلال فاتبعه، فهجر لا غطا،

(١) النصائح الكافية للسيد محمد بن عقيل ص ١٢٣

وضل خابطا.^(١)

من كتاب له عليه السلام إلى الرجل: فاقلع عما أنت عليه من الغي والضلال على كبر سنك وفناء عمرك، فإن حالك اليوم كحال الثوب المهيل الذي لا يصلح من جانب إلا فسد من آخر، وقد أردت جيلا من الناس كثيرا، خدعتهم بغيك، وألقيتهم في موج

بحرك، تغشاهم الظلمات، وتلاطم بهم الشبهات، فجاروا عن وجهتهم، ونكصوا على أعقابهم، وتولوا على أدبارهم، وعولوا على أحسابهم، إلا من فاء من أهل البصائر، فإنهم فارقوك بعد معرفتك، وهربوا إلى الله من موازرتك، إذ حملتهم على الصعب، وعدلت بهم عن القصد..^(٢)

من كتاب له عليه السلام إلى الرجل: فإن ما أتيت به من ضلالك ليس ببعيد الشبه مما أتى به أهلك وقومك الذين حملهم الكفر وتمنى الأباطيل على حسد محمد ﷺ حتى صرعوا مصارعهم حيث علمت، لم يمنعوا حريما، ولم يدفعوا عظيما، وأنا صاحبهم في تلك المواطن الصالي بحربهم، والفال لحدهم، والقاتل لرؤسهم ورؤوس الضلالة، والمتبع إن شاء الله خلفهم بسلفهم، فبئس الخلف خلف اتبع سلفا محله ومحطه النار.^(٣)

من كتاب له (سلام الله عليه) إلى الرجل: أما بعد: فطالما دعوت أنت وأوليائك أولياء الشيطان الرجيم الحق أساطير الأولين، ونبذتموه

(١) (العقد الفريد ٢. ٢٣٣، الكامل للمبرد ١: ١٥٧، وفي ط ٢٢٥، كتاب صفين ص ٦٤ الإمامة

والسياسة ١: ٧٧، نهج البلاغة ٢: ٥، شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٥٢، ج ٣: ٣٠٢)

(٢) نهج البلاغة ٢: ٤١، شرح ابن أبي الحديد ٤: ٥٠.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٥٠.

وراء ظهوركم، وحاولتم إطفاء نور الله بأيديكم وأفواهكم، والله متم نوره ولو كره الكافرون، ولعمري ليتمن النور على كرهك، ولينفذ العلم بصغارك، ولتجازين بعملك، فعث في دنياك المنقطعة عنك ما طاب لك، فكأنك بباطلك وقد انقضى، وبعملك وقد هوى، ثم تصير إلى لظى، لم يظلمك الله شيئاً، وما ربك بظلام للعبيد^(١). من كتاب له (صلوات الله عليه) إلى الرجل: أما بعد: فإن مساويك مع علم الله تعالى فيك حالت بينك وبين أن يصلح لك أمرك، وأن يرعوي قلبك، يا بن صخر يا ابن اللعين [وفي لفظ: يا بن الصخر اللعين] زعمت أن يزن الجبال حلمك، ويفصل بين أهل الشك علمك، وأنت الجلف المنافق، الأغلف القلب، القليل العقل، الجبان الرذل^(٢).

من كتاب له عليه السلام إلى الرجل: قد وصلني كتابك، فوجدتك ترمي غير غرضك وتنشد غير ضالتك، وتخبط في عماية، وتتيه في ضلالة، وتعتصم بغير حجة، وتلوذ بأضعف شبهة. فسبحان الله ما أشد لزومك للأهواء المبتدعة، والحيرة المتبعة، مع تضييع الحقائق، واطراح الوثائق التي هي لله تعالى طلبة، وعلى عباده حجة^(٣).

من كتاب له عليه السلام إلى الرجل: أما بعد: فقد آن لك أن تنتفع باللمح الباصر من عيان الأمور، فلقد سلكت مدارج أسلافك بادعائك الأباطيل، واقتحامك غرور اللين والأكاذيب، من انتحالك ما قد علا عنك، وابتزازك لما قد احتزن دونك، فرارا من الحق، وجحودا لما هو ألزم لك من لحمك ودمك، مما قد وعاه سمعك، ومُلئ به صدرك، فماذا بعد

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٥١، وج ٣: ٤١١.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٣: ٤١١، وج ٤: ٥١. ١٧

(٣) نهج البلاغة ٢: ٤٤، شرح ابن أبي الحديد ٤: ٥٧.

الحق إلا الضلال المبين.^(١)

من كتاب له عليه السلام إلى الرجل: متى كنتم يا معاوية! ساسة للرعية؟ أو ولاية لأمر هذه الأمة بغير قدم حسن؟ ولا شرف سابق (باسق) على قومكم، فشمّر لما قد نزل بك، ولا تمكن الشيطان من بغيته فيك، مع أنني أعرف أن الله ورسوله صادقان، فنعوذ بالله من لزوم سابق الشقاء، وإلا تفعل أعلمك ما أغفلك من نفسك، فإنك مترف قد أخذ منك الشيطان مأخذه، فجرى منك مجرى الدم في العروق.^(٢)

من كتاب له عليه السلام إلى الرجل: فاتق الله فيما لديك، وانظر في حقه عليك، وارجع إلى معرفة ما لا تعذر بجهالته، فإن للطاعة أعلاما واضحة، وسبلا نيرة، ومحجة نهجة، وغاية مطلوبة يردّها الأكياس، ويخالفها الأنكاس، من نكب عنها جار عن الحق، وخبط في التيه، وغير الله نعمته، وأحل به نقمته، فنفسك نفسك، فقد بين الله لك سبيلك، وحيث تناهت بك أمورك فقد أجريت إلى غاية خسر ومحلة كفر وإن نفسك قد أولجتك شرا، وأقحمتك غيا، وأوردتك المهالك، وأوعرت عليك المسالك.^(٣)

من كتاب له عليه السلام إلى الرجل جوابا: أما بعد: فإننا كنا نحن وأنتم على ما ذكرت من الألفة والجماعة، ففرق بيننا وبينكم أمس إنا آمنّا وكفرتم، واليوم إنا استقمنا وفتنتم، وما أسلم مسلمكم إلا كرها، وبعد أن كان أنف الإسلام كله لرسول الله صلّى الله عليه وآله حربا.

ومنه: وعندي السيف الذي أعضضته بجدك، وخالك، وأخيك

(١) (نهج البلاغة ٢: ١٢٥)

(٢) (كتاب صفين ص ١٢٢، نهج البلاغة ٢: ١١، شرح ابن أبي الحديد ٣: ٤١٢)

(٣) (نهج البلاغة ٢: ٣٦، ٣٧)

في مقام واحد(بدر)، وإنك والله ما علمت لأغلف القلب، المقارب العقل(ناقصه ضعيفه)، والأولى أن يقال لك: إنك رقيت سلماً أطلعك مطلع سوء عليك لآلك، لأنك نشدت غير ضالتك، ورعيت غير سائمتك، وطلبت أمراً لست من أهله ولا في معدنه، فما أبعد قولك من فعلك، وقريب ما أشبهت من أعمام وأحوال حملتهم الشقاوة وتمني الباطل على الجحود بمحمد ﷺ فصرعوا مصارعهم حيث علمت، لم يدفعوا عظيماً، ولم يمنعوا حريماً بوقع سيوف ما خلا منها الوغى، ولم تماشها الهوينى.. (أي لم ترافقها المساهلة).^(١)

من كتاب له ﷺ إلى الرجل جواباً: إنا بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل، فلعمري إنا بنو أب واحد، ولكن ليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب. ولا المهاجر كالطليق، ولا الصريح كاللصيق، ولا المحق كالمبطل، ولا المؤمن كالمدغل، ولبيس الخلف خلف يتبع سلفاً هوى في نار جهنم..^(٢)

قال ابن أبي الحديد في شرح ذيل هذا الكلام:

هل يعاب المسلم بأن سلفه كانوا كفاراً؟ قلت: نعم إذا تبع آثار سلفه، واحتذى حذوهم، وأمير المؤمنين ﷺ ما عاب معاوية بأن سلفه كفار فقط، بل بكونه متبعاً لهم.^(٣)

من كتاب له ﷺ إلى الرجل: ما أنت والفاضل والمفضول؟ والسائس والمسوس؟ وما للطلاق وأبناء الطلقاء والتميز بين المهاجرين الأولين، وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم؟ هيهات لقد حن قدح ليس

(١) (نهج البلاغة ٢: ١٢٤)

(٢) (شرح النهج ج ٣: ٢٢٤)

(٣). (شرح النهج: ج ٣: ٤٢٣)

منها، وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها، ألا تربع أيها الإنسان على ظلعك، وتعرف قصور ذرعك؟ وتتأخر حيث أخرك القدر، فما عليك غلبة المغلوب، ولا لك ظفر الظافر، وإنك لذهَّاب في التيه، رَوَّاغ عن القصد.^(١)

من كتاب له عليه السلام إلى مخنف بن سليم: إنا قد هممنا بالسير إلى هؤلاء القوم الذين عملوا في عباد الله بغير ما أنزل الله، واستأثروا بالفيء، وعطلوا الحدود، وأماتوا الحق، وأظهروا في الأرض الفساد، واتخذوا الفاسقين وليجة من دون المؤمنين، فإذا ولي الله أعظم أحداثهم أبغضوه وأقصوه وحرموه، وإذا ظالم ساعدهم على ظلمهم أحبوه وأدنوه وبروه، فقد أصروا على الظلم، وأجمعوا على الخلاف، وقديما صدوا عن الحق، وتعاونوا على الإثم وكانوا ظالمين.^(٢)

من كتاب له (صلوات الله عليه) إلى محمد بن أبي بكر وأهل مصر: إياكم ودعوة الكذاب ابن هند، وتأملوا واعلموا أنه لا سواء إمام الهدى، وإمام الردى، ووصي النبي وعدو النبي، جعلنا الله وإياكم ممن يحب ويرضى.^(٣)

من كتاب له عليه السلام إلى الرجل لما دعاه إلى التحكيم: ثم إنك قد دعوتني إلى حكم القرآن، ولقد علمت أنك لست من أهل القرآن ولا حكمه تريد، والله المستعان.^(٤)

من كتاب له عليه السلام إلى عمرو بن العاصي: أما بعد: فإنك تركت

(١) (نهج البلاغة ٢: ٣٠، صبح الأعشى ١: ٢٢٩، نهاية الأرب ٧: ٢٣٣)

(٢) (شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٨٢)

(٣) (شرح ابن أبي الحديد ٢: ٢٦، جمهرة الرسائل ١: ٥٤١)

(٤) (كتاب صفين ص ٥٥٦، نهج البلاغة ٢: ٥٦، شرح ابن أبي الحديد ١: ١٨٨)

مروءتك لامرئ فاسق مهتوك ستره، يشين الكريم بمجلسه، ويسفه الحليم بخلطته، فصار قلبك لقلبه تبعاً كما قيل: وافق شن طبقه، فسلبك دينك وأمانتك ودنياك وآخرتك.

وفيه قوله: فإن يمكن الله منك ومن ابن آكلة الأكباد ألحقتكما بمن قتله الله من ظلمة قريش على رسول الله، وإن تعجزا وتبقيا بعدي فالله حسبكما، وكفى بانتقامه انتقاماً، وبعقابه عقاباً.

من كتاب له عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر وقد بعث إليه عليه السلام لما كتبه معاوية وعمرو إليه وسيوافيك نصه: قد قرأت كتاب الفاجر ابن الفاجر معاوية، والفاجر ابن الكافر عمرو، المتحابين في عمل المعصية، والمتوافقين المرتشيين في الحكومة، المنكرين (أو المتكبرين على أهل الدين) في الدنيا، قد استمتعوا بخلاقهم كما استمتع الذين من قبلهم بخلاقهم، فلا يضرنك إرعاذهما وإبراقهما.^(١)

من كتاب له عليه السلام إلى أهل العراق: فأيقظوا رحمكم الله نائمكم، وأجمعوا على حقكم، وتجردوا لحرب عدوكم، قد أبدت الرغدة عن الصريح، وبان الصبح لذي عينين، إنما تقاتلون الطلقاء وأبناء الطلقاء، وأولي الجفاء، ومن أسلم كرها وكان لرسول الله ﷺ أنف الإسلام كله حرباً، أعداء الله والسنة والقرآن، وأهل الأحزاب والبدع والأحداث، ومن كانت بوائقه تتقى، وكان على الإسلام مخوفاً، أكلة الرشا وعبداء الدنيا، لقد أنهى إليّ أن ابن النابغة لم يبايع معاوية حتى أعطاه، وشرط عليه أن يعطيه إتاوة هي أعظم مما في يديه من سلطانه، ألا صفرت يد هذا البايع دينه بالدنيا، وتربت يد هذا المشتري نصرة غادر فاسق بأموال المسلمين، وإن منهم لمن قد شرب فيكم الخمر وجلد حداً في الإسلام (الوليد بن

(١) (تاريخ الطبري ٦، ٥٨، شرح ابن أبي الحديد ٢: ٣٢)

عقبة) يعرف بالفساد في الدين والفعل السيء، وإن فيهم من لم يسلم حتى رضخ له على الإسلام رضيخة (يعني معاوية) فهولاء قادة القوم، ومن تركت ذكر مساوئه من قاداتهم مثل من ذكرت منهم بل هو شر وأضر، وهولاء الذين ذكرت لو ولوا عليكم لأظهروا فيكم الكبر والفخر والفجور والتسلط بجبرته، والتطاول بالغضب، والفساد في الأرض، ولا تبعوا الهوى، وما حكموا بالرشاد..

إلى قوله عَلَيْهِ السَّلَام: أفلا تسخطون وتهتمون أن ينازعكم الولاية عليكم سفهاؤكم والأشرار والأراذل منكم فاسمعوا قولي وأطيعوا أمري، فو الله لئن أطعتموني لا تغوون، وإن عصيتموني لا ترشدون خذوا للحرب أهبتها، وأعدوا لها عدتها، فقد شبت نارها، وعلا سنانها، وتجرد لكم فيها الفاسقون كي يعذبوا عباد الله، ويطفئوا نور الله، ألا إنه ليس أولياء الشيطان من أهل الطمع والمكر والجفاء بأولى في الجد في غيهم وضلالهم من أهل البر والزهادة والإخبات في حقهم وطاعة ربهم، والله لو لقيتهم فردا وهم ملء الأرض ما باليت ولا استوحشت، وإنني من ضاللتهم التي هم فيها، والهدى الذي نحن عليه، لعلى ثقة وبينه وبقين وبصيرة، وإنني إلى لقاء ربي لمشتاق، ولحسن ثوابه لمنتظر، ولكن أسفا يعتريني وحزنا يخامرني أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها فيتخذوا مال الله دولا، وعباد الله خولا، والصالحين حربا، والقاسطين حزبا.^(١)

من كتاب له عَلَيْهِ السَّلَام إلى زياد بن أبيه: إن معاوية كالشيطان الرجيم يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، فاحذره ثم احذره ثم احذره، والسلام.^(٢)

(١) (الإمامة والسياسة ١: ١١٣، شرح ابن أبي الحديد ٢: ٣٧)

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٦٨

من خطبة له عليه السلام حين أمر أصحابه بالمسير إلى حرب معاوية قال: سيروا إلى أعداء الله، سيروا إلى أعداء السنن والقرآن، سيروا إلى بقية الأحزاب قتلة المهاجرين والأنصار.^(١)

من خطبة له عليه السلام في الدعوة إلى جهاد الرجل: نحن سائرون إن شاء الله إلى من سفه نفسه، وتناول ما ليس له وما لا يدركه، معاوية وجنده الفئة الباغية الطاغية، يقودهم إبليس ويبرق لهم ببارق تسويفه، ويدليهم بغروره.^(٢)

من خطبة له عليه السلام يوم صفين: إنهدوا إليهم، عليكم السكينة والوقار، وقار الإسلام، وسيما الصالحين، فو الله لأقرب قوم من الجهل قائدهم ومؤذنه معاوية وابن النابغة وأبو الأعور السلمي وابن أبي معيط شارب الخمر، المجلود حدا في الإسلام، وهم أولى من يقومون فينقصوني ويجذبوني وقبل اليوم ما قاتلوني، وأنا إذ ذاك أدعوهم إلى الإسلام، وهم يدعونني إلى عبادة الأصنام، الحمد لله قديما عاداني الفاسقون، فعبدتهم (أي ذلهم) الله، ألم يفتحوا؟ (الفتح: القهر والغلبة والتذليل) إن هذا لهو الخطب الجليل، إن فساقا كانوا غير مرضيين، وعلى الإسلام وأهله متخوفين، خدعوا شطر هذه الأمة، واشربوا قلوبهم حب الفتنة، واستمالوا أهواءهم بالإفك والبهتان (الكذب والدجل)، قد نصبوا لنا الحرب في إطفاء نور الله عز وجل، اللهم فافضض خدمتهم (أي: فرق بينهم) وشتت كلمتهم، وأبسلهم بخطاياهم، فإنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت.^(٣)

(١) كتاب صفين ص ١٥، جمهرة الخطب ١: ١٤٢

(٢) كتاب صفين ص ١٢٦

(٣) تاريخ الطبري ٦: ٢٤، كتاب صفين ص ٤٤٥

من خطبة له عليه السلام بصفين: وقد عهد إلي رسول الله ﷺ عهداً، فلست أحميد عنه، وقد حضرتم عدوكم، وعلمتم أن رئيسهم منافق ابن منافق يدعوهم إلى النار، وابن عم نبيكم معكم وبين أظهركم يدعوكم إلى الجنة وإلى طاعة ربكم، والعمل بسنة نبيكم، ولا سواء من صلى قبل كل ذكر، لا يسبقني الصلاة مع رسول الله أحد وأنا من أهل بدر، ومعاوية طليق ابن طليق، والله إنا على الحق وإنهم على الباطل، فلا يجتمعن على باطلهم، وتفرقوا عن حقكم حتى يغلب باطلهم حقكم، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم، فإن لم تفعلوا يعذبهم بأيدي غيركم.^(١)

من خطبة له عليه السلام: أما بعد: فإن الله قد أحسن بلاءكم، وأعز نصركم فتوجهوا من فوركم هذا إلى معاوية وأشياعه القاسطين، الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون.^(٢)

من خطبة له عليه السلام يستنفر الناس لقتال معاوية: يا أيها الناس استعدوا لقتال عدو في جهادهم القربة إلى الله ﻋَزَّ وَجَلَّ ودرك الوسيلة عنده، قوم حيارى عن الحق لا يبصرونه، موزعين بالجور والظلم لا يعدلون به، جفاة عن الكتاب، نكب عن الدين، يعمهون في الطغيان، ويتسكعون في غمرة الضلال، فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، وتوكلوا على الله وكفى بالله وكيلاً.^(٣)

(١) كتاب صفين ص ٣٥٥، شرح ابن أبي الحديد ١: ٥٠٣، جمهرة الخطب ١: ١٧٨

(٢) (الإمامة والسياسة ١: ١١٠، تاريخ الطبري ٦: ٥١، مروج الذهب ٢: ٣٨، شرح ابن أبي الحديد ١: ١٧٩، جمهرة الخطب ١: ٢٣١).

(٣) (كتاب صفين، تاريخ الطبري ٦: ٥١، الإمامة والسياسة ١: ١١٠، شرح ابن أبي الحديد ١: ١٧٩)

من خطبة له عليه السلام لما رفع أهل الشام المصاحف على الرماح: عباد الله إني أحق من أجب إلى كتاب الله ولكن معاوية وعمرو بن العاص، وابن أبي معيط، وحبيب بن مسلمة، وابن أبي سرح ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إني أعرف بهم منكم، صحبتهم أطفالا، وصحبتهم رجالا، فكانوا شر أطفال وشر رجال، إنها كلمة حق يراد بها الباطل، إنهم والله ما رفعوها إنهم يعرفونها ويعملون بها، ولكنها الخديعة، والوهن، والمكيدة، أعيروني سواعدكم وجماعكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا.^(١)

٧.١. شهادات أخرى معتبرة

كتب معاوية كتابا إلى أبي أيوب الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبر بذلك عليا عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين! إن معاوية كهف المنافقين كتب إليّ بكتاب.^(٢)

من كتاب لقيس بن سعد بن عبادة أمير الخزرج إلى معاوية: أما بعد: فإنما أنت وثن ابن وثن، دخلت في الإسلام كرها، وخرجت منه طوعا، لم يقدم إيمانك، ولم يحدث نفاقك. ومنه: ونحن أنصار الدين الذي خرجت منه، وأعداء الدين الذي دخلت فيه. وفي لفظ: أما بعد: فإنما أنت وثني ابن وثني، دخلت في الإسلام كرها، وأقمت فيه فرقا. وخرجت منه طوعا، ولم يجعل الله لك فيه نصيبا لم يقدم إيمانك، ولم يحدث نفاقك، ولم تزل حربا لله ولرسوله، وحزبا من أحزاب المشركين، وعدوا لله ولنبيه وللمؤمنين من عباده.

(١) (كتاب صفين ص ٥٦٠، تاريخ الطبري ٦: ٢٧، الكامل لابن الأثير ٣: ١٣٦)

(٢) (شرح ابن أبي الحديد ٢: ٢٨٠)

من كلام لقيس بن سعد لما بويع معاوية:

يا معشر الناس؟ لقد اعتضتم الشر من الخير، واستبدلتم الذل من العز، والكفر من الإيمان، فأصبحتم بعد ولاية أمير المؤمنين، وسيد المسلمين، وابن عم رسول رب العالمين، وقد وليكم الطليق ابن الطليق، يسومكم الخسف، ويسير فيكم بالعسف، فكيف تجهل ذلك أنفسكم؟ أم طبع الله على قلوبكم وأنتم لا تعقلون؟

من كتاب آخر لقيس إلى الرجل:

تأمرني بالدخول في طاعتك طاعة أبعد الناس من هذا الأمر، وأقولهم للزور، وأضلهم سبيلا، وأبعدهم من رسول الله وسيلة، ولديك قوم ضالون مضلون، طاغوت من طواغيت إبليس.

كتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية:

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن أبي بكر إلى الغاوي معاوية بن صخر. سلام على أهل طاعة الله ممن هو مسلم لأهل ولاية الله. أما بعد: فإن الله بجلاله وعظمته وسلطانه وقدرته خلق خلقا بلا عنت ولا ضعف في قوته؟ ولا حاجة به إلى خلقهم، ولكنه خلقهم عبيدا، وجعل منهم شقيا وسعيدا، وغويا ورشيدا، ثم اختارهم على علمه، فاصطفى وانتخب منهم محمدا صلى الله عليه وآله وسلم فاختره برسالته، واختاره لوحيه، وائتمنه على أمره وبعثه رسولا مصدقا لما بين يديه من الكتب ودليلا على الشرائع، فدعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، فكان أول من أجاب وأناب، وصدق ووافق، وأسلم وسلم أخوه وابن عمه علي بن أبي طالب عليه السلام، فصدقه بالغيب المكتوم، وآثره على كل حميم، فوقاه كل هول، وواساه بنفسه في كل خوف، فحارب حربه، وسالم سلمه، فلم يبرح مبتذلا لنفسه في ساعات الأزل (الضيق والشدة) ومقامات الروع،

حتى برز سابقا لا نظير له في جهاده، ولا مقارب له في فعله، وقد رأيتك تساميه وأنت أنت، وهو هو، المبرز السابق في كل خير، أول الناس إسلاما، وأصدق الناس نية، وأطيب الناس ذرية، وأفضل الناس زوجة، وخير الناس ابن عم، وأنت اللعين ابن اللعين ثم لم تزل أنت وأبوك تبغيان الغوائل لدين الله، وتجهدان على إطفاء نور الله، وتجمعان على ذلك الجموع، وتبدلان فيه المال، وتحالفان فيه القبائل، على ذلك مات أبوك، وعلى ذلك خلفته، والشاهد عليك بذلك من يأوي ويلجأ إليك من بقية الأحزاب ورؤس النفاق والشقاق لرسول الله ﷺ، والشاهد لعلي مع فضله المبين، وسبقه القديم، أنصاره الذين ذكروا بفضلهم في القرآن، فأثنى الله عليهم من المهاجرين والأنصار، فهم معه عصائب وكتائب حوله، يجالدون بأسيا فهم ويهريقون دماءهم دونه، يرون الفضل في اتباعه، والشقاء في خلافه، فكيف - يا لك الويل - تعدل نفسك بعلي؟ وهو وارث رسول الله ووصيه وأبو ولده، وأول الناس اتباعا، وآخرهم به عهدا، يخبره بسر، ويشركه في أمره، وأنت عدوه وابن عدوه؟ فتمتع ما استطعت بباطلك، وليمدد لك ابن العاصي في غوايتك، فكأن أجلك قد انقضى، وكيدك قد وهى، وسوف يستبين لمن تكون العاقبة العليا، وأعلم أنك إنما تكايد ربك الذي قد أمنت كيده، وأيست من روحه، وهو لك بالمرصاد، وأنت منه في غرور. وبالله وأهل رسوله عنك الغناء، والسلام على من اتبع الهدى^(١)

قال معن بن يزيد بن الأخنس السلمي الصحابي ممن شهد بدرًا لمعاوية: ما ولدت قرشية من قرشي شرا منك.^(٢)

(١) (مروج الذهب ٢: ٥٩، كتاب صفين ص ١٣٢، شرح ابن أبي الحديد ١: ٢٨٣ جمهرة

الرسائل ١: ٥٤٢).

(٢) (الإصابة ٣: ٤٥٠)

من كتاب الإمام السبط أبي محمد الحسن عليه السلام إلى معاوية:

فاليوم فليتعجب المتعجب من توثبك يا معاوية! على أمر لست من أهله، لا بفضل في الدين معروف، ولا أثر في الإسلام محمود، وأنت ابن حزب من الأحزاب، وابن أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله ولكتابه، والله حسيبك فسترد وتعلم لمن عقبى الدار، وبالله لتلقين عن قليل ربك ثم ليجزينك بما قدمت يدك، وما الله بظلام للعبيد.^(١)

لما قدم معاوية المدينة صعد المنبر فخطب وقال: مَنْ ابن علي؟ وَمَنْ علي؟ فقام الإمام الحسن عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله عز وجل لم يبعث بعثاً إلا جعل له عدواً من المجرمين، فأنا ابن علي وأنت ابن صخر، وأمك هند وأمي فاطمة، وجدتك قتيلة وجدتي خديجة، فلعن الله ألأمناء حسبا، وأخملنا ذكرا، وأعظمنا كفرا، وأشدنا نفاقا، فصاح أهل المسجد: آمين آمين. فقطع معاوية خطبته ودخل منزله.^(٢)

وفي لفظ: خطب معاوية بالكوفة حين دخلها، والحسن والحسين عليهما السلام جالسان تحت المنبر، فذكر عليا عليه السلام فنال منه ثم نال من الحسن، فقام الحسين ليرد عليه، فأخذه الحسن بيده فأجلسه ثم قام فقال: أيها الذاكر عليا! أنا الحسن وأبي علي، وأنت معاوية وأبوك صخر، وأمي فاطمة، وأمك هند، وجدي رسول الله صلى الله عليه وآله وجدك عتبة بن ربيعة، وجدتي خديجة، وجدتك قتيلة، فلعن الله أخملنا ذكرا، والأمناء حسبا، وشرنا قديما وحديثا، وأقدمنا كفرا ونفاقا. فقال طوائف من أهل

(١) (مقاتل الطالبين ص ٢٢، شرح ابن أبي الحديد ٤: ١٢، جمهرة الرسائل ٢: ٩)

(٢) (المستطرف ١: ١٥٧، الإتحاف ص ١٠)

المسجد: آمين.^(١) ونحن نقول: آمين يا رب العالمين.

أرسل معاوية إلى الحسن (السبط الزكي) يسأله أن يخرج فيقاتل الخوارج فقال الحسن: سبحان الله تركت قتالك وهو لي حلال لصالح الأمة وألفتهم، أفتراني أقاتل معك؟^(٢)

كتب الإمام السبط أبو عبد الله عليه السلام إلى معاوية:

أما بعد: فقد جاءني كتابك تذكر فيه أنه انتهت إليك عني أمور لم تكن تظن بها رغبة بي عنها، وإن الحسنات لا يهدي لها ولا يسدد إليها إلا الله تعالى، وأما ما ذكر أنه رقي إليك عني، فإنما رقا الملاقون المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الجمع، وكذب الغاوون المارقون، ما أردت حربا ولا خلافا، وإني لأخشى الله في ترك ذلك منك ومن حزبك القاسطين المحلين، حزب الظالم، وأعوان الشيطان الرجيم. ألسنت قاتل حجر وأصحابه العابدين المختبين الذين كانوا يستفظعون البدع، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؟ فقتلتهم ظلما وعدوانا من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة، والعهود المؤكدة جراءة على الله واستخفافا بعهده. أو لست بقاتل عمرو بن الحمق الذي أخلقت وأبليت وجهه العبادة؟ فقتلته من بعد ما أعطيته من العهود ما لو فهمته العصم نزلت من سقف الجبال. أو لست المدعي زيادا في الإسلام، فزعمت أنه ابن أبي سفيان، وقد قضى رسول الله ﷺ إن الولد للفراش وللعاهر الحجر، ثم سلطته على أهل الإسلام يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم على جذوع النخل؟. سبحان الله يا معاوية! لكأنك لست من هذه الأمة، وليسوا منك، أو لست قاتل الحضرمي الذي كتب

(١) (شرح ابن أبي الحديد ٤ : ١٦)

(٢) (شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٦)

إليك فيه زياد أنه على دين علي كرم الله وجهه، ودين علي هو دين ابن عمه ﷺ الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه، ولولا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك تجشم الرحلتين: رحلة الشتاء والصيف، فوضعها الله عنكم بنا منة عليكم، وقلت فيما قلت: لا تردن هذه الأمة في فتنة. وإني لا أعلم لها فتنة أعظم من إمارتك عليها، وقلت فيما قلت: انظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد. وإني والله ما أعرف فضل من جهادك، فإن أفعل فإنه قرية إلى ربي، وإن لم أفعله فاستغفر الله لديني، وأسأله التوفيق لما يحب ويرضى، وقلت فيما قلت: متى تكدني أكدك فكدني يا معاوية ما بدا لك، فلعمري لقدima يكاد الصالحون، وإني لأرجو أن لا تضر إلا نفسك ولا تمحق إلا عملك، فكدني ما بدا لك، واتفق الله يا معاوية! واعلم أن الله كتابا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، واعلم أن الله ليس بناس لك قتل بالظنة، وأخذك بالتهمة، وإمارتك صبيا يشرب الشراب، ويلعب بالكلاب، ما أراك إلا قد أوبقت نفسك، وأهلك دينك، وأضعت الرعية. والسلام.^(١)

خطب الإمام السبط الحسين الشهيد (سلام الله عليه)

لما قدم معاوية المدينة حاجا وأخذ البيعة ليزيد وخطب ومدح يزيد الطاغية ووصفه بالعلم بالسنة وقراءة القرآن والحلم الذي يرجح بالصم الصلاب. فقام الحسين فحمد الله وصلى على الرسول ﷺ ثم قال: أما بعد: يا معاوية! فلن يؤدي القائل - وإن أطنب - في صفة الرسول ﷺ من جميع جزاء، قد فهمت ما ألبست به الخلف بعد رسول الله ﷺ من إيجاز الصفة، والتنكب عن استبلاغ البيعة، وهيهات هيهات يا معاوية! فضح الصبح فحمة الدجى، وبهرت الشمس أنوار السرج، ولقد فضلت

(١) الإمامة والسياسة ١: ١٣١ وفي ط ١٤٨، جمهرة الرسائل ٢: ٦٧

حتى أفرطت، واستأثرت حتى أجحفت، ومنعت حتى بخلت، وجرت حتى جاوزت، ما بذلت لذي حق من أتم حقه بنصيب حتى أخذ الشيطان حظه الأوفر، ونصيبه الأكمل، وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لأمة محمد ﷺ، تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً أو تنعت غائباً، أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص، وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد فيما أخذ به من استقراءه الكلاب المتهاشمة عند التحارش، والحمام السبق لأترابهن، والقينات ذوات المعازف، وضروب الملاهي، تجده ناصراً ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق أكثر مما أنت لاقية، فوالله ما برحت تقدم باطلاً في جور، وحنقا في ظلم، حتى ملأت الأسقية، وما بينك وبين الموت إلا غمضة، فتقدم على عمل محفوظ في يوم مشهود، ولات حين مناص، ورأيتك عرضت بنا بعد هذا الأمر، ومنعتنا عن آبائنا تراثاً، ولقد - لعمر الله - أورثنا الرسول عليه الصلاة والسلام ولادة، وجئت لنا بما حججتم به القائم عند موت الرسول (عليه الصلاة والسلام)، فأذعن للحجة بذلك، ورده الإيمان إلى النصف، فركبتم الأعاليل، وفعلتم الأفاعيل، وقلتم: كان ويكون، حتى أتاك الأمر يا معاوية! من طريق كان قصدها لغيرك، فهناك فاعتبروا يا أولي الأبصار.^(١)

من كلام لابن عباس ألقاه في البصرة: أيها الناس! استعدوا للمسير إلى إمامكم، وانفروا في سبيل الله خفافاً وثقالاً، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فإنكم تقاتلون المحلين القاسطين الذين لا يقرءون القرآن ولا يعرفون حكم الكتاب، ولا يدينون دين الحق، مع أمير المؤمنين.

فقام إليه عمرو بن مرجوم العبدي فقال: وفق الله أمير المؤمنين

(١) الإمامة والسياسة ١: ١٥٣، جمهرة الخطب ٢: ٢٤٢

وجمع له أمر المسلمين، ولعن المحلين القاسطين الذين لا يقرءون القرآن، نحن والله عليهم حنقون، ولهم في الله مفارقون.^(١)

من كلام لعمار بن ياسر رضي الله عنه يوم صفين

يا أهل الإسلام؟ أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله وجاهدهما، وبغى على المسلمين، وظاهر المشركين، فلما أراد الله أن يظهر دينه وينصر رسوله أتى النبي ﷺ فأسلم، وهو والله فيما يرى راهب غير راغب، وقبض الله رسول ﷺ وإنا والله لنعرفه بعداوة المسلم ومودة المجرم؟ ألا وإنه معاوية، فالعنوه لعنه الله، وقتلوه فإنه ممن يطفئ نور الله، ويظاهر أعداء الله.^(٢)

من مقال لعبد الله بن بديل يوم صفين

إن معاوية ادعى ما ليس له ونازع الأمر أهله ومن ليس مثله، وجادل بالباطل ليدحض به الحق، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب، وزين لهم الضلالة، وزرع في قلوبهم حب الفتنة، ولبس عليهم الأمر، وزادهم رجسا إلى رجسهم، وأنتم والله على نور من ربكم وبرهان مبين، قاتلوا الطغام الجفافة ولا تخشوهم، وكيف تخشونهم وفي أيديكم كتاب من ربكم ظاهر مبرور؟ أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين. قاتلوا الفئة الباغية الذين نازعوا الأمر أهله وقد قاتلتهم مع النبي ﷺ، والله ما هم في هذه بأزكى ولا أنقى ولا أبر، قوموا إلى عدو الله وعدوكم رحمكم الله.^(٣)

(١) كتاب صفين ص ١٣٠، ١٣١

(٢) تاريخ الطبري ٦: ٧، كتاب صفين ص ٢٤٠، الكامل لابن الأثير ٣: ١٣٦

(٣) تاريخ الطبري ٦: ٩، كتاب صفين ص ٢٦٣، الاستيعاب في ترجمة عبد الله ١: ٣٤٠، شرح

من خطبة لسعيد بن قيس

فو الله الذي بالعباد بصير أن لو كان قائدنا حبشيا مجدعا إلا أن معنا من البدرين سبعين رجلا، وإنما رئيسنا ابن عم نبينا، بدري صدق، صلى صغيرا، وجاهد مع نبيكم كبيرا، ومعاوية طليق من وثاق الاسئار وطليق وابن طليق، ألا إنه أغوى جفاة فأوردتهم النار، وأورثهم العار، والله محل بهم الذل و- الصغار، ألا إنكم ستلقون عدوكم غدا، فعليكم بتقوى الله والجد والحزم والصدق والصبر فإن الله مع الصابرين، ألا إنكم تفوزون بقتلهم ويشقون بقتلكم، والله لا يقتل رجل منكم رجلا منهم إلا أدخل الله القاتل جنات عدن، وأدخل المقتول نارا تلظى لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون.^(١)

من خطبة لمالك بن الحارث الأشتر يوم صفين

واعلموا أنكم على الحق وأن القوم على الباطل، يقاتلون مع معاوية، وأنتم مع البدرين قريب من مائة بدري، ومن سوى ذلك من أصحاب محمد ﷺ، أكثر ما معكم رايات قد كانت مع رسول الله ﷺ ومع معاوية رايات قد كانت مع المشركين على رسول الله ﷺ، فما يشك في قتال هؤلاء إلا ميت القلب، فإنما أنتم على إحدى الحسينين: إما الفتح، وإما الشهادة.^(٢)

من مقال لهاشم بن عتبة المرقال:

سر بنا يا أمير المؤمنين؟ إلى هؤلاء القوم القاسية قلوبهم، الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وعملوا في عباد الله بغير رضا الله، فأحلوا

ابن أبي الحديد ١: ٤٨٣، جمهرة الخطب ١: ١٧٦

(١) كتاب صفين ص ٢٦٦، شرح ابن أبي الحديد ١: ٤٨٣، جمهرة الخطب ١: ١٧٩

(٢) صفين ص ٢٦٨، شرح ابن أبي الحديد ١: ٤٨٤، جمهرة الخطب ١: ١٨٣

حرامه، وحرّموا حلاله، واستهوى بهم الشيطان، ووعدهم الأباطيل، ومناهم الأماني حتى أزاعهم عن الهدى، وقصد بهم قصد الردى، وحبب إليهم الدنيا، ومنه: وهم يا أمير - المؤمنین؟ يعلمون منك مثل الذي نعلم، ولكن كتب عليهم الشقاء، ومالت بهم الأهواء، وكانوا ظالمين.^(١)

من خطبة لابن عباس بصفين:

إن ابن آكلة الأكباد قد وجد من طغام أهل الشام أعوانا على علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله وصهره، وأول ذكر صلى معه، بدري قد شهد مع رسول الله ﷺ كل مشاهدته التي فيها الفضل، ومعاوية وأبو سفيان مشركان يعبدان الأصنام، واعلموا: والله الذي ملك الملك وحده فبان به وكان أهله، لقد قاتل علي بن أبي طالب مع رسول الله ﷺ، وعلي ﷺ يقول: صدق الله ورسوله، ومعاوية وأبو سفيان يقولان: كذب الله ورسوله. فما معاوية في هذه بأبر ولا أتقى ولا أرشد ولا أصوب منه في تلکم، فعليکم بتقوى الله والجد والحزم والصبر، وإنکم لعلی الحق وإن القوم لعلی الباطل.^(٢)

وقال النيسابوري في تفسير سورة القدر قال ذكر القاسم بن فضل عن عيسى بن مازن قال: قلت للحسن بن علي ﷺ يا مسودّ وجوه المؤمنین عَمَدَتِ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فَبَايَعْتَهُ يَعْنِي مُعَاوِيَةَ..

فقال ﷺ: إن رسول الله ﷺ رأى في منامه بني أمية يطؤون منبره واحدا بعد واحد.. وفي رواية ينزون على منبره نزو القردة فشق ذلك عليه فأنزل الله تعالى: إنا أنزلناه إلى قوله خير من ألف شهر يعني ملك بني أمية قال: القاسم فحسبنا ملك بني أمية فإذا هو ألف شهر لا يزيد ولا

(١) جمهرة الخطب ١: ١٥١

(٢) كتاب صفين ص ٣٦٠، شرح ابن أبي الحديد ١: ٥٠٤

ينقص^(١)..

ومن خطبة لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام:

والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر
لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدره فجرة، ولكل فجرة كفر، ولكل
غادر لواء يعرف به يوم القيامة، والله ما استغفل بالمكيدة، ولا استفخر
بالشديدة^(٢).

ولابن أبي الحديد^(٣) في شرحه كلمة ضافية في شرح هذه الخطبة
فيها فوائد جمّة من جهات شتى، ومنها كلمة الجاحظ أبي عثمان حول
معاوية، وقول أبي جعفر النقيب: إن معاوية من أهل النار لا لمخافته علياً
ولا بمحاربتة إياه، ولكن عقيدته لم تكن صحيحة ولا إيمانه حقاً، وكان
من رؤوس المنافقين هو وأبوه، ولم يسلم قلبه قط، وإنما أسلم لسانه،
وكان يذكر من حديث معاوية ومن فلتات قوله وما حفظ عنه من كلام
يقتضي فساد العقيدة شيئاً كثيراً.

منها أنه لما قتل العباس بن ربيعة يوم صفين عرار بن أدهم من
أصحاب معاوية تأسف معاوية على عرار وقال: متى ينطف فحل بمثله؟
أيطل دمه؟ لاها الله ذا. ألا لله رجل يشري نفسه يطلب بدم عرار؟ فانتدب
له رجلاً من لخم.

فقال: اذهبا فأيكما قتل العباس برازاً فله كذا.. فأتياه ودعواه إلى
البراز فقال: إن لي سيداً أريد أن أوامره فأتى علياً فأخبره الخبر فقال
علي عليه السلام: والله لو دّ معاوية إنه ما بقي من هاشم نافخ ضربة إلا طعن في

(١) النصائح الكافية: ص ١٣٩.

(٢) نهج البلاغة: خ ٢٠٠.

(٣) راجع شرح النهج: ج ٢/ ٥٧٢ وما بعدها.

نيطه (النيط: الوسط بين الأمرين) إطفاءً لنور الله ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]^(١).

وقال الأسود بن يزيد: قلت لعائشة: ألا تعجبين لرجل من الطلقاء ينازع أصحاب رسول الله ﷺ في الخلافة؟ فقالت: وما تعجب من ذلك؟ هو سلطان الله يؤتیه البرّ والفاجر، وقد ملك فرعون أهل مصر أربعمئة سنة، وكذلك غيره من الكفار^(٢).

قال: أخرجه أبو داود الطيالسي وابن عساكر.

فتشبه السيدة الأم ولدها معاوية بفرعون وغيره من الكفار في ملكه يُعْرَبُ عن جليلة حال ذلك الملك العضوض ومالك أزمته، ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ (٩٧) ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَبْسُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ (٩٨) وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَبْسُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿[هود: ٩٧-٩٩]

٨.١. مع عبادة بن الصامت

ولعبادة بن الصامت مع معاوية أحاديث منها: أنه لما استخلف (معاوية) قام على المنبر فخطب الناس فذكر أبا بكر وعمر وعثمان ثم قال: وليتُ فأخذت حتى خالط لحمي ودمي، فهو خير مني، وأنا خير ممن بعدي. يا أيها الناس، إنما أنا لكم جنة..

فقام عبادة بن الصامت فقال: أرايت إن احترقت الجنة؟

قال: إذن تخلص إليك النار.

(١) (شرح النهج ٢: ٥٧٢ - ٥٨٩)

(٢) تاريخ ابن كثير ٨ ص ١٣١

قال: من ذلك أفر، فأمر به فأخذ. فأضرب بمعاوية، ثم قال: علمت كيف كانت البيعتان حين دعينا إليهما؟ دعينا على أن نبايع على أن لا نزني ولا نسرق ولا نخاف في الله لومة لائم، فقلت: أما هذه فاعفني يا رسول الله، ومضيت أنا عليها، وبايعت رسول الله ﷺ، ولأنت يا معاوية أصغر في عيني من أن أخاف في الله عفوكم.

ومرة حيث كان عبادة بن الصامت بالشام فرأى آنية من فضة، يباع الإناء بمثلي ما فيه، أو نحو ذلك، فمشى إليهم عبادة فقال: أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا عبادة بن الصامت، ألا وإنني سمعت رسول الله ﷺ في مجلس من مجالس الأنصار ليلة الخميس في رمضان ولم يصم رمضان بعده يقول: الذهب بالذهب، مثلاً بمثل، سواء بسواء، وزنا بوزن، يدا بيد، فما زاد فهو ربا والحنطة بالحنطة، قفيز بقفيز، يد بيد، فما زاد فهو ربا، والتمر بالتمر، قفيز بقفيز، يد بيد، فما زاد فهو ربا.

قال: فتفرق الناس عنه. فأتي معاوية فأخبر بذلك، فأرسل إلى عبادة، فأتاه، فقال له معاوية: لئن كنت صحبت النبي ﷺ وسمعت منه لقد صحبتناه وسمعنا منه..

فقال له عبادة: لقد صحبتته وسمعت منه.

فقال له معاوية: فما هذا الحديث الذي تذكره؟ فأخبره به، فقال له معاوية: اسكت عن هذا الحديث ولا تذكره..

فقال له: بلى وإن رغم أنف معاوية، ثم قام.. فقال له معاوية: ما نجد شيئاً أبلغ فيما بيني وبين أصحاب محمد ﷺ من الصفح عنهم.

ومرَّ على عبادة بن الصامت وهو في الشام قطارة تحمل الخمر،

فقال: ما هذه أزيث؟ قيل، لا، بل خمر تباع لمعاوية، فأخذ شفرة من السوق فقام إليها فلم يذر فيها راوية إلا بقرها، وأبو هريرة إذ ذاك بالشام، فأرسل معاوية إلى أبي هريرة يقول له: أما تمسك عنا أخاك عبادة؟ أما بالغدوات فيغدو إلى السوق فيفسد على أهل الذمة متاجرهم، وأما بالعشي فيقعّد في المسجد ليس له عمل إلا شتم أعراضنا أو عيينا، فأمسك عنا أخاك.

فأقبل أبو هريرة يمشي حتى دخل على عبادة فقال: يا عبادة، ما لك ولمعاوية ذره وما حمل فإن الله يقول: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ١٣٤].

قال: يا أبا هريرة لم تكن معنا إذ بايعنا رسول الله ﷺ، بايعناه على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن نقول في الله لا تأخذنا في الله لومة لائم، وعلى أن ننصره إذا قدم علينا يثرب، فنمنعه مما نمنع منه أنفسنا وأزواجنا وأهلنا ولنا الجنة، فهذه بيعة رسول الله ﷺ التي بايعناه عليها فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما بايع عليه رسول الله ﷺ وفي الله له بما بايع عليه نبيه. فلم يكلمه أبو هريرة بشيء..^(١)

واخرج ابن عساكر والحسن بن سفيان وابن مندة عن محمد بن كعب القرظي قال: غزا عبد الرحمن بن سهل الأنصاري في زمن عثمان ومعاوية أمير علي الشام فمرت به روايا خمر - لمن هي؟ لمعاوية كما يدل عليه السياق وصرح به البعض تحمل فقام إليها عبد الرحمن برمحه فبقر كل راوية منها فناوشه غلماناه حتى بلغ شأنه معاوية فقال: دعوه فإنه شيخ قد

(١) (الغدير: ج ١٠/ ١٧٩ و ١٨٠ عن ابن عساكر: ج ٧/ ٢١١)

ذهب عقله..

فقال: كذب والله ما ذهب عقلي ولكن رسول الله ﷺ نهانا أن ندخله بطوننا واسفيتنا وأحلف بالله لئن بقيت حتى (أحقق) في معاوية ما سمعت من رسول الله ﷺ لأبقرن بطنه أو لأموتن دونه.. يعني حديث رسول الله ﷺ: إذا رأيتم معاوية على منبري فابقروا كرشه.. وفي رواية يضيف ﷺ بذيلها: ولن تفعلوا..

واخرج الزبير بن بكار في الموفقيات عن المطرف بن المغيرة بن شعبة قال: دخلت مع أبي على معاوية فكان أبي يأتيه فيتحدث معه ثم ينصرف إلي ويذكر معاوية وعقله ويعجب بما يرى منه إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء ورأيت مغتما فانتظرت ساعة وظنت أنه لأمر حدث فينا..

فقلت: مالي أراك مغتما منذ الليلة..

فقال: يا بني جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم..

قلت: وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوت به أنك قد بلغت سنا يا أمير (المواطنين) فلو أظهرت عدلا وبسطت خيرا فقد كبرت ولو نظرت إلى أخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم فو الله ما عندهم اليوم شيء تخافه وإن ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه..

فقال: هيهات، هيهات.. أي ذكر أرجو بقاءه ملك أخو تيم (أبو بكر) فعدل وفعل ما فعل فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره إلا أن يقول قائل أبو بكر.

ثم ملك أخو عدي (عمر) فأجتهد وشمر عشر سنين فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره إلا أن يقول قاتل عمر..

وان ابن أبي كبشة (يعني رسول الله ﷺ ليصاح به كل يوم خمس مرات) (في الأذان) اشهد أن محمدا رسول الله.. فأى عمل يبقى وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أبالك.. لا والله إلا دفنا، دفنا..

أي أنه لا يقر له قرار، ولن يهدأ له بال حتى يدفن الأذان وينتهي ذكر رسول الله ﷺ ولكن هيهات، هيهات له ذلك يأبى الله إلا أن يتم نور حبيبه، ويدحض كل مشرك، وكافر، ومنافق آثم، وها نحن بعد قرون نرى ذكر الحبيب المصطفى ﷺ كل يوم بازدياد والله الحمد، وأما معاوية فالذاكر له لا يذكره إلا بالمذمة واللعن..

وفي كتاب المعمرين لأبي حاتم السجستاني من أثناء محاوره ذكرها لمعاوية مع المعمر أمد بن أمد الحضرمي قال: قال معاوية أرأيت هاشما قال نعم والله طوالا حسن الوجه يقال إن بين عينيه بركة قال: فهل رأيت أمية قال: نعم رأيت رجلا قصيرا أعمى يقال ان في وجهه لشرا أو شؤما قال: أفرأيت محمدا؟

قال: ومن محمد؟ قال: رسول الله..

قال: أفلا فخّمته كما فخّمه الله فقلت رسول الله..

وابن عبد البر في الاستيعاب قال: حدثنا أحمد بن أبي عبد الله قال: حدثنا عن الحسن البصري قال: كتب زياد إلى الحكم بن عمرو الغفاري وهو على خراسان: إن أمير المواطنين كتب إليّ أن تصفى له البيضاء والصفراء (الذهب والفضة) فلا تقسم بين الناس ذهبا ولا فضة..

فكتب إليه الحكم: بلغني أن أمير المواطنين كتب أن تصفى له البيضاء والصفراء واني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المواطنين وانه والله لو أن السماوات والأرض كانتا رتقا على عبد ثم اتقى الله جعل له

مخرجاً والسلام عليكم..

ثم قال للناس: اغدوا على مالكم فقسّمه بينهم وقال: الحكم اللهم إن كان عندك لي خير فاقبضني إليك فمات بخراسان بمرور واستخلف لما حضرته الوفاة أنس بن أبي أناس.

قيل: أن معاوية كان يكره اسمه فأراد أن يسمي به أحداً من بني هاشم فيخفف وطأه عليه، فبذل ألف ألف (مليون) درهم لعبد الله بن جعفر الطيار أن يسمي أحد أولاده (معاوية)^(١).

زعموا منه بتخفيف الوطأة إن كان له سمي في البيت الهاشمي. لكن خفي على المغفل أن فناء آل هاشم لا يقصر عن فناء أصحاب الكهف فإنّ كلبهم ما دنس ساحتهم، فأنى تدنس الأسماء تلك الألفية المقدسة التي منها بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه^(٢).

وهكذا لما ولي معاوية (الثاني) بن يزيد بن معاوية صعد المنبر فقال: إن هذه الخلافة حبل الله وإن جدي معاوية نازع الأمر أهله، ومن هو أحق به منه، علي بن أبي طالب، وركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيته فصار في قبره رهينا بذنوبه، ثم قلد أبي الأمر، وكان غير أهل له، ونازع ابن بنت رسول الله ﷺ فقصف عمره، وانبت عقه، وصار في قبره رهينا بذنوبه ثم بكى^(٣).

٩.١ معاوية وعثمان

وبالحقيقة إن (معاوية على عهد عثمان طغى وبغى لأنه لما استخلف

(١) (تاج العروس ١٠: ٢٦٠)

(٢) الغدير للشيخ الأميني: ج ١/ ١٧٢.

(٣) الصواعق لابن حجر ص ١٣٤

عثمان، جمع له الشام، وأرخی له زمامه، فانطلق معاوية على سجيته، لا يردعه عما يشتهي رادع من دين ولا وازع من ضمير..

ذكر أن مجدوبا (شبه مجنون) مرَّ بواعظ يعدد حسنات بعض الصحابة، فقال ذلك المجدوب: إنكم تذكرون الذين رجحت حسناتهما بحسنات الأمة فمالكم لا تذكرون الذين رجحت سيئاتهما بسيئات الأمة؟ ف قيل له: مَنْ هما عافاك الله؟ قال: هما الخبيثان معاوية وابنه يزيد.

وللأسف فإنك وإلى اليوم ترى هذه الأمة لا تذكر معاوية إلا بالسيادة (سيدهم) ويدعون له بالرضا ﷺ وما أشبه ذلك..

فقد أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت وأبو نعيم في الحلية وأورده الزمخشري في سورة هود من قول الحسن البصري: من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه..

قال الغزالي: فان جاوز الدعاء إلى الثناء عليه فذكر ما ليس فيه كان كاذبا ومنافقا ومكرما للظالم وذكره في الإحياء عن النبي ﷺ انه قال: لا تقولوا للمنافق سيدنا فإنه إن يكن سيدكم فقد أسخطتم ربكم..

وعن رسول الله ﷺ قال: إذا قال الرجل للمنافق يا سيدي فقد اغضب ربه..

عنه (عليه وآله الصلاة والسلام): من مدح سلطانا جائرا واحتفى به وتواضع له طمعا فيه كان قرينه في النار، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسَكُوا النَّارَ﴾ [هود: ١١٣].

وحيث علمت ما ذكر تعلم أن تسويد (بقولك سيدنا) معاوية والترضي عنه تعظيما له مغضبٌ للرب كما في حديث أنس وحديث بريدة واستخفاف بما انزل الله على محمد ﷺ كما في حديث ابن عمر

وإعانة على هدم الإسلام كما في حديث ابن عباس ومسخط للرب كما في حديث بريدة ومحبة لعصيان الله كما جاء عن الحسن البصري وكذب ونفاق وإكرام للظالم كما زاده الغزالي والأحاديث في النهي عن توقير أرباب الظلم والنفاق والفسق كثيرة والآثار كذلك والإطالة بذكرها إسهاب وفيما ذكرناه أقوى زاجر لمزدجر.

فان قلت: إن الوعيد الوارد في الأحاديث السابقة إنما هو في مدح الفاسق وتوقير المبتدع وإكرامه والدعاء للظالم وتسويد المنافق فمن أين لك قيام هذه الأوصاف بمعاوية حتى يكون توقيره وتسويده منهياً عنه؟

(قلت: السيد ابن عقيل) أما فسقه فظاهر لأن الفاسق من ارتكب كبيرة أو أصرَّ على صغيرة ومعاوية قد ارتكب كبائر الكبائر وجاهر بها وأصر عليها وهذا مما لا ينكره أحد (وأما) بدعته فكذلك فان المبتدع مَنْ أحدث في الإسلام حدثاً كما جاء عن رسول الله ﷺ: كل مُحدث بدعة ومعاوية رئيس المُحدثين وكبير المبتدعين.

(وأما) من يقتل المسلمين صبرا ويسبَّ علياً (والعترة المطهرة) جهراً ويعيث في الأرض فساداً ويحارب الله ورسوله عناداً ويصطفي البيضاء والصفراء من بيت أموال المسلمين ويتهم بأوامر سيد المرسلين فذلك عندهم عدل ثقة وصاحب سنة خليفة حق وإمام صدق ذلك مبلغهم من العلم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ [النجم: ٣٠].

وأما اتصافه بالنفاق ولتعلم أولاً أن النفاق لغة: مخالفة الظاهر للباطن فان كان في اعتقاد الإيمان فهو نفاق الكفر وإلا فهو نفاق العمل ومراتبه متفاوتة وشعبه كثيرة كما أن الإيمان كذلك ولا طريق لنا إلى معرفة النفاق بنوعيه من الأشخاص إلا بوحي إلهي إذ أمر الباطن لا يطلع عليه غير الله جل وعلا ولكن الرسول ﷺ أخبرنا عن بعض علاماته وأماراته في

المتصفين به فإذا تحققنا وجود واحدة من تلك العلامات في شخص من الأشخاص علمنا نفاقه.

ثم لا ندري من أي النوعين نفاقه والنهي عن التعظيم للمنافق وعن تسويده واردة ب (ال)الجنسية الشاملة لأنواعه كلها إذ لم يأتي ما يعين نفاقا دون نفاق والعلامات الواردة في الصحيح عن النبي ﷺ هي الكذب في الحديث، والخيانة في الأمانة، والخلف في الوعد، والغدر في المعاهدة، والفجور في الخصومة وهو الميل عن الحق والاحتيال لرده كما قاله شراح الحديث)وبغض علي بن أبي طالب عليه السلام ومعاداته وبغض الأنصار وغير ذلك وكل هذه الصفات موجودة في معاوية فان أكاذيبه قد امتلأت بها الأسفار لا سيما ما كان منها في محاولته بيعة يزيد..

وأما خيائته للأمانة فأشهر من نار على علم فهل ينكرها أنصاره في دماء المسلمين وقد قتل منهم العدد الكثير بغير حق أم في أموالهم وقد استأثر بها واصطفى بيضاءهم وصفراءهم وصرفها في أغراضه الفاسدة وزخارفه وملاذه وشهواته أم في أعراضهم وقد سب أكابرهم على المنابر وفي المحافل.

ألا يكفي أنه استناب (معاوية) على المدينة عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية الأموي المعروف بالأشدق الذي جاء فيه في مسند أحمد: من طريق أبي هريرة مرفوعا: ليرعفن على منبري جبار من جبابرة بني أمية يسيل رعاfe.^(١)

قال: فحدثني من رأى عمرو بن سعيد رعف على منبر رسول الله ﷺ حتى سال رعاfe.

(١) (مسند أحمد ٢: ٥٢٢)

كان هذا الجبار ممن يسب علياً عليه السلام على صهوة المنابر، سمي عمرو بالأشديق لأنه صعد المنبر فبالغ في شتم علي عليه السلام فأصابته لقوة - أي داء في وجهه قريب من الشلل - وعمرو بن سعيد هو الذي كان بالمدينة يوم قتل الإمام الحسين السبط الشهيد عليه السلام..

فقال عمرو شامتا وبعدهما ضحك: وتمثل ببيت لعمر بن معد يكرب

عجت نساء بني زياد عجة

كعجيج نسوتنا غداة الأرنب

ثم قال عمرو: هذه واعية بواعية عثمان بن عفان. ثم صعد المنبر فأعلم الناس قتله..^(١)

وفي مثالب أبي عبيدة: ثم أوماً إلى القبر الشريف وقال: يا محمد! يوم بيوم بدر

فلم يزل معاوية وعماله دائبين على ذلك حتى تمرن عليه الصغير وهرم الشيخ الكبير، ولعل في أوليات الأمر كان يوجد هناك من يمتنع عن القيام بتلك - السبة المخزية - وكان يسع لبعض النفوس الشريفة أن يتخلف عنها غير أن شدة معاوية الحليم في إجراء أحداثه، وسطوة عماله الخصماء الألداء على أهل بيت الوحي، وتهالكهم دون تدعيم تلك الإمرة الغاشمة، وتنفيذ تلك البدعة الملعونة، حكمت في البلاء حتى عمت البلوى، وخضعت إليها الرقاب، وغللتها أيدي الجور تحت نير الذل والهوان، فكانت العادة مستمرة منذ شهادة أمير المؤمنين عليه السلام إلى نهى عمر بن عبد العزيز طيلة أربعين سنة على صهوات المنابر وفي الحواضر الإسلامية كلها من الشام إلى الري إلى الكوفة إلى - البصرة إلى عاصمة الاسلام المدينة المشرفة إلى حرم أمن الله مكة المعظمة إلى

(١) (تاريخ الطبري ٦ : ٢٦٨، كامل ابن الأثير ٤ : ٣٩)

شرق العالم الاسلامي وغربه، وعند مجتمعات المسلمين جمعاء، وقد قال ياقوت في معجم البلدان: لعن علي بن أبي طالب عليه السلام على منابر الشرق والغرب ولم يلعن على منبر سبستان إلا مرة، وامتنعوا على بني أمية حتى زادوا في عهدهم: وأن لا يلعن على منبرهم أحد، وأي شرف أعظم من امتناعهم من لعن أخي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على منبرهم وهو يلعن على منابر الحرمين: مكة والمدينة.

وقد صارت سنة جارية ودعمت في أيام الأمويين سبعون ألف منبر يلعن فيها أمير المؤمنين عليه السلام واتخذوا ذلك كعقيدة راسخة، أو فريضة ثابتة، أو سنة متبعة يرغب فيها بكل شوق وتوق حتى أن عمر بن عبد العزيز لما منع عنها لحكمة عملية أو لسياسة وقتية حسبوه كأنه جاء بطامة كبرى أو اقترف إثما عظيما.

وغيرهم أن عمر بن عبد العزيز إنما نهى عن لعنه عليه السلام في الخطبة على المنبر فحسب وكتب بذلك إلى عماله وجعل مكانه ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]. وقيل: بل جعل مكان ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾ [النحل: ٩٠].

على أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مع غض الطرف عن طهارة مولده وقداسة محتده وشرف أرومته وفضائله النفسية والكسبية وملكاته الكريمة هو من العشرة الذين بشروا بالجنة - عند القوم - ولا أقل من أنه أحد الصحابة الذين يعتقد القوم فيهم العدالة جميعا^(١)، ويحتجون بأقوالهم وأفعالهم، ولا يستسيغون الوقعة فيهم، ويشددون النكير على الشيعة

(١) (قال النووي في شرح مسلم هامش الارشاد ٨: ٢٢: إن الصحابة كلهم هم صفوة الناس، وسادات الأمة، وأفضل ممن بعدهم، وكلهم عدول قدوة لا نخالة فيهم، وإنما جاء التخليط ممن بعدهم، وفيمن بعدهم كانت النخالة)

لحسبانهم أنهم يقعون في بعض الصحابة ورتبوا على ذلك أحكاما، قال يحيى بن معين: كل من شتم عثمان أو طلحة أو أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ دجال لا يكتب عنه وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين..^(١)

فهلهم معي نسائلهم عن المبرر لعمل معاوية والأمويين منتسبا ونزعة وتابعيهم المجترحين لهذه السيئة المخزية وعن المغضين عنهم الذين أخرجوا إمام العدل صنو محمد صلى الله عليهما وآلهما عن حكم الخلفاء وعن حكم الصحابة بل وعن حكم آحاد المسلمين فاستباحوا النيل منه على رؤوس الأشهاد وفي كل منتدى ومجمع من دون أي وازع يزعمهم، فإلى أي هوة أسفوا بالإمام الطاهر ﷺ؟

حتى استلبوه الأحكام المرتبة على المواضيع الثلاثة: الخلافة، الصحبة، الإسلام.. ولم يقيموا له أي وزن، وما راعوا فيه أي حق، وما تحفظوا له بأية كرامة، وهو نفس الرسول ﷺ وزوج ابنته البتول، وأبو سبطيه، وأول من أسلم له، وقام الإسلام بسيفه، وتمت برهنة الحق ببيانه، واكتسحت المعرات عن الدين بلسانه وسنانه، وهو مع الحق والحق معه، وهو مع القرآن والقرآن معه ولن يفترقا حتى يردا على النبي ﷺ الحوض، وما غير وما بدل حتى لفظ نفسه الأخير، وهم يمنعون عن لعن الأدعياء، وحملة الأوزار المستوجبين النار، ويذبون عن الوقعة في أهل العرة والخمور والفجور من طريد إلى لعين إلى متهاون بالشرعية إلى عاث بالأحكام إلى مبدل لللسنة إلى مخالف للكتاب ومحالف للهوى إلى، وإلى، وإلى. إنا لله وإنا إليه راجعون.

نعم: لعمر الحق كان الأمر كما قال عامر بن عبد الله بن الزبير لما سمع ابنه ينال من علي ﷺ: يا بني إياك وذكر علي ﷺ فإن بني أمية

(١) (تهذيب التهذيب ١: ٥٠٩)

تنقصته ستين عاما فما زاده الله بذلك إلا رفعة.^(١)

وأما خلفه بالوعد وغدره في معاهداته فغير مجهول ولو لم يكن منها إلا غدره بالإمام الحسن عليه السلام حيث عاهده أن لا يبغى للحسن ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من شيعة علي عليه السلام غائلة سراً ولا جهراً وان يجعل الأمر بعده شورى بين المسلمين لكفى فإنه غدر بالإمام الحسن عليه السلام فقطع عطاءه ثم سمّه، وعهد بالأمر بعده ليزيد (الخمر والعهر) وقتل حُجراً وأصحابه بعد تلك العهود والمواثيق.

وأما فجوره في خصوماته واحتياله في رد الحق فأشهر من أن يذكر إذ جُلَّ خصوماته إذا لم نقل كلها من هذا القبيل ولا داعي إلى أن نثبت معاداته وبغضه لعلي بن أبي طالب عليه السلام إذ لا ينكرهما أحد وكتب السير طافحة بذلك..

وبغضه للأنصار أشهر من ينكر.. أفبعد صدور هذه الكبائر من معاوية وثبوتها عنه بالتواتر والنقل الصحيح وسماع ما جاء من الآيات والأحاديث في حق مرتكبها لا يسوغ لطالب الحق الإغضاء والتغافل والتصامم عنها ثم مجاوزة الحد إلى إهدار تلك الأدلة بإطرائه والترضي عنه وتسويده اعتماداً على ما تداولته السُّنة من أن معاوية مجتهداً متأولاً مأجوراً.. والله ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]

فكم طُمست بهذه الكلمات أعلام من الحق؟ وكم جحدت بها حقائق؟ وكم رفعت بها ألوية من الباطل وشيدت بها أبراج من المغالطة؟ كلمات ربما كان أول من قالها قالها لقصد خاص فأتخذت بعد ذلك حُجة لدى القوم يعارضون بها كل دليل ويردون بها النص

(١) (المحاسن والمساوي للبيهقي ١: ٤٠)

الصريح عن الرسول الكريم ﷺ وينسخون بها ما جاء عن الله ورسوله كأنه نزل بها كتاب من الله أو وحي إلى رسوله أطلعهم به على ضمير معاوية وحسن قصدة وصلاح نيته ثم تراهم مع ذلك يُرعدون ويُبرقون ويأخذهم المقيم المقعد من الغيظ وينذرون بكل طامة ولأمة ويمثلون كل هاوية عميقة أمام كل من ناقشهم في دعواهم الحساب أو طالبهم بدليل على ما اخترعوه واعتمدوا عليه من إثبات الاجتهاد والأجر أيضا على بغى ذلك الطاغية وأعوانه.

وأما أدلة جواز لعنه فهي واضحة متضافرة لا تبقي عند المؤمن المنصف أدنى ارتياب بعد سماعها أو قراءتها، وأما من غلب عليه التعصب والتحمل وتقليد من لا يجديه تقليده فيما خالف الحق شيئا وتقديم قول فلان وإعلان على قول الله ورسوله ﷺ وكثير من أكابر الصحابة فلا كلام معه لان داءه داء عُضال قل أن ينجو منه مَنْ ابتلي به نسأل الله العافية والسلامة.^(١)

فقد كان صالحوا أهل الصدر الأول يؤنبون معاوية ويعظونه ويواجهونه بتقريعه على سوء أفعاله ومنهم من هجره في الله، ومنهم من لعنه، ودعا عليه ثم ذهب الصحابة واستفحل ملك بني أمية وكثر تعديهم وعمّ جورهم فالتزم الكثير منهم السكوت عن ذكره خوفا من الفتنة ثم جاء أقوام من بعدهم فاتخذوا السكوت من قبلهم عن بيان فجوره وإعلان فسقه وتجويز لعنه ذريعة إلى تبريره وتعذيله ثم ما لبثوا أن زادوا على ذلك انه إمام حق وخليفة صدق وبدلوا قولا غير الذي قيل لهم وقالوا سيدنا وترضوا عنه حيث ذكر كما يترضى عن الصالحين..^(٢)

(١) (النصائح الكافية محمد بن عقيل ص ١٤٤) (بتصرف)

(٢) (النصائح الكافية للسيد محمد بن عقيل ص ١٤٨)

وأما الأدلة على وجوب بغض معاوية في الله فكثيرة أيضا قال الله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وفي كتاب مكارم الأخلاق للشيخ رضي الدين الطبرسي، قال: قال (عليه وآله الصلاة والسلام): من تولى جائرا في جوره كان قرين هامان في جهنم.. إلى غير هذا مما جاء في هذا الباب^(١).

وقد سئل الإمام أحمد بن حنبل: أيؤجر الرجل على بغض من خالف حديث رسول الله ﷺ قال: أي والله.. وبهذا يتضح لك أن بغض معاوية أمر مشروع يلازم الإيمان ويثاب عليه الإنسان وإن حبه وتوليه أمر يسخط الرحمن ويباين الإيمان وحقيق بالمؤمن الغيور على حرمة الله أن تهتك وعلى حدوده أن تتعدى وعلى الدين أن يبدل وعلى الشرع أن يستخف به إذا عرف ما ارتكبه معاوية من الموبقات واقتطفه من المظالم المتعدي ضررها إلى الأمة بأسرها وجرأته على الله ﷻ وتهاونه بأوامره واستخفافه بزواجه أن يبغضه ويعاديه حتى يحق له صريح الإيمان بمعادة من عادى الرحمن فإن النبي ﷺ قال: في حق علي بن أبي طالب عليه السلام: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وقال: (عليه وآله الصلاة والسلام): عادى الله من عادى عليا وليس على ظهر الكرة الأرضية أعدى لعلي عليه السلام من معاوية وقد صرح (سلام الله عليه) بذلك في مواطن مذكورة في محالها من كتب السير (حتى أنه كان عليه السلام يقنت بلعن معاوية وعمرو).

(١) النصائح الكافية: ص ١٥٨.

ويشم كل مَنْ لم يصبه زكام التعصب من كلام معاوية تهكمه بالنبي ﷺ واستخفافه بوصاياه بالأنصار - نعوذ بالله من الخذلان - وبغض معاوية للأنصار ومعاكسته لمصالحهم أمر مشهور تشهد به كتب السير والتأريخ ولا يحتاج إلى تجشم الاستدلال عليه وقد قال (عليه وآله الصلاة والسلام): استوصوا بالأنصار خيراً.. وقال أيضاً: حب الأنصار إيمان وبغضهم نفاق وفي صحيح البخاري: لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق^(١).

واعتقد أن بغض معاوية للأنصار كان من أمور ثلاثة متضافرة هي:

حقداً عليهم لإيمانهم بالإسلام وكفره به..

ضعينة لهم من حمايتهم لرسول الله ﷺ حين حاول أباه وطغاة قريش أن يقتلوه على فراشه فأمر بالهجرة إليهم..

وبغضا لهم لنصرتهم لأمر المؤمنين ﷺ على قريش ابتداء من أصحاب الجمل، وانتهاء بشخصه البغيض..

ومن هنا أرى أن قريشاً ظلمت اثنين حقداً منها على الإسلام ورسوله الكريم ﷺ، وهما الذين وصفهم الله سبحانه بالإيواء والنصرة ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَأْواَ وَنَصَرُوا﴾ [الأنفال: ٧٤] فمن آوى ونصر رسول الله ﷺ في مكة المكرمة أولاً، ثم في المدينة المنورة فيما بعد؟ هما:

١. عمه ابو طالب عصمة المستجير، وشيخ البطحاء، وسيد قريش، وبيضة البلد الذي دافع عن الإسلام ورسوله ﷺ حتى آخر لحظة من عمره الشريف.. وحقدتها عليه قريش ووضع معاوية كل ثقله ودفع الكثير من الرشاوي لتشويه صورته الناصعة، ولذا فإن هذا الرجل

(١) راجع فتح الباري لابن حجر: ج ١/ ٩٥.

الكبير، والمؤمن حقاً إلى اليوم هو كافر ومشارك عند هذه الأمة وذنبه أمران هما:

أ. حمايته للرسول، ودفاعه عن الرسالة حتى آخر لحظة..

ب. والذنب الثاني إلي لا يغتفر عند معاوية وقريش أن ولده أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وأبنائه..

٢. الأنصار الكرام..فمازال معاوية يغري بهم السفهاء من حوله ويصغر من شأنهم، ويدعوا شعراءه على هجائهم حتى قال ذاك الخبيث: واللؤم تحت عمائم الأنصار..

وإليك هذا الإعراف من معاوية شخصياً كما في العقد الفريد: قال معاوية يوماً: يا معشر الأنصار! لم تطلبون ما عندي؟ فو الله لقد كنتم قليلاً معي كثيراً مع علي، ولقد فللتم حدي يوم صفين، حتى رأيت المنيا تتلظى من أسنتكم..

وهذا يوضحه ما جاء في مروج الذهب: كان ممن شهد صفين مع علي من أصحاب بدر سبعة وثمانون رجلاً: منهم سبعة عشر من المهاجرين، وسبعون من الأنصار، وشهد معه من الأنصار ممن بايع تحت الشجرة؛ وهي بيعة الرضوان من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ تسعمائة، وكان جميع من شهد معه من الصحابة ألفين وثمانمائة..

فحقده على الصحابة عامة والأنصار خاصة سمة واضحة عن هذا الرجل، فلما قدم المدينة لقيه أبو قتادة الأنصاري فقال له معاوية: يا أبا قتادة! تلقاني الناس كلهم غيركم يا معشر الأنصار! ما منعكم؟

قال: لم يكن معنا دواب. فقال معاوية: فأين النواضح؟

قال أبو قتادة: عقرناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر.

قال: نعم يا أبا قتادة! قال أبو قتادة: إن رسول الله ﷺ قال لنا: إنا سنرى بعده أثرة.

قال معاوية: فما أمركم به عند ذلك؟ قال: أمرنا بالصبر. قال: فاصبروا حتى تلقوه.

ويقول أنصار معاوية إنما نحبه لصحبته رسول الله ﷺ وإسلامه.. ونقول لهم: فلم لا تبغضونه لإساءته الصحبة ولا ارتكابه كل تلك الجرائم التي غيرت وجه التاريخ..

إن الحب في الله والبغض في الله متلازمان فمن زعم أنه يحب في الله وهو لا يبغض فيه فقد غره بالله الغرور ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥].

والحاصل أن كثيراً من الأمة قد اتخذوا معاوية حبيباً مودوداً كما اتخذت بنو إسرائيل العجل معبوداً.. ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤] وسينكشف لهم الغطاء ويتبين الصواب من الخطأ وستغشاهم الندامة إذا حشروا معه يوم القيامة فان المرء يحشر مع من أحب وكفى بالمسلم خسارة أن يأتي ربه في زمرة إمامها معاوية الباغي ووزيرها عمرو الطاغي وينفصل عن عصابة قائدها محمد المصطفى ﷺ ووزيرها علي المرتضى ﷺ ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾. [هود:

[٢٤]^(١)

(١) (النصائح الكافية للسيد محمد بن عقيل ص ١٥٦ بتصرف)

١٠٠١. بلاغ تعميمي للمعتضد العباسي

وأخيراً أنقل لكم هنا هذا المرسوم للخليفة العباسي (المعتضد) يأمر به بلعن معاوية على المنابر كما كان يفعل معاوية بأمر المؤمنين عليه السلام وأهل بيته الأطهار عليهم السلام ويبين فيه أسباب هذا المرسوم الداعية، وأعمال معاوية الموجبة للعن على منابر الأمة الإسلامية.. أنقله كما جاء في تاريخ الطبري - في ذكر وقائع سنة ٢٨٤ هـ - : في هذه السنة عزم المعتضد بالله على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر، وأمر بإنشاء كتاب بذلك يقرأ على الناس، فخوّفه عبيد الله بن سليمان بن وهب اضطراب العامة، وأنه لا يأمن أن تكون فتنة، فلم يلتفت إلى ذلك.

وأمر بإخراج الكتاب الذي كان المأمون أمر بإنشائه بلعن معاوية، فأخرج له من الديوان، فأخذ من جوامعه نسخة هذا الكتاب.

وفيه بعد الحمد والثناء على رسول الله ﷺ : وكان ممن عانده ونابذه وكذبه وحاربه من عشيرته العدد الأكثر، والسواد الأعظم، يتلقونه بالتكذيب والتثريب، ويقصدونه بالأذية والتخويف، ويبادونه بالعداوة، وينصبون له المحاربة، ويصدون عنه من قصده، وينالون بالتعذيب من اتبعه. وأشدّهم في ذلك عداوة، وأعظمهم له مخالفة، وأولهم في كل حرب ومناصب، لا يرفع على الإسلام راية إلا كان صاحبها وقائدها ورئيسها في كل مواطن الحرب من بدر وأحد والخندق والفتح - أبو سفيان بن حرب وأشياعه من بني أمية الملعونين في كتاب الله، ثم الملعونين على لسان رسول الله في عدة مواطن وعدة مواضع، لماضي علم الله فيهم وفي أمرهم ونفاقهم وكفر أحلامهم، فحارب مجاهداً، ودافع مكابداً، وأقام منابذاً حتى قهره السيف، وعلا أمر الله وهم كارهون، فتقول بالإسلام غير منطو عليه، وأسر الكفر غير مقلع عنه،

فعرفه بذلك رسول الله ﷺ والمسلمون، وميز له المؤلفه قلوبهم، فقبله وولده على علم منه.

فمما لعنهم الله به على لسان نبيه ﷺ، وأنزل به كتابا قوله: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْأَقْرَانِ وَخَوْفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠] ولا اختلاف بين أحد أنه أراد بها بني أمية. ومنه قول الرسول ﷺ وقد رآه مقبلا على حمار ومعاوية يقود به ويزيد ابنه يسوق به: لعن الله القائد والراكب والسائق.. ومنه ما أنزل الله على نبيه في سورة القدر: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣] من ملك بني أمية.

ومنه أن رسول الله ﷺ دعا بمعاوية ليكتب بأمره بين يديه، فدافع بأمره، واعتل بطعامه، فقال النبي: «لا أشبع الله بطنه». فبقي لا يشبع، ويقول: والله ما أترك الطعام شبعاً ولكن إعياء! ومنه أن رسول الله ﷺ قال: «يطلع من هذا الفج رجل من أمتي يحشر على غير ملتي». فطلع معاوية. ومنه أن رسول الله ﷺ قال: إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه. ومنه الحديث المرفوع المشهور أنه قال: إن معاوية في تابوت من نار في أسفل درك منها ينادي: يا حنان يا منان، ﴿ءَأَكْنَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

ثم مما أوجب الله له به اللعنة قتله من قتل صبوا من خيار الصحابة والتابعين وأهل الفضل والديانة، مثل عمرو بن الحمق، وحجر بن عدي، فيمن قتل من أمثالهم، في أن تكون له العزة والملك والغلبة، والله العزة والملك والقدرة، والله عزَّكَ يقول: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]

ومما استحق به اللعنة من الله ورسوله ادعاؤه زياد بن سمية جرأة على الله! والله يقول: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥] ورسول الله ﷺ يقول: «ملعون من ادعى إلى غير أبيه، أو انتمى إلى غير مواليه». ويقول: «الولد للفراش وللعاهر الحجر». فخالف حكم الله ﷻ، وسنة نبيه ﷺ جهارا، وجعل الولد لغير الفراش والعاهر لا يضره عهده، فأدخل بهذه الدعوة من محارم الله ومحارم رسوله في أم حبيبة زوجة النبي ﷺ وفي غيرها من سفور وجوه ما قد حرمه الله، وأثبت بها قربى قد باعدها الله، وأباح بها ما قد حظره الله، مما لم يدخل على الإسلام خلل مثله ولم ينل الدين تبديل شبهه.

ومنه إيثاره بدين الله، ودعاؤه عباد الله إلى ابنه يزيد المتكبر الخمير، صاحب الديوك والفهود والقرود، وأخذ البيعة له على خيار المسلمين بالقهر والسطوة والتوعيد والإخافة والتهدد والرغبة، وهو يعلم سفهه، ويطلع على خبثه ورهقه، ويعاين سكرانه وفجوره وكفره. فلما تمكن منه ما مكنه منه، ووطأه له، وعصى الله ورسوله فيه، طلب بثارات المشركين وطوائلهم عند المسلمين، فأوقع بأهل الحرة الواقعة التي لم يكن في الإسلام أشنع منها ولا أفحش مما ارتكب من الصالحين فيها، وشفى بذلك عبد نفسه وغليله، وظن أن قد انتقم من أولياء الله، وبلغ النوى لأعداء الله، فقال مجاهرا بكفره ومظهرها لشركه:

ليت أشيأخي ببدر شهدوا

جزع الخزرج من وقع الأسل

قد قتلنا القرم من ساداتكم

وعدلنا ميل بدر فاعتدل

فأهلوا واستهلوا فرحا
ثم قالوا يا يزيد لا تسل
لست من خندف إن لم أنتقم
من بني أحمد ما كان فعل
ولعبت هاشم بالملك فلا
خبر جاء ولا وحي نزل

هذا هو المروق من الدين وقول من لا يرجع إلى الله ولا إلى دينه
ولا إلى كتابه، ولا إلى رسوله، ولا يؤمن بالله، ولا بما جاء من عند الله.
ثم من أغلظ ما انتهك وأعظم ما اخترم سفكه دم الحسين بن علي وابن
فاطمة بنت رسول الله ﷺ، مع موقعه من رسول الله ﷺ، ومكانه منه،
ومنزله من الدين والفضل، وشهادة رسول الله ﷺ له ولأخيه بسيادة
شباب أهل الجنة، اجتراء على الله، وكفرا بدينه، وعداوة لرسوله،
ومجاهدة لعترته، واستهانة بحرمة، فكأنما يقتل به وبأهل بيته قوما من
كفار أهل الترك والديلم، لا يخاف من الله نقمة، ولا يرقب منه سطوة،
فبتر الله عمره، واجتث أصله وفرعه، وسلبه ما تحت يده، وأعد له من
عذابه وعقوبته ما استحقه من الله بمعصيته...^(١)

١١.١ عمرو بن العاص

سياسي ماهر، ومحتال ماهر، ووجه متلون عجيب، وعُد أحد
دهاة العرب الأربعة (كما يسمونهم) فهو أمكر من الثعلب، وأغدر من
العقرب، ومتلون كحرباء السبب.. كيف لا وهو الذي لم يعرف له
بلاصل نسب؟ وإليك طرفا من أخباره وما فيه العجب.. وكان له في

(١) تاريخ الطبري: ٥٤/١٠، الكامل في التاريخ: ٥٨٥/٤.

الفحشاء عرق؛ فأمه (ليلى) النابغة كانت من البغايا المشهورة بل هي أرخص بغي في مكة وربما في عرب الجاهلية..

ولما ولد عمرو في سنة ٥٠ قبل الهجرة، نسبته أمه إلى خمسة، ثم اختارت العاص بن وائل وألحقته به^(١)..

١.١١.١. نسبه

قال الزمخشري فيه (ربيع الأبرار) أيضا في نسب عمرو بن العاص: كانت النابغة (ليلى) أم عمرو بن العاص أمة رجل من عنزة فسُبيت فاشترها عبد الله بن جدعان فكانت بغيا ثم عتقت ووقع عليها: أبو لهب..

وأمية بن خلف..

وأبو سفيان بن حرب..

والعاص بن وائل..

والوليد بن المغيرة..

وعثمان بن الحرث..

وقيل النضر بن الحرث بن كلفة.. في طهر واحد فولدت عمروا (فهو أصيل كما هو واضح لك) فادعاه كلهم فحُكِّمَتْ فيه أمه فقالت: هو للعاص لأنه (العاص) كان ينفق عليها وقالوا: كان أشبه بأبي سفيان وفي ذلك يقول أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب:

أبوك أبو سفيان لا شك قد

بدت لنا فيك منه بينات الشمائل

(١) ربيع الأبرار: ٥٤٨/٣، العقد الفريد: ٣٤٧/١، شرح النهج: ٢٨٥/٦.

وفي رواية العقد الفريد، والأغاني: أن الفاكه بن المغيرة اتهم بها بالزنى فبانت منه..^(١)

وفي العقد الفريد عن عبد الله بن سليمان المدني وأبي بكر الهذلي قال: دخلت أروى بنت الحرث بن عبد المطلب على معاوية وهي عجوز كبيرة فلما رآها معاوية قال: مرحبا بك وأهلا يا خالة! فكيف كنت بعدنا؟

فقلت: يا ابن أخي لقد كفرت يد النعمة، وأسأت لابن عمك الصحبة، وتسميت بغير اسمك، وأخذت غير حقك، من غير دين كان منك ولا من آبائك، ولا سابقة في الاسلام بعد أن كفرتم برسول الله ﷺ، فأنفس الله منكم الجدود، وأضرع منكم الخدود، ورد الحق إلى أهله ولو كره المشركون، وكانت كلمتنا هي العليا، ونبينا ﷺ هو المنصور، فوليتم علينا من بعده، وتحتجون بقرابتكم من رسول الله ﷺ، ونحن أقرب إليه منكم وأولى بهذا الأمر، فكنا فيكم بمنزلة هارون من موسى، فغايطنا الجنة وغايتمكم النار.

فقال لها عمرو بن العاص: كفى أيتها العجوز الضالة، وأقصري من قولك مع ذهاب عقلك؛ إذ لا تجوز شهادتك وحدك؟

فقلت له: وأنت يا بن النابغة!! تتكلم وأمك كانت أشهر امرأة تغني بمكة وآخذهن للأجرة، ادعاك خمسة نفر من قريش، فسئلت أمك عنهم، فقلت: كلهم أتاني، فانظروا أشبههم به فألحقوه به، فغلب عليك شبه العاص بن وائل، فلحقت به..^(٢)

(١) (العقد الفريد ٨٦ / ٦ - ٨٧ والأغاني ٥٣ / ٩)

(٢) (العقد الفريد ١: ٣٤٦، بلاغات النساء ص ٢٧)

وفي بلاغات النساء عن أنس بن مالك: قال عمرو بن العاص [لأروى بنت الحارث]: أيتها العجوز الضالة! أقصري من قولك، وغضي من طرفك. قالت: ومن أنت لا أم لك؟ قال: عمرو بن العاص. قالت: يا بن اللخناء النابغة! أتكلمني؟ أربع على ظلعك، واعن بشأن نفسك، فو الله ما أنت من قريش في اللباب من حسبها، ولا كريم منصبها، ولقد ادعاك ستة من قريش كل واحد يزعم: أنه أبوك. ولقد رأيت أمك - أيام منى - بمكة مع كل عبد عاهر - أي فاجر - فأتهم بهم؛ فإنك بهم أشبه^(١)..

وفي شرح نهج البلاغة عن أبي عبيدة معمر بن المثنى في كتاب الأنساب: إن عمرا اختصم فيه يوم ولادته رجلان: أبو سفيان بن حرب، والعاص بن وائل، فقيل: لتحكم أمه. فقالت أمه: إنه من العاص بن وائل. فقال أبو سفيان: أما إني لا أشك أني وضعته في رحم أمه، فأبت إلا العاص. فقيل لها: أبو سفيان أشرف نسبا. فقالت: إن العاص بن وائل كثير النفقة عليّ، وأبو سفيان شحيح^(٢)

فالرجل - كما ترى - مُعرق بالأصالة والنسب ولا داعي للإطالة هنا ونلتفت إلى البيت الذي تربى به هذا النابغة.. فقد نشأ عمرو في حجر مَنْ كان يهجو النبي ﷺ كثيراً، وهو الذي عبّرت عنه سورة الكوثر بالأبتر ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣].

وكان الإمام الحسن عليه السلام يقول فيه: ألأمهم حسبا، وأخبثهم منصبا. وكان عمرو بن العاص يؤذي النبي ﷺ ويهجوهم كثيرا في مكة. وبعد كل ما أبداه من عناد وتهتك لعنه رسول الله ﷺ وقال: اللهم إن عمرو بن العاص هجاني، وأنت تعلم أني لست بشاعر، فalcنه مكان كل بيت

(١) بلاغات النساء: ٤٣.

(٢) شرح النهج: ٢٨٤/٦، البحار: ٢٣٠/٣٣.

هيجاني لعنة^(١).

ويقال هجاه بسبعين بيت من الشعر فقال عليه السلام: اللهم إني لا أقول الشعر ولا ينبغي لي فالعنه بكل حف سبعين ألف لعنة..

قال ابن أبي الحديد في وصف عمرو بن العاص: وكان عمرو أحد من يؤذي رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة ويشتمه، ويضع في طريقه الحجارة؛ لأنه كان رسول الله صلى الله عليه وآله يخرج من منزله ليلاً، فيطوف بالكعبة، وكان عمرو يجعل له الحجارة في مسلكه ليعثر بها.. ولشدة عداوة عمرو بن العاص لرسول الله صلى الله عليه وآله أرسله أهل مكة إلى النجاشي ليزهده في الدين، وليطرد عن بلاده مهاجرة الحبشة، وليقتل جعفر بن أبي طالب عنده إن أمكنه قتله.

قاتل المسلمين في حروب متعددة إلى جانب المشركين. ولما أحس بقدرة الإسلام المتعاضمة، أستسلم كرهاً، ونفاقاً في سنة ٨ هـ قبل فتح مكة بقليل.

كان مُلماً بفنون القتال؛ أمره النبي صلى الله عليه وآله في غزوة ذات السلاسل، وفي الجيش أبو بكر، وعمر، وعندما توفي النبي صلى الله عليه وآله كان في مهمة بعمان.

٢.١١.١. عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص

ولهذا كذلك قصة حب وإعجاب من الخليفة الثاني كمعاوية وزيادة فقد قيل: أنه أحبه عمر بن الخطاب كثيراً، وكان يكرمه ويبجله.

وفي النجوم الزاهرة عن الليث بن سعد: إن عمر نظر إلى عمرو بن

(١) موسوعة الإمام علي عليه السلام للري شهري: ٣١٨/٥ عن شرح النهج.

العاص يمشي، فقال: ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميراً^(١)..

وفتح ابن العاص مصر في أيامه، ثم ولاه عليها.. وظل واليا عليها في عهد عثمان مدة، ثم عزله عثمان وولى أخاه لأمه عبد الله بن سعد بن أبي سرح؛ انطلاقاً من سياسته في تحكيم الأمويين، فاغتم عمرو لذلك وحقد على عثمان، وكان له دور مهم في تأليب الناس عليه^(٢).

وكان ابن العاص داهيةً، عارفاً بزمانه، ومن جانب آخر كان ركناً إلى الدنيا، عابداً لهواه، من هنا كان يعلم جيداً أنه لا يمكن أن ينسجم مع أشخاص مثل أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام، لذلك ولى صوب معاوية عندما تقلد الإمام الخلافة، وهو يعلم أن حب الدنيا هو الذي حداه على ذلك، وقال لمعاوية مرة: إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها^(٣)..

وهكذا كان، إذ جعل ولاية مصر شرطاً لمؤازرته معاوية في حربه لأمر المؤمنين عليهم السلام. وكان في حرب صفين قائداً لجيش الشام، ومستشاراً لمعاوية، وموجهاً للحرب في ساحة القتال، وكان أسود القلب، أعماه حب الدنيا عن رؤية الحق، وكان يعرف فضائل أمير المؤمنين عليه السلام، وطالما صرح بها شعراً ونثراً.. وكذلك كان يعرف عمار بن ياسر وشخصيته، ويعتقد بكلام رسول الله ﷺ فيه إذ قال له: تقتلك الفئة الباغية.

ومن جهة أخرى كان يدرك ضعة معاوية ورذالته وتعسفه. كما كان هو نفسه لا نظير له في ضعته وحقارته؛ إذ كشف عورته للإمام أمير

(١) النجوم الزاهرة: ١/٦٣، تاريخ دمشق: ٤٦/١٥٥.

(٢) أنساب الأشراف: ٦/١٩٢، مروج الذهب: ٢/٣٦٣.

(٣) النجوم الزاهرة: ١/٦٣، صفين: ٦٣.

المؤمنين عليه السلام لما برز إليه في معركة صفين فلما رأى الموت قد أمسك بخناقه كشف عن سوأته فأنقذته من الموت المؤكد..!

نعم؛ قد نجا من الموت بهذه المكيدة إلا أنها بقيت تمثل وصمة عار عليه أبد الدهر.. وهو صاحب مكيدة رفع المصاحف على الرماح عند اشتداد الحرب، وتواتر الهزائم على جيش الشام، فأنقذ صاحبه من الاندحار الحتمي والانكسار المؤكد..

ومثل معاوية في مهزلة التحكيم، فخدع أبا موسى الأشعري؛ إذ جعل نتيجة التحكيم لمصلحة معاوية، فمهّد الأرضية لفتن أخرى وكان أحد المخططين البارعين للسياسة الدعائية المناهضة لأمير المؤمنين علي عليه السلام.

وإن قيامه بتعكير الأجواء، وتضليل الناس، وانتقال المواقف ضد أمير المؤمنين عليه السلام معلّم على لؤمه وقبحه ومكره، وأشار الإمام عليه السلام إلى شيء من ذلك إشارة بليغة في الخطبة/٨٤/ من نهج البلاغة.. قاتل ابن العاص محمد بن أبي بكر في مصر، فغلبه وأحكم قبضته عليها.. وهلك سنة ٤٣ هـ (وخلف ثروة طائلة، ودراهم ودنانير وافرة. وذكر أن أمواله المنقولة بلغت سبعين رقبة جمل مملوءة ذهباً^(١).. فقط لا غير فكم ستكونه في نار الجحيم؟

٣.١١.١. شهادة الإمام علي عليه السلام فيه

قال الإمام علي عليه السلام في كتاب له إلى عمرو بن العاص: فإنك قد جعلت دينك تبعاً لدنيا امرئ ظاهر غيه، مهتوك ستره، يشين الكريم بمجلسه، ويسفّه الحليم بخلطته، فاتبعت أثره، وطلبت فضله، إتباع

(١) موسوعة الإمام علي عليه السلام: ج ٥/ ٣١٣ بتصرف.

الكلب للضرغام يلوذ بمخالبه، وينتظر ما يلقي إليه من فضل فريسته.. فأذهبت دنياك وأخرتك! ولو بالحق أخذت أدركت ما طلبت؛ فإن يمكنني الله منك ومن ابن أبي سفيان أجزكما بما قدمتما، وإن تعجزا وتبقيا فما أمامكما شر لكمما، والسلام^(١)..

عنه عليه السلام أنه قال: عجباً لابن النابغة! يزعم لأهل الشام أن في دعابة، وأني امرؤ تلعبه، أعافس وأمارس! لقد قال باطلا، ونطق آثماً.. أما - وشر القول الكذب - إنه ليقول فيكذب، ويعد فيخلف، ويُسأل فييخل، ويسأل فيلحف، ويخون العهد، ويقطع الإل، فإذا كان عند الحرب فأبي زاجر وأمر هو! ما لم تأخذ السيوف مأخذها، فإذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمنح القرم سبته (سوأته).. أما والله، إني ليمنعني من اللعب ذكر الموت، وإنه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة، إنه لم يبايع معاوية حتى شرط أن يؤتیه أتيه، ويرضخ له على ترك الدين رضىخة^(٢)..

وفي العقد الفريد: ذكر عمرو بن العاص عند الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال فيه: عجباً لابن النابغة! يزعم أنني بلقائه أعافس وأمارس، أنى وشر القول أكذبه، إنه يسأل فيلحف، ويسأل فييخل.. فإذا احمرّ البأس، وحمي الوطيس (الحرب)، وأخذت السيوف مأخذها من هام (رؤوس) الرجال، لم يكن له همٌّ إلا نزع ثيابه، ويمنح الناس إسته! أغصّه الله وترحه^(٣)..

كان علي عليه السلام إذا صلى الغداة يقنت فيقول: اللهم العن معاوية، وعمرأ، وأبا الأعور السلمي، وحبيباً، وعبد الرحمن بن خالد، والضحاك

(١) الاحتجاج للطبرسي: ج ١/ ٢٦٨.

(٢) ن. م. ص. ٢٦٩.

(٣) العقد الفريد: ج ٢/ ٢٨٧.

بن قيس، والوليد^(١).

وكانت عائشة تدعو في دبر الصلاة على معاوية.

ومشهور لعن ابن عباس معاوية يوم عرفة في المجتمع العام.

٤.١١.١. كلام الإمام الحسن عليه السلام في مثالبه

وفي شرح نهج البلاغة - ذكر مفاخرة بين الإمام الحسن بن علي عليه السلام ورجال من قريش، قال الإمام الحسن عليه السلام -: أما أنت يا بن العاص؛ فإن أمرك مشترك - وضعتك أمك مجهولاً؛ من عهر وسفاح - فيك أربعة من قريش، فغلب عليك جزارها، ألأمهم حسباً، وأخبثهم منصباً، ثم قام أبوك، فقال: أنا شأني محمد الأبر، فأنزل الله فيه ما أنزل.. وقاتلت رسول الله ﷺ في جميع المشاهد، وهجوته وأذيته بمكة، وكدته كيدك كله، وكنت من أشد الناس له تكديبا وعداوة.. ثم خرجت تريد النجاشي مع أصحاب السفينة لتأتي بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة، فلما أخطأك ما رجوت ورجعك الله خائباً وأكذبك وأشيا، جعلت حدك على صاحبك عمارة بن الوليد، فوشيت به إلى النجاشي حسداً لما ارتكب مع حليلتك، ففضحك الله وفضح صاحبك.. فأنت عدو بني هاشم في الجاهلية والإسلام.

ثم إنك تعلم وكل هؤلاء الرهط يعلمون أنك هجوت رسول الله ﷺ بسبعين بيتاً من الشعر، فقال رسول الله ﷺ: اللهم إني لا أقول الشعر، ولا ينبغي لي، اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة.. فعليك إذا من الله ما لا يحصى من اللعن.

وأما ما ذكرت من أمر عثمان، فأنت سَعَرْتَ عليه الدنيا ناراً، ثم

(١) الغدير للشيخ الأميني: ج ٢/ ١٣٢.

لحقت بفلسطين، فلما أتاكَ قتله قلت: أنا أبو عبد الله إذا نكأت قرحة أدميتها.. ثم حبست نفسك إلى معاوية، وبعث دينك بدنياه؛ فلسنا نلومك على بغض، ولا نعاتبك على ود، وبالله ما نصرت عثمان حياً، ولا غضبت له مقتولاً.

ويحك يا بن العاص! أَلست القائل في بني هاشم لما خرجت من مكة إلى النجاشي:

تقول ابنتي أين هذا الرحيل
وما السير مني بمستنكر
فقلت: ذريني فإنني امرؤ
أريد النجاشي في جعفر
لأكويه عنده كيّة أقيم
بها نخوة الأصعر
وشانئ أحمد من بينهم
وأقولهم فيه بالمنكر
وأجري إلى عتبة جاهدا
ولو كان كالذهب الأحمر
ولا أنثني عن بني هاشم وما
اسطعت في الغيب والمحضر
فإن قبل العتب مني له
وإلا لويت له مشفري

فهذا جوابك هل سمعته^(١)؟

وفي الاحتجاج عن الشعبي وأبي مخنف ويزيد بن أبي حبيب

(١) شرح النهج: ٢٩١/٦، تذكرة الخواص: ٢٠١.

المصري - في بيان احتجاج الحسن بن علي عليه السلام على جماعة من المنكرين لفضله وفضل أبيه من قبل بحضرة معاوية، قال الإمام الحسن عليه السلام: أما أنت يا عمرو بن العاص، الشانئ اللعين الأبتَر، فإنما أنت كلب، أول أمرك أن أملك بغية، وأنك ولدت على فراش مشترك، فتحاكمت فيك رجال قريش، منهم: أبو سفيان بن الحرب، والوليد بن المغيرة، وعثمان بن الحرث، والنضر بن الحرث بن كلفة، والعاص بن وائل، كلهم يزعم أنك ابنه؛ فغلبهم عليك من بين قريش الأهمهم حسبا، وأخبثهم منصبا، وأعظمهم بغية.

ثم قمت خطيبا، وقلت: أنا شانئ محمد، وقال العاص بن وائل: إن محمدا رجل أبتَر لا ولد له، فلو قد مات انقطع ذكره، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾. وكانت أملك تمشي إلى عبد قيس تطلب البغية (الزنا)؛ تأتيهم في دورهم، وفي رحالهم، وبطون أوديتهم. ثم كنت في كل مشهد يشهده رسول الله صلوات الله عليه وآله من عدوه أشدهم له عداوة، وأشدهم له تكديبا. ثم كنت في أصحاب السفينة الذين أتوا النجاشي والمهجر الخارج إلى الحبشة في الإسطاة بدم جعفر بن أبي طالب وسائر المهاجرين إلى النجاشي، فحاق المكر السيئ بك، وجعل جدك الأسفل، وأبطل أمنيته، وخيب سعيك، وأكذب أحدثك، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا^(١).

١٢٠١. كلام ابن عباس في مثالبه

في العقد الفريد عن أبي مخنف: حج عمرو بن العاص، فمر بعبد الله بن عباس، فحسده مكانه وما رأى من هيبة الناس له، وموقعه من

(١) الاحتجاج للطوسي: ٣٥/٢، البحار: ٨٠/٤٤.

قلوبهم، فقال له: يا بن عباس، ما لك إذا رأيتني وليتني القصرة، وكأن بين عينيك دبرة، وإذا كنت في ملأ من الناس كنت الهوأة^(١) الهمزة!

فقال ابن عباس: لأنك من اللئام الفجرة، وقريش الكرام البررة، لا ينطقون بباطل جهلوه، ولا يكتمون حقا علموه، وهم أعظم الناس أحلاما، وأرفع الناس أعلاما. دخلت في قريش ولست منها، فأنت الساقط بين فراشين؛ لا في بني هاشم رحلك، ولا في بني عبد شمس راحلتك، فأنت الأثيم الزنيم، الضال المضل، حملك معاوية على رقاب الناس، فأنت تسطو بحلمه، وتسمو بكرمه^(٢)..

١٣٠١. معاوية وعمر بن العاص

كلاهما من طينة واحدة (من خبال وخبث آسن) وربما - وكما مر سابقا - أن عمروا هذا هو ابن أبو سفيان كما تشهد أمه ولكنه شحيح عليها فالصقته بالعاص الكريم عليها، ومعاوية الذي هو من مسافر أو من الصباح - العلم عند الله بذلك - إلا أنه ملصوق بأبي سفيان ومناط به على كل حال..

وأمهما (هند، وليلى) من صواحب الرايات المشهورات بالبغياء وسوء الطبع، وتفاهة النفسية معروفة من أمثالهن فكانا كما يقول المثل عندنا (لا تعيرني، ولا بعيرك شيء محيرني ومحيرك)..

ونقل القاضي نور الله - نور الله ضريحه - في إحقاق الحق عن قطب الدين الشيرازي من كتاب نزهة القلوب أنه قال: أولاد الزنا نجباء (بل دهاة ملاعين ومن أين لهم النجابة يا قطب الدين) لأن الرجل يزني بشهوته

(١) رجل هوأة: أحمق، أو جبان كما في المحيط: ٩٢/٤.

(٢) العقد الفريد: ٧٣/٣.

ونشاطه فيخرج الولد كاملاً..ولهذا كان عمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، وزيد بن أبيه من دهاة الناس..

حقاً أنه صدق من قال: فيا عجباً(والله) من حياء هؤلاء فإنه أقبح من حياء العواهر حيث جعلوا أولاد السفاح أنجب من أولاد النكاح وفضلوهم على من أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا وجعلوا بعضهم واسطة بين الله وخلقه سفيرا واتخذوهم على الدين ظهيرا وعلى مالهم ومآلهم حاكما وأميرا.

وإليك هذه القصة الطريفة عن أخبث دهاة العرب فهم يقرؤون بعضهم جيذاً، وكل منهم يحفظ صاحبه عن ظهر غيب.. وهي مما يدل على استخفاف معاوية بمقام النبوة ما نقله أبو جعفر الطبري بسنده قال: أخبرت أن عمرو بن العاص وفد إلى معاوية ومعه أهل مصر فقال لهم عمرو: وانظروا إذا دخلتم على ابن هند فلا تسلموا عليه بالخلافة فإنه أعظم لكم في عينه وصغروه ما استطعتم..

فلما قدموا عليه قال: معاوية لحجابه كأنني أعرف ابن النابغة وقد صغر أمري عند القوم فانظروا إذا ادخل الوفد فتعتعوهم أشد تعتعة تقدرن عليها(أي عذبوهم قدر طاقتكم) فلا يبلغني(يصلني) رجل منهم إلا وقد همت نفسه بالتلف..

فكان أول من دخل عليه رجل من أهل مصر يقال له ابن الخياط وقد تعتع فقال: السلام عليك يا رسول الله.. وتتابع القوم على ذلك فلما خرجوا..

قال لهم عمرو: لعنكم الله نهيتكم أن تسلموا عليه بالإمارة فسلمتم

عليه بالنبوة^(١).

فأنظر كيف لم ينكر عليهم معاوية تسليمهم عليه بالرسالة وأقرهم على هذا الفعل الفظيع حبا في التعاضم واستخفافا بالرسول ومقامه (ومنه تعلم) إن معاوية وعمر لا دين لهما كما أخبر الصادق الخبير علي عليه السلام وإن كلا منهما غادر كما جاء عن الصادق المصدق عليه السلام فقد أخرج الطبراني في الكبير وابن عساكر عن شداد بن أوس رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: إذا رأيتم معاوية وعمر بن العاص جميعا ففرقوا بينهما فوالله ما اجتماعا إلا على غدر^(٢)..

قيل: استأذن عمرو بن العاص على معاوية بن أبي سفيان فلما دخل عليه استضحك معاوية، فقال له عمرو: ما يضحكك يا أمير المؤمنين أدام الله سرورك؟

قال: ذكرت علي بن أبي طالب وقد غشيك بسيفه فاتقيته ووليت. فقال: أتشمت بي يا معاوية فأعجب من هذا يوم دعاك إلى البراز فالتمع لونك وأطت أضلاعك وانتفخ سحرك والله لو بارزته لأوجع قذالك وأيتم عيالك وبزك سلطانك وأنشأ عمرو:

معاوي لا تشمت بفارس

بهمة لقي فارسا لا تعتليه الفوارس

معاوي لو أبصرت في الحرب مقبلا

أبا حسن يهوي عليك الوسوس^(٣)

(١) النصائح الكافية: ص ١٢٥، تاريخ الطبري: ج ٤/ ٢٤٤.

(٢) جواهر التاريخ للشيخ العاملي: ج ٢/ ٢٧٩.

(٣) بشارة المصطفى للطبري ص ٢٧٠

١٤٠١. شرط بيعته لمعاوية

فقال له (معاوية) أخوه عتبة: هذا أمر عظيم لا يتم إلا بعمر بن العاص فإنه قريع زمانه في الدهاء والمكر، يخدع ولا يخدع، وقلوب أهل الشام مائلة إليه، فقال معاوية: صدقت ولكنه يحب علياً فأخاف أن لا يجيبني، فقال: إخدعه بالأموال ومصر.

فكتب إليه معاوية:

من معاوية بن أبي سفيان - خليفة عثمان بن عفان إمام المسلمين وخليفة رسول رب العالمين ذو النورين، ختن المصطفى على ابنتيه وصاحب جيش العسرة وبئر دومة، المعدوم الناصر الكثير الخاذل المحصور في منزله المقتول عطشا وظلماً في محرابه المعذب بأسيايف الفسقة - إلى عمرو بن العاص صاحب رسول الله ﷺ وثقتة وأمير عسكره بذات السلاسل، المعظم رأيه المفخم تدبيره: أما بعد فلن يخفى عليك احتراق قلوب المؤمنين وما أصيبوا به من الفجيعة بقتل عثمان، وما ارتكب به جاره حسداً وبغياً بامتناعه من نصرته وخذلانه إياه، وإشلائه الغاغة عليه [واشيا العامة عليه] حتى قتلوه في محرابه، فيالها من مصيبة، عمت المسلمين وفرضت عليهم طلب دمه من قتلته، وأنا أدعوك إلى الحظ الأجل من الثواب والنصيب الأوفر من حسن المآب، بقتال من آوى قتلة عثمان ﷺ وأحله جنة المأوى^(١).

فكتب إليه عمرو:

من عمرو بن العاص صاحب رسول الله ﷺ إلى معاوية بن أبي سفيان: أما بعد فقد وصل كتابك فقرأتها وفهمته، فأما ما دعوتني إليه من

(١) البحار: ج ٣٣/٥١ عن كشف الغمة: ج ١/٢٥٤.

خلع ربة الإسلام من عنقي والتهور في الضلالة معك وإعانتني إياك على الباطل واختراط السيف على وجه علي بن أبي طالب (عليه السلام) - وهو أخو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ووصيه ووارثه وقاضي دينه ومنجز وعده وزوج ابنته سيدة نساء أهل الجنة وأبو السبطين الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة - فلن يكون.

وأما ما قلت من أنك خليفة عثمان فقد صدقت، ولكن تبين اليوم عزلك عن خلافته، وقد بويع لغيره وزالت خلافتك. وأما ما عظمتني ونسبتني إليه من صحبة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأني صاحب جيشه فلا أغتر بالتزكية ولا أميل بها عن الملة. وأما ما نسبت أبا الحسن أخا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ووصيه إلى الحسد والبغي على عثمان، وسميت الصحابة فسقه، وزعمت أنه أشلاهم على قتله، فهذا غواية، ويحك يا معاوية: أما علمت أن أبا حسن بذل نفسه بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وبات على فراشه، وهو صاحب السبق إلى الإسلام والهجرة وقد قال فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): هو مني وأنا منه، وهو مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، وقد قال فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم غدیر خم: ألا من كنت مولاه فعلي مولاه، أللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله، وهو الذي قال فيه (عليه السلام) يوم خيبر: لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، وهو الذي قال فيه (عليه السلام) يوم الطير: اللهم أيتني بأحب خلقك إليك، فلما دخل إليه قال: وإلي، وإلي، وقد قال فيه يوم النضير: علي إمام البررة وقاتل الفجرة منصور من نصره مخذول من خذله، وقد قال فيه: علي وليكم من بعدي، وأكد القول عليك وعلي وعلى جميع المسلمين وقال: إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعترتي وقد قال: أنا مدينة العلم وعلي بابها. وقد علمت يا معاوية ما

أنزل الله تعالى من الآيات المتلوات في فضائله التي لا يشترك فيها أحد كقوله تعالى: ﴿يُؤْفُونَ بِالَّذِينَ﴾ [الدھر: ٧] و ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿ [المائدة: ٥٥] و ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧] و ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] وقال الله تعالى لرسوله (ص) ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] وقد قال له رسول الله ﷺ: أما ترضى أن يكون سلمك سلمى وحربك حربى وتكون أخى وولّى فى الدنيا والآخرة، يا أبا الحسن من أحبك فقد أحبنى ومن أبغضك فقد أبغضنى، ومن أحبك أدخله الله الجنة، ومن أبغضك أدخله الله النار. وكتابك يا معاوية الذى كتبت هذا جوابه، ليس مما ينخدع به من له عقل أو دين، والسلام»

فكتب إليه معاوية يعرض عليه الأموال والولايات وجاء فى كتابه: بسم الله الرحمن الرحيم.. من معاوية بن أبى سفيان إلى عمرو بن العاص؛ أما بعد، فإنى أسألك بالله العظيم، وبمحمد رسوله الكريم ﷺ أنه وبعد اطلاعك على كتابى هذا تبادر إلينا بالمسير، لأن رأىك رأىى فى هذا الأمر العظيم، ولك ما تحب وترضى وإن هذا الأمر مشترك.. وكتب فى آخر كتابه:

جهلت ولم تعلم محلك عندنا
فأرسلت شيئاً من خطاب وما تدري
فثق بالذى عندي لك اليوم آنفا
من العز والإكرام والجاه والنصر

فاكتب عهدا ترتضيه مؤكدا

وأشفعه بالبذل مني وبالبر^(١)

وأرسله إلى عمرو بن العاص وهو في فلسطين، فاستشار ابنه عبد الله ومحمدا في الأمر، وقال: أما علي فلا خير عنده وهو رجل يدل (يتباهى) بسابقتها، وهو غير مشاركي في شيء من أمره.. فما تريان؟.

فقال عبد الله بن عمرو: توفي النبي ﷺ وهو عنك راض، وتوفي أبو بكر ﷺ وهو عنك راض، وتوفي عمر ﷺ وهو عنك راض، أرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس على إمام فتبايعه.

وقال محمد بن عمرو: أنت ناب من أنياب العرب فلا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت ولا ذكر.

فقال عمرو: أما أنت يا عبد الله؟ فأمرتني بالذي هو خير لي في آخرتي، وأسلم في ديني، وأما أنت يا محمد فأمرتني بالذي أنبه لي في دنياي، وأشر لي في آخرتي.. وإني سأنظر في الأمر..

ولما جنَّ عليه الليل أرق في فراشه ذلك وجعل يتفكر فيما يريد أي الأمرين يأتي ثم أنشأ يقول:

تطاول ليلي للهموم الطوارق

وخوف الليل يجلو وجوه العوائق

وإن ابن هند سألني أن أزوره

وتلك التي فيها عظام البوائق

أتاه جرير من علي بخطة أمرت

عليها العيش ذات مضائق

(١) تاريخ مدينة دمشق - ابن عساكر - ج ٤٦ - ص ١٦٨، البحار: ج ٣٣/٥٣.

فوالله ما أدري وما كنت هكذا
أكون ومهما أن أرى فهو سائق
أخادعه والخدع فيه دنية أم
أعطيه من نفسي نصيحة وامق
أم أقعد في بيتي وفي ذاك راحة
لشيخ يخاف الموت في كل شارق
وقد قال عبد الله قولاً تعلق
به النفس إن لم يعتلني عوائق
وخالفه فيه أخوه محمد وإني
لصلب الرأي عند الحقائق

فلما أصبح عمرو دعا غلامه وردان فقال: ارحل يا وردان.. ثم ناداه:
حطّ يا وردان.. مرتين، أو ثلاثاً.. فقال له وردان: خلطت يا أبا عبد
الله (جننت) أما إنك إن شئت أنبأتك بما في نفسك..؟

قال: هات.. قال: اعترضت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت علي معه
الآخرة وفي الآخرة عوض من الدنيا ومعاوية معه الدنيا بلا آخرة وليس في
الدنيا عوض من الآخرة فأنت متحيّر بينهما..

فقال له عمرو: قاتلك الله؛ يا وردان والله ما أخطأت فما ترى..؟

قال: أرى أن تقيم (تجلس) في منزلك فإن ظهر أهل الدين عشت
في عفو دينهم وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك..

فقال له عمرو: الآن حين شهرني الناس بمسيري أقيم فارتحل إلى
معاوية، ثم قال عمرو:

يا قاتل الله وردانا وفتنته أبدى
 لعمرك ما في النفس وردان
 لما تعرضت الدنيا عرضت لها
 بحرص نفسي وفي الأطباع إدهان
 نفس تعف وأخرى الحرص
 يقلبها والمرء يأكل تبنا وهو غرثان
 أما علي فدين ليس يشركه
 دنيا وذاك له دنيا وسلطان
 فاخترت من طمعي دنيا على
 بصر وما معي بالذي أختار برهان^(١)

تاريخ اليعقوبي: كانت مصر والمغرب لعمرو بن العاص طعمة شرطها له يوم بايع، ونسخة الشرط: هذا ما أعطى معاوية بن أبي سفيان عمرو بن العاص مصر، أعطاه أهلها، فهم له حياته، ولا تنقص طاعته شرطاً.

فقال له وردان مولاه: فيه الشعر من بدنك! فجعل عمرو يقرأ الشرط، ولا يقف على ما وقف عليه وردان.. فلما ختم الكتاب وشهد الشهود، قال له وردان: وما عمرك أيها الشيخ إلا كظمي حمار، هلا شرطت لعقبك من بعدك؟! أي يجب أن تشترط لأولادك من بعدك..

فاستقال معاوية، فلم يقله، فكان عمرو لا يحمل إليه من مالها شيئاً؛ يفرق الأعطية في الناس، فما فضل من شيء أخذه لنفسه. وولي عمرو بن العاص مصر عشر سنين، منها لعمرو بن الخطاب أربع سنين، ولعثمان بن عفان أربع سنين إلا شهرين، ولمعاوية سنتين وثلاثة أشهر،

(١) البحار: ج ٣٣/٢٥٤، شرح النهج الحديدي: ج ٢/٦٤.

وتوفي وله ثمان وتسعون سنة، وكان داهية العرب رأياً، وحزماً، وشيطاناً، ولساناً^(١)..

١٥٠١. اعترافه بحق الإمام علي عليه السلام

سير أعلام النبلاء: أتى [عمرو بن العاص] معاوية، فوجده يقص ويذكر أهل الشام في دم الشهيد (عثمان)، فقال له: يا معاوية! قد أحرقت كبدي بقصصك، أترى إن خالفنا علياً لفضل منا عليه؟ لا والله! إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها، أما والله، لتقطعن لي من دنياك، أو لأنابذنك. فأعطاه مصر، وقد كان أهلها بعثوا بطاعتهم إلى الإمام علي عليه السلام^(٢).

وروي عن عمرو بن دينار قال: أخبرني من سمع عمرو بن العاص - يوم صفين - يقول لابنه عبد الله: يا بني! أنظر أين ترى علياً؟

قال: أراه في تلك الكتيبة القتماء، ذات الرماح، عليه عمامة بيضاء. قال: لله در بني عمرو بن مالك، لئن كان تخلفهم عن هذا الأمر خيراً كان خيراً مبروراً، ولئن كان ذنباً كان ذنباً مغفوراً. فقال له ابنه: أي أبت! فما يمنعك إذ غبطتهم أن ترجع؟!

فقال: يا بني! إن الشيخ مثلي إذا دخل في الأمر لم يدعه حتى يحكه^(٣)

وفي العقد الفريد عن العتبي عن أبيه: قال معاوية لعمرو بن العاص: ما أعجب الأشياء؟ قال: غلبة من لا حق له ذا الحق على حقه!

قال معاوية: أعجب من ذلك أن يعطى من لا حق له ما ليس له بحق

(١) تاريخ يعقوبي: ٢/٢٢١.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٣/٧٢، تاريخ دمشق: ٤٦/١٦٦.

(٣) موسوعة الإمام علي عليه السلام: ٥/٣٢١.

من غير غلبة!^(١)

الاستيعاب عن الشافعي: دخل ابن عباس على عمرو بن العاص في مرضه، فسلم عليه وقال: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟

قال: أصلحت من دنيائي قليلاً، وأفسدت من ديني كثيراً، فلو كان الذي أصلحت هو الذي أفسدت والذي أفسدت هو الذي أصلحت لفزت، ولو كان ينفعني أن أطلب طلبت، ولو كان ينجينني أن أهرب هربت، فصرت كالمنجنيق بين السماء والأرض؛ لا أرقى بيدين، ولا أهبط برجلين، فعظني بعظة أنتفع بها يا ابن أخي.

فقال له ابن عباس: هيهات يا أبا عبد الله! صار ابن أخيك أخاك، ولا تشاء أن أبكي إلا بكيت، كيف يؤمن برحيل من هو مقيم؟

فقال عمرو: على حينها، من حين ابن بضع وثمانين سنة تقنطني من رحمة ربي، اللهم إن ابن عباس يقنطني من رحمتك فخذ مني حتى ترضى!

قال ابن عباس: هيهات يا أبا عبد الله! أخذت جديداً، وتعطي خلقاً؟! فقال عمرو: ما لي ولك يا ابن عباس! ما أرسل كلمة إلا أرسلت نقيضها^(٢)..

وفي تاريخ اليعقوبي: لما حضرت عمرا الوفاة قال لابنه: لود أبوك أنه كان مات في غزاة ذات السلاسل؛ إني قد دخلت في أمور لا أدري ما حجتي عند الله فيها. ثم نظر إلى ماله فرأى كثرته، فقال: يا ليتني كان بعراً، يا ليتني مت قبل هذا اليوم بثلاثين سنة، أصلحت لمعاوية دنياه،

(١) العقد الفريد: ٣٥٥م، أنساب الأشراف: ٨٤/٥.

(٢) شرح النهج: ٣٢٣/٦، الاستيعاب: ٢٦٩/٣، أسد الغابة: ٢٣٤/٤.

وأفسدت ديني، أثرت دنياي وتركت آخرتي، عمي عليّ رشدي حتى حضرني أجلي، كأني بمعاوية قد حوى مالي، وأساء فيكم خلافتي. وتوفي عمرو ليلة الفطر سنة ٤٣، فأقر معاوية ابنه عبد الله بن عمرو^(١)..

١٦.١. أهداف معاوية من صفين

سير أعلام النبلاء عن سعيد بن سويد: صلى بنا معاوية في النخيلة الجمعة في الضحى ثم خطب وقال: ما قاتلنا لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا أو تزكوا، قد عرفت أنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلناكم لأتأمر عليكم، فقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون.

وفي مروج الذهب عن مطرف بن المغيرة بن شعبة: وفدت مع أبي المغيرة إلى معاوية، فكان أبي يأتيه يتحدث عنده، ثم ينصرف إلي فيذكر معاوية، ويذكر عقله، ويعجب مما يرى منه، إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء، فرأيته مغتماً، فانتظرت ساعة، وظننت أنه لشيء حدث فينا أو في عملنا، فقلت له: ما لي أراك مغتما منذ الليلة؟ قال: يا بني، إني جئت من عند أخبث الناس! قلت له: وما ذاك؟ قال: قلت له - وقد خلوت به - : إنك قد بلغت منا يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً؛ فإنك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم؛ فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، فقال لي: هيهات هيهات!! ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره، إلا أن يقول قائل: أبو بكر، ثم ملك أخو عدي، فاجتهد وشمّر عشر سنين، والله ما عدا أن هلك فهلك ذكره، إلا أن يقول قائل: عمر، ثم ملك أخونا عثمان فملك رجل لم يكن أحد في مثل نسبه، فعمل ما

(١) تاريخ يعقوبي: ٢/٢٢٢.

عمل وعمل به، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره، وذكر ما فعل به، وإن أخا هاشم يصرخ به في كل يوم خمس مرات: أشهد أن محمدا رسول الله، فأَي عمل يبقى مع هذا؟ لا أم لك، والله إلا دفنا دفنا^(١)

ولما اشترطت عُك والأشعرون على معاوية ما اشترطوا من الفريضة والعطاء فأعطاهم (اشترطوا على معاوية أن يجعل لهم فريضة ألفي رجل في الفين، الفين، ومن هلك فابن عمه مكانه)، لم يبق من أهل العراق أحد في قلبه مرض إلا طمع في معاوية وشخص بصره إليه حتى فشا ذلك في الناس، وبلغ ذلك عليا فساءه، وجاء المنذر بن أبي حميصة الوادعي (وادعة: بطن من همدان) وكان فارس همدان وشاعرهم فقال: يا أمير المؤمنين؟ إن عكا والأشعريون طلبوا إلى معاوية الفرائض والعطاء فأعطاهم، فباعوا الدين بالدنيا، وإنا رضينا بالآخرة من الدنيا، وبالعراق من الشام، وبك من معاوية، والله لآخرتنا خير من دنياهم، ولعراقنا خير من شامهم، ولإمامنا أهدى من إمامهم، فاستفتحنا بالحرب، وثق منا بالنصر، وأحملنا على الموت. ثم أنشد شعرا جميلا..

فقال علي: حسبك رحمك الله، وأثنى عليه خيرا وعلى قومه. وانتهى شعره إلى معاوية فقال معاوية: والله لأستميلن بالأموال ثقات علي، ولأقسمن فيهم المال حتى تغلب دنياي آخرته.^(٢)

من كتاب لمولانا أمير المؤمنين إلى معاوية: واعلم يا معاوية؟ أنك قد ادعيت أمرا لست من أهله لا في القدم ولا في الولاية، ولست تقول فيه بأمر بين تعرف لك به أثره، ولا لك عليه شاهد من كتاب الله، ولا عهد تدعيه من رسول الله، فكيف أنت صانع؟ إذا انقشعت عنك جلابيب

(١) راجع مروج الذهب.

(٢) كتاب صفين ص ٤٩٥، شرح ابن أبي الحديد ٢: ٢٩٣

ما أنت فيه من دنيا أبهجت بزینتها، وركنت إلى لذتها، وخلي فيها بينك وبين عدو جاهد ملح، مع ما عرض في نفسك، من دنيا قد دعتك فأجبتها، وقادتك فاتبعتها، وأمرتک فأطعتها، فاقعس عن هذا الامر، وخذ أهبة الحساب، فإنه يوشك أن يقفك واقف على ما لا يجنك منه مجن، ومتى كنتم يا معاوية! ساسة للرعية؟ أو ولاية لامر هذه الأمة بغير قدم حسن؟ ولا شرف سابق على قومكم، فشمّر لما قد نزل بك، ولا تمكن الشيطان من بغيته فيك، مع أنني أعرف ان الله ورسوله صادقان، فنعوذ بالله من لزوم سابق الشقاء، وإلا تفعل أعلمك ما أغفلك من نفسك، فإنك مترف قد أخذ منك الشيطان مأخذه، فجرى منك مجرى الدم في العروق.^(١)

روي: ان الحسن بن علي (سلام الله عليهما) قال لحبيب بن مسلمة في بعض خرجاته بعد صفين: يا حبيب! رب مسير لك في غير طاعة الله. فقال له حبيب: أما إلى أبيك فلا. فقال له الحسن عليه السلام: بلى والله ولقد طاوعت معاوية على دنياه وسارعت في هواه، فلئن كان قام بك في دنياك لقد قعد بك في دينك، فليتك إذا أسأت الفعل أحسنت القول فتكون كما قال الله تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ أَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]. ولكنك كما قال الله تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]^(٢)

ولما قدم معاوية المدينة، قال: أيها الناس؟ إن أبا بكر لم يرد الدنيا ولم ترده، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردّها، وأما عثمان فنال منها ونالت منه، وأما أنا فمالت بي وملت بها، وأنا ابنها وهي أُمي وأنا ابنها، فإن لم

(١) كتاب صفين ص ١٢٢، نهج البلاغة ١٠: ٢، شرح ابن أبي الحديد ٤١٠: ٣

(٢) الغدير للشيخ الأميني: ج ١٠/ ٦٣، الاستيعاب: ج ١/ ٣٢١.

تجدوني خيركم فأنا خير لكم.^(١)

نحن مهما غضضنا الطرف عن شيء في الباب فلا يسعنا أن نتغاضى عن أن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام هو ذلك المسلم الأوحدي الذي يحرم إيذاؤه وقتاله، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨]، ومن المتسالم عليه عند أمة محمد ﷺ قوله: سباب المسلم - المؤمن - فسوق، وقتاله كفر. وقد اقترف معاوية الإثمين معا فسبّ وقتل سيد المسلمين جميعا، وأذى أول من أسلم من الأمة المرحومة، وأذى فيه رسول الله ﷺ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١]، ومن آذى رسول الله ﷺ فقد آذى الله، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

على أنه (سلام الله عليه) كان خليفة الوقت يومئذ كيفما قلنا أو تمحلنا في أمر الخلافة وكان تصديه لها بالنص، وإجماع أهل الحل والعقد، وبيعة المهاجرين والأنصار، ورضي الصحابة جمعاء، خلا نفر يسير شذوا عن الطريقة المثلى لا يفتون في عضد جماعة، ولا يؤثرون على انعقاد طاعة، بعثت بعضهم الضغائن، وحدث آخر المطامع، واندفع ثالث إلى نوايا خاصة رغب فيها لشخصياته، وكيفما كانت الحالة فأمر المؤمنين عليهم السلام وقتئذ الخليفة حقا، وإن من ناواه وخرج عليه يجب قتله، وإنما خلع ربة الاسلام من عنقه وأهل سلطان الله، ويلقى الله ولا حجة له، وقد جاء في النص الجلي قوله ﷺ: ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهم جميع فاضربوا رأسه بالسيف كائنا من كان. وفي لفظ: فمن رأيتموه يمشي إلى أمة محمد فيفرق جماعتهم

(١) العقد الفريد ٢: ٣٠٠

فاقتلوه. وفي لفظ الحاكم: فاقتلوه كائنا من كان من الناس.

وقوله عليه السلام: من أتاكم وأمركم جمع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه.

وقوله عليه السلام: من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية يغضب للعصبية، أو يدعو إلى عصبية، أو ينصر عصبية، فقتل فقتله جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برّها وفاجرها لا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي لذي عهدا فليس مني ولست منه..^(١)

وقوله عليه السلام: من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية..^(٢)

وقوله عليه السلام: من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من رأسه إلا أن يرجع، ومن دعا دعوة جاهلية فإنه من جثا جهنم، قال رجل: يا رسول الله! وإن صام وصلى؟ قال: نعم وإن صام وصلى، فادعوا بدعوة الله الذي سماكم بها المسلمون المؤمنون عباد الله..^(٣)

وقوله عليه السلام: من طريق معاوية نفسه: من فارق الجماعة شبرا دخل النار..^(٤) فأين أنت أيها المأفون الملعون؟

وقوله عليه السلام: من فارق الجماعة، واستذل الإمارة لقي الله ولا حجة له عند الله..^(٥)

(١) (صحيح مسلم ٦: ٢١، سنن البيهقي ٨: ١٥٦، مسند أحمد ٢: ٢٩٦)

(٢) (صحيح مسلم ٦: ٢٢، سنن البيهقي ٨: ١٥٦).

(٣) (سنن البيهقي ٨: ١٤٧، مستدرک الحاكم ١: ١١٧)

(٤) (مستدرک الحاكم ١: ١١٨)

(٥) (مستدرک الحاكم ١: ١١٩)

أو هل ترى معاوية في خروجه على أمير المؤمنين عليه السلام ألف الجماعة ولازم الطاعة أو إنه باغ أهان سلطان الله واستذل الإمارة الحققة، وخرج عن الطاعة، وفارق الجماعة وخلع ربقة الإسلام من رأسه؟ والنصوص النبوية، تأبى إلا أن يكون الرجل على رأس البغاة كما كان - مع أبيه - على رأس الأحزاب يوم كان وثنيا، وما أشبه آخره بأوله، ولذلك أمر رسول الله ﷺ أمير المؤمنين عليه السلام بقتاله، وإن من يقتل عمارا هي الفئة الباغية، ولم يختلف اثنان في أن أصحاب معاوية هم الذين قتلوه، غير أن معاوية نفسه لم يتأثر بتلك الشية ولم تثنه عن بغيه تلکم القتلة وأمثالها من الصلحاء الأبرار الذين ولغ في دمائهم.

أضف إلى ذلك أن معاوية هو الخليفة الأخير ببيعة طغام الشام وطغاتهم إن كانت لبيعته الشاذة قيمة في الشريعة، وقد حتم الإسلام قتل خليفة مثله بقول نبيه الأعظم ﷺ: إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما^(١).

وهذه الأحاديث الصحيحة الثابتة هي التي تصحح الحديث الوارد في معاوية نفسه وإن ضعف إسناده عند القوم من قوله ﷺ: إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه..

وهو المعاضد بما ذكره المناوي في كنوز الدقائق من قوله ﷺ: من قاتل عليا على الخلافة فاقتلوه كائنا من كان.^(٢)

وبعد فإنهم حكم فيهم كتاب الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي

(١) صحيح مسلم: ج ٦/٢٣، العمدة لابن البطريق: ص ٣١٧.

(٢) (المناوي في كنوز الدقائق ص ١٤٥)

حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴿١﴾

وقال: قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذه الآية أصل في قتال المسلمين، والعمدة في حرب المتأولين، وعليها عوّل الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة، وإياها عني النبي ﷺ بقوله: تقتل عمارا الفئة الباغية. وقوله ﷺ في الخوارج: يخرجون على خير فرقة أو على حين فرقة.

والرواية الأولى أصح لقوله ﷺ: تقتلهم أولى الطائفتين إلى الحق، وكان الذي قتلهم علي بن أبي طالب ومن كان معه. فتقرر عند علماء المسلمين وثبت بدليل الدين أن عليا عليه السلام كان إماما، وإن كل من خرج عليه باغ وأن قتاله واجب حتى يفى إلى الحق وينقاد إلى الصلح.

قال إمام الحرمين في كتاب الارشاد: وعلي (سلام الله عليه) كان إماما حقا في ولايته، ومقاتلوه بغاة، وحسن الظن بهم يقتضي أن يظن بهم قصد الخير وإن أخطأوه، وأجمعوا على أن عليا كان مصيبا في قتال أهل الجمل، وهم طلحة، والزبير، وعائشة، ومن معهم، وأهل صفين وهم معاوية وعسكره وقد أظهرت عائشة الندم.

وحقا قالت عائشة: ما رأيت مثل ما رغبت عنه هذه الأمة من هذه الآية: ﴿وَلَنْ طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾.. (٢)

وأم المؤمنين هي أول من رغبت عن هذه الآية وضيعت حكمها، وخالفتها وخرجت من عقر دارها، وتركت خدرها وتبرجت تبرج الجاهلية الأولى، وحاربت إمام زمانها، ولعلها ندمت وبكت حتى بلت

(١) (الحجرات: ٩)

(٢) (السنن الكبرى للبيهقي ٧: ١٧٢، مستدرک الحاكم ٢: ١٥٦)

خمارها.

ومن هنا وهناك كان مولانا أمير المؤمنين عليه السلام يوجب قتال أهل الشام ويقول: لم أجد بدا من قتالهم أو الكفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وآله. وفي لفظ: ما هو إلا الكفر بما نزل على محمد، أو قتال القوم..^(١)

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يأمر وجوه أصحابه كأمر المؤمنين، وأبي أيوب الأنصاري وعمار بن ياسر، بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، وقد كان من المتفق عليه عند السلف: إن القاسطين هم أصحاب معاوية.

فبأي حجة - ولو كانت داحضة - كان معاوية الذي يجب قتله وقتاله يستسيغ محاربة علي أمير المؤمنين عليه السلام؟ وبين يديه كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله إن كان ممن يقتص أثرهما وفي الذكر الحكيم قوله سبحانه: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَردُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(٢)

* ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٣)

* ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٤)

* ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٥)

فلم يكن القتال أول فاصل لنزاع الأمة قبل الرجوع إلى محكمات الكتاب، وما فيه فصل الخطاب من السنة المباركة، ولذلك كان مولانا أمير المؤمنين عليه السلام يتم عليهم الحجة بكتابه وخطابه منذ بدء الأمر برفع الخصومة إلى الكتاب الكريم وهو عدله، وكان يخاطب وفد معاوية

(١) (نهج البلاغة ١: ٩٤، صفين ص ٥٤٢، مستدرک الحاكم ٣: ١١٥)

(٢) (النساء: ٥٩)

(٣) (المائدة: ٤٤)

(٤) (المائدة: ٤٧)

(٥) (المائدة: ٤٥)

ويقول: ألا إني أدعوكم إلى كتاب الله ﷻ وسنة نبيه..^(١)

ومن كتاب له ﷺ إلى معاوية ومن قبله من قريش قوله: ألا وإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، وحقن دماء هذه الأمة.^(٢)

فلم يعبئوا به إلا بعد ما اضطروا إلى التترس به، وقد أخبر بذلك الإمام قبل وقوع الواقعة فيما كتب إلى معاوية: وكأني بك غدا وأنت تضج من الحرب ضجيج الجمال من الأثقال، وستدعوني أنت وأصحابي إلى كتاب تعظمونه بالسنتكم، وتجحدونه بقلوبكم.^(٣)

وفي كتاب آخر له ﷺ إليه: وكأني بجماعتك تدعوني جزعا من الضرب المتتابع والقضاء الواقع، ومصارع بعد مصارع إلى كتاب الله، وهي كافرة جاحدة، أو مبايعة حائدة..^(٤)

فقد صدق الخبر الخبر واتخذوه - القرآن - جنة مكرا وخداعا يوم رفعت المصاحف وكانوا كما قال مولانا أمير المؤمنين ﷺ يومئذ: عباد الله إني أحق من أجاب إلى كتاب الله، ولكن معاوية، وعمرو بن العاص، وابن أبي معيط، وحبيب بن مسلمة، وابن أبي سرح، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إني أعرف بهم منكم، صحبتهم أطفالا، وصحبتهم رجالا، فكانوا شر أطفال وشر رجال، إنها كلمة حق يراد بها الباطل، إنهم والله ما رفعوها إنهم يعرفونها ويعملون بها، ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة.

ولم يأل الرسول الكريم ﷺ جهدا في تحذير المسلمين عن التورط

(١) (تاريخ الطبري ٦ : ٤)

(٢) (شرح نهج البلاغة ١٩ : ١)

(٣) (شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٤١١، ج ٤ : ٥٠)

(٤) (نهج البلاغة ٢ : ١٢)

في هذه الفتنة العمياء بخصوصها، ويعرفهم مكانة أمير المؤمنين عليه السلام، ويكرههم مسه بشيء من الأذى من قتال أو سب أو لعن أو بغض أو تقاعد عن نصرته، ويحثهم على ولائه وإتباعه واقتصاص أثره والكون معه بعد ما قرن الله ولايته بولايته وولاية الرسول وطاعته بطاعتها فقال: ﴿إِنَّهَا وَلِيَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾..^(١).

لكن معاوية لم يقنعه الكتاب والسنة فباء بتلكم الآثام كلها، وجانب هاتيك الأحكام الواجبة جمعاء، فكان من القاسطين وهو يرأسهم: ﴿وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ فَكَانُوا أَلْجَافًا حَطَبًا﴾..^(٢)

وقوله عليه السلام: وقد خيم خيمة وفيها علي وفاطمة والحسن والحسين: معشر المسلمين أنا سلم من سالم أهل الخيمة، حرب لمن حاربهم، ولي لمن والاهم، لا يحبهم إلا سعيد الجد، طيب المولد، ولا يبغضهم إلا شقي الجد ردئ المولد^(٣).

وقوله عليه السلام: إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ونصب الصراط على جسر جهنم ما جازها أحد حتى كانت معه براءة بولاية علي بن أبي طالب^(٤).

(١) (سورة النساء : ٥٩)

(٢) (سورة الجن : ١٥)

(٣) الرياض النضرة: ج ٢/ ١٨٩ والرواية عن أبي بكر.

(٤) الرياض النضرة: ج ٢/ ١٧٢، الغدير للشيخ الأميني: ج ١/ ٣٨٨.

هذا مولانا أمير المؤمنين وهذا غيظ من فيض مما جاء في ولائه وعدائه، فأبي صحابي عادل عاصر نبي الرحمة ووعى منه هاتيك الكلمات الدرية وشاهد مولانا عليه السلام وعرف انطباقها عليه بتمام معنى الكلمة، ثم ينحاز عنه ويتخذ سبيلا غير سبيله فيبغى به الغوائل، ويتربص به الدوائر، ويقع فيه بملء فمه وحشو فؤاده، ويرميه بقذائف الحقد والشنآن؟! والشنآن؟!

لعلك لا تجد مسلما هو هكذا غير من ألهمته العصبية عن الهدى، وتدهورت به إلى هوة الشهوات السحيقة، ولعلك لا تجد ذلك الرجل البائس إلا ابن أبي سفيان المجابه للكتاب والسنة بعد الإنكار بقلبه بالهزاء والسخرية بلسانه وفعله، فعل مرده الوقت وطواغيت الأمة، فتراه عند ما روى له سعد بن أبي وقاص أحاديث مما سمعه عن رسول الله ﷺ في علي عليه السلام ونهض ليقوم شرط (هذا أدب ابن هند) له معاوية استهزاء به ومما قال.

وحينما ذكر له أبو ذر الغفاري ذلك الصادق المصدق قول رسول الله ﷺ: إست معاوية في النار. جابهه بالضحك وأمر بحبسه^(١).

ولما بقر عبد الرحمن بن سهل الأنصاري روايا خمر لمعاوية وبلغه شأنه قال: دعوه فإنه شيخ قد ذهب عقله. يستهزأ إنكاره على تلك الكبيرة الموبقة، وليت شعري بم هذا الهزأ والسخرية؟ أبالصحابي العادل؟ أم بمن استند إليه في حكمه بتحريم الخمر؟ أم بالشريعة التي جاءت به؟ إن ابن آكلة الأكباد بمقربة من كل ذلك، أو إنه لا يدين الله بذلك الحكم البات؟

ولما سمع من عمرو بن العاص ما حدثه عن رسول الله ﷺ من قوله

(١) شرح النهج الحديدي: ج ٨/ ٢٥٨.

لعمار تقتلك الفئة الباغية. قال لعمرؤ: إنك شيخ أخرج، ولا تزال تحدث بالحديث، وأنت ترحض (تغسل) في بولك، أنحن قتلناه؟ إنما قتله علي وأصحابه، جاؤوا به حتى ألقوه بين رماحنا. وقال: أفسدت علي أهل الشام، أكل ما سمعت من رسول الله تقوله؟

أهذا هزئ؟ أم أن معاوية بلغ من السفاهة مبلغا يحسب معه أن أمير المؤمنين عليه السلام هو قاتل عمار، إذن فما قوله في سيد الشهداء حمزة وجعفر الطيار؟ أكان رسول الله ﷺ قاتلها يوم ألقاهما بين رماح المشركين وسيوفهم؟ وبهذا أجاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن كلام الرجل الطليق.^(١)

لا تستبعد مكابرة الطاغية، بقوله: إن رسول الله قتلها.

أو إن الرجل وجد حمرا مستنفرة فألجمها وألجم مرادها بتلكم التمويهات؟ وكل هذه معقولة غير مستعصية على استقراء أعمال معاوية وأفعاله. ثم ماذا يعني بقوله: أفسدت علي. أيريد كبحا أمام جري السنة الشريفة؟ أو يروم إسدال غطاء على مجاليتها؟ أو الإعراض عن مدلولها لأنه لا يلائم خطته؟ ولا يستبعد شيء من ذلك ممن طبع الله على قلبه وهو ألد الخصام.

ولما حدثه عبادة بن الصامت حديث حرمة الربا وقد نطق بها القرآن الكريم فقال: اسكت عن هذا الحديث ولا تذكره. فقال عبادة: بلى وإن رغم أنف معاوية..

وحق القول: إن المخذول لا يخضع لهتاف النبوة، ولا إنهم سوف يلقون صاحبها، ويرفعون إليه ظلامتهم، فيحكم لهم على من استأثر

(١) (تاريخ الخميس ٢: ٢٧٧)

عليهم، وحسبه ذلك إلحادا وبغيا..

فهل تجد إذن عند معاوية إذعانا بما جاء من الكتاب في علي عليه السلام؟
أو تراه مخبئا إلى شيء من الكثير الطيب الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وآله في
الثناء على الإمام الطاهر؟ حينما عاداه وأبغضه ونقصه وسبه وهتك
حرماته وآذاه وقذفه بالطامات وحاربه وقتله وتخلف عن بيعته وخرج
عليه.

أو ترى أن يسوغ لمسلم صدق نبيه ولو في بعض تلکم الآثار
والمآثر أن يبوح بما كتبه ابن هند إلى الإمام عليه السلام من الكلم القارصة
بمثل قوله في كتاب له إليه عليه السلام: ثم تركك دار الهجرة التي قال رسول
الله صلى الله عليه وآله عنها: إن المدينة لتنفى خبثها، كما ينفي الكير خبث الحديد.

فأي أحد من غوغاء الناس ومن جهلة الأمة يحسب في صاحب
هذه الكلمات المخزية نزعة دينية؟ أو حياء وانقباضا في النفس ولو قيد
شعرة؟ أو بخوعا إلى كتاب الله وهو يطهر أهل البيت وعلي سيد العترة،
ويراه نفس النبي صلى الله عليه وآله وقرن ولايته بولاية الله وولاية رسوله وطاعته
بطاعتهما؟!!

نعم: هكذا فليكن رضيع ثدي هند، وربيب حجر حمامة، والناشئ
تحت راية البغاء، ووليد بيت أمية، وثمررة تلك الشجرة الملعونة في
القرآن، هكذا يسرف معاوية في القول، ويجازف مفرطاً فيه، ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ
قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [سورة ق: ١٨]..

وبلغ الطاغية من عداء سيد العترة حداً لا يستطيع أن يسمع
اسمه عليه السلام وكان ينهى عن التسمية به، يروى أن علي بن أبي
طالب عليه السلام افتقد عبد الله بن العباس فقال: ما بال أبي العباس لم يحضر؟

فقالوا: ولد له مولود فلما صلى علي عليه السلام قال: امضوا بنا إليه؛ فأتاه وهناك فقال: شكرت الوهاب وبورك لك في الموهوب، ما سميته؟ قال: أو يجوز لي أن اسميه حتى تسميه. فأمر به فأخرج إليه فأخذه وحنكه ودعا له ثم رده إليه وقال: خذه إليك أبا الأملاك قد سميته علياً وكنيته أبا الحسن.

فلما قام معاوية قال لابن عباس: ليس لكم اسمه وكنيته قد كنيته أبا محمد، فجرت عليه.^(١) فكان بنو أمية إذا سمعوا بمولود اسمه علي قتلوه^(٢) فكان الناس يبدلون أسماء أولادهم خوفاً من بني أمية الذين كانوا يخافون من اسم علي عليه السلام..

(١) (كامل المبرد ٢: ١٥٧)

(٢) (تهذيب التهذيب ٧: ٣١٩)

الحرب النفسية في صفين

قدمنا الحديث عن الحرب النفسية ومبادئها وأهدافها..وهنا نبحث في الحرب النفسية في معركة صفين خاصة لتبين الحق الناصع، والدين الناصح عند أمير المؤمنين عليه السلام، ومدى حجم الخداع والمراوغة والمكر والحيلة التي استعملها معاوية في اعماء العيون واغشاء البصائر والأبصار عن حقيقة أهدافه الحقيقية من وراء الحرب التي أعلنها على الأمة الإسلامية وهي بالحقيقة ما هي إلا إمتداد لحروب الرسول ﷺ في بدر، وأحد، والأحزاب التي كان يقودها أبو سفيان وأهل بيته ضد الإسلام ورسوله وأهل بيته (صلوات الله عليهم جميعا)..

والحرب النفسية تحتاج إلى نفسين بالحقيقة، هما:

نفس كبيرة، تعرف الحق ولا تفرط به تحت أي ضغط..

ونفس حقيرة، تفعل أي شيء لتحقيق الهدف، والغاية تبرر الوسيلة..على الطريقة الميكيفالية النفعية، دون النظر إلى الوراء..ولا يهم حجم التضحيات إن سلم رأسه بالنهاية..

والحرب النفسية فإن كانت من الأول (صاحب النفس الكبيرة) فهي ليست حرب بالحقيقة بل بالمجاز لأنها تهدف إلى كشف حقيقة الطرف الآخر أمام الرأي العام، دون زيادة أو نقصان، فلا يتهم بدون بينة، ولا يغدر، ولا يفجر، ولا يقول إلا حقاً، كما كان يفعل قائد جيش الحق ﷺ..

وأما الحرب النفسية التي يشنها الثاني (صاحب النفس الحقيرة) فهي الحرب البشعة لما فيها من الغدر، والهجر، والحيلة، والمكر، والتهم التي ليس فيها حق بل هي محض افتراء وبهتان على الطرف الآخر لتشويه صورته في العيون، ويسقطه من الاعتبار العام.. كما كان يفعل قائد القاسطين السفيناني معاوية..

ابتدأت الحرب النفسية بين أمير المؤمنين ﷺ ورأس بني أمية من أيام الخليفة الأموي عثمان فما كان يحدث شيء لهذا الرجل إلا ويرمي بني أمية أمير المؤمنين ﷺ به ويتهمونه بالتحريض وقيادة المعارضة السياسية لخليفتهم.. والحقيقة أن أمير المؤمنين ﷺ كان يدافع عن حياض الإسلام وبيضته ويحاول اصلاح ما كانوا يفسدوه بطغواهم على الأمة..

وبنو أمية التي لما يدخل الإيمان في قلوبهم، أي لم يدخل حب أمير المؤمنين ﷺ في قلوبهم لأنه هو الإيمان كما قال رسول الله ﷺ في يوم الخندق.. وأنى لهم بحب علي ﷺ ولا أحد منهم يعرف على وجه اليقين أباه، وحب الأمير ﷺ لا يدخل قلب ملوث، أو منافق، وهذا مقضي بلسان الرسول العربي ﷺ: لا يحبك يا علي إلا طاهر الولادة، ولا يبغضك إلا خبيث الولادة^(١)..

(١) البحار: ج ٢٧/١٤٥ باب كامل (أن حبهم ﷺ علامة طيب الولادة).

وصدق أمير المؤمنين عليه السلام إذ يقول: لو ضربت خيشوم المؤمن على أن يبغضني ما أبغضني، ولو وضعت الدنيا بجلماتها^(١) بين يدي المنافق على أن يحبني ما أحبني^(٢)..

وتتابعت الأيام، وتالت الأحداث إلى أن نزل أمير المؤمنين عليه السلام في الكوفة بعد حرب الناكثين وراح أمير المؤمنين عليه السلام يرسخ أركان الدولة الجديدة ليعطي للدنيا أصول حكم الله في الأرض، ورأى أن يرأس معاوية ليدعوه للبيعة والطاعة وهنا بدأت الحرب النفسية بثوب جديد ونفس أموي واضح، وسأذكر بعض تلك الرسائل التي تعطيك الصورة الحقيقية لرأس القاسطين، وسأعرج على إسلام أهل ولايته الشام الذين دخلوا الإسلام من البوابة الأموية ولم يعرفوا الإسلام المحمدي الأصيل فجهلوا مكانة أمير المؤمنين علي عليه السلام تماماً.. فكان كل علمهم، ومبلغ فقههم أن معاوية خال المؤمنين، وابن عم رسول الله ﷺ، وكاتب الوحي الوحيد لديه، ولديه من الفضائل التي ما عرفها ولم يسمع بها إلا أهل الشام فقط..

لأن ليس للرجل فضيلة، كما قال لهم النسائي صاحب المسند الذي قدم على الشام من مصر فقالوا له حدثنا عن فضائل معاوية.. فاستغرب وقال: لم يرض معاوية رأس برأس حتى يريد الفضائل، والله لا أعلم له فضيلة إلا قول رسول الله ﷺ له: لا أشبع الله له بطناً^(٣)..

فقاموا إليه يطؤوه بأرجلهم بعد أن رموه من فوق المنبر، وخرج من عندهم وقضى نحبه على الأثر بعد أيام فقط..

(١) أي عظيمها وحقيرها.

(٢) نهج البلاغة: حكمة ٤٥.

(٣) معالم الفتن: سعيد أيوب: ج ٢/١٣٦.

فإسلام الشام كان ممسوخاً لأن من نقله إليهم كان لم يؤمن به بعد بل استسلم وأقر بعد الفتح وهم الطلقاء وأبناء الطلقاء الذين ما دخلوا الإسلام إلا مكرهين.. فما أدرهم بالإسلام وهم إلى الأمس القريب كانوا يحاربونه أشد القتال، ويهجون رسوله الكريم ﷺ وأهل بيته في كل واد وناد؟

هذه حقيقة يعرفها من تدبر بشيء بسيط في التاريخ والسيرة النبوية، والصحابة الذين رافقوا الرسول ﷺ سنوات طويلة يأخذون الآيات والأحكام من رسول الله ﷺ مباشرة كانوا جاهلين بكثير من الأحكام فكانوا يرجعون فيها إلى معدن الرسالة وباب مدينة علم النبي، ذاك أمير المؤمنين عليّ عليه السلام الذي احتاج الجميع إليه ولم يحتج إلى أحد منهم.. فما رأيك بابن أبي سفيان الذي لا يجيد الوضوء والصلاة وهي عمود الدين وأعظم الصلاة صلاة الجمعة فهل تدري أنه صلاها يوم الأربعاء حين أراد الخروج إلى صفين؟

وإليك بعض الرسائل وقليل من التعليق منا من أجل أن لا يطول البحث ونخرج عن خطة الاختصار، وبالله التوفيق..

كتب الإمام علي عليه السلام إلى معاوية كتاباً يعظه فيه، ويذكره بالآخرة لا سيما وأنه تجاوز الخمسين من عمره البائس، فقال عليه السلام: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان: أما بعد؛ فإن الدنيا دار تجارة، وربحها أو خسرها الآخرة؛ فالسعيد من كانت بضاعته فيها الأعمال الصالحة، ومن رأى الدنيا بعينها وقدرها بقدرها..

وإني لأعظك مع علمي بسابق العلم فيك مما لا مردّ له دون نفاذه؛ ولكن الله تعالى أخذ على العلماء أن يؤدوا الأمانة وأن ينصحوا الغوي والرشيد، فاتق الله ولا تكن ممن لا يرجو الله وقاراً، ومن حقت عليه كلمة

العذاب فإن الله بالمرصاد.. وإن دنياك ستدبر عنك وستعود حسرةً عليك، فأقلع عما أنت عليه من الغي والضلال على كبر سنك وفناء عمرك؛ فإن حالك اليوم كحال الثوب المهيل الذي لا يصلح من جانب إلا فسد من آخر، وقد أردت جيلاً من الناس كثيراً خدعتهم بغيك، وألقتهم في موج بحرك تغشاهم الظلمات وتتلاطم بهم الشبهات، فجازوا عن وجهتهم، ونكصوا على أعقابهم، وتولوا على أدبارهم، وعولوا على أحسابهم، إلا من فاء من أهل البصائر فإنهم فارقوك بعد معرفتك، وهربوا إلى الله من موازرتك إذ حملتهم على الصعب وعدلت بهم عن القصد.. فاتق الله يا معاوية في نفسك، وجاذب الشيطان قيادك، فإن الدنيا منقطعة عنك والآخرة قريبة منك، والسلام^(١)

جواب الرجل - وأعتذر سلفاً منك مولاي ومنكم أيها المؤمنون عن هذه الكلمات النابية التي فاه بها ابن من لاكت فاهها كبد سيدنا الحمزة فلا عجب ولكن ناقل الكفر ليس بكافر- فكتب وبكل وقاحة كما في شرح نهج البلاغة عن أبي الحسن علي بن محمد المدائني: فكتب إليه معاوية: من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب: أما بعد؛ فقد وقفت على كتابك، وقد أبيت على الفتن إلا تمادياً، وإني لعالم أن الذي يدعوك إلى ذلك مصرعك الذي لا بد لك منه، وإن كنت موئلاً فازدد غيًّا إلى غيِّك، فطالما خفَّ عقلك، ومَنِّيتَ نفسك ما ليس لك، والتويت على مَنْ هو خيرٌ منك، ثم كانت العاقبة لغيرك، واحتملت الوزر بما أحاط بك من خطيئتك، والسلام..

وكتب إليه الإمام علي عليه السلام كتاباً يحذره فيه من الحرب، كما يروي في شرح نهج البلاغة عن المدائني: أما بعد؛ فإن ما أتيت به من ضلالك

(١) النهج: كتاب/ ٣٢.

ليس ببعيد الشبه مما أتى به أهلك وقومك الذين حملهم الكفر وتمنى الأباطيل على حسد محمد ﷺ حتى صرعوا مصارعهم حيث علمت؛ لم يمنعوا حريماً ولم يدفعوا عظيماً، وأنا صاحبهم في تلك المواطن، الصالي بحربهم، والفال لحدهم، والقاتل لرؤوسهم ورؤوس الضلالة، والمتبع إن شاء الله خلفهم بسلفهم، فبئس الخلف خلف أتبع سلفاً محله ومحطه النار، والسلام^(١)..

فكتب إليه معاوية مأثوماً: أما بعد؛ فقد طال في الغي ما استمرت أدراجك، كما طالما تمادى عن الحرب نكوصك وإبطاؤك، فتوعد وعيد الأسد وتروغ ووغان الثعلب، فحتام تحيد عن لقاء مباشرة الليوث الضارية والأفاعي القاتلة، ولا تستبعدنها فكل ما هو آت قريب إن شاء الله، والسلام^(٢)..

فكتب إليه الإمام علي عليه السلام: أما بعد؛ فما أعجب ما يأتيني منك، وما أعلمني بما أنت إليه صائر! وليس إبطائي عنك إلا ترقباً لما أنت له مكذب وأنا به مُصدق، وكأنني بك غداً وأنت تضج من الحرب ضجيج الجمال من الأثقال، وستدعوني أنت وأصحابك إلى كتاب (القرآن) تعظمونه بالسننكم وتجحدونه بقلوبكم، والسلام^(٣)..

فكتب إليه معاوية: أما بعد؛ فدعني من أساطيرك واكفف عني من أحاديثك، واقصر عن تقولك على رسول الله ﷺ وافترائك من الكذب ما لم يقل، وغرور مَنْ معك والخداع لهم فقد استغويتهم، ويوشك أمرك أن ينكشف لهم فيعتزلوك ويعلموا أن ما جئت به باطل مضمحل،

(١) شرح النهج الحديدي: ج ١٦ / ١٣٤.

(٢) ن. م.

(٣) ن. م.

والسلام^(١)..

فكتب إليه الإمام علي عليه السلام: أما بعد؛ فطالما دعوت أنت وأولياؤك أولياء الشيطان الرجيم الحق أساطير الأولين، ونبذتموه وراء ظهوركم، وجهدتم بإطفاء نور الله بأيديكم وأفواهمكم، والله متم نوره ولو كره الكافرون.. ولعمري ليتمنَّ النور على كرهك، ولينفذ العلم بصغارك، ولتجازين بعملك، فعث في دنياك المنقطعة عنك ما طاب لك؛ فكأنك بباطلك وقد انقضى وبعملك وقد هوى ثم تصير إلى لظى، لم يظلمك الله شيئاً، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(٢)..

فكتب إليه معاوية: أما بعد؛ فما أعظم الرين على قلبك والغطاء على بصرك! الشره من شيمتك والحسد من خليقتك، فشمِّر للحرب واصبر للضرب، فوالله، ليرجعن الأمر إلى ما علمت، والعاقبة للمتقين.. هيهات هيهات! أخطأك ما تمنى، وهوى قلبك مع من هوى، فأربع على ظلعك، وقس شبرك بفترك؛ لتعلم أين حالك من حال من يزن الجبال حلمه، ويفصل بين أهل الشك علمه، والسلام^(٣)..

١٧٠١. رأي عمرو بن العاص

إن عمرو بن العاص كان يذيع بين الناس الكثير من الكذب والإفتراء على أمير المؤمنين عليه السلام ومما كان يذيع عليهم «أن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوكتهم وفلوا حدهم. وأن أهل البصرة مخالفون لعلي بعد أن وترهم وقتلهم. وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم

(١) ن.م. ص ١٣٥.

(٢) ن.م.

(٣) راجع بخصوص هذه الرسائل: نهج البلاغة وشروحه المختلفة.

الجميل. وأن علياً قد سار في شردمة قليلة منهم وقد قتل خليفتم.. فالله، الله في حقكم أن تضيعوه، وفي دمكم أن تبطلوه.. (علماً أنه كان يفتخر بالتحريض عليه حتى القتل وقال: قتلته وأنا بوادي السباع)^(١)..

١٨٠١. معاوية وسياسة التشكيك

نعم؛ سارت سياسة تعبئة الناس تحت لافتة «قميص عثمان» جنباً إلى جنب مع سياسة التشكيك في الأحاديث التي رويت في فضل أهل البيت (ع) ومناقب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لأن معاوية كان يدرك خطورة هذه الأحاديث إن فشت بين أبناء الأمة، وغيرها من الأحاديث التي حذر فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الفتن ولعن فيها قبائل وبيوتاً نظراً لخطورتها على الدعوة.

لهذا رفع معاوية أمام هذه الأحاديث لافتة «أساطير الأولين» ولم يكتف معاوية بهذه اللافتة وإنما تاجر بقتل طلحة والزبير وهزيمة عائشة، وحاول أن يجذب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إلى معركة كلامية حول الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأن دخول الإمام علي عليه السلام في هذه الدائرة سيجعله من وجهة نظر معاوية يفقد أصوات العامة في الأمصار مما يسهل على معاوية اختراق الساحة بعد ذلك.

وبالحقيقة: لم يترك معاوية طريقاً فيه هواه إلا وطرقه ووضع فيه العوائق.. وسياسة الطعن بشخصية أمير المؤمنين عليه السلام - والعياذ بالله - والتشكيك في الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الخاصة بوصيه، وابن عمه، وصهره (ع) وسماتها (أساطير) ظهرت معالمها في رسالة أرسلها معاوية إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول له فيها: أما بعد.. فدعني من

(١) (البداية والنهاية ٢٥٥ / ٧ الطبري ٢٣٦ / ٥)

أساطيرك.. واكفف عني من أحاديث.. وأقصر عن تقوُّلك على رسول الله ﷺ وافترائك من الكذب ما لم يقل.. وغرور من معك والخداع لهم، فقد استغويتهم.. ويوشك أمرك أن ينكشف لهم فيعتزلوك، ويعلموا أن ما جئت به باطل مضمحل.. والسلام»^(١)

فكتب إليه أمير المؤمنين ﷺ: أما بعد؛ فطالما دعوت أنت وأولياؤك أولياء الشيطان الرجيم الحق: أساطير الأولين، ونبذتموه وراء ظهوركم.. وجهدتم بإطفاء نور الله بأيديكم وأفواهمكم.. والله متمُّ نوره ولو كره الكافرون.. ولعمري ليتمنَّ النور على كرهك، ولينفذ العلم بصغارك، ولتجازين بعملك.. فَعِثْ في دنياك المنقطعة عنك ما طاب لك، فكأنك بباطلك وقد انقضى، وبعملك وقد هوى؛ ثم تصير إلى لظى.. لم يظلمك الله شيئاً، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

ولم تكتف الحملة الإعلامية للقاسطين على رفع لافتة «أساطير الأولين» وإنما قامت بتغذية الساحة بمادة إعلامية هدفها التقليل من شأن أمير المؤمنين ﷺ في أول الطريق ليتمكنوا من سبِّه - والعياذ بالله - في نهاية الطريق.. يقول معاوية في رسالة له إلى أمير المؤمنين ﷺ: أما بعد فما أعظم الرين على قلبك، والغطاء على بصرك، الشره من شيمتك، والحسد من خليقتك.. فشمر للحرب واصبر إلى الضرب فوالله ليرجعن الأمر إلى ما علمت، والعاقبة للمتقين..!^(٢)

يقول ابن أبي الحديد: وأعجب وأطرب بما جاء به الدهر - وإن كانت عجائبه وبدائعه جَمَّةً - أن يفضي أمر علي (كرم الله وجهه) إلى أن يصير معاوية نداً له ونظيراً مماثلاً.. يتعارضان الكتاب والجواب..

(١) (الكامل ١٤٨/٣، الطبري ٢/٦)

(٢) (المصدر السابق ٧٦٩/٤)

ويتساويان فيما يواجه به أحدهما صاحبه.. ولا يقول له علي (كرم الله وجهه) كلمة إلا قال مثلها، وأخشن مسًا منها.

فليت محمد ﷺ كان شاهد ذلك ليرى عياناً لا خبراً أن الدعوة التي قام بها، وقاسى أعظم المشاق في تحملها وكابد الأهوال في الذب عنها، وضرب بالسيوف عليها لتأييد دولتها، وشيّد أركانها، وملاّ الآفاق بها.. خلّصت صفواً عفواً لأعدائه الذين كذبوه لما دعاهم إليها.. وأخرجوه عن أوطانه لما حضهم عليها.. وأدموا وجهه الشريف، وقتلوا عمّه وأهله.

فكانه كان يسعى لهم ويدأب لراحتهم، كما قال أبو سفيان في أيام عثمان، وقد مرّ بقبر سيد الشهداء حمزة، وضربه برجله وقال: يا أبا عمار: إن الأمر الذي اختلفنا عليه بالسيف أمسى في يد غلماننا اليوم يتلعبون به.. ثم آل الأمر إلى أن يفاخر معاوية عليا، كما يتفاخر الأكفاء والنظراء!!

إذا عَيَّر الطائي بالبخل مادر
وقرع قسا بالفهاهة باقل
وقال السها للشمس: أنت خفية
وقال الدجى: يا صبح لونك
حائل وفاخرت
الأرض السماء سفاهة
وكاثرت الشهب الحصا والجنادل
فيا موت زر إن الحياة ذميمة
ويا نفس جدي إن دهرك هازل!

ثم أقول - ابن أبي الحديد - ثانياً لأمير المؤمنين علي (كرم الله وجهه) ليت شعري.. لماذا فتح باب الكتاب والجواب بينه وبين معاوية؟

وإذا كانت الضرورة قد قادت إلى ذلك فهلا اقتصر في الكتاب إليه على الموعظة من غير تعرض للمفاخرة والمنافرة.

وإذا كان لا بد منهما، فهلا اكتفى بهما من غير تعرض لأمر آخر يوجب المقابلة والمعارضة بمثله.. بل وبأشد منه ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^(١) وهلا دفع هذا الرجل العظيم الجليل نفسه عن سباب هذا السفیه الأحمق.. هذا مع أنه القائل: من واجه الناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون.. أي افتروا عليه وقالوا فيه الباطل.^(٢)

ويقول الباحث سعيد أيوب: شاء الله أن يردَّ الإمام ردًّا يوجب المقابلة والمعارضة.. وشاء الله أن نجد هذه الرسائل في أكثر من مصدر لنعلم منها أصول الحقيقة الغائبة.. والإمام عليه السلام لا يضره سباب ألف سفیه أحمق.

لأن هؤلاء لا يكتب لسبابهم وعروشهم الخلود.. فانظر إلى الوراء منذ عهد آدم عليه السلام كم من كلاب نبحت على قافلة الأنبياء عليهم السلام، ولقد ذهب النباح كهباء ضائع في خلاء يصلی أصحابه لظى، وكتب الخلود لدعوة الرسل والأنبياء عليهم السلام.

وكذلك ترى سيرة الأئمة والهداة لقد رصدتهم ألسنة أصحاب السوء وشوھتهم الأقلام المأجورة.. وفي النهاية ذهب أهل السوء والباطل ولم يكتب لأقوالهم الخلود ولم يبق إلا السائرون على طريق الفطرة.

فلحكمة بالغة كانت أجوبة الإمام عليه السلام لمعاوية وإن خفيت على ابن أبي الحديد وغيره من الأعلام، وإليك هذا الجواب المختصر من

(١) (الأنعام: الآية ١٠٨)

(٢) (ابن أبي الحديد ٧٧٠ / ٤)

الباحث سعيد أيوب الذي يقول: والآن نتساءل: ما الذي كان سيقع لو أن الإمام تراجع في هذه الحرب الدعائية؟ وماذا لو لم يفتح باب المكاتب مع معاوية بحسب تفكير ابن أبي الحديد؟ وماذا سيكون لو أهمل كلام معاوية وبرامجه على هذا الصعيد ولم يرد عليها؟ هل كان معاوية يختار الصمت مثلاً ويكف عن حربه الدعائية الشعواء ضد الإمام؟ لا ريب أن سياسة السكوت في مقابل الأمواج الدعائية العاتية التي يبثها معاوية كانت ستنتهي بضرر شديد على الإمام علي عليه السلام وجيشه.. فسكوت الإمام عليه السلام كان معناه تأييداً منه لكل تهم معاوية. ولذا فإنه من السذاجة بمكان أن نتصور بأن الإمام عليه السلام لو لم يفتح باب المكاتب مع معاوية، لما كان معاوية قد شرع بحربه الدعائية ضد الإمام أو أنه كان ينشئ عن إدامتها، بل الذي لا نشك فيه أن سكوت الإمام عليه السلام - لو حصل - كان يستتبع تصعيد وتيرة هذه الحرب وتأجيج نيرانها أكثر، وبتهم أعظم وبهتان أشد.

إن كتب الإمام وأجوبته لم تعمل على تعطيل الفعل الدعائي الماكر لمعاوية وحزبه فحسب، بل تحولت إلى وثيقة في التأريخ تثبت أحقية الإمام عليه السلام وفضح وإدانة أولئك القاسطين.. فإضافة إلى ما بادر إليه الإمام عليه السلام من تنوير العقول وتبصير الناس وتوعيتها عبر هذه الرسائل، فقد عمد فيها للدفاع عن نفسه على أحسن وجه، وأتمّ الحجة على معاوية والمخدوعين من أتباعه.

كما ترك للتأريخ وللمن يأتي بعده من الأجيال وثيقة حوت ما جرى بينه وبين معاوية.. لقد التزم الإمام جانب الحذر بعمله بحيث لم يدع معاوية يحقق أياً من الأهداف التي كان يصبو إليها من حربه الدعائية كما يريد.

ومن أساليب الكذب والتشويه الذي استعمله القاسطون التطبيل بأصحاب الجمل واكبارهم واجلالهم ويدافع عن خروجهم.. فراح إعلام معاوية يتاجر بمقتل طلحة والزبير وهزيمة عائشة أيما متاجرة.. فقد روي أن عمرو بن العاص قال لعائشة يوماً: لوددت أنك كنت قتلت يوم الجمل. فقالت: ولم لا أبا لك؟ فقال: تموتين بأجلك وتدخلين الجنة ونجعلك أكبر التشيع على علي بن أبي طالب^(١)

ومن هذا نعلم أن المتاجرة بأهل الجمل لها جذور وأصول في حركة التمرد التي خطط لها صبيان أمية وزبائيتهم من القرشيين. فقد جاء في رسالة من معاوية إلى أمير المؤمنين علي^(عليه السلام)، يقول: معاوية.. دعوت الناس إلى نفسك، وأكرهت أعيان المسلمين على بيعتك.. ثم كان منك بعدما كان من قتلك شيخي المسلمين أبا محمد طلحة وأبا عبد الله الزبير.. وهما من الموعودين بالجنة.. والمبشر قاتل أحدهما بالنار في الآخرة هذا إلى تشريك بأم المؤمنين عائشة.. وإحلالها محل الهون، مبتذلة بين أيدي الأعراب وفسقة أهل الكوفة.. فمن بين مشهر لها، وبين شامت بها، وبين ساخر منها، ترى ابن عمك كان بهذا لو رآه راضياً؟ أم يكون عليك ساخطاً، ولك عنه زاجراً؟ أن تؤذي أهله وتشرد بحليلته.. وتسفك دماء أهل ملته.. ثم تركك دار الهجرة التي قال رسول الله^(صلى الله عليه وآله وسلم) عنها: «إن المدينة لتنفى خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد» فلعمري قد صحَّ وعده وصدق قوله، ولقد نفت خبثها، وطردت عنها من ليس بأهل أن يستوطنها.. فأقامت بين المصريين، وبعدت عن بركة الحرمين، ورضيت بالكوفة بدلاً من المدينة، وبمجاورة الخورنق والحيرة، عوضاً

(١) شرح نهج البلاغة الحديدي: ج ٦/ ٣٢٢، البحار: ج ٣٢/ ٢٦٧.

عن مجاورة خاتم النبوة...^(١)

وردّ أمير المؤمنين عليه السلام عليه في رسالة طويلة منها: ... فرّق بيننا وبينكم أمس أنا آمننا وكفرتهم.. واليوم أنا استقمنا وفنتهم.. وما أسلم مسلمكم إلا كرها، وبعد أن كان أنف الإسلام كله لرسول الله صلّى الله عليه وآله حرباً.. وذكرت أنني قتلت طلحة والزبير، وشردت بعائشة، ونزلت بين المصريين.. وذلك أمر غبت عنه - فلا عليك ولا العذر فيه إليك...^(٢)

وقال ابن أبي الحديد: فأما الجواب المفصّل فأن يقال: إن طلحة والزبير قتلا أنفسهما ببغيهما ونكثهما.. ولو استقاما على الطريقة لسما ومن قتله الحق فدمه هدر.. وأصحابنا (المعتزلة) يذهبون إلى أنهما تابا وفارقا الدنيا نادمين على ما صنعا.. ولولا توبتهما لكانا هالكين كما هلك غيرهما.. فإن الله تعالى لا يحابي أحداً في الطاعة والتقوى.. ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾^(٣)

وأما الوعد لهما بالجنة فمشروط بسلامة العاقبة.

أما أم المؤمنين عائشة فالذي جرى لها كان خطأ منها.. فأى ذنب لأمر المؤمنين (كرم الله وجهه) في ذلك؟ ولو أقامت في منزلها لم تبتذل بين الأعراب وأهل الكوفة، على أن أمير المؤمنين (كرم الله وجهه) أكرمها، وصانها، وعظّم من شأنها... ولو كانت فعلت بعمر بن الخطاب ما فعلت به، وشقّت عصا الأمة عليه، ثم ظفر بها، لقتلها وفرقها إرباً، إرباً، ولكن علياً كان حليماً كريماً.

(١) (الكامل/ للمبرد ص ١٥١/١)

(٢) شرح النهج الحديدي: ج ١٧/ ٢٥٥، الرسالة والجواب.

(٣) (الأنفال: ٤٢)

وأما قوله: «لو عاش رسول الله ﷺ فبربك هل كان يرضى لك أن تؤذي حليلته»، فلعلي (كرم الله وجهه) أن يقلب الكلام عليه، فيقول: «افتراه لو عاش أكان يرضى لحليلته أن تؤذي أخاه ووصيه وأيضاً أتراه لو عاش أكان يرضى لك يا ابن أبي سفيان أن تنازع علياً الخلافة، وتفرق جماعة هذه الأمة؟ وأيضاً أتراه لو عاش أكان يرضى لطلحة والزبير أن يبايعا ثم ينكثا لا لسبب، بل قالوا: جئنا نطلب الدراهم.. فقد قيل لنا: إن بالبصرة أموالاً كثيرة.. هذا الكلام يقوله لمثلهما.

فأما قوله: «تركت دار الهجرة» فلا عيب عليه إذا انتقضت عليه أطراف الإسلام بالبغي والفساد أن يخرج من المدينة إليها، ويهذب أهلها، وليس كل من خرج من المدينة كان خبثاً فقد خرج عنها عمر مراراً إلى الشام، ثم لعلي (كرم الله وجهه) أن يقلب عليه الكلام فيقول له: وأنت يا معاوية قد نفتك المدينة أيضاً عنها فأنت إذن خبث، وكذلك طلحة والزبير وعائشة الذين تتعصب لهم وتحتج على الناس بهم، وقد خرج من المدينة الصالحون، كابن مسعود وأبي ذر وغيرهما وماتوا في بلاد نائية عنها.

وأما قوله: «بعدت عن حرمة الحرمين، ومجاورة قبر رسول الله ﷺ»، فكلام إقناعي ضعيف، والواجب على الإمام أن يقدم الأهم فالأهم من مصالح الإسلام وتقديم قتال أهل البغي على المقام بين الحرمين أولى.^(١)

إن خطاب معاوية ليس فيه علم يُروى، وهو خطاب إعلامي في المقام الأول يخاطب به غوغاء الشام ومن على شاكلتهم على الرغم من

(١) (ابن أبي الحديد/ ١٨٠)

أن الرسالة موجهة إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام، وعلى هذا المنوال بعث معاوية برسالة أخرى إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول له فيها: أما بعد، يقول الله تعالى في محكم كتابه ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١)، وإني أحذرك الله أن تحبط عملك وسابقتك بشق عصا هذه الأمة وتفريق جماعتها فاتق الله واذكر موقف القيامة وأقلع عما أسرفت فيه من الخوض في دماء المسلمين وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو تمالأ أهل صنعاء وعدن على قتل رجل واحد من المسلمين لأكبهم الله على مناخرهم في النار» فكيف يكون حال من قتل أعلام المسلمين وسادات المهاجرين بل ما طحنت رحا حربيه من أهل القرآن وذوي العباداة والإيمان من شيخ كبير وشاب غرير كلهم بالله تعالى مؤمن وله مخلص وبرسوله مُقر عارف فإن كنت أبا الحسن أنما تحارب على الإمرة والخلافة فلعمري لو صحت خلافتك لكنت قريباً من أن تعذر في حرب المسلمين ولكنها ما صحت لك.. أنى بصحتها وأهل الشام لم يدخلوا فيها ولم يرتضوا بها؟ وخف الله وسطوته واتق بأسه ونكاله وأغمد سيفك عن الناس فقد والله أكلتهم الحرب...»^(٢)

وهذا أيضاً خطاب إعلامي كتبه معاوية لتبدأ إذاعته المتنقلة في بثه بمجرد أن يتحرك حامل الرسالة في اتجاه أمير المؤمنين عليه السلام ولقد ردَّ أمير المؤمنين علي عليه السلام على هذه الرسالة وغيرها من باب إقامة الحجة، فقال: أما بعد؛ فقد أتنني منك موعظة موصلة ورسالة محببة نَمَّقْتُها بضلالك وأمضيته بسوء رأيك وكتاب امرئ ليس له بصر يهديه

(١) (سورة الزمر: الآية ٦٥)

(٢) (ابن أبي الحديد ٣١٦ / ٤)

ولا قائد يرشده دعاه الهوى فأجابه وقاده الضلال فاتبعه فهجر لا غطاً
 وضل خابطاً.. فأما أمرك لي بالتقوى فأرجو أن أكون من أهلها، واستعيز
 بالله من أن أكون من الذين إذا أمروا بها أخذتهم العزة بالإثم؛ وأما
 تحذيرك إياي أن يحبط عملي وسابقتي في الإسلام.. فلعمري لو كنتُ
 الباغي عليك لكان لك أن تحذرنني ذلك ولكني وجدت الله تعالى يقول:
 ﴿فَقَاتِلُوا آلَ بَغِيٍّ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾^(١)

فنظرنا إلى الفئتين أما الفئة الباغية فوجدناها الفئة التي أنت فيها لأن
 بيعتي بالمدينة لزمك وأنت بالشام، كما لزمك بيعة عثمان بالمدينة
 وأنت أمير لعمر على الشام، وكما لزمك يزيد أخاك بيعة عمر وهو أمير
 لأبي بكر على الشام.. وأما شق عصا هذه الأمة فأنا أحق أن أنهاك عنه..
 فأما تخويفك لي من قتال أهل البغي فإن رسول الله ﷺ أمرني بقتالهم
 وقتلهم، وقال لأصحابه: «إن فيكم من يقاتل على تأويل القرآن كما
 قاتلت على تنزيله»، وأشار إليّ وأنا أولى من اتبع أمره.. وأما قولك:
 إن بيعتي لم تصح لأن أهل الشام لم يدخلوا فيها كيف وإنما هي بيعة
 واحدة تلزم الحاضر والغائب لا يثنى فيها النظر ولا يستأنف فيها الخيار
 الخارج منها طاعن والمروي فيها مداهن فأربع على ظلعك، وانزع سربال
 غيك..^(٢)

لقد خاطبه، وفقاً لثقافته وما سارت عليه الأمور بعد وفاة النبي ﷺ
 ليحاكمه بما ارتضوه واتفقوا عليه وهو أن الاختيار طريق الخلافة فبين له
 أن الخلافة ليس بعد عقدها خيار لمن عقدها ولا لغيرهم لأنها تلزم غير
 العاقدين كما تلزم العاقدين فيسقط الخيار فيها ووفقاً لهذا التعريف فقد

(١) (سورة الحجرات: الآية ٩)

(٢) (ابن أبي الحديد ٣١٦/٤)

لزمت أمراء الشام من قبل وعليه فهي تلزم معاوية من بعد..

كان هذا بعضاً من سياسة التشكيك في الحديث النبوي الشريف حتى يتم التعقيم مرة أخرى على فضائل ومناقب أمير المؤمنين عليه السلام، وسارت سياسة التقليل من شأن أمير المؤمنين عليه السلام جنباً إلى جنب مع سياسة التشكيك في الحديث ووصف: بأنه يفرق الكلمة، ويقتل المتقين، ويفارق المدينة.. وكان هذا لهدف لا يخفى على الباحث عن الحقيقة وفي حياة أمير المؤمنين عليه السلام عتّموا على مناقبه مرة، ثم أرادوا أن يعتموا عليها ويشوهوه مرة أخرى.. وبعد وفاته سبّوه على المنابر التي أقيمت بسيفه وجهاده..

وكما زج معاوية بأصحاب الجمل في حربه الإعلامية، فقد زج أيضاً بقضية الخلافة بعد رسول الله ﷺ ولقد كان يريد من وراء هذا أن يقول أمير المؤمنين عليه السلام في أبي بكر وعمر، بما لا يرضي الرأي العام لأن الغالب الأعم في الأمصار كانوا يعتقدون إمامة الشيخين إلا القليل من خواص أمير المؤمنين عليه السلام..

فكان معاوية يريد أن يسجّل عليه قوله أنهما غصباه حقه فيجعل ذلك حجة عليه عند أهل الشام ويضيفه إلى ما وضعه في عقولهم من انتقاص الإمام علي عليه السلام كما زعم.. فكان يريد أن وينسبهما إلى الظلم ومخالفة الرسول ﷺ في أمر الخلافة.. فالحصول على تسجيل مثل هذا كفيل بأن يفسد عليه أهل العراق أيضاً وهم جنده وبطانته وأنصاره، لأن الغالب الأعم فيهم كانوا يعتقدون إمامة الشيخين.. لهذا لم يدّخر معاوية جهداً من أجل فتح هذا الباب فأرسل كتاباً مع أبي مسلم الخولاني قصد أن يغضب علياً ويحرجه إذا قرأ ذكر أبي بكر وأنه أفضل المسلمين إلى أن يخلط خطة في الجواب بكلمة تقتضي طعناً في أبي بكر.. فجاءه الرد

من الإمام علي عليه السلام غير واضح، وغير بَيِّن، فليس فيه تصريح بالتظلم لهما وتارة يترحم عليهما، وتارة يقول: أخذا حقي وقد تركته لهما..

فأشار عمرو بن العاص على معاوية أن يكتب كتاباً ثانياً مناسباً للكتاب الأول؛ ليستفزا فيه علياً عليه السلام ويستخفاه، ويحملة الغضب منه أن يكتب كلاماً يتعلقان به في تقبيح حاله وتهجين مذهبه.. وقال له عمرو ابن النابغة: إن علياً عليه السلام رجل نزق نبيّه، وما استطعت منه الكلام بمثل تقرّظ أبي بكر وعمر فاكتب.

فكتب معاوية إلى أمير المؤمنين عليه السلام كتاباً أنفذه مع أبي أمامة الباهلي ومما جاء فيه: من عبد الله معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب: أما بعد؛ فإن الله تعالى جده اصطفى محمداً عليه السلام لرسالته واختصه بوحيه وتأدية شريعته، فأنقذ به من العماية وهدى به من الغواية، ثم قبضه إليه رشيداً حميداً قد بلغ الشرع ومحق الشرك وأخمد نار الإفك، فأحسن الله جزاءه وضاعف عليه نعمه وآلاءه، ثم إن الله سبحانه اختص محمداً عليه السلام بأصحاب أيدوه وآزروه ونصروه، وكانوا كما قال الله سبحانه لهم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] فكان أفضلهم مرتبة وأعلاهم عند الله والمسلمين منزلة الخليفة الأول، الذي جمع الكلمة ولم الدعوة وقاتل أهل الردة، ثم الخليفة الثاني الذي فتح الفتوح ومصر الأمصار وأذل رقاب المشركين، ثم الخليفة الثالث المظلوم الذي نشر الملة وطبق الآفاق بالكلمة الحنيفة. فلما استوثق الإسلام وضرب بجرانه عدوت عليه فبغيته الغوائل ونصبت له المكائد، وضربت له بطن الأمر وظهره ودست عليه وأغريت به، وقعدت حيث استنصرك عن نصره وسألك أن تدركه قبل أن يمزق فما أدركته، وما يوم المسلمين منك بواحد. لقد حسدت أبا بكر والتويت عليه ورمت إفساد أمره، وقعدت في

بيتك، واستغويت عصابة من الناس حتى تأخروا عن بيعته، ثم كرهت خلافة عمر وحسدته واستطلت مدته، وسررت بقتله وأظهرت الشماتة بمصابه حتى إنك حاولت قتل ولده؛ لأنه قتل قاتل أبيه، ثم لم تكن أشد منك حسدا لابن عمك عثمان نشرت مقابحه وطويت محاسنه، وطعنت في فقهه ثم في دينه ثم في سيرته ثم في عقله، وأغریت به السفهاء من أصحابك وشيعتك حتى قتلوه بمحضر منك لا تدفع عنه بلسان ولا يد، وما من هؤلاء إلا من بغيت عليه وتلكأت في بيعته حتى حملت إليه قهرا تساق بخزائم الاقتسار كما يساق الفحل المخشوش، ثم نهضت الآن تطلب الخلافة، وقتلة عثمان خلصاؤك وسجراؤك والمحدقون بك، وتلك من أمانى النفوس وضلالات الأهواء. فدع اللجاج والعبث جانبا وادفع إلينا قتلة عثمان، وأعد الأمر شورى بين المسلمين ليتفقوا على من هو الله رضا. فلا بيعة لك في أعناقنا ولا طاعة لك علينا ولا عتبي لك عندنا، وليس لك ولأصحابك عندي إلا السيف، والذي لا إله إلا هو لأطلبن قتلة عثمان أين كانوا وحيث كانوا حتى أقتلهم أو تلتحق روحي بالله. فأما ما لا تزال تمن به من سابقتك وجهادك فياني وجدت الله سبحانه يقول: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَنِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١)

ولو نظرت في حال نفسك لو جدتها أشد الأنفس امتنانا على الله بعملها، وإذا كان الامتنان على السائل يبطل أجر الصدقة فالامتنان على الله يبطل أجر الجهاد ويجعله ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

(١) (سورة الحجرات: الآية ١٧)

الْكَافِرِينَ ﴿١﴾

قال النقيب أبو جعفر: فلما وصل هذا الكتاب إلى علي عليه السلام مع أبي أمامة الباهلي، كلم أبا أمامة بنحو مما كلم به أبا مسلم الخولاني وكتب معه هذا الجواب..

فهكذا نسج معاوية وابن العاص شباك الصيد التي تخدم أهواءهما كي يركبا على أعناق الأمة ولكن هيهات، فقد ردّ أمير المؤمنين عليه السلام وكان رده من محاسن الكتب، وهو الذي جاء فيه: أما بعد؛ فقد أتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء الله محمدًا ﷺ لدينه وتأيينه إياه بمن أيده من أصحابه، فلقد خبأ لنا الدهر منك عجباً، إذ طفقت تخبرنا ببلاء الله تعالى عندنا ونعمته علينا في نبينا، فكنت في ذلك كناقل التمر إلى هجر أو داعي مسدده إلى النضال. وزعمت أن أفضل الناس في الإسلام فلان وفلان، فذكرت أمراً إن تم اعتزلك كله، وإن نقص لم يلحقك ثلمه. وما أنت والفاضل والمفضول، والسائس والمسوس؟ وما للطلاق وأبناء الطلاق والتمييز بين المهاجرين الأولين، وترتيب درجاتهم، وتعريف طبقاتهم. هيهات لقد حن قدح ليس منها، وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها. ألا تربع - أيها الإنسان - على ظلعك، وتعرف قصور ذرعك؟ وتتأخر حيث أخرجك القدر؟ فما عليك غلبة المغلوب ولا ظفر الظافر، وإنك لذهاب في التيه، رواج عن القصد. ألا ترى - غير مخبر لك ولكن بنعمة الله أحدث - أن قوماً استشهدوا في سبيل الله تعالى من المهاجرين والأنصار - ولكل فضل - حتى إذا استشهد شهيدنا قيل: سيد الشهداء، وخصه رسول الله ﷺ بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه. أ ولا ترى أن قوماً قطعت أيديهم في سبيل الله - ولكل فضل - حتى إذا فعل

(١) (سورة البقرة: الآية ٢٦٤).

بواحدنا ما فعل بواحدكم قيل: الطيار في الجنة وذو الجناحين، ولولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه لذكر ذاك فضائل جمّة تعرفها قلوب المؤمنين، ولا تمجها آذان السامعين، فدع عنك من مالت به الرمية؛ فإننا صنائع ربنا، والناس بعد صنائع لنا. لم يمنعنا قديم عزنا ولا عادي طولنا على قومك أن خلطناكم بأنفسنا، فنكحنا وأنكحنا فعل الأكفاء، ولستم هناك. وأنى يكون ذلك ومنا النبي ومنكم المكذب، ومنا أسد الله ومنكم أسد الأحلاف، ومنا سيدا شباب أهل الجنة ومنكم صبية النار، ومنا خير نساء العالمين ومنكم حمالة الحطب في كثير مما لنا وعليكم؛ فإسلامنا قد سمع، وجاهليتنا لا تدفع، وكتاب الله يجمع لنا ما شذ عنا وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾^(١)

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢)

فنحن مرة أولى بالقرابة، وتارة أولى بالطاعة. ولما احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله ﷺ فلعجوا عليهم، فإن يكن الفلج به فالحق لنا دونكم، وإن يكن بغيره فالأنصار على دعواهم. وزعمت أنني لكل الخلفاء حسدت وعلى كلهم بغيت، فإن يكن ذلك كذلك فليست الجناية عليك فيكون العذر إليك: وتلك شكاة ظاهر عنك عارها وقلت إني كنت أقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى أبايع، ولعمر الله لقد أردت أن تدم فمدحت، وأن تفضح فافتضحت! وما على المسلم من غضاضة في أن يكون مظلوما ما لم يكن شاكاً في دينه، ولا مرتاباً بيقينه. وهذه حجتي إلى غيرك قصدها، ولكنني أطلقت لك منها بقدر ما سنح

(١) (سورة الأنفال: الآية ٧٥)

(٢) (سورة آل عمران: الآية ٦٨)

من ذكرها. ثم ذكرت ما كان من أمري وأمر عثمان فلك أن تجاب عن هذه لرحمك منه، فأينا كان أعدى له وأهدى إلى مقاتله. أמן بذل له نصرته فاستقعه واستكفه، أم من استنصره فتراخى عنه وبث المنون إليه حتى أتى قدره عليه؟ كلا والله ل ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١٨]

وما كنت لأعتذر من أي كنت أنقم عليه أحداثاً، فإن كان الذنب إليه إرشادي وهدايتي له فرب ملوم لا ذنب له: وقد يستفيد الظنة المتنصح. وما أردت إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. وذكرت أنه ليس لي ولأصحابي عندك إلا السيف فلقد أضحكت بعد استعبار! متى ألفيت بني عبد المطلب عن الأعداء ناكليين، وبالسيف مخوفين؟! فلبث قليلاً يلحق الهيجا حمل فسيطليك من تطلب، ويقرب منك ما تستبعد، وأنا مرقل نحوك في جحفل من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، شديد زحامهم، ساطع قتامهم، متسريلين سراويل الموت، أحب اللقاء إليهم لقاء ربهم، وقد صحبتهم ذرية بدرية وسيوف هاشمية، قد عرفت مواقع نصالها في أخيك وخالك وجدك وأهلك ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٣]

لقد فتح معاوية باباً فيه من الحجج الكثير وكان الإمام علي عليه السلام لا يريد لهذا الباب أن يفتح على مصراعيه لأنه كان في حاجة لحقن الدماء بالدخول تحت بيعته وعندما أصر معاوية قال الإمام في رسالته: «ألا ترى غير مُخبر لك ولكن بنعمة الله أحدث» (أي لست عندي أهلاً لأن أخبرك بذلك فإنك تعلمه ومن يعلم الشيء لا يجوز أن يخبر به ولكن أذكر ذلك لأنه تحدث بنعمة الله علينا وقد أمرنا بأن نتحدث بنعمته سبحانه..^(١)

(١) (ابن أبي الحديد ٥٩٩ / ٤)

ويبدو أن حديث معاوية في هذا الباب الذي يعلمه دفع بآخرين كي يذكروه إن كان قد نُسي رغبة منهم في حقن الدماء ومن هؤلاء محمد بن أبي بكر فلقد بعث برسالة إلى معاوية ومما جاء فيها «إن الله بجلاله وعظمته وسلطانه وقدرته خلق خلقا بلا عبث ولا ضعف في قوة: لا حاجة به إلى خلقهم ولكنه خلقهم عبيدا وجعل منهم شقيا وسعيدا وغويا ورشيدا ثم اختارهم على علمه فاصطفى منهم محمدا ﷺ فاختصه برسالته واختاره لوحيه وائتمنه على أمره وبعثه رسولا مصدقا لما بين يديه من الكتب ودليلا على الشرائع فدعا إلى سبيل أمره بالحكمة والموعظة الحسنة فكان أول من أجاب وأناب، وصدق ووافق فأسلم وسلم أخوه وابن عمه علي بن أبي طالب ﷺ فصدقه بالغيب المكتوم وآثره على كل حميم - ووقاه كل هول، وواساه بنفسه في كل خوف فحارب حربه، وسالم سلمه»^(١)

وقال محمد بن أبي بكر في رسالته: «وقد رأيتك تساميه وأنت أنت.. وهو هو السابق المبرز في كل خير.. وأنت اللعين ابن اللعين لم تزل أنت وأبوك تبغيان لدين الله الغوائل وتجتهدان على إطفاء نور الله وتجمعان على ذلك الجموع وتبذلان فيه المال وتحالفان في ذلك القبائل على هذا مات أبوك وعلى ذلك خلفته والشاهد عليك بذلك من يأوي ويلجأ إليك من بقية الأحزاب ورؤوس النفاق والشقاق لرسول الله ﷺ والشاهد لعلي مع فضله وسابقته القديمة أنصاره الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن ففضلهم وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار.. فهم معه كتائب وعصائب يجالدون حوله بأسيا فهم ويهرقون دماءهم دونه يرون الفضل في اتباعه والشقاق والعصيان في خلافه فكيف يا لك الويل تعدل نفسك

(١) (ابن أبي الحديد ٦٠٧/٤)

بعلي.. وهو وارث رسول الله ﷺ ووصيه وأبو ولده، وأول الناس له اتباعا وآخرهم به عهدا يخبره بسرّه ويشركه في أمره وأنت عدوه وابن عدوه.. فتمتع ما استطعت بباطلك وليمدّدك ابن العاص في غوايتك فكأن أجلك قد انقضى وكيدك قد وهى، وسوف تستبين لمن تكون العاقبة العليا.. واعلم أنك إنما تكابد ربك الذي قد أمنت كيده وأيست من روحه وهو لك بالمرصاد، وأنت منه في غرور بالله وبرسول الله وأهل رسوله عنك الغناء، والسلام على من اتبع الهدى»^(١).

لقد أراد محمد بن أبي بكر أن يذكر معاوية لعله يعقل الأمور وإذا كانت لهجة الخطاب بها قوة فإن هذه القوة دعوة ليتخطى معاوية حواجز النفس الأمارة بالسوء وينتصر على نفسه فيدخل فيما دخل فيه الناس لتحقق دماء المسلمين ويفوز برضا رب العالمين.. فماذا كان جواب معاوية؟

لقد كتب إلى محمد بن أبي بكر: من معاوية بن أبي سفيان إلى الزاري على أبيه محمد بن أبي بكر.. سلام على أهل طاعة الله.. أما بعد؛ فقد أتاني كتابك تذكر فيه ما الله أهله في قدرته وسلطانه وما اصطفى به نبيه مع كلام ألفته ووضعته لرأيك فيه تضعيف ولأبيك فيه تعنيف ذكرت حق ابن أبي طالب وقديم سابقته وقرابته من نبي الله ونصرته له ومواساته إياه في كل خوف وهول واحتجاجك علي وفخرك بفضلك لا بفضلك.. فأحمد إلها صرف ذاك الفضل عنك وجعله لغيرك فقد كنا وأبوك معنا في حياة نبينا نرى حق ابن أبي طالب لازما لنا وفضله مبرزاً علينا، فلما اختار الله لنبيه ما عنده وأتم له ما وعده، وأظهر دعوته وأفلج حجته قبضه الله إليه فكان أبوك وفاروقه أول من ابتزّه وخالفه على ذلك

(١) الجمل لزامن بن شدقم: ص ٨٩ عن الاختصاص: ص ١١٩ وجواب معاوية له.

اتفاقا واتسقا ثم دعواه إلى أنفسهما فأبطأ عنهما وتلكأ عليهما فهما به الهجوم وأرادا به العظيم فبايعهما وسلم لهما لا يشركانه في أمرهما ولا يطلعانه على سرهما حتى قبضا وانقضى أمرهما.

ثم أقاما بعدهما ثالثهما عثمان بن عفان يهتدي بهديهما ويسير بسيرتهما فعبته أنت وصاحبك حتى طمع فيه الأفاصي من أهل المعاصي وبطنتما له وظهرتما وكشفتما له عداوتكما وغلكما حتى بلغتما منه مناكما فخذ حذرک يا ابن أبي بكر فستري وبال أمرک وقس شبرک بفترك كقصر عن أن تساوي أن توازي من يزن الجبال بحلمه ولا تلين على قسر قناته ولا يدرك ذو مدى أناته أبوك مهد له مهاده وبنا ملكه وشاده فإن يكن ما نحن فيه صوابا فأبوك أولى وإن يكن جورا فأبوك أسه ونحن شركاؤه فبهديه أخذنا وبفعله اقتدينا ورأينا أباك فعل ما فعل فاحتدينا مثاله واقتدينا بفعاله فعتب أباك بما بدا لك أو دع.. والسلام على من أناب ورجع من غوايته وناب»^(١)

إن سياسة معاوية التي اعتمدها ليشكك بها في مناقب أمير المؤمنين علي عليه السلام لم تقف عند التشكيك والمتاجرة بحرب الجمل وإنما اندفعت نحو الخلافة لتسجل على أمير المؤمنين عليه السلام أي اعتراض يخدم القاسطين في بلوغ أهدافهم وعندما أدلى محمد بن أبي بكر بدلوه رغبة منه في الإصلاح كانت رسالة معاوية التهديدية إليه.

فمعنى الرسالة: أنك إذا تكلمت مسّ جذورك ما تقول وما تقوله لن يبطل دم عثمان وستتهتف الجماهير بالقصاص تكلمت أو صمت، ولن تجد الجماهير بديلاً عن اختيار المسلمين لأنفسهم ولكن محمد بن أبي بكر تكلم بدليل أن خطابه وخطاب معاوية إليه بين أيدينا في أكثر

(١) (ابن أبي الحديد ١/٦٣٢)

من مصدر ولقد ظهرت في الساحة قبل وبعد صفين أحاديث وأسئلة حائرة جاءت نتيجة لسياسة معاوية الإعلامية في هذا الباب.. وما كان لهذه الأسئلة أن تطرح في هذا الوقت العصيب الذي يبحث فيه الإمام علي عليه السلام عن وحدة الأمة لولا أن معاوية فتح لها الباب بغية أن تصب نتائجها المرجوة في سلته ولكن الرياح جاءت بما لا تشتهي السفن.

وصحيح أن هناك من سافر إلى معاوية وكان الدافع إلى سفرتهم الحصول على الأموال والدنيا وليس الاقتناع بما يقول، ولكن الأهم أن أهل البصائر فارقه بعد أن عرفوه، يقول أمير المؤمنين عليه السلام له في رسالة أثناء تلك الحملة الإعلامية: وأرديت (أهلكتهم) جيلاً من الناس كثيراً (أي صنفاً من الناس) خدعتهم بغيك (الضلال) وألقيتهم في موج بحرك تغشاهم الظلمات وتلاطم بهم الشبهات فجاروا (عدلوا عن القصد) عن وجهتهم (يقال: هذا وجهه الرأي، أي هو الرأي بنفسه) ونكصوا على أعقابهم وتولوا على أدبارهم وعولوا على أحسابهم (أي لم يعتمدوا على الدين وإنما أردتهم الحمية ونخوة الجاهلية فأخلدوا إليها وتركوا الدين) إلا مَنْ فاء من أهل البصائر فإنهم فارقوك بعد معرفتك وهربوا إلى الله من موازرتك إذ حملتهم على الصعب وعدلت بهم عن القصد، فاتق الله يا معاوية في نفسك وجاذب الشيطان قيادك فإن الدنيا منقطعة عنك والآخرة قريبة منك»^(١)

٢. الإمام علي عليه السلام يقيم الحجة

قلنا بأن أمير المؤمنين عليه السلام كان يتصرف بما يمليه عليه دينه وعقيدته التي لا تنزعزع، ويتصرف ضمن حدود الشرع المقدس لإقامة

(١) (ابن أبي الحديد ٧٦٧/٤)

الحجة على المخالفين له والساخطين لسياسته العادلة..

وأما ابن أبي سفيان فإنه يتصرف بما يملئ عليه هواه، ومصلحته الشخصية، وما يفوته يذكره اخاه وشريكه في المؤامرة والدهاء فما كانوا يدعون خصلة من خصال المكر والخديعة والغدر إلا ويأخذون بها من أجل الوصول إلى الحكم كل لما يرجوه..

فبينما أهل الشام يشقون طريقهم بمراكب الدهاء والكيد، كان الإمام علي عليه السلام يشق طريقه إليهم بمراكب البيان والحجة.. حتى لا تكون لهم حجة في يوم الحساب حيث لا يغني فيه الندم..

ومما بعث إليه الإمام عليه السلام رسالة جاء فيها: إن الله سبحانه جعل الدنيا لما بعدها، وابتلى فيها أهلها، ليعلم أيهم أحسن عملاً، ولسنا للدنيا خلقنا، ولا بالسعي فيها أمرنا، وإنما وضعنا فيها لنبتلي بها.. وقد ابتلاني الله بك وابتلاك بي؛ فجعل أحدنا حجة على الآخر.. فغدوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن، وطلبتني بما لم تجن يدي ولا لساني.. وعصبت أنت وأهل الشام بي، وألب عالمكم جاهلكم، وقائمكم قاعدكم..

فاتق الله في نفسك؛ ونازع الشيطان قيادك، واصرف إلى الآخرة وجهك، فهي طريقنا وطريقك، واحذر أن يصيبك الله منه بعاجل قارعة تمس الأصل، وتقطع الدابر.. فإني أولى (أقسم) لك بالله ألية غير فاجرة؛ لأن جمعتني وإياك جوامع الأقدار لا أزال بباحتك ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]^(١)

لقد أخبره أن الله جعل الدنيا طريقاً إلى الآخرة، وابتلى فيها أهلها

(١) (ابن أبي الحديد ٥/٩٨)

أي اختبرهم ليعلم أيهم أحسن عملاً، وأخبره بأن الإنسان لم يؤمر بالسعي في الدنيا لها، بل أمر بالسعي فيها لغيرها، وكشف له الحقيقة التي يدثرها شعار قميص عثمان، فقال: فغدوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن «أي تعديت وظلمت ومن هذا الظلم قولك: «أنا ولي عثمان.. وعلى طريق الظلم ألزمتني بما لم تجن يدي ولا لساني، وحرضتم الناس على هذا، ولكن لم يلتفت معاوية إلى هذه الحجة لأنها لاتهمه في شيء ومبلغ همه الكرسي والسلطان، فظل يتاجر بقميص عثمان المشؤوم فأرسل إليه الإمام عليه السلام رسالة أخرى، قال فيها: فسبحان الله؛ ما أشد لزومك للأهواء المبتدعة، والحيرة المتبعة، مع تضييع الحقائق واطراح الوثائق: التي هي لله تعالى طلبية، وعلى عباده حجة.. فأما إكثارك الحجاج على عثمان وقتلته، فإنك إنما نصرت عثمان حيث كان النصر لك، وخذلته حيث كان النصر له، والسلام»^(١)

ولقد رأينا كيف تتأقل معاوية عن نصره عثمان، وفي هذا التخاذل والتثاقل يقول البلاذري: وإنما صنع ذلك معاوية ليقتل عثمان فيدعوا إلى نفسه»^(٢)

ولم يكتف الإمام بإرسال الرسائل؛ وإنما بعث إليه بالصحابة ليقيموا عليه الحجة على امتداد الطريق إلى صفين.

روي أن الإمام بعث إليه عدي بن حاتم.. فقال عدي لمعاوية: إنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدماء ونصلح ذات البين، إن ابن عمك سيد المسلمين.. أفضلها سابقة وأحسنها في الإسلام أثراً، وقد استجمع له الناس، ولم يبق أحد غيرك وغير من معك..

(١) (ابن أبي الحديد ٧٨٤ / ٤)

(٢) (ابن أبي الحديد ٧٨٥ / ٤)

فاحذر يا معاوية أن يصيبك وأصحابك مثل يوم الجمل.

فقال له معاوية: كأنك إنما جئت متهدداً ولم تأت مصلحاً.. هيهات يا عدي.. كلا والله إني لابن حرب لا يقعق له بالسنان.. وإنك والله من المجلبين على عثمان وإنك من قتلته وإني لأرجو أن تكون ممن يقتله الله به.

فقال شعث وزيد بن خصفة: يا معاوية؛ جواباً واحداً، أتيناك فيما يصلحنا وإياك، فأقبلت تضرب لنا الأمثال، دع ما لا ينفع وأجبنا فيما نعلم نفعه..

وقال له يزيد بن قيس: إنا لم نأت إلا لنبلغك ما أرسلنا به إليك، ونؤدي عنك ما سمعنا منك، ولن ندع أن ننصح لك وأن نذكر ما يكون به الحجة عليك ويرجع إلى الألفة والجماعة.. إن صاحبنا من قد عرف المسلمون فضله ولا يخفى عليك؛ فاتق الله يا معاوية ولا تخالف، فإنا والله ما رأينا في الناس رجلاً قط أعمل بالتقوى ولا أزهد في الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه.

فقال لهم معاوية: إنكم دعوتكم إلى الطاعة والجماعة.. فأما الجماعة التي دعوتكم إليها فمعنا هي.. وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها..^(١)

وبعد عدي بن حاتم بعث إليه أبا عمر وبشير بن عمرو بن محصن وسعيد بن قيس؛ وعندما دخلوا عليه، قال بشير: يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة وإنك راجع إلى الآخرة، وإن الله محاسبك بعملك ومجازيك عليه، وإني أنشدك الله ألا تفرق جماعة هذه الأمة وألا تسفك دماءها بينها.

فقطع عليه معاوية الكلام، وقال: هلا أوصيت بذلك صاحبك؟

(١) (الكامل ١٤٨/٣، الطبري ٦/٢)

فقال أبو عمر: إن صاحبي ليس مثلك.. إن صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل، والدين، والسابقة في الإسلام، والقراة بالرسول ﷺ..

قال معاوية: فماذا يقول؟

فقال أبو عمر: يأمرك بتقوى الله وأن تجيب ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق، فإنه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة أمرك.

قال: ونترك دم ابن عفان؟ لا والله لا أفعل ذلك أبداً.

فبادره شبث بن ربعي وقال: يا معاوية إنك لم تجد شيئاً تستغوي به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك: (قتل إمامكم مظلوماً فنحن نطلب بدمه) فاستجاب لك سفهاء طغام، وقد علمنا أنك أبطأت عنه بالنصر، وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب، ورب متمن أمر وطالبه يحول الله دونه، وربما أوتي المتمني أمنيته وفوق أمنيته.. ووالله ما لك في واحدة منهما خير.. والله إن أخطأت ما ترجو إنك لشر العرب حالاً، ولئن أحببت ما تتمناه لا تصيبه حتى تستحق من ربك صلى النار، فاتق الله يا معاوية، ودع ما أنت عليه، ولا تنازع الأمر أهله..

فقال له معاوية: لقد كذبت ولؤمت أيها الأعرابي الجلف الجافي في كل ما ذكرت ووصفت.. انصرفوا من عندي وليس بيني وبينكم إلا السيف»^(١).

لم ينصت معاوية لصوت الحجة؛ لأن وصية أمه وأبيه وفتوى كعب الأخبار، كل ذلك كان قد استولى عليه، وما استولى عليه هذا إلا لأنه

(١) (ابن أبي الحديد ٧٨٥ / ٤)

يوافق هواه الذي تحت جلده.

٣. أهداف معاوية في حرب النفسية

للحرب النفسية أهداف في وقت السلم، وأهداف مختلفة في وقت الحرب، هي:

في وقت السلم تتلخص أهدافها بتحطيم العقائد، والأفكار، والمبادئ، والقيم الأخلاقية التي يتمسك بها المجتمع، ويعتز بها، إلى مناقضاتها من أفكار وقيم ومبادئ يؤمن بها العدو لينسلخ المجتمع عن أصالته، وينقلع من جذوره..

في ظروف المعركة والحرب؛ فإن أهدافها تتلخص بأمرين: التأثير على قوات العدو لإضعاف الروح المعنوية لديه.. وبالتالي حملهم على الإستسلام أو الفرار من أرض المعركة، وهذا يدعم ويقوي الروح المعنوية للقوات الصديقة..

وهنا نسأل: ما الذي أراده معاوية من حربه النفسية التي شنها على أمير المؤمنين عليه السلام قائد جيش الحق؟ ألم يهدف إلى تحطيم العقائد الإسلامية، والأفكار الإيمانية، والمبادئ الربانية، والقيم الأخلاقية للأمة الإسلامية كلها التي كان يمثلها ويمثلها الإمام علي عليه السلام بأجلى وأحلى تمثيل ممكن؟

ألم يحاول معاوية السفيناني أن يمسح الأمة الإسلامية من شريعتها، وأخلاقياتها، وبالتالي من دينها ليكونوا كمجتمعه الذين لا يميزون بين الناقة والجمال، ويكون دينهم وديدهم آل أبي سفيان وأخلاقياتهم الجاهلية؟

ألم يشوه صورة الرجل الثاني بالرسالة والتي قال به رسولها الكريم ﷺ آلاف مؤلفة من الأحاديث المتواترة فمنع التحدث بها وعاقب من يسمي باسم علي، ودفع آلاف الدراهم ليسمي رجلا فقط من بني هاشم ابنه باسم معاوية.. لماذا؟

ولماذا يسب ويشتم على منابر المسلمين من بني لهم المنابر وعلمهم الخطابة.. فلولا سيف علي ومال خديجة لم يقيم للإسلام عود، ولا ارتفع له في الحياة عمود.. ويدعى للشاني الأبتري، وسليل الشجرة الملعونة بالقرآن (بني أمية) وصبيان النار، والأوزاغ اللعناء على تلك المنابر؟

ولا أريد أن أطيل هنا وسأترك الحديث إلى دراسة مستقلة عسى ربي أن يعينني عليها فيما بعد بإذن الله تعالى.. ولكن علينا أن نتبصر لنرى الحقيقة بأم أعيننا، ولا نكون كابن النابغة نبيع ديننا بدنيا غيرنا، فالحقيقة يجب أن تظهر ونبينها للناس.. فأهداف معاوية كانت تدمير الإسلام ودفعه إن استطاع قتله وإلا فإنه سيئده وأداً كما صرح بهذه النية الخبيثة للمغيرة بن شعبة ذات ليلة..

فحاول مع أبيه وآله من طغاة قريش أن يدفنوا الإسلام في مهده إلا أن الله أخزاهم ونصر رسوله وأعز دينه بسيف الإمام علي عليه السلام حيث قطع الرؤوس وداس على الأذنان حتى قروا وخضعوا رغماً عن آنافهم وهم صاغرون.. إلا أن خلفاء السقيفة سلطوا رؤوس الأحزاب لكسبهم على هذه الأمة فاستغلوا السلطان والصولجان فدمروا الأمة وهدموا الإسلام الصحيح الذي بناه رسول الله ﷺ وأهل بيته الأطهار عليهم السلام، ووضعوا مكانه إسلاماً أموياً مشوهاً ممسوخاً كوجوههم.. فوا أسفاه.. ثم وا أسفاه عليك يا أمة الخير المرحومة..

وللعلم أنه كان في ذلك العصر المراسلة: هي واحدة من أهم أدوات الحرب النفسية والدعائية.. ففي ذلك العهد كانت وسائل الإعلام تقتصر على الخطب العامة والرسائل، ومن الطبيعي أن يكون للرسائل فاعلية إعلامية تفوق ما للخطابة، وربما استطعنا أن نقارب التأثير الإعلامي للرسائل في ذلك العصر بما للصحافة المعاصرة من موقع في وقتنا الحاضر.. فلقد بادر معاوية إلى شن حرب دعائية شاملة ضد الإمام قبل أن تبدأ لحظة الاشتباك العسكري المباشر معه وبلاستناد إلى مرتكزات نهجه السياسي رام معاوية من وراء الحرب النفسية هذه أن يهيئ الأرضية الاجتماعية للالتحام العسكري المباشر، حيث وظف في هذه الحرب آلية الخطابة لأهل الشام، وآلية الرسالة لغيرهم.. في الوقت ذاته، ولقد كان ينبغي من وراء حربه الدعائية تحقيق عدد من الأهداف، هي:

١. الهدف الأول لمعاوية كان ضرب الدين الإسلامي وهدمه وتجلى ذلك بتشويه صورة المثل الأعلى فيه ألا وهو الإمام علي عليه السلام الذي كان من رسول الله صلوات الله وسلاماته عليه كالضوء من الضوء..

ولذا ترى اتهام الإمام علي عليه السلام بقتل عثمان في رأس التهم (وعلي خير الناس لولا أنه قتل عثمان) كما قال لشرحبيل بن السمط.. والبواعث التي أملت على معاوية اتهام الإمام عليه السلام بقتل عثمان، فقد تمثلت - من جهة - بالطعن بأهلية الإمام في تسلم الخلافة ومقاليد الحكم.. كما تحركت - من جهة ثانية - باتجاه تمهيد الأجواء للاصطدام العسكري المباشر معه بذريعة الطلب بدم عثمان، ومن ثم تهيئة المناخ اللازم لوصول معاوية نفسه إلى السلطة.

كثيرة هي الوثائق التاريخية التي تثبت صحة هذا الادعاء؛ فقد انتهج معاوية هذه السياسة الشيطانية بوضوح حتى قبل مقتل عثمان، وذلك

حينما تباطأ عن نصرته، وقد بلغ من شدة جلاء هذا الأمر أن عثمان حينما رأى إهمال معاوية لمؤازرته برغم إصراره في أن يبعث إليه بقوة تحميه في مقابل الثائرين؛ قال له صراحة: «أردت أن أقتل فتقول: أنا ولي الثأر»^(١)!

٢. والهدف الثاني بالنسبة لمعاوية هو هدم المجتمع الإسلامي لتفريقه، وتشتيته، إلى فرق متناحرة، وطوائف متباغضة، ومذاهب متعددة.. وذلك تمثل ببذر جذور الفتنة حيث دفع الإمام عليه السلام للحديث ضد الخلفاء السابقين له.. ويعرف معاوية جيداً أن علياً عليه السلام يعد نفسه هو الخليفة بلا فصل بعد النبي صلى الله عليه وآله وأن الإمام علي عليه السلام يعتقد بأنه قد أصابه الظلم في هذه الواقعة، ولذلك اعتصم بمنزله وامتنع منبيعة أبي بكر ما دامت زوجته فاطمة الزهراء عليها السلام بضعة النبي صلى الله عليه وآله على قيد الحياة.

غير أن الإمام عليه السلام لم يكن يرى من المصلحة أن يجهر بهذا الأمر، لما يفضي إليه ذلك من وقوع الفرقة في المجتمع الإسلامي، وتصعد الكيان السياسي للمسلمين.. وفي هذا الاتجاه كانت إحدى أهداف معاوية من حربه الدعائية أن يدفع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام للتعريض بالخليفتين الأول والثاني، لكي يصير ذلك ذريعة إلى محاصرته أمام الرأي العام وإحراجه، ووسيلة إلى بث الفرقة بين أنصاره وأتباعه وغيرهم من أبناء الأمة الذين يرون صحة خلافة الشيخين..

ويقول النقيب أبو جعفر بهذا الشأن: «كان معاوية يتسقط عليا وينعى عليه ما عساه يذكره من حال أبي بكر وعمر، وأنهما غصباه حقه، ولا يزال يكيده بالكتاب يكتبه، والرسالة يبعثها يطلب غرته، لينفث بما في

(١) تاريخ يعقوبي: ج ٢/ ١٧٥.

صدره من حال أبي بكر وعمر، إما مكاتبة أو مراسلة، فيجعل ذلك حجة عليه عند أهل الشام.. فكانت هذه الطامة الكبرى ليست مقتصرة على فساد أهل الشام عليه، بل وأهل العراق الذين هم جنده وبطانته وأنصاره؛ لأنهم كانوا يعتقدون إمامة الشيخين، إلا القليل الشاذ من خواص الشيعة»

٣. والهدف الثالث لمعاوية كان الطعن بنظام الحكم الإسلامي (الطعن بالسياسة التي تخالف الهوى الأموي) ولذا فإنه راح يتبجح بأقواله ورسائله: أن بيعة الإمام علي عليه السلام لا تشمله لأنه لم يبايع، وأن البيعة ليست صحيحة لأنه وأهل الشام لم يبايعوا له..

والتعريض بشمولية بيعة الأمة للإمام (ع) واضح البطلان، وذلك من سعة البيعة من عموم الناس للإمام علي عليه السلام لا سيما المهاجرين والأنصار.. وهي واحدة من نقاط القوة البارزة التي اقترنت مع بداية حكمه، إذ لم يحظ أي من الخلفاء السابقين بمثل هذا الشمول.. وما كان يرمي إليه معاوية في حربه الدعائية هنا هو تشويه هذه النقطة والنيل من هذا المكسب، والإيحاء بأن عدم مبايعة أهل الشام للإمام (ع) هي دليل عدم شرعية خلافته والحقيقة أنه لا شأن للشام بالبيعة، وأما حديث الطلقاء فهي لا تصح لهم أبدا..

٤. والهدف الرابع لمعاوية بحربه النفسية هو نزع القداسة عن بني هاشم عامة، والنيل من قداسة أهل البيت (ع) والإمام علي عليه السلام خاصة.. في الوجدان الشعبي لأمة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.. ولقد كان معاوية على دراية تامة بأنه لا يستطيع مواجهة الإمام والوقوف ضده مع كل الرصيد الضخم الذي يحظى به أمير المؤمنين عليه السلام وما له من سابقة مشرقة في هذا الدين، إلا بتهديم تلك القداسة في الأذهان والنيل من هالته في الوجدان الشعبي، عبر عمل دعائي مكثف تتخلله عناصر التضليل

والخداع.. وما الرسائل التي بعث بها للإمام إلا خطوة في هذا الاتجاه،
ثم جاء سبه على المنابر استكمالاً لهذا النهج المقيت..

فما كانت الأمة لتسب أهل البيت الأطهار عليهم السلام الذين نزل ثلث
القرآن الكريم بفضلهم وفضائلهم، وتنادي بأهل البيت الأموي الشجرة
الملعونة في القرآن، لولا قلبت الآية رأساً على عقب.. بحيث يصير
رسول الله ﷺ من بني أمية وثلث القرآن يمدحهم، ومعاوية وأبو
سفيان هم الذين آووا ونصروا.. ويصير بني هاشم بمكانهم من العداء لله
ورسوله (والعياذ بالله)..

هكذا فعل معاوية بالأمة قلبها، وغير مفاهيمها، فصارت حزباً
لأعداء الله ورسوله من صبيان النار الأمويين، وحرباً لأهل البيت الأطهار
الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.. فراحت تسبهم على
المنابر التي شيدها بجهدهم ضد أولئك الحثالات من طغاة قريش..

ألا ترى أنه من مهازل الدنيا وسقوطها أن يكون أبوسفیان أسلم
وحسن إسلامه، وبل هو مؤمن خالص الإيمان (بالشيطان طبعاً)، وأما أبو
طالب عليه السلام بطل الإسلام الأول مات كافراً أو مشركاً، وأنه في ضحضاح
من النار يغلي بها رأسه.. ورحم الله من قال:

هبي يا أمة الغدر أني كافر

أدخل نار الحشر وابني قسيمها

أو ينسى طه الشفيع مودتي

يوم كان عندي يتيماً

الفصل الثاني

التحضير والمسير للمعركة

١. مسير جيش الحق

قيل: أن علياً عليه السلام استخلف عبد الله بن عباس على البصرة بعد معركة الناكثين، وسار منها إلى الكوفة، ونزل بها في يوم الإثنين الثاني عشر من رجب المرجب (فكان أول يوم من أيامه المباركة في الكوفي يصادف يوم ميلاده الشريف) وفيها بدأ يعدُّ العدة ويتهيأ إلى معركة (صفين)، فاستشار الناس في ذلك فأشار عليه قوم أن يبعث الجنود ويقيم.. وأشار آخرون بالمسير، فأبى إلا المباشرة بنفسه فجهز الناس وأرسلهم إلى النخيلة خارج الكوفة..

فبلغ ذلك معاوية فدعا عمرو بن العاص فاستشاره فقال: أما إذ بلغك أنه يسير فسر بنفسك ولا تغب عنه برأيك ومكيدتك.. قال: أما

إذا يا أبا عبد الله فجَهَّز الناس.. فجاء عمرو فحَصَّضَ الناس وضعَّفَ علياً وأصحابه.. وقال: إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوكتهم وفلوا حدهم، ثم إن أهل البصرة مخالفون لعلي قد وترهم وقتلهم، وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل، وإنما سار في شردمة قليلة، ومنهم مَنْ قد قتل خليفتك، فالله الله في حقكم أن تضيعوه وفي دمكم أن تبطلوه^(١)

١.١. الإستطلاع واستعراض القوة

يروى أن علياً عليه السلام لما أقام بالكوفة، واستعمل العمال وبعث علي عليه السلام الأشتر النخعي والياً على الموصل ونصيبين، ودارا، وسنجار، وآمد، وهيت، وعانات، وما غلب عليه من تلك الأرضين من أرض الجزيرة (السورية العليا)..
 وبعث مع الأشتر العديد من الكتائب ليدور في تلك المناطق

بهدف الإستطلاع وجمع المعلومات عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والمعيشية للناس في تلك المناطق، لأن مؤشرات الحرب بدأت تلوح في الأفق.. وكان أهم ما في الأمر من هذه الحركة السريعة لقوات أمير المؤمنين عليه السلام هو: إشعار الجميع والأصدقاء مع الأعداء أن أمير المؤمنين عليه السلام عازم على بسط نفوذه على كل مناطق الدولة الإسلامية رضي من رضي وأبى من أبى..
 وهذا الإستعراض يؤكد على العزم وعلى التمكين له كذلك.. أي أنه قادر ويستطيع أن يصل بقوته إلى كل المناطق بإذن الله..

وبعث معاوية بن أبي سفيان الضحاك بن قيس على ما في سلطانه

(١) راجع تاريخ الطبري: ج ٣ / ٥٦٢، تاريخ مدينة دمشق: ج ٢٢ / ٤٢٩.

من أرض الجزيرة، وكان في يديه حران والرقّة والرها وقرقيسيا. وكان مَنْ كان بالكوفة والبصرة من العثمانية قد هربوا فنزلوا الجزيرة في المناطق التي يسيطر عليها معاوية، فخرج الأشتر وهو يريد الضحّاك بن قيس بحران، فلما بلغ ذلك الضحّاك بعث إلى أهل الرقة فأمدوه بالرجال، وكان جل أهلها يومئذ عثمانية، فجاءوا وعليهم سماء بن مخرمة، وأقبل الضحّاك يستقبل الأشتر، فالتقى الضحّاك وسمّاك بن مخرمة، بمرج مرينا بين حران والرقّة، فرحل الأشتر حتى نزل عليهم فاقتتلوا اقتتالا شديدا حتى كان عند المساء، فهرب الضحّاك بن قيس بمن معه فसार ليلته كلها حتى صبح بحران فدخل حصنها وتحصّن به، وأصبح الأشتر فرأى ما صنعوا فتبعهم حتى نزل عليهم بحران فحاصرهم هناك..

وأتى الخبر معاوية فبعث إليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد أمير حمص في خيل يغيثهم، فلما بلغ ذلك الأشتر كتّب كتابه، وعبّا جنوده وخيله، وأراد أن يخوض معركته الفاصلة مع الضحّاك قبل أن يأتيه المدد فيختل التوازن ما بينه وبينهم، وبعد أن اتخذ وضع القتال، ناداهم الأشتر: ألا إن الحي عزيز، ألا إن الذمار منيع، ألا تنزلون أيها الثعالب الرواغة؟ احتجرتم احتجار الضباب..

فنادوا: يا عباد الله أقيموا قليلاً، علمتم والله أن قد أتيتم.. ولما يئس الأشتر من فتح الحصن تركهم ومضى بقواته حتى وصل إلى الرقة فتحرزوا منه، ثم مضى حتى مر على أهل قرقيسيا فتحرزوا منه، فقفل راجعا إلى الكوفة.. وبلغ عبد الرحمن بن خالد انصراف الأشتر فانصرف وقفل راجعا إلى الشام، وتلك المناوشات التي حدثت هناك هي أول المعارك ما بين الطرفين، وهي كانت بمثابة جس النبض، وعرض العضلات العسكرية لكل منهم.

ولما أراد أمير المؤمنين علي عليه السلام الخروج من النخيلة، قام في الناس خطيباً، فقال: الحمد لله غير مفقود النعم، ولا مكافأ الإفضال، وأشهد ألا إله إلا الله ونحن على ذلكم من الشاهدين، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلوات الله عليه؛ أما بعد ذلكم؛ فإني قد بعثت مقدماتي، وأمرتهم بلزوم هذا الملطاط^(١)، حتى يأتيهم أمري، فقد أردت أن أقطع هذه النطفة^(٢) إلى شردمة منكم موطنين بأكناف^(٣) دجلة، فأنهضهم معكم إلى أعداء الله إن شاء الله، وقد أمرت على المصر عقبة بن عمرو الأنصاري، ولم آلكم ولا نفسي، فإياكم والتخلف والتربص؛ فإني قد خلفت مالك بن حبيب اليربوعي، وأمرته ألا يترك متخلفاً إلا ألحقه بكم عاجلاً إن شاء الله^(٤).

فقام إليه معقل بن قيس الرياحي فقال: يا أمير المؤمنين! والله لا يتخلف عنك إلا ظنين، ولا يتربص بك إلا منافق، فأمر مالك بن حبيب أن يضرب أعناق المتخلفين، قال علي عليه السلام: قد أمرته بأمرى، وليس مقصراً في أمري إن شاء الله.. وأراد قوم أن يتكلموا فدعا بدابته فجاءته، فلما أراد أن يركب وضع رجله في الركاب وقال: «بسم الله». فلما جلس على ظهرها قال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ [الزخرف: ١٣ - ١٤]. ثم قال: اللهم إني أعوذ بك من وعشاء السفر، وكآبة المنقلب، والحيرة بعد اليقين، وسوء المنظر في الأهل والمال والولد.. اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، ولا

(١) حافة الوادي وساحل البحر.

(٢) الماء الفرات.

(٣) جوانب.

(٤) شرح النهج الحديدي: ج ٣/ ٢٠٠.

يجمعهما غيرك؛ لأن المستخلف لا يكون مستصحبا، والمستصحب لا يكون مستخلفا^(١)..

وفي الأخبار الطوال: لما أجمع علي عليه السلام على المسير إلى أهل الشام، وحضرت الجمعة، صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وآله، ثم قال: أيها الناس! سيروا إلى أعداء السنن والقرآن، سيروا إلى قتلة المهاجرين والأنصار، سيروا إلى الجفاة الطغام الذين كان إسلامهم خوفاً وكرهاً، سيروا إلى المؤلفة قلوبهم ليكفوا عن المسلمين بأسهم^(٢)..

وخرج أمير المؤمنين عليه السلام من الكوفة إلى ساحة التمرکز، ومقر التجمع في النخيلة، ليتسلم القيادة العامة لجيش الحق ويسير به إلى الشام لحرب القاسطين عن الدين.. ولما وصل إلى النخيلة تفقد القادة والرايات والجنود في المعسكرات حتى اطمأن..

ولما أراد الإمام علي عليه السلام الخروج من النخيلة والمسير خطب فيهم خطبة بليغة بالغة ومبلغة، ومما قال: الحمد لله كلما وقب ليل وغسق، والحمد لله كلما لاح نجم وخفق، والحمد لله غير مفقود الإنعام، ولا مكافأ الإفضال. أما بعد؛ فقد بعثت مقدمتي، وأمرتهم بلزوم هذا الملطاط، حتى يأتيتهم أمري، وقد رأيت أن أقطع هذه النطفة (الفرات) إلى شردمة منكم، موطنين أكناف دجلة، فأنهضهم معكم إلى عدوكم، وأجعلهم من أمداد القوة لكم^(٣)..

(١) نهج البلاغة: خ ٣٦٢، البحار: ج ٣٢/٣٩١.

(٢) موسوعة الإمام علي عليه السلام: للري شهري: ج ٦/٥٧ عن الفتوح: ج ٢/٥٥٠.

(٣) ن. م. عن صفين لابن مزاحم: ص ١٣٤.

٢٠١. محور مسيرة جيش الحق

كان العام في ربعه الأخير، والشتاء يوشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، ونسمات الهواء العليل تعلن مقدم الربيع، والسماء صافية، وأرسلت الشمس أشعتها على الكون، تزيدها المتأهبين إشراقاً وزهواً، وكان الطقس لطيفاً معتدلاً، وربما استعرض الإمام قواته وهي في منطقة تحشدتها، فقد كانت العادة قديماً تقضي أن يتم استعراض القوات قبل تحركها إلى أرض المعركة، تشجيعاً لهم، وإظهاراً وإبرازاً لقوتهم، ومضاء لأسلحتهم، وهيبة فرسانها وسطوتهم، وتأكيد العزم في قلوبهم وتعميق إصرارهم على المضي إلى الأرض التي سيحوزون فيها على المجد والنصر..^(١)

وخرج الإمام عليه السلام من الكوفة بعد أن أمّر عليها عقبة بن عمر الأنصاري، إلى النخيلة حيث المعسكر والتجمع ومنها كان الانطلاق إلى (بابل - كربلاء - ساباط - الأنبار - رب - هيت - قرقيسيا - الرقة - صفين حيث أرض المعركة) هذا هو محور التحرك ولا بد من وقفات ومحطات في هذا المسير الشاق الطويل، لجيش جرار ربما يصل تعداده إلى المائة ألف..

تحرك الإمام عليه السلام بجيشه من النخيلة في يوم الأربعاء، الخامس من شوال سنة ٣٦ للهجرة، فصلى ركعتين، وسار وكان أمامه الحر بن سهم بن طريف الربعي يحدوا ويقول:

يا فرسي سيري وأمي الشاما
وقطعي الحزون والأعلاما
ونابذي من خالف الإماما
إنني لأرجوا إن لقينا العاما

(١) (الإمام علي والحرب، للزبيدي، ص ١٤١)

جمع بني أمية الطغاما أن نقتل العاصي والهماما وأن نزيل من رجال الهاما

وسار الجيش حتى وصل إلى دير أبي موسى بقرب الكوفة فوقف
فصلى الإمام بالناس صلاة العصر، وتابع إلى أن وصل إلى شاطئ نرس،
فصلى بالناس صلاة المغرب..

١.٢.١. بابل:

تحرك القائد الملهم بجيشه وكان أنه يريد أن يجتاز بهم الفرات
باتجاه بابل لأخذ الرجال منها.. وبالفعل تحرك الجيش وقطع الفرات إلى
بابل ولكن بابل هي أرض مخسوفة ومغضوب عليها فما العمل؟ هناك
المعجزات تشهد للأولياء العظام..

٢.٢.١. رد الشمس بدعاء الإمام عليه السلام

عن ابن أبي مخنف يقول: إني لأنظر إلى أبي، مخنف بن سليم وهو
يساير عليا ببابل، وهو يقول: إن ببابل أرضا قد خسف بها، فحرك دابتك
لعلنا أن نصلي العصر خارجا منها.. فحرك دابته وحرك الناس دوابهم في
أثره، فلما جاز جسر الصراة نزل فصلى بالناس العصر، وعن عبد خير:
كنت مع علي أسير في أرض بابل، وحضرت الصلاة صلاة العصر،
فجعلنا لا نأتي مكانا إلا رأيناه أفيح^(١) من الآخر، حتى أتينا على مكان
أحسن ما رأينا، وقد كادت الشمس أن تغيب، فنزل علي عليه السلام ونزلت
معه، فدعا الله فرجعت الشمس كمقدارها من صلاة العصر، فصلينا

(١) أوسع

العصر، ثم غابت الشمس^(١)..

٣.٢.١. كربلاء:

وعاد الجيش من بابل وقطع الفرات باتجاه أرض المحن المقدسة، أرض الكرب والبلاء، (كربلاء).. فماذا جرى هناك؟

٤.٢.١. بكاء الإمام لما وصل إلى كربلاء

يروى: أن علياً عليه السلام عندما أتى كربلاء وقف بها، وسأل عنها، فقيل: يا أمير المؤمنين، هذه كربلاء.. فبكى بكاء شديداً، ثم قال: ذات كرب وبلاء.. ثم أوماً بيده إلى مكان، فقال: هاهنا موضع رحالهم، ومناخ ركابهم.. وأوماً بيده إلى موضع آخر، فقال: هاهنا مهراق دمائهم.. ولما سئل من عم يا أمير المؤمنين، فقال: ثقل لآل محمد.. ينزل هاهنا ويل لهم منكم، وويل لكم منهم^(٢).

وفي الفتوح: سار [علي عليه السلام] حتى نزل بدير كعب فأقام هنالك باقي يومه وليلته، وأصبح سائراً حتى نزل بكربلاء، ثم نظر إلى شاطئ الفرات وأبصر هنالك نخيلاً، فقال: يا بن عباس! أتعرف هذا الموضع؟ فقال: لا يا أمير المؤمنين! ما أعرفه.

فقال عليه السلام: أما إنك لو عرفته كمعرفتي لم تكن تجاوزه حتى تبكي لبكائي.. قال: ثم بكى علي (سلام الله عليه) بكاء شديداً، حتى اخضلت لحيته بدموعه وسالت الدموع على صدره، ثم جعل يقول: أواه! مالي ولآل أبي سفيان! ثم التفت إلى الحسين (سلام الله عليه) فقال: اصبر أبا

(١) شرح النهج الحديدي: ج ٣/ ١٦٨.

(٢) شرح النهج الحديدي: ج ٣/ ١٧١.

عبد الله! فلقد لقي أبوك منهم مثل الذي تلقى من بعدي^(١).

قال: ثم جعل علي (سلام الله عليه) يجول في أرض كربلاء كأنه يطلب شيئاً، ثم نزل ودعا بماء فتوضأ وضوء الصلاة، ثم قام فصلى ما شاء أن يصلي والناس قد نزلوا هنالك من قرب نينوى إلى شاطئ الفرات. قال: ثم خفق برأسه خفقة فنام وانتبه فرعاً.. فقال: يا بن عباس! ألا أحدثك بما رأيت الساعة في منامي؟

فقال: بلى يا أمير المؤمنين! فقال: رأيت رجالاً بيض الوجوه، في أيديهم أعلام بيض، وهم متقلدون بسيوف لهم، فخطوا حول هذه الأرض خطة، ثم رأيت هذه النخيل وقد ضربت بسعفها الأرض، ورأيت نهراً يجري بالدم العبيط، ورأيت ابني الحسين وقد غرق في ذلك الدم وهو يستغيث فلا يغاث، ثم إني رأيت أولئك الرجال البيض الوجوه الذين نزلوا من السماء وهم ينادون: صبرا آل الرسول صبرا! فإنكم تقتلون على أيدي أشرار الناس، وهذه الجنة مشتاقة إليك يا أبا عبد الله! ثم تقدموا إلي فعزوني وقالوا: أبشر يا أبا الحسن! فقد أقر الله عينك بابنك الحسين غدا يوم يقوم الناس لرب العالمين.

ثم إني انتبهت؛ فهذا ما رأيت، فو الذي نفس علي بيده! لقد حدثني الصادق المصدوق أبو القاسم عليه السلام أنني سأرى هذه الرؤيا بعينها في خروجي إلى قتال أهل البغي علينا، وهذه أرض كربلاء الذي يدفن فيها ابني الحسين وشيعته وجماعة من ولد فاطمة بنت محمد عليه السلام، وأن هذه البقعة المعروفة في أهل السماوات تذكر بأرض كرب وبلاء، وليحشرون منها قوم يدخلون الجنة بلا حساب..

ثم قال: يا بن عباس! اطلب لي حولها صيران الظباء، فطلبها ابن

(١) الفتوح: ج ٢/ ٥٥٢.

عباس فوجدها، ثم قال: يا أمير المؤمنين! قد أصبتها، فقال علي رضي الله عنه: الله أكبر! صدق الله ورسوله. ثم قام علي رضي الله عنه يهرول نحوها حتى وقف عليها، ثم أخذ قبضة من بعر الظباء فشمها، فإذا لها لون كلون الزعفران ورائحة كرائحة المسك، فقال علي رضي الله عنه: نعم هي هذه بعينها، ثم قال: أتعلم ما هذه يا بن عباس؟ قال: لا يا أمير المؤمنين! فقال: إن المسيح عيسى بن مريم قد مر بهذه الأرض ومعه الحواريون، فشم هذا البعر كما شممته، وأقبلت إليه الظباء حتى وقفت بين يديه، فبكى عيسى وبكى معه الحواريون وهم لا يدرون لماذا يبكي عيسى عليه السلام، فقالوا: يا روح الله! ما يبكيك؟ ولماذا اختلست ههنا؟ فقال لهم: أتعلمون ما هذه الأرض؟ قالوا: لا يا روح الله! فقال: هذه أرض يقتل عليها فرخ الرسول أحمد المصطفى وفرخ ابنته الزهراء قرينة الطاهرة البتول مريم بنت عمران، ثم ضرب بيده عيسى إلى بعر الظباء فشمه وقال: يا معشر الحواريين! هذا بعر الظباء على هذا الطيب لا [نه] كان [من] حشيش هذه الأرض، ثم مضى عيسى ابن مريم صلوات الله عليه وقد بقيت هذه البعرات إلى يومنا هذا من ذلك الدهر، حتى أنها قد اصفرت لطول الزمان عليها، فهذه أرض الكرب والبلاء. قال: ثم بكى علي رضي الله عنه وقال: يا رب عيسى! لا تبارك في قاتل ولدي والعنه لعنا كثيرا! ثم اشتد بكاء علي وبكى الناس معه حتى سقط على وجهه وغشي عليه، ثم أفاق فوثب فصلّى ثماني ركعات وسلم من كل ركعتين، فكلما سلم جعل يتناول من ذلك البعر فيشمه، ويقول: صبرا أبا عبد الله! صبرا يا ثمرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وريحانة حبيب الله! ثم أخذ كفا من ذلك البعر فصره في ثوبه وقال: لا يزال هذا مصرورا أبدا أو يأتي علي أجلي. ثم قال: يا بن عباس! إذا رأيتها من بعدي وهي تسيل دما عبيطا، فاعلم أن أبا عبد الله قد قتل. قال ابن عباس: فوالله لقد

كنت أشد تحافظا لها بعد علي بن أبي طالب وأنا لا أحلها عن طرفي^(١).

٥.٢.١. ساباط المدائن:

ثم مضى أمير المؤمنين عليه السلام بجيشه نحو ساباط بقرب المدائن حتى انتهى إلى مدينة بهرسير، وإذا رجل من أصحابه يقال له حر بن سهم بن طريف من بني ربيعة بن مالك، ينظر إلى آثار كسرى فيها، وهو يتمثل قول ابن يعفر التميمي:

جرت الرياح على مكان

ديارهم فكانما كانوا على ميعاد

فقال علي عليه السلام: أفلا قلت: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۖ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ ۖ﴾ (٢٧) ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۖ﴾ (٢٨) ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ۖ﴾ [الدخان: ٢٩]؟ إن هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا موروثين، إن هؤلاء لم يشكروا النعمة فسلبوا دنياهم بالمعصية، إياكم وكفر النعم لا تحل بكم النقم.. ثم قال: انزلوا بهذه النجوة^(٢)

وعند وصول الإمام إلى المدائن بعث معقل بن قيس الرياحي في ثلاثة آلاف مقاتل خيالة خفيفي الحركة وسيره على شاطئ دجلة شمالا إلى (الموصل إلى أعلى العراق، ثم إلى نصيبين شمال جبل سنجار، ثم يلتقي به في الرقة)، وقال له (عليه السلام) موصيا: خذ على الموصل، ثم انصبيين، ثم القني بالركة، فإني موافيهما، وسكن الناس وأمنهم (أي هدى الناس ولا تروعهما)، ولا تقاتل إلا من قاتلك، وسر البردين (صباحا

(١) الفتوح لابن الأعمش: ج ٢ ص ٥٥٣.

(٢) شرح النهج الحديدي: ج ٣/٢٠٢، والنجوة: المرتفع من الأرض.

وعصرا)، وغور الناس (أرحهم) وأقم الليل (لينا المقاتلون) ورفه بالسير (السير بسهولة) ولا تسر في الليل فإن الله جعله سكناً، أرح فيه بدنك، وجندك، وظهرك (الخيول)، فإذا كان السحر أو حين ينبطح الفجر فسر..^(١)

وعن الأصمغ بن نباتة: إن رجلاً سأل علياً بالمدائن عن وضوء رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام، فدعا بمخضب من برام قد نصفه الماء. قال علي (عليه السلام): من السائل عن وضوء رسول الله ﷺ؟ فقام الرجل، فتوضأ علي ثلاثاً، وثلاثاً، ومسح برأسه واحدة، وقال: هكذا رأيت رسول الله يتوضأ^(٢).

وعن حبة العرنبي قال: أمر علي بن أبي طالب عليه السلام الحارث الأعور فصاح في أهل المدائن: مَنْ كان من المقاتلة فليواف أمير المؤمنين صلاة العصر.. فوافوه في تلك الساعة، فحمد الله وأثنى عليه وقال: أما بعد فإنني قد تعجبت من تخلفكم عن دعوتكم، وانقطاعكم عن أهل مصركم في هذه المساكن الظالم أهلها، والهالك أكثر سكانها، لا معروفًا تأمرون به، ولا منكراً تنهون عنه.

قالوا: يا أمير المؤمنين! إنا كنا ننتظر أمرك ورأيك، مرنا بما أحببت.. فسار وخلف عليهم عدي بن حاتم، فأقام عليهم ثلاثاً ثم خرج في ثمانمائة، وخلف ابنه يزيد فلحقه في أربعمئة رجل منهم، ثم لحق علياً.. بعد أن ولى عليها (سعد بن مسعود) عم المختار الثقفي.. وكان حادي أمير المؤمنين عليه السلام فيها النابغة الجعدي..^(٣)

(١) صفين لابن مزاحم: ص ١٤٩.

(٢) ن. م.: ص ١٤٦.

(٣) (الكامل في التاريخ: ٢٨٠/٣)

٦.٢.١. الأنبار:

وسار الجيش باتجاه الشمال الغربي على شاطئ الفرات حتى مر بالأنبار، (وكان معظم أهلها من بقايا الفرس) فاستقبله بنو خشنوشك دهاقنتها، فلما استقبلوه نزلوا ثم جاؤوا يشتدون معه، قال عليه السلام: ما هذه الدواب التي معكم؟ وما أردتم بهذا الذي صنعتكم؟ قالوا: أما هذا الذي صنعنا فهو خُلُقٌ منا نُعْظَمُ به الأمراء.. وأما هذه البراذين فهديّة لك، وقد صنعنا لك وللمسلمين طعاما، وهيانا لدوابكم علفا كثيرا.

قال عليه السلام: أما هذا الذي زعمتم أنه منكم خُلُقٌ تعظمون به الأمراء فوالله، ما ينفع هذا الأمراء، وإنكم لتشقون به على أنفسكم وأبدانكم، فلا تعودوا له.. وأما دوابكم هذه فإن أحببتم أن نأخذها منكم فنحسبها من خراجكم أخذناها منكم.. وأما طعامكم الذي صنعتكم لنا فإننا نكره أن نأكل من أموالكم شيئا إلا بثمن.

قالوا: يا أمير المؤمنين، نحن نقوّمه (أي نحن من يضع السعر له) ثم نقبل ثمنه.

قال عليه السلام: إذاً لا تقومونه قيمته، ونحن نكتفي بما دونه.

قالوا: يا أمير المؤمنين، فإن لنا من العرب موالي ومعارف، فتمنعنا أن نهدي لهم وتمنعهم أن يقبلوا منا؟

قال: كل العرب لكم موال، وليس ينبغي لأحد من المسلمين أن يقبل هديتكم، وإن غصبكم أحد فأعلمونا.

قالوا: يا أمير المؤمنين، إنا نحب أن تقبل هديتنا وكرامتنا.

قال لهم (عليه السلام): ويحكم، نحن أغنى منكم.. فتركهم ثم

سار عنهم^(١)، ولكن هل ترك المولى الأنبار بلا علامة شاهدة، ومعجزة باهرة؟

٧.٢.١. خبر ماء الدير

جاء في الفتوح: أقام الإمام علي (سلام الله عليه) بالأنبار يومين، فلما كان في اليوم الثالث سار بالناس في برية ملساء، وعطش الناس واحتاجوا إلى الماء.. قال: وإذا براهب في صومعته، فدنا منه علي (سلام الله عليه) وصاح به فأشرف عليه، فقال له علي (سلام الله عليه): هل تعلم بالقرب منك ماء نشرب منه؟

فقال: ما أعلم ذلك، وإن الماء ليحمل إلينا من قريب من فرسخين. قال: فتركه علي (سلام الله عليه) وأقبل إلى موضع من الأرض فطاف به، ثم أشار إلى مكان منه، فقال: احفروا ههنا.

فحفروا قليلاً وإذا هم بصخرة صفراء كأنما طليت بالذهب، وإذا هي على سبيل الرحى لا ينقلها إلا مائة رجل.. فقال علي (سلام الله عليه): اقلبوها فالماء من تحتها.

فاجتمع الناس عليها فلم يقدرُوا على قلبها؛ قال: فنزل علي (سلام الله عليه) عن فرسه، ثم دنا من الصخرة وحرك شفتيه بشيء لم يُسمع، ثم دنا من الصخرة، وقال: باسم الله، ثم حركها ورفعها فدحاها ناحية.

قال: فإذا بعين من الماء لم ير الناس أعذب منها ولا أصفى ولا أبرد، فننادى في الناس أن «هلموا إلى الماء». قال: فورد الناس فنزلوا وشربوا وسقوا ما معهم من الظهر (دواب)، وملئوا أسقيتهم، وحملوا من الماء ما أرادوا.. ثم حمل الصخرة وهو يحرك شفتيه بمثل كلامه الأول حتى ردَّ

(١) صفين لابن مزاحم: ص ١٤٣، البحار: ج ٣٢/ ٤٢٤.

الصخرة إلى موضعها.

ثم سار حتى نزل في الماء الذي أرادوا وإذا ماؤه متغير، فقال علي (سلام الله عليه) لأصحابه: أ فيكم مَنْ يعرف مكان الماء الذي يتم عليه؟ فقالوا: نعم يا أمير المؤمنين.. قال: فانطلقوا إليه، فطلبوا مكان الصخرة فلم يقدروا عليه؛ فانطلقوا إلى الراهب فصاحوا به: يا راهب! فأشرف عليهم، فقالوا: أين هذا الماء الذي هو بالقرب من ديرك؟ فقال الراهب: إنه ما بقربي شيء من الماء! فقالوا: بلى! قد شربنا منه، نحن وصاحبنا، وهو الذي استخرج لنا الماء وقد شربنا منه.

فقال الراهب: والله ما بني هذا الدير إلا بذلك الماء، وإن لي في هذه الصومعة منذ كذا سنة ما علمت بمكان هذا الماء، وإنها عين يقال لها عين (راحوما)، ما استخرجها إلا نبي أو وصي نبي، ولقد شرب منها سبعون نبياً وسبعون وصياً.. قال: فرجعوا إلى علي (سلام الله عليه) فأخبروه بذلك، فسكت ولم يقل شيئاً.^(١)

ذكره في شرح نهج البلاغة - في صفة قوة الإمام عليه السلام -... وهو الذي اقتلع الصخرة العظيمة في أيام خلافته عليه السلام بيده بعد عجز الجيش كله عنها وأنبط الماء من تحتها..

٨.٢.١. هيت:

وسار جيش الحق على شاطئ الفرات مارا (بهيت)..

٩.٢.١. حديث:

واستمر بالسير محازيا الفرات حتى وصل (الحديثة)..

(١) الفتوح لابن الأعمش: ج ٢/٥٥٥، صفين لابن مزاحم: ص ١٤٥.

١٠.٢.١. عانات (أو عانة) ..

١١.٢.١. قرقيسيا:

التي تقع بالقرب من مصب نهر الخابور في الفرات.. وكل ذلك كان على الشاطئ الشرقي للفرات، حتى وصل الرقة.

١٢.٢.١. بليخ:

وهي قرية على الفرات وإليها ينسب نهر البليخ.. فقد جاء في الفتوح: ونظر إليه [الإمام علي عليه السلام] راهب كان هنالك في صومعة له، فنزل من الصومعة وأقبل إلى الإمام علي (سلام الله عليه)، فأسلم على يده المباركة؛ ثم قال: يا أمير المؤمنين! إن عندنا كتابا توارثناه عن آبائنا، يذكرون أن عيسى بن مريم عليه السلام كتبه، فأعرضه عليك؟ قال علي (سلام الله عليه): نعم فهاته. فرجع الراهب إلى الصومعة وأقبل بكتاب عتيق قد كاد أن يندرس، فأخذه علي عليه السلام وقبله، ثم دفعه إلى الراهب، فقال: اقرأه علي!

فقرأه الراهب على علي (سلام الله عليه)، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، الذي قضى فيما قضى وسطر فيما سطر، أنه باعث في الأميين رسولا منهم يعلمهم الكتاب والحكمة، ويدلهم على سبيل الرشاد، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب (صياح) في الأسواق، لا يجزي السيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح، أمته الحامدون الذين يحمدون الله على كل حال في هبوط الأرض وصعود الجبال، ألسنتهم مذلة بالتسبيح والتقديس والتكبير والتهليل، ينصر الله هذا النبي على من ناواه؛ فإذا توفاه الله اختلفت أمته من بعده، ثم يلبثون بذلك ما شاء الله؛ فيمر رجل من أمته بشاطئ هذا

النهر، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، يقضي بالحق ولا يرتشي في الحكم، الدنيا عليه أهون من شرب الماء على الظمآن، يخاف الله عَزَّوَجَلَّ في السرِّ وينصح الله في العلانية، ولا يأخذه في الله لومة لائم، فمن أدرك ذاك النبي فليؤمن به، فمن آمن به كان له رضوان الله والجنة، ومن أدرك ذلك العبد الصالح فلينصره فإنه وصي خاتم الأنبياء، والقتل معه شهادة.

قال: ثم إنه أقبل هذا الراهب على عليٍّ عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين! إنني أصاحبك لا أفارقك أبداً حتى يصيبني ما أصابك. قال: فبكى علي (سلام الله عليه)، ثم قال: الحمد لله الذي ذكرني عنده في كتب الأبرار. قال: ثم سار وهذا الراهب معه، فكان يتغدى ويتعشى مع الإمام عليٍّ عليه السلام؛ حتى صار إلى صفين، فقاتل فُقتل، فقال عليٍّ عليه السلام لأصحابه: اطلبوه! فطلبوه فوجدوه، فصلى عليه علي (سلام الله عليه) ودفنه واستغفر له، ثم قال: هذا منا أهل البيت^(١).

١٣.٢.١. الرقة:

وكان معظم أهلها من الذين فروا من الكوفة برأيهم وأهوائهم إلى معاوية، فأقفلوا أبوابها وتحصنوا فيها، وكان أميرهم سماك بن مخزومة الأسدي في طاعة معاوية، وقد فارق الإمام عليٍّ عليه السلام في نحو مائة رجل من بني أسد، ثم أخذ يكاتب قومه حتى لحق به منهم سبعمائة رجل).

وأراد أمير المؤمنين عليه السلام أن يقطع الفرات في الرقة لينزل أرض صفين، فأمر أهل الرقة أن ينصبوا له الجسر كي يعبر بالجيش، فلم يفعلوا، وأبعدوا سفنهم عن الأنظار فتركهم الإمام عليه السلام وتوجه شمالاً قاصداً جسر منبج، حيث تركهم ونادى في أصحابه: نمضي لكي نعبر

(١) الفتوح لابن الأعمش: ج ٢/٥٥٦، صفين لابن مزاحم: ص ١٤٧ قريباً منه.

على جسر منبج^(١)..

وهنا يُظهر الإمام علي عليه السلام خلقاً قلّ نظيره بين القادة على مرّ التاريخ، حيث لم يعاقبهم ولم يجبرهم على شيء بل تركهم وأراد أن يكلف جيشه مشقة بالوصول إلى منبج والعودة إلى صفين..

ولكن قائد القوات الحيدرية البطل مالك الأشتر الذي حاربه سماك بأهل الرقة عندما رأى هذه الأخلاق السيئة منهم، ناداهم: يا أهل هذا الحصن إني أقسم بالله؛ لئن مضى أمير المؤمنين عليه السلام ولم تجسّروا له عند مدينتكم حتى يعبر منها، لأجردنّ فيكم السيف، ولأقتلن مقاتليكم، ولأخربن أرضكم، ولأخذن أموالكم)..

فلما سمعوا مقالته وعرفوا أنه الأشتر، قالوا: إن الأشتر يفي بما يقول، فدعونا نجسّر لهم جسراً يعبرون منه.. وهكذا نصبوا الجسر على الفرات، وبعث الأشتر إلى أمير المؤمنين عليه السلام ليعود ويعبر من الرقة التي نصبت له الجسر، وعاد الجيش وعبر كله بالأحمال والأثقال، وعبر الناس بأجمعهم، والإمام علي عليه السلام واقف في ألف فارس من أصحابه، ثم عبر آخر الناس، وكان بحمايته الأشتر مع ثلاثة آلاف مقاتل لضمان عدم الغدر حتى كان آخر من عبر الجسر ماشياً على الأقدام مالك الأشتر.. وربما ترك الإمام القائد (عليه السلام) قوة ثابتة لحماية الجسر حتى نهاية المعركة لضمان الامداد وسلامة طريق العودة^(٢)..

١٤.٢.١. صفين:

ما أن اجتاز الجيش العلوي الشريف الفرات حتى نزل بأرض صفين

(١) (الفتوح لابن الأعمش: ج ٢/ ٥٦٤).

(٢) تاريخ الطبري: ج ٤/ ٥٦٥، شرح النهج الحديدي: ج ٣/ ٢١١.

بالطرف المقابل للركة، وعسكر هناك الجيش فما الذي حصل بصفين؟ وما أن وصلت القوات الإسلامية إلى أرض المعركة حتى راحت تتمركز بها وتنصب الخيام وترفع الألوية، وحسب التقسيمات المتخذة من القادة على مختلف المستويات، وما أن استقر القرار بقائد جيش الحق هناك حتى استشار ذوي الرأي ممن معه بالعمل.. فقالوا: الرأي أن تكتب كتابا من جديد إلى معاوية ومن معه من قريش عليهم يرفعون إلى الحق، فوافق أمير المؤمنين عليه السلام على هذا الرأي رغم علمه اليقيني بالرفض لأي عرض من أولئك الأجلاف..

فكتب الإمام عليه السلام هذا الكتاب إلى معاوية ومن معه من قريش:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية وإلى من قبله من قريش؛ سلام عليكم.. فإني أحمد الله إليكم الله الذي لا إله إلا هو.. أما بعد، فإن لله عبادة آمنوا بالتنزيل، وعرفوا التأويل، وفقهوا في الدين، وبيّن الله فضلهم في القرآن الحكيم، وأنتم في ذلك الزمان أعداء لرسول الله ﷺ، تكذبون بالكتاب، مجمعون على حرب المسلمين، من ثقفتهم منهم حبستموه أو عذبتموه أو قتلتموه، حتى أراد الله إعزاز دينه وإظهار رسوله، ودخلت العرب في دينه أفواجا، وأسلمت له هذه الأمة طوعاً وكرهاً، وكنتم ممن دخل في هذا الدين إما رغبة وإما رهبة، على حين فاز أهل السبق بسبقهم وفاز المهاجرون الأولون بفضلهم.

فلا ينبغي لمن ليست له مثل سوابقهم في الدين ولا فضائلهم في الإسلام، أن ينازعهم الأمر الذي هم أهله وأولى به، فيحوب^(١) بظلم..

(١) الحوب: الإثم.

ولا ينبغي لمن كان له عقل أن يجهل قدره، ولا أن يعدو طوره، ولا أن يشقي نفسه بالتماس ما ليس له.. ثم إن أولى الناس بأمر هذه الأمة قديماً وحديثاً، أقربها من رسول الله ﷺ، وأعلمها بالكتاب وأفقهها في الدين، وأولها إسلاماً وأفضلها جهاداً وأشدّها بما تحمله الرعية من أمورهما اضطلاعاً.. فاتقوا الله الذي إليه ترجعون، ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

واعلموا أن خيار عباد الله الذين يعملون بما يعلمون، وأن شرارهم الجاهل الذين ينازعون بالجهل أهل العلم، فإن للعالم بعلمه فضلاً، وإن الجاهل لن يزداد بمنازعة العالم إلا جهلاً.. ألا وإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وحقن دماء هذه الأمة.. فإن قبلتم أصبتم رشدكم، واهتديتم لحظكم، وإن أبيتم إلا الفرقة وشق عصا هذه الأمة فلن تزدادوا من الله إلا بعداً، ولن يزداد الرب عليكم إلا سخطاً.. والسلام^(١).

فكتب إليه معاوية: أما بعد؛ فإنه:

ليس بيني وبين قيس عتاب غير

طعن الكلى وضرب الرقاب

فقال علي عليه السلام عندما قرأ هذا الشعر: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]

٣.١ حركة المقدمة لجيش الحق

لابد للجيش من مقدمة تكون من خيرة الفرسان، ولا بد للمقدمة من طلائع ومفارز استطلاع خفيفة الحركة لتأمين حركة الجيش وسلامته من المفاجآت الغير متوقعة.. كما فصلنا في بحوث الحرب من قبل..

(١) صفين لابن مزاحم: ص ١٤٩، الكتاب والجواب، السياسة والإمامة: ج ١/ ٦٨.

فعندما أراد أمير المؤمنين عليه السلام الخروج من النخيلة دفع بمقدمته أمامه وهي فرقة بتعداد (١٢٠٠٠ في اثني عشر ألفا) بقيادة كل من (زياد بن النضر) على (٨٠٠٠ ثمانية آلاف) و(شريح بن هاني) في (٤٠٠٠ أربعة آلاف) وأمرهم أن يلزموا الجانب الغربي من نهر الفرات، وكتب لهما التعليمات القتالية التالية، وهي بالحقيقة وثيقة عمل رائعة لقادة الطلائع في أي قوات قديماً وحديثاً..

(بسم الله الرحمن الرحيم)

من عبد الله علي أمير المؤمنين.. إلى زياد بن النضر وشريح بن هاني.. سلام عليكما.. فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإني قد وليت مقدمتي زياد بن النضر وأمرته عليها، وشريح بن هاني على طائفة منها أمير، فإن جمعكما بأس(قتال) فزياد بن النضر على الناس، وإن افترقتما فكل واحد منكما أمير الطائفة التي وليناه أمرها..

وإعلمنا أن مقدمة القوم عيونهم، وعيون المقدمة طلائعهم، فإذا أنتما خرجتما من بلادكما فلا تسأما من توجيه الطلائع ومن نفص الشعاب والشجر والخمر من كل جانب.. كي لا يفتركما عدو، أو يكون لكما كمين.. ولا تسيرن الكتائب القبائل من لدى الصباح الى المساء إلا على تعبئة.. فإن دهمكم واهم أو غشيكم مكروه كنتم قد تقدمتم في التعبئة.. وإذا نزلتم بعدو أو نزل بكم فليكن معسكركم في قبل الأشراف أو سفاح الجبال أو أثناء الأنهار.. كي ما يكون ذلك لكم رداء وتكون مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين.. واجعلوا رقباءكم في صياصي الجبال وبأعلى الأشراف ومنا كب الهضاب.. يرون لكم لئلا يأتيكم عدو من مكان مخافة أو أمن.. وإياكم والتفرق فإذا نزلتم فإنزلوا جميعا وإذا رحلتم فارحلوا جميعا وإذا غشيكم ليل فنزلتم.. فحفوا عسكركم بالرماح والأترسة ورماتكم يلون

ترستكم ورماحكم.. وما أقمتكم فكذلك فإفعلوا كي لا تصاب لكم غفلة ولا تُلْفَى منكم غُرَّة فما قوم حَفُّوا عسكرهم برماحهم وترستهم من ليل أو نهار إلا كانوا كأنهم في حصون.. وإحرسا عسكركما بأنفسكما وإياكما أن تذوقا نوباً حتى تصبحا إلا غراراً أو مضمضة ثم ليكن ذلك شأنكما ورأيكما حتى تنتهيا الى عدوكم.. وليكن عندي كل يوم خبركما ورسول من قبلكما فإني ولا شيء إلا ما شاء الله حثيت السير في آثاركما عليكما في حربكما بالتؤدة وإياكم والعجلة إلا أن تمكنكم فرصة بعد الإعذار والحجة وإياكما أن تقاتلا حتى أقدم عليكما.. إلا أن تبدأ أو يأتكما أمري إن شاء الله.. والسلام..(١)

إنظر الى هذا البيان الرائع وهذا العلم الواسع بالأمور الحربية.. فهذه الأمور والقضايا هي من مهام الطليعة وتدرس الى اليوم في أحدث أكاديميات العالم العسكرية.. إن مهمة الطليعة وتقسيمها وحراستها وتأمينها هو هذا ولا شيء سواه إلا في الجزئيات البسيطة من حيث الأسلحة الحديثة..

في تاريخ الطبري عن خالد بن قطن الحارثي: وقد كانا حيث سرحهما من الكوفة أخذنا على شاطئ الفرات من قبل البر مما يلي الكوفة حتى بلغا عانات، فبلغهما أخذ الإمام علي عليه السلام على طريق الجزيرة، وبلغهما أن معاوية قد أقبل من دمشق في جنود أهل الشام لاستقبال علي عليه السلام فقالا: لا والله، ما هذا لنا برأي أن نسير وبيننا وبين المسلمين وأمير المؤمنين عليه السلام هذا البحر(الفرات)! وما لنا خير في أن نلقى جنود أهل الشام بقله من معنا منقطعين من العدد والمدد. فذهبوا ليعبروا من عانات، فمنعهم أهل عانات وحبسوا عنهم السفن، فأقبلوا راجعين حتى

(١) نصر بن مزاحم صفين ص ١٢٥ الإمام علي والحرب ص ٧٧

عبروا من هيت، ثم لحقوا علياً عليه السلام بقرية دون قرقيسياء، ولما لحقت المقدمة علياً عليه السلام قال: مقدمتي تأتيني من ورائي؟! فتقدم إليه زياد بن النضر الحارثي، وشريح بن هانئ فأخبراه بالذي رأيا حين بلغهما من الأمر ما بلغهما. فقال: سُددتما (أو قد أصبتما رشدكما)^(١).

٤.١. أول قتال في صفين

ومضى الإمام علي عليه السلام بجيشه فلما عبر الفرات في الرقة قدمهما أمامه نحو صفين، فلما انتهيا إلى سور الروم لقيهما أبو الأعور السلمي عمرو بن سفيان في جند من أهل الشام، فأرسلا إلى الإمام علي عليه السلام: إنا قد لقينا أبا الأعور السلمي في جند من أهل الشام وقد دعوناهم (للطاعة) فلم يجبنا منهم أحد فمرنا بأمرك.

فأرسل الإمام علي عليه السلام إلى الأشتر فقال: يا مالك، إن زياداً وشريحاً أرسلا إليّ يعلماني أنهما لقيا أبا الأعور السلمي في جمع من أهل الشام، وأنبأني الرسول أنه تركهم متواقفين، فالتجاء إلى أصحابك النجاء، فإذا قدمت عليهم فأنت عليهم وإياك أن تبدأ القوم بقتال إلا أن يبدؤوك حتى تلقاهم فتدعوهم وتسمع، ولا يجرمك شأنهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم مرة بعد مرة، واجعل على ميمتك زياداً وعلى ميسرتك شريحاً وقف من أصحابك وسطاً، ولا تدن منهم دنو من يريد أن ينشب الحرب، ولا تباعد منهم بُعد من يهاب البأس حتى أقدم عليك، فإني حثيث السير في أثرك إن شاء الله.

وكان الرسول بينهما الحارث بن جمهان الجعفي فكتب علي عليه السلام إلى زياد وشريح: أما بعد، فإني قد أمرت عليكما مالكا فاسمعا له

(١) ن.م.

وأطيعا، فإنه ممن لا يُخاف رَهقه ولا سقاطه ولا بطؤه عما الإسراع إليه أحزم، ولا الإسراع إلى ما الإبطاء عنه أمثل، وقد أمرته بمثل الذي كنت أمرتكما به ألا يبدأ القوم حتى يلقاهم فيدعوهم ويعذر إليهم..^(١)

٢. مسير جيش القاسطين

من يقرر الحرب يعد لها عدتها، ويأخذ أهبتها فكيف من كان يخطط لهذا اليوم من عقدين من الزمان؟ فكيف سار معاوية بجيوشه الجرارة إلى صفين؟ وما هي أهم مواضع التحرك لديه؟

١.٢ معاوية بن أبي سفيان (في الشام)

إن المحور الذي تحرك عليه الجيش السفيناني كان: دمشق، حمص، حماه، ثم صفين)، فكيف كان سير الأمور في الشام؟

قيل: أنه لما بلغ عمرو بن العاص ما صنع أمير المؤمنين عليه السلام بالأموال المصادرة بعد مقتل عثمان، حيث كان بأيلة من أرض الشام، أتاه حين وثب الناس على عثمان فنزلها فكتب إلى معاوية: ما كنت صانعاً فاصنع.. إذا قشرك ابن أبي طالب من كل مال تملكه كما تقشّر عن العصا لحاها^(٢)..

فكتب معاوية إلى عمرو وهو بالبيع من فلسطين: أما بعد؛ فإنه كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك.. وقد سقط إلينا مروان بن الحكم في رافضة أهل البصرة، وقدم علينا جرير بن عبد الله في بيعة علي، وقد حبست نفسي عليك حتى تأتيني.. أقبل أذاكرك أمرا.

(١) تاريخ الطبري: ج ٤/٥٦٦، صفين: ص ١٥٢.

(٢) شرح النهج الحديدي: ج ١/٢٧٠.

فلما قرئ الكتاب على عمرو استشار ابنه عبد الله، ومحمداً، فقال:
ابني، ما تريان؟

فقال عبد الله: أرى أن نبي الله ﷺ قبض وهو عنك راضٍ، والخليفتان من بعده، وقتل عثمان وأنت عنه غائب، فقرّر في منزلك فلستَ مجعولاً خليفةً، ولا تريد أن تكون حاشيةً لمعاوية على دنيا قليلة، أو شك أن تهلك (تموت) فتشقى فيها.

وقال محمد: أرى أنك شيخ قريش وصاحب أمرها، وإن تصرّم هذا الأمر وأنت فيه خامل تصاغر أمرك، فالحق بجماعة أهل الشام فكن يداً من أيديها، واطلب بدم عثمان، فإنك قد استنمت فيه إلى بني أمية.

فقال عمرو: أما أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي في آخرتي وأسلم لي في ديني، وأما أنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي وشر لي في آخرتي..^(١)

وقرر ابن النابغة أن يكون مع أخيه بالخبت والدهاء معاوية فخرج ومعه ابنه حتى قدم على معاوية، وهو يبكي كما تبكي المرأة، وهو يقول: وا عثماناه؛ أنعى الحياء والدين.. حتى قدم دمشق، فوجد أهل الشام يحضّون معاوية على الطلب بدم عثمان، فقال عمرو بن العاص: أنتم على الحق، اطلبوا بدم الخليفة المظلوم.. ومعاوية لا يلتفت إلى قول عمرو..

فقال لعمرو ابنه: ألا ترى معاوية لا يلتفت إليك؟ فانصرف إلى غيره.. فدخل عمرو على معاوية، فقال له: والله لعجب لك.. إني أرفدك ما أرفدك وأنت معرض عني، أما والله إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة

(١) (الكامل في التاريخ: ٢٧٥/٣)

- إن في النفس من ذلك ما فيها - حيث تقاتل مَنْ تعلم سابقته وفضله وقرابته ، ولكننا إنما أردنا هذه الدنيا..

فصالحه معاوية وعطف عليه..^(١)

وفي تاريخ اليعقوبي قال: فقدم على معاوية، فذاكره أمره، فقال له: أما علي، فوالله، لا تساوي العرب بينك وبينه في شيء من الأشياء، وإن له في الحرب لحظاً ما هو لأحد من قريش إلا أن تظلمه.

قال: صدقت، ولكننا نقاتله على ما في أيدينا، ونلزمه قتل عثمان. قال عمرو: واسوءاته! إن أحق الناس ألا يذكر عثمان لا أنا ولا أنت.. قال: ولم ويحك؟ قال: أما أنت فخذلته ومعك أهل الشام حتى استغاث بيزيد بن أسد البجلي، فسار إليه؛ وأما أنا فتركته عياناً، وهربت إلى فلسطين.

فقال معاوية: دعني من هذا مد يدك فبايعني!

قال: لا، لعمر الله، لا أعطيك ديني حتى آخذ من دنياك.

قال له معاوية: لك مصر طُعمة، فغضب مروان بن الحكم، وقال: ما لي لا أستشار؟

فقال معاوية: اسكت، فإنما يستشار بك.. ثم التفت إلى عمرو، فقال له معاوية: يا أبا عبد الله، بُتْ عندنا الليلة.

وكره أن يفسد عليه الناس، فبات عمرو، وهو يقول:

معاوي لا أعطيك ديني ولم أنل

به منك دنيا فانظرن كيف تصنع

(١) (الكامل في التاريخ: ٣/٢٧٦)

فإن تعطني مصرا فأربح بصفقة أخذت
 بها شيخا يضر وينفع
 وما الدين والدنيا سواء وإنني
 لأخذ ما أعطى ورأسي مقنع
 ولكنني أعطيك هذا وإنني
 لأخدع نفسي، والمخادع يخدع
 أ أعطيك أمرا فيه للملك قوة
 وأبقى له إن زلّت النعل أخدع؟
 وتمنعي مصرا وليست برغبة
 وإن ثرى القنوع يوما لمولع
 فكتب له بمصر شرطاً، وأشهد له شهوداً، وختم الشرط، وباعه
 عمرو، وتعهدا على الوفاء^(١)..

ولهذا قال الإمام علي عليه السلام فيه: إنه لم يبايع معاوية حتى شرط أن
 يؤتیه أتیة، ويرضخ له على ترك الدين رضىخة^(٢)..

تاريخ الطبري عن محمد وطلحة: كان أهل الشام لما قدم عليهم
 النعمان بن بشير بقميص عثمان الذي قتل فيه مخضبا بدمه، وبأصابع
 نائلة زوجته مقطوعة بالبراجم؛ إصبعان منها، وشيء من الكف،
 وإصبعان مقطوعتان من أصولهما، ونصف الإبهام، وضع معاوية
 القميص على المنبر، وكتب بالخبر إلى الأجناد. وثاب إليه الناس، وبكوا
 سنة (تأمل يا رعاك الله بهذه التهيئة النفسية لأهل الشام، ولهذه الخدعة
 كيف جعلتهم أسراء دين صنعه معاوية لهم) وهو على المنبر والأصابع

(١) تاريخ اليعقوبي: ج ٢/ ١٨٦.

(٢) نهج البلاغة: خ ٨٤، البحار: ج ٣٢/ ٢٢١.

معلقة فيه، وآلى الرجال من أهل الشام ألا يأتوا النساء، ولا يمسّهم الماء للغسل إلا من احتلام، ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان، ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم.. فمكثوا حول القميص سنة، والقميص يوضع كل يوم على المنبر ويجلله أحياناً فيلبسه، وعلق في أردانه أصابع نائلة^(١)..

وعن عمر بن سعد قال: لما بلغ معاوية بن أبي سفيان مكان علي عليه السلام بالنخيلة ومعسكره بها - ومعاوية بدمشق قد ألبس منبر دمشق قميص عثمان - وهو مخضب بالدم، وحول المنبر سبعون ألف شيخ سيكون حوله لا تجف دموعهم على عثمان، فخطب معاوية بأهل الشام، فقال:

يا أهل الشام! قد كنتم تكذبوني في علي، وقد استبان لكم أمره، والله، ما قتل خليفتم غير، وهو أمر بقتله، وألب الناس عليه، وآوى قتلته، وهم جنده وأنصاره وأعوانه، وقد خرج بهم قاصداً بلادكم ودياركم لإبادتكم.. يا أهل الشام! الله الله في عثمان! فأنا ولي عثمان وأحق من طلب بدمه، وقد جعل الله لولي المظلوم سلطاناً، فانصروا خليفتم المظلوم؛ فقد صنع به القوم ما تعلمون، قتلوه ظلماً وبغيّاً، وقد أمر الله بقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله... ثم نزل^(٢)

٢.٢. المصالحة مع الروم

في تاريخ الطبري عن حرمة بن عمران، قال: أتى معاوية في ليلة أن قيصر قصد له في الناس (للحرب)، وأن ناتل بن قيس الجذامي غلب

(١) تاريخ الطبري: ج ٤/٥٦٢، البداية والنهاية: ج ٧/٢٢٨.

(٢) صفين لابن مزاحم: ص ١٢٧، البداية والنهاية: ج ٧/٢٣٠.

على فلسطين وأخذ بيت مالها، وأن المصريين الذين كان سجنهم هربوا، وأن علي بن أبي طالب عليه السلام قصد له في الناس، فقال لمؤذنه: أذن هذه الساعة، - وذلك نصف الليل - فجاءه عمرو بن العاص، فقال: لِمَ أرسلت إلي؟ قال: أنا ما أرسلت إليك، قال: ما أذن المؤذن هذه الساعة إلا من أجلي، قال: رُميت بالقسي الأربع! وحكى له عن الذي خبره من الأمر..

قال عمرو: أما هؤلاء الذين خرجوا من سجنك، فإنهم إن خرجوا من سجنك فهم في سجن الله عز وجل وهم قوم شراة لا رحلة بهم، فاجعل لمن أتاك برجل منهم أو برأسه ديتة فإنك ستؤتى بهم، وانظر قيصر فوادعه وأعطه مالا وحللاً من حلل مصر فإنه سيرضى منك بذاك (رشوة)، وانظر ناتل بن قيس فلعمري ما أغضبه الدين ولا أراد إلا ما أصاب، فاكتب إليه وهب له ذلك وهنته إياه، فإن كانت لك قدرة عليه وإن لم تكن لك فلا تأس عليه، واجعل حدك وحديدك لهذا الذي عنده دم ابن عمك^(١)..

وفي مروج الذهب قال: قد كان معاوية صالح ملك الروم على مال يحمله إليه لشغله بعلي عليه السلام.^(٢)

٣.٢. كتابته لأهل مكة والمدينة

عن صالح بن صدقة قال: لما أراد معاوية السير إلى صفين، قال لعمرو بن العاص: إني قد رأيت أن نلقي إلى أهل مكة وأهل المدينة كتاباً نذكر لهم فيه أمر عثمان، فإما أن ندرك حاجتنا، وإما أن يكف القوم عنا. قال عمرو: إنما نكتب إلى ثلاثة نفر: راضٍ بعلي فلا يزيده ذلك إلا

(١) تاريخ الطبري: ج ٥/ ٣٣٣

(٢) مروج الذهب: ج ٢/ ٣٨٧.

بصيرة..أو رجل يهوى عثمان فلن نزيده على ما هو عليه.. أو رجل معتزل
فلست بأوثق في نفسه من علي.

قال: على ذلك(رغم كل ما ذكرت علينا أن نكتب لهم).. فكتبا: أما
بعد؛ فإنه مهما غابت عنا من الأمور فلن يغيب عنا أن علياً قتل عثمان،
والدليل على ذلك مكان قتله منه.. وإنما نطلب بدمه حتى يدفعوا إلينا
قتله فنقتلهم بكتاب الله، فإن دفعهم علي إلينا كففنا عنه، وجعلناها
شورى بين المسلمين على ما جعلها عليه عمر بن الخطاب.. وأما الخلافة
فلسنا نطلبها، فأعينونا على أمرنا هذا وانهضوا من ناحيتكم، فإن أيدينا
وأيديكم إذا اجتمعت على أمر واحد، هاب علي ما هو فيه.

فكتب إليهما عبد الله بن عمر بن الخطاب: أما بعد فلعمري لقد
أخطأتما موضع البصيرة، وتناولتماها من مكان بعيد، وما زاد الله من
شاك في هذا الأمر بكتابكما إلا شكاً.. وما أنتما والخلافة؟

وأما أنت يا معاوية فطليق، وأما أنت يا عمرو فظنون.. ألا فكفا عني
أنفسكما، فليس لكما ولا لي نصير.

وكتب رجل من الأنصار مع كتاب عبد الله بن عمر:

معاوي إن الحق أبلج واضح

وليس بما ربصت أنت ولا عمرو^(١)

وقيل: كتب معاوية بن أبي سفيان إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب
خاصّة، وإلى سعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة، دون كتابه إلى
أهل المدينة، فكان في كتابه إلى ابن عمر: أما بعد؛ فإنه لم يكن أحد
من قريش أحب إلي أن يجتمع عليه الأمة بعد قتل عثمان منك.. ثم

(١) شرح النهج البلاغة الحديدي: ج ٣/ ١٠٩، صفين لابن مزاحم: ص ٦٢.

ذكرت خذلك إياه وطعنك على أنصاره فتغيرت لك، وقد هون ذلك علي خلافك على علي، ومحا عنك بعض ما كان منك، فأعنا - رحمك الله - على حق هذا الخليفة المظلوم، فإني لست أريد الإمارة عليك، ولكني أريدها لك، فإن أبيت كانت شوري بين المسلمين..^(١)

وهكذا أراد أن يخرج معاوية بجيشه لمواجهة أمير المؤمنين عليه السلام وكان ذلك في يوم الأربعاء فنادى بالناس وصلى بهم الجمعة وخرج متوجها إلى الشمال بجيش جرار يعد بالآلاف المؤلفة..

ومر بحمص حيث التحق به جيشها وأميرها عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وتوجهوا منها إلى حماء، ثم أخذوا شرقا عن طريق السلمية حتى وصلوا إلى صفين قبل وصول جيش الإمام علي عليه السلام إليها..

٤.٢. أول مواجهة (مواجهة مقدمة الجيشين)

في تاريخ الطبري عن خالد بن قطن الحارثي قال: خرج الأشتر حتى قدم على القوم (المقدمة)، فاتبع ما أمره به علي عليه السلام وكفَّ عن القتال، فلم يزالوا متواقفين حتى إذا كان عند المساء حملَ عليهم أبو الأعور السلمي، فثبتوا له واضطربوا ساعة، ثم إن أهل الشام انصرفوا.

وفي اليوم التالي خرج إليهم هاشم بن عتبة (المرقال) الزهري في خيل ورجال حسن عددها وعدتها، وخرج إليه أبو الأعور فاقتتلوا يومهم ذلك، تحمل الخيل على الخيل، والرجال على الرجال، وصبر القوم بعضهم لبعض ثم انصرفوا، وحمل عليهم الأشتر فقتل عبد الله بن المنذر التنوخي قتله يومئذ ظبيان بن عمار التميمي وما هو إلا فتى حدث وكان التنوخي فارس أهل الشام، وأخذ الأشتر يقول: ويحكم! أروني أبا

(١) شرح النهج الحديدي: ج ٣/ ١١٣.

الأعور.

ثم إن أبا الأعور دعا الناس فرجعوا نحوه، فوقف من وراء المكان الذي كان فيه أول مرة، وجاء الأشر حتى صف أصحابه في المكان الذي كان فيه أبو الأعور، فقال الأشر لسنان بن مالك النخعي: انطلق إلى أبي الأعور فادعه إلى المباراة، فقال: إلى مبارزتي أو مبارزتك؟ فقال له الأشر: لو أمرتك بمبارزته فعلت؟ قال: نعم والله، لو أمرتني أن أعترض صفهم بسيفي ما رجعت أبدا حتى أضرب بسيفي في صفهم، قال له الأشر: يا بن أخي، أطال الله بقاءك! قد والله، ازددت رغبة فيك لا أمرتك بمبارزته إنما أمرتك أن تدعوه إلى مبارزتي، إنه لا يبرز إن كان ذلك من شأنه إلا لذوي الأسنان والكفاءة والشرف، وأنت - لربك الحمد - من أهل الكفاءة والشرف غير أنك فتى حدث السن، فليس بمبارز الأحداث ولكن ادعه إلى مبارزتي.

فأتاه فنأدى: آمنوني فإني رسول فأومن، فجاء حتى انتهى إلى أبي الأعور.. قال: فدنوت منه فقلت: إن الأشر يدعوك إلى مبارزته.

قال: فسكت عني طويلاً، ثم قال: إن خفة الأشر وسوء رأيه هو حمله على إجلاء عمال ابن عفان من العراق، وانتزأه عليه يقبح محاسنه، ومن خفة الأشر وسوء رأيه أن سار إلى ابن عفان في داره وقراره حتى قتله، فيمن قتله فأصبح متبعاً بدمه، ألا لا حاجة لي في مبارزته.

قال: قلت: إنك قد تكلمت فاسمع حتى أجيبك، فقال: لا، لا حاجة لي في الاستماع منك ولا في جوابك، اذهب عني.. فصاح بي أصحابه فانصرف عنه، ولو سمع إلي لأخبرته بعذر صاحبي وحجته.. فرجعت إلى الأشر فأخبرته أنه قد أبى المباراة، فقال: لنفسه نظر(أي خاف على

نفسه).

فواقفناهم حتى حجز الليل بيننا وبينهم وبتنا متحارسين، فلما أصبحنا نظرنا فإذا القوم قد انصرفوا من تحت ليلتهم، ويصبحنا علي بن أبي طالب عليه السلام غدوة، فقدّم الأشر فيمن كان معه في تلك المقدمة حتى انتهى إلى معاوية فواقفه، وجاء الإمام علي عليه السلام في أثره فلحق بالأشر سريعاً فوقف وتواقفوا طويلاً..

الفصل الثالث

خوض المعركة في صفين

١. مواجهة الجيشين

لما خرج الإمام عليه السلام من الكوفة باتجاه الشام بجيشه الجرار، وبما أن الطريق المستقيم بينهما يمرُّ عبر صحراء جرداء لا عشب فيها ولا ماء ولم تكن للإمام عليه السلام المعدات الكافية لدعم جيشه الذي قوامه مائة ألف، اختار الطريق المحاذي للفرات (أي مسير الجزيرة).

٢. حرب الماء

وفي أواخر ذي القعدة وصل جيش الإمام إلى صفين، بعد وصول جيش معاوية إليها لقربها من الشام، واحتلال المناطق الحساسة من المنطقة.. وقد نظم معاوية جيشه بدهاء بحيث لا يتمكن جيش الإمام من

الوصول لماء الفرات.. فنصحهم الإمام عليه السلام، وأرسل إليهم رسولا في ذلك، لكن دون جدوى.

الأخبار الطوال: أقبل علي عليه السلام حتى وافى المكان، فصادف أهل الشام قد احتوا على القرية والطريق، فأمر الناس، فنزلوا بالقرب من عسكر معاوية، وانطلق السقاؤون والغلمان إلى طريق الماء، فحال أبو الأعور بينهم وبينه. وأخبر علي عليه السلام بذلك، فقال لصعصعة بن صوحان: إيت معاوية، فقل له: إنا سرنا إليكم لنعذر قبل القتال، فإن قبلتم كانت العافية أحب إلينا، وأراك قد حلت بيننا وبين الماء، فإن كان أعجب إليك أن ندع ما جئنا له، ونذر الناس يقتتلون على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا.

فقال معاوية لأصحابه: ما ترون؟

فقال الوليد: امنعهم الماء كما منعه أمير المؤمنين عثمان، اقتلهم عطشا، قتلهم الله. فقال معاوية لعمر بن العاص: ما ترى؟

قال: أرى أن تخلي عن الماء، فإن القوم لن يعطشوا وأنت ريان، ولكن بغير الماء فانظر فيما بينك وبين الله.

فقال عبد الله بن أبي سرح، وكان أخا عثمان لأمه: امنعهم الماء إلى الليل، لعلهم أن ينصرفوا إلى طرف الغيضة، فيكون انصرافهم هزيمة، امنعهم الماء منعهم الله إياه يوم القيامة..

فقال صعصعة: إنما يمنعه الله الفَجْرَة وشربة الخمر، لعنك الله ولعن هذا الفاسق يعني الوليد بن عقبة.. قال: فتواثبوا إليه يشتمونه ويتهددونه، فقال معاوية: كفوا عن الرجل فإنه رسول..

ثم قال لمعاوية: ما الذي ترى؟ قال معاوية: ارجع، فسيأتيكم رأيي..

فانصرف صعصعة إلى علي عليه السلام، فأخبره بذلك..^(١)

ولما تيقن الإمام علي عليه السلام أن معاوية لن يسقيه الماء قال في خطبة له (ع): قد استطعموكم القتال، فأقروا على مذلة، وتأخير محلة، أو رروا السيوف من الدماء ترووا من الماء، فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين.

ألا وإن معاوية قاد لمة من الغواة، وعمس عليهم الخبر، حتى جعلوا نحورهم أغراض المنية..

وفي الأخبار الطوال: ظل أهل العراق يومهم ذلك وليلتهم بلا ماء إلا من كان ينصرف من الغلمان إلى طرف الغيضة، فيمشي مقدار فرسخين فيستقي، فغمّ علياً (سلام الله عليه) أمر الناس غمّاً شديداً، وضاق بما أصابهم من العطش ذرعاً؛ فأتاه الأشعث بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين، أيمنعنا القوم الماء وأنت فينا ومعنا سيوفنا؟ ولّني الزحف إليه، فوالله لا أرجع أو أموت، ومُرّ الأشر فلينضمّ إليّ في خيله.

فقال له علي عليه السلام: إيت في ذلك ما رأيت.. فلما أصبح زاحف أبا الأعور، فاقتتلوا، وصدقهم الأشر والأشعث حتى نفيا الأعور وأصحابه عن الشريعة، وصارت في أيديهما.

ونادى الأشعث عمرو بن العاص قال: ويحك يا بن العاص! خل بيننا وبين الماء، فوالله، لئن لم تفعل ليأخذنا وإياكم السيوف.

فقال عمرو: والله، لا نخلي عنه حتى تأخذنا السيوف وإياكم، فيعلم ربنا أننا اليوم أصبر.. فترجل الأشعث والأشر وذوو البصائر من أصحاب علي عليه السلام، وترجل معهما اثنا عشر ألفاً، فحملوا على عمرو ومن

(١) (الكامل في التاريخ: ٣/ ٢٨٤ وفي تاريخ الطبري قريباً منه)

معه من أهل الشام، فأزالوهم عن الماء حتى غمست خيل علي عليه السلام سنا بكها في الماء..

فقال عمرو بن العاص لمعاوية: ما ظنك بالقوم اليوم إن منعوك الماء كما منعتهم أمس؟ فقال معاوية: دع ما مضى، ما ظنك بعلي؟

قال: ظني أنه لا يستحل منك ما استحلت منه؛ لأنه أتاك في غير أمر الماء. ثم توادع الناس، وكف بعضهم عن بعض، وأمر علي عليه السلام ألا يمنع أهل الشام من الماء، فكانوا يسقون جميعاً..

فرجع صعصعة [حين بعثه الإمام عليه السلام إلى معاوية] فأخبره بما كان، وأن معاوية قال: سيأتيكم رأيي، فسرّب الخيل إلى أبي الأعور ليمنعهم الماء، فلما سمع علي عليه السلام ذلك، قال: قاتلوهم على الماء.

فقال الأشعث بن قيس الكندي: أنا أسير إليهم.. فسار إليهم، فلما دنوا منهم ثاروا في وجوههم فرموهم بالنبل، فتراموا ساعة ثم تطاعنوا بالرماح، ثم صاروا إلى السيوف فاقتتلوا ساعة.. وأرسل معاوية يزيد بن أسد البجلي القسري - جد خالد بن عبد الله القسري - في الخيل إلى أبي الأعور، فأقبلوا.. فأرسل علي عليه السلام شيبث بن ربعي الرياحي، فازداد القتال.. فأرسل معاوية عمرو بن العاص في جند كثير، فأخذ يمد أبا الأعور ويزيد بن أسد.. وأرسل علي عليه السلام الأشتر في جمع عظيم، وجعل يمد الأشعث وشيبثا، فاشتد القتال، فقال عبد الله بن عوف الأزدي الأحمر:

خلوا لنا ماء الفرات الجاري

أو أثبتوا لجحفل جرار

لكل قرم مستميت شاري
مطاعن بمرحه كرار
ضراب هامات العدى مغوار
لم يخش غير الواحد القهار
وقاتلوهم حتى خلوا بينهم وبين الماء، وصار في أيدي أصحاب
علي عليه السلام..

فقالوا: والله لا نسقيه أهل الشام.. فأرسل علي عليه السلام إلى أصحابه:
أن خذوا من الماء حاجتكم، وخلوا عنهم، فإن الله نصركم ببغيهم
وظلمهم..^(١)

وعن صعصعة بن صوحان: قتل الأشر في تلك المعركة سبعة؛
فأول قتيل قتل الأشر ذلك اليوم بيده من أهل الشام رجل يقال له: صالح
بن فيروز - وكان مشهورا بشدة البأس - فبرز إليه الأشر. ثم شد عليه
بالرمح فقتله، وفلق ظهره، ثم رجع إلى مكانه.

ثم خرج إليه فارس آخر يقال له: مالك بن أدهم السلماني - وكان
من فرسان أهل الشام - ثم شد على الأشر، فلما رهقه التوى الأشر
على الفرس، ومار السنان فأخطأه، ثم استوى على فرسه وشد عليه
بالرمح.. فقتله.

ثم خرج فارس آخر يقال له: رياح بن عتيك فخرج إليه الأشر.. فشدَّ
عليه فقتله.

ثم خرج إليه فارس آخر يقال له: إبراهيم بن الوضاح.. فخرج إليه
الأشر.. فقتله.

(١) (الكامل في التاريخ: ٣/٢٨٥)

ثم خرج إليه فارس آخر يقال له: زامل بن عتيك الحزامي - وكان من أصحاب الألوية - فشد عليه.. فطعن الأشر في موضع الجوشن فصرعه عن فرسه ولم يصب مقتلاً، وشد عليه الأشر راجلاً فكسف قوائم الفرس بالسيف.. ثم ضربه بالسيف وهما رجلان فقتله..

ثم خرج إليه فارس يقال له: الأجلح - وكان من أعلام العرب وفرسانها، وكان على فرس يقال له: لاحق - فلما استقبله الأشر كره لقاءه واستحيا أن يرجع، فخرج إليه.. فشد عليه الأشر فضربه ثم خرج إليه محمد بن روضة وهو يضرب في أهل العراق ضرباً منكراً.. فشد عليه الأشر.. ثم ضربه فقتله.. ثم أقبل الأشر يضرب بسيفه جمهور الناس حتى كشف أهل الشام عن الماء..

في شرح نهج البلاغة قال: لما ملك عسكر معاوية عليه [على الإمام علي عليه السلام] الماء، وأحاطوا بشريعة الفرات، وقالت رؤساء الشام له: اقتلهم بالعطش كما قتلوا عثمان عطشاً، سألهم علي عليه السلام وأصحابه أن يشرعوا لهم شرب الماء، فقالوا: لا والله، ولا قطرة حتى تموت ظمأً كما مات ابن عفان. فلما رأى عليه السلام أنه الموت لا محالة تقدم بأصحابه وحمل على عساكر معاوية حملات كثيفة، حتى أزالهم عن مراكزهم بعد قتل ذريع؛ سقطت منه الرؤوس والأيدي، وملكوا عليهم الماء، وصار أصحاب معاوية في الفلاة، لا ماء لهم..

فقال له أصحابه وشيعته: امنعهم الماء يا أمير المؤمنين! كما منعوك، ولا تسقهم منه قطرة، واقتلهم بسيوف العطش، وخذهم قبضاً بالأيدي فلا حاجة لك إلى الحرب.

فقال: لا والله، لا أكافئهم بمثل فعلهم، أفسحوا لهم عن بعض

الشريعة، ففي حد السيف ما يغني عن ذلك..^(١)

فأمر الإمام عليه السلام بتنظيم الجيش بنحو يتمكن معه الجيشان من الماء، حتى قيل أن الجنود كانوا يتزاحمون على الماء دون أن يزعج أحد أحدا.. وبهذا انتصر الإمام عليه السلام نصرا معنويا سجله التاريخ في صفحاته بماء الذهب بأن الإمام يمنع التوسل بالسبل غير الإنسانية في مواجهة العدو لتحصيل النصر.

٣. إقامة الحجة قبل القتال

لما ملك أمير المؤمنين عليه السلام الماء بصفين، ثم سمح لأهل الشام بالمشاركة فيه والمساهمة، رجاء أن يعطفوا إليه، واستمالة لقلوبهم وإظهارا للعدالة وحسن السيرة فيهم، مكث أياما لا يرسل إلى معاوية، ولا يأتيه من عند معاوية أحد. واستبطأ أهل العراق إذنه لهم في القتال، وقالوا: يا أمير المؤمنين! خلفنا ذرارينا ونساءنا بالكوفة، وجئنا إلى أطراف الشام لنتخذها وطنًا؟! ائذن لنا في القتال، فإن الناس قد قالوا.

قال لهم عليه السلام: ما قالوا؟ فقال منهم قائل: إن الناس يظنون أنك تكره الحرب كراهية للموت، وإن من الناس من يظن أنك في شك من قتال أهل الشام.

فقال عليه السلام: ومتى كنت كارها للحرب قط؟ إن من العجب حبي لها غلاما ويافعا، وكراهيتي لها شيخا بعد نفاد العمر وقرب الوقت! وأما شكي في القوم فلو شككت فيهم لشككت في أهل البصرة، والله، لقد ضربت هذا الأمر ظهراً وبطناً، فما وجدت يسعني إلا القتال، أو أن

(١) شرح نهج البلاغة الحديدي: ج ٣/ ٣٣١، البحار: ج ٣٢/ ٤٤٣.

أعصى الله ورسوله، ولكنني أستاذني بالقوم، عسى أن يهتدوا أو تهتدي منهم طائفة، فإن رسول الله ﷺ قال لي يوم خيبر: لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس..^(١)

وبرواية أخرى أن الإمام علي عليه السلام قال لهم: أما قولكم: أكل ذلك كراهية الموت؟ فوالله ما أبالي، دخلت إلى الموت أو خرج الموت إلي. وأما قولكم: شكا في أهل الشام، فوالله ما دفعت الحرب يوماً إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي، وتعشوا إلى ضوئي، وذلك أحب إلي من أن أقتلها على ضلالها، وإن كانت تبوء بآثامها.

ثم أرسل الإمام علي عليه السلام ممثليه إلى معاوية كي يدفعوا به إلى الاستسلام، ويحولون دون وقوع الحرب وإراقة الدماء.

وفي تاريخ اليعقوبي: وجه علي عليه السلام إلى معاوية يدعوه ويسأله الرجوع، وألا يفرق الأمة بسفك الدماء، فأبى إلا الحرب..

وفي تاريخ الطبري قال: مكث علي عليه السلام يومين لا يرسل إلى معاوية أحداً، ولا يرسل إليه معاوية.. ثم إن علياً دعا بشير بن عمرو بن محصن الأنصاري، وسعيد بن قيس الهمداني، وشبث بن ربعي التميمي، فقال: ائتوا هذا الرجل، فادعوه إلى الله، وإلى الطاعة والجماعة.

فقال له شبث بن ربعي: يا أمير المؤمنين! ألا تطمعه في سلطان توليه إياه، ومنزلة يكون له بها أثره عندك إن هو بايعك؟

فقال علي عليه السلام: إئتوه فalcوه واحتجوا عليه، وانظروا ما رأيه.

وكان هذا في أول ذي الحجة.. فأتوه، ودخلوا عليه، فحمد الله وأثنى عليه أبو عمرة بشير بن عمرو، وقال: يا معاوية! إن الدنيا عنك

(١) (شرح نهج البلاغة: ج ٤/ ١٤)

زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة، وإن الله عَزَّوَجَلَّ محاسبك بعملك، وجازيك بما قدمت يداك، وإنني أنشدك الله عَزَّوَجَلَّ أن تفرق جماعة هذه الأمة، وأن تسفك دماءها بينها!

فقطع معاوية عليه الكلام، وقال: هلا أوصيت بذلك صاحبك؟

فقال أبو عمرة: إن صاحبي ليس مثلك، صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل، والدين، والسابقة في الإسلام، والقربة من الرسول ﷺ.

قال: فيقول ماذا؟

قال: يأمرك بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق، فإنه أسلم لك في دنياك، وخير لك في عاقبة أمرك. قال معاوية: ونطل دم عثمان! لا والله، لا أفعل ذلك أبدا.

فذهب سعيد بن قيس يتكلم، فبادره شيث بن ربعي فتكلم، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: يا معاوية! إنني قد فهمت ما رددت على ابن محصن، إنه والله، لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب، إنك لم تجد شيئا تستغوي به الناس وتستميل به أهواءهم، وتستخلص به طاعتهم، إلا قولك: «قتل إمامكم مظلوما، فنحن نطلب بدمه»، فاستجاب له سفهاء طغام، وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر، وأحببت له القتل، لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب، ورب متمني أمر وطالبه، الله عَزَّوَجَلَّ يحول دونه بقدرته، وربما أوتي المتمني أمنيته وفوق أمنيته.. ووالله، ما لك في واحدة منهما خير، لئن أخطأت ما ترجو إنك لشرب العرب حالا في ذلك، ولئن أصبت ما تتمنى لا تصيبه حتى تستحق من ربك صلي النار، فاتق الله يا معاوية، ودع ما أنت عليه، ولا تنازع الأمر أهله.

فحمد الله [معاوية] وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن أول ما عرفت فيه سفهك وخفة حلمك، قطعك على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقته، ثم عنيت بعد فيما لا علم لك به، فقد كذبت ولؤمت أيها الأعرابي الجلف الجافي في كل ما ذكرت ووصفت. انصرفوا من عندي، فإنه ليس بيني وبينكم إلا السيف..^(١)

٤. أول المناوشات

توقفت الرسل وبانت النوايا على حقيقتها من القاسطين، فهم يطلبون الملك بأي ثمن ولديهم من القوة ما يؤهلهم للمحاولة والمصاولة.. فكانت الحرب، وبدأت في شهر ذي الحجة حيث حصلت مناوشات ومواجهات متفرقة هنا وهناك بين الجيشين؛ إذ كان الإمام في صدد إنهاء ذلك بالصلح دون الحرب وارقة الدماء، ولذا لم تكن المواجهة بين تمام الجيشين، طيلة الفترة تلك..

ثم انقطعت هذه المواجهات المتفرقة في شهر محرم غرة عام ٣٧هـ، وصارت محادثات الصلح بصورة أكثر جدية، لكنها لم تثمر شيئاً كسابقاتها..

٥. الهدنة رجاء الصلح

في تاريخ الطبري عن المحل بن خليفة الطائي قال: لما توادع علي ومعاوية يوم صفين اختلف فيما بينهما الرسل رجاء الصلح، فبعث علي عدي بن حاتم ويزيد بن قيس الأرحبي وشبث بن ربعي وزياد بن خصفة

(١) راجع شرح النهج: ج ٤/١٥، صفين لابن مزاحم.

إلى معاوية.. فلما دخلوا حمد الله عدي بن حاتم، ثم قال: أما بعد، فإننا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله عَزَّوَجَلَّ به كلمتنا وأمتنا، ويحقن به الدماء ويؤمن به السبل ويصلح به ذات البين.. إن ابن عمك سيد المسلمين أفضلها سابقة وأحسنها في الإسلام أثراً، وقد استجمع له الناس، وقد أرشدهم الله عَزَّوَجَلَّ بالذي رأوا، فلم يبق أحد غيرك وغير من معك، فأنته يا معاوية لا يصبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل.

فقال معاوية: كأنك إنما جئت متهددا ولم تأت مصلحاً، هيهات يا عدي! كلا والله، إني لابن حرب ما يقعقع لي بالشنان، أما والله إنك لمن المجلبين على ابن عفان، وإنك لمن قتلته، وإني لأرجو أن تكون ممن يقتل الله عَزَّوَجَلَّ به، هيهات يا عدي بن حاتم! قد حلبت بالساعد الأشد.

فقال له شيث بن ربعي وزياد بن خصفة - وتنازعا جواباً واحداً -:
أتيناك فيما يصلحنا وإياك، فأقبلت تضرب لنا الأمثال، دع مالا ينتفع به من القول والفعل، وأجبنا فيما يعمنا وإياك نفعه.

وتكلم يزيد بن قيس فقال: إنا لم نأتك إلا لنبلغك ما بعثنا به إليك، ولنؤدي عنك ما سمعنا منك، ونحن على ذلك لم ندع أن ننصح لك، وأن نذكر ما ظننا أن لنا عليك به حجة، وأنت راجع به إلى الألفة والجماعة.. إن صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله، ولا أظنه يخفى عليك، إن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلي، ولن يميلوا بينك وبينه، فاتق الله يا معاوية ولا تخالف علياً، فإننا والله ما رأينا رجلاً قط أعمل بالتقوى ولا أزهد في الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه.

فحمد الله معاوية وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإنكم دعوتكم إلى الطاعة والجماعة، فأما الجماعة التي دعوتكم إليها فمعناها هي.. وأما الطاعة لصاحبكم فإننا لا نراها، إن صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جماعتنا وآوى

ثأرنا وقتلتنا، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله فنحن لا نرد ذلك عليه، أرايتم قتلة صاحبنا؟ أستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم؟ فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة.

فقال له شبث: أيسرك يا معاوية أنك أمكنت من عمار تقتله؟

فقال معاوية: وما يمنعني من ذلك؟! والله لو أمكنت من ابن سمية ما قتلته بعثمان ولكن كنت قاتله بناتل مولى عثمان.

فقال له شبث: وإله الأرض؛ وإله السماء ما عدلت معتدلاً، لا والذي لا إله إلا هو لا تصل إلى عمار حتى تنذر الهام عن كواهل الأقالم، وتضيق الأرض الفضاء عليك برحبها.

فقال له معاوية: إنه لو قد كان ذلك كانت الأرض عليك أضيق. وتفرق القوم عن معاوية، فلما انصرفوا بعث معاوية إلى زياد بن خصفة التيمي فخلا به، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد يا أخا ربعة فإن علياً قطع أرحامنا وآوى قتلة صاحبنا، وإنني أسألك النصر عليه بأسرتك وعشيرتك، ثم لك عهد الله عَزَّوَجَلَّ وميثاقه أن أوليك إذا ظهرت أي المصريين أحببت.

قال: فلما قضى معاوية كلامه، حمدت الله عَزَّوَجَلَّ وأثنت عليه، ثم قلت: أما بعد، فإنني على بينة من ربي وبما أنعم عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين، ثم قمت.

فقال معاوية لعمر بن العاص - وكان إلى جانبه جالساً -: ليس يكلم رجل منا رجلاً منهم فيجيب إلى خير، مالهم غضبهم الله بشر! ما قلوبهم إلا كقلب رجل واحد..^(١)

(١) شرح النهج: ج ٤ / ٢٢، غضبهم الله: قطعهم، وهو دعاء عليهم.

٦. مناقشات وفد معاوية

روى تاريخ الطبري عن عبد الرحمن بن عبيد أبي الكنود: إن معاوية بعث إلى الإمام علي عليه السلام حبيب بن مسلمة الفهري وشرحبيل بن السمط ومعن بن يزيد بن الأخنس، فدخلوا عليه وأنا عنده، فحمد الله حبيب وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد، فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهديا يعمل بكتاب الله عز وجل وينيب إلى أمر الله تعالى، فاستثقلت حياته واستبطأت وفاته فعدوتم عليه فقتلتموه، فادفع إلينا قتلة عثمان - إن زعمت أنك لم تقتله - نقتلهم به، ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم، يولي الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم.

فقال له علي بن أبي طالب عليه السلام: وما أنت لا أم لك والعزل وهذا الأمر، اسكت فإنك لست هناك ولا بأهل له.
فقام وقال له: والله لتريني بحيث تكره.

فقال علي: وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك لا أبقى الله عليك إن أبقيت علي، أحقرة وسوءاً؟! اذهب فصوب وصعد ما بدا لك.

وقال شرحبيل بن السمط: إني إن كلمتك فلعمري ما كلامي إلا مثل كلام صاحبي قبل، فهل عندك جواب غير الذي أجبت به؟

فقال علي: نعم لك ولصاحبك جواب غير الذي أجبت به.. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن الله جل ثناؤه بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالحق فأنقذ به من الضلالة وانتاش (١) به من الهلكة وجمع به من الفرقة، ثم قبضه الله إليه وقد أدى ما عليه صلى الله عليه وآله وسلم ثم استخلف الناس أبا بكر واستخلف أبو بكر عمر فأحسنوا السيرة وعدلوا في الأمة، وقد وجدنا عليهما أن توليا

علينا ونحن آل رسول الله ﷺ فغفرنا ذلك لهما، وولي عثمان فعمل بأشياء عابها الناس عليه، فساروا إليه فقتلوه، ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمورهم فقالوا لي: بايع فأبيت عليهم، فقالوا لي: بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس، فبايعتهم فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني، وخلاف معاوية الذي لم يجعل الله ﷻ له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الإسلام، طليق ابن طليق، حزب من هذه الأحزاب، لم يزل لله ﷻ ولرسوله ﷺ وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين.

فلا غرو إلا خلافكم معه وانقيادكم له وتدعون آل نبيكم ﷺ الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً، ألا إني أدعوكم إلى كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ وإمارة الباطل وإحياء معالم الدين، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولكل مؤمن ومؤمنة ومسلم ومسلمة.

فقالا: اشهد أن عثمان قتل مظلوما.

فقال لهما: لا أقول إنه قتل مظلوما، ولا إنه قتل ظالما.

قالا: فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوماً فنحن منه برآء، ثم قاما فانصرفا.. فقال علي عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝ وَمَا أَنتَ بِهَدَى الْعَمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨-٨١]

ثم أقبل علي عليه السلام على أصحابه فقال: لا يكن هؤلاء أولى بالجد في ضلالهم منكم بالجد في حقكم وطاعة ربكم^(١).

(١) شرح النهج الحديدي: ج ٤/٢٤.

فلما تقطعت جميع السبل تهيأ الإمام عليه السلام للحرب، فبدأت الحرب يوم الأربعاء أول شهر صفر عام ٣٧ هـ.

٧. الحرب الشاملة

١٠٧. أمر القتال

روى في تاريخ الطبري، قال: مكث الناس حتى إذا دنا انسلاخ المحرم أمر علي عليه السلام مرثد بن الحارث الجشمي، فنادى أهل الشام - عند غروب الشمس - : ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم: إني قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنبؤوا إليه، واحتججت عليكم بكتاب الله عز وجل، فدعوتكم إليه، فلم تناهوا عن طغيان، ولم تجيبوا إلى حق، وإني قد نبذت إليكم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين.. ففزع أهل الشام إلى أمرائهم ورؤسائهم، وخرج معاوية وعمرو بن العاص في الناس يكتبان الكتائب ويعبّيان الناس، وأوقدوا النيران، وبات الإمام علي عليه السلام ليلته كلها يعبّي الناس، ويكتّب الكتائب، ويدور في الناس يحرضهم^(١).

٢٠٧. تحريض الإمام عليه السلام أصحابه على القتال

في تاريخ دمشق عن ابن عباس، قال: عقم النساء أن يأتين بمثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، والله ما رأيت ولا سمعت رئيساً يوزن به، لرأيته - يوم صفين - وعلى رأسه عمامة قد أرخى طرفيها كأن عينيه سراجا سليط وهو يقف على شذمة يحضّهم حتى انتهى إليّ وأنا في كنف من الناس، فقال: معاشر المسلمين! استشعروا الخشية،

(١) شرح النهج: ج ٤/٢٥ عن صفين لابن مزاحم: ص ٢٢٨.

وغضوا الأصوات، وتجلببوا السكينة، واعملوا الأسنة، وأقلقوا السيوف قبل السلة، واطعنوا الرخر، ونافحوا بالظبا، وصلوا السيوف بالخطا، والنبال بالرماح، فإنكم بعين الله ومع ابن عم نبيه ﷺ.

عاودوا الكر، واستحيوا من الفر؛ فإنه عار باق في الأعقاب والأعناق، ونار يوم الحساب، وطيبوا عن أنفسكم أنفسا، وامشوا إلى الموت أسححا، وعليكم بهذا السواد الأعظم، والرواق المطنّب، فاضربوا ثبجه؛ فإن الشيطان راكب صعبه، ومفرش ذراعيه، قد قدم للوثبة يدا، وآخر للنكوص رجلا، فصمدا صمدا حتى يتجلى لكم عمود الدين ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرَكُمُ أَعْمَلَكُمْ﴾^(١) [محمد: ٣٥]

وجاء في الكافي الشريف: حرّض أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) الناس بصفين، فقال: إن الله عزّ وجلّ على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، وتشفي بكم على الخير... الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله، وجعل ثوابه مغفرة للذنوب، ومساكن طيبة في جنات عدن، وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُم بُنِينَ مَرْصُوصًا﴾ [الصف: ٤].

فسوا صفوفكم كالبنيان المرصوص، فقدموا الدارع وأخروا الحاسر، وعضوا على النواجذ؛ فإنه أنبى للسيوف عن الهام، والتوا على أطراف الرماح؛ فإنه أمور للأسنة، وغضوا الأبصار؛ فإنه أربط للجأش وأسكن للقلوب، وأميتوا الأصوات؛ فإنه أطرّد للفشل وأولى بالوقار، ولا تميلوا بريايتكم، ولا تزيلوها، ولا تجعلوها إلا مع شجعانكم؛ فإن المانع للذمار، والصابر عند نزول الحقائق، هم أهل الحفاظ.

واعلموا أن أهل الحفاظ هم الذين يحفون بريايتهم ويكتنفونها

(١) البحار: ج ٣٢/٦٠٥.

ويصيرون حفافيتها ووراءها وأمامها، ولا يضيعونها؛ لا يتأخرون عنها فيسلموها، ولا يتقدمون عليها فيفردوها.

رحم الله امرأً وأسى أخاه بنفسه، ولم يكل قرنه إلى أخيه فيجتمع قرنه وقرن أخيه، فيكتسب بذلك اللائمة، ويأتي بدناءة، وكيف لا يكون كذلك وهو يقاتل الاثنين؟! وهذا ممسك يده قد خلى قرنه على أخيه هارباً منه ينظر إليه، وهذا فمن يفعله يمقته الله، فلا تعرّضوا لمقت الله عَزَّوَجَلَّ فإنما ممركم إلى الله، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦].

وايم الله، لئن فررتم من سيوف العاجلة لا تسلمون من سيوف الآجلة، فاستعينوا بالصبر والصدق؛ فإنما ينزل النصر بعد الصبر، فجاهدوا في الله حق جهاده ولا قوة إلا بالله^(١).

هذه تعاليم القتال الرائعة إنما هي أمر قتال قائد جيش الحق وأمير المؤمنين بالله تعالى وقد تقدم منا الحديث عن أمر القتال وتعليماته، وتوجيهات القائد الأقدم لجنوده ومدى تأثيرها على المعنويات العامة وانضباط الجيش في ساحة المعركة..

٨. دعاء الإمام عَلَيْهِ السَّلَام قبل القتال

جاء في البداية والنهاية: تقدم علي عَلَيْهِ السَّلَام وهو في القلب في أهل المدينة، وعلى يمينته يومئذ عبد الله بن بديل، وعلى اليسرة عبد الله بن عباس، وعلى القراء عمار بن ياسر وقيس بن سعد، والناس على راياتهم فزحف بهم إلى القوم..

(١) الكافي للكليني: ج ٥/ ٤٠.

وكان عندما خرج إليهم صباح الأربعاء فاستقبلهم، فقال: اللهم! رب السقف المرفوع المحفوظ المكفوف، الذي جعلته مغیضا للیل والنهار، وجعلت فيه مجرى الشمس والقمر ومنازل النجوم، وجعلت مكانه سبطا من الملائكة، لا یسأمون العبادة.. ورب هذه الأرض التي جعلتها قرارا للأنام والهوام والأنعام، وما لا یحصی مما لا یرى ومما یرى من خلقك العظیم. ورب الفلك التي تجري في البحر بما ینفع الناس، ورب السحاب المسخر بین السماء والأرض، ورب البحر المسجور المحيط بالعالم، ورب الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتادا، وللخلق متاعا؛ إن أظهرتنا على عدونا فجبننا البغي، وسددنا للحق، وإن أظهرتهم علينا فارزقني الشهادة، واعصم بقية أصحابي من الفتنة..^(١)

وأمر حامل اللواء بالزحف تجاه القاسطين، وراح یتقدم (ع) وهو یقول في دعائه: بسم الله الرحمن الرحيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم إیاك نعبد وإیاك نستعین، یا الله یا رحمن یا رحیم، یا أحد یا صمد یا إله محمد، إلیک نقلت الأقدام، وأفضت القلوب، وشخصت الأبصار، ومدت الأعناق، وطلبت الحوائج، ورفعت الأیدی، اللهم افتح بیننا وبين قومنا بالحق وأنت خیر الفاتحین^(٢). ثم قال: لا إله إلا الله والله أكبر - ثلاثا ..

وفي دعاء آخر للإمام علي عليه السلام عندما كان یرج للقتال أيام صفین: اللهم إلیک رفعت الأبصار، وبسطت الأیدی، ونقلت الأقدام، ودعت الألسن، وأفضت القلوب، وتحوكم إلیک في الأعمال، فاحکم بیننا وبينهم بالحق وأنت خیر الفاتحین.

(١) (تاریخ الطبري: ج ٤/١٠)، شرح النهج الحیدي: ج ٥/١٧٨.

(٢) البحار: ج ٣٢/٥٢٩.

اللهم إنا نشكو إليك غيبة نبينا وقلة عددنا وكثرة عدونا وتشتت أهوائنا وشدة الزمان وظهور الفتن، أعنا عليهم بفتح تعجله، ونصر تعز به سلطان الحق وتظهره^(١)..

الجدير بالملاحظة هنا وفي كل لحظة وحركة من حركات وسكنات أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام كان الإسلام والشرع الحنيف فلاحركة ولا أمر ولا أي شيء مهما كان بسيطاً عنده ومنه إلا وكان يبدأ بذكر الله تعالى، ويختمه بحمده وإن كان نازلة عظيمة، لأنه لا يحمد على مكروه سوى الله سبحانه..

ومن هنا قلنا أنه لا يمكن فصل حروب الإمام علي عن الدين الحنيف والعقيدة الصحيحة ولا بأي شكل من الأشكال..

٩. المعركة في الأسبوع الأول

في تاريخ الطبري، قال: أخذ الإمام علي عليه السلام يأمر الرجل ذا الشرف فيخرج معه جماعة، ويخرج إليه من أصحاب معاوية آخر معه جماعة، فيقتتلان في خيلهما ورجلتهما ثم ينصرفان، وأخذوا يكرهون أن يلقوا بجمع أهل العراق أهل الشام لما يتخوفون أن يكون في ذلك من الاستئصال والهلاك، فكان الإمام علي عليه السلام يخرج مرة الأشر، ومرة حجر بن عدي الكندي، ومرة شيب بن ربعي، ومرة خالد بن المعمر، ومرة زياد بن النضر الحارثي، ومرة زياد بن خصفة التيمي، ومرة سعيد بن قيس، ومرة معقل بن قيس الرياحي، ومرة قيس بن سعد، وكان أكثر القوم خروجاً إليهم الأشر..

(١) ن.م. ص ٤٦١.

وكان معاوية يخرج إليهم عبد الرحمن بن خالد المخزومي وأبا الأعور السلمي، ومرة حبيب بن مسلمة الفهري، ومرة ابن ذي الكلاع الحميري، ومرة عبيد الله بن عمر بن الخطاب، ومرة شرحبيل بن السمط الكندي، ومرة حمزة بن مالك الهمداني، فاقتتلوا في ذي الحجة كلها وربما اقتتلوا في اليوم الواحد مرتين أوله وآخره.

قال أبو مخنف: حدثني رجل من قومي أن الأشتر خرج يوماً يقاتل بصفين في رجال من القراء ورجال من فرسان العرب، فاشتد قتالهم فخرج علينا رجل والله لقلما رأيت رجلاً قط هو أطول ولا أعظم منه، فدعا إلى المبارزة فلم يخرج إليه أحد إلا الأشتر، فاختلفا ضربتين فضربه الأشتر فقتله، وإيم الله، لقد كنا أشفقنا عليه، وسألناه ألا يخرج إليه، فلما قتله الأشتر نادى مناد من أصحابه:

يا سهم سهم بن أبي العيزار

يا خير من نعلمه من زار

وزارة: حي من الأزدد. وقال: أقسم بالله لأقتلن قاتلك أو ليقتلني.. فخرج فحمل على الأشتر وعطف عليه الأشتر فضربه، فإذا هو بين يدي فرسه، وحمل عليه أصحابه فاستنقذوه جريحاً.. فقال أبو ربيعة الفهمي: هذا كان ناراً فصادف إعصاراً.

واقتتل الناس ذا الحجة كله على هذا الشكل، فلما انقضى ذو الحجة تداعى الناس إلى أن يكف بعضهم عن بعض في المحرم، لعل الله أن يجري صلحاً أو اجتماعاً، فكف بعضهم عن بعض^(١).

(١) تاريخ الطبري: ج ٣/٥٧١، صفين لابن مزاحم: ص ١٩٦.

١٠. المعركة في الأسبوع الثاني

يحدثنا تاريخ الطبري عن زيد بن وهب: أن علياً عليه السلام قال: حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بأجمعنا! فقام في الناس عشية الثلاثاء ليلة الأربعاء بعد العصر، فقال: الحمد لله الذي لا يبرم ما نقض، وما أبرم لا ينقضه الناقضون، لو شاء ما اختلف اثنان من خلقه، ولا تنازعت الأمة في شيء من أمره، ولا جحد المفضلون ذا الفضل فضله.. وقد ساقطنا وهؤلاء القوم الأقدار، فلفت بيننا في هذا المكان، فنحن من ربنا بمرأى ومسمع، فلو شاء عجل النقمة، وكان منه التغيير، حتى يكذب الله الظالم، ويعلم الحق أين مصيره، ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال، وجعل الآخرة عنده هي دار القرار؛ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]

ألا إنكم لاقو القوم غداً، فأطيلوا الليلة القيام، وأكثروا تلاوة القرآن، وسلوا الله عز وجل النصر والصبر، وألقوهم بالجد والحزم، وكونوا صادقين..

ثم انصرف، ووثب الناس إلى سيوفهم ورماحهم ونبالهم يصلحونها، ومرَّ بهم كعب بن جعيل التغلبي، وهو يقول:

أصبحت الأمة في أمر عجب

والملك مجموع غدا لمن غلب

فقلت قولاً صادقاً غير كذب

إن غدا تهلك أعلام العرب^(١)

وفي الأخبار الطوال: حمل حبيب بن مسلمة - وكان على ميسرة

(١) شرح النهج الحديدي: ج ٥/ ١٨٢ عن صفين لابن مزاحم: ص ٥٥٣.

معاوية - على ميمنة الإمام علي عليه السلام، فانكشفوا وجالوا جولة، ونظر علي عليه السلام إلى ذلك، فقال لسهل بن حنيف: انهض فيمن معك من أهل الحجاز حتى تعين أهل الميمنة.

فمضى سهل فيمن كان معه من أهل الحجاز نحو الميمنة، فاستقبلهم جموع أهل الشام، فكشفوه ومن معه حتى انتهوا إلى علي عليه السلام - وهو في القلب - فجال القلب وفيه علي عليه السلام جولة، فلم يبق مع علي عليه السلام إلا أهل الحفاظ والنجدة.. فحث الإمام علي عليه السلام فرسه نحو ميسرته، وهم وقوف يقاتلون من بإزائهم من أهل الشام - وكانوا ربيعة -، وقال زيد بن وهب: فإني لأنظر إلى علي عليه السلام وهو يمرُّ نحو ربيعة، ومعه بنوه: الحسن والحسين ومحمد، وإن النبل ليمر بين أذنيه وعاتقه، وبنوه يقونه بأنفسهم؛ فلما دنا علي عليه السلام من الميسرة وفيها الأشر، وقد وقفوا في وجوه أهل الشام يجالدونهم، فناداه علي عليه السلام، وقال: ائت هؤلاء المنهزمين، فقل: أين فراركم من الموت الذي لم تعجزوه إلى الحياة التي لا تبقى لكم!

فدفع الأشر فرسه، فعارض المنهزمين، فناداهم: أيها الناس! إليّ، إليّ، أنا مالك بن الحارث، فلم يلتفتوا إليه، فظن أنه بالاستعراف، فقال: أيها الناس! أنا الأشر، فثابوا (رجعوا) إليه، فزحف بهم نحو ميسرة أهل الشام، فقاتل بهم قتالاً شديداً حتى انكشف أهل الشام..

وفي تاريخ الطبري عن زيد بن وهب، قال: إن علياً عليه السلام لما رأى ميمنته قد عادت إلى مواقعها ومصافها، وكشفت من بإزائها من عدوها حتى ضاربوهم في مواقعهم ومراكزهم، أقبل حتى انتهى إليهم، فقال: إني قد رأيت جولتكم، وانحيازكم عن صفوفكم، يحوزكم الطغاة الجفاة وأعراب أهل الشام، وأنتم لهاميم (ساداتهم) العرب، والسنام الأعظم،

وعَمَّار الليل بتلاوة القرآن، وأهل دعوة الحق إذ ضلَّ الخاطئون.. فلولاً إقبالكم بعد إibarكم، وكركم بعد انحيازكم، وجب عليكم ما وجب على المولي يوم الزحف دبره، وكنتم من الهالكين، ولكن هوّن وجدي وشفى بعض أحاح نفسي أني رأيتمكم بأخرة، حزتموهم كما حازوكم، وأزلتموهم عن مصافهم كما أزالوكم، تحسونهم بالسيوف، تركب أولاهم أخراهم كالإبل المطردة الهيم.

فالآن فاصبروا، نزلت عليكم السكينة، وثبتكم الله عَزَّوَجَلَّ باليقين، ليعلم المنهزم أنه مسخط ربه، وموبق نفسه، إن في الفرار موجدة الله عَزَّوَجَلَّ عليه، والذل اللازم، والعار الباقي، واعتصار الفياء من يده، وفساد العيش عليه، وإن الفار منه لا يزيد في عمره، ولا يرضي ربه، فموت المرء محققاً قبل إتيان هذه الخصال خير من الرضا بالتأنيس لها، والإقرار عليها^(١).

وفي الوقت العصيب يحتاج المقاتل إلى شحنات معنوية ترفع من معنوياته القتالية، ولهذا ترى الإمام القائد لجيش الحق عَزَّوَجَلَّ وحين مرَّ براية لأهل الشام تقاتل بعناد ضد جنوده، وأصحابها لا يزولون عن مواضعهم مهما قُتل منهم، قال عَزَّوَجَلَّ لجنوده موجهاً: إنهم لن يزولوا عن مواقفهم دون طعن دراك، يخرج منه النسيم، وضرب يفلق الهام، ويطيح العظام، ويسقط منه المعاصم والأكف، حتى تصدع جباههم بعمد الحديد، وتثر حواجبهم على الصدور والأذقان!

ثم صاح (ع) بهم: أين أهل الصبر وطلاب الأجر؟!

فسارت إليه عصابة من المسلمين، فعادت ميمنته إلى موقفها

(١) شرح النهج الحديدي: ج ٥/٢٠٤، صفين: ص ٢٥٦، والأحاح: الحزن والغيظ.

ومصافها، وكشفت مَنْ بِإِزَائِهَا، فأقبل حتى انتهى إليهم^(١)..

وهكذا انتهى اليوم الأول من الأسبوع الثاني من المعركة الشاملة وهو يوم الأربعاء الثاني منها..

١١. حيلة معاوية للنجاة من الحرب

قال معاوية لعمر بن العاص حين عضَّه السيف وكثر القتلى من جيشه فأراد أن يعمل بالحيلة كعادته الرواغة كالثعالب، أو قل: المتلونة كالحرباء: قد رأيت أن أكتب إلى علي كتاباً أسأله الشام - وهو الشيء الأول الذي ردني عنه - وألقي في نفسه الشك والريبة. فضحك عمرو بن العاص، ثم قال: أين أنت يا معاوية من خدعة علي؟! فقال: ألسنا بني عبد مناف؟ قال: بلى، ولكن لهم النبوة دونك، وإن شئت أن تكتب فاكتب.

فكتب معاوية إلى الإمام علي عليه السلام مع رجل من السكاسك، يقال له عبد الله بن عقبة، وكان من ناقلة أهل العراق، فكتب: أما بعد، فإني أظنك أن لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمنا، لم يجنّها بعضنا على بعض، وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها ما نندم به على ما مضى، ونصلح به ما بقي.. وقد كنت سألتك الشام على ألا يلزمني لك طاعة ولا بيع، فأبيت ذلك عليّ، فأعطاني الله ما منعت، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس، فإني لا أرجو من البقاء إلا ما ترجو، ولا أخاف من الموت إلا ما تخاف. وقد والله رقت الأجناد، وذهبت الرجال، ونحن بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل إلا

(١) البحار: ج ٣٢/٤٩٥.

فضل لا يستدل به عزيز، ولا يسترق حر به. والسلام^(١).

١٢. جواب الإمام علي عليه السلام له

فلما انتهى كتاب معاوية إلى الإمام علي عليه السلام قرأه، ثم قال: العجب لمعاوية وكتابه! ثم دعا علي عبيد الله بن أبي رافع كاتبه، فقال: اكتب إلى معاوية: أما بعد؛ فقد جاءني كتابك، تذكر أنك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنّها بعضنا على بعض، فإننا وإياك منها في غاية لم تبلغها، وإنني لو قتل في ذات الله وحييت، ثم قتل ثم حييت سبعين مرة، لم أرجع عن الشدة في ذات الله، والجهاد لأعداء الله.

وأما قولك: إنه قد بقي من عقولنا ما نندم به على ما مضى، فإنني ما نقصت عقلي، ولا ندمت على فعلي.. فأما طلبك الشام، فإنني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك منها أمس.. وأما استواؤنا في الخوف والرجاء؛ فإنك لست أمضى على الشك مني على اليقين، وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة.

وأما قولك: إنا بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل؛ فلعمري إنا بنو أب واحد، ولكن ليس أمة كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب، ولا المهاجر كالطليق، ولا المحق كالمبطل.. وفي أيدينا بعد فضل النبوة التي أذللنا بها العزيز، وأعززنا بها الذليل.. والسلام^(٢).

وبرواية أخرى قال الإمام علي عليه السلام: أما طلبك إلي الشام؛ فإنني لم

(١) صفين لابن مزاحم: ص ٤٧٠، البحار: ج ١٢٩/٣٣، مروج الذهب: ج ٢٢/٣.

(٢) نفس المصادر السابقة.

أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس.. وأما قولك: إن الحرب قد أكلت العرب إلا حشاشات أنفس بقيت؛ ألا ومن أكله الحق فألى الجنة، ومن أكله الباطل فألى النار.. وأما استواؤنا في الحرب والرجال؛ فلست بأمضى على الشك مني على اليقين، وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة. وأما قولك: إنا بنو عبد مناف؛ فكذلك نحن.. ولكن ليس أمية كهاشم.. ولا حرب كعبد المطلب.. ولا أبو سفيان كأبي طالب.. ولا المهاجر كالطليق، ولا الصريح كاللصيق.. ولا المحق كالمبطل، ولا المؤمن كالمدغل (المنافق). ولبئس الخلف خلف يتبع سلفا هوى في نار جهنم.

وفي أيدينا بعد فضل النبوة التي أذللنا بها العزيز ونعشنا بها الذليل، ولما أدخل الله العرب في دينه أفواجا، وأسلمت له هذه الأمة طوعا وكرها، كنتم ممن دخل في الدين إما رغبة وإما رهبة، على حين فاز أهل السبق بسبقهم، وذهب المهاجرون الأولون بفضلهم؛ فلا تجعلن للشيطان فيك نصيبا، ولا على نفسك سييلا..^(١)

أراد أن يحتال المخادع، ويروغ الثعلب، وتتلون الحرباء إلا أن ذلك لم ينفعه في شيء فلا أمير المؤمنين عليه السلام شك في شيء، ولم يعطه الشام وولايتها، بل فضحه وأبان أصله الأول وأنه لصيق لا أصيل، وهو طليق ابن طليق، منافق ابن زنديق، وأنى لمثله أن يقود الأمة الإسلامية وهو أعدى أعدائها قديما وحديثا وفي كل حين؟

(١) نهج البلاغة: كتاب ١٧، البحار: ج ٣٣/ ١٠٤.

١٣ . معاوية يتوسل بابن عباس

وعندما لم يستطع على القائد الأعلى (عليه السلام) توجه إلى الرؤوس وحاول استمالتها إليه بأشكال وألوان لا تخطر إلا على أذهان أبالسة أهل الأرض من الإنس كعماوية ووزيره عمرو ابن النابغة..

فقد جاء في أنساب الأشراف، قوله: لما قامت الحرب بين علي عليه السلام ومعاوية بصفين، فتحاربوا أياماً، قال معاوية لعمرو بن العاص في بعض أيامهم: إن رأس الناس مع علي عبد الله بن عباس، فلو ألقيت إليه كتاباً تعطفه به؛ فإنه إن قال قولاً لم يخرج منه علي، وقد أكلتنا هذه الحرب.

فقال عمرو: إن ابن عباس أريب لا يُخدع ولو طمعت فيه لطمعت في علي.. قال: صدقت إنه لأريب، ولكن اكتب إليه على ذلك، فكتب إليه: من عمرو بن العاص إلى عبد الله بن العباس. أما بعد؛ فإن الذي نحن وأنتم فيه، ليس بأول أمر قاده البلاء، وساقه سفه العاقبة، وأنت رأس هذا الأمر بعد علي، فانظر فيما بقي بغير ما مضى، فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولا لكم حيلة، واعلم أن الشام لا يُملك إلا بهلاك العراق، وأن العراق لا يُملك إلا بهلاك الشام، فما خيرنا بعد إسراعنا فيكم، وما خيركم بعد إسراعكم فينا، ولست أقول: ليت الحرب عادت، ولكن أقول: ليتها لم تكن، وإن فينا من يكره اللقاء كما أن فيكم من يكرهه، وإنما هو أمير مُطاع، أو مأمور مُطيع، أو مشاور مأمون وهو أنت، فأما السفية فليس بأهل أن يُعد من ثقات أهل الشورى ولا خواص أهل النجوى.. وكتب في آخر كتابه:

طال البلاء فما يرجى له آس

بعد الإله سوى رفق ابن عباس

قولاً له قول مسرور بحظوته لا
تنس حظك إن التارك الناسي
كل لصاحبه قرن يعادله أسد
تلاقي أسوداً بين أخياس
انظر فدى لك نفسي قبل قاصمة
للظهر ليس لها راق ولا آسي
أهل العراق وأهل الشام لن يجدوا
طعم الحياة لحرب ذات أنفاس
والسلم فيه بقاء ليس يجهله إلا
الجهول وما النوكى كأكياس
فاصدع بأمرك أمر القوم إنهم
خشاش طير رأت صقراً بحسحاس^(١)

١٤. جواب ابن عباس

فلما قرأ ابن عباس الكتاب والشعر أقرأهما علياً عليه السلام، فقال
علي عليه السلام: قاتل الله ابن العاص! ما أغره بك؟ يا بن عباس أجبه، وليرد
عليه شعره فضل بن عباس بن أبي لهب.

فكتب إليه عبد الله بن عباس: أما بعد: فإني لا أعلم رجلاً من العرب
أقل حياءً منك! إنه مال بك إلى معاوية الهوى، وبعته دينك بالثمن
اليسير، ثم خبطت للناس في عشواء طخياء طمعاً في هذا الملك، فلما
لم تر شيئاً أعظمت الدماء إعظام أهل الدين، وأظهرت فيها زهادة أهل
الورع، ولا تريد بذلك إلا تهيب الحرب وكسر أهل العراق؛ فإن كنت

(١) شرح النهج الحديدي: ج ٨/٦٣، صفين لابن مزاحم: ص ٤١٠.

أردت الله بذلك، فدع مصر وارجع إلى بيتك؛ فإن هذه حرب ليس معاوية فيها كعلي؛ بدأها علي بالحق وانتهى فيها إلى العذر، وابتدأها معاوية بالبغي فانتهى منها إلى السرف، وليس أهل الشام فيها كأهل العراق؛ بايع علياً أهل العراق وهو خير منهم، وبايع أهل الشام معاوية وهم خير منه، ولست وأنا فيها سواء. أردت الله، وأردت مصر، فإن ترد شراً لا يفتنا، وإن ترد خيراً لا تسبقنا.. ثم دعا الفضل بن العباس بن عتبة، فقال: يا بن عم أجب عمرو بن العاص، قال:

يا عمرو حسبك من خدع ووسواس
فاذهب فما لك في ترك الهدى آس
إلا بوادر طعن في نحورك
ووشك ضرب يفري جلدة الراس
هذا لكم عندنا في كل معركة
حتى تطيعوا علياً وابن عباس
أما علي فإن الله فضله فضلاً
له شرف عالٍ على الناس
لا بارك الله في مصر فقد جلبت شراً
وحظك منها حسوة الحاسي^(١)

١٥. كتاب معاوية إلى ابن عباس

فكتب معاوية إلى ابن عباس: أما بعد؛ فإنكم يا معشر بني هاشم لستم إلى أحد أسرع بالمساءة منكم إلى أنصار عثمان بن عفان، حتى إنكم قتلتم طلحة والزبير لطلبهما دمه، واستعظامهما ما نيل منه، فإن

(١) ن.م. ٥٠: ص ٦٤.

يكن ذلك لسلطان بني أمية فقد وليها عدي، وتيم، فلم تنافسوه، وأظهرتم لهم الطاعة.

وقد وقع من الأمر ما قد ترى، وأكلت هذه الحروب بعضها من بعض حتى استوينا فيها، فما أطمعكم فينا أطمعنا فيكم، وما آيسكم منا آيسنا منكم، وقد رجونا غير الذي كان، وخشينا دون ما وقع، ولستم بملاقينا اليوم بأحد من حدّ أمس، ولا غداً بأحد من حدّ اليوم، وقد قنعنا بما كان في أيدينا من ملك الشام فاقنعوا بما في أيديكم من ملك العراق، وأبقوا على قريش؛ فإنما بقي من رجالها ستة؛ رجلاً بالشام، ورجلاً بالعراق، ورجلاً بالحجاز؛ فأما اللذان بالشام فأنا وعمرو، وأما اللذان بالعراق فأنت وعلي، وأما اللذان بالحجاز فسعد وابن عمر، واثنان من الستة ناصبان لك، واثنان واقفان فيك، وأنت رأس هذا الجمع اليوم.. ولو بايع لك الناس بعد عثمان كنا إليك أسرع منا إلى علي^(١).

١٦. جواب ابن عباس

ولما انتهى الكتاب إلى ابن عباس أسخطه ثم قال: حتى متى يخطب ابن هند إليّ عقلي، وحتى متى أجمع على ما في نفسي؟! فكتب إليه: أما بعد؛ فقد أتاني كتابك وقرأته، فأما ما ذكرت من سرعتنا إليك بالمساءة في أنصار ابن عفان، وكراهيتنا لسلطان بني أمية، فلعمري لقد أدركت في عثمان حاجتك حين استنصرك فلم تنصره، حتى صرت إلى ما صرت إليه، وبينني وبينك في ذلك ابن عمك وأخو عثمان الوليد بن عقبة.

وأما طلحة والزبير؛ فإنهما أجلبا عليه، وضيقا خناقه، ثم خرجا

(١) شرح النهج: ج ٨/٦٥، الفتوح لابن الأعمش ج ٣/١٥٢، صفين: ص ٤١٤.

ينقضان البيعة ويطلبان الملك، فقاتلناهما على النكث، وقاتلناك على البغي.. وأما قولك: إنه لم يبق من قريش غير ستة؛ فما أكثر رجالها وأحسن بقيتها، وقد قاتلك من خيارها من قاتلك، لم يخذلنا إلا من خذلك.. وأما إغراؤك إيانا بعدي، وتيم؛ فأبو بكر وعمر خير من عثمان، كما أن عثمان خير منك، وقد بقي لك منا يوم يُنسيك ما قبله، ويُخاف ما بعده.. وأما قولك: إنه لو بايع الناس لي لاستقامت لي، فقد بايع الناس علياً وهو خيرٌ مني فلم يستقيموا له، وإنما الخلافة لمن كانت له في المشورة، وما أنت يا معاوية والخلافة، وأنت طليق؟! وابن طليق، والخلافة للمهاجرين الأولين، وليس الطلقاء منها في شيء.. والسلام..

ولم تنفع محاولات معاوية، ولم يستفيد من عوائه ووزيره على ابن عباس فكان الأديب الأريب، والداهية الضليع الذي لا يؤخذ على حين غرة، ولا تستفزه الكلمات المعسولة، ولا يغويه السلطان كما فعل بطلحة والزبير عندما خاطبهما بأمر المؤمنين ووعدهما بالبيعة لهما والاستقامة على الطاعة لهما.. ولكن هيهات انه ابن عباس الذي يعرفون، وتلميذ الإمام علي عليه السلام الذي يعلمون..

١٧. أشد الأيام

١٧.١. وقعة الخميس «يوم الهرير»

كان يوم الخميس أشد أيام الحرب في صفين وأكثرها فزعاً؛ فقد كان الإمام عليه السلام يقاتل قتالاً شديداً في خضم تلك المعركة مضافاً إلى قيادته للجيش.. وكان يهيّج الجيش للقتال بما صنعه من ملاحم عظيمة ومثيرة تشجع على خوض الحرب.. ولم يهدأ القتال يومئذ لحظة واحدة،

حتى صلى الجند وهم يقاتلون بالإيمان..

وكثر القتلى حتى صاروا كالتل، وجرح مالا يحصى من الجيشين، وقتل الإمام علي عليه السلام آنذاك في يوم واحد (٥٢٣) من منازل الأقران، ومن شجعان العرب، وكان كلما قتل يُكَبَّر، ومن تكبيرات الإمام عليه السلام كانوا يعرفون عدد مَنْ يصرع من العدو بسيف أمير المؤمنين عليه السلام الذي ما ضرب به أحد إلا وعجله إلى النار كما قال يوما لأحد ولاته..

وقد سُمِّيَ ذلك اليوم «وقعة الخميس» أو «يوم الهرير»^(١).

ونأخذ الوصف من تاريخ الطبري عن زيد بن وهب، قال: ازدلف الناس يوم الأربعاء، فاقتتلوا كأشد القتال يومهم حتى الليل، لا ينصرف بعضهم عن بعض إلا للصلاة، وكثرت القتلى بينهم، وتحاجزوا عند الليل، وكل غير غالب، فأصبحوا من الغد، فصلى بهم علي عليه السلام غداة (صباح) الخميس، فغلس (أي صلى بهم في العتمة وأول الفجر) بالصلاة أشد التغليس..

وفي صفين عن جندب الأزدي، قال: لما كان غداة الخميس لسبع خلون من صفر من سنة سبع وثلاثين، صلى علي عليه السلام، فغلس بالغداة، وما رأيت علياً عليه السلام غلس بالغداة أشد من تغليسه يومئذ.. ثم خرج بالناس إلى أهل الشام فزحف إليهم، وكان هو يبدؤهم فيسير إليهم، فإذا رأوه وقد زحف استقبلوه بزحوفهم^(٢)..

وفي الفتوح - في ذكر وقعة يوم الخميس -: دعا علي (سلام

(١) سميت بهذا الإسم لكثرة أصوات الناس فيها للقتال (مرآة العقول: ج ١٥/ ٤٢٧).

(٢) تاريخ الطبري: ج ٥/ ١٤، الكامل في التاريخ: ج ٢/ ٣٧٢، صفين: ص ٢٣٢.

الله عليه) بدرع رسول الله ﷺ فلبسه، وبسيف رسول الله ﷺ فتقلده، وبعمامة رسول الله ﷺ فاعتجر بها، ثم دعا بفرس رسول الله ﷺ فاستوى عليه وجعل، يقول: أيها الناس! من يبيع نفسه يريح هذا اليوم؛ فإنه يوم له ما بعده من الأيام، أما والله! أن لولا أن تُعطل الحدود، وتُبطل الحقوق، ويظهر الظالمون، وتفوز كلمة الشيطان، ما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه.. ألا إن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء، والصبر خير عواقب الأمور.. ألا إنها إحن بدرية، وضغائن أحدىة، وأحقاد جاهلية، وثب بها معاوية حين الغفلة ليذكر بها ثارات بني عبد شمس: ﴿فَقَتَلُوا أَبَا أَيْمَنَ الْكُفْرَ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ﴾ [التوبة: ١٢]^(١)

في وقعة صفين عن القعقاع بن الأبرد الطهوي قال: والله، إني لواقف قريباً من علي عليه السلام بصفين يوم وقعة الخميس، وقد التقت مذحج - وكانوا في ميمنة علي - وعُك وجُذام ولخم والأشعريون، وكانوا مستبصرين في قتال علي عليه السلام.. ولقد - والله - رأيت ذلك اليوم من قتالهم، وسمعت من وقع السيوف على الرؤوس، وخطب الخيول بحوافرها في الأرض وفي القتلى - ما الجبال تهتد، ولا الصواعق تصعق بأعظم هولاً في الصدور من ذلك الصوت.

ونظرت إلى علي عليه السلام وهو قائم فدنوت منه، فسمعتة يقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله، والمستعان الله»، ثم نهض حين قام قائم الظهيرة، وهو يقول: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف:

[٨٩]

(١) الفتوح لابن الأعمش: ج ٣/ ١٧٤.

وحمل على الناس بنفسه، وسيفه مجرد بيده، فلا والله ما حجز بيننا إلا الله رب العالمين، في قريب من ثلث الليل، وقتلت يومئذ أعلام العرب، وكان في رأس علي عليه السلام ثلاث ضربات، وفي وجهه ضربتان.. وقد قيل: إن علياً عليه السلام لم يجرح قط في صفين وهذا هو الراجح عندي. وقتل في هذا اليوم خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وقتل من أهل الشام عبد الله بن ذي الكلاع الحميري..

وفي الأخبار الطوال، قال: حمل علي بنفسه على أهل الشام حتى غاب فيهم، فانصرف مخضباً بالدماء، فلم يزلوا كذلك يومهم كله والليل حتى مضى ثلثه، وجرح علي عليه السلام خمس جراحات، ثلاث في رأسه، واثنان في وجهه..^(١)

٢٠١٧. ليلة الهيرير

ليلة العاشر من شهر صفر، زحف أمير المؤمنين عليه السلام إلى أهل الشام بعسكر العراق، والناس على راياتهم وأعلامهم، وزحف إليهم أهل الشام، وقد كانت الحرب أكلت الفريقين، ولكنها في أهل الشام أشد نكاية، وأعظم وقعا، فقد ملوا الحرب، وكرهوا القتال، وتضعضت أركانهم.

قال: فخرج رجل من أهل العراق على فرس كमित ذنوب، عليه السلاح لا يرى منه إلا عيناه، وبيده الرمح، فجعل يضرب رؤوس أهل العراق بالقناة، ويقول: سووا صفوفكم رحمكم الله! حتى إذا عدل الصفوف والرايات، استقبلهم بوجهه، وولى أهل الشام ظهره، ثم حمد الله وأثنى عليه، وقال: الحمد لله الذي جعل فينا ابن عم نبيه، أقدمهم

(١) الأخبار الطوال: ص ١٨٤.

هجرة، وأولهم إسلاما، سيف من سيوف الله على أعدائه، فانظروا إذا حمى الوطيس، وثار القتام^(١)، وتكسر المران، وجالت الخيل بالابطال، فلا أسمع إلا غمغمة أو همهمة، فاتبعوني وكونوا في أثري. ثم حمل على أهل الشام فكسر فيهم رمحه، ثم رجع فإذا هو الأشتر.

وخرج رجل من أهل الشام، فنادى بين الصفين: يا أبا الحسن، يا علي، أبرز إليّ.. فخرج إليه علي عليه السلام، حتى اختلفت أعناق دابتيهما بين الصفين، فقال: إن لك يا علي لقدما في الاسلام والهجرة، فهل لك في أمر أعرضه عليك، يكون فيه حقن هذه الدماء، وتأخر هذه الحروب، حتى ترى رأيك؟ قال: وما هو؟ قال: ترجع إلى عراقك، فنخلي بينك وبين العراق، ونرجع نحن إلى شامنا، فتخلي بيننا وبين الشام.

فقال علي عليه السلام: قد عرفت ما عرضت، إن هذه لنصيحة وشفقة، ولقد أهمني هذا الامر وأسهرني، وضربت أنفه وعينه فلم أجد إلا القتال أو الكفر بما أنزل الله على محمد.. إن الله تعالى ذكره لم يرض من أوليائه أن يعصى في الأرض وهم سكوت مدعنون، لا يأمرهم بمعروف، ولا ينهون عن منكر، فوجدت القتال أهون علي من معالجة في الأغلال في جهنم.

فرجع الرجل وهو يسترجع، وزحف الناس بعضهم إلى بعض فارتموا بالنبل والحجارة حتى فנית، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تكسرت واندقت، ثم مشى القوم بعضهم إلى بعض بالسيوف، وعمد الحديد، فلم يسمع السامعون إلا وقع الحديد بعضه على بعض، لهو أشد هولا في صدور الرجال من الصواعق، ومن جبال تهامة يدك بعضها بعضا، وانكسفت الشمس بالنقع، وثار القتام والقسطل، وضلت الألوية

(١) الغبار

والرايات، وأخذ الأشر يسير فيما بين الميمنة والميسرة، فيأمر كل قبيلة أو كتيبة من القراء بالاقدام على التي تليها، فاجتلدوا بالسيوف وعمد الحديد، من صلاة الغداة من اليوم المذكور إلى نصف الليل، لم يصلوا لله صلاة، فلم يزل الأشر يفعل ذلك حتى أصبح والمعركة خلف ظهره، وافترقوا عن سبعين ألف قتيل في ذلك اليوم، وتلك الليلة وهي ليلة الهرير المشهورة. وكان الأشر في ميمنة الناس، وابن عباس في الميسرة، وعلي عليه السلام في القلب، والناس يقتتلون^(١).

والطبري عن أبي مخنف، قال: فاقتتل الناس تلك الليلة كلها حتى الصباح؛ وهي ليلة الهرير، حتى تقصفت الرماح، ونفذ النبل، وصار الناس إلى السيوف.. وأخذ علي عليه السلام يسير فيما بين الميمنة والميسرة، ويأمر كل كتيبة من القراء أن تقدم على التي تليها، فلم يزل يفعل ذلك بالناس، ويقوم بهم حتى أصبح والمعركة كلها خلف ظهره، والأشر في ميمنة الناس، وابن عباس في الميسرة، وعلي عليه السلام في القلب، والناس يقتتلون من كل جانب، وذلك يوم الجمعة، وأخذ الأشر يزحف بالميمنة ويقاتل فيها، وكان قد تولاهما عشية الخميس وليلة الجمعة إلى ارتفاع الضحى، وأخذ يقول لأصحابه: ازحفوا قيد (طول) هذا الرمح، وهو يزحف بهم نحو أهل الشام، فإذا فعلوا، قال: ازحفوا قاد هذا القوس، فإذا فعلوا سألهم مثل ذلك، حتى ملّ أكثر الناس الإقدام.

فلما رأى ذلك الأشر قال: أعيذك بالله أن ترضعوا الغنم سائر اليوم، ثم دعا بفرسه، وترك رايته مع حيان بن هوزة النخعي، وخرج يسير في الكتائب، ويقول: من يشتري نفسه من الله بِذَنٍّ ويقاتل مع الأشر حتى يظهر أو يلحق بالله! فلا يزال رجل من الناس قد خرج إليه، وحيان بن

(١) شرح النهج الحديدي: ج ٢/ ٢٠٨، والقمام، والرهج، والقسطل: كلها غبار الحرب.

هوذة (يلحق به بالراية)^(١).

ويصف صاحب الفتوح قائلاً: قامت الفرسان في الركب، فاصطفقوا بالسيوف، وارتفع الرهج وثار القتام (الغبار)، وتضعضت الرايات، وحطت الألوية، وغابت الشمس، وذهبت مواقيت الصلاة، حتى ما كان في الفريقين أحد يصلي ذلك اليوم ولا سجد لله سجدة، ولا كانت الصلاة إلا بالتكبير والإيماء نحو القبلة. قال: وهجم عليهم الليل، واشتدت الحرب، وهذه ليلة الهرير، فجعل بعضهم يهر على بعض، ويعتق بعضهم بعضاً، ويكدم بعضهم بعضاً..

قال: وجعل الإمام علي عليه السلام يقف ساعة بعد ساعة، ويرفع رأسه إلى السماء وهو يقول: «اللهم إليك نقلت الأقدام، وإليك أفضت القلوب، ورفعت الأيدي، ومدت الأعناق، وطلبت الحوائج، وشخصت الأبصار.. اللهم ﴿أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] ثم إنه حمل في سواد الليل، وحملت الناس معه، فكلما قتل بيده رجلاً من أهل الشام كبر تكبيرةً حتى أحصى له كذا كذا تكبيرة.. قال أبو محمد (ابن أعثم): أحصى له خمسمائة تكبيرة وثلاث وعشرون تكبيرة، في كل تكبيرة له قتيلاً.. قال: وكان إذا علا قَدْ، وإذا وسط قَطَّ^(٢)..

روى في مروج الذهب، قال: كانت ليلة الجمعة - وهي ليلة الهرير - فكان جملة من قَتَلَ علي عليه السلام بكفه في يومه وليلته خمسمائة وثلاثة وعشرين رجلاً أكثرهم في اليوم، وذلك أنه كان إذا قتل رجلاً كبر إذا ضرب، ولم يكن يضرب إلا قتل.. ذكر ذلك عنه مَنْ كان يليه في حربه

(١) تاريخ الطبري: ج ٥/٤٧، الكامل في التاريخ: ٣٨٥/٢، صفين: ص ٤٧٥.

(٢) الفتوح لابن الأعثم: ج ٣/١٨٠، قَدْ: قطع طولاً، وقَطَّ: قطع عرضاً.

ولا يفارقه من ولده وغيرهم..^(١)

وفي صفين عن زياد بن النضر الحارثي، يقول: شهدت مع علي عليه السلام بصفين، فاقتلنا ثلاثة أيام وثلاث ليال، حتى تكسرت الرماح، ونفدت السهام، ثم صرنا إلى المسايقة؛ فاجتلدنا بها إلى نصف الليل، حتى صرنا نحن وأهل الشام في اليوم الثالث يعانق بعضنا بعضاً.. وقد قاتلت ليلتئذ بجميع السلاح؛ فلم يبق شيء من السلاح إلا قاتلت به، حتى تحاثينا بالتراب، وتكادنا بالأفواه، حتى صرنا قياما ينظر بعضنا إلى بعض، ما يستطيع واحد من الفريقين أن ينهض إلى صاحبه ولا يقاتل.

فلما كان نصف الليل من الليلة الثالثة انحاز معاوية وخيله من الصف، وغلب علي عليه السلام على القتلى في تلك الليلة، وأقبل على أصحاب محمد صلوات الله عليه وآله وأصحابه فدفنهم، وقد قتل كثير منهم، وقتل من أصحاب معاوية أكثر^(٢)..

وقال عمرو بن العاص في يوم الهرير: لله در ابن أبي طالب! ما كان أكثره عند الحروب! ما آنست أن أسمع صوته في أول الناس إلا وسمعته في آخرهم، ولا في الميمنة إلا وسمعته في الميسرة^(٣)..

٣٠١٧. دعاء الإمام عليه السلام ليلة الهرير ويومه

مهج الدعوات عن ابن عباس: قلت لأمير المؤمنين عليه السلام ليلة صفين: أما ترى الأعداء قد أحدقوا بنا؟ فقال: وقد راعك هذا؟ قلت: نعم.

(١) مروج الذهب: ج ٢/٣٩٩، صفين: ص ٤٧٧.

(٢) صفين: ص ٣٦٩، شرح النهج الحديدي: ج ٨/٤٥.

(٣) (الصراط المستقيم: ج ٢/٤)

فقال: اللهم إني أعوذ بك أن أضام في سلطانك، اللهم إني أعوذ بك أن أفترق في غناك، اللهم إني أعوذ بك أن أضيع في سلامتك، اللهم إني أعوذ بك أن أغلب والأمر إليك.^(١)

وعن جابر بن عمير الأنصاري، قال: والله لكانني أسمع علياً عليه السلام يوم الهرير حين سار أهل الشام وذلك بعدما طحنت رحى مذحج فيما بينهما وبين عك ولخم وجذام والأشعرين بأمر عظيم تشيب منه النواصي من حين استقلت الشمس حتى قام قائم الظهيرة، ثم إن علياً عليه السلام، قال: حتى متى نخلي بين هذين الحيين وقد فنيا وأنتم وقوف تنظرون إليهم؟ أما تخافون مقت الله؟ ثم انفتل إلى القبلة ورفع يديه إلى الله، ثم نادى: يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا واحد، يا أحد، يا صمد، يا الله، يا إله محمد، اللهم إليك نقلت الأقدام، وأفضت القلوب، ورفعت الأيدي، وامتدت الأعناق، وشخصت الأبصار، وطلبت الحوائج، اللهم إنا نشكو إليك غيبة نبينا محمد بن عبد الله، وكثرة عدونا، وتشتت أهوائنا، ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

سيروا على بركة الله، ثم نادى: لا إله إلا الله والله أكبر كلمة التقوى^(٢) ومولانا الإمام الصادق عليه السلام يقول: دعا أمير المؤمنين عليه السلام يوم الهرير حين اشتد على أوليائه الأمر دعاء الكرب؛ من دعا به وهو في أمر قد كربه وغمّه نجّاه الله منه وهو:

«اللهم لا تحبب إليّ ما أبغضت، ولا تبغض إليّ ما أحببت..»

اللهم إني أعوذ بك أن أَرْضَى سَخَطَكَ، أو أَسْخَطَ رِضَاكَ، أو أَرُدَّ

(١) البحار: ج ٩٤/٢٤٢.

(٢) البحار: ج ٣٢/٥٢٨، شرح النهج: ج ٢/٢١٠، صفينك ص ٤٧٧.

قضاءك، أو أعدو قولك، أو أناصح أعداءك، أو أعدو أمرك فيهم.

اللهم ما كان من عمل أو قول يقربني من رضوانك، ويباعدني من سخطك، فصبرني له، واحملي عليه يا أرحم الراحمين.

اللهم إني أسألك لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، ويقيناً صادقاً، وإيماناً خالصاً، وجسداً متواضعاً، وارزقني منك حبا، وادخل قلبي منك رعباً..

اللهم فإن ترحمني فقد حسن ظني بك، وإن تعذبني فبظلمي وجوري وجرمي وإسرافي على نفسي؛ فلا عذر لي إن اعتذرت ولا مكافأة أحاسب بها.

اللهم إذا حضرت الآجال، ونفدت الأيام؛ وكان لابد من لقاءك؛ فأوجب لي من الجنة منزلاً يغطني به الأولون والآخرون، لا حسرة بعدها، ولا رفيق بعد رفيقها، في أكرمها منزلاً.

اللهم ألبسني خشوع الإيمان بالعز، قبل خشوع الذل في النار، أثني عليك رب أحسن الثناء؛ لأن بلاءك عندي أحسن البلاء. اللهم فأذقني من عونك وتأيدك وتوفيقك ورفدك، وارزقني شوقاً إلى لقاءك، ونصراً في نصرك حتى أجد حلاوة ذلك في قلبي، وأعزم لي على أرشد أموري؛ فقد ترى موقفي وموقف أصحابي، ولا يخفى عليك شيء من أمري.

اللهم إني أسألك النصر الذي نصرت به رسولك، وفرقت به بين الحق والباطل، حتى أقمت به دينك، وأفلجت به حجتك، يا من هو لي في كل مقام^(١)..

وهكذا وفي صباح يوم الجمعة أشرقت الشمس وأطلت على ظفر جيش الإمام عليه السلام وانكسار وهزيمة أهل الشام.. وأشرف مالك الأشر

(١) البحار: ج ٢٣٧/٩٤، مهج الدعوات: ص ١٢٨.

والسرية التي يقودها على خيمة معاوية - التي يقود الجيش منها - بحيث صمّم معاوية على الاستسلام وطلب الأمان، لكن جرى قلم القدر على شيء آخر؛ فتلاقح جهل الخوارج مع حيلة عمرو بن العاص فأنتجا نجاة معاوية ووقفت الحرب فالتوت أعنة التاريخ إلى الورا..

إن الذي دعا إليه طلب أهل الشام له، واعتصامهم به من سيوف أهل العراق، فقد كانت إمارات القهر والغلبة لاحت، ودلائل النصر والظفر وضحت، فعدل أهل الشام عن القراع إلى الخداع، وكان ذلك برأي عمرو بن العاص.

عن جابر، قال: سمعت تميم بن حذيم، يقول: لما أصبحنا من ليلة الهرير، نظرنا فإذا أشباه الرايات، أمام أهل الشام في وسط الفيلق حيال موقف علي عليه السلام ومعاوية، فلما أسفرنا إذا هي المصاحف قد ربطت في أطراف الرماح، وهي عظام مصاحف العسكر، وقد شدوا ثلاثة أرماع جميعا، وربطوا عليها مصحف المسجد الأعظم، يمسكه عشرة رهط.

قال أبو جعفر وأبو الطفيل: استقبلوا عليا بمائة مصحف، ووضعوا في كل مجنبه مائتي مصحف، فكان جميعها خمسمائة مصحف. قال أبو جعفر: ثم قام الطفيل بن أدهم حيال علي عليه السلام، وقام أبو شريح الجذامي حيال الميمنة، وقام ورقاء بن المعمر حيال الميسرة، ثم نادوا: يا معشر العرب، الله، الله في النساء، والبنات، والأبناء من الروم، والأتراك، وأهل فارس غدا إذا فنيتم! الله، الله في دينكم! هذا كتاب الله بيننا وبينكم.

فقال علي عليه السلام: اللهم إنك تعلم أنهم ما الكتاب يريدون، فاحكم بيننا وبينهم إنك أنت الحكم الحق المبين.. فاختلف أصحاب علي عليه السلام في الرأي، فطائفة قالت القتال، وطائفة قالت المحاكمة إلى الكتاب، ولا يحل لنا الحرب، وقد دعينا إلى حكم الكتاب، فعند ذلك بطلت الحرب

ووضعت أوزارها..

عن جابر، قال: حدثنا أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين عليه السلام، قال: لما كان اليوم الأعظم، قال أصحاب معاوية: والله لا نبرح اليوم العرصة حتى نموت أو يفتح لنا، وقال أصحاب علي عليه السلام: لا نبرح اليوم العرصة حتى نموت أو يفتح لنا، فبادروا القتال غدوة في يوم من أيام الشعري (٣) طويل، شديد الحر، فتراموا حتى فريت النبال، وتطاعنوا حتى تقصفت الرماح، ثم نزل القوم عن خيولهم، ومشى بعضهم إلى بعض بالسيوف حتى كسرت جفونها، وقام الفرسان في الركب، ثم اضطربوا بالسيوف وبعمد الحديد، فلم يسمع السامعون إلا تغمغم القوم، وصليل الحديد في الهام، وتكادم الأفواه. وكسفت الشمس، وثار القتام، وضلت الألوية والرايات، ومرت مواقيت أربع صلوات، ما يسجد فيهن لله إلا تكبيرا، ونادت المشيخة في تلك الغمرات: يا معشر العرب، الله، الله في الحرمات من للنساء والبنات!

وأقبل الأشر على فرس كميّ محذوف، وقد وضع مغفره على قربوس السرج، وهو ينادي: اصبروا يا معشر المؤمنين، فقد حمي الوطيس، ورجعت الشمس، من الكسوف، واشتد القتال، وأخذت السباع بعضها بعضاً، فهم كما قال الشاعر:

مضت واستأخر القرعاء عنها

وخلّى بينهم إلا الوريع

قال: يقول واحد لصاحبه في تلك الحال: أي رجل هذا لو كانت له نية! فيقول له صاحبه: وأي نية أعظم من هذه ثكلتك أمك وهبلك! إن رجلاً كما ترى قد سبح في الدم، وما أضجرتة الحرب، وقد غلت هام الكمأة من الحر، وبلغت القلوب الحناجر، وهو كما تراه جذعا يقول

هذه المقالة! اللهم لا تبقتنا بعد هذا!

وكان معاوية يحارب لكسب السلطة بنفس الروح التي كان يحارب بها أبو سفيان وزوجته هند وأسرتة الأموية لكسر الإسلام وتحطيمه، ولذا فإنه لم يدع إلى كتاب الله والرجوع إليه، ولم يرفعه على الرماح إلا بعد أن أكلته الحرب، وكسرت شوكته وكادت أن تقضي على آخر آماله في الانتصار..^(١)

وهو لم يدع إلى الكتاب ليرجع إلى حكمه، بل ليلتقط أنفاسه، يستعيد قواه التي مزقتها جيش الحق، فسعى إلى المكر بأسلوب عجيب، وأراد أن يضحى بنفسه وهذا أمر غريب.. لأن الجبان يكون أصعب شيء عليه ذكر الموت والقتل.. لماذا إذن وكيف ذلك يا ابن هند؟

يحدث عمار بن ربيعة، يقول: إن علياً عليه السلام قام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس! قد بلغ بكم الأمر وبعدوكم ما قد رأيتم، ولم يبق منهم إلا آخر نفس، وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا منهم ما بلغنا، وأنا غاد عليهم بالغداة أحاكمهم إلى الله عز وجل.

فبلغ ذلك معاوية، فدعا عمرو بن العاص، فقال: يا عمرو! إنما هي الليلة حتى يغدو علي علينا بالفيصل، فما ترى؟

قال: إن رجالك لا يقومون لرجاله، ولست مثله، هو يقاتلك على أمر، وأنت تقاتله على غيره.. أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم، وأهل الشام لا يخافون علياً إن ظفر بهم. ولكن ألق إليهم أمراً إن قبلوه اختلفوا، وإن ردوه اختلفوا؛ ادعهم

(١) (سيرة الإمام علي عليه السلام للطائي ٥/٦٦)

إلى كتاب الله حكما فيما بينك وبينهم؛ فإنك بالغ به حاجتك في القوم؛
فإني لم أزل أؤخر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه. فعرف ذلك معاوية،
فقال: صدقت..

وصعصعة بن صوحان، قال: وقد كان الأشعث بن قيس بدر منه
قول ليلة الهرير، نقله الناقلون إلى معاوية، فاغتنمه وبنى عليه تدبيره،
وذلك أن الأشعث خطب أصحابه من كنده تلك الليلة، فقال: الحمد لله،
أحمده، وأستعينه، وأؤمن به، وأتوكل عليه، وأستنصره، وأستغفره،
وأستخيره، وأستهديه... قد رأيتم - يا معشر المسلمين - ما قد كان في
يومكم هذا الماضي، وما قد فني فيه من العرب، فوالله لقد بلغت من
السن ما شاء الله أن أبلغ، فما رأيتم مثل هذا اليوم قط. ألا فليبلغ الشاهد
الغائب، إنا إن نحن تواقفنا غدا إنه لفناء العرب، وضیعة الحرمات، أما
والله ما أقول هذه المقالة جزعا من الحتف، ولكني رجل مسن أخاف
على النساء والذراري غدا إذا فنيانا. اللهم! إنك تعلم أنني قد نظرت لقومي
ولأهل ديني فلم آل، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب،
والرأي يخطئ ويصيب، وإذا قضى الله أمرا أمضاه على ما أحب العباد أو
كرهوا، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

قال صعصعة: فانطلقت عيون معاوية إليه بخطبة الأشعث، فقال:
أصاب ورب الكعبة! لئن نحن التقينا غدا لتميلن الروم على ذرارينا
ونسائنا، ولتميلن أهل فارس على نساء أهل العراق وذرايهم، وإنما
يبصر هذا ذوو الأحلام والنهى، اربطوا المصاحف على أطراف القنا.

قال صعصعة: فثار أهل الشام فنادوا في سواد الليل: يا أهل العراق!
من لذرارينا إن قتلتمونا، ومن لذراريكم إن قتلناكم؟ الله، الله في البقية^(١)

(١) للتفصيل: راجع صفين لابن مزاحم: ص ٤٨٠، وشرح النهج الحديدي: ج ٢/ ٢١٤.

١٨. دعاء الإمام (عليه السلام) قبل رفع المصاحف

في مهج الدعوات عن سعد بن عبد الله - قال: إن هذا الدعاء دعا به علي (صلوات الله عليه) قبل رفع المصاحف الشريفة، ثم قال ما معناه: إن إبليس صرخ صرخة سمعها بعض العسكر يشير على معاوية وأصحابه برفع المصاحف الجليلة للحيلة، فأجابه الخوارج لمعاوية إلى شبهاته، فرفعوها فاختلف أصحاب أمير المؤمنين علي عليه السلام: اللهم إني أسألك العافية من جهد البلاء، ومن شماتة الأعداء. اللهم اغفر لي ذنبي، وزك عملي، واغسل خطاياي؛ فإنني ضعيف إلا ما قويت، واقسم لي حلما تسد به باب الجهل، وعلمنا تفرج به الجهلات، ويقينا تذهب به الشك عني، وفهما تخرجني به من الفتن المعضلات، ونورا أمشي به في الناس، وأهتدي به في الظلمات. اللهم اصلح لي سمعي وبصري وشعري وبشري وقلبي صلاحا باقيا تصلح بها ما بقي من جسدي، أسألك الراحة عند الموت، والعفو عند الحساب. اللهم إني أسألك أي عمل كان أحب إليك وأقرب لديك، أن تستعملني فيه أبدا، ثم لقني أشرف الأعمال عندك، وآتني فيه قوة وصدقا وجدا وعزما منك ونشاطا، ثم اجعلني أعمل ابتغاء وجهك، ومعاشة في ما آتيت صالححي عبادك، ثم اجعلني لا أشتري به ثمنا قليلا، ولا أبتغي به بدلا، ولا تغيره في سراء ولا ضراء ولا كسلا ولا نسيانا، ولا رياء، ولا سمعة، حتى تتوفاني عليه، وارزقني أشرف القتل في سبيلك، أنصرك وأنصر رسولك، أشتري الحياة الباقية بالدنيا، وأغنني بمرضاة من عندك^(١).

(١) مهج الدعوات: ص ١٢٩، البحار: ج ٢٣٨/٩٤.

١٩. رفع المصاحف

فلما رأى عمرو بن العاص أن أمر أهل العراق قد اشتد، وخاف في ذلك الهلاك، قال لمعاوية: هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعا، ولا يزيدهم إلا فرقة؟ قال: نعم. قال: نرفع المصاحف ثم نقول: ما فيها حكم بيننا وبينكم، فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول: بلى ينبغي أن نقبل، فتكون فرقة تقع بينهم، وإن قالوا: بلى نقبل ما فيها، رفعنا هذا القتال عنا وهذه الحرب إلى أجل أو إلى حين.. فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا: هذا كتاب الله ﷻ بيننا وبينكم، من لشغور أهل الشام بعد أهل الشام؟ ومن لشغور أهل العراق بعد أهل العراق! فلما رأى الناس المصاحف قد رفعت، قالوا: نجيب إلى كتاب الله ﷻ ونجيب إليه^(١)..

تاريخ اليعقوبي: زحف أصحاب علي وظهروا على أصحاب معاوية ظهوراً شديداً، حتى لصقوا به، فدعا معاوية بفرسه لينجو عليه، فقال له عمرو بن العاص: إلى أين؟ قال: قد نزل ما ترى، فما عندك؟ قال: لم يبق إلا حيلة واحدة؛ أن ترفع المصاحف، فتدعوهم إلى ما فيها، فتستكفهم، وتكسر من حدهم، وتفت في أعضادهم. قال معاوية: فشأنك! فرفعوا المصاحف، ودعوهم إلى التحكم بما فيها، وقالوا: ندعوكم إلى كتاب الله.

فقال علي: إنها مكيدة، وليسوا بأصحاب قرآن. فاعترض الأشعث بن قيس الكندي - وقد كان معاوية استماله، وكتب إليه ودعاه إلى نفسه - فقال: قد دعا القوم إلى الحق!

(١) (تاريخ الطبري عن أبي مخنف: ج ٤٨/٥، الكامل في التاريخ: ج ٣٨٦/٢)

فقال علي عليه السلام: إنهم إنما كادوكم، وأرادوا صرفكم عنهم.. فقال الأشعث: والله، لئن لم تجبهم انصرفتُ عنك.. ومالت اليمانية مع الأشعث، فقال الأشعث: والله، لتجيبنهم إلى ما دعوا إليه، أو لندفعنك إليهم برمتك..^(١)

مروج الذهب - في ذكر ما جري يوم الهيرير -: وكان الأشتر في هذا اليوم - وهو يوم الجمعة - على ميمنة علي، وقد أشرف على الفتح، ونادت مشيخة أهل الشام: يا معشر العرب! الله الله في الحرمات والنساء والبنات.

وقال معاوية: هلم مخبأتك يا بن العاص؛ فقد هلكنا، وتذكر ولاية مصر، فقال عمرو: أيها الناس! من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه. فكثر في الجيش رفع المصاحف، وارتفعت الضجة، ونادوا: كتاب الله بيننا وبينكم؛ من لثغور الشام بعد أهل الشام؟ ومن لثغور أهل العراق بعد أهل العراق؟ ومن لجهاد الروم؟ ومن للترك؟ ومن للكفار؟ ورفع في عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف. وفي ذلك يقول النجاشي بن الحارث:

فأصبح أهل الشام قد رفعوا
القنا عليها كتاب الله خير قرآن
ونادوا عليا يا ابن عم محمد
أما تتقي أن يهلك الثقلان

فلما رأى كثير من أهل العراق ذلك قالوا: نجيب إلى كتاب الله وننيب إليه، وأحب القوم الموادعة، وقيل لعلي: قد أعطاك معاوية

(١) تاريخ اليعقوبي: ج ٢/١٨٨، العقد الفريد: ج ٣/٣٤٠، الفتوح: ج ٣/١٨٠.

الحق، ودعائك إلى كتاب الله فاقبل منه، وكان أشدهم في ذلك اليوم الأشعث بن قيس^(١)..

ونادى إنسان من أهل الشام في جوف الليل بشعر سمعه الناس، وهو:

رؤوس العراق أجيوا الدعاء
فقد بلغت غاية الشدة
وقد أودت الحرب بالعالمين
وأهل الحفائظ والنجدة
فلسنا ولستم من المشركين
ولا المجمعين على الردة
ولكن أناس لقوا مثلهم
لنا عدة ولكم عدة
فقاتل كل على وجهه
يقحمه الجحد والحد
فإن تقبلوها ففيها البقاء
وأمن الفريقين والبلد
وإن تدفعوها ففيها
الفناء وكل بلاء إلى مده
فحتى متى مخض هذا السقاء
ولا بد أن تخرج الزبد
ثلاثة رهط هم أهلها وإن
يسكتوا تخمد الوقده

(١) مروج الذهب: ج ٢/٤٠٠، الفتوح: ج ٣/١٨١.

سعيد بن قيس وكبش العراق

وذاك المسود من كنده

قال: فأما المُسَوَّد من كنده، فهو الأشعث، فإنه لم يرضَ بالسكوت، بل كان من أعظم الناس قولاً في إطفاء الحرب والركون إلى المودعة.. وأما كبش العراق، فهو الأشتر النخعي، فلم يكن يرى إلا الحرب، ولكنه سكت على مضض.. وأما سعيد بن قيس، فكان تارة هكذا وتارة هكذا..

وعن تميم بن حذيم: لما أصبحنا من ليلة الهرير نظرنا، فإذا أشباه الرايات أمام صف أهل الشام وسط الفيلق من حيال موقف معاوية، فلما أسفرنا إذا هي المصاحف قد ربطت على أطراف الرماح، وهي عظام مصاحف العسكر، وقد شدوا ثلاثة أرماع جميعا وقد ربطوا عليها مصحف المسجد الأعظم يمسكه عشرة رهط.

وقال أبو جعفر وأبو الطفيل: استقبلوا عليا بمائة مصحف، ووضعوا في كل مجنبة مائتي مصحف، وكان جميعها خمسمائة مصحف. قال أبو جعفر: ثم قام الطفيل بن أدهم حيال علي عليه السلام، وقام أبو شريح الجذامي حيال الميمنة، وقام ورقاء بن المعمر حيال الميسرة، ثم نادوا: يا معشر العرب! الله الله في نسائكم وبناتكم، فمن للروم والأتراك وأهل فارس غدا إذا فنيتم، الله الله في دينكم، هذا كتاب الله بيننا وبينكم.

فقال علي: اللهم إنك تعلم أنهم ما الكتاب يريدون، فاحكم بيننا وبينهم، إنك أنت الحكم الحق المبين. فاختلف أصحاب علي عليه السلام في الرأي، فطائفة قالت: القتال، وطائفة قالت: المحاكمة إلى الكتاب، ولا يحل لنا الحرب وقد دعينا إلى حكم الكتاب..

وقيل: أنهم أصبحوا وقد رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح، وقد قلدوها الخيل (والناس على الرايات قد اشتهوا ما دعوا إليه)، ومصحف دمشق الأعظم يحمله عشرة رجال على رؤوس الرماح، وهم ينادون: كتاب الله بيننا وبينكم. وأقبل أبو الأعور السلمي على برذون أبيض، وقد وضع المصحف على رأسه، ينادي: يا أهل العراق، كتاب الله بيننا وبينكم.

وأقبل عدي بن حاتم، فقال: يا أمير المؤمنين! إن كان أهل الباطل لا يقومون بأهل الحق؛ فإنه لم يصب عصبه منا إلا وقد أصيب مثلها منهم، وكل مقروح، ولكننا أمثل بقية منهم، وقد جزع القوم، وليس بعد الجزع إلا ما تحب، فناجز القوم.

فقام الأشتر النخعي فقال: يا أمير المؤمنين! إن معاوية لا خلف له من رجاله، ولك بحمد الله الخلف، ولو كان له مثل رجالك لم يكن له مثل صبرك ولا بصرك، فاقرع الحديد بالحديد، واستعن بالله الحميد.

ثم قام عمرو بن الحمق فقال: يا أمير المؤمنين! إنا والله ما أجبنك، ولا نصرناك عصبية على الباطل ولا أجبننا إلا الله عز وجل، ولا طلبنا إلا الحق، ولو دعانا غيرك إلى ما دعوت إليه لاستشري فيه اللجاج، وطالت فيه النجوى؛ وقد بلغ الحق مقطعه، وليس لنا معك رأي.

فقام الأشعث بن قيس مغضبا فقال: يا أمير المؤمنين! إنا لك اليوم على ما كنا عليه أمس، وليس آخر أمرنا كأوله، وما من القوم أحد أحنى على أهل العراق ولا أوتر لأهل الشام مني؛ فأجب القوم إلى كتاب الله؛ فإنك أحق به منهم، وقد أحب الناس البقاء، وكرهوا القتال.

فقال علي عليه السلام: إن هذا أمر ينظر فيه. وذكروا أن أهل الشام جزعوا

فقالوا: يا معاوية! ما نرى أهل العراق أجابوا إلى ما دعوناهم إليه، فأعدها جذعة؛ فإنك قد غمرت بدعائك القوم، وأطمعتهم فيك..

فدعا معاوية عبد الله بن عمرو بن العاص، وأمره أن يكلم أهل العراق، فأقبل حتى إذا كان بين الصفين نادى: يا أهل العراق! أنا عبد الله بن عمرو بن العاص، إنها قد كانت بيننا وبينكم أمور للدين والدنيا، فإن تكن للدين فقد والله أعذرنا وأعذرتم، وإن تكن للدنيا فقد والله أسرفنا وأسرفتم.. وقد دعوناكم إلى أمر لو دعوتمونا إليه لأجبناكم؛ فإن يجمعنا وإياكم الرضى فذلك من الله، فاغتنموا هذه الفرجة لعله أن يعيش فيها المحترف، وينسى فيها القتل؛ فإن بقاء المهلك بعد الهالك قليل.

فخرج سعيد بن قيس فقال: يا أهل الشام! إنه قد كان بيننا وبينكم أمور حامينا فيها على الدين والدنيا، سميتموها غدراً وسرفاً.. وقد دعوتمونا اليوم إلى ما قاتلناكم عليه بالأمس، ولم يكن ليرجع أهل العراق إلى عراقهم، ولا أهل الشام إلى شامهم بأمر أجمل من أن يحكم بما أنزل الله، فالأمر في أيدينا دونكم، وإلا فنحن نحن، وأنتم أنتم.

٢٠. الإمام في حصار أصحاب الجباه السود

ووهكذا قام الناس إلى الإمام علي عليه السلام فقالوا: أجب القوم إلى ما دعوك إليه؛ فإننا قد فنيينا وأكلتنا الحرب وقتلت الرجال.. وقال قوم: نقاتل القوم على ما قاتلناهم عليه أمس.. ولم يقل هذا إلا قليل من الناس، ثم رجعوا عن قولهم مع الجماعة، وثارَت الجماعة بالموادعة.

فقام علي أمير المؤمنين عليه السلام فقال: إنه لم يزل أمري معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب، وقد والله أخذت منكم وتركت،

وأخذت من عدوكم فلم تترك، وإنها فيهم أنكى (أشد) وأنهك.. ألا إني كنت أمس أمير المؤمنين، فأصبحت اليوم مأمورا، وكنت ناهيا فأصبحت منهيًا، وقد أحببتكم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون..

وبرواية أخرى قال الإمام علي عليه السلام: أيها الناس! إنه لم يزل أمري معكم على ما أحب، حتى نهكتكم الحرب، وقد والله أخذت منكم وتركت، وهي لعدوكم أنهك، لقد كنت أمس أميرا، فأصبحت اليوم مأمورا، وكنت أمس ناهيا، فأصبحت اليوم منهيًا، وقد أحببتكم البقاء، وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون!

مروج الذهب - بعد ذكر رفع المصاحف -: فلما رأى كثير من أهل العراق ذلك، قالوا: نجيب إلى كتاب الله وننيب إليه، وأحب القوم الموادعة وقيل لعلي عليه السلام: قد أعطاك معاوية الحق، ودعاك إلى كتاب الله، فاقبل منه، وكان أشدهم في ذلك اليوم الأشعث بن قيس، فقال علي عليه السلام: أيها الناس! إنه لم يزل من أمركم ما أحب حتى قرحتكم الحرب، وقد والله أخذت منكم وتركت، وإني كنت بالأمس أميرا، فأصبحت اليوم مأمورا، وقد أحببتكم البقاء..

ولما رفع أهل الشام المصاحف على الرماح يدعون إلى حكم القرآن قال علي عليه السلام: عباد الله! إني أحق من أجاب إلى كتاب الله، ولكن معاوية، وعمر بن العاص، وابن أبي معيط، وحبيب بن مسلمة، وابن أبي سرح ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إني أعرف بهم منكم، صحبتهم أطفالا، وصحبتهم رجالا، فكانوا شر أطفال، وشر رجال. إنها كلمة حق يراد بها باطل، إنهم والله ما رفعوها أنهم يعرفونها ويعملون بها، ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة. أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا.

فجاءه زهاء عشرين ألفاً مقنعين في الحديد شاكى السلاح، سيوفهم على عواتقهم، وقد اسودت جباههم من السجود!! يتقدمهم الأشعث بن قيس، مسعر بن فدكي، وزيد بن حصين، وعصابة من القراء الذين صاروا خوارج من بعد، فنادوه باسمه لا بإمرة المؤمنين: يا علي! أجب القوم إلى كتاب الله إذ دعيت إليه، وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم.

فقال لهم: ويحكم! أنا أول من دعا إلى كتاب الله، وأول من أجاب إليه، وليس يحل لي ولا يسعني في ديني أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله، إني إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن؛ فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم، ونقضوا عهده، ونبذوا كتابه، ولكني قد أعلمتكم أنهم قد كادوكم، وأنهم ليسوا بالعمل بالقرآن يريدون.

قالوا: فابعث إلى الأشتر ليأتيك.. وقد كان الأشتر صبيحة ليلة الهرير قد أشرف على عسكر معاوية ليدخله^(١)

٢١. رجوع الأشتر من المعركة

وفي ذلك يقول إبراهيم بن الأشتر: كنت عند علي عليه السلام حين أكرهه الناس على الحكومة، وقالوا: ابعث إلى الأشتر فليأتك.

قال: فأرسل علي عليه السلام إلى الأشتر يزيد بن هانئ السبيعي أن ائتني. فأتاه فبلغه.. فقال: قل له: ليس هذه الساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقعي، إني قد رجوت أن يفتح لي؛ فلا تعجلني. فرجع يزيد بن هانئ إلى علي فأخبره، فما هو إلا أن انتهى إلينا، فارتفع الرهج، وعلت

(١) راجع كل التفاصيل في صفين لابن مزاحم: ص ٤٨٥ وما بعدها، وشرح النهج: ج ٢/ ٢١٦.

الأصوات من قبل الأشر، فقال له القوم: والله ما نراك إلا أمرته أن يقاتل.
قال: من أين ينبغي أن تروا ذلك! رأيتموني ساررته؟ أليس إنما كلمته على رؤوسكم علانية، وأنتم تسمعونني!

قالوا: فابعث إليه فليأتك، وإلا والله اعتزلناك. قال له: ويحك يا يزيد! قل له: أقبل إلي؛ فإن الفتنة قد وقعت! فأبلغه ذلك، فقال له: أرفع المصاحف؟ قال: نعم، قال: أما والله، لقد ظننت حين رفعت أنها ستوقع اختلافا وفرقة، إنها مشورة ابن العاهرة، ألا ترى ما صنع الله لنا! أينبغي أن أدع هؤلاء وأنصرف عنهم!

وقال يزيد بن هانئ: فقلت له: أتحب أنك ظفرت هاهنا، وأن أمير المؤمنين بمكانه الذي هو به يفرج عنه أو يسلم؟ قال: لا والله، سبحان الله! قال: فإنهم قد قالوا: لترسلن إلى الأشر فليأتينك أو لنقتلنك كما قتلنا ابن عفان.

فأقبل حتى انتهى إليهم فقال: يا أهل العراق! يا أهل الذل والوهن! أحين علوتم القوم ظهرا، وظنوا أنكم لهم قاهرون، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها! وقد والله تركوا ما أمر الله ﷻ به فيها، وسنة من أنزلت عليه ﷺ؟ فلا تجيئوهم، أمهلوني عدو الفرس؛ فإنني قد طمعت في النصر.

قالوا: إذن ندخل معك في خطيئتك، قال: فحدثوني عنكم؛ وقد قتل أمثالكم، وبقي أراذلكم، متى كنتم محقين؟ أحين كنتم تقتاتلون وخياركم يقتلون! فأنتم الآن إذ أمسكنم عن القتال مبطلون، أم الآن أنتم محقون؟ فقتلاكم الذين لا تنكرون فضلهم، فكانوا خيرا منكم، في النار إذا!

قالوا: دعنا منك يا أشر، قاتلناهم في الله عَزَّوَجَلَّ، وندع قتالهم لله سبحانه، إنا لسنا مطيعيك ولا صاحبك، فاجتنبنا. فقال: خدعتم والله فانخدعتم، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم.. يا أصحاب الجباه السود! كنا نظن صلواتكم زهادة في الدنيا، وشوقا إلى لقاء الله عَزَّوَجَلَّ، فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت.. ألا قبحا يا أشباه النيب الجلالة (الجمال التي تأكل الروث وفضلات الإنسان)! وما أنتم برائين بعدها عزاً أبداً، فأبعدوا كما بعد القوم الظالمون! فسبوه، فسبهم، فضربوا وجه دابته بسياطهم، وأقبل يضرب بسوطه وجوه دوابهم، وصاح بهم علي عليه السلام فكفوا..^(١)

ثم قال الأشر: يا أمير المؤمنين! احمل الصف على الصف يصرع القوم.. فتصايحوا: إن عليا أمير المؤمنين قد قبل الحكومة، ورضي بحكم القرآن، ولم يسعه إلا ذلك.. قال الأشر: إن كان أمير المؤمنين قد قبل ورضي بحكم القرآن، فقد رضيت بما رضي أمير المؤمنين.. فأقبل الناس يقولون: قد رضي أمير المؤمنين، قد قبل أمير المؤمنين، وهو ساكت، لا يبض بكلمة، مطرق إلى الأرض..

ثم قام فسكت الناس كلهم، فقال: أيها الناس، إن أمري لم يزل معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب، وقد والله أخذت منكم وتركت، وأخذت من عدوكم فلم تترك، وإنها فيهم أنكى وأنهك، ألا إني كنت أمس أمير المؤمنين فأصبحت اليوم مأمورا، وكنت ناهيا فأصبحت منهيا، وقد أحببتكم البقاء، وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون ثم قعد.

قال نصر: ثم تكلم رؤساء القبائل، فكل قال ما يراه ويهواه، إما من

(١) صفين: ص ٤٩٠، تاريخ الطبري: ج ٥/٤٩، الكامل في التاريخ: ج ٢/٣٨٦.

الحرب أو من السلم، فقام كردوس بن هانيء البكري فقال: أيها الناس، إنا والله ما تولينا معاوية منذ تبرأنا منه، ولا تبرأنا من علي منذ توليناه، وإن قتلنا لشهداء، وإن أحيانا لأبرار، وإن عليا لعلى بينة من ربه، وما أحدث إلا الانصاف، فمن سلم له نجا، ومن خالفه هلك.

ثم قام شقيق بن ثور البكري، فقال: أيها الناس، إنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله، فردوه علينا، فقاتلناهم عليه، وإنهم قد دعونا اليوم إليه، فإن رددناه عليهم، حلّ لهم منا ما حلّ لنا منهم، ولسنا نخاف أن يحيف الله علينا ورسوله، ألا إن علياً ليس بالراجع الناكس، ولا الشاك الواقف، وهو اليوم على ما كان عليه أمس، وقد أكلتنا هذه الحرب، ولا نرى البقاء إلا في المودة..

ونترك رأس القاسطين يتحدث عن بطولته حينئذ، فعن معاوية، قال: أخذت بمعرفة فرسي، ووضعت رجلي في الركاب للهرب، حتى ذكرت شعر ابن الإطنابة:

أبت لي عفتي وأبى بلائي
وأخذي الحمد بالثمن الربيع
واقدامي على المكروه نفسي
وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت
مكانك تحمدي أو تستريحي

فأخرجت رجلي من الركاب وأقمت، ونظرت إلى عمرو، فقلت له: اليوم صبر وغداً فخر، فقال: صدقت.

فعدت إلى مقعدي، فأصبت خير الدنيا، وإني لراج أن أصيب خير الآخرة (تأمل أرجوك بهذا الكلام، وعظمة هذا النفاق).

وعن ربيعة بن لقيط، قال: شهدنا صفين، فمطرت السماء علينا دماً عبيطاً.. وقال: وفي حديث الليث بن سعد أن كانوا ليأخذونه بالصحاف والآنية.. وفي قول ابن لهيعة: «حتى إن الصحاف والآنية لتمتلئ ونهريقها» أي نكبتها من الأواني..

وقال إبراهيم: عمّن حدثه ممن حضر صفين أنهم مطروا دماً عبيطاً، فتلقاه الناس بالقصاع والآنية، وذلك في يوم الهرير، وفزع أهل الشام وهموا أن يتفرقوا، فقام عمرو بن العاص فيهم، فقال: أيها الناس، إنما هذه آية من آيات الله، فأصلح امرؤ ما بينه وبين الله، ثم لا عليه أن ينتطح هذان الجبلان.. فأخذوا في القتال..

قال إبراهيم: عن سفيان بن عاصم بن كليب الحارثي عن أبيه، قال: أخبرني ابن عباس، قال: لقد حدثني معاوية أنه كان يومئذ قد قرّب إليه فرساً له أنثى، بعيدة البطن من الأرض، ليهرب عليها، حتى أتاه آت من أهل العراق، فقال له: إني تركت أصحاب علي في مثل ليلة الصدر (الليلة الرابعة حيث النهاية) من منى، فأقمت، قال: فقلنا له: فأخبرنا من هو ذلك الرجل؟ فأبى وقال: لا أخبركم مَنْ هو.. (ألا تراه الأشعث بن قيس، أو رسوله إليه؟).

٢٢. فرح معاوية

كان معاوية بعد ذلك [أي بعد توقف الحرب] يقول: والله، لقد رجع عني الأشتر يوم رفع المصاحف، وأنا أريد أن أسأله أن يأخذ لي الأمان من علي.. وقد هممت ذلك اليوم بالهرب، ولكن ذكرت قول عمرو بن الأطنابة حيث، يقول:

أبت لي عفتي وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الريح

فغمد الناس أسيافهم، ووضعوا أسلحتهم، وعزموا على الحكم، فقال عمرو لمعاوية: كيف رأيت رأيي؟ لقد كنت غرقت في بحر العراق وأنقذتك.

فقال معاوية: صدقت أبا عبد الله، ولمثلها كنت أرجوك^(١).

٢٢. رسالة معاوية إلى الإمام عليه السلام

عن إبراهيم بن الأشتر: بعث معاوية أبا الأعور السلمي على برذون أبيض، فسار بين الصفين؛ صف أهل العراق وصف أهل الشام، والمصحف على رأسه وهو يقول: كتاب الله بيننا وبينكم. فأرسل معاوية إلى علي عليه السلام: إن الأمر قد طال بيننا وبينك، وكل واحد منا يرى أنه على الحق فيما يطلب من صاحبه، ولن يعطي واحد منا الطاعة للآخر، وقد قتل فيما بيننا بشر كثير، وأنا أتخوف أن يكون ما بقي أشد مما مضى، وإنا سوف نسأل عن ذلك الموطن، ولا يحاسب به غيري وغيرك، فهل لك في أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وبراءة، وصلاح للأمة، وحقق للدماء، وألفة للدين، وذهاب للضغائن والفتن؛ أن يحكم بيننا وبينك حكمان رضيان؛ أحدهما من أصحابي، والآخر من أصحابك؛ فيحكمان بما في كتاب الله بيننا؛ فإنه خير لي ولك، وأقطع لهذه الفتنة.. فاتق الله فيما دعيت له، وارض بحكم القرآن إن كنت من أهله.. والسلام^(٢).

(١) الفتوح لابن الأعمش: ج ٣/١٩١.

(٢) صفين: ص ٤٩٣، شرح النهج: ج ٢/٢٢٥، البحار: ج ٣٢/٥٣٧ مع الجواب.

٢٤. جواب الإمام (عليه السلام) عنه وقبوله التحكيم

فكتب إليه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان.. أما بعد؛ فإن أفضل ما شغل به المرء نفسه اتباع ما يحسن به فعله، ويستوجب فضله، ويسلم من عيبه.. وإن البغي والزور يزريان بالمرء في دينه ودنياه، ويبديان من خلله عند من يغنيه ما استرعاه الله ما لا يغني عنه تدبيره.

فاحذر الدنيا؛ فإنه لا فرح في شيء وصلت إليه منها.. ولقد علمت أنك غير مدرك ما قضي فواته.. وقد رام قوم أمراً بغير الحق؛ فتأولوا على الله تعالى، فأكذبهم ومتعهم قليلاً، ثم اضطروهم إلى عذاب غليظ.. فاحذر يوماً يغتبط فيه من أحمد عاقبة عمله، ويندم فيه من أمكن الشيطان من قياده ولم يحاده، فغرته الدنيا واطمأن إليها.

ثم إنك قد دعوتني إلى حكم القرآن؛ ولقد علمت أنك لست من أهل القرآن، ولست حكمه تريد، والله المستعان.. وقد أجبنا القرآن إلى حكمه، ولسنا إياك أجبنا.. ومن لم يرض بحكم [القرآن] ^(١) فقد ضل ضلالاً بعيداً..^(١)

وبرواية أخرى قال الإمام علي عليه السلام في كتابه: وإن البغي والزور يوتغان المرء في دينه ودنياه، ويبديان خلله عند من يعيبه، وقد علمت أنك غير مدرك ما قضي فواته، وقد رام أقوام أمراً بغير الحق، فتأولوا على الله فأكذبهم.. فاحذر يوماً يغتبط فيه من أحمد عاقبة عمله، ويندم من أمكن الشيطان من قياده فلم يجاذبه.. وقد دعوتنا إلى حكم القرآن ولست من أهله، ولسنا إياك أجبنا، ولكننا أجبنا القرآن في حكمه.

(١) نهج البلاغة: كتاب ٤٨، البحار: ج ٣٢/٣٠٨، ويوتغ: يهلك ويميت.

والسلام. (١)

٢٥. كلام الإمام في ذم أصحابه

حين رجع أصحابه عن القتال بصفين، لما اغتروهم معاوية برفع المصاحف خطبهم عليه السلام قائلاً: لقد فعلتم فعلة ضعفت من الإسلام قواه، وأسقطت متنه (قصمت ظهره)، وأورثت وهناً وذلةً.. لما كنتم الأعلى، وخاف عدوكم الاجتياح، واستحزَّ بهم القتل، ووجدوا ألم الجراح؛ رفعوا المصاحف ودعوكم إلى ما فيها ليفثؤوكم (يدفعوكم) عنهم، ويقطعوا الحرب فيما بينكم وبينهم، ويتربص بكم ريب المنون خديعةً ومكيدهً.. فما أنتم إن جامعتموهم على ما أحبوا، وأعطيتموهم الذي سألوا إلا مغرورون.. وأيم الله، ما أظنكم بعدها موافقي رشد، ولا مصيبي حزم^(١)..

جاء عدي بن حاتم يلتمس علياً، ما يطأ إلا على إنسان ميت أو قدم أو ساعد، فوجده تحت رايات بكر بن وائل، فقال: يا أمير المؤمنين! ألا نقوم حتى نموت؟ فقال علي عليه السلام: اذنه، فدنا حتى وضع أذنه عند أنفه، فقال: ويحك! إن عامة من معي يعصيني، وإن معاوية فيمن يطيعه ولا يعصيه^(٢)..

(١) (الإرشاد للمفيد: ج ١/٢٦٨، البحار ج ٣٣/٥٠٩، تاريخ الطبري: ج ٥/٥٦)

(٢) صفين: ص ٣٧٩، البحار: ج ٣٢/٥٠٣، شرح النهج: ج ٨/٧٧.

الفصل الرابع:

النتائج والآثار لصفين

١. توقف الحرب

١.١. مكر الليل وبريق المال

وضع معاوية رجله في ركاب دابته وأراد الفرار إلى ملك الروم بلا شك عندي، لأنه صادقه ووادعه بعد أن رشاه بالذهب والحرير وغيره.. ولكنه خجل من الفرار فرجع إلى خيمته، ولكن ما الذي قلب الأمور ظهراً لبطن، ورأساً على عقب؟

إنه المكر، والخداع، والرشاوي والأطماع التي لعبت دوراً أساسياً بقلب ظهر المجن للعراقيين.. لأن المكر والخداع الأموي لا ينطلي على أصحاب البصائر النافذة، والإيمان الراسخ بالحق الذي هم عليه، فلماذا

لم ينخدع ابن عباس، والأشتر، وقيس بن سعد، وبقيّة الأكياس من رجالات الإسلام..

نعم؛ الذي ينخدع هم الأرجاس الأنكاس من أرباب الأهواء الفاسدة، والآراء الباطلة، والعقائد المتقلقلة، أولئك الخوارج الذين خرجوا من الدين باسم الدين وهم أصحاب الجباه السود، وأعمال القروء فلا يفقهون كلاماً ولا يدرون حكماً، ولا يعون آية من آيات الله..

والذي اعتقده - وللأسف لم يسجل التاريخ شواهد إلا القليل جداً ولكن فيها العبرة لمن يعتبر - أن من هرب من أهل العراق شيوخاً وقبائل، (كمصقلة بن هبيرة، والققعقاع بن شور، والنعمان بن عجلان، ويزيد بن حجية، ووائل بن حجر، وشاعر الكوفة المعروف بالنجاشي الفاسق شارب الخمر، ومولى من موالي أمير المؤمنين عليه السلام وغيرهم كثير من أصحاب الأطماع والأهواء) فكانوا أعظم جواسيس لمعاوية فاستغلهم أسوء استغلال ليعرف دخائل الناس ونقاط ضعف الرؤوس منهم، كزعماء العشائر، وشيوخ القبائل، وفرسان الأمصار..^(١)

ففي هدنه المحرم، ومن هؤلاء عرف معاوية ظروف الناس في العراق، وأهواء شيوخهم فراح يرأسلهم سراً عن طريق هؤلاء فكانوا يذهبون بصورة الصديق الناصح، فيعطونه دفعة على سبيل الهدية (رشوة) ويعدونه بالمزيد إذا استلم أبو يزيد كل المقاليد في الدولة الإسلامية.

وأما كبراء الناس ورؤوسهم فكان يدفع لهم الأموال الطائلة ويمنيهم بالمناصب والولايات على الأمصار كما فعل بوزيره عمرو ابن النابغة، حيث أعطاه مصر طعمة مدى حياته..

(١) (راجع، سيرة الإمام علي عليه السلام للطائي: مج ٣/ ج ٦/ ص ٦٠)

وهذا المنذر بن ابي حميضة الأوزاعي الهمداني الذي كان مع الإمام علي عليه السلام يوم صفين، وهو فارس همدان وشاعرهم، قال: لما اشترطت عُك والاشعرون على معاوية ان يجعل لهم فريضة ألفي رجل في ألفين ألفين، فجعل لهم ذلك.. طمع كل من كان في قلبه مرض من أهل العراق في معاوية.. بلغ ذلك علياً (ع) فساءه ذلك.. فجاء المنذر الى الإمام علي عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين ان عُكاً والاشعريين طلبوا إلى معاوية الفرائض والعقار فاعطاهم فباعوا الدين بالدنيا، وإننا رضىنا بالآخرة من الدنيا، وبالعراق من الشام، وبك من معاوية.. والله لآخرتنا خير من دنياهم، ولعراقنا خير من شهامهم، ولإمامنا أهدى من إمامهم.. فامتحننا بالصبر، واحملنا على الموت، ثم قال في ذلك شعراً جميلاً:

ان عكا سالوا الفرائض

والاشعر سالوا جوائز بشيه

تركوا الدين للعتاء وللغرض

فكانوا بذاك شر البريه

فقال الإمام علي عليه السلام له: حسبك رحمك الله، واثني عليه خيراً وعلى قومه، وانتهى شعره الى معاوية، فقال: والله لاستميلن بالأموال ثقات علي، ولاقسمن فيهم المال حتى تغلب دنياي آخرته.^(١)

فالأمر واضح بين لذوي البصائر، وذو الحجى فالدين عند أمير المؤمنين علي عليه السلام، والدنيا عند ابن هند، وأكبر فتن الدنيا هو المال، والسلطان، والجاه والصولجان.. وكان رأس الفتنة، وكبير المنافقين في جيش العراق هو الأشعث بن قيس الكندي (عرف النار) الذي أراد من البداية أن يلتحق بمعاوية فمنعه قومه من ذلك فراسله معاوية واتفق معه

(١) (أعيان الشيعة للعالمى ج ١ ص ٥١)

على شق صفوف العراقيين ويعلن التمرد على أمير المؤمنين عليه السلام جهاراً نهاراً، وبالقوة عند الضرورة..

وربما جرى ذلك مع الأشعث من قبل عمرو بن العاص الذي دبّر مهزلة رفع المصاحف وكان على يقين من النتائج، إما وقف القتال، أو دب الخلاف والشقاق في جيش العراق.. وبالفعل هذا الذي حصل بالضبط، فما أن رفعت المصاحف على الرماح حتى أعلن الأشعث ومعه أكثر من عشرين ألف سيف وقوف الأعمال القتالية ورفضوا أن يقبلوا أي كلمة، أو توجيه من القائد الأعلى لجيشهم وهو الإمام المسدد والمؤيد بكل وسائل العلم والحلم والشجاعة..

فمن هو الأشعث بن قيس إذن؟ وما هو دوره في التحكيم؟

٢٠١. رأس النفاق الأشعث

اسم الأشعث: معدي كرب، وأبوه قيس الأشج - سمي الأشج، لأنه شج في بعض حروبهم - بن معدي كرب الذي يرجع إلى الحارث بن مرة بن أدد.. كان الأشعث أبداً أشعث الرأس، فسُمّي بالأشعث، وغلب عليه حتى نُسي اسمه..

وأم الأشعث: كبشة بنت يزيد بن شرحبيل بن يزيد بن امرئ القيس بن عمرو المقصور الملك..

وقيل أن رسول الله ﷺ عقد ليتزوج (قتيلة) أخت الأشعث، فتوفى قبل أن تصل إليه، والله الحمد..

الأشعث بن قيس بن معد يكرب الكندي، يكنى أبا محمد.. من كبار أهل اليمن، وأحد الصحابة (كما يسمونهم)، عوّرت عينه في حرب اليرموك (مع الروم).. وهو وجه مشبوه مريب متلون، رديء الطبع، سيئ

السمعة والعمل في التاريخ الإسلامي.. ارتدَّ بعد رسول الله ﷺ عن الدين وأسر، فعفا عنه أبو بكر، وزوجه أخته (أم فروة وكانت عوراء فولدت له محمداً)^(١).

وكان أبو بكر يُعرب عن ندمه، ويتأسف لعفوه (عنه وعدم قتله).. فيروى أن أبو بكر، قال في مرضه الذي توفي فيه وهو يتحسر على أشياء ليته لم يفعلها منها هجومه على بيت فاطمة الزهراء عَليها السلام، وأشياء ليته لم يفعلها منها قتل الأشعث قال: (فليتني قدمت الأشعث بن قيس تضرب عنقه، فإنه يخيلُ إليَّ أنه لا يري شيئاً من الشر إلا أعان عليه!)^(٢)

وزوج بنته لابن عثمان بن عفان في أيام خلافته.. ولذا نصبه عثمان والياً على آذربايجان، وكان يهبه مئة ألف درهم من خراجها سنوياً (وكانت ولايته مما عتب الناس فيه على عثمان؛ لأنه ولاه عند مصاهرته إياه، وتزويج ابنة الأشعث من ابنه..^(٣)

وبقي فيها حتى عزل الإمام علي عَليهما السلام الأشعث عن آذربايجان، ودعاه إلى المدينة، ومن خطبة الأشعث بن قيس في آذربايجان بعدبيعة الناس للإمام علي عَليهما السلام قال: أيها الناس! إن أمير المؤمنين عثمان ولاني آذربايجان، فهلك وهي في يدي، وقد بايع الناس علياً، وطاعتنا له كطاعة من كان قبله، وقد كان من أمره وأمر طلحة والزبير ما قد بلغكم، وعلي المأمون على ما غاب عنا وعنكم من ذلك الأمر..

فلما أتى منزله دعا أصحابه فقال: إن كتاب علي قد أوحشني، وهو أخذ بمال آذربايجان، وأنا لاحق بمعاوية.. فقال القوم: الموت خير لك من

(١) (أعيان الشيعة - السيد محسن الأمين - ج ٣ - ص ٤٦٣ - ٤٦٤)

(٢) (تاريخ يعقوبي: ٢/ ١٣٧)

(٣) (الأخبار الطوال:)

ذلك، أتدع مصرك وجماعة قومك وتكون ذنباً لأهل الشام؟! فاستحيى فسار حتى قدم على علي عليه السلام..^(١)

فطوية الرجل معروفة فمن البداية همّ بالفرار إلى معاوية بالمال الذي عنده، ثم قدم المدينة بتوصية أصحابه، ووافى الإمام علي عليه السلام على كره منه، ثم تولى رئاسة قبيلته «كندة» في حرب صفين، وكان على ميمنة الجيش العراقي..

وكان شرساً في أخلاقه إلى درجة أنه هدد الإمام عليه السلام مرةً بالقتل، كما يروي مولانا الإمام الصادق عليه السلام يقول: حدثتني امرأة منا، قالت: رأيت الأشعث بن قيس دخل على علي عليه السلام فأغلظ له علي عليه السلام، فعرض له الأشعث بأن يفتك به.. فقال له علي عليه السلام: أبا الموت تهددني؟! فوالله ما أبالي وقعت على الموت، أو وقع الموت علي^(٢)..

وعن قيس بن أبي حازم: دخل الأشعث بن قيس على علي عليه السلام في شيء، فتهدده بالموت، فقال علي عليه السلام: بالموت فتهددني! ما أبالي سقط عليّ أو سقطت عليه.. هاتوا له جامعةً وقيداً، ثم أوماً إلى أصحابه فطلبوا إليه فيه، قال: فتركه^(٣)..

والإمام علي عليه السلام قال عنه: أما هذا الأعور - يعني الأشعث - فإن الله لم يرفع شرفاً إلا حسده، ولا أظهر فضلاً إلا عابه، وهو يمني نفسه ويخدعها، يخاف ويرجو، فهو بينهما لا يثق بواحد منهما، وقد منّ الله عليه بأن جعله جباناً، ولو كان شجاعاً لقتله الحق^(٤)..

(١) (صفين: ص ٢١، البحار: ج ٣٣/٥١٣)

(٢) شرح النهج: ج ٦/١١٧، مقاتل الطالبين: ص ٤٧.

(٣) (تاريخ دمشق: ج ٩/١٣٩)

(٤) شرح النهج: ج ٢٠/٢٨٦.

أي أن الجبن هو الذي دفعه للبقاء مع أمير المؤمنين عليه السلام، ولولا ذلك لكنت تراه في أوائل جيش الشام، ولكن نكير سيف الحق شديد عليه.

وهو الذي سمّاه الإمام علي عليه السلام منافقاً، ولعنه على المنبر ففضحه عل رؤوس الأشهاد في الكوفة..

فيروى أن الإمام علي عليه السلام كان يخطب على منبر الكوفة فاعترضه الأشعث، فمضى في بعض كلامه شيء فاعترضه الأشعث فيه، فقال: يا أمير المؤمنين، هذه عليك لا لك، فخفض عليه السلام إليه بصره، ثم قال: ما يدريك ما عليّ مما لي؟ عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين! حائك ابن حائك! منافق ابن كافر! والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى! فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك! وإن امرأ دُلَّ على قومه السيف، وساق إليهم الحتف، لحري أن يمقته الأقرب، ولا يأمنه الأبعد!^(١)

جاء في شرح النهج^(٢) ما ملخصه: فأما الأسر الذي أشار أمير المؤمنين عليه السلام إليه في الجاهلية فقد ذكره ابن الكلبي في «جمهرة النسب» فقال: إن مراداً لما قتلت قيساً الأشج، خرج الأشعث طالباً بثأره، فخرجت كندة متساندين على ثلاثة ألوية: على أحد الألوية: كبس بن هانئ بن شرحبيل بن الحارث بن عدي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين - ويعرف هانئ بالمطلع، لأنه كان يغزو فيقول: اطلعت بنى فلان، فسمّي المطلع.

وعلى أحدها: القشعم أبو جبر بن يزيد الأرقم.

(١) نهج البلاغة: خ ١٩، الأغاني لأبي الفرج: ج ٢١/٢٠.

(٢) راجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١/٢٩٣ وما بعدها.

وعلى أحدها: الأشعث فأخطؤوا مراداً، ولم يقعوا عليهم، ووقعوا على بنى الحارث بن كعب، فقتل كبس والقشعم أبو جبر، وأسر الأشعث، ففُدي بثلاثة آلاف بعير، لم يفد بها عربي بعده ولا قبله..

وأما الأسر الثاني: في الاسلام، فإن رسول الله ﷺ لما قدمت كندة حجاجا قبل الهجرة، عرض رسول الله ﷺ نفسه عليهم، كما كان يعرض نفسه على أحياء العرب، فدفعه بنو وليعة من بنى عمرو بن معاوية ولم يقبلوه، فلما هاجر ﷺ وتمهدت دعوته، وجاءته وفود العرب، جاءه وفد كندة، فيهم الأشعث وبنو وليعة فأسلموا، فأطعم رسول الله ﷺ بنى وليعة طعمة من صدقات حضرموت، وكان قد استعمل على حضرموت زياد بن لبيد البياضي الأنصاري، فدفعها زياد إليهم، فأبوا أخذها، وقالوا: لا ظهر لنا (أي ليس عندنا دواب لتحملها)، فابعث بها إلى بلادنا على ظهر من عندك، فأبى زياد، وحدث بينهم وبين زياد شر، كاد يكون حرباً، فرجع منهم قوم إلى رسول الله ﷺ، وكتب زياد إليه (عليه وآله السلام) يشكوهم.

وفي هذه الواقعة كان الخبر المشهور عن رسول الله ﷺ، قال لبنى وليعة: «لتنتهن يا بنى وليعة، أو لأبعثن عليكم رجلاً عديل نفسي، يقتل مقاتلتكم، ويسبي ذرايكم».

فقال عمر بن الخطاب: فما تمنيت الامارة إلا يومئذ، وجعلت أنصب له صدري رجاء أن يقول: هو هذا، فأخذ بيد علي عليه السلام، وقال: «هو هذا».

ثم كتب لهم رسول الله ﷺ، إلى زياد، فوصلوا إليه الكتاب، وقد توفى رسول الله ﷺ، وطار الخبر بموته إلى قبائل العرب، فارتدت بنو وليعة، وغتت بغاياهم، وخضبن له أيديهن.. (وكانت هذه عادة من عادات

الجاهلية، عند الفرح، يتخضب النساء بالحناء، وهي لإظهار الشماتة كذلك)..

واجتمع إلى زياد بن لبيد أصحابه، واجتمع بنو وليعة، وأظهروا أمرهم، فبيّتهم زياد وهم غارّون، فقتل منهم جمعاً كثيراً، ونهب وسبى، ولحق فلّهم (أي فلول الهاربين منهم) بالأشعث بن قيس، فاستنصروه، فقال: لا أنصركم حتى تملكوني عليكم (يكون ملكا).

فملكوه وتوّجوه كما يتوّج الملك من قحطان.. فخرج إلى زياد في جمع كثيف، وكتب أبو بكر إلى المهاجر بن أبي أمية وهو على صنعاء، أن يسير بمن معه إلى زياد، فاستخلف على صنعاء، وسار إلى زياد، فلقوا الأشعث فهزموه وقتل مسروق، ولجأ الأشعث والباقون إلى الحصن اليماني المعروف بالنجير..

فحاصرهم المسلمون حصاراً شديداً حتى ضعفوا، ونزل الأشعث ليلاً إلى المهاجر وزیاد، فسألهما الأمان على نفسه، حتى يقدم به على أبي بكر فيرى فيه رأيه، على أن يفتح لهم الحصن ويسلم إليهم من فيه.. وقيل: بل كان في الأمان عشرة من أهل الأشعث.. فأمناه وأمضيا شرطه، ففتح لهم الحصن، فدخلوه واستنزلوا كل من فيه، وأخذوا أسلحتهم، وقالوا للأشعث: اعزل العشرة، فعزلهم، فتركوهم وقتلوا الباقيين - وكانوا ثمانمائة - وقطعوا أيدي النساء اللواتي شمتن بوفاة رسول الله ﷺ، وحملوا الأشعث إلى أبي بكر موثقاً في الحديد هو والعشرة، فعفا عنه وعنهم، وزوّجه أخته أم فروة بنت أبي قحافة - وكانت عوراء، وقيل عمياء - فولدت للأشعث محمداً وإسماعيل وإسحاق.

وخرج الأشعث يوم البناء (الدخول) عليها إلى سوق المدينة، فما مر بذات أربع إلا عقرها، وقال للناس: هذه وليمة البناء، وثنى كل عقيرة

في مالي.. فدفع أثمانها إلى أربابها.

قال أبو جعفر محمد بن جرير في التاريخ: وكان المسلمون يلعنون الأشعث ويلعنه الكافرون أيضاً وسبايا قومه، وسماء نساء قومه (عرف النار)، وهو اسم للغادر عندهم..

وكان الأشعث رأس المنافقين في خلافة الإمام علي عليه السلام، وهو في أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، كما كان عبد الله بن أبي بن سلول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، كل واحد منهما رأس النفاق في زمانه.. وأما قوله عليه السلام للأشعث: «حائك ابن حائك»، فإن أهل اليمن يعيرون بالحيافة وليس هذا مما يخص الأشعث.. ومن كلام خالد بن صفوان: ما أقول في قوم ليس فيهم إلا حائك برد، أو دايع جلد، أو سائس قرد، ملكتهم امرأة، وأغرقتهم فأرة، ودل عليهم هدهد! ^(١)

والإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: إن الأشعث بن قيس شرك في دم أمير المؤمنين عليه السلام، وابنته جعدة سمّت الحسن عليه السلام، ومحمد ابنه شرك في دم الحسين عليه السلام. ^(٢)

وعن الأعمش، قال: إن جريراً والأشعث خرجا إلى جبان الكوفة، فمرّ بهما ضب يعدو، وهما في ذمّ علي عليه السلام، فنادياه: يا أبا حسل، هلمّ يدك نبايعك بالخلافة، فبلغ علياً عليه السلام قولهما، فقال: أما إنهما يحشران يوم القيامة وإمامهما ضب ^(٣)..

وهكذا تزعم الأشعث التيار الذي فرض التحكيم (أولاً)، ثم وفرض أبا موسى الأشعري على الإمام عليه السلام ثانياً.. وهو الذي عارض وبشدة

(١) (شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد - ج ١ - ص ٢٩١ - ٢٩٧)

(٢) الكافي للكليني: ج ٨/١٦٧.

(٣) (شرح نهج البلاغة: ج ٤/٧٦)

اختيار ابن عباس ومالك الأشتر حكمين عن الإمام عليه السلام بوقاحة وصلافة، ونادى بيمانية أحد الحكمين.

ولذا فإن له اليد الطولى في نشوء الخوارج في صفين، كما كان له دور كبير في إيقاد واشعال حرب النهروان مع أنه كان ما زال في جيش الإمام عليه السلام.. وهو ممن كان يعارض الإمام علي عليه السلام وأعماله داخل الجيش بكل ما يستطيع، بالقول والعمل حتى عُدَّت مواقفُه أصل كل فساد واضطراب في العراق فيما بعد.

وسياتيك حديثه في كتابة وثيقة التحكيم واختلافهم في تقديم الإمام وتسميته بإمرة المؤمنين: فقال أبو الأعور السلمي: لا نقدم علياً، وقال أصحاب الإمام علي عليه السلام: ولا نغيّر اسمه ولا نكتب إلا بإمرة المؤمنين، فتنازعوا على ذلك منازعة شديدة حتى تضاربوا بالأيدي، فقال الأشعث: امحوا هذا الاسم..

فقال له الأشتر: والله - يا أعور! - لهمت أن أملأ سيفي منك، فلقد قتلْتُ قوماً ما هم شر منك، وإنني أعلم أنك ما تحاول إلا الفتنة، وما تدور إلا على الدنيا وإيثارها على الآخرة!^(١)

وكان ابن ملجم يتردد على داره، وهو الذي أشار على المذكور بالإسراع يوم عزمه على قتل الإمام عليه السلام.. ولذا قيل أنه

قد أعان الأشعث على قتل الإمام علي عليه السلام ابن ملجم وشبث بن بحيرة ووردان بن مجالد كما ذكره المفيد في الارشاد وغيره كمنوا لقتله وجلسوا مقابل السدة التي كان يخرج أمير المؤمنين ع منها وقد كانوا قبل ذلك ألقوا إلى الأشعث بن قيس ما في نفوسهم من العزيمة على قتل أمير

(١) (تاريخ اليعقوبي: ج ٢/ ١٨٩)

المؤمنين ع وواطأهم على ذلك وحضر الأشعث بن قيس في تلك الليلة لمعونتهم على ما اجتمعوا عليه وكان حجر بن عدي بائناً في المسجد فسمع الأشعث، يقول: يا ابن ملجم النجاء النجاء لحاجتك فقد فضحك الصبح فأحسَّ حجر بما أراد الأشعث فقال قتلته يا أعور وخرج مبادراً ليمضي إلى أمير المؤمنين فيخبره الخبر ويحذره من القوم وخالفه أمير المؤمنين في الطريق فدخل المسجد فسبقه ابن ملجم فضربه بالسيف وأقبل حجر والناس يقولون قتل أمير المؤمنين عليه السلام..

ونحن وإن لم نمتلك دليلاً تاريخياً قطعياً على صلته السرية بمعاوية، لكن لا بد من الالتفات إلى أن الأيادي الخفية تعمل بحذر تام وكتمان شديد، ولذا لم تنكشف إلا نادراً.. لكن ملف جنایات هذا البيت المشؤوم يمكن عده وثيقة معتبرة على علقته بل وعلقة أسرته بأعداء أهل البيت، ومما يعزز ذلك تعبير الإمام عنه بالمنافق.. ولا ينكر أن الأشعث كاتب معاوية في خلافة الإمام الحسن عليه السلام، وابنته جعدة سمّت الإمام الحسن السبط عليه السلام، وابنه محمد أعان على قتل مسلم بن عقيل، وهاني بن عروة، وحضر قتل المولى أبو عبد الله الحسين عليه السلام مع عمر بن سعد، وكان له المقام المذموم والمشهد السوء حيث قال للإمام الحسين عليه السلام: يا حسين بن فاطمة أيُّ حرمة لك من رسول الله ليست لغيرك، وكان أحد قواد الجيش في كربلاء، وكان ابنه الآخر (قيس بن الأشعث) من أمراء جيش عمر بن سعد في كربلاء كذلك، ولم يقل عن أبيه ضعة ونذالة؛ إذ سلب قطيفة الإمام الحسين عليه السلام فاشتهر بـ «قيس القطيفة»، ولا عجب «وكل إناء بالذي فيه ينضح»..^(١)

(١) (موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ - محمد الريشهري - ج ١٢ - ص ٥٣ - ٦١ بتصريف وإضافات)

فهل تعجب إذن من أن يكون هذا الخب الغب اللئيم قد راسل معاوية بن أبي سفيان واتفق معه للغدر بأمر المؤمنين عليه السلام وهو الذي باع أهله، ونسي نفسه الشريرة كما تقدم؟

٣٠١. تعيين الحكم

نعم؛ قبل أمير المؤمنين عليه السلام بالتحكيم تحت ضغط أصحاب الجباه السود بقيادة رأس كنده ومنافق ذاك العصر الأشعث بن قيس، ولكن مَنْ يُعَيِّن الحكم من قبل الإمام علي عليه السلام غيره؟

وللأسف؛ حتى في هذه لم يتركوا له الخيار بل أجبروه على القبول بحكم أعدى أعدائه به ذاك عبد الله بن قيس أبو موسى الأشعري الذي كان بالأمس يخذل أهل الكوفة عن نصرته بحرب الناكثين.. فكيف يكون العدو الحاقد والخاذل والمنافق حكماً يا أهل الدين والبصائر؟

وأين صفين من أبي موسى، وأين أبو موسى من معركة صفين ليحكم فيها وهو لا يعلم شيء مما جرى فيها، ولا عنها فقد كان أبعد الناس عن خير الناس للناس أمير المؤمنين عليه السلام؟

وكيف يحكم بالدماء من كان مشتركاً في مؤامرة ليلة العقبة لاغتيال رسول الله ﷺ؟ ومن العجب العجائب أن هذا الرجل الذي ليس في وجهه ذرة حياء يروي بنفسه نهى رسول الله ﷺ له عن هذه الحكومة قبل عقد منها، فيحدث الرجل سويد بن غفلة على شاطئ الفرات في خلافة عثمان، أن رسول الله ﷺ قال له: إن بني إسرائيل اختلفوا فلم يزل الخلاف بينهم حتى بعثوا حكمين ضالين ضللاً وأضلوا من تبعهما.. ولا ينفك أمر هذه الأمة حتى يبعثوا حكمين ضالين ويضلان من اتبعهما..

فقال له ﷺ: احذر يا أبا موسى أن تكون أحدهما^(١)..

قال: فخلع الأشعري قميصه، وقال: ابرأ إلى الله من ذلك كما أبرأ من قميصي هذا.. ويعلق الراوي، ويقول: ولقد صدقت فيه معجزة رسول الله ﷺ فلقد كان حكماً لأهل العراق فضلاً، وأضل من تبعه^(٢).

والملاحظ هنا أن كلا الحكمين (عمرو بن العاص، وأبو موسى الأشعري) كانا من أصحاب العقبة، فهما من المنافقين الغادرين بالرسول الأعظم ﷺ فهل يمكن أن تكون هذه صدفة يا أصحاب العقول النيرة، والضمائر الحرة في هذه الأمة؟

قال الإمام الباقر عليه السلام: لما أراد الناس علياً عليه السلام على أن يضع حكمين قال لهم علي عليه السلام: إن معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحداً هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص، وإنه لا يصلح للقرشي إلا مثله، فعليكم بعبد الله بن عباس فارموه به؛ فإن عمراً لا يعقد عقدة إلا حلها عبد الله، ولا يحل عقدة إلا عقدها، ولا يبرم أمراً إلا نقضه، ولا ينقض أمراً إلا أبرمه.

فقال الأشعث: لا والله، لا يحكم فيها مُضريان حتى تقوم الساعة، ولكن اجعله رجلاً من أهل اليمن إذ جعلوا رجلاً من مضر.

فقال علي عليه السلام: إني أخاف أن يخدع يمنيكم؛ فإن عمراً ليس من الله في شيء إذا كان له في أمر هوى.

فقال الأشعث: والله، لأن يحكما ببعض ما نكره، وأحدهما من أهل اليمن، أحب إلينا من أن يكون بعض ما نحب في حكمهما وهما

(١) شرح نهج البلاغة الحديدي: ج ١٣/٣١٥، البحار: ج ٣٣/٣١١.

(٢) (سيرة الإمام علي عليه السلام للطائفي: ٧٤/٥ عن كنز العمال: ٨٦/١٤)

مضريان..

ومن كلام الإمام علي عليه السلام في شأن الحكمين وذم أهل الشام، قوله: جفأة طغام، وعبيد أقزام، جمعوا من كل أوب، وتلقطوا من كل شوب، ممن ينبغي أن يفقه ويؤدب، ويعلم ويدرب، ويولى عليه، ويؤخذ على يديه، ليسوا من المهاجرين والأنصار، ولا من الذين تبوءوا الدار والإيمان.. ألا وإن القوم اختاروا لأنفسهم أقرب القوم مما يحبون، وإنكم اخترتم لأنفسكم أقرب القوم مما تكرهون.. وإنما عهدكم بعبد الله بن قيس بالأمس يقول: «إنها فتنة، فقطعوا أوتاركم، وشيموا سيوفكم».. فإن كان صادقاً فقد أخطأ بمسيره غير مستكره، وإن كان كاذباً فقد لزمته التهمة.. فادفعوا في صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن العباس، وخذوا مهل الأيام، وحوطوا قواصي الإسلام، ألا ترون إلى بلادكم تغزى، وإلى صفاتكم ترمى؟^(١)

وذكروا أن ابن الكواء قام إلى الإمام علي عليه السلام فقال: هذا عبد الله بن قيس وافد أهل اليمن إلى رسول الله ﷺ وصاحب مقاسم أبي بكر، وعامل عمر، وقد رضي به القوم. وعرضنا على القوم عبد الله بن عباس فزعموا: أنه قريب القرابة منك، ظنون في أمرك^(٢)..

واجتمع قراء أهل العراق وقراء أهل الشام، فقعدوا بين الصّفين، ومعهم المصحف يتدارسون، فاجتمعوا على أن يحكّموا حكمين، وانصرفوا.. فقال أهل الشام: قد رضينا بعمرو.

وقال الأشعث ومن كان معه من قراء أهل العراق: قد رضينا نحن بأبي موسى (الأشعري). فقال لهم الإمام علي عليه السلام: لست أثق برأي أبي

(١) نهج البلاغة: خ ٢٣٨، البحار: ج ٣٣/٣٢٣.

(٢) صفين لابن مزاحم: ص ٥٠٢، شرح النهج: ج ٢/٢٣١.

موسى، ولا بحزمه، ولكن أجعل ذلك لعبد الله بن عباس.

قالوا: والله، ما نفرق بينك وبين ابن عباس، وكأنك تريد أن تكون أنت الحاكم، بل اجعله رجلاً هو منك ومن معاوية سواء، ليس إلى أحد منكما بأدنى منه إلى الآخر.

فقال علي (سلام الله عليه): فلم ترضون لأهل الشام بابن العاص، وليس كذلك؟ (أي أن عمرو بن العاص وزير وشريك معاوية). قالوا: أولئك أعلم، إنما علينا أنفسنا.

قال: فإني أجعل ذلك إلى الأشر (والأشر من كبار ورؤوس اليمانيين).

قال الأشعث: وهل سَعَرَ هذه الحرب إلا الأشر؟ وهل نحن إلا في حُكم الأشر؟

فقال علي عليه السلام: وما حُكمه؟ قال: يضرب بعض وجوه بعض حتى يكون ما يريد الله.

قال عليه السلام: فقد أبيتم إلا أن تجعلوا أبا موسى؟! قالوا: نعم.

قال: فاصنعوا ما أحببتكم..^(١)

وقيل: جاء الأشعث بن قيس إلى علي عليه السلام فقال له: ما أرى الناس إلا قد رضوا، وسرَّهم أن يجيوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن، فإن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد، فنظرت ما يسأل.. قال: أئته إن شئت فسله.

فأتاه فقال: يا معاوية! لأي شيء رفعتم هذه المصاحف؟

(١) (الأخبار الطوال: ص ١٩٢، مروج الذهب: ج ٢/ ٤٠١)

قال: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به في كتابه، تبعثون منكم رجلاً ترضون به، ونبعث منا رجلاً، ثم نأخذ عليهما أن يعملما بما في كتاب الله لا يعدوانه، ثم نتبع ما اتفقا عليه.

فقال له الأشعث بن قيس: هذا الحق.. فانصرف إلى الإمام علي عليه السلام فأخبره بالذي قال معاوية، فقال الناس: فإننا قد رضينا وقبلنا.

وقال أهل الشام: فإننا قد اخترنا عمرو بن العاص.. فقال الأشعث وأولئك الذين صاروا خوارج بعد: فإننا قد رضينا بأبي موسى الأشعري.. قال الإمام علي عليه السلام: فإنكم قد عصيتموني في أول الأمر، فلا تعصوني الآن، إني لا أرى أن أولي أبا موسى.

فقال الأشعث، وزيد بن حصين الطائي، ومسعر بن فذكي: لا نرضى إلا به، فإنه ما كان يحذرنا منه وقعنا فيه.. فقال علي عليه السلام: فإنه ليس لي بثقة، قد فارقني، وخذل الناس عني، ثم هرب مني حتى آمنت به بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس نوليه ذلك.

قالوا: ما نبالي أنت كنت أم ابن عباس! لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء، ليس إلى واحد منكما بأدنى منه إلى الآخر.

فقال علي عليه السلام: فإنني أجعل الأشر.

قال الأشعث: وهل سعر الأرض غير الأشر؟ وهل نحن إلا في حكم الأشر؟! قال علي عليه السلام: وما حكمه؟ قال: حكمه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيوف حتى يكون ما أردت وما أراد.

قال: فقد أبيتم إلا أبا موسى؟! قالوا: نعم.

قال: فاصنعوا ما أردتم.

فبعثوا إليه (أبو موسى) وقد اعتزل القتال، وهو بعرض^(١)، فأتاه مولى له، فقال: إن الناس قد اصطلحوا.. فقال: الحمد لله رب العالمين! قال: قد جعلوك حكما.. قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! وجاء أبو موسى حتى دخل المعسكر، وجاء الأشر حتى أتى علياً عليه السلام، فقال: ألزني بعمر بن العاص، فوالله الذي لا إله إلا هو، لئن ملأت عيني منه لأقتلنه.

وجاء الأحنف فقال: يا أمير المؤمنين! إنك قد رُميت بحجر الأرض، وبمن حارب الله ورسوله أنف الإسلام، وإني قد عجمت (اختبرت) هذا الرجل، وحلبت أشطره، فوجدته قليل الشفرة، قريب القعر، وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يصير في أكفهم، ويبعد حتى يصير بمنزلة النجم منهم.. فإن أبيت أن تجعلني حكما، فاجعني ثانيا، أو ثالثا، فإنه لن يعقد عُقدة إلا حللتها، ولن يحل عقدة أعقدها إلا عقدت لك أخرى أحكم منها. فأبى الناس إلا أبا موسى والرضا بالكتاب.^(٢)

٤.١. كتابة وثيقة التحكيم

ولما وقع الاتفاق على كَتَبِ القضية بين أمير المؤمنين عليه السلام وبين معاوية بن أبي سفيان، حضر عمرو بن العاص في رجال من أهل الشام وعبد الله بن عباس في رجال من أهل العراق.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام للكاتب: اكتب؛ هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان..

(١) قرية في بادية حلب السورية.

(٢) (تاريخ الطبري عن أبي مخنف ج ٥/٥١، الكامل في التاريخ ج ٢/٣٨٧، الفتوح ج ٣/١٩٣)

فقال عمرو بن العاص: اكتب اسمه واسم أبيه ولا تسمّه بإمرة المؤمنين، فإنما هو أمير هؤلاء وليس بأميرنا.. فقال الأحنف بن قيس: لا تمح هذا الاسم فإنني أتخوف إن محوته لا يرجع إليك أبدا. فامتنع أمير المؤمنين عليه السلام من محوه، فتراجع الخطاب فيه ملياً من النهار، فقال الأشعث بن قيس: امح هذا الاسم ترحه الله.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: الله أكبر! سنة بسنة ومثل بمثل، والله، إني لكاتب رسول الله صلوات الله عليه وآله يوم الحديبية وقد أملى عليّ: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله سهيل بن عمر، فقال له سهيل: امح رسول الله فإننا لا نقرّ لك بذلك، ولا نشهد لك به، اكتب اسمك واسم أبيك، فامتنعت من محوه، فقال النبي صلوات الله عليه وآله: امحه يا علي! وستدعى إلى مثلها فتجيب، وأنت على مضض.

فقال عمرو بن العاص: سبحان الله! ومثل هذا يشبه بذلك ونحن مؤمنون، وأولئك كانوا كفارا! فقال أمير المؤمنين عليه السلام: يا بن النابغة! ومتى لم تكن للفاسقين ولياً وللمسلمين عدواً، وهل تشبه إلا أمك التي دفعت بك؟

فقال عمرو: لا جرّم، لا يجمع بيني وبينك مجلس أبدا.. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: والله، إني لأرجو أن يطهر الله مجلسي منك ومن أشباهك.. ثم كتب الكتاب وانصرف الناس..^(١)

٥.١. وثيقة التحكيم

في تاريخ الطبري عن عبد الرحمن بن جندب عن أبيه، روى ما احتوت عليه وثيقة التحكيم هي، ما يلي:

(١) (الأمالى للطوسي عن جندب)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى علي على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضي معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين، إنا ننزل عند حكم الله عَزَّوَجَلَّ وكتابه، ولا يجمع بيننا غيره، وإن كتاب الله عَزَّوَجَلَّ بيننا من فاتحته إلى خاتمته، نحبي ما أحيا، ونميت ما أمات.. فما وَجَدَ الحكماء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ - وهما أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص القرشي - عملا به، وما لم يجدا في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ فالسُّنة العادلة الجامعة غير المفارقة..

وأخذ الحكماء من علي، ومعاوية، ومن الجندين من العهود والميثاق، والثقة من الناس، أنهما آمان على أنفسهما وأهلهما، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه.. وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كليهما عهد الله وميثاقه أنا على ما في هذه الصحيفة، وأن قد وجبت قضيتهما على المؤمنين، فإن الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وشاهدتهم وغائبهم..

وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة، ولا يرداها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا، وأجل القضاء إلى رمضان.. وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخره على تراض منهما، وإن توفي أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار مكانه، ولا يألو من أهل المعدلة والقسط.. وإن مكان قضيتهما الذي يقضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام، وإن رضيا وأحبا فلا يحضرهما فيه إلا من أَراد، ويأخذ الحكماء من أَراد من الشهود، ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة، وهم أنصار على من ترك ما في هذه الصحيفة، وأراد فيه

إلحاداً وظلماً.. اللهم! إنا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة..^(١)

وعن أبي إسحاق الشيباني، قال: قرأت كتاب الصلح عند سعيد بن أبي بردة في صحيفة صفراء عليها خاتمان خاتم من أسفلها وخاتم من أعلاها على خاتم علي عليه السلام «محمد رسول الله» وعلى خاتم معاوية «محمد رسول الله» وقيل لعلي عليه السلام حين أراد أن يكتب الكتاب بينه وبين معاوية وأهل الشام: أقرر أنهم مؤمنون مسلمون؟ فقال علي عليه السلام: ما أقر لمعاوية ولا لأصحابه أنهم مؤمنون ولا مسلمون، ولكن يكتب معاوية ما شاء بما شاء ويقر بما شاء لنفسه ولأصحابه، ويسمي نفسه بما شاء وأصحابه..^(٢)

وكتب كتاب القضية بين علي عليه السلام، ومعاوية يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين من الهجرة على أن يوافي علي عليه السلام، ومعاوية موضع الحكمين (بدومة الجندل) في شهر رمضان..^(٣)

وكان الكتاب في صفر والأجل شهر رمضان إلى ثمانية أشهر، إلى أن يلتقي الحكمان.. ثم إن الناس دفنوا قتلاهم، وأمر الإمام علي عليه السلام الأعرور (الأشعث) فنادى في الناس بالرحيل..^(٤)

فلما كتبت الصحيفة دُعي لها الأشر، فقال: لا صحبتني يميني ولا نفعتني بعدها شمالي إن خُطَّ لي في هذه الصحيفة اسم على صلح ولا موادة، أولستُ على بَيِّنَةٍ من ربي ومن ضلال عدوي؟ أولستم قد رأيتم

(١) (تاريخ الطبري: ج ٥/٥٣، الكامل: ج ٢/٣٨٨، صفين: ص ٥٤٠)

(٢) (شرح نهج البلاغة: ج ٢/٢٣٣، صفين: ص ٥٠٩)

(٣) (تاريخ الطبري: ج ٥/٥٤)

(٤) (تاريخ الطبري: ج ٥/٥٦)

الظفر لو لم تُجمعوا على الجور؟

فقال له الأشعث بن قيس: إنك والله، ما رأيت ظفراً، ولا جوراً، هَلَمْ إِلَيْنَا فَإِنَّهُ لَا رَغْبَةَ بِكَ عِنَّا.. فقال: بلى والله، لرغبة بي عنك في الدنيا للدنيا، والآخرة للآخرة، ولقد سفك الله عِرْقَكَ بِسَيْفِي هَذَا دَمَاءَ رِجَالٍ مَا أَنْتَ عِنْدِي خَيْرٌ مِنْهُمْ وَلَا أَحْرَمُ دَمًا..

وقال عمارة: فنظرت إلى ذلك الرجل وكأنما قصع على أنفه الحِمَمَ - يعني الأشعث -..^(١)

وعن فضيل بن خديج الكندي، قال: قيل لعلي عليه السلام بعدما كتبت الصحيفة: إن الأشر لا يقرّ بما في الصحيفة، ولا يرى إلا قتال القوم.. فقال علي عليه السلام: وأنا والله، ما رضيت ولا أحببت أن ترضوا، فإذا أبيتم إلا أن ترضوا فقد رضيت، فإذا رضيت فلا يصلح الرجوع بعد الرضا، ولا التبديل بعد الإقرار، إلا أن يعصى الله عز وجل ويُتعدى كتابه، فقاتلوا من ترك أمر الله عز وجل.. وأما الذي ذكرتم من تركه أمري وما أنا عليه فليس من أولئك، ولست أخافه على ذلك، يا ليت فيكم مثله اثنين! يا ليت فيكم مثله واحداً! يرى في عدوي ما أرى؛ إذاً لخفت عليّ مؤونتكم ورجوتُ أن يستقيم لي بعض أودكم، وقد نهيتكم عما أتيتم فعصيتُموني، وكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت

غويت وإن ترشد غزية أرشد^(٢)

(١) (تاريخ الطبري: ج ٥/٥٩، الكامل: ج ٢/٣٨٩، صفين: ص ٥٢١)

(٢) (تاريخ الطبري: ج ٥/٥٩، الكامل: ج ٢/٣٨٩، صفين: ص ٥٢١)

٦.١. اختلاف الكلمة في أصحاب الإمام عليه السلام

وخرج الأشعث بذلك الكتاب يقرؤه على الناس، ويعرضه عليهم فيقرؤنه حتى مرَّ به على طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أديّة وهو أخو أبي بلال فقرأه عليهم فقال عروة بن أديّة: تحكّمون في أمر الله عَزَّ وَجَلَّ الرجال؟! لا حكم إلا لله، ثم شدَّ بسيفه فضرب به عجز دابته ضربة خفيفة واندفعت الدابة، وصاح به أصحابه أن أملك يدك فرجع، فغضب للأشعث قومه وناس كثير من أهل اليمن فمشى الأحنف بن قيس السعدي ومעقل بن قيس الرياحي ومسعر بن فدكي وناس كثير من بني تميم فتنصلوا إليه واعتذروا فقبل وصفح..^(١)

عن أبي العباس، قال: أما أول سيف سُلَّ من سيوف الخوارج فسيف عروة بن أديّة، وذلك أنه أقبل على الأشعث، فقال: ما هذه الدنيئة يا أشعث؟ وما هذا التحكيم؟ أشرط أوثق من شرط الله عَزَّ وَجَلَّ؟! ثم شهر عليه السيف والأشعث مولّ، فضرب به عجز البغلة، فشبت البغلة فنفرت اليمانية، وكانوا جُلَّ أصحاب علي (صلوات الله عليه).. فلما رأى ذلك الأحنف قصد هو وجارية بن قدامة، ومسعود بن فدكي بن أعبد، وشبث بن ربعي الرياحي إلى الأشعث، فسألوه الصفح، ففعل..^(٢)

ولما وقع التحكيم تباغض القوم جميعاً، وأقبل بعضهم يتبرأ من بعض: يتبرأ الأخ من أخيه، والابن من أبيه، وأمر علي عليه السلام بالرحيل، لعلهم باختلاف الكلمة، وتفاوت الرأي، وعدم النظام لأموارهم، وما لحقه من الخلاف منهم، وكثر التحكيم في جيش أهل العراق، وتضارب القوم بالمقارع، ونعال السيوف، وتسابؤوا، ولأم كل فريق منهم الآخر

(١) (تاريخ الطبري: ج ٥/ ٥٥، الكامل: ج ٢/ ٣٨٩، صفين: ص ٥١٣)

(٢) (الكامل في التاريخ للمبرد: ج ٣/ ١٩٨، البداية والنهاية: ج ٧/ ٢٧٨)

في رأيه، وسار علي عليه السلام يؤم الكوفة، ولحق معاوية بدمشق من أرض الشام وفرّق عساكره، فلحق كل جند منهم ببلده..^(١)

٧.١. الانصراف من صفين

هكذا وقفت الحرب، وفرض الأشعث ومن كان بحوزته على أمير المؤمنين عليه السلام على القبول بما لم يكن يوماً ليقبله، وأن يضع نفسه والأمة الإسلامية بين يدين آثميتين من أكبر منافقي ذاك الزمان، ولكن هناك فرق بين الإثنين فعمرو بن النابغة كان داهية الدواهي، وأما أبو موسى فكان من أغبي الأغبياء، وأشد الناس مناصبين العداء لأهل البيت (عليهم السلام) وسيده أمير المؤمنين عليه السلام..

ولما أراد قائد جيش الحق (عليه السلام) أن ينصرف من صفين على مضض، وأسف شديد، وقف بينهم خطيباً، وقال عليه السلام: أحمدته استتماماً لنعمته، واستسلاماً لعزته، واستعصاماً من معصيته.. وأستعينه فاقه إلى كفايته؛ إنه لا يَضِلُّ مَنْ هُداه، ولا يثُل من عاداه، ولا يفتقر من كفاه؛ فإنه أرجح ما وزن وأفضل ما خزن.. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً ممتحناً لإخلاصها، معتقداً مصاصها، متمسك بها أبداً ما أبقانا، ونَدَّخَرُها لأهوايل ما يلقانا، فإنها عزيمة الإيمان، و فاتحة الاحسان، ومرضاة الرحمن، ومُدْحَرَة الشيطان.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالدين المشهور، والعلم المأثور، والكتاب المسطور، والنور الساطع، والضياء اللامع، والأمر الصادع، إزاحةً للشبهات، واحتجاجاً بالبينات، وتحذيراً بالآيات، وتخويفاً بالمثلثات..

(١) (مروج الذهب: ج ٢/٤٠٥)

والناس في فتن، انجذم فيها حبل الدين، وتزعزعت سوارى اليقين، واختلف النجر وتشتت الأمر، وضاق المخرج، وعمى المصدر، فالهدى خامل، والعمى شامل، عُصي الرحمن، ونُصر الشيطان، وحُذِل الإيمان، فانهارت دعائمه، وتنكرت معالمه، ودرست سبله، وعفت شركه.. أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه، ووردوا مناهله، بهم سارت أعلامه، وقام لواؤه في فتن داستهم بأخفافها، ووطئتهم بأظلافها، وقامت على سنابكها، فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون في خير دار وشر جيران..

نومهم سهود وكحلهم دموع، بأرض عالمها مُلجم وجاهلها مُكْرَم.. قال الشريف الرضي رَحِمَهُ اللهُ: ومنها يعني آل النبي عليه وآله الصلاة والسلام: هم موضع سره، ولجأ أمره، وعيبة علمه، وموئل حكمه، وكهوف كتبه، وجبال دينه، بهم أقام إنحناء ظهره وأذهب ارتعاد فرائضه. قال شريف الرضي: ومنها يعني قوماً آخرين: زرعوا الفجور، وسقوه الغرور، وحصدوا الثبور.. لا يقاس بآل محمد ﷺ من هذه الأمة أحد، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا.. هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة.. الآن إذ رجع الحق إلى أهله، ونقل إلى منتقله^(١)..

(١) (نهج البلاغة: ج ٢، البحار: ج ١٨/٢١٧)

٢. صور استبسال في القتال

١.٢. صور فردية (بطولات نادرة)

١.١.٢. الإمام القائد (ع) يقاتل

تحدثنا سابقاً عن شجاعة أمير المؤمنين عليه السلام وبطولته التي لا نظير لها في بني البشر، وهنا ننقل بعض الصور المتفرقة لقتاله في معركة صفين، وهي غيض من فيض..

قال جابر بن عمير الأنصاري، في بيان شجاعة الإمام علي عليه السلام في حرب صفين: لا والله الذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله بالحق نبياً، ما سمعنا برئيس قوم منذ خلق الله السماوات والأرض أصاب بيده في يوم واحد ما أصاب الإمام علي عليه السلام؛ إنه قتل فيما ذكر العادون زيادة على خمسمائة من أعلام العرب، يخرج بسيفه منحنياً، فيقول: معذرة إلى الله عز وجل وإليكم من هذا، لقد هممت أن أصقله ولكن حجزني عنه أنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول كثيراً: «لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي» وأنا أقاتل به دونه.

قال: فكنا نأخذه فنقومه (أي نساويه)، ثم يتناوله من أيدينا فيتقحم به في عرض الصف، فلا والله ما ليث بأشد نكاية في عدوه منه، رحمة الله (وصلاته وسلامه) عليه رحمة واسعة..

في ذخائر العقبى عن ابن عباس - وقد سأله رجل: أكان علي (سلام الله عليه) يباشر القتال بنفسه يوم صفين؟ - قال: والله ما رأيت رجلاً أطرح لنفسه في متلف من علي عليه السلام، ولقد رأيته يخرج حاسر الرأس، بيده السيف إلى الرجل الدارع فيقتله..

وفي الطبري عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: كنا مع علي عليه السلام بصفين، فكنا قد وكلنا بفرسه رجلين يحفظانه ويمنعانه من أن يحمل، فكان إذا حانت منهما غفلة يحمل، فلا يرجع حتى يخضب سيفه، وإنه حمل ذات يوم فلم يرجع حتى انثنى سيفه، فألقاه إليهم، وقال: لولا أنه انثنى ما رجعت..

وفيه عن أبي روق الهمداني - في شدة حرب صفين - قال: انتهت الهزيمة (أهل العراق) إلى علي عليه السلام، فانصرف يتمشى نحو الميسرة، فانكشفت عنه مضر من الميسرة، وثبتت ربيعة.

قال أبو مخنف: عن زيد بن وهب الجهني، قال: مرّ علي عليه السلام معه بنوه نحو الميسرة ومعه ربيعة وحدها، وإنني لأرى النبل يمر بين عاتقه ومنكبه، وما من بنه أحد إلا يقيه بنفسه، فيكره علي عليه السلام ذلك، فيتقدم عليه فيحول بين أهل الشام وبينه، فيأخذه بيده إذا فعل ذلك فيلقيه بين يديه أو من ورائه.

فبصر به أحمر - مولى أبي سفيان، أو عثمان، أو بعض بني أمية - فقال: عليّ ورب الكعبة! قتلني الله إن لم أقتلك أو تقتلني.. فأقبل نحوه، فخرج إليه كيسان مولى علي عليه السلام، فاختلفا ضربتين، فقتله مولى بني أمية، وينتزه علي عليه السلام، فيقع بيده في جيب درعه، فيجذبه (يجذبه إليه)، ثم حمله على عاتقه، فكأنني أنظر إلى رجيلتيه، تختلفان على عنق علي عليه السلام، ثم ضرب به الأرض فكسر منكبه وعضديه، وشد ابنا علي عليه السلام عليه حسين ومحمد، فضرباه بأسيا فهما حتى برد، فكأنني أنظر إلى علي عليه السلام قائماً، وإلى شبليه يضربان الرجل..

ثم إن أهل الشام دنوا منه، ووالله ما يزيده قربهم منه سرعة في

مشيه، فقال له ولده الإمام الحسن عليه السلام: ما ضرك لو سعت حتى تنتهي إلى هؤلاء الذين قد صبروا لعدوك من أصحابك؟

فقال: يا بني، إن لأبيك يوما لن يعدوه، ولا يبطئ به عنه السعي، ولا يعجل به إليه المشي، إن أباك والله ما يبالي أوقع على الموت، أو وقع الموت عليه!

وفي الأخبار الطوال، قال: كان فارس معاوية الذي يبتغي (يفتخر) به حُرَيْث مولا، وكان يلبس بزة معاوية، ويستلثم سلاحه، ويركب فرسه، ويحمل مُتَشَبِّهاً بمعاوية، فإذا حمل قال الناس: هذا معاوية.

وقد كان معاوية نهاه عن علي عليه السلام، وقال: اجتنبه، وضع رمحك حيث شئت.. فخلا به عمرو، وقال: ما يمنعك من مبارزة علي، وأنت له كفاء؟ قال: نهاني مولاي عنه.

قال: وإني والله لأرجو إن بارزته أن تقتله، فتذهب بشرف ذلك. فلم يزل يزيّن له ذلك حتى وقع في قلب حريث مبارزة أمير المؤمنين عليه السلام.. فلما أصبحوا خرج حُرَيْث حتى قام بين الصفين، وقال: يا أبا الحسن، ابرز إليّ! أنا حريث.

فخرج إليه الإمام علي عليه السلام فضربه، فقتله..

وصعصعة بن صوحان يروي قائلًا: إن علي بن أبي طالب عليه السلام صاف أهل الشام، حتى برز رجل من حمير من آل ذي يزن، اسمه: كريب بن الصباح، ليس في أهل الشام يومئذ رجل أشهر شدة بالبأس منه، ثم نادى: مَنْ يبارز؟ فبرز إليه المرتفع بن الوضاح الزبيدي، فقتل المرتفع.

ثم نادى: مَنْ يبارز؟ فبرز إليه الحارث بن الجلاح، فقتل.

ثم نادى: مَنْ يبارز؟ فبرز إليه عائذ بن مسروق الهمداني، فقتل عائذاً. ثم رمى بأجسادهم بعضها فوق بعض، ثم قام عليها بغيا واعتداء.

ثم نادى: هل بقي مَنْ يبارز؟

فبرز إليه الإمام علي عليه السلام ثم ناداه: ويحك يا كريب! إني أحذرك الله وبأسه ونقمته، وأدعوك إلى سنة الله وسنة رسوله، ويحك! لا يدخلنك ابن آكلة الأكباد النار..

فكان جوابه أن، قال: ما أكثر ما قد سمعنا هذه المقالة منك، فلا حاجة لنا فيها، أقدم إذا شئت، من يشتري سيفي وهذا أثره؟

فقال علي عليه السلام: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم مشى إليه فلم يمهل أن ضربه ضربة خراً منها قتيلاً يتشحط في دمه.

ثم نادى(ع): مَنْ يبارز؟ فبرز إليه الحارث بن وداعة الحميري، فقتل الحارث.

ثم نادى(ع): مَنْ يبارز؟ فبرز إليه المطاع بن المطلب القيني، فقتل مطاعاً.

ثم نادى(ع): مَنْ يبارز؟ فلم يبرز إليه أحد.

ثم إن علياً عليه السلام نادى: يا معشر المسلمين! ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]

ويحك يا معاوية هلم إليّ فبارزني، ولا يقتلن الناس فيما بيننا! فقال عمرو: اغتنمه منتهزاً، قد قتل ثلاثة من أبطال العرب، وإنني أطمع أن يظفرك الله به.

فقال معاوية: ويحك يا عمرو! والله، إن تريد إلا أن أقتل فتصيب الخلافة بعدي، اذهب إليك، فليس مثلي يخدع^(١)..

وفي الفتوح، قال: خرج رجل من أصحاب معاوية، يقال له: المخارق بن عبد الرحمن - وكان فارساً بطلاً - حتى وقف بين الجمعين، ثم سأل النزال، فخرج إليه المؤمل بن عبيد المرادي، فقتله الشامي.. فلم يزل كذلك حتى قتل أربعة نفر، واحتز رؤوسهم، وكشف عوراتهم.. قال: فتحاماه الناس خوفاً منه.

قال: ونظر إليه الإمام علي (سلام الله عليه) وقد فعل ما فعل فخرج إليه متنكراً، وحمل عليه الشامي وهو لم يعرفه، فبدره علي عليه السلام بضربة على حبل عاتقه فرمى بشقه، ثم نزل إليه فاحتز رأسه، وقلب وجهه إلى السماء، ولم يكشف عورته.

ثم نادى: هل من مبارز؟ فخرج إليه آخر، فقتله علي عليه السلام، وفعل به كما فعل بالأول. فلم يزل كذلك حتى قتل منهم سبعة أم ثمانية وهو يفعل بهم كما يفعل بالأول، ولا يكشف عوراتهم.. فأحجم الناس عنه وتحامته الأبطال من أصحاب معاوية..

فالتفت معاوية لعبد له، يقال له: حرب، فكان فارساً لا يصطلي بناره.. فقال له معاوية: ويحك يا حرب، اخرج إلى هذا الفارس فاكفني أمره، فإنه قد قتل من أصحابي مَنْ قد علمت..

قال: فقال حرب: جعلت فداك إني والله أرى مقام فارس بطل لو برز إليه أهل عسكرك لأفناهم عن آخرهم، فإن شئت برزت إليه وأنا أعلم أنه قاتلي، وإن شئت فأبقني لغيره.

(١) راجع هذه المواقف، صفين لابن مزاحم: ص ٣٥٦، وشرح النهج: ج ٥/٢٥٠.

فقال معاوية: لا والله، ما أحب أن تقتل، فقف مكانك حتى يخرج إليه غيرك.. قال: وجعل يناديهم ولا يخرج إليه واحد منهم، فرفع المغفر عن رأسه، ثم قال: أنا أبو الحسن ثم رجع إلى عسكره. فقال حرب لمعاوية: جعلت فداك ألم أقل لك إني أعرف مقام الفارس البطل^(١)..

٢.١.٢. طمانينة الإمام عليه السلام في ساحة القتال

خرج أمير المؤمنين علي عليه السلام يوم صفين وفي يده عنزة، فمر على سعيد بن قيس الهمداني، فقال له سعيد: أما تخشى يا أمير المؤمنين أن يغتالك أحد وأنت قرب عدوك؟ فقال له علي عليه السلام: إنه ليس من أحد إلا عليه من الله حفظة يحفظونه من أن يتردى في قلب (بئر)، أو يخر عليه حائط، أو تصيبه آفة، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبينه^(٢)..

وفي الكافي عن سعيد بن قيس الهمداني، قال: نظرت يوما في الحرب إلى رجل عليه ثوبان فحركت فرسي فإذا هو أمير المؤمنين عليه السلام، فقلت: يا أمير المؤمنين، في مثل هذا الموضع؟

فقال: نعم؛ يا سعيد بن قيس، إنه ليس من عبد إلا وله من الله حافظ وواقية، معه ملكان يحفظانه من أن يسقط من رأس جبل، أو يقع في بئر، فإذا نزل القضاء خليا بينه وبين كل شيء^(٣)..

وكان الإمام علي عليه السلام وهو يطوف بين الصفين بصفين في غلالة لما قال له الإمام الحسن ابنه (ع): ما هذا زيّ الحرب.. فقال له (ع): يا بني إن

(١) الفتوح لابن الأعمش: ج ٣/ ١١١، البحار: ج ٣٢/ ٥٩٦.

(٢) صفين: ص ٢٥٠، شرح النهج: ج ٥/ ١٩٩.

(٣) الكافي للكليني: ج ٢/ ٥٩، نهج البلاغة: حكمة ٢٠١.

أباك لا يبالي وقع على الموت، أو وقع الموت عليه^(١)..

وفي العقد الفريد: كان الإمام علي بن أبي طالب (سلام الله عليه) يخرج كل يوم بصفين حتى يقف بين الصفين، ويقول:

أي يومي من الموت أفر
يوم لا يقدر أو يوم قدر
يوم لا يقدر لا أرهبه ومن
المقدور لا ينجي الحذر^(٢)

٣.١.٢. هجوم الإمام علي عليه السلام على المجموعة التي فيها معاوية

في الأخبار الطوال، قال: حمل علي (سلام الله عليه) على الجمع الذي كان فيه معاوية في أهل الحجاز من قريش والأنصار وغيرهم، وكانوا زهاء اثني عشر ألف فارس، وعلي عليه السلام أمامهم، وكبروا وكبر الناس تكبيرة ارتجت لها الأرض، فانتقضت صفوف أهل الشام، واختلفت راياتهم، وانتهوا إلى معاوية وهو جالس على منبره معه عمرو بن العاص ينظران إلى الناس، فدعا بفرس ليركبه ويهرب من المعركة.

ثم إن أهل الشام تداعوا بعد جولتهم، وثابوا (عادوا)، ورجعوا على أهل العراق، وصبر القوم بعضهم لبعض إلى أن حجز بينهم الليل..

وركب الإمام علي عليه السلام فرسه الذي كان لرسول الله، وكان يقال له: المرتجز، فركبه ثم تقدم أمام الصفوف، ثم قال: بل البغلة، بل البغلة. فقدمت له بغلة رسول الله ﷺ الشهباء، فركبها، ثم تعصب بعمامة رسول الله السوداء، ثم نادى: أيها الناس! من يشر نفسه لله يريح؛ هذا يوم له

(١) تاريخ الطبري: ج ٥/١٩، الكامل: ج ٢/٣٧٤، صفين: ص ٢٥٠.

(٢) العقد الفريد: ١٠٠/١، شرح النهج: ج ٥/١٣٢.

ما بعده، إن عدوكم قد مسه القرع كما مسكم. فانتدب له ما بين عشرة آلاف إلى اثني عشر ألفاً قد وضعوا سيوفهم على عواتقهم، وتقدمهم علي عليه السلام منقطعاً على بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله.

وتبعه ابن عدي بن حاتم بلوائه.. وتقدم الأشر البطل.. وحمل الناس حملة واحدة، فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض، وأهمدوا ما أتوا عليه، حتى أفضى الأمر إلى مضرب معاوية، وعلي عليه السلام يضربهم بسيفه، ويقول:

أضربهم ولا أرى معاوية
الأخزر العين العظيم الحاوية
هوت به في النار أم هاوية

فدعا معاوية بفرسه لينجو عليه، فلما وضع رجله في الركاب تمثل بأبيات عمرو بن الإطنابة:

أبت لي عفتي وأبى بلائي
وأخذي الحمد بالثمن الريح
وإجشامي على المكروه نفسي
وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت
مكانك تحمدي أو تستريحي

وقال: يا بن العاص، اليوم صبر، وغداً فخر، فقال له: صدقت، إنا وما نحن فيه كما قال ابن أبي الأقلح:

ما علتني وأنا رام نابل
والقوس فيها وتر عنابل

تنزل عن صفحتها المعابل الموت حق والحياة باطل

فثنى معاوية رجله من الركاب ونزل، واستصرخ بعك والأشعريين، فوقفوا دونه، وجالدوا عنه، حتى كره كل من الفريقين صاحبه، وتحاجز الناس..^(١)

وفي الأخبار الطوال قال: إن علياً (ع) لينغمس في القوم فيضرب بسيفه حتى ينثني، ثم يخرج متخضباً بالدم حتى يسوى له سيفه، ثم يرجع، فينغمس فيهم، وربيعه لا تترك جهداً في القتال معه والصبر، وغابت الشمس، وقربوا من معاوية، فقال لعمرؤ: ما ترى؟ قال: أن تخلي سرادقك.. فنزل معاوية عن المنبر الذي كان يكون عليه، وأخلى السرادق، وأقبلت ربيعة، وأمامها علي (سلام الله عليه) حتى غشوا السرادق، فقطعوه، ثم انصرفوا. وبات علي عليه السلام تلك الليلة في ربيعة..^(٢)

٤.١.٢ أبطال السوءات والعورات

إن معاوية بن أبي سفيان بطل ولكن لم يذكر ذاكر أنه قتل أحداً في المعارك ولكنه قتل الآلاف من كبار المؤمنين بالسيوف صبراً لأنهم من شيعة أمير المؤمنين علي عليه السلام، فهو بطل ولك بشقشقة الكلام، وهذر المجالس الماجنة لديه، وأما السيف فله أهله وهو ليس من أهله، رغم أن أخواله أبطال قريش في الجاهلية لاسيما الذين قتلوا ببدر الكبرى بسيف أمير النحل علي عليه السلام..

(١) صفين: ص ٤٠٣، البحار: ج ٣٢/٥١٠، مروج الذهب: ج ٢/٣٩٦.

(٢) الأخبار الطوال: ص ١٨٣.

٥.١.٢. كتاب معاوية إلى الإمام عليه السلام يهدده بالقتال

وبينما الناس يقتلون بسيف الحق وبيد أمير المؤمنين علي عليه السلام استبسل ابن هند وراح يكتب كتاباً لأمير المؤمنين عليه السلام يتهدده به بالقتل، وهذه نسخة كتاب معاوية بن أبي سفيان إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: أما بعد، فإن الهوى يضل من اتبعه، والحرص يتعب الطالب المحروم، وأحمد العاقبتين ما هدى إلى سبيل الرشاد.. ومن العجب العجيب ذام ومادح، وزاهد وراغب، ومتوكل وحريص، كلاماً ضربته لك مثلاً لتدبر حكمته بجميع الفهم، ومباينة الهوى، ومناصحة النفس. فلعمري يا بن أبي طالب، لولا الرحم التي عطفني عليك، والسابقة التي سلفت لك، لقد كان اختطفتك بعض عقبان أهل الشام، فصعد بك في الهواء ثم قذفك على دكادك شوامخ الأبصار، فألفيت كسحيق الفهر على صن الصلابة لا يجد الذر فيك مرتعا.

ولقد عزمت عزمة من لا يعطفه رقة الإنذار، إن لم تباين ما قربت به أملك وطال له طلبك، لأوردنك موردا تستمر الندامة إن فسح لك في الحياة، بل أظنك قبل ذلك من الهالكين، وبئس الرأي رأي يورد أهله إلى المهالك، ويمنيهم العطب إلى حين لات مناص وقد قذف بالحق على الباطل، وظهر أمر الله وهم كارهون، والله الحجة البالغة والمنة الظاهرة.. والسلام^(١).

٦.١.٢. جواب الإمام عليه السلام لكتاب معاوية

إنها والله المهزلة، إنها والله المسخرة، أن يخاطب ابن هند أمير المؤمنين عليه السلام بهذا التهديد ويتوعده بهذا الوعيد وهو أمامه يناديه في

(١) البحار: ج ٣٣/١٢٧، الفهر: حجر لكسر الجوز، والذر: النمل الصغير.

كل حين للبراز، فأين شجاعة الشجعان يا بن أبي سفيان..

ولكن أدعك مع جواب الأمير عليه السلام له، حيث كتب: من عبد الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إلى معاوية بن أبي سفيان: أما بعد، فقد أتانا كتابك بتنويق المقال، وضرب الأمثال، وانتحال الأعمال، تصف الحكمة ولست من أهلها، وتذكر التقوى وأنت على ضدها، قد اتبعت هواك فحاد بك عن الحجة، وألحج بك عن سواء السبيل، فأنت تسحب أذيال لذات الفتن، وتحيط في زهرة الدنيا، كأنك لست توقن بأوبة البعث، ولا برجعة المنقلب، قد عقدت التاج، ولبست الخز، وافترشت الديباج، سنة هرقلية، وملكا فارسية، ثم لم يقنعك ذلك حتى يبلغني أنك تعقد الأمر من بعدك لغيرك، فيملك (٤) دونك فتحاسب دونه.

ولعمري لئن فعلت ذلك فما ورثت الضلالة عن كلاله، وإنك لابن من كان ينبغي على أهل الدين، ويحسد المسلمين.. وذكرت رحما عطفتك عليّ، فأقسم بالله الأعز الأجل أن لو نازعك هذا الأمر في حياتك من أنت تمهد له بعد وفاتك لقطعت حبله، وأبنت أسبابه. وأما تهديدك لي بالمشارب الوبيئة والموارد المهلكة، فأنا عبد الله علي بن أبي طالب، أبرز إليّ صفحتك، كلا ورب البيت ما أنت بأبي عذر عند القتال، ولا عند مناصرة الأبطال، وكأني بك لو شهدت الحرب وقد قامت على ساق، وكشرت عن منظر كربه، والأرواح تختطف اختطاف البازي زغب القطا، لصرت كالمولهة الحيرانة تصربها العبرة بالصدمة، لا تعرف أعلا الوادي عن أسفله.

فدع عنك ما لست أهله؛ فإن وقع الحسام غير تشقيق الكلام، فكم عسكر قد شهدته، وقرن نازلته، [ورأيت] اصطكاك قريش بين يدي

رسول الله ﷺ، إذ أنت وأبوك و[من] هو [أعلا منكما لي] تبع، وأنت اليوم تهددني! فأقسم بالله أن لو تبدي الأيام عن صفحتك لنشب فيك مخلب ليث هصور، لا يفوته فريسة بالمرأوخة، كيف وأني لك بذلك وأنت قعيدة بنت البكر المخدرة؛ يفرعها صوت الرعد، وأنا علي بن أبي طالب الذي لا أهدد بالقتال، ولا أخوف بالنزال، فإن شئت يا معاوية فابرز.. والسلام^(١).

فلما وصل هذا الجواب إلى معاوية بن أبي سفيان جمع جماعة من أصحابه وفيهم عمرو بن العاص فقرأه عليهم.. فقال له عمرو: قد أنصفك الرجل، كم رجل أحسن في الله قد قتل بينكما، ابرز إليه. فقال له: أبا عبد الله أخطأت استك الحفرة، أنا أبرز إليه مع علمي أنه ما برز إليه أحد قط إلا وقتله! لا والله، ولكنني سأبرزك إليه..

وفي شرح نهج البلاغة عن المدائني: كتب الإمام علي عليه السلام إلى معاوية يدعوه للبراز ما يلي: أما بعد، فإن مساوئك مع علم الله تعالى فيك حالت بينك وبين أن يصلح لك أمرك، وأن يرعوي قلبك، يا بن الصخر اللعين! زعمت أن يزن الجبال حلمك، ويفصل بين أهل الشك علمك، وأنت الجلف المنافق، الأغلف القلب، القليل العقل، الجبان الرذل، فان كنت صادقاً فيما تسطر ويعينك عليه أخو بني سهم، فدع الناس جانباً وتيسر لما دعوتني إليه من الحرب والصبر على الضرب، واعف الفريقين من القتال؛ ليعلم أينما المرين على قلبه، المغطى على بصره، فأنا أبو الحسن قاتل جدك وأخيك وخالك، وما أنت منهم ببعيد. والسلام^(٢)..

(١) البحار: ج ٣٣/ ١٢٨.

(٢) البحار: ج ٣٣/ ٨٧، شرح النهج: ج ١٦/ ١٣٥.

وكتب الإمام علي عليه السلام إلى معاوية يدعو للقتال: وكيف أنت صانع إذا تكشفت عنك جلايب ما أنت فيه من دنيا قد تبهجت بزينتها، وخدعت، بلذتها، دعتك فأجبتها، وقادتك فاتبعتها، وأمرتك فأطعتها. وإنه يوشك أن يقفك واقف على ما لا ينجيك منه مجن، فاقعس عن هذا الأمر، وخذ أهبة الحساب، وشمر لما قد نزل بك، ولا تمكن الغواة من سمعك، وإلا تفعل أعلمك ما أغفلت من نفسك؛ فإنك مترف قد أخذ الشيطان منك مأخذه، وبلغ فيك أمله، وجرى منك مجرى الروح والدم. ومتى كنتم - يا معاوية - ساسة الرعية، وولاة أمر الأمة، بغير قدم سابق، ولا شرف باسق؟!

ونعوذ بالله من لزوم سوابق الشقاء، وأحذر أن تكون متماديا في غرة الأمانة، مختلف العلانية والسريرة، وقد دعوت إلى الحرب، فدع الناس جانبا، واخرج إلي واعف الفريقين من القتال؛ ليعلم أينما الميرين على قلبه، والمغطى على بصره، فأنا أبو حسن قاتل جدك وأخيك وخالك شدخا يوم بدر، وذلك السيف معي، وبذلك القلب ألقى عدوي، ما استبدلت دينا، ولا استحدثت نبيا. وإني لعلى المنهاج الذي تركتموه طائعين، ودخلتم فيه مكرهين. وزعمت أنك جئت ثائرا بدم عثمان، ولقد علمت حيث وقع دم عثمان فاطلبه من هناك إن كنت طالبا، فكأنني قد رأيتك تضج من الحرب إذا عضتك ضجيج الجمال بالأثقال، وكأنني بجماعتك تدعوني -؛ جزعا من الضرب المتتابع، والقضاء الواقع، ومصارع بعد مصارع - إلى كتاب الله، وهي كافرة جاحدة، أو مبايعة حائدة^(١)

والشعبي يقول: أرسل علي عليه السلام إلى معاوية: أن ابرز لي واعف

(١) نهج البلاغة: كتاب ١٠، البحار: ج ١٠/٣٣.

الفريقين من القتال، فأينا قتل صاحبه كان الأمر له.

قال عمرو: لقد أنصفك الرجل. فقال معاوية: إني لأكره أن أبارز الأهوج الشجاع، لعلك طمعت فيها يا عمرو.

فلما لم يجب قال علي عليه السلام: وا نفساه، أيطاع معاوية وأعصى؟ ما قاتلت أمة قط أهل بيت نبيها وهي مقرة بنبيها إلا هذه الأمة^(١).

وعمر بن شمر قال: قام علي عليه السلام بين الصفين ثم نادى: يا معاوية، يكررها.. فقال معاوية: أسألوه، ما شأنه؟ قال: أحب أن يظهر لي فأكلمه كلمة واحدة.. فبرز معاوية ومعه عمرو بن العاص، فلما قاربا لم يلتفت إلى عمرو، وقال لمعاوية: ويحك، علام يقتتل الناس بيني وبينك، ويضرب بعضهم بعضاً؟! ابرز إلي؛ فأينا قتل صاحبه فالأمر له.

فالتفت معاوية إلى عمرو فقال: ما ترى يا أبا عبد الله فيما ها هنا، أبارزه؟ فقال عمرو: لقد أنصفك الرجل، واعلم أنه إن نكلت عنه لم تزل سبة عليك وعلى عقبك ما بقي عربي.

فقال معاوية: يا عمرو بن العاص، ليس مثلي يخدع عن نفسه، والله ما بارز ابن أبي طالب رجلاً قط إلا سقى الأرض من دمه! ثم انصرف راجعاً حتى انتهى إلى آخر الصفوف، وعمرو معه.. فلما رأى علي عليه السلام ذلك ضحك، وعاد إلى موقفه^(٢).

وقال الإمام علي عليه السلام يوماً من أيام صفين لربيعة وهمدان: أنتم درعي ورمحي، فانتدب له نحو من اثني عشر ألفاً، وتقدمهم علي عليه السلام على بغلته، فحمل وحملوا معه حملة رجل واحد، فلم يبق لأهل

(١) صفين: ص ٣٨٧، تاريخ الطبري: ج ٥/٤٢، الكامل: ج ٢/٣٨٣.

(٢) صفين: ص ٢٧٤، شرح النهج الحديدي: ج ٥/٢١٧.

الشام صف إلا انتقض، وقتلوا كل من انتهوا إليه، حتى بلغوا معاوية، وعلي عليه السلام، يقول:

أضربهم ولا أرى معاوية

الجاحظ العين العظيم الحاوية

ثم نادى معاوية، فقال علي عليه السلام: علام يقتل الناس بيننا! هلم أحاكمك إلى الله، فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور.

فقال له عمرو: أنصفك الرجل. فقال معاوية: ما أنصف، وإنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلا قتله.. قال له عمرو: وما يجمل بك إلا مبارزته.. فقال معاوية: طمعت فيها بعدي^(١)..

وهكذا هم قادة جنده من اللقطاء كوزيره عمرو بن العاص، وبسر بن أرطاة، ورغم فروسياتهم إلا أنهم وعندما يريدون القتال في صفين فكانوا لا ينزلون إلى ساحة المعركة إلا بعد أن يخلع سراويله ليحارب بسوءته إذا عضه السيف ورأى الموت تحته، فكان يدافع عن نفسه بكشف عورته لمن كرم الله وجهه فلم ير سوءة أحد قط..

٧.١.٢. بطولة الوزير عمرو بن العاص

ذكروا أن عمرا قال لمعاوية: أتجن عن علي، وتتهمني في نصيحتي إليك؟! والله لأبارزن عليا ولو مت ألف موة في أول لقائه.. فبارزه عمرو، فطعنه علي عليه السلام فصرعه، فاتقاه بعورته، فانصرف عنه علي عليه السلام، وولى بوجهه دونه.. وكان علي (سلام الله عليه) لم ينظر قط إلى عورة أحد؛ حياء وتكرما، وتنزها عما لا يحل ولا يجمل بمثله^(٢)..

(١) تاريخ الطبري: ج ٤١/١٥، مروج الذهب: ج ٣٩٦/٢.

(٢) الإمامة والسياسة: لابن قتيبة: ج ٩٥/١.

البداية والنهاية: ذكروا أن علياً حمل على عمرو بن العاص يوماً فضربه بالرمح، فألقاه إلى الأرض، فبدت سوءته، فرجع عنه. فقال له أصحابه: ما لك يا أمير المؤمنين رجعت عنه؟ فقال: أتدرون من هو؟ قالوا: لا! قال: هذا عمرو بن العاص تلقاني بسوءته، فذكرني بالرحم، فرجعت عنه.. فلما رجع عمرو إلى معاوية قال له: احمد الله واحمد استك^(١)..

وحمل عمرو بن العاص معلماً وهو يقول:

شدوا عليَّ شكتي لا تنكشف
بعد طليح والزبير فأتلف
يوم لهمدان ويوم للصدف
وفي تميم نخوة لا تنحرف
أضربها بالسيف حتى تنصرف
إذا مشيت مشية العود الصلف
ومثلها لحمير، أو تنحرف
والربعيون لهم يوم عصف

فاعترضه علي عليه السلام وهو يقول:

قد علمت ذات القرون الميل
والخصر والأنامل الطفول
أني بنصل السيف خنثليل
أحمي وأرمي أول الرعيل
بصارم ليس بذئ فلول

ثم طعنه فصرعه، واتقاه عمرو برجله، فبدت عورته، فصرف

(١) البداية والنهاية: ج ٧/ ٢٦٤.

علي عليه السلام وجهه عنه وارتث، فقال القوم: أفلت الرجل يا أمير المؤمنين. قال: وهل تدرون من هو؟

قالوا: لا. قال: فإنه عمرو بن العاص تلقاني بعورته فصرفت وجهي عنه.. ورجع عمرو إلى معاوية فقال له: ما صنعت يا عمرو؟ قال: لقيني علي فصرعني. قال: احمد الله وعورتك، أما والله أن لو عرفته ما أقحمت عليه^(١)..

وفي عيون الأخبار عن المدائني: رأى عمرو بن العاص معاوية يوما يضحك، فقال له: مم تضحك يا أمير المواطنين، أضحك الله سنك؟ قال: أضحك من حضور ذهنك عند إبدائك سوءتك يوم ابن أبي طالب! أما والله لقد وافقته منانا كريما، ولو شاء أن يقتلك لقتلك.

قال عمرو: يا أمير المواطنين، أما والله إنني لعن يمينك حين دعاك إلى البراز فاحوَّلت عيناك، وربما سحرك، وبدا منك ما أكره ذكره لك، فمن نفسك فاضحك أو دع^(٢)!!

٨.١.٢. نجوى عن البطولات الأموية

عن أبي جحيفة قال: ثم إن معاوية جمع كل قرشي بالشام، فقال: العجب يا معشر قريش أنه ليس لأحد منكم في هذه الحرب فعال يطوّل به لسانه غدا ما عدا عمرا، فما بالكم، وأين حمية قريش؟!

فغضب الوليد بن عقبة، وقال: وأى فعال تريد، والله ما نعرف في أكفائنا من قريش العراق من يغنى غناءنا باللسان ولا باليد.

(١) صفين: ص ٤٠٧، شرح النهج: ج ٨/٦٠.

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة: ج ١/١٦٩، العقد الفريد: ج ٣/٣٣٤.

فقال معاوية: بل إن أولئك قد وقوا علياً بأنفسهم.

قال الوليد: كلا بل وقاهم علي بنفسه.

قال: ويحكم، أما منكم من يقوم لقرنه منهم مبارزة أو مفاخرة.

فقال مروان: أما البراز فإن علياً لا يأذن لحسن ولا لحسين ولا لمحمد بنيه فيه، ولا لابن عباس وإخوته، ويصلى بالحرب دونهم، فلا يهيم نبارز.

وأما المفاخرة فبماذا نفاخرهم أبالإسلام أم بالجاهلية.

فإن كان بالإسلام فالفخر لهم بالنبوة، وإن كان بالجاهلية فالملك فيه لليمن، فإن قلنا قريش قالت العرب: فأقروا لبني عبد المطلب.

فغضب عتبة بن أبي سفيان فقال: إلهوا عن هذا فإنني لاق بالغداة جعدة بن هبيرة.

فقال معاوية: بخ، بخ، قومه بنو مخزوم، وأمه أم هانئ بنت أبي طالب، وأبوه هبيرة بن أبي وهب، كفوا كريم.

وظهر العتاب بين عتبة والقوم حتى أغلظ لهم وأغلظوا له.

فقال مروان: أما والله لولا ما كان مني يوم الدار مع عثمان، ومشهدي بالبصرة لكان مني في علي رأي كان يكفى امرأ ذا حسب ودين، ولكن ولعل.

ونابذ معاوية الوليد بن عتبة دون القوم، فأغلظ له الوليد فقال معاوية: يا وليد، إنك إنما تجترئ عليّ بحق عثمان، وقد ضربك حداً، وعزلك عن الكوفة.

ثم إنهم ما أمسوا حتى اصطلحوا وأرضاهم معاوية من نفسه،

ووصلهم بأموال جليلة.

وبعث معاوية إلى عتبة بن أبي سفيان فقال: ما أنت صانع في جعدة بن هبيرة؟ فقال: ألقاه اليوم وأقاتله غدا.

وكان لجعدة في قريش شرف عظيم، وكان له لسان، وكان من أحب الناس إلى الإمام علي عليه السلام، فغدا عليه عتبة فنادى: أيا جعدة، أيا جعدة.

فاستأذن علياً عليه السلام في الخروج إليه، فإذن له، واجتمع الناس لكلامهما فقال عتبة: يا جعدة، إنه والله ما أخرجك علينا إلا حب خالك (الإمام علي عليه السلام كان خاله) وعمك ابن أبي سلمة عامل البحرين، وإنا والله ما نزعم أن معاوية أحق بالخلافة من علي عليه السلام لولا أمره في عثمان، ولكن معاوية أحق بالشام لرضا أهلها به فاعفوا لنا عنها، فوالله ما بالشام رجل به طرق (قوة) إلا وهو أجد من معاوية في القتال، ولا بالعراق من له مثل جد علي عليه السلام [في الحرب].

ونحن أطوع لصاحبنا (معاوية) منكم لصاحبكم (الإمام علي)، وما أقبح بعلي أن يكون في قلوب المسلمين أولى الناس بالناس، حتى إذا أصاب سلطاناً أفنى العرب.

فقال جعدة: أما حبي لخالي فوالله أن لو كان لك خال مثله لنسيت أباك.. (وهل في الدنيا خال كهذا الخال العظيم) (ع.؟)

وأما ابن أبي سلمة فلم يُصب أعظم من قدره، والجهاد أحب إلي من العمل.

وأما فضل علي عليه السلام على معاوية فهذا ما لا يختلف فيه اثنان.

وأما رضاكم اليوم بالشام فقد رضيتم بها أمس فلم نقبل.

وأما قولك إنه ليس بالشام من رجل إلا وهو أجدر من معاوية، وليس بالعراق لرجل مثل جدّ علي عليه السلام، فهكذا ينبغي أن يكون، مضى بعلي يقينه، وقصّر بمعاوية شكه، وقصد أهل الحق خير من جهد أهل الباطل. وأما قولك نحن أطوع لمعاوية منكم لعلي عليه السلام، فو الله ما نسأله إن سكت، ولا نردّ عليه إن قال.. (هيبة وتقديرا واحتراما)..

وأما قتل العرب فإن الله كتب القتل والقتال فمن قتله الحق فإلى الله. فغضب عتبة وفحش على جعدة، فلم يُجبه وأعرض عنه وانصرفا جميعا مغضبين.

فلما انصرف عتبة جمع خيله فلم يستبق منها شيئا، وجل أصحابه السكون والأزد والصدف، وتهيأ جعدة بما استطاع فالتقيا، وصبر القوم جميعا، وباشر جعدة يومئذ القتال بنفسه، وجزع عتبة فأسلم خيله وأسرع هاربا إلى معاوية،

فقال له: فضحك جعدة، وهزيمتك لا تغسل رأسك منها أبدا. قال عتبة: لا والله لا أعود إلى مثلها أبدا، ولقد أعذرت، وما كان على أصحابي من عتب، ولكن الله أبى أن يديلنا منهم فما أصنع^(١). فالتقال ببصيرة ووعي أفضل من ألف مرة من الإصرار على الغي والضلال، فالحق لا يغني عنه شيء، والباطل ماحق زائل لا محالة..

وفي الأمالي للصدوق عن عدي بن أرطاة: قال معاوية يوما لعمر بن العاص: يا أبا عبد الله، أينأ أدهى؟ قال عمرو أنا للبديهة، وأنت للروية.. قال معاوية: قضيت لي على نفسك، وأنا أدهى منك في البديهة.. فقال عمرو: فأين كان دهاؤك يوم رفعت المصاحف؟

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٨/ ٩٧ وما بعدها عن صفين: ص ٤٦٢ وما بعدها.

قال: بها غلبتني يا أبا عبد الله، فلا أسألك عن شيء تصدقني فيه.
قال: والله إن الكذب لقبيح، فسل عمّا بدا لك أصدقك.

فقال: هل غششتني منذ نصحتني؟ قال: لا. قال: بلى والله، لقد غششتني، أما إني لا أقول في كل المواطن ولكن في موطن واحد.
قال: وأي موطن هذا؟ قال: يوم دعاني علي بن أبي طالب للمبارزة، فاستشرتك، فقلت: ما ترى يا أبا عبد الله، فقلت: كفؤ كريم، فأشرت عليّ بمبارزته، وأنت تعلم مَنْ هو، فعلمت أنك غششتني.

قال: يا أمير المواطنين، دعاك رجل إلى مبارزته، عظيم الشرف، جليل الخطر، فكنت من مبارزته على إحدى الحسينين؛ إما أن تقتله فتكون قد قتلت قتال الأقران، وتزداد به شرفاً إلى شرفك وتخلو بملكك، وإما أن تعجل إلى مرافقة الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

قال معاوية: هذه شرٌّ من الأول، والله إني لأعلم أنني لو قتلت دخلت النار، ولو قتلني دخلت النار. قال عمرو: فما حملك على قتاله؟ قال: الملك عقيم، ولن يسمعها مني أحد بعدك^(١).

٩.١.٢. بطولة القائد بُسر بن أرطاة

عن صعصعة بن صوحان والحارث بن أدهم قالا: برز يومئذ عروة بن داود الدمشقي، فقال: إن كان معاوية كره مبارزتك يا أبا الحسن فهلّم إليّ.. فتقدم إليه الإمام علي عليه السلام، فقال له أصحابه: ذر هذا الكلب فإنه ليس لك بخطر.

فقال: والله، ما معاوية اليوم بأغيظ لي منه، دعوني وإياه، ثم حمل عليه فضربه فقطعه قطعتين، سقطت إحداها يمناً، والأخرى يسرة،

(١) أمالي الصدوق: ص ١٣٢، البحار: ج ٤٩/٣٣.

فارتجّ العسكران لهول الضربة.

ثم قال: اذهب يا عروة فأخبر قومك، أما والذي بعث محمداً بالحق لقد عاينت النار وأصبحت من النادمين.

وقال ابن عم لعروة: واسوء صباحاه، قبح الله البقاء بعد أبي داود. وحمل ابن عم أبي داود على الإمام علي عليه السلام فطعنه فضرب الرمح فبراه، ثم قنعه ضربة فألحقه بأبي داود.. ومعاوية واقف على التل يبصر ويشاهد، فقال: تباً لهذه الرجال وقبحاً؛ أما فيهم مَنْ يقتل هذا مبارزةً أو غيلةً، أو في اختلاط الفيلق وثوران النقع!

فقال الوليد بن عقبة: ابرز إليه أنت فإنك أولى الناس بمبارزته. فقال: والله، لقد دعاني إلى البراز حتى استحييت من قريش، وإني والله لا أبرز إليه، ما جعل العسكر بين يدي الرئيس إلا وقاية له. فقال عتبة بن أبي سفيان: الهوا عن هذا؛ كأنكم لم تسمعوا نداءه، فقد علمتم أنه قتل حريثاً، وفضح عمراً، ولا أرى أحداً يتحكك به إلا قتله.

فقال معاوية لبسر بن أرطاة: أتقوم لمبارزته؟ فقال: ما أحد أحقُّ بها منك، وإذ أبيتموه فأنا له.. فقال له معاوية: أما إنك ستلقاه في العجاجة غداً في أول الخيل.

وبالفعل غدا الإمام علي عليه السلام منقطعاً من خيله ومعه الأشر، وهو يريد التل وهو (ع) يقول:

إنى علي فاسألوا لتخبروا
ثم ابرزوا إلى الوغى أو أدبروا
سيفى حسام وسناني أزهر
منا النبي الطيب المطهر

وحمزة الخير ومنا جعفر
له جناح في الجنان أخضر
ذا أسد الله وفيه مفخر
هذا وهذا وابن هند مجحر
مذبذب مطرد مؤخر

فاستقبله بُسر قريباً من التلّ وهو مقنّع في الحديد لا يُعرف، فناده:
ابرز إليّ أبا حسن! فانحدر إليه على تؤدة (بسهولة ويسر) غير مكترث
به، حتى إذا قاربه طعنه وهو دارع، فألقاه على الأرض، ومنع الدرع
السنان أن يصل إليه، فاتقاه بُسر بعورته وقصد أن يكشفها يستدفع
بأسه، فانصرف عنه الإمام عليّ عليه السلام مستدبراً له، فعرفه الأشر حين
سقط، فقال: يا أمير المؤمنين هذا بُسر بن أرطاة، عدو الله وعدوك.

فقال عليه السلام: دعه عليه لعنة الله، أبعد أن فعلها.. (أي أبعد أن كشف
عن عورته كعمرو بن العاص عليهما لعائن الله).

فحمل ابن عمّ لبُسر شاب على عليّ عليه السلام وهو يقول:

أرديت بسرا والغلام ثائره
أرديت شيخا غاب عنه ناصره
وكلنا حام لبسر واثره

فحمل عليه الأشر وهو يقول:

أكل يوم رجل شيخ شاغره
وعورة وسط العجاج ظاهره
تبرزها طعنة كف واثره

عمرو وبسر رميا بالفاقره

فطعنه الأشر فكسر صلبه..

وقام بُسر من طعنة علي عليه السلام مولياً، وولت خيله، وناداه الإمام علي عليه السلام: يا بسر، معاوية كان أحق بهذا منك.. فرجع بُسر إلى معاوية، فقال له معاوية: ارفع طرفك قد أدال الله عمراً منك.. فكان بُسر بعد ذلك إذا لقي الخيل التي فيها الإمام علي عليه السلام تنحى ناحية وتحامى فرسان أهل الشام علياً عليه السلام..^(١)

٢.٢. مالك الأشر

مالك بن الحارث (المعروف بالأشر) بن عبد يغوث بن سلمة بن ربعة بن الحرث بن جزيمة بن مالك بن النخع (وهو جسر) بن عمرو بن علة بن جلد بن مالك بن إدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن يشجب بن يعرب بن قحطان..

وقحطان هذا الجد الأعلى للعرب القحطانيون اليمنيون الجنوبيين، وأما عرب الشمال فهم العدنانيون، كما هو معلوم عند أهله..

هذا نسبه إلى أن ينتهي بالنخع، ثم يصل إلى مذحج جده الأعلى والذي تسمت به قبيلة (مذحج) من أشهر القبائل اليمنية العربية وأشدها قوة ومنعة.

النخعي: وهي نسبته إلى جده جسر بن عمرو الذي انتزع (أي ابتعد) عن أهله ونزل في قرية بيشه اليمنية.. وفيها بنا مجد قبيلته العربية التي أنجبت الكثير من الأبطال ويكفيها مالك الأشر وولده إبراهيم البطل..

(١) (صفيين لنصر ٤٦١، شرح النهج: ج ٨/ ٩٥)

مالك بن الحارث الأشتر الذي كان من زعماء العراق الأشداء، فارساً صنديداً لا يُشق له غبار، شديد البأس رئيس أركان الجيش لعساكر مولانا أبي الحسن الإمام علي عليه السلام في معاركه الفاصلة الجمل، وصفين.. وهو من لهاميم مذحج الأبطال المغاوير وسيّد قروم النخع وشجعانها المساعير.. وكان من رواسي الجبال في الحلم ومن السحاب الثقل في الكرم والسخاء.

وكان مالك الأشتر رأس اليمانية وبطلهم في الكوفة، طويل القامة، عريض الصدر، مفوّه بليغ، وخطيب مصقّع، قوي بقول الحق ثابت الجنان عليه، يقتحم الموت عند النكوص، وتلحقه المنايا عندما في جيش العدو يغوص، لايهاب المنية، ويرتعب من الدنية، ولكن قلّ مثاله في الفروسية.. وكان لمزاياه الأخلاقية، ومروأته، ومنعته، وهيبته، وأبهته، وحياءه، وعفته، تأثير عجيب في نفوس الكوفيين، فكانوا يطيعونه إذا أمر، ويسمعون كلامه إذا خطب، ويحترمون رأيه إذا أبداه..

ولذا قيل: كان الأشتر بالكوفة اسود من الأحنف بالبصرة.

كان الأشتر صاحب دين، وكان معدوداً في التابعين، وكان على جانب كبير من التقشف والزهادة، ودليل ذلك اعجابه الشديد بأبي ذر الغفاري، وكان مالك من الذين زاروا هذا الصحابي الجليل البطل رغم غضب الخليفة عليه، حتى لقد مات أبو ذر بين يديه وتولى مالك أمره ودفنه، وأبّنه تأبيناً ينمّ على الألم لما لقيه من عنت وغبن، كما ينم على الاستياء والحقّد على أولئك الذين آذوا صاحب الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله، فلم يعرفوا له قدره ومكانته..

ويبقى الغريب عن هذا البطل أنه كان يثور أمام الناس جميعاً إلا أمام الإمام علي عليه السلام فقد كان يحبه حباً غير من طبيعته الثائرة،

وهذَّب من طبعه العرم، ورقَّق من نفسه المزمجرة.. فكان إذا سمع الأمر من مولاه (عليه السلام) تلقاه كأمر عسكري لا تجوز مناقشته، ولا تحق مداورته^(١)..

وكم شهد له أمير المؤمنين عليه السلام بالخير، فقال عنه: انه ممن لا يخاف وهنه ولا سقطته، ولا بطؤه عما الإسراع إليه أحزم ولا إسراعه إلى ما البطء عنه أمثل.

وأرسل إليه كتابا يقول فيه: أما بعد فإنك ممن استظهر به على إقامة الدين واقمع به نخوة الأليم وأسد به الثغر المخوف.

وقد وصفه أمير المؤمنين عليه السلام لأهل مصر حين ولاه عليهم في كتاب كتبه إليهم: لقد وجهت إليكم عبدا من عباد الله لا ينام في الخوف ولا ينكل من الأعداء حذر الدوائر أشد على الكافرين من حريق النار، فاسمعوا وأطيعوا فإنه سيف من سيوف الله لا نابي الضريبة ولا كليل الحد.

ولما بلغ الإمام علياً عليه السلام قتل الأشتر وشهادته، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون والحمد لله رب العالمين، اللهم إني احتسبه عندك فان موته من مصائب الدهر، ثم قال: رحم الله مالكا فقد كان وفيا بعهده وقضى نجه ولقي ربه، مع أنا قد وطنا أنفسنا أن تصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله، فإنها من أعظم المصائب.

وحدث أشياخ النخع قالوا: دخلنا على أمير المؤمنين عليه السلام حين بلغه موت الأشتر فوجدناه يتلهف ويتأسف عليه، ثم قال: لله در مالك وما مالك؟! والله لو كان من جبل لكان فندا ولو كان من حجر لكان صلدا، أما والله ليهون موتك عالما وليفرحن عالما، على مثل مالك فلتبك

(١) (أعيان الشيعة، للسيد الأمين، ترجمته لمالك الأشتر: ج ١/٩ وما بعدها)

البواكي، وهل موجود كمالك.^(١)

قال علقمة بن قيس النخعي: فما زال يتلهف ويتأسف حتى ظننا أنه المصاب به دوننا، وعرف ذلك في وجهه أياما.. ومن أقوال أمير المؤمنين فيه: كان الأشتر لي كما كنت لرسول الله ﷺ..

وسئل بعضهم عن الأشتر فقال: ما أقول في رجل هزمت حياته أهل الشام وهزم موته أهل العراق.

وقال الأستاذ أحمد الجندي: من شخصيات التاريخ الإسلامي النادرة، ومن أبطال الحرب البارزين في أيام العرب، جمع البطولة إلى النجدة، والشجاعة إلى الدين، والفصاحة والبلاغة إلى الكرم والأدب، ورغم ما مر بك من صفات الرجل فان التاريخ لم ينصفه، ولم يحص مآثره وأمجاده، لان ما به من صفات لا يمكن حصرها ولا يتأتى تعدادها. انه يمثل العربي الصحيح، العربي الذي لا يقرب العيوب ولا يداني الدنس، العربي الذي يرخص الروح في سبيل الذود عن الكرامة والدفاع عن الحياض، هذه الكلمات المعسولة التي مرت بك ليست ألفاظا تقال في معرض الحديث عن مالك الأشتر، وانما هي كلمات لها معانيها ومدلولاتها وآثارها في شخص بطل طبق على نفسه القواعد الموضوعية والحدود المرسومة حتى بلغ مرتبة المثل الأعلى للرجل الكامل.^(٢)

١.٢.٢. قتال الأشتر ودوره في الحرب

إن حوادث العصية العصبية، وصروف الدهر العجيبة، ومشقات الحياة المتقلبة، وتصرفات الأيام وتقلباتها، تؤدي دورا مهما في صقل

(١) (راجع أعيان الشيعة، السيد الأمين: ترجمة مالك الأشتر)

(٢) (ن م: ترجمة الأشتر)

الناس، وتبلور رفعتهم وعزتهم، فتظهر جواهرهم المخبأة، وامكانياتهم المخفية، وبذلك تتجلى عظمة الروح الإنسانية بنحو بَيِّن، لأنها تترك الأثر العميق في إيجاد الأرضية التي تبلور فيها شخصية الإنسان، وبها يظهر بواطن الناس؛ لأنه في صروف الدهر وتقلباته تُعرف حقيقة الإنسان، كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «في قلب الأحوال تعرف جواهر الرجال»^(١)..

وهكذا كانت حروب التأويل عامة وفي معركة صفين خاصة مرآة تجلت فيها شخصية مالك المتألقة في تاريخ الإسلام كله؛ فقد كان الوجه البارز، فهو رئيس هيئة الأركان لجيش الحق، وهو البطل الشجاع الباسل في هذه الحروب المصيرية.

١. كان دور مالك واضحاً وأساسياً في تحفيز الكوفيين - الذين كانوا يسمعون كلامه - وفي إرسالهم إلى معركة الجمل أولاً، ثم إلى صفين ثانياً.

٢. وكان له الدور الرئيس في تنظيم الجيش وقيادته في ساحات القتال، ومقارعة الأبطال.

٣. وكان قائد قوات الاستطلاع الأولى التي أرسلها أمير المؤمنين عليه السلام، وخاض فيها معركة فاصلة في الرقة..

٤. وكان مالك قائداً لمقدمة الجيش، وكانت هيمنته العظيمة ومواجهته البطولية لمقدمة جيش معاوية - التي كان عليها أبو الأعور السلمي - قد أرغمت هؤلاء على الفرار من الميدان بأول مواجهة بين الجيشين..

٥. كان أهل الرقة من أنصار عثمان، فدمروا الجسور المنصوبة على نهر الفرات لخلق العقبات أمام الجيش العلوي الذي كان قوامه مائة ألف

(١) مجمع البحرين : ج/١/٤٣٤.

مقاتل.. فعزم الإمام عليه السلام على الصعود إلى جسر منبج للعبور عليه؛ لأنه لم يرد أن يستخدم القوة العسكرية ويقسر الناس على القيام معه ومناصرته، وهنا عرّف مالك نفسه لأهل الرقة وهددهم، فخافوا منه لمعرفته به فاضطروا إلى نصب جسر العبور، وعبر الجيش بالفعل وآخر من عبر ماشيا كان الأشر..

٦. حال جيش معاوية دون وصول جيش الإمام عليه السلام إلى الماء، فاستبسل ومعه الأشعث بن قيس حتى تمكن الجيش من الحصول على الماء وطرده صبيان الشام عنه مرغمين.

٧. تولى مالك القيادة العامة للفرسان (الخيالة) عند نشوب الحرب.

٨. كان له الدور الأكبر في صولات ذي الحجة.. وحين بدأت الحرب في شهر صفر ودامت ثمانية أيام، كان مالك في يومين منها قائداً عاماً لها على الإطلاق.

٩. كان مقاتلاً لا نظير له في المواجهات الفردية، ولم ينكص قط عند مواجهة أحد.

١٠. في الأيام الأخيرة من المعركة، كان حلالاً للمشاكل العويصة فيها، وكان يحضر بأمر مولاه حيثما ظهرت مشكلة فيبادر إلى حلها، فأينما يلاحظ ضعف في الصفوف كان هو المنقذ.

١١. تألق مالك تألقاً عظيماً في وقعة الخميس وليلة الهرير.

١٢. قاد مع أصحابه جولة مرعبة مهيبة من جولات صفين، فتقدم حتى وصل خيمة معاوية فجر يوم الجمعة، ولم يكن بينه وبين الانتصار الأخير وإخماد نار الفتنة الأموية إلا خطوة واحدة، فتأمر الأشعث ومن معه، وأجبروا الإمام عليه السلام على إرجاعه، فابتعد عن خيمة معاوية بقلب ملؤه الأسى؛ كي لا يصل إلى مولاه أذى.

فيا عجباً لكل هذا الإيثار من هذا الرجل المثال، مع ذلك التحجر الغريب من أولئك الأندال، واسوداد ضمائر المناوئين للإمام عليه السلام، وقبح سرائرهم!! فإن أعظم ما تميز به مالك هو معرفته العميقة للإمام علي عليه السلام وتواضعه أمام مولاه، ذلك التواضع النابع من وعيه الفذ، ومعرفته العظيمة، وإيمانه العميق.

قال في الفتوح: خرج رجل من أهل العراق على فرس له كमित - لا يرى منه إلا حماليق الحِديق، وفي يده رمح له - فجعل يضرب بالرمح على رؤوس أصحاب علي عليه السلام ويقول: سووا صفوفكم رحمكم الله! والناس لا يعرفونه.. حتى إذا اعتدلت الصفوف والرايات، استقبلهم بوجهه وولى ظهره إلى أهل الشام، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: احمدا الله عباد الله، واشكروه؛ إذ جعل فيكم ابن عم نبيه محمد صلوات الله عليه وآله، ووصيه، وأحب الخلق إليه، أقدمهم هجرة، وأولهم إيماناً، سيف من سيوف الله صبه على أعدائه.. فانظروا إذا حمي الوطيس، وثار القتام، وتكسرت الرماح، وتثلمت الصفاح، وجالت الخيل بالأبطال، ولا أسمع منكم إلا غمغمة أو همهمة.

قال: ثم حمل على أهل الشام، فقاتل حتى كسر رمحه، ثم رجع فإذا هو الأشتر^(١)..

وفي تاريخ الطبري عن الحر بن الصياح النخعي: إن الأشتر يومئذ كان يقاتل على فرس له في يده صفيحة يمانية؛ إذا طأطأها خلت فيها ماء منصبا، وإذا رفعها كاد يعشي البصر شعاعها، وجعل يضرب بسيفه ويقول: الغمرات ثم ينجليها..

عن عبد الله بن عاصم الفائشي: حدثني رجل من قومي أن الأشتر

(١) الفتوح لابن الأعمش: ج ٣/ ١٥٧.

خرج يوماً يقاتل بصفين في رجال من القراء، ورجال من فرسان العرب، فاشتد قتالهم، فخرج علينا رجل - والله لقلما رأيت رجلاً قط هو أطول ولا أعظم منه - فدعا إلى المبارزة، فلم يخرج إليه أحد إلا الأشر، فاختلفا ضربتين، فضربه الأشر، فقتله. وأيم الله، لقد كنا أشفقنا عليه، وسألناه أن لا يخرج إليه، فلما قتله الأشر نادى مناد من أصحابه:

يا سهم سهم بن أبي العيزار

يا خير من نعلمه من زار

و«زارة» حي من الأزد - وقال: أقسم بالله، لأقتلن قاتلك أو ليقتلني، فخرج فحمل على الأشر، وعطف عليه الأشر فضربه، فإذا هو بين يدي فرسه، وحمل عليه أصحابه فاستنقذوه جريحاً. فقال أبو ربيعة الفهمي: هذا كان ناراً، فصادف إعصاراً..^(١)

وعن الحر بن الصياح النخعي - في الأشر -: رآه منقذ وحمير ابنا قيس الناعطيان، فقال منقذ لحمير: ما في العرب مثل هذا إن كان ما أرى من قتاله على نيته.. فقال له حمير: وهل النية إلا ما تراه يصنع! قال: إني أخاف أن يكون يحاول ملكاً..^(٢)

عن عمر بن سعد عن رجاله: إن معاوية دعا مروان بن الحكم فقال: يا مروان، إن الأشر قد غمّني وأقلقني، فأخرج بهذه الخيل في كلاع ويحصب، فאלقه فقاتل بها.. فقال له مروان: ادع لها عمراً فإنه شعارك دون دثارك.. ودعا معاوية عمراً، وأمره بالخروج إلى الأشر..

فخرج عمرو في تلك الخيل فلقية الأشر أمام الخيل، فعرف عمرو أنه الأشر، وفشل حيله وجبن، ولكن استحيا أن يرجع.. فلما غشيه

(١) (تاريخ الطبري: ج ٤/٥٧٥، صفين: ص ١٩٦)

(٢) (تاريخ الطبري: ج ٥/٢٢، صفين: ص ٢٥٥)

الأشتر بالرمح زاغ عنه عمرو، فطعنه الأشتر في وجهه فلم يصنع الرمح شيئاً، وثقل عمرو فأمسك عنان فرسه، وجعل يده على وجهه، ورجع راكضاً إلى العسكر^(١)..

بقي علينا أن نقول: أن هذا الرجل ليس له نظير في الشجاعة والبسالة في الحروب حتى أن سيده ومولاه أمير المؤمنين عليه السلام قال له يوماً: يا مالك من أشجع أنا أو أنت؟

فقال: أما قتل الأقران فأنت، وأما شق الصفوف فأنا..^(٢)

ولذا قلت (ابن أبي الحديد): لله أم قامت عن الأشتر لو أن إنساناً يقسم أن الله تعالى ما خلق في العرب ولا في العجم أشجع منه إلا أستاذه عليه السلام لما خشيت عليه الاثم! والله در القائل، وقد سئل عن الأشتر: ما أقول في رجل هزمت حياته أهل الشام، وهزم موته أهل العراق! وبحق ما قال فيه أمير المؤمنين عليه السلام: كان الأشتر لي كما كنت لرسول الله ﷺ.^(٣)

٢.٢.٢. شهداء أبرار

قال: جزع أهل الشام على قتلاهم جزعاً شديداً، فقال معاوية بن خديج: يا أهل الشام، قبّح الله ملكاً يملكه المرء بعد حوشب وذى الكلاع والله لو ظفرنا بأهل العراق بعد قتلهم بغير مؤونة ما كان ظفراً.

وقال يزيد بن أنس لمعاوية: لا خير في أمر لا يشبه أوله آخره، لا يدمل جريح، ولا يبكي على قتيل حتى تنجلي هذه الفتنة، فإن يكن

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٨/٨٠.

(٢) (الأمثال لابن سلام: ٩٨).

(٣) شرح النهج: ج ٢/٢١٤ عن صفين: ص ٥٤٧.

ΣΥΝ

وإرساء دعائم المجتمع الإسلامي الفتى صفحة مشرقة تتألق فى التأريخ الإسلامى كله؛ فكان ذا بصيرة ثاقبة، ورؤية نافذة، وخطوات وطيدة، فقد كان يرى الشرك على حقيقته من بين ركام المكر والخديعة والظواهر المموهة بالإسلام والتوحيد..

وعن أسماء بن الحكم الفزارى قال: كنا بصفين مع علي بن أبي طالب عليه السلام تحت راية عمار بن ياسر، ولما ارتفاع الضحى - استظللنا ببرد أحمر - إذ أقبل رجل يستقرى الصف حتى انتهى إلينا، فقال: أيكم عمار بن ياسر؟

فقال عمار بن ياسر: هذا عمار. قال: أبو اليقظان؟ قال: نعم. قال: إن لي حاجة إليك فأنطق بها علانية أو سراً؟

قال: اختر لنفسك أي ذلك شئت.. قال: لا، بل علانية.

قال: فانطق (أي قل).. قال: إني خرجت من أهلي مستبصراً في الحق الذي نحن عليه لا أشك في ضلالة هؤلاء القوم وأنهم على الباطل، فلم أزل على ذلك مستبصراً حتى كان ليلتي هذه صباح يومنا هذا؛ فتقدم منادياً فشهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ونادى بالصلاة، فنادى مناديهم بمثل ذلك، ثم أقيمت الصلاة فصلينا صلاة واحدة، ودعونا دعوة واحدة، وتلونا كتاباً واحداً، ورسولنا واحد، فأدركني الشك في ليلتي هذه، فبت بليلة لا يعلمها إلا الله حتى أصبحت، فأتيت أمير المؤمنين عليه السلام فذكرت ذلك له، فقال: هل لقيت عمار بن ياسر؟ قلت: لا.

قال: فالقه فانظر ما يقول لك فاتبعه.. فجئت لك لذلك.

فقال له عمار: هل تعرف صاحب الراية السوداء المقابلتي فإنها راية

عمرو بن العاص، قاتلتها مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات، وهذه الرابعة ما هي بخيرهن ولا أبرهن، بل هي شرهن وأفجرهن.. أ شهدت بدرًا وأحدًا وحنينًا أو شهدها لك أبٌ فيخبرك عنها؟ قال: لا.

قال: فإن مراكزنا على مراكز رايات رسول الله ﷺ يوم بدر، ويوم أحد، ويوم حنين، وإن هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب، هل ترى هذا العسكر ومن فيه؟ فوالله، لوددت أن جميع من أقبل مع معاوية ممن يريد قتالنا مفارقاً للذي نحن عليه كانوا خلقاً واحداً فقطعته وذبحته، والله، لدمائهم جميعاً أحل من دم عصفور، أفترى دم عصفور حراماً؟

قال: لا، بل حلال.

قال: فإنهم كذلك حلال دماؤهم، أ تراني بينت لك؟ قال: قد بينت لي.

قال: فاختر أي ذلك أحببت.. قال: فانصرف الرجل ثم دعاه عمار بن ياسر، فقال: أما إنهم سيضربوننا بأسيا فهم حتى يرتاب المبطلون منكم فيقولون: لو لم يكونوا على حق ما ظهروا علينا.. والله، ما هم من الحق على ما يقضي عين ذباب، والله، لو ضربونا بأسيا فهم حتى يبلغونا سعفات هجر لعرفت أننا على حق وهم على باطل. وإيم الله، لا يكون سلماً سالماً أبداً حتى يبوء أحد الفريقين على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين، وحتى يشهدوا على الفريق الآخر بأنهم على الحق وأن قتلهم في الجنة وموتاهم، ولا ينصرم أيام الدنيا حتى يشهدوا بأن موتاهم وقتلاهم في الجنة، وأن موتى أعدائهم وقتلاهم في النار، وكان أحيائهم على الباطل..

وفي مسند ابن حنبل عن عبد الله بن سلمة: رأيت عماراً يوم صفين شيخاً كبيراً آدم طوالاً أخذ الحربة بيده ويده ترعد، فقال: والذي نفسي بيده، لقد قاتلت بهذه الراية مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات، وهذه الرابعة، والذي نفسي بيده، لو ضربونا حتى يبلغوا بنا شعفات هجر لعرفت أن مصلحينا على الحق وأنهم على الضلالة^(١)..

وكم كان لهذا الصحابي الجليل وقفات مهيبة وقفها أمام رايات أهل الشام وهو يصحر برأيه في القوم، ويجهر بما سمعه من الرسول الأعظم عن بغيتهم وضلالهم..

فعن أبي عبد الرحمن السلمي: سمعت عمار بن ياسر بصفين وهو يقول لعمر بن العاص: لقد قاتلت صاحب هذه الراية ثلاثاً مع رسول الله ﷺ وهذه الرابعة، ما هي بأبر ولا أتقى^(٢)..

وهكذا كان وجود عمار في صفين باعثاً على زهو البعض، ومولداً الذعر في نفوس البعض الآخر، ومثيراً للتأمل عند آخرين.. ولما علم الزبير بحضوره في معركة الجمل، طفق يتضعضع.. وعندما التقاه اتقاه وفرّ هارباً إلى وادي السباع حيث لقي حتفه هناك.. وأراب وجوده في صفين كثيراً من أصحاب معاوية، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قد قال له والراوي للحديث عمرو بن العاص نفسه فيا للعجب: تقتلك الفئة الباغية^(٣).

وقال رسول الله ﷺ: ويح عمار (أو ابن سمية) تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار..

(١) (مسند ابن حنبل: ج ٦/٤٨٠)

(٢) (تاريخ الطبري: ج ٤/٢٨، الكامل: ج ٣/٣٠٩)

(٣) راجع كل من كتب أو أرخ عن هذا الصحابي الجليل عمار بن ياسر.

وقال عليه السلام: يلتقي أهل الشام وأهل العراق، وعمار في أهل الحق تقتله الفئة الباغية..

وقال عليه السلام: ليس ينبغي لعمار أن يفارق الحق، ولن تأكل النار منه شيئاً..

وقال عليه السلام: إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق. وحاول الكثيرون أن يروا عماراً، ويسمعوا كلامه؛ كي يستزيدوا من التعرف على حقانية أمير المؤمنين عليه السلام من خلال كلام هذا الشيخ الجليل الفتي القلب.. الذي ينبع حديثه من أعماق قلبه المفعم بالإيمان، من أجل أن يتثبتوا من مواضع أقدامهم.. ولما تجندل ذلك الشيخ المتفاني ذو القد الممشوق، وتضمخ بدمه، وشرب كأس المنون.. كبر ذلك على كلا الجيشين، ورأى مثيروا الفتنة ومسعروا الحرب ما أخبر به رسول الله عليه السلام بأمر أعينهم، وإذ شق عليهم وصمة «الفئة الباغية» فلا بد أن يحتالوا بتنميق فتنة أخرى وخديعة ثانية؛ ليحولوا دون تضعضع جندهم، وهذا ما فعله معاوية..

فقد قائد جيش الحق العظيم (صلوات الله عليه) أخلص أصحابه وأفضلهم، وقطع عضده المقتدر، واغتمت نفسه المقدسة وضاق صدره الشريف، فقال: رحم الله عماراً يوم أسلم، ورحم الله عماراً يوم قتل، ورحم الله عماراً يوم يبعث حياً.

فعن أبي أيوب الأنصاري: سمعت رسول الله عليه السلام يقول لعمار: يا عمار، تقتلك الفئة الباغية، وأنت إذ ذاك مع الحق والحق معك، يا عمار بن ياسر، إن رأيت علياً قد سلك وادياً وسلك الناس وادياً غيره فاسلك مع علي؛ فإنه لن يدليك في ردى، ولن يخرجك من هدى..

يا عمار، من تقلد سيفاً أعان به علياً على عدوه قلده الله يوم القيامة وشاحين من دُر، ومن تقلد سيفاً أعان به عدو علي قلده الله يوم القيامة وشاحين من نار..^(١)

وقد صرّح عمار بن ياسر لعمر بن العاص وجهاً لوجه، وأمام أكثر من عشرين رجلاً من كبار الفريقين وإليك هذا المؤتمر المصغر لاقامة الحجة على أهل الشام وعلى ابن النابغة شخصياً..

قال الراوي: فلما أصبحوا - وذلك يوم الثلاثاء - خرج الناس إلى مصافهم فقال أبو نوح: فكننت في الخيل يوم صفين في خيل علي عليه السلام وهو واقف بين جماعة من همدان وحِمير وغيرهم من أفناء (أخلاق) قحطان، وإذا أنا برجل من أهل الشام يقول: مَنْ دَلَّ على الحميري أبي نوح؟ فقلنا: هذا الحميري فأَيُّهم تريد؟

قال: أريد الكلاعي أبا نوح.

قال: قلت: قد وجدته فَمَنْ أنت؟ قال: أنا ذو الكلاع، سِرْ إليّ.. فقلت له: معاذ الله أن أسير إليك إلا في كتيبة.

قال ذو الكلاع: بلى فسر، فلك ذِمَّة الله، وذمة رسوله، وذمة ذي الكلاع حتى ترجع إلى خيلك، فإنما أريد أن أسألك عن أمر فيكم تمارينا فيه، فسر دون خيلك حتى أسير إليك.

فسار أبو نوح وسار ذو الكلاع حتى التقيا، فقال ذو الكلاع: إنما دعوتك لأحدثك حديثاً حدثناه عمرو بن العاص قديماً في إمارة عمر بن الخطاب.

قال أبو نوح: وما هو؟ قال ذو الكلاع: حدثنا عمرو بن العاص أن

(١) (تاريخ بغداد للخطيب: ج ١٣/ ١٨٩، تاريخ مدينة دمشق: ج ٤٢/ ٤٧٣)

رسول الله ﷺ قال: يلتقى أهل الشام وأهل العراق وفي إحدى الكتيبتين الحق وإمام الهدى ومعه عمار بن ياسر..

قال أبو نوح: لعمر الله إنه لفينا.

قال: أجأء هو في قتالنا؟ قال أبو نوح: نعم ورب الكعبة، لهو أشد على قتالكم مني، ولوددت أنكم خلق واحد فذبحته وبدأت بك قبلهم وأنت ابن عمي.

قال ذو الكلاع: ويلك، علامَ تتمنى ذلك منا؟! والله ما قطعتك فيما بيني وبينك، وإن رحمتك لقريبة، وما يسرنى أن أقتلك.

قال أبو نوح: إن الله قطع بالإسلام أرحاماً قريبةً، ووصل به أرحاماً متباعدة، وإنى لمقاتلك أنت وأصحابك، ونحن على الحق وأنتم على الباطل مقيمون مع أئمة الكفر ورؤوس الأحزاب.

فقال له ذو الكلاع: فهل تستطيع أن تأتي معي في صف أهل الشام، فأنا جار لك من ذلك ألا تُقتل ولا تُسلب ولا تُكره على بيعه، ولا تُحبس عن جندك، وإنما هي كلمة تبلغها عمرو بن العاص، لعل الله أن يصلح بذلك بين هذين الجندين، ويضع الحرب والسلاح.^(١)

فقال أبو نوح: إني أخاف غدراتك وغدرات أصحابك.

فقال له ذو الكلاع: أنا لك بما قلت زعيم.

فقال أبو نوح: اللهم إنك ترى ما أعطاني ذو الكلاع وانت تعلم ما في نفسي، فاعصمني واختر لي وانصرني وادفع عني.

ثم سار مع ذي الكلاع حتى أتى عمرو بن العاص وهو عند معاوية

(١) (صفيين: ٣٣٣)

وحوله الناس وعبد الله بن عمرو يحرض الناس على الحرب، فلما وقفا على القوم قال ذو الكلاع لعمرؤ: يا أبا عبد الله، هل لك في رجل ناصح لبيب شفيق يخبرك عن عمار بن ياسر لا يكذبك؟ قال عمرو: ومن هو؟ قال: ابن عمي هذا، وهو من أهل الكوفة.

فقال عمرو: إنى لأرى عليك سيما أبي تراب.. قال أبو نوح: عليّ سيما محمد ﷺ وأصحابه، وعليك سيما أبي جهل وسيما فرعون.

فقام أبو الأعور فسلّ سيفه ثم قال: لا أرى هذا الكذاب اللئيم يشاتمنا بين أظهرنا وعليه سيما أبي تراب.. فقال ذو الكلاع: أقسم بالله لئن بسطت يدك إليه لأخطن أنفك بالسيف.. ابن عمي وجاري عقدت له بذمتي، وجئت به إليكما ليخبركما عمّا تماريتم فيه.

فقال له عمرو بن العاص: اذكرك بالله يا أبا نوح إلا ما صدقتنا، ولم تكذبنا، أفيكم عمار بن ياسر؟ فقال له أبو نوح: ما أنا بمخبرك عنه حتى تخبرني لمّ تسألني عنه، فإنّا معنا من أصحاب رسول الله ﷺ عدّة غيره، وكلهم جادّ على قتالكم.

قال عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن عمارا تقتله الفئة الباغية، وإنه ليس ينبغى لعمار أن يفارق الحق ولن تأكل النار منه شيئاً». فقال أبو نوح: لا إله إلا الله، والله أكبر، والله إنه لفينا، جادّ على قتالكم.

فقال عمرو: والله إنه لجاد على قتالنا؟ قال: نعم والله الذي لا إله إلا هو، ولقد حدثني يوم الجمل أنا سنظهر عليهم، ولقد حدثني أمس أن لو ضربتمونا حتى تبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنا على حق وأنهم على باطل، ولكانت قتالنا في الجنة وقتلاكم في النار.

فقال له عمرو: فهل تستطيع أن تجمع بيني وبينه؟ قال: نعم.

فلما أراد أن يبلغه أصحابه ركب عمرو بن العاص، وابناه، وعتبة بن أبي سفيان، وذو الكلاع، وأبو الأعور السلمي، وحوشب، والوليد بن عقبة بن أبي معيط، فانطلقوا حتى أتوا خيولهم.

وسار أبو نوح ومعه شرحبيل بن ذي الكلاع حتى انتهيا إلى أصحابه فذهب أبو نوح إلى عمار فوجده قاعداً مع أصحاب له، منهم ابنا بديل، وهاشم، والأشتر، وجارية بن المثنى، وخالد بن المعمر، وعبد الله بن حجل، وعبد الله بن العباس.

وقال أبو نوح لهم: إنه دعاني ذو الكلاع وهو ذو رحم، فقال: أخبرني عن عمار بن ياسر، أفيكم هو؟ قلت: لِمَ تسأل؟ قال: أخبرني عمرو بن العاص في إمرة عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: يلتقى أهل الشام وأهل العراق وعمار في أهل الحق يقتله الفئة الباغية.

فقلت: إن عماراً فينا. فسألني: أجادُّ هو على قتالنا؟ فقلت: نعم والله، أجدُّ مني، ولوددت أنكم خلق واحد فذبحتكم وبدأت بك يا ذا الكلاع.

فضحك عمار وقال: هل يسرُّك ذلك؟ قال: قلت نعم..

قال أبو نوح: أخبرني الساعة عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: عمار يقتله الفئة الباغية..

قال عمار: أقررتُه بذلك؟ قال: نعم أقررتُه فأقر.

فقال عمار: صدق، وليضرَّنه ما سمع ولا ينفعه.

ثم قال أبو نوح لعمار - ونحن اثنا عشر رجلاً - : فإنه يريد أن

يلقاك.

فقال عمار لأصحابه: اركبوا.

فركبوا وساروا ثم بعثنا إليهم فارساً من عبد القيس يسمى عوف بن بشر، فذهب حتى كان قريباً من القوم، ثم نادى: أين عمرو بن العاص؟ قالوا: هاهنا. فأخبره بمكان عمار وخيله. قال عمرو: قل له فليسر إلينا.

قال عوف: إنه يخاف غدراك.

فقال له عمرو: ما أجراك علي وأنت على هذه الحال! فقال له عوف: جرّأني عليك بصيرتي فيك وفي أصحابك، فإن شئت نابذتك الآن على سواء، وإن شئت التقيت أنت وخصماؤك، وأن كنت غادرا.

فقال له عمرو: ألا أبعث إليك بفارس يوافقك؟ فقال له عوف: ما أنا بالمستوحش، فابعث بأشقى أصحابك.

قال عمرو: فأيكم يسير إليه؟ فسار إليه أبو الأعور، فلما تواقفا تعارفا فقال عوف لأبي الأعور: إني لأعرف الجسد وأنكر القلب، إني لا أراك مؤمنا، وإنك لمن أهل النار.

فقال أبو الأعور: لقد أعطيت لسانا يكبك الله به على وجهك في نار جهنم.

فقال عوف: كلا والله إني أتكلم أنا بالحق، وتكلم أنت بالباطل، وإني أدعوك إلى الهدى وأقاتل أهل الضلالة وأفر من النار، وأنت بنعمة الله ضال تنطق بالكذب وتقاتل على ضلالة، وتشترى العقاب بالمغفرة، والضلالة بالهدى انظروا إلى وجوهنا ووجوهكم، وسيمانا وسيماكم، واسمعوا إلى دعوتنا ودعوتكم، فليس أحد منا إلا وهو أولى بمحمد ﷺ وأقرب إليه قرابة منكم..

قال له أبو الأعور: لقد أكثرت الكلام وذهب النهار.. ويحك ادع أصحابك وأدعو أصحابي، فأنا جازُّ لك حتى تأتي موقفك الذي أنت فيه الساعة، فإني لست أبدؤك بغدر ولا أجترئ على غدر حتى تأتي أنت وأصحابك، وحتى تقفوا فإذا علمت كم هم جئت من أصحابي بعددهم.. فإن شاء أصحابك فليقلوا وإن شاءوا فليكثروا.

فسار أبو الأعور في مائة فارس حتى إذا كان حيث كنا بالمرة الأولى، وقفوا وسار عمرو في عشرة، وسار عمار في اثني عشر فارساً حتى اختلفت أعناق الخيل: خيل عمرو وخيل عمار، ورجع عوف بن بشر في خيله وفيها الأشعث بن قيس، ونزل عمار والذين معه فاحتبوا بحمائل سيوفهم، فتشهد عمرو بن العاص..

فقال له عمار بن ياسر: اسكت فقد تركتها في حياة محمد ﷺ وبعد موته، ونحن أحقُّ بها منك، فإن شئت كانت خصومة فيدفع حقنا باطلك، وإن شئت كانت خطبة فنحن أعلم بفصل الخطاب منك، وإن شئت أخبرتك بكلمة تفصل بيننا وبينك وتكفرك قبل القيام، وتشهد بها على نفسك، ولا تستطيع أن تكذبني فيها.

قال عمرو: يا أبا اليقظان، ليس لهذا جئت، إنما جئت لأني رأيتك أطوع أهل هذا العسكر فيهم.. أذكرك الله إلا كففت سلاحهم وحقنت دماءهم، وحرضت على ذلك، فعلامَ تقاتلنا؟ أو لسنا نعبد إلهاً واحداً، ونصلي إلى قبلتك، وندعو دعوتكم، ونقرأ كتابكم، ونؤمن برسولكم.

قال عمار: الحمد لله الذي أخرجها من فيك، إنها لي ولأصحابي: القبلة، والدين، وعبادة الرحمن، والنبى ﷺ، والكتاب من دونك ودون أصحابك. الحمد لله الذي قرَّرَ لنا بذلك، دونك ودون أصحابك، وجعلك ضالاً مضلاً، لا تعلم هادٍ أنت أم ضالٍ؟ وجعلك أعمى.

وسأخبرك علامَ قاتلتك عليه أنت وأصحابك.

أمرني رسول الله ﷺ أن أقاتل الناكثين، وقد فعلتُ، وأمرني أن أقاتل القاسطين، فأنتم هم. وأما المارقون، فما أدرى أدركم أم لا.

أيها الأبتَر، أَلست تعلم أن رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام: من كنت مولاه فعلى مولاه.. اللهم؛ وال من والاه وعاد من عاداه.

وأنا مولى الله ورسوله وعليُّ بعده، وليس لك مولى.

قال له عمرو: لِمَ تشتمني يا أبا اليقظان ولستُ أشتمك؟ قال عمار: وبِمَ تشتمني، أَلستطيع أن تقول: إني عصيت الله ورسوله يوماً قط؟ قال له عمرو: إن فيك لمسبَّات سوى ذلك.

فقال عمار: إن الكريم من أكرمه الله، كنتُ وضيعاً فرفعني الله، ومملوكاً فأعتقني الله، وضعيفاً فقوانى الله، وفقيراً فأغناني الله.

وقال له عمرو: فما ترى في قتل عثمان؟ قال: فتح لكم باب كل سوء.

قال عمرو: فعليُّ قتله؟ قال عمار: بل الله قتله، وعلي معه.

قال عمرو: أكنتَ فيمن قتله؟ قال: كنت مع مَنْ قتله وأنا اليوم أقاتل معهم.

قال عمرو: فلمَ قتلتموه؟ قال عمار: أراد أن يغيّر ديننا فقتلناه.

فقال عمرو لمن معه: ألا تسمعون؟ قد اعترف بقتل عثمان.

قال عمار: وقد قالها فرعون قبلك لقومه: ﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [الآية ٢٥ في سورة الشعراء].

فقام أهل الشام ولهم زجل فركبوا خيولهم فرجعوا، وقام عمار وأصحابه فركبوا خيولهم ورجعوا بعد أن أقام عليهم الحجة، إلا أنه

استدرج عمار الذي لا يكذب لاعترافه بالاشتراك بقتل عثمان، وهذه حجة عليهم لا على عمار لو كانوا يفقهون.. فبلغ معاوية ما كان بينهم فقال: هلكت العرب أن أخذتهم (حركتهم) خفة العبد الأسود (أو ابن السوداء) يعنى عمار بن ياسر.

وخرج إلى القتال (أي عمار)، وصفت الخيول بعضها لبعض، وزحف الناس، وعلى عمار درع بيضاء وهو يقول: أيها الناس، الرواح إلى الجنة.

ومشى عبد الله بن سويد الحميري سيد جرش إلى ذى الكلاع فقال له: لم جمعت بين الرجلين؟ قال: لحديث سمعته من عمرو، وذكر أنه سمعه من رسول الله ﷺ وهو يقول لعمار بن ياسر: «يقتلك الفئة الباغية»..^(١)

عن أبي عبد الرحمن السلمي: رأيت عماراً لا يأخذ وادياً من أودية صفين إلا تبعه من كان هناك من أصحاب محمد ﷺ، ورأيته جاء إلى المرقال هاشم بن عتبة - وهو صاحب راية علي عليه السلام - فقال: يا هاشم، أعوراً وجنباً! لا خير في أعور لا يغشى البأس، فإذا رجل بين الصفين، قال: هذا والله ليخلفن إمامه، وليخذلن جنده، وليصبرن جهده، اركب يا هاشم، فركب ومضى هاشم، يقول:

أعور يبغى أهله محلاً
قد عالج الحياة حتى ملا
لا بد أن يفلاً أو يُفلاً

وعمار يقول: تقدم يا هاشم؛ الجنة تحت ظلال السيوف، والموت في أطراف الأسل، وقد فتحت أبواب السماء، وتزينت الحور العين اليوم

(١) (صفين: ٣٤٣)

ألقى الأحبة محمداً وحزبه.

فلم يرجعاً وقتلاً..رحمة الله عليهما وعلى جميع الشهداء^(١)..

وحقاً ما قاله ابن أبي الحديد: واعجباه من قوم يعتريهم الشك في أمرهم لمكان عمار ولا يعتريهم الشك لمكان علي عليه السلام، ويستدلون على أن الحق مع أهل العراق يكون عمار بين أظهرهم ولا يعبتون بمكان علي عليه السلام، ويحذرون من قول النبي صلى الله عليه وآله: تقتلك الفئة الباغية، ويرتاعون لذلك ولا يرتاعون لقوله صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه.

ولا لقوله: لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق.

وهذا يدل على أن علياً عليه السلام اجتهدت قريش كلها من مبدأ الأمر في إخمال ذكره وستر فضائله^(٢).

* شهادة عمار

قال: وحمل عمار بن ياسر ذلك اليوم وهو يقول:

كلا ورب البيت لا أبرح أجي
حتى أموت أو أرى ما أشتهي
أنا مع الحق أحامي عن علي
صهر النبي ذى الأمانات الوفي
نقتل أعداءه وينصرنا العلي
ونقطع الهام بحد المشرفي

(١) (تاريخ الطبري: ج ٤/٢٦)

(٢) (صفين: ٣٣٤، شرح النهج الحديدي: ج ٨/١٧)

والله ينصرنا على من يبتغي
ظلما علينا جاهدا ما يأتلي

وحدثنا عمر بن سعد قال: وفي هذا اليوم قتل عمار بن ياسر (رضى الله عنه) أصيب في المعركة، وقد كان قال عمار حين نظر إلى راية عمرو بن العاص: والله إن هذه الراية قاتلتها ثلاث عركات وما هذه بأرشدهن! ثم قال عمار:

نحن ضربناكم على تنزيله
فاليوم نضربكم على تأويله
ضربا يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله

ثم استسقى وقد اشتدّ ظمؤه، فأتته امرأة طويلة اليدين والله ما أدرى أعس معها أم إداوة فيها ضياح من لبن (اللبن الرقيق الكثير الماء)، فقال حين شرب: «الجنة تحت الأسنة اليوم ألقى الأحبة * محمدا وحزبه * والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق وهم على الباطل».

ثم حمل وحمل عليه ابن جون السكوني (أوابن حوى السكسكى)، وأبو العادية الفزاري.. فأما أبو العادية فطعنه، وأما ابن جون فإنه احترّ رأسه.

وقد كان ذو الكلاع يسمع عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر: «تقتلك الفئة الباغية، وآخر شربة تشربها ضياح من لبن» فقال ذو الكلاع لعمرو: ويحك ما هذا؟ قال عمرو: إنه سيرجع إلينا

ويفارق أبا تراب، وذلك قبل أن يصاب عمار.

فأصيب عمار مع علي عليه السلام، وأصيب ذو الكلاع مع معاوية، فقال عمرو: والله يا معاوية ما أدري بقتل أيهما أنا أشد فرحاً.

والله لو بقى ذو الكلاع حتى يُقتل عمار لمال بعامة قومه إلى علي، ولأفسد علينا جندنا (أمرنا)..^(١)

قال: فكان لا يزال رجل يجيء فيقول لمعاوية وعمرو: أنا قتلت عماراً.. فيقول له عمرو: فما سمعته يقول: فيخلط (بالكلام).

حتى أقبل ابن جون (ابن حوى) فقال: أنا قتلت عماراً.

فقال له عمرو: فما كان آخر منطقه؟ قال سمعته يقول: اليوم ألقى الأحبة * محمداً وحزبه.. فقال له عمرو: صدقت، أنت صاحبه (أي صاحب قتله، الذى تولى ذلك منه)، أما والله ما ظفرت يداك ولكن أسخطت ربك.

وعن عبد خير الهمداني قال: نظرت إلى عمار بن ياسر يوماً من أيام صفين رُمي رمية فأغمر عليه ولم يصلّ الظهر، ولا العصر، ولا المغرب، ولا العشاء، ولا الفجر ثم أفاق فقضاهن جميعاً، يبدأ بأول شيء فاته، ثم بالتى تليها.

عن ابن حُرَيْث قال: أقبل غلام لعمار بن ياسر، اسمه راشد، يحمل شربة من لبن، فقال عمار: إني سمعت خليلي رسول الله ﷺ يقول: إن آخر زادك من الدنيا شربة لبن.

عن يعقوب بن الأوسط قال: احتج رجلان بصفين في سلب عمار بن ياسر، وفي قتله، فأتيا عبد الله بن عمرو بن العاص فقال لهما: ويحكمما،

(١) (الكامل في التاريخ: ج ٣/٣١٠، تاريخ دمشق: ج ٦٨/ ٢٨)

أخرجني عن رسول الله ﷺ قال - حين ولعت قريش بعمار (إذ لجت في أمره وحرصت على إيذائه): ما لهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، قاتله وسالبه في النار..

قال السدي: فبلغني أن معاوية قال: (إنما قتله مَنْ أخرجه)..

يخدع بذلك طعام أهل الشام.

عن جابر، قال: أتى حذيفة بن اليمان رهط من جهينة، فقالوا: يا أبا عبد الله، إن رسول الله ﷺ استجار من أن تصطلم أمته (تقطع) فأجير من ذلك، واستجار من أن يذوق بعضها بأس بعض فمنع من ذلك.

قال حذيفة: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن ابن سمية لم يخير بين أمرين قط إلا اختار أرشدهما - يعني عمارا فالزموا - سمته..

عن حبة بن جوين العرني: انطلقت أنا وأبو مسعود إلى حذيفة - بالمدائن - فدخلنا عليه، فقال: مرحبا بكما، ما خلفتما من قبائل العرب أحدا أحب إليَّ منكما.. فأسندته إلى أبي مسعود، فقلنا: يا أبا عبد الله، حدثنا؛ فإننا نخاف الفتن.

فقال: عليكما بالفئة التي فيها ابن سمية؛ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقتله الفئة الباغية، الناكبة عن الطريق، وإن آخر رزقه ضياح من لبن.. قال حبة: فشهدته يوم صفين وهو، يقول: ائتوني بآخر رزق لي من الدنيا.. فأتي بضياح من لبن في قدح أروح له حلقة حمراء، فما أخطأ حذيفة مقياس شعرة، فقال:

اليوم ألقى الأحبة محمدا وحزبه

والله، لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعات هجر لعلمنا أنا على الحق

وأنهم على الباطل، وجعل يقول: الموت تحت الأسل، والجنة تحت البارقة..^(١)

وشهادة عمار كادت أن توقع الفتنة في صفوف الجيش الباغي الشامي لولا غباءه وشدة طاعته لقيادته الفاسدة، وليس السبب دهاء القيادة أبداً.. فهل يصدق أحداً أن الذي قتله هو الذي جاء به وألى به تحت سيوفنا، كما قال معاوية وراح الجيش يردد كلماته ويقول قتله الذي جاء به؟

وهكذا تدارك اضطراب جيش معاوية بعد استشهاد عمار البطل بكلمة فيها الكثير من الغباء والاستهانة بعقول جيشه كله، وبالفعل كان معاوية يراهن دائماً على غباء من معه ألم يرسل إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنني سأقاتلك بمائة ألف سيف لا يميزون بين الناقة والجمل..

فقال معاوية لما قُتل عمار - واضطرب أهل الشام لرواية عمرو بن العاص كانت لهم: «تقتله الفئة الباغية» -: إنما قتله من أخرجه إلى الحرب وعرضه للقتل! فقال أمير المؤمنين عليه السلام: فرسول الله ﷺ إذن قاتل حمزة!!^(٢)

وعن أبي عبد الرحمن السلمي: قال عبد الله لأبيه عمرو بن العاص: يا أبة، قتلتم هذا الرجل في يومكم هذا، وقد قال رسول الله ﷺ ما قال! قال: وما قال؟ قال: ألم يكن المسلمون والناس ينقلون في بناء مسجد النبي ﷺ لبنة لبنة، وعمار لبنتين لبنتين، فغشي عليه، فأتاه رسول الله ﷺ فجعل يمسح التراب عن وجهه، ويقول: ويحك يا بن سمية؛ الناس ينقلون لبنة لبنة، وأنت تنقل لبنتين لبنتين رغبة في الأجر؛ وأنت مع ذلك تقتلك الفئة الباغية..

(١) (تاريخ الطبري: ج ٤/ ٢٧)

(٢) (شرح نهج البلاغة: ج ٢٠/ ٣٣٤، الفتوح لابن الأعمش: ج ٣/ ١٥٩)

فقال عمرو لمعاوية: أما تسمع ما يقول عبد الله! قال: وما يقول؟ فأخبره.. فقال معاوية: أنحن قتلناه؟ إنما قتله مَنْ جاء به.. فخرج الناس من فساطيطهم وأخبيتهم يقولون: إنما قتل عماراً مَنْ جاء به. فلا أدري مَنْ كان أعجب أهو أم هم..^(١)

٢٠٢٠٢. أويس القرني

أويس بن عامر بن جزء بن مالك بن عمرو بن سعد بن عصوان بن قَرَن بن ردمان بن ناجية بن مراد وهو يحابر بن مالك بن أدد بن مذحج المرادي المعروف بأويس القرني. قتل مع علي ع بصفين سنة ٣٧ وقبره بها (بصفين) معروف إلى اليوم.. والقرني بفتح القاف والراء بعدها نون نسبة إلى قرن أبو القبيلة.. وقال عبد الغني بن سعيد: قرن بطن من مراد^(٢)..

روي عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: تفوح روائح الجنة من قبل قرن، واشوقاه إليك يا أويس القرني.. ألا وَمَنْ لقيه فليقرأه مني السلام، فقل يا رسول الله: ومن أويس القرني فقال ﷺ: إن غاب عنكم لم تفتقدوه، وإن ظهر لكم لم تكثرثوا به، يدخل الجنة في شفاعته مثل ربعة ومضر، يؤمن بي ولا يراني، ويقتل بين يدي خليفتي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في صفين.

وقال النبي ﷺ ذات يوم لأصحابه: أبشروا برجل من أمتي يقال له: أويس القرني، فإنه يشفع بمثل ربعة ومضر، ثم قال لعمر: يا عمر إن أدركته فاقرأه مني السلام..

(١) (الكامل في التاريخ: ج ٢/٣٨٢، تاريخ الطبري: ج ٥/٤١)

(٢) (أعيان الشيعة - السيد الأمين - ج ٣ - ص ٥١٢)

وكان عمر إذا أتت عليه أمداد اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس، فقال: أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم قال من مراد ثم من قرن؟ قال: نعم قال: كان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم قال: ألك والدة؟ قال: نعم فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل.. فاستغفر لي فاستغفر له ثم قال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة قال: ألا أكتب لك إلى عاملها فيستوصوا بك خيرا؟ فقال: لأن أكون في غبراء الناس أحب إلي..^(١)

فبلغ عمر مكانه بالكوفة، فجعل يطلبه في الموسم لعله أن يحج حتى وقع إليه هو وأصحابه وهو من أحسنهم هيئة وأرثهم حالا، فلما سأل عنه أنكروا ذلك وقالوا: يا أمير المؤمنين تسأل عن رجل لا يسأل عنه مثلك، قال: فلم، قالوا لأنه عندنا مغمور في عقله! وربما عبث به الصبيان، قال عمر: ذلك أحب إلي، ثم وقف عليه فقال: يا أويس إن رسول الله ﷺ أودعني إليك رسالة وهو يقرأ عليك السلام وقد أخبرني أنك تشفع بمثل ربيعة ومضر فخر أويس ساجدا ومكث طويلا ما ترقى له دمة، حتى ظنوا أنه مات، ونادوه: يا أويس هذا أمير المؤمنين، فرفع رأسه ثم قال: يا أمير المؤمنين أفاعل ذلك قال: نعم يا أويس، فأدخلني في شفاعتك، فأخذ الناس في طلبه والتمسح به، فقال يا أمير المؤمنين شهرتني وأهلكتني، وكان يقول: كثيرا ما لقيت من عمر، ثم قتل بصفين في الرجالة مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

في الطبقات قال هرم بن حيان العبدى: قدمت الكوفة فلم يكن لي

(١) تاريخ الإسلام - الذهبي - ج ١ - ص ٣٨٤ - ٣٨٧

بها هم إلا أويس القرني حتى سقطت عليه جالساً وحده على شاطئ
الفرات نصف النهار يتوضأ ويغسل ثوبه فعرفته بالنعته فسلمت عليه فرد
عليّ فمددتُ يدي لأصافحه أبى ان يصافحني فقلت رحمك الله يا أويس
كيف أنت ثم خنقتني العبرة من حبي إياه وورقتي له لما رأيت من حاله
حتى بكيت وبكى.. ثم قال وأنت فرحمك الله يا هرم بن حيان كيف أنت
يا أخي.. قلت: لا إله إلا الله سبحانه ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا حين
سمّاني والله ما كنت رأيته قط ولا رأيته ثم قلت: من أين عرفتني وعرفت
اسمي وأبي فوالله ما كنتُ رأيته قط قبل هذا اليوم..

قال: نبأني العليم الخبير عرفت روعي روحك حيث كلمت نفسي
نفسك ان الأرواح لها أنفس كأنفس الأحياء ان المؤمنين يعرف بعضهم
بعضا ويتحدثون بروح الله وان لم يلتقوا وإن لم يتكلموا ويتعارفوا وان
نأت بهم الديار وتفرقت بهم المنازل!

قلت: حدثني عن رسول الله ﷺ بحديث احفظه عنك!

قال: إني لم أدرك رسول الله ﷺ وقد بلغني من حديثه كما بلغكم
ولست أحب ان افتح هذا الباب على نفسي ان أكون محدثاً أو قاضياً
ومفتياً في النفس شغل يا هرم بن حيان!

فقلت: يا أخي اقرأ عليّ آيات من كتاب الله اسمعهن منك فاني
أحبك في الله حباً شديداً وادع بدعوات وأوص بوصية احفظها عنك!
فاخذ بيدي على شاطئ الفرات، وقال: أعوذ بالله السميع العليم من
الشیطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم.. فشقق شهقة ثم بكى مكانه،
ثم قال: قال ربي تعالى ذكره، وأحق القول قوله، وأصدق الحديث
حديثه، وأحسن الكلام كلامه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
لَعِينًا ۖ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ﴾ [الدخان: ٣٨].. حتى بلغ ﴿إِلَّا مَنْ

رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.. ثم شهق شهقة ثم سكت وأنا احسبه قد غشي عليه^(١).

ثم قال أويس لهرم بن حيان: احذر ليلة صبيحتها القيامة ولا تفارق الجماعة فتفارق دينك، يا هرم توسد الموت إذا نمت واجعله أمامك إذا قمت، ولا تنظر إلى صغر ذنبك ولكن انظر إلى مَنْ عصيت فان صغرت ذنبك فقد صغرت الله.

فقال له هرم: صلنا يا أويس بالزيارة فقال له قد وصلتكم بما هو خير من الزيارة واللقاء وهو الدعاء بظهر الغيب ان الزيارة واللقاء ينقطعان والدعاء يبقى ثوابه، ثم قال: استودعتك الله والسلام عليك ورحمة الله وبركاته^(٢)..

وتوجه إلى هرم وقال: لا أراك بعد اليوم فاني أكره الشهرة والوحدة أحب إلي ولا تسال عني ولا تطلبني.. فحرصت على أن أسير معه ساعة فأبى علي حتى دخل في بعض السكك فكم طلبته بعد ذلك فما وجدت أحدا يخبرني عنه بشيء..

وقال له رجل: أريد ان أصحبك لأستأنس بك.. فقال: سبحان الله ما كنت أرى أحدا يعرف الله يستوحش مع الله.. فقال له: مرني بمكان انزل به فأوماً بيده نحو الشام.. فقال له: فكيف بالمعيشة؟ فقال: قد خالط الشك هذه القلوب فما تنفع معها موعظة.

وكان يقول: لم يجالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خساراً..

(١) (أعيان الشيعة - السيد الأمين - ج ٣ - ص ٥١٥)

(٢) (تاريخ ابن عساكر: ج ٩/٤٤٩)

في الطبقات بسنده جاء رجل من مراد إلى أويس القرني فقال: السلام عليكم.. قال: وعليكم.. قال: كيف أنت يا أويس؟ قال: بخير نحمد الله.. قال: الحمد لله.. قال: كيف الزمان عليكم؟ قال: ما تسال رجلاً إذا أمسى لم ير أنه يصبح، وإذا أصبح لم ير أنه يمسي.. يا أخا مراد ان الموت لم يبق للمؤمن فرحاً.. يا أخا مراد ان معرفة المؤمن بحقوق الله لم تبق له فضة ولا ذهباً.. يا أخا مراد ان قيام المؤمن بأمر الله لم يبق له صديقاً.. والله انا لنأمرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر فيتخذونا أعداء ويجدون على ذلك من الفساق أعوانا حتى والله لقد رموني بالعظائم.. وأيم الله لا يمنعني ذلك ان أقوم لله بالحق وان أقول بالحق..

في اعلام الدين: روي عن أويس القرني (رحمة الله عليه) قال لرجل سأله كيف حالك؟ فقال: كيف يكون حال من يصبح يقول: لا أمسي، ويمسي يقول: لا أصبح، يبشر بالجنة ولا يعمل عملها، ويحذر النار ولا يترك ما يوجبها، والله إن الموت وغصصه وكرباته وذكر هول المطلاع وأهوال يوم القيامة لم تدع للمؤمن في الدنيا فرحاً، وإن حقوق الله لم تبق لنا ذهباً ولا فضة، وإن قيام المؤمن بالحق في الناس لم يدع له صديقاً، نأمرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر فيشتمون أعراضنا ويرموننا بالجرائم والمعائب والعظائم، ويجدون على ذلك أعوانا من الفاسقين، إنه والله لا يمنعنا ذلك أن نقوم فيهم بحق الله..^(١)

وقال أويس القرني عن مجالس العلماء: إن هذا المجلس يغشاه ثلاثة نفر مؤمن فقيه، ومؤمن لم يفقه، ومنافق وذلك في الدنيا مثل الغيث يصيب الشجرة المونقة المثمرة فتزداد حسناً وايناعاً وطيباً ويصيب الشجرة غير المثمرة فيزداد ورقها حسناً ويكون لها ثمرة ويصيب الهشيم

(١) بحار الأنوار، المجلسي - ج ٧٢ - ص ٣٦٧

من الشجر فيحطمه، ثم قرأ ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۚ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝ ﴾

* حديث الشهادة

روي أن أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) قال بذى قار وهو جالس لأخذ البيعة ممن حضر: يأتاكم من قبل الكوفة ألف رجل، لا يزيدون رجلاً ولا ينقصون رجلاً يبايعوني على الموت..

قال ابن عباس: فجزعت لذلك وخفت أن ينقص القوم من العدد أو يزيدوا عليه فيفسد الأمر علينا، وإني أحصي القوم فاستوفيت (عددت) عددهم تسع مائة رجل وتسعة وتسعين رجلاً، ثم انقطع مجيئ القوم، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، ماذا حمله على ما قال؟ فبينما أنا مفكر في ذلك إذ رأيت شخصاً قد أقبل حتى دنا، وهو رجل عليه قباء صوف ومعه سيف وترس وإداوة.

فقرب من أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: امدد يديك لأبايعك. قال علي عليه السلام: وعلى ما تبايعني؟

قال: على السمع، والطاعة، والقتال بين يديك حتى أموت أو يفتح الله عليك، فقال عليه السلام: ما اسمك؟ فقال: أويس، قال: أنت أويس القرني؟ قال: نعم، قال عليه السلام: الله أكبر فإنه أخبرني حبيبي رسول الله صلوات الله عليه وآله أنني أدرك رجلاً من أمته يقال له أويس القرني، يكون من حزب الله ورسوله، يموت على الشهادة، يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر..

قال ابن عباس: فسُري عنا.

فكان أول التحاق أويس القرني بأمير المؤمنين عليه السلام بمعركة الجمل

ضد الناكثين، وبذي قار مع من قدم من الكوفة..

قال سعيد بن المسيب: ان أويسا قاتل بين يدي علي عليه السلام يوم صفين حتى استشهد أمامه فنظروا فإذا به نيف وأربعون جراحة من طعنة وضربة ورمية..

وفي الإصابة، قال: ان أويسا قال: اللهم ارزقني شهادة توجب لي الجنة والرزق.. قال أسير فلم يلبث الا يسيرا حتى ضرب على الناس للحرب فخرج صاحب القطيفة أويس وخرجنا معه حتى نزلنا بحضرة العدو، قال: فنادى منادي علي عليه السلام: يا خيل الله اركبي وابشري.. فصَفَّ الناس لهم فانتضى أويس سيفه حتى كسر جفنه فألقاه ثم جعل يقول: يا أيها الناس تموا، تموا لتتمن وجوه ثم لا تنصرف حتى ترى الجنة.. فجعل يقول ذلك ويمشي إذ جاءته رمية فأصابته فؤاده فتردى مكانه كأنما مات منذ زمن..

وفي مناقب ابن شهر آشوب عند ذكر حرب صفين وأتى أويس القرني متقلدا بسيفين ويقال كان معه مرماة ومخلاة من الحصى فسلم على أمير المؤمنين عليه السلام وودعه وبرز مع رجاله ربيعة فقتل من يومه فصلى عليه أمير المؤمنين عليه السلام ودفنه..

رجال الكشي عن الأصبع بن نباتة: كنا مع علي عليه السلام بصفين فبايعه تسعة وتسعون رجلاً، ثم قال: أين تمام المائة؛ لقد عهد إلي رسول الله ﷺ أن يبايعني في هذا اليوم مائة رجل! قال: إذ جاء رجل عليه قباء صوف، متقلدا بسيفين، فقال: ابسط يدك أبايعك. قال علي عليه السلام: علام تبايعني؟ قال: على بذل مهجة نفسي دونك. قال: من أنت؟

قال: أنا أويس القرني. فبايعه، فلم يزل يقاتل بين يديه حتى قتل،

فوجد في الرجالة..

المستدرك على الصحيحين عن أبي مكين: رأيت امرأة في مسجد أويس القرني قالت: كان يجتمع هو وأصحاب له في مسجدهم هذا يصلون، ويقرؤون في مصاحفهم، فآتي غداءهم وعشاءهم هاهنا حتى يصلوا الصلوات.

قالت: وكان ذلك دأبهم ما شهدوا حتى غزوا، فاستشهد أويس وجماعة من أصحابه في الرجالة بين يدي علي بن أبي طالب (عليه السلام) أجمعين..

المستدرك على الصحيحين عن علي بن حكيم عن شريك: ذكروا في مجلسه أويس القرني، فقال: قتل مع علي بن أبي طالب (سلام الله عليه) في الرجالة..

تاريخ دمشق عن سعيد بن المسيب - في ذكر أويس القرني -: عاد في أيام علي (عليه السلام) فقاتل بين يديه، فاستشهد في صفين أمامه، فنظروا فإذا عليه نيف وأربعون جراحة، من طعنة، وضربة، ورمية..

٣٠٢٠٢٠٢. عبد الله بن بديل الخزاعي

وزحف عبد الله بن بديل في الميمنة نحو حبيب بن مسلمة وهو على ميسرة أهل الشام، فلم يزل يحوزه، ويكشف خيله من الميسرة حتى اضطرهم إلى قبة معاوية (حيث رفع معاوية قبة له عظيمة قد ألقى عليها الكرابيس (ضرب من الثياب) وجلس تحتها) عند الظهر.

عن زيد بن وهب، أن عبد الله بن بديل قام في أصحابه فقال: إن معاوية ادعى ما ليس له، ونازع الأمر أهله ومن ليس مثله، وجادل بالباطل ليدحض به الحق، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب، وزين

لهم الضلالة، وزرع في قلوبهم حب الفتنة، ولبس عليهم الأمر، وزادهم رجساً إلى رجسهم، وأنتم والله على نور من ربكم وبرهان مبين.. قاتلوا الطغام الجفأة ولا تخشوهم.

وكيف تخشونهم وفي أيديكم كتاب من ربكم ظاهر مبرور (الظاهر المنشور)؟! ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣].

﴿فَتَلَوْهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

وقد قاتلتهم مع النبي ﷺ أو (وقد قاتلناهم مع النبي ﷺ مرة، وهذه ثانية) والله ما هم في هذه بأزكى ولا أتقى ولا أبر.

قوموا إلى عدو الله وعدوكم (قوموا إلى عدوكم بارك الله عليكم).

وعن جابر (بن يزيد الجعفي) قال: سمعت الشعبي يقول: كان عبد الله بن بديل الخزاعي مع علي ﷺ يومئذ، وعليه سيفان ودرعان، فجعل يضرب الناس بسيفه قدما وهو يقول:

لم يبق إلا الصبر والتوكل
وأخذك الترس وسيفا مقصل
ثم التمشي في الرعيل الأول
مشى الجمال في
حياض المنهل
والله يقضى ما يشا ويفعل

فلم يزل يحمل حتى انتهى إلى معاوية وكان معه الذين بايعوه على الموت، فأمرهم أن يصمدوا لعبد الله بن بديل، وبعث إلى حبيب بن

مسلمة الفهرى وهو في الميسرة أن يحمل عليه بجميع مَنْ معه، واختلط الناس واضطرم الفيلقان: ميمنة أهل العراق، وميسرة أهل الشام.

وأقبل عبد الله بن بديل يضرب الناس بسيفه قدما حتى أزال معاوية عن موقفه، وجعل ينادى: يا لثارات عثمان! - يعنى أخاً له كان قد قتل - وظن معاوية وأصحابه أنه إنما يعنى عثمان بن عفان.

وتراجع معاوية عن مكانه القهقرى كثيراً، وأشفق على نفسه (خاف عليها)، وأرسل إلى حبيب بن مسلمة مرة ثانية وثالثة يستنجد به ويستصرخه.

ويحمل حبيب حملة شديدة بميسرة معاوية على ميمنة العراق فكشفها، حتى لم يبق مع ابن بديل إلا نحو مائة إنسان من القراء، فاستند بعضهم إلى بعض يحمون أنفسهم، وولج ابن بديل في الناس وصمم على قتل معاوية، وجعل يطلب موقفه ويصمد نحوه حتى انتهى إليه - ومع معاوية عبد الله بن عامر واقفاً - فنادى معاوية بالناس: ويلكم! الصخر والحجارة إذا عجزتم عن السلاح.

فأقبل أصحاب معاوية على عبد الله بن بديل يرضخونه بالصخر (والحجارة) حتى أثخنوه وقتل الرجل، وأقبل إليه معاوية وعبد الله بن عامر حتى وقفا عليه.

فأما عبد الله بن عامر فألقى عمامته على وجهه وترحم عليه، وكان له من قبل أخا وصديقاً، فقال معاوية: اكشف عن وجهه.

فقال: لا والله، لا يمثل به وفِّي روح.

فقال معاوية: اكشف عن وجهه، فإننا لا نمثل به، فقد وهبته لك.

فكشف ابن عامر عن وجهه فقال معاوية: هذا كبش القوم وربُّ

الكعبة اللهم أظفرني بالأشتر النخعي والأشعث الكندي.

والله ما مثل هذا إلا كما قال الشاعر (حاتم الطائي):

أخو الحرب إن عضت

به الحرب عضها

وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

ويحمي إذا ما الموت كان لقاءه

قدى الشبر، يحمي الأنف أن يتأخرا

كليث هزبر كان يحمي ذماره

رمته المنايا قصدها فتقطرا

ثم قال ابن هند: مع أن نساء خزاعة لو قدرت على أن تقتاتلني فضلا عن رجالها فعلت.^(١)

فعن أبي روق الهمداني: قاتلهم عبد الله بن بديل في الميمنة قتالاً شديداً، حتى انتهى إلى قبة معاوية.. ثم إن الذين تباعوا على الموت أقبلوا إلى معاوية، فأمرهم أن يصمدوا لابن بديل في الميمنة؛ وبعث إلى حبيب بن مسلمة في الميسرة، فحمل بهم وبمن كان معه على ميمنة الناس فهزمهم، وانكشف أهل العراق من قبل الميمنة حتى لم يبق منهم إلا ابن بديل في مائتين أو ثلاثمائة من القراء، قد أسند بعضهم ظهره إلى بعض، وانجفل (انتشر) الناس. فأمر علي عليه السلام سهل بن حنيف فاستقدم فيمن كان معه من أهل المدينة، فاستقبلتهم جموع لأهل الشام عظيمة، فاحتملتهم حتى ألحقهم بالميمنة، وكان في الميمنة إلى موقف علي عليه السلام في القلب أهل اليمن، فلما كشفوا انتهت الهزيمة إلى علي عليه السلام، فانصرف يتمشى نحو الميسرة، فانكشفت عنه مضر من

(١) (صفين ٢٤٦)

الميسرة، وثبتت ربيعة..^(١)

عن فضيل بن خديج عن مولى للأشتر - لما كشف الأشتر عن عبد الله بن بديل وأصحابه أهل الشام وعلموا أن علياً عليه السلام حي صالح في الميسرة - : قال عبد الله بن بديل لأصحابه: استقدموا بنا، فأرسل الأشتر إليه: ألا تفعل، أثبت مع الناس فقاتل؛ فإنه خير لهم، وأبقى لك ولأصحابك. فأبى، فمضى كما هو نحو معاوية، وحوله كأمثال الجبال، وفي يده سيفان، وقد خرج فهو أمام أصحابه، فأخذ كلما دنا منه رجل ضربه فقتله، حتى قتل سبعة ودنا من معاوية، فنهض إليه الناس من كل جانب، وأحيط به وبطائفة من أصحابه، فقاتل حتى قتل، وقتل ناس من أصحابه، ورجعت طائفة قد جرحوا منهزمين. فبعث الأشتر ابن جمهان الجعفي فحمل على أهل الشام الذين يتبعون من نجا من أصحاب ابن بديل حتى نفسوا عنهم وانتهوا إلى الأشتر^(٢).

٤.٢.٢.٢ هاشم بن عتبة (المرقال)

تاريخ الطبري عن أبي سلمة: إن هاشم بن عتبة الزهري دعا الناس عند المساء: ألا من كان يريد الله والدار الآخرة فإلي.. فأقبل إليه ناس كثير، فشد في عصاة من أصحابه على أهل الشام مرارا، فليس من وجه يحمل عليه إلا صبر له وقاتل فيه قتالا شديدا.

فقال لأصحابه: لا يهولنكم ما ترون من صبرهم، فوالله ما ترون فيهم إلا حمية العرب، وصبرا تحت راياتها وعند مراكزها، وإنهم لعلى الضلال وإنكم لعلى الحق، يا قوم اصبروا، وصابروا، واجتمعوا، وامشوا

(١) (تاريخ الطبري: ج ٤/ ١٣)

(٢) (تاريخ الطبري: ج ٤/ ١٤)

بنا إلى عدونا على تودة رويدا، ثم أثبتوا، وتناصروا، واذكروا الله، ولا يسأل رجل أخاه، ولا تكثروا الالتفات، واصمدوا صمدهم، وجاهدوهم محتسبين حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين.

ثم إنه مضى في عصابة معه من القراء فقاتل قتالا شديدا هو وأصحابه عند المساء، حتى رأوا بعض ما يسرون به. فإنهم لكذلك إذ خرج عليهم فتى شاب وهو يقول:

أنا ابن أرباب الملوك غسان

والدائن اليوم بدين عثمان

إنني أتاني خبر فأشجان

أن عليا قتل ابن عفان

ثم يشد فلا ينثني حتى يضرب بسيفه، ثم يشتم ويلعن ويكثر الكلام.. فقال له هاشم بن عتبة: يا عبد الله، إن هذا الكلام بعده الخصام، وإن هذا القتال بعده الحساب، فاتق الله فإنك راجع إلى الله فسألك عن هذا الموقف وما أردت به.

قال: فإنني أقاتلكم لأن صاحبكم لا يصلي - كما ذكر لي - وأنتم لا تصلون أيضا، وأقاتلكم لأن صاحبكم قتل خليفتنا وأنتم أردتموه على قتله.

فقال له هاشم: وما أنت وابن عفان! إنما قتله أصحاب محمد وأبناء أصحابه وقراء الناس حين أحدث الأحداث وخالف حكم الكتاب، وهم أهل الدين وأولى بالنظر في أمور الناس منك ومن أصحابك، وما أظن أمر هذه الأمة وأمر هذا الدين أهمل طرفة عين. فقال له: أجل، والله لا أكذب؛ فإن الكذب يضر ولا ينفع قال: فإن أهل هذا الأمر أعلم به، فخله وأهل العلم به. قال: ما أظنك والله إلا نصحت لي.

قال: وأما قولك: «إن صاحبنا لا يصلي» فهو أول من صلى مع رسول الله، وأفقه خلق الله في دين الله، وأولى بالرسول. وأما كل من ترى معي فكلهم قارئ لكتاب الله، لا ينام الليل تهجداً، فلا يغوينك عن دينك هؤلاء الأشقياء المغرورون. فقال الفتى: يا عبد الله إني أظنك امرأ صالحاً، فتخبرني هل تجد لي من توبة؟ فقال: نعم يا عبد الله، تب إلى الله يتب عليك؛ فإنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويحب المتطهرين. قال: فجسر والله الفتى الناس راجعاً. فقال له رجل من أهل الشام: خدعك العراقي، خدعك العراقي. قال: لا، ولكن نصح لي..

* استشهاد هاشم بن عتبة

وقعة صفين عن حبيب بن أبي ثابت: لما كان قتال صفين والراية مع هاشم بن عتبة - قال: - جعل عمار بن ياسر يتناوله بالرمح ويقول: أقدم يا أعور! لا خير في أعور لا يأتي الفرع فجعل يستحيي من عمار، وكان عالماً بالحرب، فيتقدم فيركز الراية، فإذا تنامت إليه الصفوف قال عمار: أقدم يا أعور! لا خير في أعور لا يأتي الفرع فجعل عمرو بن العاص يقول: إني لأرى لصاحب الراية السوداء عملاً، لئن دام على هذا لتفنين العرب اليوم. فاقتتلوا قتالاً شديداً، وجعل عمار يقول: صبرا عباد الله! الجنة تحت ظلال البيض، وكان لواء الشام مع أبي الأعور السلمي. ولم يزل عمار بهاشم ينخسه حتى اشتد القتال، وزحف هاشم بالراية يرقل بها إرقالاً، وكان يسمى: المرقال..

وقعة صفين: إن علياً عليه السلام دعا في هذا اليوم هاشم بن عتبة ومعه لواءه - وكان أعور - فقال له: يا هاشم، حتى متى تأكل الخبز، وتشرب الماء؟ فقال هاشم: لأجهدن على ألا أرجع إليك أبداً.

قال علي: إن بإزائك ذا الكلاع، وعنده الموت الأحمر؟ فتقدم هاشم، فلما أقبل قال معاوية: من هذا المقبل؟ ف قيل: هاشم المرقال. فقال: أعور بني زهرة؟ قاتله الله! وقال: إن حماة اللواء ربيعة، فأجبلوا القداح فمن خرج سهمه عبيته لهم، فخرج سهم ذي الكلاع لبكر بن وائل، فقال: ترحك الله من سهم كرهت الضراب. وإنما كان جل أصحاب علي أهل اللواء من ربيعة؛ لأنه أمر حماة منهم أن يحاموا عن اللواء. فأقبل هاشم.. وحمل صاحب لواء ذي الكلاع وهو رجل من عذرة.. فاختلفا طعنتين، فطعنه هاشم فقتله، وكثرت القتلى، وحمل ذو الكلاع فاجتلد الناس، فقتلا جميعاً، وأخذ ابن هاشم اللواء وتصدى للقتال أمام أبيه..

مروج الذهب: صمد هاشم بن عتبة المرقال لذي الكلاع وهو في حمير، فحمل عليه صاحب لواء ذي الكلاع.. فاختلفا طعنتين، فطعنه هاشم المرقال فقتله، وقتل بعده تسعة عشر رجلاً. وحمل هاشم المرقال وحمل ذو الكلاع، ومع المرقال جماعة من أسلم قد آلوا ألا يرجعوا أو يفتحوا أو يقتلوا. فاجتلد الناس، فقتل هاشم المرقال، وقتل ذو الكلاع جميعاً، فتناول ابن المرقال اللواء حين قتل أبوه في وسط المعركة..

قال: سمعت الشعبي يقول: قال الأحنف بن قيس: والله إنى لى جانب عمار بن ياسر، بينى وبينه رجل من بنى الشعيراء (هم بنو بكر بن أد بن طابخة)، فتقدمنا حتى إذا دنونا من هاشم بن عتبة قال له عمار: احمل فداك أبى وأمى.

ونظر عمار إلى رقة في الميمنة فقال له هاشم: رحمك الله يا عمار، إنك رجل تأخذك خفة في الحرب، وإنى إنما أزحف باللواء زحفاً، وأرجوا أن أنال بذلك حاجتى، وإنى إن خفت لم آمن الهلكة.

وقد كان قال معاوية لعمر: ويحك، إن اللواء اليوم مع هاشم بن

عتبة، وقد كان من قبل يرقل به إرقالا، وإنه إن زحف به اليوم زحفا إنه لليوم الأطول لأهل الشام، وإن زحف في عنق من أصحابه إنى لأطمع أن تقتطع.

فلم يزل به عمار حتى حمل، فبصر به معاوية فوجه إليه حماة أصحابه ومن يزن بالبأس (ظنه به) والنجدة منهم في ناحيته، وكان في ذلك الجمع عبد الله بن عمرو بن العاص ومعه يومئذ سيفان قد تقلد واحدا وهو يضرب بالآخر، وأطافت به خيل علي عليه السلام، فقال عمرو: يا الله، يا رحمن، ابني، ابني.

قال: ويقول معاوية: صبرا، صبرا فإنه لا بأس عليه قال عمرو: ولو كان يزيد بن معاوية إذا لصبرت! ولم يزل حماة أهل الشام يذبون عنه (عبد الله) حتى نجا هاربا على فرسه ومن معه، وأصيب هاشم في المعركة^(١).

مروج الذهب: إن هاشما المرقال لما وقع إلى الأرض وهو يوجد بنفسه رفع رأسه، فإذا عبید الله بن عمر مطروحا إلى قربه جريحا، فحبا حتى دنا منه، فلم يزل يعض على ثدييه حتى ثبتت فيه أسنانه لعدم السلاح والقوة^(٢)..

الأخبار الطوال: دفع علي عليه السلام رايته العظمى إلى هاشم بن عتبة، فقاتل بها نهاره كله، فلما كان العشي انكشف أصحابه انكشافا، وثبت هاشم في أهل الحفاظ منهم والنجدة، فحمل عليهم الحارث بن المنذر التنوخي قطعنه طعنة جائفة، فلم ينته عن القتال. ووافاه رسول علي عليه السلام يأمره أن يقدم رايته، فقال للرسول: انظر إلى ما بي! فنظر إلى بطنه فرآه

(١) راجع صفين: ص ٣٤٠ وما قبلها.

(٢) مروج الذهب: ج ٢/ ٣٩٧، البحار: ج ٣٣/ ٢٧

منشقا، فرجع إلى علي فأخبره، ولم يلبث هاشم أن سقط^(١)..

مروج الذهب: وقف علي (سلام الله عليه) عند مصرع المرقال ومن صرع حوله من الأسلميين وغيرهم، فدعا لهم، وترحم عليهم.

وفي قتل هاشم بن عتبة يقول أبو الطفيل عامر بن واثلة، وهو من الصحابة، وقيل إنه آخر من بقى من صحب رسول الله صلى الله عليه وآله، وشهد مع علي عليه السلام صفين، وكان من مخلصي الشيعة:

يا هاشم الخير جزيت الجنة
قاتلت في الله عدو السنه
والتاركي الحق وأهل الظنه
أعظم بما فزت به من منه
صيرني الدهر كأنى شنه
ياليت أهلي قد علوني رنه
من حوبة وعمه وكنه

والحوبة القرابة، يقال لي في بني فلان حوبة أي قربي^(٢).

وعن السدي عن عبد الخير الهمداني قال: قال هاشم بن عتبة: أيها الناس، إني رجل ضخم، فلا يهولنكم مسقطي إن أنا سقطت، فإنه لا يفرغ مني أقل من نحر جزور حتى يفرغ الجزار من جزرها.

ثم حمل فصرع، فمر عليه رجل وهو صريع بين القتلى فقال له: اقرأ على أمير المؤمنين (السلام ورحمة الله)، وقل له: أنشدك بالله إلا أصبحت وقد ربطت مقاود خيلك بأرجل القتلى، فإن الدبرة (العاقبة) تصبح غداً

(١) الأخبار الطوال: ص ١٨٣.

(٢) شرح النهج الحديدي: ج ٨/٣٨.

لمن غلب على القتلى.

فأخبر الرجل علياً عليه السلام بذلك، فسار علي عليه السلام في بعض الليل حتى جعل القتلى خلف ظهره، وكانت الدبرة له عليهم^(١).

وقاتل هاشم هو وأصحابه قتالا شديدا حتى أتت كتيبة لتنوخ فشدوا على الناس، فقاتلهم وهو يقول:

أعور يبغي أهله محلا

لا بد أن يفل أو يفلا

قد عالج الحياة حتى ملا

حتى قتل تسعة نفر أو عشرة، وحمل عليه الحارث بن المنذر التنوخي فطعنه فسقط، وبعث إليه الإمام علي عليه السلام: أن قدم لواءك.

فقال هاشم للرسول: انظر إلى بطني؛ فإذا هو قد انشق.

فأخذ الراية رجل من بكر بن وائل، ورفع هاشم رأسه فإذا هو بعبيد الله بن عمر بن الخطاب قتيلاً إلى جانبه، فحبا (زحف) حتى دنا منه، فعض على ثديه حتى نبت فيه أنيابه..

ثم مات هاشم (رحمة الله ورضوانه على روحه الطاهرة) وهو على صدر عبيد الله بن عمر، وكذلك ضرب رجل بكري فوقه، فرفع رأسه فأبصر عبيد الله بن عمر قريباً منه، فحبا إليه (كذلك) حتى عض على ثديه الآخر حتى نبت أنيابه فيه، ومات أيضاً، فوجدا جميعاً على صدر عبيد الله بن عمر، هاشم والبكرى قد ماتا جميعاً.

ولما قتل هاشم جزع الناس عليه جزعاً شديداً، وأصيب معه عصابة من أسلم من القراء، فمرّ عليهم الإمام علي عليه السلام وهم قتلى حول

(١) (صفين: ٣٥٣)

أصحابه الذين قتلوا معهم فقال ﷺ:

جزى الله خيرا عصابة أسلمية

صباح الوجوه صرعوا حول هاشم

يزيد وعبد الله بشر ومعبد

وسفيان وابنا هاشم ذى المكارم

وعروة لا يبعد ثناه وذكره إذا

اخرطت يوما خفاف الصوارم^(١)

ثم قام عبد الله بن هاشم وأخذ الراية فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يأيها الناس، إن هاشماً كان عبداً من عباد الله الذين قدّر أرزاقهم، وكتب آثارهم، وأحصى أعمالهم، وقضى آجالهم، فدعاه ربه الذى لا يُعصى فأجابه، وسلم الأمر لله وجاهد في طاعة ابن عم رسول الله، وأول من آمن به، وأفقههم في دين الله، المخالف لأعداء الله المستحلين ما حرّم الله، الذين عملوا في البلاد بالجور والفساد، واستحوذ عليهم الشيطان فزين لهم الإثم والعدوان.

فحق عليكم جهاد من خالف سنة رسول الله ﷺ، وعطل حدود الله، وخالف أولياء الله.. فجودوا بمهج أنفسكم في طاعة الله في هذه الدنيا، تصيبوا الآخرة والمنزل الأعلى، والملك الذى لا يبلى.. فلو لم يكن ثواب ولا عقاب ولا جنة ولا نار، لكان القتال مع علي ﷺ أفضل من القتال مع معاوية ابن أكلة الأكباد.. فكيف وأنتم ترجون ما ترجون؟

وقالت امرأة من أهل الشام مفتخرة:

(١) شرح النهج: ج ٨/ ٣٥.

لا تعدموا قوما أذاقوا ابن ياسر
شعوباً ولم يعطوكم بالخزائم
فنحن قتلنا الثريبي بن محصن
خطيكم وابنى بديل وهاشم^(١)

٣.٢. صور جماعية

وكانت علامة أهل العراق بصفين الصوف الأبيض قد جعلوه في رؤوسهم وعلى أكتافهم.. وشعارهم: «يا الله، يا أحد، يا صمد، يا رب محمد، يا رحمن يا رحيم».

وكان علامة أهل الشام خرقاً صفراً قد جعلوها على رؤوسهم وأكتافهم.. وكان شعارهم «نحن عباد الله حقاً، حقاً، يا لثارات عثمان».

وكانت رايات أهل العراق سوداً، وحمراً، ودكناً، وبيضاً ومعصفرة (صفراء بالعصفر) وموردة (حمراء وردية)..

والألوية العراقية المضروبة دكن، وسود. (وهي الرايات التي كان يستخدمها رسول الله ﷺ في حروبه إلا اللواء أو الراية العظمى، فلم تنشر بعد الجمل إلا مع الإمام المهدي عليه السلام وهي ذاتها التي استخدمها قائد جيش الحق في معركة الجمل ضد الناكثين، كالعقاب وغيرها من الرايات الكبيرة التي كانت تميز جيشه عليه السلام).

ومعركة صفين كلها كانت بطولية بشكل غريب وعجيب، من كلا الجيشين العراقي (بحقه وقيادته المحقة) والشامي (بباطله وقيادته المبطله)، فقد شهدت ساحة القتال ملاحم تستحق أن يسجلها التاريخ

(١) شرح النهج: ج ٨/ ٣٧ عن صفين: ص ٤٠٥.

في سجلات الخالدين.. كفكرة عسكرية، واجراء حربي، وبطولة قتالية نادرة، في التخطيط والتنفيذ..

* الفرق ما بين الجيشين

إن معاوية عقد لرجال من مضر، منهم بسر بن أرطاة، وعبيد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ومحمد وعتبة أبنا أبي سفيان، قصد بذلك إكرامهم ورفع منازلهم، وذلك في الوقعات الأولى من صفين، فغم ذلك رجالاً من أهل اليمن، وأرادوا ألا يتأمر عليهم أحد إلا منهم، فقام رجل من كندة يقال له: عبد الله بن الحارث السكوني، فقال: يا معاوية، إنى قلت شيئاً فاسمعه، وضعه مني على النصيحة.

فقال: هات.. قال:

معاوي أحييت فينا الإحن
وأحدثت في الشام ما لم يكن
عقدت لبسر وأصحابه وما
الناس حولك إلا اليمن
فلا تخلطن بنا غيرنا كما
شيب بالماء محض اللبن

فكبا له معاوية، ونظر إلى وجوه أهل اليمن فقال: أعن رضاكم قال هذا ما قال؟ فقال القوم: لا مرحباً بما قال، الأمر إليك فاصنع ما أحببت.. قال معاوية: إنما خلطت بكم ثقاتي وثقاتكم، ومن كان لي فهو لكم ومن كان لكم فهو لي.

فرضي القوم وسكتوا، فلما بلغ أهل الكوفة مقالة عبد الله بن الحارث لمعاوية فيمن عقد له من رؤوس أهل الشام قام الأعور الشنّي إلى

علي عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، إنا لا نقول لك كما قال أصحاب أهل الشام لمعاوية، ولكننا نقول: زاد الله في هُداك وسرورك، نظرت بنور الله فقدمت رجالا، وأخرت رجالا، فعليك أن تقول وعلينا أن نفعل، أنت الإمام، فإن هلكت فهذان من بعدك - يعني حسناً وحسيناً - وقد قلت شيئاً فاسمعه.

قال عليه السلام: هات.. فقال:

أبا حسن أنت شمس النهار
وهذان في الحادثات القمر
وأنت وهذان حتى الممات
بمنزلة السمع بعد البصر
وأنتم أناس لكم سورة
يقصر عنها أكف البشر
يخبرنا الناس عن فضلكم
وفضلكم اليوم فوق الخبر
عقدت لقوم ذوي نجدة من
أهل الحياء وأهل الخطر
مساميح بالموت عند اللقاء
منا وإخواننا من مضر
ومن حي ذي يمن جلة
يقيمون في الحادثات الصعر
فكل يسرك في قومه
ومن قال لا فبفيه الحجر
فلم يبق أحد من الناس به طرق (قوة وقدرة) أوله ميسرة (مال) إلا

أهدى للشنى أو أتحفه^(١).

وهكذا دعاء معاوية مروان وعمرا لقتال الأشر، ودعا معاوية مروان بن الحكم، فقال: إن الأشر قد غمني فاخرج بهذه الخيل في كلاع ويحصب فalcه فقاتل بها.. فقال مروان: ادع لها عمرا فانه شعارك دون دثارك..

قال: وانت نفسي دون وريدي.. قال: لو كنت كذلك الحقنتي به في العطاء أو الحقته بي في الحرمان ولكنك أعطيته ما في يديك ومنيته ما في يدي غيرك فان غلبت طاب له المقام وان غلبت خف عليه الهرب..

فقال معاوية: يغني الله عنك.. قال: أما اليوم فلا، ودعا معاوية عمرا وامره بالخروج الى الأشر فقال: والله إني لا أقول لك كما قال مروان قال ولم تقوله وقد قدمتك وأخرته وأدخلتك وأخرجته..

قال عمرو: أما والله لئن كنت فعلت لقد قدمتنى كافيا وادخلتنى ناصحا وقد أكثر القوم عليك في أمر مصر وإن كان لا يرضيهم إلا أخذها فخذها.. فخرج عمرو في تلك الخيل فلقيه الأشر أمام الخيل وهو يقول:

(١) (صفين ٤٢٦)

يا ليت شعري كيف لي بعمرو
ذاك الذي اوجبت فيه نذري
ذاك الذي اطلبه بوتري ذاك
الذي فيه شفاء صدري
ذاك الذي ان القه بعمرى
تغل به عند اللقاء قدري
او لا فربي عاذري بعذري

فعرف عمرو أنه الأشر فجبن وفشل واستحيا أن يرجع فاقبل نحو
الصوت وهو يقول:

يا ليت شعري كيف لي بمالك
كم فارس قتلته وفاتك
هذا وهذا عرضة المهالك

فلما غشيه الأشر بالرمح راع عنه عمرو فطعنه الأشر في وجهه فلم
يصنع شيئاً وثقل عمرو فامسك على وجهه وثنى عنان فرسه ورجع راکضاً
الى المعسكر.. ونادى غلام من يحصب يا عمرو عليك العفا ما هبت
الصبا يا لحمير هاتوا اللواء فاخذه وكان غلاماً شاباً وهو يقول:

ان يك عمرو قد علاه
الأشر باسمر فيه سنان ازهر
فذاك والله لعمري مفخر
يا عمرو يكفيك الطعان حمير
اليحصبى بالطعان امهر
دون اللواء اليوم موت احمر

فنادى الأشر ابنه إبراهيم خذ اللواء فغلام لغلام فاخذه إبراهيم

وتقدم وهو يقول:

يا أيها السائل عني لا ترع
أقدم فاني من عرانيين النخع
كيف ترى طعن العراقي الجذع
أطير في يوم الوغى ولا أقع
ما ساءكم سر وما ضر نفع
أعددت ذا اليوم لهول المطلاع

وحمل على الحميري فالتقاء الحميري بلوائه ورمحه ولم يبرح
يطعن كل واحد منهما صاحبه حتى سقط الحميري قتيلاً وشمّت مروان
بعمرو وغضب القحطانيون على معاوية وقالوا تولي علينا من لا يقاتل
معنا ولا رجلاً منا وإلا فلا حاجة لنا فيك فقال لهم معاوية: لا أولي عليكم
بعد موقفي هذا إلا رجلاً منكم.

ولما أسرع أهل العراق في أهل الشام قال معاوية: هذا يوم تمحيص
ان القوم قد أسرع فيهم كما أسرع فيكم فاصبروا وكونوا كراماً.. وحرّض
علي عليه السلام أصحابه فقام إليه الأصبع بن نباتة فقال: يا أمير المؤمنين انك
جعلتني على شرطة الخميس وقدمتني في الثقة دون الناس او فقدمني في
البقية من الناس فانك لا تفقد لي اليوم صبراً ولا نصراً اما اهل الشام فقد
هدهم ما أصبنا منهم واما نحن ففينا بعض البقية ائذن لي فاتقدم..

قال عليه السلام: تقدم باسم الله والبركة.. فتقدم واخذ الراية ومضى بها
ورجع وقد خضب سيفه ورمحه دماء وكان شيخاً ناسكاً عابداً وكان من
ذخائر علي عليه السلام وممن بايعه على الموت وكان من فرسان اهل العراق
وكان علي عليه السلام يرضى به على الحرب والقتال..

* مبارزة الأب وابنه

فخرج آثال بن حجل فنأدى بين العسكريين: هل من مبارز؟ فعدا معاوية حجلأً، فقال: دونك الرجل وكأنا مستبصرين في رأيهما فبرز كل واحد منهما إلى صاحبه فبدره الشيخ بطعنة قطعنه الغلام وأتمى (أي افتخر بنسبه) فإذا هو ابنه فنزلاً فاعتنق كل واحد منهما صاحبه وبكيا، فقال له الأب: ابني آثال هلمَّ إلى الدنيا..

فقال له الغلام: يا أبة هلمَّ إلى الآخرة، والله يا أبة لو كان من رأيي الانصراف إلى أهل الشام لوجب عليك أن يكون من رأيك لي أن تنهاني وأسوأ ما ذا أقول لعلي عليه السلام وللمؤمنين الصالحين كن على ما أنت عليه وأنا أكون على ما أنا عليه.. وانصرف حجل إلى أهل الشام وانصرف آثال إلى أهل العراق فخبر كل واحد منهما أصحابه وقال في ذلك حجل:

ان حجل بن عامر واثالا

أصبحا يضربان في الامثال

اقبل الفارس المدجج في النقة

ع اثال يدعو يريد نزالي

دون اهل العراق يخطر كالفحل على ظهر هيكل ذيال فدعاني له ابن

هند وما زال قليلا في صحبه امثالي

فتناولته ببادة الرم

ح واهوى باسمر عسال

فاطعنا وذاك من حدث الده

ر عظيم فتى لشيخ بحال

شاجرا بالقناة صدر ابيه

وعظيم علي طعن اثال

لا ابالي حين اعترضت اثالا
 واثال كذاك ليس يبالي
 فافترقنا على السلامة والنف
 س يقيها مؤخر الآجال
 لا يراني على الهدى واره
 من هدانا على سبيل ضلال
 فلما انتهى شعره الى اهل العراق قال ابنه اثال مجيبا له وكان مجتهدا
 مستبصرا:

ان طعني وسط العجاجة حجلا
 لم يكن في الذي نويت عقوقا
 كنت ارجو به الثواب من
 الله وكوني مع النبي رفيقا
 لم ازل انصر العراق من
 الشام اراني بفعل ذاك حقيقا
 قال اهل العراق إذ عظم الخط
 ب ونق المبارزون نقيقا
 من فتى ياخذ الطريق الى الل
 ه فكنت الذي اخذت الطريقا
 حاسر الرأس لا اريد سوى المو
 ت ارى الاعظم الجليل دقيقا
 فاذا فارس تقحم في النقع
 خدبا مثل السحوق فنيقا

فبداني حبل ببادة الطع
ن وما كنت قبلها مسبوقا
فتلقيته بعالية الرم
ح كلانا يطاول العيوقا
احمد الله ذا الجلالة والقدر
رة حمدا يزيدني توفيقا
لم انل قتله ببادة الطع
نة مني ولم اكن مفروقا
قلت للشيخ لست اكفرك الدهر
ر لطيف الغذاء والتفنيقا
غير اني اخاف ان تدخل الناف
ر فلا تعصني وكن لي رفيقا
وكذا قال لي فغرب تغري
با وشرقت راجعا تشريقا

وإليك هاتين الصورتين الناصعتين للمعركة القتالية الجماعية في
صفين نأخذها من الأنصار لأنهم أنصار الله وحماة رسول الله ﷺ لنعرف
لماذا كان يحقد معاوية على الأنصار ويكثر من هجائهم، والصورة
الأخرى للهمدانيين في قتالهم البطولي..

١.٣.٢ صورة الأنصار واستبسالهم

الأنصار وصية رسول الله ﷺ لأنهم الذين آووا ونصروا وجاهدوا
وحموا ودافعوا عن الإسلام الحنيف والرسول الكريم ﷺ وبنوا دولته
المباركة بضرب سيوفهم ضد آل أمية ومن لف لفهم من الأحزاب الضالين

المضلين من الكفار والمشركين، وهذا أول حقد حملوه على أنصار هذا الدين، وأما الثاني فما فعلوه في حروب التأويل من ملاحم وبطولات..

فيروى أن معاوية دعا النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري ومسلمة بن مَخْلَد الأنصاري ولم يكن معه من الأنصار غيرهما، فقال: يا هذان لقد غمّني ما لقيت من الأوس، والخزرج.. صاروا واضعي سيوفهم على عواتقهم يدعون إلى النزال حتى والله جَبَّنا أصحابي الشجاع والجبان.. أو حتى والله ما أسال عن فارس من أهل الشام إلا قالوا قتله الأنصار.. أما والله لألقينهم بحدي وحديدي ولأعين لكل فارسٍ منهم فارساً ينشب في حلقة، ثم لأرمينهم بأعدادهم من قريش، رجال لم يغذهم التمر والطفيشل (مرق معروف) يقولون نحن الأنصار.. قد والله آووا ونصروا ولكن أفسدوا حقهم بباطلهم.. (تأمل بهذا النفاق أرجوك فهو يعرف حقهم جيداً)..

فغضب النعمان (لأن بكلام معاوية كان تعريض وسباب للأنصار) فقال: يا معاوية لا تلومنَّ الأنصار بسرعتهم في الحرب فانهم كذلك كانوا في الجاهلية.. وأما دعاؤهم إلى النزال فلقد رأيتهم مع رسول الله ﷺ.. وأما لقاءك إياهم في اعدادهم من قريش فقد علمت ما لقيت قريش منهم.. فان أحببت أن ترى فيهم مثل ذلك آنفا فافعل.. وأما التمر والطفيشل فإن التمر كان لنا فلما أن ذقتموه شاركتمونا فيه، وأما الطفيشل فكان لليهود فلما أكلناه غلبناهم عليه كما غلبت قريش على السخينة..

(وهي طعام رقيق يتخذ من دقيق كانت تتخذه قريش فعيرت به، وصار لقباً لها قال الشاعر:

زعمت سخينة ان ستغلب

ربها وليغلبن مغالب الغلاب

فكما عيّر معاوية الأنصار بالطفيشل عيّرهُ النعمان بالسخينة..)

ثم تكلم مسلمة بن مَخْلَد فقال: يا معاوية إن الأنصار لا تُعَاب أحسابها ولا نجداتها وأما غَمَمَهُمْ إِيَّاكَ فقد والله غَمُّونا ولو رَضِينَا ما فارقونا وما فارقنا جماعتهم وإن في ذلك لما فيه من مباينة العشيرة ولكن حملنا ذلك ورجونا منك عوضه (الدنيا الموعودة معه) وأما التمر والطفيشل فانهما يجران عليك نسب السخينة والخرنوب. (والخرنوب ثمر الشوك الذي يوقد بالعراق شبيه بالكلبي والخرنوب يؤكل في المجاعة وكأن قريشا كانت تأكله فتعيّر به، وفي كلام مسلمة تعريض بمعاوية الذي يُعَاب بنسبه ويطعن بأمه شديداً..)

وانتهى الكلام كله إلى الأنصار في جيش أمير المؤمنين عليه السلام فجمع قيس بن سعد الأنصاري الأنصار، ثم قام خطيباً فيهم، فقال: إن معاوية قد قال ما بلغكم، وأجاب عنكم صاحبكم فلعمري لئن غظتم معاوية اليوم لقد غظتموه بالأمس وإن وترتموه في الاسلام لقد وترتموه في الشرك وما لكم إليه من ذنب أعظم من نصر هذا الدين الذي أنتم عليه فجذّوا اليوم جذّاً تُنسونه ما كان أمس، وجدوا غداً جذّاً تنسونه ما كان اليوم، فأنتم مع هذا اللواء الذي كان يقاتل عن يمينه جبرائيل، وعن يساره ميكائيل.. والقوم مع لواء أبي جهل والأحزاب وأما التمر فانا لم نغرسه، ولكن غلبنا عليه من غرسه، وأما الطفيشل فلو كان طعامنا سُمينا به كما سُميت قريش بالسخينة، ثم قال قيس بن سعد في ذلك شعرا:

يا ابن هند دع التوثب في الحر

ب إذا نحن بالجياد سرينا

نحن مَنْ قد علمت فادنْ إذا شئ
 ت بمن شئت في العجاج الينا
 ان تشا فارس له فارس مذ
 ا وإن شئت باللفيف التقينا
 اي هذين ما اردت فخذ
 ليس منا وليس منك الهوينا
 ثم لا تنزع العجاجة حتى
 تنجلي حربنا لنا أو علينا
 ليت ما تطلب الغداة اتانا
 انعم الله بالشهادة عينا
 أننا أننا الذين لدى الفتة
 ح شهدنا وخبيرا وحنينا
 بعد بدر وتلك قاصمة الظهر
 ر واحد وبالنضير ثنينا
 يوم الأحزاب فيه قد علم النا
 س شфина من نحوكم واشتفينا

فلما بلغ شعره معاوية دعا عمرو بن العاص، فقال: ما ترى في شتم
 الأنصار؟

قال: أرى أن تُوعِد ولا تشتم ما عسى أن تقول لهم؟ فإذا أردت ذمهم
 ذمَّ أبدانهم ولا تذرهم أحسابهم.. قال معاوية: إن خطيب الأنصار قيس بن
 سعد يقوم كل يوم خطيباً وهو والله يريد أن يفنينا غداً إن لم يحبسنا
 حابس الفيل فما الرأي؟

قال: الرأي التوكل والصبر، فارسل معاوية الى رجال من الأنصار

فعاتبهم فمشوا إلى قيس فقالوا: إن معاوية لا يريد شتمنا فكفَّ عن شتمه.. فقال: إن مثلي لا يُشتم ولكن لا أكف عن حربه حتى ألقى الله.

وتحركات الخيل غدوة فظن قيس بن سعد أن فيها معاوية فحمل على رجل يشبهه فقتَّعه بالسيف فاذا هو غير معاوية، وحمل على آخر يشبهه أيضاً فضربه ثم انصرف، فلما تحاجز الفريقان شتمه معاوية شتماً قبيحاً وشتم الأنصار فغضب النعمان ومسلمة فأرضاهما بعد ما هما (أرادا) أن ينصرفا إلى قومهما من الأنصار.

ثم أن معاوية سال النعمان أن يخرج إلى قيس فيعاتبه ويسأله السلم فخرج، فقال له: يا قيس أ لستم معشر الأنصار تعلمون أنكم أخطاتم في خذل عثمان وقتلتم أنصاره يوم الجمل وأقحمتكم خيولكم على أهل الشام بصفين فلو كنتم إذ خذلت عثمان خذلت علياً لكانت واحدة بواحدة ولكنكم خذلتهم حقاً ونصرتهم باطلاً، ثم لم ترضوا أن تكونوا كالناس حتى أعملتم في الحرب ودعوتهم إلى البراز ثم لم ينزل بعلي أمر قط إلا هؤنتم عليه المصيبة، ووعدتموه الظفر، وقد أخذت الحرب منا ومنكم ما قد رأيتم فاتقوا الله في البقية.

فضحك قيس ثم قال: ما كنت أراك يا نعمان تجترئ على هذه المقالة أنه لا ينصح أخاه من غش نفسه، وأنت والله الغاش الضال المضل، أما ذكرك عثمان فان كانت الأخبار تكفيك فخذ عني واحدة: قتل عثمان من لست خيراً منه وخذله من هو خير منك، وأما أصحاب الجمل فقاتلناهم على النكث، وأما معاوية فوالله أن لو اجتمعت عليه العرب لقاتلته الأنصار، وأما قولك أنا لسنا كالناس فنحن في هذه الحرب كما كنا مع رسول الله ﷺ نتقي السيوف بوجوهنا والرماح بنحورنا حتى جاء الحق وظهر امر الله وهم كارهون، ولكن انظر يا نعمان هل ترى مع معاوية إلا

طليقاً (منافقاً) أو اعرابياً (بوالاً على عقبيه)، أو يمانياً مستدرجا بغرور؟ أين المهاجرون والأنصار والتابعون باحسان الذين ﷺ؟ ثم هل ترى مع معاوية غيرك وصويحبك ولستما والله ببدرين ولا أحدين ولا لكما سابقة في الاسلام ولا آية في القرآن، ولعمري لئن شغبت علينا لقد شغبت علينا ابوك (يشير إلى ما فعله أبوه يوم السقيفة)، وقال قيس في ذلك:

والراقصات بكل أشعث أغبر
 خوص العيون تحثها الركبان
 ما ابن المخلد ناسيا أسيافا
 عمن نحاربه ولا النعمان

٣. صورة الهمدانين وقتالهم

وحدثنا عمر بن سعد قال: ولما تعاظمت الأمور على معاوية قبل قتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب دعا عمرو بن العاص، وبسر بن أرطاة وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فقال لهم: إنه قد غمني رجال من أصحاب علي، منهم سعيد بن قيس في همدان، والأشتر في قومه، والمرقال وعدي بن حاتم وقيس بن سعد في الأنصار، وقد وقتكم يمانيتكم بأنفسها أياماً كثيرة حتى لقد استحييت لكم، وأنتم عدتكم من قريش، وقد أردت أن يعلم الناس أنكم أهل غناء، وقد عبأت لكل رجل منهم رجلاً منكم، فاجعلوا ذلك إليّ.

فقالوا: ذلك إليك.

قال: فأنا أكفيكم سعيد بن قيس وقومه غداً، وأنت يا عمرو لأعور بنى زهرة المرقال، وأنت يا بسر لقيس بن سعد، وأنت يا عبيد الله للأشتر النخعي، وأنت يا عبد الرحمن بن خالد لأعور طيئ - يعني عدي بن

حاتم - ثم ليرد كل رجل منكم عن حماه الخيل.

فجعلها نوائب في خمسة أيام، لكل رجل منهم يوم.

فأصبح معاوية في غده فلم يدع فارساً إلا حشده، ثم قصد لهمدان بنفسه وتقدم الخيل وهو يقول:

لا عيش إلا فلق قحف الهام من

أرحب وشاكر وشبام

لن تمنع الحرمة بعد العام

بين قتيل وجريح دام

سأملك العراق بالشام

انعى ابن عفان مدى الأيام

ثم إن همدان تنادت بشعارها، وأقحم سعيد بن قيس فرسه على معاوية واشتد القتال، وحجز بينهم الليل، فذكرت همدان أن معاوية فاتها ركضاً.^(١)

قال: وشدت عك ولخم وجذام والأشعرون من أهل الشام، على مذحج وبكر بن وائل.. فقال العكي في ذلك:

ويل لام مذحج من

عك لنتركن أمهم تبكى

نقتلهم بالطعن ثم الصك

فلا رجال كرجال عك

لكل قرن باسل مصك

قال: ونادى منادي مذحج: يال مذحج، خدموا (اقطعوا الأرجل).

(١) (صفين: ٤٢٧)

فاعترضت مذحج لسوق القوم فكان بوار (وقتل) عامّة القوم.

وذلك أن مذحج حميت (واغتازت) من قول العكي.

وقال العكي حين طحنت رحي القوم، وخاضت الخيل والرجال في الدماء.

قال: فنأدى: «يال مذحج: الله الله: في عك وجذام،

ألا تذكرون الأرحام، أفنيتم لخم الكرام، والأشعرين،
وآل ذى حمام، أين النهى والأحلام (العقول)، هذه النساء تبكى
الأعلام (الرؤساء)».

وقال العكي:

يا عك أين المفر
اليوم تعلم ما الخبر
إنكم قوم صبر كونوا
كمجتمع المدر
لا تشمتن بكم مضر
حتى يحول الحجر
فيرى عدوكم الغير

وقال الأشعري: «يال مذحج منّ للنساء غدا إذا أفناكم الردى، الله،
الله في الحرمات، أما تذكرون نساءكم والبنات، أما تذكرون أهل فارس
والروم والأتراك، لقد أذن الله فيكم بالهلاك»

والقوم ينحر (يذبح) بعضهم بعضاً، ويتكادمون بالأفواه.

وقال: نادى أبو شجاع الحميرى وكان من ذوى البصائر مع الإمام
عليه السلام فقال: يا معشر حمير تبت أيديكم، أترون معاوية خيراً من

علي عليه السلام؟ أضلَّ الله سعيكم.

ولما اشتد القتال وعظم الخطب أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص: أن قدّم عكاً والأشعرين إلى مَنْ بإزائهم.

فبعث عمرو إلى معاوية: «إن همدان بإزاء عك».

فبعث إليه معاوية: «أن قدّم عكا إلى همدان».

فأتاهم عمرو فقال: يا معشر عك، إن علياً قد عرف أنكم حي أهل الشام، فعبأ لكم حي أهل العراق همدان، فاصبروا وهبوا لي جماجمكم ساعة من النهار، وقد بلغ الحق مقطعه.

فقال ابن مسروق العكي: أمهلوني حتى آتى معاوية.

فأتاه فقال: يا معاوية، اجعل لنا فريضة ألفي رجل في ألفين، ألفين ومَنْ هلك فابن عمه مكانه، لنقر اليوم عينك.

قال: ذلك لك.. فرجع ابن مسروق إلى أصحابه فأخبرهم الخبر.. فقالت عك: نحن لهمدان.

قال الراوي: فتقدمت عك، ونادى سعيد بن قيس: يال همدان خدموا..

فأخذت السيوف أرجل عك، فنادى أبو مسروق العكي: يال عك، بركاً كبرك الجمل.. فألقى القوم الرماح وصاروا إلى السيوف، وتجالدوا حتى أدركهم الليل، فقالت همدان: يا معشر عك، إنا والله لا ننصرف حتى تنصرفوا.

وقالت عك مثل ذلك، فأرسل معاوية إلى عك: «أبروا قسم القوم وهلموا (أي إنصرفوا)».

فانصرفت عك ثم انصرفت همدان، وقال عمرو: يا معاوية، لقد لقيت أسدً أسداً، لم أر كالיום قط، لو أن معك حياً كعك، أو مع علي حياً كهمدان لكان الفناء..^(١)

قال رجل من همدان: لما التقينا بالقوم في ذلك اليوم وجدناهم خمسة صفوف قد قيدوا أنفسهم (ترابطوا حتى لا يفرّ منهم أحد) بالعمائم فقتلنا صفاً، صفاً، حتى قتلنا ثلاثة صفوف وخلصنا إلى الصف الرابع ما على الأرض شامي ولا عراقي يولي دبره.

وأبو الأعور السلمي يقول شعر (لقيس بن الخطيم):

إذا ما فررنا كان أسوا فرارنا

صدود الخدود وازرار المناكب

صدود الخدود والقنا متشاجر

ولا تبرح الأقدام عند التضارب

ثم إن الأزد وبجيلة كشفوا همدان غلوة حتى ألجؤوهم إلى التل، فصعدوا فشددت عليهم الأزد وبجيلة حتى أحدروهم منه، ثم عطفت عليهم همدان حتى ألجؤوهم إلى أن تركوا مصافهم. وقتل من الأزد وبجيلة يومئذ ثلاثة آلاف في دفعة.

ثم إن همدان عبيت لعك، فقليل:

همدان همدان وعك عك

ستعلم اليوم من الأرك

والأرك: (الأضعف، والركة: الضعف) وكانت على عك الدروع وليس عليهم رانات (الران كالخف إلا أنه لا قدم له، وهو أطول من الخف)،

(١) (صفيين: ٤٣٤)

فقالت همدان: خدموا القوم - أي اضربوا سوقهم - فقالت عك: برك
كبرك الكمل (أي الجمل).

فبركوا كما برك الجمل.

ثم رموا بحجر فقالوا: لا نفر حتى يفر الحجر.

حدثنا الققعقاع بن الأبرد الطهوى قال: والله إنى لواقف قريباً من
علي عليه السلام بصفين يوم وقعة الخميس وقد التقت مذحج - وكانوا في
ميمنة على - وعك وجذام ولخم والأشعرون، وكانوا مستبصرين في
قتال علي عليه السلام.

ولقد والله رأيت ذلك اليوم من قتالهم، وسمعت من وقع السيوف
على الرؤوس، وخبط الخيول بحوافرها في الأرض وفي القتلى، ما
الجبال تهد، ولا الصواعق تصعق بأعظم هولاً في الصدور من ذلك
الصوت.. ونظرت إلى علي عليه السلام وهو قائم فدنوت منه، فسمعته يقول:
«لا حول ولا قوة إلا بالله، والمستعان الله».

ثم نهض حين قام قائم الظهيرة وهو يقول: ﴿رَبَّنَا أَفْتَاحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ
قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾. وحمل على الناس بنفسه، وسيفه مجرد
بيده، فلا والله ما حجز بيننا إلا الله رب العالمين، في قريب من ثلث
الليل، وقتلت يومئذ أعلام العرب.

ولما أصبح الناس غدوا على مصافهم ونادى معاوية في احياء اليمن
فقال عبوا كل فارس مذكور فيكم اتقوا به لهذا الحي من همدان فخرجت
خيل عظيمة فلما رآها علي عليه السلام عرف انها عيون الرجال فنادى: يا
لهمدان..

فاجابه سعيد بن قيس؛ فقال علي عليه السلام: احمل.. فحمل حتى خالط

الخييل بالخييل واشتد القتال وحطمتهم همدان حتى الحقوهم بمعاوية فقال: ما لقيت من همدان وجزع جزعا شديدا (خاف خوفاً شديداً) واسرع في فرسان اهل الشام القتل وجمع علي عليه السلام همدان فقال: يا معشر همدان انتم درعي ورمحي يا همدان ما نصرتم الا الله ولا اجبتم غيره..

فقال سعيد بن قيس: اجبنا الله وانت ونصرنا نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم في قبره وقاتلنا معك مَنْ ليس مثلك فارم بنا حيث احببت.. وفي ذلك اليوم قال علي عليه السلام:

ولو كنت بوابا على باب جنة

لقلت لهمدان ادخلي بسلام

فقال علي عليه السلام لصاحب لواء همدان: اكفني أهل حمص فاني لم التق من أحد ما لقيت منهم.. فتقدم وتقدمت همدان وشدوا شدة واحدة على أهل حمص فضربوهم ضرباً شديداً متداركاً بالسيوف وعمد الحديد حتى ألجؤوهم الى قبة معاوية وارتجز رجل من همدان في ارحب فقال:

قد قتل الله رجال حمص

حرصا على المال وأي حرص

غروا بقول كذب وخرص

قد نكص القوم وأي نكص

عن طاعة الله وفحوى النص

وحمل أهل حمص ورجل من كندة يقدمهم وهو يقول:

قد قتل الله رجال العاليه
حتى يكونوا كرجال باليه
من عهد عاد و ثمود الثاوية
بالحجر أو يملكهم معاويه

ولما عبأ معاوية حماة الخيل لهمدان فردت خيله اسف فخرج بسيفه
فحملت عليه فوارس همدان ففارقها ركضاً وانكسر حماة أهل الشام
ورجعت همدان إلى مكانها..وما أصدق قول الشاعر بحق معاوية:

أنا في الحرب ما جربت نفسي
ولكن في الهزيمة الغزال

٤. مصيبة التحكيم

أجبر رؤوس النفاق، بعد غدر واتفاق مع معاوية على وقف الحرب
بخديعة ما كانت لتنتطلي على من له مسكة عقل أو دراية بمجريات
الأحداث وحقائق الرجال، ألم يعرض عليهم أمير المؤمنين عليه السلام
الإحتكام إلى القرآن قبل القتال؟

ألم يطلب منهم البيعة والإقرار بالشرعية التي هم أبعد شيء عنها
والإحتكام إلى أعلم خلق الله بالقرآن والأحكام والسنن، فرفضوا ذلك
دون مبرر بل لجوا وذهبوا بطغيانهم بكل المكر والغدر الذي احتوت عليه
أنفسهم الخبيثة، كيداً للإسلام وأهله وحقداً على رسول الله ﷺ وأهل
بيته الأطهار عليهم السلام وسيدهم أمير المؤمنين عليه السلام؟

ولا هدف لهم إلا الحكم والكرسي والتسلط على رقاب الأمة
الإسلامية والسيطرة على مقدراتها الهائلة لا حباً بالله، ولا قدوة وأسوة

برسول الله ﷺ، ولا معرفة بحق، ولا دفعاً لباطل، بل الباطل هم وما يريدون.

٥. بدء تدفق الاعتراض

وهكذا سار الإمام ﷺ من صفين متجهاً إلى الكوفة ومضى (ع) غير بعيد، فظهرت بوادر الاعتراض على السياسة العلوية الدينية المستقيمة، وفي الطريق لقيه عبد الله بن وداعة الأنصاري، فدنا منه، وسلم عليه وسأله.

فقال ﷺ له: ما سمعت الناس يقولون في أمرنا؟

قال: منهم المعجب به، ومنهم الكاره له، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَنزِلُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٩]

فقال له: فما قول ذوي الرأي فيه؟

قال: أما قولهم فيه فيقولون: إن علياً كان له جمع عظيم ففرقه، وكان له حصن حصين فهدمه، فحتى متى يبني ما هدم، وحتى متى يجمع ما فرق! فلو أنه كان مضى بمن أطاعه - إذ عصاه من عصاه - فقاتل حتى يظفر أو يهلك إذا كان ذلك الحزم.

فقال علي ﷺ: أنا هدمت أم هم هدموا! أنا فرقته أم هم فرقوا! أما قولهم: إنه لو كان مضى بمن أطاعه إذ عصاه من عصاه فقاتل حتى يظفر أو يهلك، إذا كان ذلك الحزم؛ فوالله، ما غاب عن رأيي ذلك، وإن كنتُ لسخياً بنفسي عن الدنيا، طيَّبُ النفس بالموت، ولقد هممت بالإقدام على القوم، فنظرت إلى هذين قد ابتدراني - يعني الحسن والحسين ﷺ - ونظرت إلى هذين قد استقدماني - يعني عبد الله

بن جعفر ومحمد بن علي - فعلمت أن هذين إن هلكا انقطع نسل محمد ﷺ من هذه الأمة، فكرهت ذلك، وأشفقت على هذين أن يهلكا، وقد علمت أن لولا مكاني لم يستقدا - يعني محمد بن علي وعبد الله بن جعفر - وأيم الله، لئن لقيتهم بعد يومي هذا لألقيهم وليسوا معي في عسكر ولا دار..^(١)

ودخل أمير المؤمنين ﷺ الكوفة لتسيير قضايا الدولة الإسلامية فاجتمع على أبوابها بعض الخوارج عليه محتجين رافضين الدخول إلى الكوفة فقال في جواب أولئك المعترضين على التحكيم قبل دخوله الكوفة ليقيم الحجة من البداية والحجة عليهم قائمة إذ أن أمير المؤمنين ﷺ هو حجة الله على الخلق: اللهم هذا مقام من فلجفيه كان أولى بالفلج يوم القيامة، ومن نطف (٣) فيه أو غل فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا. نشدتكم بالله! أتعلمون أنهم حين رفعوا المصاحف، فقلتم: نجيبهم إلى كتاب الله، قلت لكم: إني أعلم بالقوم منكم، إنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إني صحبتهم وعرفتهم أطفالاً ورجالاً؛ فكانوا شرّاً أطفال، وشرّاً رجال، امضوا على حقكم وصدقكم، إنما رفع القوم لكم هذه المصاحف خديعة ووهنا ومكيدة.

فرددتم عليّ رأيي، وقلتم: لا، بل نقبل منهم.. فقلت لكم: اذكروا قلوبي لكم ومعصيتكم إياي؟ فلما أبيتم إلا الكتاب، اشترطت على الحكمين أن يحييا ما أحياه القرآن، وأن يميتا ما أمات القرآن؛ فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكم من حكم بما في الكتاب، وإن أبيا فنحن من حكمهما برآء.

فقال له بعض الخوارج: فخبّرنا أترأه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء؟

(١) (تاريخ الطبري: ج ٤/ ٤٤).

فقال ﷺ: إنا لم نحكم الرجال، إنما حكمنا القرآن، وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق، وإنما يتكلم به الرجال. قالوا له: فخبرنا عن الأجل؛ لِمَ جعلته فيما بينك وبينهم.

قال ﷺ: ليتعلم الجاهل، ويتثبت العالم، ولعل الله أن يُصلح في هذه الهدنة هذه الأمة.. ادخلوا مَصْرَكُمْ رحمكم الله.. ودخلوا من عند آخرهم^(١)..

ولم يقنع بهذه الحجج البالغة بعض الجفافة الغلاظ والذين في قلوبهم أمراض كثيرة فراحوا يعترضون عليه حتى وهو يخطب على المنبر، فيسكت عنهم، ويعترضون حتى وهو في الصلاة فيتجاوز عن كلماتهم، ويوماً قال له ﷺ رجل من أصحابه: نهيتنا عن الحكومة، ثم أمرتنا بها، فلم ندر أي الأمرين أرشد؟

فقال ﷺ: هذا جزاء من ترك العُقدة (الرأي الوثيق)! أما والله لو أني حين أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيراً، فإن استقمتم هديتكم، وإن اعوججتم قومتكم، وإن أبيتم تداركتكم - لكنت الوثقى.. ولكن بمن، وإلى من؟

أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي؛ كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضلعها (أي ميلها) معها! اللهم قد ملّت أطباء هذا الداء الدوي (الشديد)، وكَلَّتْ النزعة (جمع نازع؛ وهو الذي يستقي الماء) بأشطان (جمع شطن؛ وهو الحبل) الركي (جمع ركية؛ الآبار)! أين القوم الذين دُعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرؤوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلى الجهاد فولهوا وله (الوله: شدة الحب حتى يذهب العقل) اللقاح (الإبل، والواحدة لقوح؛ وهي الحلوب) إلى أولادها، وسلبوا السيوف أغمادها،

(١) تاريخ الطبري: ج ٥/٦٥، الإرشاد للشيخ المفيد: ص ٢٧٠.

وأخذوا بأطراف الأرض (أي حصروهم) زحفاً، زحفاً، وصفاءً، صفاءً.. بعضٌ هلك، وبعضٌ نجا، لا يبشرون بالأحياء (أي إذا ولد لأحدهم مولود لم يبشر به)، ولا يعززون عن الموتى، مُرَّةُ العيون من البكاء (فسدت)، خُمَصُ البطون من الصيام، ذُبُلُ الشفاه من الدعاء، صُفْرُ الألوان من السهر، على وجوههم غبرة الخاشعين.

أولئك إخواني الذاهبون، فحقُّ لنا أن نظماً إليهم، ونعَضُّ الأيدي على فراقهم.. إن الشيطان يسني (يسهل) لكم طريقه، ويريد أن يحل دينكم عُقْدَةً، عُقْدَةً، ويعطيكم بالجماعة الفرقة، وبالفرقة الفتنة، فاصدقوا (صدف عن الأمر: انصرف عنه) عن نزغاته ونفثاته، واقبلوا النصيحة ممن أهداها إليكم، واعقلوها على أنفسكم (أي اربطوها والزموها).^(١)

٦. كلمات حول التحكيم

إن قضية التحكيم في معركة صفين تُعدُّ واحدة من أكثر الوقائع الباعثة على الأسف والأسى في عهد حكومة الإمام علي عليه السلام؛ حيث جاءت هذه الحادثة المريرة في وقت شارف فيه جيش الإمام عليه السلام على إحراز النصر النهائي، فحال قبول التحكيم دون تحقيق ذلك الانتصار الساحق، وليس هذا فحسب، بل إنه أفضى أيضاً إلى وقوع خلافات في جيشه عليه السلام وانهماكه في صراعات مع كوكبة واسعة من خيرة مقاتليه.. ولغرض تسليط الضوء على هذا الموضوع لا بدَّ أولاً من مناقشة عدة أمور:

(١) (شرح نهج البلاغة: ٧ / ٢٩٢ - ٢٩٦)

١.٦. سبب قبول التحكيم

والسؤال الأول الذي يتبادر إلى الأذهان هو: لماذا وافق الإمام عليه السلام على فكرة التحكيم؟ فهل إنه كان في شك من أمره ومواقفه؟ بل ما معنى التحكيم بين الحق والباطل؟ أولم تكن الحكمة والسياسة تقضيان أن يقاوم الإمام ضغوط رهط من جيشه، ولا ينصاع لفكرة التحكيم؟

وفي معرض الإجابة عن هذه التساؤلات نقول: بلى، إن مقتضى الحكمة والسياسة ألا يقبل الإمام بالتحكيم، إلا أنه عليه السلام - كما تفيد الوثائق التاريخية القطعية - لم يقبل التحكيم بإرادته وإنما فرض عليه فرضاً، ولم تكن مقاومته أمام ذلك الرأي الساذج تجديه نفعاً، بل كانت تؤدي إلى وقوع معركة النهروان في صفين، وسيضطر الإمام إلى محاربة قسم كبير من جيشه في ذات الميدان الذي كان يقاتل فيه جيش الشام.

فعندما أدرك معاوية بأنه لا طاقة له على الصمود أمام جيش الإمام عليه السلام، وأن الحرب لو استمرت لكان الانتصار الحاسم حليف الإمام وجيشه بلا شك، لجأ الرجل - بما لديه من معرفة بفريق واسع من جيش الإمام، وبناء على اقتراح من عمرو بن العاص - إلى حيلتين شيطانيتين خطيرتين هما:

الأولى: (رفع المصاحف) وهدفها إيقاف القتال مؤقتاً..

الثانية: (الدعوة إلى تحكيم القرآن) وتهدف إلى تمزيق أو إضعاف جيش الإمام عليه السلام.. وقد آتت كلتا الحيلتين أكلهما بمعاوضة العناصر المنافقة المتغلغلة في جيش الإمام عليه السلام وعلى رأسهم الأشعث الكندي.

كانت البداية من الحيلة الأولى ورفع المصاحف على الرماح، ودعوة الإمام إلى تحكيم القرآن، حتى أوقف القتال، أما الحيلة الثانية فكانت

قضية التحكيم التي تمّ حبكها على نحو أكثر تعقيداً، مما أدى في خاتمة المطاف إلى وقوف قطاع من خيرة جيش الإمام عليه السلام في وجهه ورفع السيف ضده.

وهذا هو السبب الذي دفع الإمام علي عليه السلام لاحقاً إلى مقاتلة أنصاره في معركة النهروان بعد أن تمادوا في ضلالهم وغيهم وفسادهم.. ولم يكن أمامه مناص في أرض معركة صفين سوى الانصياع لضغوطهم وقبول التحكيم.. وهناك قول مشهور للإمام عليه السلام في وصف حالته أثناء قبول التحكيم: «لقد كنتُ أمس أميراً، فأصبحت اليوم مأموراً! وكنتُ أمس ناهياً، فأصبحت اليوم منهيّاً!»^(١). وهو يعبر بكل وضوح عن هذا الواقع المرير.

٢.٦. الحكم المفوض من قبل أهل العراق

وهنا التعقيد ذاته، وهنا العجب العجاب ممن يظن أن أبا موسى ناطقاً باسم أمير المؤمنين عليه السلام فالرجل كان ناطقاً باسم المنافقين من العراقيين فقط.. وعليه؛ فلماذا أبو موسى الأشعري بالذات؟

فعن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام قال: لما أراد الناس علياً على أن يضع حكمين قال لهم علي عليه السلام: إن معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحداً هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص، وإنه لا يصلح للقرشي إلا مثله، فعليكم بعبد الله بن عباس فارموه به، فإن عمراً لا يعقد عقدة إلا حلها عبد الله، ولا يحل عقدة إلا عقدها، ولا يبرم أمراً إلا نقضه، ولا ينقض أمراً إلا أبرمه.

فقال الأشعث: لا والله لا يحكم فيها مضريان حتى تقوم الساعة،

(١) شرح النهج: ج ١١/ ٢٩، الفتوح: ج ٣/ ١٨٦.

ولكن أجعله رجلاً من أهل اليمن إذ جعلوا رجلاً من مضر.

فقال علي عليه السلام: إني أخاف أن يخدع يمينكم، فإن عمرا ليس من الله في شيء إذا كان له في أمر هوى.

فقال الأشعث: والله لأن يحكما ببعض ما نكره، وأحدهما من أهل اليمن، أحب إلينا من أن يكون بعض ما نحب في حكمهما وهما مضريان.

وتفيدنا الوثائق التاريخية أن أبا موسى الأشعري كان رجلاً منافقاً؛ فقد نسب إلى حذيفة بن اليمان العالم بأسماء المنافقين، وعمار بن ياسر القول بذلك.

وهو بالحقيقة كان ممن تأمروا على رسول الله ﷺ ليلة العقبة لينفروا به دابته..فنفاقه قديم وعداؤه لأهل البيت عليهم السلام مستحكم وأكبر دليل على عدائه لأمير المؤمنين عليه السلام موقفه منه في الكوفة حيث كان يثبّطهم عن القتال بكل ما أوتي من قوة بالمكر والنفاق والدجل..

كما أنه من المسلم به أنه كان رجلاً ساذجاً ومغفلاً، وكان مناهضاً لسياسة الإمام علي عليه السلام في التصدي الحاسم لمثيري الفتنة الداخلية. وهنا يتبادر إلى الأذهان هذا السؤال وهو: لماذا عيّن الإمام عليه السلام شخصاً ساذجاً له كهذا، مندوباً عنه في أمر التحكيم؟ ألم يعلم بما ستكون عليه نتيجة التحكيم فيما لو دخل أبو موسى فيه؟

والجواب هو: نعم، إن الإمام كان يعلم بالنتيجة؛ فقد ذكر عبد الله بن أبي رافع كاتب الإمام علي عليه السلام بأن أبا موسى عندما أراد المسير إلى التحكيم، قال أمير المؤمنين عليه السلام: كأني به وقد خدع!، غير أن الضغوط التي أرغمت الإمام عليه السلام على قبول التحكيم هي نفسها التي

أرغمته على إرسال أبي موسى ممثلاً عنه لأن الأشعث لم يقبل إلا به شخصياً وبالتحديد..

لأنه معلوماً أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حاول أن يبعث عبد الله بن عباس، أو مالكا الأشر حكماً، أو الأحنف بن قيس، إلا أن محاولاته لم تجد نفعاً! فقال عليه السلام: إنكم عصيتموني في أول الأمر؛ فلا تعصوني الآن! إنني لا أرى أن أولي أبا موسى.

فقال الأشعث، وزيد بن الحصين الطائي ومسرر بن فذكي: لا نرضى إلا به؛ فإنه ما كان يحذرنا منه وقعنا فيه!

فقال علي عليه السلام: فإنه ليس لي به ثقة؛ قد فارقتني وخذل الناس عني، ثم هرب مني حتى أنسته بعد شهر.

ولكن لم يستطع الإمام أن يثنيهم عن رأيهم، فقال لهم في نهاية الأمر: فاصنعوا ما أردتم!^(١)

٣.٦ موضوع التحكيم

ولنتطلع الآن في موضوع التحكيم، وما الذي يجب أن يحكم فيه الحكماء؟ فلا نلاحظ في وثيقة التحكيم ما يشير إلى موضوع التحكيم، ولا إلى واجبات وصلاحيات الحكمين، وإنما اشتملت على واجب عام للحكمين وهو «أن ينزل الحكماء عند حكم القرآن، وما لم يجدها مسمى في الكتاب رداه إلى سنة رسول الله».

فلم يرد في نص الوثيقة ما يشير إلى موضوع التحكيم قط، أو أنه يعني بالنظر في أمر قتلة عثمان؛ كما أشار البعض إلى «أن الذي يستشف

(١) مرت المصادر من قبل فراجع.

من كتب وكلمات معاوية أن ما فوض إلى الحكمين هو النظر في أمر قتلة عثمان، وهل كانوا محقين في عملهم أم لا؟»

أو هل كان موضوع التحكيم واضحاً بحيث لم تكن هناك ضرورة لإدراجه في نص الوثيقة؟ أم يحتمل أن موضوع التحكيم كان موجوداً في الوثيقة، إلا أنه حُذف أو حُرِّف لاحقاً؟ والذي يبدو أن تحريف نص الوثيقة كان أمراً مستبعداً، وكذلك لو كان موضوع التحكيم يختص بقتلة عثمان لأشير إليه في نص الوثيقة.. وما جاء في كلام الإمام أو في رسائله إلى معاوية لا يكشف عن أن مسألة قتلة عثمان كان أحد مواضيع التحكيم، ويظهر أن موضوع التحكيم يختص بحلّ اختلافات الجانبين، ولا توجد حاجة لتعيينه؛ فقد يكون الاختلاف تارة حول مسائل الزواج، كما جاء في الآية (٣٥) من سورة النساء، أو مسائل سياسية، كما وقع في معركة صفين، أو مسائل أخرى.

وفي كل الحالات يجب على الحكمين البت في جميع المسائل المختلف عليها بين الفريقين المتنازعين، وتوفير أجواء المصالحة بينهما.. ومعنى هذا الكلام عدم تخصيص موضوع الحكمية في معركة صفين بمسألة قتلة عثمان، وإنما كان يشمل جميع الأمور المتنازع عليها بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية.

وهذا هو السبب الذي جعل الوثيقة خالية من ذكر أي موضوع خاص، إلا أن هذا المعنى لم يكن يشمل تعيين الخليفة، وإنما كان واجب الحكمين البت في تنازع جيش الكوفة والشام ووضع حد لحالة الحرب وسفك الدماء.. والحقيقة هي أن ما أعلن بوصفه رأياً نهائياً على أثر الخديعة التي حاكها عمرو بن العاص، جاء خارج موضوع التحكيم وفوق الصلاحيات المفوضة إلى الحكمين.

٤.٦. سبب انخداع جيش الإمام عليه السلام

والآن نجيل النظر في أسباب انخداع جيش الإمام علي عليه السلام؛ ولماذا لم يدركوا أو لم يريدوا أن يدركوا بأن رفع المصاحف على الرماح لم يكن إلا مكيدة أراد بها الشاميون إيقاف القتال؟ ولماذا لم يصغوا لكلام إمامهم، والناصحين من كبرائهم كالأشتر وغيره من أصحاب البصائر، وأرغموهم أخيراً على قبول التحكيم؟ وللإجابة عن هذا السؤال نقول: إنه وإن كان ثمة أفراد في جيش الإمام كانوا طوع أمره، وأرادوا أن تستمر المعركة حتى انتصار جيش الكوفة، إلا أن الوثائق التاريخية تثبت أن الأكثرية العظمى من جيش الإمام عليه السلام فالذين جاؤوا إليه مع الأشعث أكثر من عشرين ألف.. وأرادوا وقف الحرب لسببين رئيسيين هما:

أولاً: كانوا قد سئمو الحرب وملوها..

ثانياً: وكانوا يفتقدون الدوافع المحفزة على مواصلة القتال، لأنهم يعلمون حتى لو انتصروا فلن يحصلوا على أية غنائم، مثلما حدث لهم في معركة الجمل السابقة..

ولذا فعندما عرض عدي بن حاتم على الإمام عليه السلام مواصلة الحرب قائلاً: يا أمير المؤمنين، ألا نقوم حتى نموت؟ قال علي عليه السلام: «ادنه»، فدنا حتى وضع أذنه عند أنفه، فقال: ويحك! إن عامة من معي يعصيني، ومعاوية فيمن يطيعه ولا يعصيه.

نعم، لقد كان قراء الكوفة - الذين كان لهم دور أساسي في جيش الإمام - من جملة هذه الشردمة، ونظراً لمكانتهم بين أهل الكوفة، فقد أصبح لهم الدور الأكبر في صياغة هذا المشهد الأليم، وكان جهلهم وغرورهم بمثابة الغشاء الذي حال بينهم وبين إدراك الخدعة التي لجأ إليها الشاميون برفع المصاحف على الرماح لغرض إيقاف الحرب

والحيلولة دون هزيمتهم المتوقعة، وقد أدى التطرف الديني القشري - المقرون بالجهل والحماقة - بهؤلاء العُباد الجهلة إلى إرغام إمامهم (ع) على قبول التحكيم.

٥.٦. دور المنافقين

ومما دعم الموقف الساذج بل الأحق للقراء في تلك الأثناء وساهم في نجاح مكيمة معاوية لإيقاف الحرب وبث الفرقة في جيش الإمام - كما سبقت الإشارة إليه - هو موقف أولئك الذين كانوا يتعاملون مع الإمام تعاملًا منافقًا، ومن كانوا يُمنون أنفسهم بوعود معاوية، وعلى رأسهم الأشعث بن قيس..

فالأشعث بن قيس من قبيلة كندة التي كانت تقطن جنوب الجزيرة العربية (اليمن)، وقد وفد على الرسول ﷺ مع جماعة من قومه في السنة العاشرة للهجرة، وأسلم، ثم ارتد بعد وفاة الرسول ﷺ، فبعث أبو بكر جيشًا لقتاله، وأسر واقتيد مكبلاً بالأغلال إلى المدينة، فعفا عنه أبو بكر وزوجه أخته!! وبعد مقتل عثمان بايع علياً رضي الله عنه من قومه كما مر معنا من قبل، بيد أنه لم يكن يتعامل معه بإخلاص؛ فمواقفه إزاء الإمام وخاصة فيما يتعلق بالتحكيم، وبث الفرقة بين صفوف جيش الإمام رضي الله عنه، تشير إلى أنه تحوّل إلى واحد من العناصر المندسة في جيش الإمام لصالح معاوية.

إلا أن الإمام علي رضي الله عنه لم يكن قادراً على البت في أمره؛ بسبب مكانته الاجتماعية وضخامة قبيلته التي كان لها دور مؤثر في جيش الكوفة.

٦.٦. الحكمة من عدم اغتنام الفرصة بعد توبة الخوارج

وتوقفت المعركة على أثر المكيدة التي ابتكرها عمرو بن العاص. ولكن ما لبث قراء الكوفة أن انتبهوا إلى أنهم قد انطلت عليهم الخدعة، وأنهم قد أخطؤوا في حمل الإمام على قبول التحكيم. فجاؤوا إليه وأعربوا عن خطأ موقفهم، وتوبتهم مما كان منهم، وأنه هو الآخر قد أخطأ في قبول رأيهم، ويجب أن يتوب أيضاً! واعتبروا الوثيقة التي صيغت على أساس المكيدة فاقدة لأية قيمة، ولابد من نقضها واستئناف الحرب.. إلا أن الإمام رفض قبول هذه الاقتراحات، وانتهى ذلك الرفض إلى انشقاق القراء عن الإمام ووقوع معركة النهروان.

والسؤال الأساسي الأخير فيما يخص أمر التحكيم هو: لماذا رفض الإمام اقتراح القراء بنقض الوثيقة ومعاودة القتال؟ ألم يكن يعلم بما سيؤول إليه رفض تلك المقترحات؟ وما هي الحكمة الكامنة وراء عدم اغتنام الإمام لتلك الفرصة الذهبية لإنهاء فتنة القاسطين، وتوقي وقوع فتنة المارقين؟

وجواب هذا السؤال: هو أن استجابة الإمام لتلك المقترحات تنطوي على ثلاثة أخطاء سياسية ودينية كبرى لم يكن الإمام عليه السلام على استعداد لاقترافها، وهي:

أ. الاعتراف بخطأ القيادة: كان الطلب الأول للخوارج أن يعترف الإمام علي عليه السلام بأنه قد أخطأ فيما يخص القبول بأمر التحكيم، غير أن الإمام لم يكن على استعداد للإعلان عن ارتكابه لأي خطأ؛ وذلك لأن القبول بالتحكيم لحل الاختلافات لا يُعدُّ تصرفاً خاطئاً، بل هو أمرٌ مُحبذٌ يؤيده القرآن.

والمؤاخذه الوحيدة في هذا السياق هي أن التحكيم في هذه الواقعة جاء خلافاً للحكمة والسياسة التي أعلنها الإمام علي عليه السلام صراحة، لكنهم هم الذين استنكروا منه ذلك الموقف وأملوا عليه وعلى جيش الكوفة الرضوخ للتحكيم.. وفضلاً عن ذلك، فإن الإمام كان يميل إلى الاستقالة على نحو يرضي الخوارج، غير أن الأشعث لم يقبل وأصرَّ على أن يعترف الإمام عليه السلام بالخطأ على نحو يسيء إلى مكانته بوصفه قائداً دينياً مسدداً ومؤيداً من الباري تعالى.

ب. نقض العهد: ولو افترضنا أن الإمام علي عليه السلام قد اعترف بالخطأ؛ فإن الخوارج كان لديهم طلب آخر؛ وهو نقض الوثيقة بين جيش الشام والكوفة.. بينما كان الإمام يرى أن التمسك بالمواثيق يُعدُّ واحداً من المبادئ الدولية في الإسلام، ولا ينبغي أن ينقض المواثيق تحت أية ذريعة كانت.

ويروى أن أمير المؤمنين عليه السلام بعد ما كتب الصحيفة بالموادعة والتحكيم وقد اختلف أهل العراق على ذلك، فقال لهم: والله ما رضيت ولا أحببت أن ترضوا، فإذا أبيتم إلا أن ترضوا فقد رضيت وإذا رضيت فلا يصلح الرجوع بعد الرضا ولا التبديل بعد الإقرار، إلا أن يعصى الله بنقض العهد ويتعدى كتابه بحل العقد فقاتلوا حينئذ من ترك أمر الله..^(١)

وجاءت عصابة من القراء قد سلوا سيوفهم واضعيتها على عواتقهم فقالوا: يا أمير المؤمنين، ما تنتظر بهؤلاء القوم أن نمشي إليهم بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم بالحق. فقال لهم علي عليه السلام: قد جعلنا حكم القرآن بيننا وبينهم، ولا يحل قتالهم حتى ننظر بم يحكم القرآن.

وهو الذي كتب في عهده إلى مالك الأشتر قائلاً: «وإن عقدت بينك

(١) (الأرشاد للمفيد، فصل (٣٦))

وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة، فحط عهدك بالوفاء، وارع ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت؛ فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعا، مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم، من تعظيم الوفاء بالعهود. وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استوبلوا من عواقب الغدر؛ فلا تغدرن بذمتك، ولا تخيسن بعهدك، ولا تختلن عدوك؛ فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقي. وقد جعل الله عهده وذمته أمنا أفضاه بين العباد برحمته، وحريما يسكنون إلى منعته، ويستفيضون إلى جواره؛ فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه..

فإذا كان الإمام علي عليه السلام ينقض هذا المبدأ الإسلامي الأساسي، فما عسانا أن نتوقع من غيره!

ج. خطورة تسلط الجهالة المتنسكين: إن خطر تسلط الجهالة المتنسكين - في منظار الإمام عليه السلام - لا يقل عن خطر العلماء الفاسقين - فالاعتراف بالخطأ، ونقض العهد في أمر التحكيم، كان يعني انصياع الإمام علي عليه السلام لتسلط الجهالة المتنسكين، المصابين بمرض العُجب وحب الدنيا والتطرف الديني لدى من اشتهروا باسم «القراء»..

فخطرهم على نفسه الشريفة، وعلى الأمة الإسلامية، بحيث أنه فوض إليهم القرارات الأساسية في الحرب والسلام، ومن بعدهما في جميع الأمور المهمة والحساسة، وهذا ليس بالأمر الذي يمكن أن يتقبله أو يستسيغه قائد الأمة الإسلامية.. وهذا ما جعل الإمام عليه السلام يقاوم طلباتهم بكل قوة، ويقول: أنا فقأت عين الفتنة، ولم يكن ليجتري عليها أحد غيري..

٧. خيمة التحكيم الكارثة

وقبل أن نلقي الضوء على أحداث ما بعد التحكيم، علينا أن ننظر في الأحداث منذ أن رفعت المصاحف لنرى كيف كانت حركة أمير المؤمنين عليه السلام، ولقد ذكرنا أن الإمام كان يعلم أنه مقتول وأن معاوية سيمتلك ما تحت قدمه من تراب، وعلى الرغم من هذا فإن الإمام ومن معه كانوا يأخذون بأسباب الحياة الكريمة، وكانوا يواجهون الانحراف الذي أخبر به النبي ﷺ، من أجل أن يتنفس المستقبل الحرية الحقيقية وهو يخطو في اتجاه أهدافه.. وحركة أمير المؤمنين عليه السلام في مواجهة هذه الأحداث، كانت حركة الحجة على جيل الصحابة الأوائل، والتابعين لهم، وعلى الأمة إلى يوم الدين.. لأن الشذوذ إذا تسرب من أرضية الصحابة إلى المستقبل فلن يكون في هذه الحالة شذوذاً، وإنما سيكتسب الشذوذ رداء القداسة والشرعية وعلى هذا لا يمكن نقده، ثم تعبر الفتن على هذه القواعد في هدوء وسكينة وعليها علامات التزيين والإغواء، لتدخل إلى عالم الاحتناك والاستسلام.

وحركة الإمام بعد عملية رفع المصاحف كانت تدور حول الرفض، ولكن القوم هددوه إذ لم يقبل التحكيم فسيترتب على ذلك أمور شنيعة.. ثم اختار القوم أبو موسى الأشعري العدو العنيد، ورفض الإمام هذا الاختيار كذلك، ولكنهم أجازوا عليه حتى قبل مضطراً، وهكذا كان الإمام حجة على معسكره برفض خياراتهم، وبدخول عمرو بن العاص وكتابة صحيفة الاتفاق بين أهل الشام وأهل العراق كان الإمام حجة على المعسكرين.. وبصدور قرارات التحكيم كان الإمام حجة على الأمة الإسلامية بأسرها..

وحجج الإمام على الجميع تستند على حقيقة واحدة هي أصل

الحقائق كلها «إحياء ما أحيا القرآن وإماتة ما أمات القرآن»، ولهذه الحقيقة حقيقة سابقة أقرها الرسول الأعظم ﷺ بقوله للإمام علي عليه السلام: علي مع القرآن، والقرآن مع علي يدور معه كيف دار..

وقوله ﷺ: علي مع الحق والحق مع علي لا يفترقان..

وقوله ﷺ لعمار: لو سلك الناس كلهم في واد وسلك علي في واد فاسلك وادي علي لأنه لن يخرجك من هدى ولن يردك في ردى.. حقائق ناصعة، وبراهين واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار لذي عينين لو كانوا يريدون الحق والقرآن ووجه الله في هذه الحياة، إلا أنهم أرادوا السلطان وبريقه، والأموال ولمعانها، وتركوا الله ورسالته ورسوله ودينه وأهله وهم الورثة والخزان للعلم والفقه والدين بكل تفاصيله وتشريعاته ففاز أولئك (بني أمية وأذنبهم) بالدنيا ولكن خسرت الأمة الدين كله، وتلك هي الطامة الكبرى..

فعندما خرج أمير المؤمنين عليه السلام للقتال بعد بيعته النورانية الشرعية تحرك على محور هذه الحقائق ولم يغادرها لحظة واحدة.. ولكنه عندما رفع أهل الشام المصاحف خدعة ومكيدة، رفض خدعتهم وحذر من كيدهم، لأنها كانت تستهدف هذه الحقائق بالذات..

ولذا تراه (ع) وصف رؤوسهم بأنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، فالدين والقرآن عنده هو فهو القرآن الناطق كما بين وقال لهم في أيام صفين ذاتها.. ورغم ذلك فعندما جاء عمرو وأبو موسى للاتفاق على التحكيم قال لهما: «إن لم تحكما بما في كتاب الله فلا حكومة لكما».

لقد كان يأخذ الجميع إلى ساحة القرآن، ويضع في أعناقهم أعظم حجة منذ ذرأ الله ذرية آدم (ع)، وهذا في رأينا أعظم انتصار لأمر

المؤمنين، وإمام المتقين، ويعسوب الدين، وقائد الغر المحجلين(ع)، وصحيح أن خصومه قد بسطوا أيديهم على التراب، ولكن وبالتأكيد لن يروا لهذا التراب أي فائدة إذا لم ينتسب إلى أبيه الحقيقي (أبو تراب) كما سماه به رسول الله ﷺ يوماً.. يوم يقف التابع والمتبوع أمام عظمة الله جل وعلا.

وبعد التحكيم الذي كان الإمام يعلم نتيجه بعلمه الغابر والمزبور، وذلك وفقاً لإخبار النبي ﷺ، بدأ الإمام علي عليه السلام يحث الناس على القتال. ولم يحثهم على قتال الحكمين، وإنما على قتال البغاة، فالحكمين سقط حكمهما عند الإمام بمجرد إعلانه لأنه اشترط؛ إذا لم يحكما بكتاب الله فلا حكومة لهما. لقد حث الجميع على قتال القاسطين بعد أن تمت مهمته في إقامة حجته ليس على أفراد بعينهم وأقوام بعينهم بل على الجميع تمت له الحجة.

وكان له رغبة في أن يلتقي بهم أمام الله وحده، وعندما ساق الله إليه الأحداث والتقى بهم، وضعهم في دائرة القرآن وحده هو الحكم فيها.. ثم جلس بعد ذلك ينادي معسكره كي يأخذ بالأسباب كما أخذ بها عمار وابن صوحان وابن بديل وابن عامر وأويس القرني وغيرهم.. وكان يُحذّر قائلاً: إلا أن أخوف الفتن عليكم فتنة بني أمية.. كان يريد منهم أن يطفئوا بريقها، ولكن تقاعس منهم من تقاعس، وفي جميع الحالات فالحجة على رأس هذا وذاك قائمة..^(١)

(١) (معالم الفتن ٢٠/٢٠١ بتصرف)

٨. كلمات ووصايا

وعن أبي رافع: لما أحضرني أمير المؤمنين عليه السلام وقد وجه أبا موسى الأشعري فقال له: احكم بكتاب الله ولا تجاوزه، فلما أدبر قال: كأني به وقد خُذع.

قلت: يا أمير المؤمنين! فلمَ توجهه وأنت تعلم أنه مخدوع؟
فقال عليه السلام: يا بني، لو عمل الله في خلقه بعلمه ما احتج عليهم بالرسول..^(١)

٩. نصيحة الإمام لعمر بن العاص

عن شقيق بن سلمة: كتب الإمام علي عليه السلام إلى عمرو بن العاص يعظه ويرشده: أما بعد؛ فإن الدنيا مشغلة عن غيرها، ولم يصب صاحبها منها شيئاً إلا فتحت له حرصاً يزيده فيها رغبة، ولن يستغني صاحبها بما نال عما لم يبلغه، ومن وراء ذلك فراق ما جمع، والسعيد من وعظ بغيره؛ فلا تحبط - أبا عبد الله - أجرك، ولا تجار معاوية في باطله.

فأجابه عمرو بن العاص: أما بعد؛ فإن ما فيه صلاحنا وألفتنا الإنابة إلى الحق، وقد جعلنا القرآن حكماً بيننا، فأجبنا إليه. وصبر الرجل منا نفسه على ما حكم عليه القرآن، وعذره الناس بعد المحاجزة. والسلام.

فكتب إليه الإمام علي عليه السلام: أما بعد فإن الذي أعجبك من الدنيا مما نازعتك إليه نفسك ووثقت به منها لمنقلب عنك، ومفارق لك؛ فلا تطمئن إلى الدنيا؛ فإنها غرارة.. ولو اعتبرت بما مضى لحفظت ما بقي، وانتفعت بما وعظت به. والسلام.

(١) (الطرائف لابن طاووس: ص ٥١١)

فأجابه عمرو: أما بعد؛ فقد أنصف من جعل القرآن إماماً، ودعا الناس إلى أحكامه.. فاصبر أبا حسن، وأنا غير منيلك إلا ما أنالك القرآن..^(١)

١٠. وصية ابن عباس لأبي موسى

وفي سنة ثمان وثلاثين كان التقاء الحكمين بدومة الجندل وقيل بغيرها، وبعث الإمام علي عليه السلام بعبد الله بن العباس، وشريح بن هاني الهمداني في أربعمئة رجل فيهم أبو موسى الأشعري، وبعث معاوية بعمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن السمط في أربعمئة، فلما تدانى القوم من الموضع الذي كان فيه الاجتماع قال ابن عباس لأبي موسى: إن علياً لم يرَضَ بك حكماً لفضل عندك، والمتقدمون عليك كثير، وإن الناس أبوا غيرك، وإنني لأظن ذلك لشرياد بهم، وقد ضَمَّ داهية العرب معك..

إن نسيت فلا تنس أن علياً بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة، وليس في معاوية خصلة تقربه من الخلافة..^(٢)

وفي شرح نهج البلاغة يقول: لما أجمع أهل العراق على طلب أبي موسى، وأحضروه للتحكيم على كره من علي عليه السلام، أتاه عبد الله بن العباس، وعنده وجوه الناس وأشرافهم، فقال له: يا أبا موسى! إن الناس لم يرضوا بك، ولم يجتمعوا عليك لفضل لا تشارك فيه، وما أكثر أشباهك من المهاجرين والأنصار والمتقدمين قبلك، ولكن أهل العراق

(١) ((وقعة صفين: ص ٤٩٨))

(٢) (مروج الذهب: ج ٢/ ٤٠٦)

أبوا إلا أن يكون الحكم يمانيا، ورأوا أن معظم أهل الشام يمان، وإيم الله إني لأظن ذلك شرا لك ولنا؛ فإنه قد ضم إليك داهية العرب، وليس في معاوية خلة يستحق بها الخلافة، فإن تقذف بحقك على باطله تدرك حاجتك منه، وإن يطمع باطله في حقك يدرك حاجته منك.

واعلم يا أبا موسى أن معاوية طليق الإسلام، وإن أباه رأس الأحزاب، وأنه يدعي الخلافة من غير مشورة ولا بيعة؛ فإن زعم لك أن عمر وعثمان استعملاه فلقد صدق؛ استعمله عمر؛ وهو الوالي عليه بمنزلة الطبيب يحميه ما يشتهي، ويوجره ما يكره، ثم استعمله عثمان برأي عمر، وما أكثر من استعملا ممن لم يدع الخلافة. واعلم أن لعمر مع كل شيء يسرك خبيثا يسوءك ومهما نسيت فلا تنس أن عليا بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وإنها بيعة هدى وأنه لم يقاتل إلا العاصين والناكثين..^(١)

١١. وصية شريح بن هاني لأبي موسى

ولما أراد أبو موسى المسير قام شريح، فأخذ بيد أبي موسى، فقال: يا أبا موسى! إنك قد نصبت لأمر عظيم لا يجبر صدعه، ولا يستقال فتقه، ومهما تقل شيئا لك أو عليك يثبت حقه وير صحته وإن كان باطلا. وإنه لا بقاء لأهل العراق إن ملكها معاوية، ولا بأس على أهل الشام إن ملكها علي عليه السلام.. وقد كانت منك تثبيطة أيام قدمت الكوفة؛ فإن تشفعها بمثلها يكن الظن بك يقينا، والرجاء منك يأسا، وقال شريح في ذلك:

(١) (شرح نهج البلاغة: ج ٢/ ٢٤٦، البحار: ج ٣٣/ ٢٩٨)

أبا موسى رميت بشر خصم
 فلا تضع العراق فدتك نفسي!
 وأعط الحق شامهم وخذه
 فإن اليوم في مهل كأمس
 وإن غدا يجيء بما عليه
 يدور الأمر من سعد ونحس
 ولا يخدعك عمرو إن عمرا
 عدو الله مطلع كل شمس
 له خدع يحار العقل فيها
 مموهة مزخرفة بلبس
 فلا تجعل معاوية بن حرب
 كشيخ في الحوادث غير نكس
 هداه الله للإسلام فردا سوى
 بنت النبي، وأي عرس

فقال أبو موسى: ما ينبغي لقوم اتهموني أن يرسلوني لأدفع عنهم
 باطلاً أو أجرٍ إليهم حقاً..

وسار مع عمرو بن العاص شرحبيل بن السمط الكندي في خيل
 عظيمة، حتى إذا أمن عليه خيل أهل العراق ودَّعه، ثم قال: يا عمرو!
 إنك رجل قريش، وإن معاوية لم يبعثك إلا ثقة بك، وإنك لن تؤتى من
 عجز ولا مكيدة، وقد عرفت أن وطأت هذا الأمر لك ولصاحبك، فكن
 عند ظننا بك. ثم انصرف، وانصرف شريح بن هانئ حين أمن أهل الشام
 على أبي موسى، وودعه هو ووجوه الناس^(١)..

(١) (وقعة صفين: ص ٥٣٤، الفتوح: ج ٢٠٧/٤)

١٢. وصية الأحنف بن قيس لأبي موسى

كان آخر من ودّع أبا موسى الأحنف بن قيس، أخذ بيده ثم قال له: يا أبا موسى! أعرف خطب هذا الأمر، واعلم أن له ما بعده، وأنتك إن أضعت العراق فلا عراق.. فاتق الله؛ فإنها تجمع لك دنياك وآخرتك، وإذا لقيت عمرا غدا فلا تبدأه بالسلام؛ فإنها وإن كانت سنة إلا أنه ليس من أهلها، ولا تعطه يدك؛ فإنها أمانة، وإياك أن يقعدك على صدر الفراش؛ فإنها خدعة، ولا تلقه وحده، واحذر أن يكلمك في بيت فيه مخدع تخبأ فيه الرجال والشهود.

ثم أراد أن يبور (يختبر) ما في نفسه لعلّي عليه السلام فقال له: فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلي فخيرّه أن يختار أهل العراق من قريش الشام من شائوا؛ فإنهم يولونا الخيار؛ فنختار من نريد، وإن أبوا فليختر أهل الشام من قريش العراق من شائوا، فإن فعلوا كان الأمر فينا..

قال أبو موسى: قد سمعت ما قلت، ولم يتحاش لقول الأحنف.

قال: فرجع الأحنف فأتى علياً عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين! أخرج والله أبو موسى زبدة سقائه في أول مخضه، لا أرانا إلا بعثنا رجلاً لا ينكر خلعتك.

فقال علي عليه السلام: يا أحنف! إن الله غالب على أمره.

قال: فمن ذلك نجزع يا أمير المؤمنين. وفشا أمر الأحنف وأبي موسى في الناس..^(١)

(١) (وقعة صفين عن الجرجاني: ص ٥٣٦، الفتوح: ج ٤/ ٢٠٨)

١٣. وصية معاوية لعمر بن العاص

قال معاوية لعمر بن العاص: يا عمرو! إن أهل العراق قد أكرهوا علياً على أبي موسى، وأنا وأهل الشام راضون بك. وقد ضم إليك رجل طويل اللسان، قصير الرأي؛ فأجد الحز، وطبق المفصل، ولا تلقه برأيك كله..^(١)

وبعث معاوية إلى رجال من قريش من الذين كرهوا أن يعينوه في حربه: إن الحرب قد وضعت أوزارها، والتقى هذان الرجلان بدومة الجندل، فاقدموا عليّ. فأتاه عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وأبو الجهم بن حذيفة، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث الزهري، وعبد الله بن صفوان الجمحي، ورجال من قريش. وأتاه المغيرة بن شعبة؛ وكان مقيماً بالطائف لم يشهد صفين.

فقال: يا مغيرة ما ترى؟ قال: يا معاوية لو وسعني أن أنصرك لنصرتك، ولكن عليّ أن آتيك بأمر الرجلين، فركب حتى أتى دومة الجندل، فدخل على أبي موسى كأنه زائر له، فقال: يا أبا موسى، ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره الدماء؟ قال: أولئك خيار الناس، خفت ظهورهم من دمائهم، وخمست بطونهم من أموالهم، ثم أتى عمرا فقال: يا أبا عبد الله، ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر، وكره هذه الدماء؟ قال: أولئك شرار الناس؛ لم يعرفوا حقاً، ولم ينكروا باطلاً، فرجع المغيرة إلى معاوية فقال له: قد ذقت (اختبرتهم) الرجلين؛ أما عبد الله بن قيس فخالع صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد هذا الأمر، وهواه في عبد الله بن عمر، وأما عمرو فهو صاحب الذي تعرف، وقد ظن الناس أنه يرومها

(١) (البيان والتبيين: ج١/١٧٢، مروج الذهب: ج٢/٤٠٦، العقد الفريد: ج٣/٣٤٠)

لنفسه، وأنه لا يرى أنك أحق بهذا الأمر منه..^(١)

لم يكن عمرو بن العاص يمثل أي مشكلة لمعاوية لمعرفة به، وإنما الذي كان يهم معاوية هو معرفة خامات أبي موسى الأشعري، وبعد أن تذوق المغيرة الخامات وأخبر بها معاوية، بدأت السياسة الأموية تعمل من أجل الوصول إلى أهدافها.

ولكن أبو موسى الأشعري كان مشكلة حقيقية بالنسبة لأمير المؤمنين عليه السلام ولكل مخلص في جيشه، بل ولكل منصف في العقلاء لأنه عدو والعدو لا يحكم بالنفس لأن حكمه الطبيعي أن يكون على عدوه وليس له..

وتقدم الحديث عن عمرو بن العاص، فمن هو الآخر المشؤوم المسمى بأبي موسى الأشعري؟

١٤. أبو موسى الأشعري

قال ابن عبد البر: هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضارة بن حرب بن عامر بن عنز بن بكر بن عامر بن عذر بن وائل بن ناجية بن الجماهر بن الأشعر، وهو نبت بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.. وأمه امرأة من عُك (وعليك أن لا تنسى هذا الاسم وتذكر أفعال عُك في صفين، واستماتتهم بالدفاع عن معاوية) واختلف في أنه هل هو من مهاجرة الحبشة أم لا والصحيح أنه ليس منهم، ولكنه أسلم ثم رجع إلى بلاد قومه (اليمن)، فلم يزل بها حتى قَدِمَ هو وناس من الأشعريين على رسول الله ﷺ، فوافق قدومهم

(١) (وقعة صفين : ص ٥٤٠، شرح النهج : ج ٢/ ٢٥٢)

قدوم أهل السفينتين جعفر بن أبي طالب عليه السلام وأصحابه من أرض الحبشة، فوافوا رسول الله ﷺ بخير، فظن قوم أن أبا موسى قدم من الحبشة مع جعفر.

ولاه رسول الله ﷺ من مخاليف اليمن زبيد، وولاه عمر البصرة، لما عزل المغيرة عنها، فلم يزل عليها إلى صدر من خلافة عثمان فعزله عثمان عنها، وولاهما عبد الله بن عامر بن كريز، فنزل أبو موسى الكوفة حينئذ، وسكنها، فلما كره أهل الكوفة سعيد بن العاص ودفعوه عنها، ولوا أبا موسى، وكتبوا إلى عثمان يسألونه أن يوليّه، فأقرّه على الكوفة، فلما قتل عثمان (كان من قصته مع أمير المؤمنين عليه السلام ما مرّ معك سابقاً) فعزله الإمام علي عليه السلام عنها، لأنه كان يخذل أهل الكوفة عن حرب الجمل في نصرة أمير المؤمنين علي عليه السلام، ويأمرهم بوضع السلاح والكف عن القتال ويقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير ما الماشي، والماشي خير من الراكب، وقد جعلنا الله عزّ وجلّ إخوانا وحرّم علينا أموالنا ودماءنا وقال: يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ولا تقتلوا أنفسكم إن الله بكم رحيمًا. وقال عزّ وجلّ: ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم.

فغضب عمار وساءه وقام، وقال: يا أيها الناس إنما قال رسول الله له خاصّة: أنت فيها قاعداً خير منك قائماً.

فمنى ذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام فولى على الكوفة قرظة بن كعب الأنصاري، وكتب إلى أبي موسى: «اعتزل عملنا يا ابن الحائك مذموماً

مدحوراً، فما هذا أول يومنا منك، وإن لك فيها لهنات وهنات»^(١). فلم يزل واجداً (وحاقداً) لذلك على (مَنْ حبه عنوان صحيفة المؤمن) أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام، حتى جاء منه ما قال حذيفة فيه.. حيث قال عنه وقد ذكر عنده بالدين (أي أنه صاحب دين) فقال: أما أنتم فتقولون ذلك، وأما أنا فاشهد أنه عدوٌ لله ولرسوله، وحرب لهما في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار..

وكان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عارفاً بالمنافقين، أسرَّ إليه رسول الله ﷺ أمرهم، وأعلمه أسماءهم.

وروي أن عماراً سئل عن أبي موسى، فقال لقد سمعت فيه من حذيفة قولاً عظيماً، سمعته يقول: (أنه) صاحب البرنس الأسود، ثم كلح كلوحاً علمت منه أنه كان ليلة العقبة بين ذلك الرهط (الذين حاولوا اغتيال الرسول الأعظم ﷺ) وبرفقتة عمرو بن العاص وعشرة غيرهم.

وروي عن سويد بن غفلة قال كنت مع أبي موسى على شاطئ الفرات في خلافة عثمان، فروى لي خبراً عن رسول الله ﷺ، قال سمعته يقول (إن بني إسرائيل اختلفوا، فلم يزل الاختلاف بينهم، حتى بعثوا حكمين ضالين ضالا وأضلا من اتبعهما، ولا ينفك أمر أمتي حتى يبعثوا حكمين يضلان ويضلان من تبعهما)، فقلت له: احذر يا أبا موسى أن تكون أحدهما، قال فخلع قميصه، وقال: أبرأ إلى الله من ذلك، كما أبرأ من قميصي هذا.

فأما ما تعتقده المعتزلة فيه، فانا (ابن أبي الحديد) أذكر ما قاله أبو

(١) (تاريخ الطبري ٥: ١٨٧، شرح ابن أبي الحديد ٣: ٢٨٥، الكامل لابن الأثير ٣: ٩٧)

محمد بن متويه في كتاب «الكفاية» قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أما أبو موسى فإنه عظم جرمه بما فعله، وأدى ذلك إلى الضرر الذي لم يخف حاله، وكان علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقنت عليه وعلى غيره، فيقول: اللهم العن معاوية أولاً، وعمرا ثانياً، وأبا الأعور السلمي ثالثاً، وأبا موسى الأشعري رابعاً.

وكان علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذا صلى الغداة والمغرب وفرغ من الصلاة يقول: اللهم العن معاوية، وعمرا، وأبا موسى، وحبيب بن مسلمة، والضحاك بن قيس، والوليد بن عقبة، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد..

وفي الكنى والألقاب، قال: وكان أمير المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - بعد الحكومة - إذا صلى الغداة والمغرب وفرغ من الصلاة يلعن معاوية، وابن العاص، وأبا موسى، وجماعة أخرى.^(١)

وروي عنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنه كان يقول في أبي موسى صُيغ بالعلم صبغاً وسُلخ منه سلخاً.

وجاء الأحنف بن قيس التميمي داهية البصرة، فقال: يا أمير المؤمنين، إني خيَّرتك يوم الجمل أن آتيك فيمن أطاعني وأكف عنك بني سعد، فقلت كف قومك فكفى بكفك نصيراً فأقمت بأمرك.. وإن عبد الله بن قيس رجل قد حلبت أشطره فوجدته قريب القعر كليل المدية، وهو رجل يمان وقومه مع معاوية.. وإنك قد رميت بحجر الأرض.. ومن حارب الله ورسوله أنف الإسلام (أوله)، وإني قد عجمت هذا الرجل - يعني أبا موسى - وحلبت أشطره، فوجدته كليل الشفرة، قريب القعر.. وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يكون في أكفهم، ويتباعد منهم حتى يكون بمنزلة النجم منهم، فإن تجعلني حكماً فاجعَلني، وإن أبيت أن تجعلني حكماً فاجعَلني ثانياً أو ثالثاً، فإنه لا

(١) (الكنى والألقاب: ١/ ١٦٢)

يعقد عقدة إلا حللتها، ولن يحل عقدة إلا عقدتها وعقدت لك أخرى أشد منها.

فعرض أمير المؤمنين عليه السلام ذلك على الناس فأبوه، وقالوا: لا يكون إلا أبا موسى.. (لأن معاوية بن أبي سفيان هو الذي حدده للأشعث بن قيس على ما أظن، وأنه لا يرضَ حكماً إلا به دون غيره من رجال العراق الأشداء وإلا فالأشتر النخعي الذي اختاره وأول من عينه أمير المؤمنين عليه السلام رجل يمانى كذلك)..

ثم قال (ابن أبي الحديد): وأبو موسى لم يثبت في توبته ما ثبت في توبة غيره، وإن كان الشيخ أبو علي الجبائي، قد ذكر في آخر كتاب الحكمين انه جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام في مرض الحسن بن علي عليه السلام فقال له: أجبثنا عائداً، أم شامثاً..

فقال: بل عائداً.. وحدّث بحديث في فضل العيادة.

قال ابن متويه، وهذه أمانة ضعيفة في توبته.. ذكرته لك لتعلم أنه عند المعتزلة من أرباب الكبائر، وحكمه حكم أمثاله ممن واقع كبيرة ومات عليها.

قال أبو عمر بن عبد البر: واختلف في تاريخ موته، فقل سنة اثنتين وأربعين، وقل سنة أربع وأربعين، وقل سنة خمسين، وقل سنة اثنتين وخمسين. واختلف في قبره، فقل مات بمكة ودفن بها، وقل مات بالكوفة ودفن بها.^(١)

(١) (شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد - ج ١٣ - ص ٣١٣ - ٣١٦ بتصرف)

١٥. المفاوضات ونتيجة التحكيم

نتيجة التحكيم كانت: كارثة كاملة على الأمة الإسلامية.. بل كانت مصيبة عمّت وطمّت العالم أجمع حيث حُرِم من حكومة ذاك العملاق العظيم أمير المؤمنين عليه السلام..

فالمحكمين لم يقربا المشكلة بل كل واحد منهما جاء لهدف وعمل للوصول إليه دون النظر إلى كتاب الله تعالى، أو لماذا حُكِما؟

فأصل المشكلة: أن الخليفة الشرعي للأمة الإسلامية كان أمير المؤمنين علي عليه السلام بعد أن بايعه المهاجرون والأنصار وجاءتهبيعة الولايات والأمصار إلا ولاية الشام فقد تمرد فيها معاوية بن أبي سفيان ورفض البيعة اللازمة له وهو في الشام..

فالمشكلة هنا وابن أبي سفيان كان يبحث عن أسباب ليتعلق بها ليبرر التمرد المرفوض دينياً وعقلياً، ولذا مكر وغدر ليووقف الحرب بعد أن رأى سيوف الحق لامعة فوق مفرقه ولم ينفعه جيش الشام ولو صبروا لساعة واحدة كما طلب الأشر منهم..

فعمل الدهاء المركب من معاوية وعمرو بن العاص فخرجوا بسلسلة من الاجراءات هي على الشكل التالي:

نرفع المصاحف، وندعوا إلى التحكيم.. فنشتت العراقيين على أي حال قبلوا أو لم يقبلوا..

نجبر العراقيين على النزول على حكمنا الذي نختار..

ولا نقبل إلا بأبي موسى الأشعري.. فهو غب لئيم، وحاقد على أمير المؤمنين عليه السلام ووقت الرأي ليس له رأي، فكيف إذا جاء ليحكم بعده، فإنه سيحكم لهم على كل الاحتمالات..

وعليه فجاء عمرو بن العاص ليحكم لمعاوية بالخلافة، ويبرر له الطلب بدم عثمان لأنه وليه كما يدعي كذباً وزوراً وبهتاناً..

وجاء أبو موسى الأشعري ليعزل أمير المؤمنين عليه السلام الذي عزله عن ولاية الكوفة، حقداً وانتقاماً، ولكنه لا يرى بمعاوية له نصيباً منها أو ليس من أهلها فهو من الطلقاء والخلافة لا تحلُّ لهم والبديل كان صهره عبد الله بن عمر بن الخطاب..

وأبو موسى الأشعري لو حُكِمَ بأمر أمير المؤمنين علي عليه السلام دون حرب لقضى عليه بالعزل، وربما لو استطاع لحكم عليه بالقتل - والعياذ بالله - ألم يشترك بجريمة العقبة مع أصحابه من المنافقين اللعناء؟

فنتيجة التحكيم كانت معلومة لدى أمير المؤمنين عليه السلام بالعلم اللدني، وهو معروفاً لدى العقلاء بالخبرة والتجربة، وهي واضحة ولا تحتاج إلى إمعان نظر فيها، وإلا فلماذا أصر معاوية على الرجل بلسان صاحبه الأشعث بن قيس (عرف النار)؟

ولن أطيل بالتعليق، وإليك بعض الوقائع كما تذكرها الكتب الموثوقة.. فقد جاء في شرح نهج البلاغة عن أبي جناب الكلبي: إن عمراً وأبا موسى لما التقيا بدومة الجندل أخذ عمرو يُقدِّم أبا موسى في الكلام، ويقول: إنك صحبت رسول الله ﷺ قبلي، وأنت أكبر مني سنّاً، فتكلم أنت، ثم أتكلّم أنا، فجعل ذلك سنّةً وعادةً بينهما، وإنما كان مكرّاً وخديعةً واغتراراً له أن يقدّمه؛ فيبدأ بخلع علي عليه السلام، ثم يرى رأيه.

وقال ابن ديزيل: أعطاه عمرو صدر المجلس، وكان لا يتكلم قبله، وأعطاه التقدم في الصلاة، وفي الطعام لا يأكل حتى يأكل، وإذا خاطبه فإنما يخاطبه بأجل الأسماء ويقول له: يا صاحب رسول الله، حتى اطمأن

إليه وظن أنه لا يغشه..^(١)

وفي تاريخ الطبري عن الزهري: قال عمرو: يا أبا موسى، أنت على أن نسَمِّي رجلاً يلي أمر هذه الأمة؟ فسَمَّه لي؛ فإن أقدر على أن أتابعك فلك عليّ أن أتابعك، وإلا فلي عليك أن تتابعني!

قال أبو موسى: أسمى لك عبد الله بن عمر. وكان ابن عمر فيمن اعتزل(القتال).. قال عمرو: إني أسمى لك معاوية بن أبي سفيان، فلم يبرحاً مجلسهما حتى استبأ..^(٢)

وفي تاريخ الطبري عن أبي جناب الكلبي: قال أبو موسى: أما والله، لئن استطعت لأحيين اسم عمر بن الخطاب.. فقال له عمرو: إن كنت تحب بيعة ابن عمر، فما يمنعك من ابني وأنت تعرف فضله وصلاحه! فقال: إن ابنك رجل صدق، ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة..^(٣)

وفي مروج الذهب قال: دعا عمرو بصحيفة وكاتب، وكان الكاتب غلاماً لعمرو، فتقدم إليه ليبدأ به أولاً دون أبي موسى؛ لما أراد من المكر به، ثم قال له بحضرة الجماعة: اكتب؛ فإنك شاهد علينا، ولا تكتب شيئاً يأمرك به أحدنا حتى تستأمر الآخر فيه، فإذا أمرك فاكتب، وإذا نهاك فانته حتى يجتمع رأينا، اكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما تقاضى عليه فلان وفلان، فكتب وبدأ بعمرو، فقال له عمرو: لا أم لك! أنقدمني قبله كأنك جاهل بحقه؟! فبدأ باسم عبد الله

(١) (شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٥٤، ينابيع المودة: ٢/ ٢٤؛ وقعة صفين: ٥٤٤ نحوه، بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٠٠)

(٢) (تاريخ الطبري: ٥/ ٥٨، وقعة صفين: ٥٤٠)

(٣) (الأخبار الطوال: ١٩٩ نحوه؛ وقعة صفين: ٥٤١)

بن قيس، وكتب: تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

ثم قال عمرو: ونشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ عمل بكتاب الله وسنة رسول الله حتى قبضه الله إليه، وقد أدى الحق الذي عليه، قال أبو موسى: اكتب، ثم قال في عمر مثل ذلك، فقال أبو موسى: اكتب. ثم قال عمرو: واكتب: وأن عثمان ولي هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله ﷺ ورضا منهم، وأنه كان مؤمناً..

فقال أبو موسى الأشعري: ليس هذا مما قعدنا له، قال عمرو: والله لا بد من أن يكون مؤمناً أو كافراً، فقال أبو موسى: كان مؤمناً، قال عمرو: فمره يكتب قال أبو موسى: اكتب، قال عمرو: فظالماً قتل عثمان أو مظلوماً، قال أبو موسى: بل قتل مظلوماً، قال عمرو: أ فليس قد جعل الله لولي المظلوم سلطاناً يطلب بدمه؟ قال أبو موسى: نعم، قال عمرو: فهل تعلم لعثمان ولياً أولاً من معاوية؟ قال أبو موسى: لا، قال عمرو: أ فليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه؟ قال أبو موسى: بلى، قال عمرو للكاتب: اكتب، وأمره أبو موسى فكتب..

قال عمرو: فإننا نقيم البيّنة أن علياً قتل عثمان..

قال أبو موسى: هذا أمر قد حدث في الإسلام، وإنما اجتمعنا لغيره، فهلّم إلى أمر يصلح الله به أمر أمة محمد.. قال عمرو: وما هو؟ قال أبو موسى: قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبداً، وأن أهل الشام لا يحبون علياً أبداً؛ فهلّم نخلعهما جميعاً ونستخلف عبد الله بن عمر!

وكان عبد الله بن عمر على بنت أبي موسى..^(١)

وفي العقد الفريد عن أبي الحسن قال: أخلي لهما (عمرو بن العاص وأبي موسى) مكان يجتمعان فيه، فأمهله عمرو بن العاص ثلاثة أيام، ثم أقبل إليه بأنواع من الطعام يشهيه بها، حتى إذا استبطن (شبع من الأكل الحرام) أبو موسى ناجاه عمرو، فقال له: يا أبا موسى! إنك شيخ أصحاب محمد ﷺ، وذو فضلها، وذو سابقتها، وقد ترى ما وقعت فيه هذه الأمة من الفتنة العمياء التي لا بقاء معها، فهل لك أن تكون ميمون هذه الأمة؟ فيحققن الله بك دماءها؛ فإنه يقول في نفس واحدة: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَانَتْ أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(٢)

فكيف بمن أحيا أنفس هذا الخلق كله! قال له: وكيف ذلك؟

قال: تخلع أنت علي بن أبي طالب، وأخلع أنا معاوية بن أبي سفيان، ونختار لهذه الأمة رجلاً لم يحضر في شيء من الفتنة، ولم يغمس يده فيها.

قال له: ومن يكون ذلك؟ - وكان عمرو بن العاص قد فهم رأي أبي موسى في عبد الله بن عمر - فقال له: عبد الله بن عمر. فقال: إنه لكما ذكرت، ولكن كيف لي بالوثيقة منك؟ فقال له: يا أبا موسى، ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨) خذ من العهود والمواثيق حتى ترضى.. ثم لم يبق عمرو بن العاص عهداً، ولا موثقاً، ولا يميناً مؤكدةً حتى حلف بها، حتى بقي الشيخ (أبو موسى) مبهوراً، وقال له: قد أحبيت (أو أجبت)..^(٣)

(١) (مروج الذهب: ٢/ ٤٠٧)

(٢) (المائدة: ٣٢)

(٣) (العقد الفريد: ٣/ ٣٤٠)

والخلاصة نأخذها من أبي جناب الكلبي الذي قال: إن عمرا وأبا موسى حيث التقيا بدومة الجندل، أخذ عمرو يقدم أبا موسى في الكلام، يقول: إنك صاحب رسول الله ﷺ وأنت أسن مني، فتكلم وأتكلم؛ فكان عمرو قد عود أبا موسى أن يقدمه في كل شيء، والمغزى من ذلك كله أن يقدمه، فيبدأ بخلع علي عليه السلام.

قال: فنظر في أمرهما وما اجتماعا عليه، فأرادهم عمرو على معاوية فأبى، وأرادهم على ابنه فأبى، وأراد موسى عمرا على عبد الله بن عمر فأبى عليه، فقال له عمرو: خبرني ما رأيك؟ قال: رأيي أن نخلع هذين الرجلين، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا.

فقال له عمرو: فإن الرأي ما رأيته.. فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون، فقال: يا أبا موسى، أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق، فتكلم أبو موسى، فقال: إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة.

فقال عمرو: صدق وبر، يا أبا موسى! تقدم فتكلم، فتقدم أبو موسى ليتكلم، فقال له ابن عباس: ويحك! والله إنني لأظنه قد خدعك، إن كنتما قد اتفقتما على أمر؛ فقدّمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك، ثم تكلم أنت بعده؛ فإن عمرا رجلاً غادرٌ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه، فإذا قمت في الناس خالفك - وكان أبو موسى مغفلاً - فقال له: إنا قد اتفقنا.

فتقدم أبو موسى فحمد الله عز وجل وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس! إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نرَ أصلح لأمرها، ولا أَلَمَ لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه؛ وهو أن نخلع علياً ومعاوية، وتستقبل

هذه الأمة هذا الأمر؛ فيولوا منهم مَنْ أحبوا عليهم، وإني قد خلعتُ علياً ومعاوية، فاستقبلوا أمركم، وولوا عليكم مَنْ رأيتموه لهذا الأمر أهلاً.

ثم تنحى، وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه، فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن هذا (وأشار إلى أبي موسى) قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبتُ صاحبي معاوية؛ فإنه وليُّ عثمان بن عفان، والطالب بدمه، وأحقُّ الناس بمقامه.

فقال أبو موسى: ما لك لا وفقك الله! غدرت وفجرت! إنما مثلك ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾^(١).

فقال عمرو: إنما مثلك ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾^(٢).

وحمل شريح بن هانئ على عمرو فقتلته بالسوط، وحمل على شريح ابن لعمرو فضربه بالسوط، وقام الناس فحجزوا بينهم، وكان شريح بعد ذلك يقول: ما ندمتُ على شيء ندامتي على ضرب عمرو بالسوط ألا أكون ضربته بالسيف آتياً به الدهر ما أتى والتمس أهل الشام أبا موسى، فركب راحلته ولحق بمكة.

قال ابن عباس: قَبَّحَ اللهُ رأي أبي موسى! حذَّرتُه وأمرتُه بالرأي فما عقل.. فكان أبو موسى يقول: حذرني ابن عباس غدرتَ الفاسق، ولكني اطمأنتت إليه، وظننت أنه لن يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة. ثم انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية، وسلموا عليه بالخلافة، ورجع ابن عباس وشريح بن هانئ إلى علي عليه السلام وخبراه الخبر المحزن.^(٣)

(١) (الأعراف: ١٧٦)

(٢) (الجمعة: ٥) تاريخ الطبري: ٥/ ٦٨، الكامل في التاريخ: ٢/ ٣٩٦

(٣) (تاريخ الطبري: ٥/ ٧٠، الكامل في التاريخ: ٢/ ٣٩٦)

وتنادى الناس: حكمَ والله الحكمان بغير ما في الكتاب والشرط عليهما غير هذا.. وتضارب القوم بالسياط، وأخذ القوم بشعور بعض، وافترق الناس، ونادت الخوارج: كفر الحكمان، لا حكم إلا لله.^(١)

١٦. كلام الإمام (عليه السلام) لما بلغه أمر الحكمين

ولما بلغ أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام وهو بالكوفة أمر الحكمين وما جرى بينهما من التحكيم وما آلت إليه النتائج وهو يعلمها بتفاصيلها قبل عقود من حدوثها، قال: أما بعد؛ فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب، تورث الحسرة، وتعقب الندامة.. وقد كنتُ أمرتكم في هذه الحكومة أمري، ونخلت لكم مخزون رأيي، لو كان يطاع لقصير أمر (هو مثل يضرب لمن خالف ناصحه، وأصل المثل أن قصيرا كان مولى لجذيمة بن الأبرش - بعض ملوك العرب - وقد كان جذيمة قتل أبا الزباء ملكة الجزيرة، فبعثت إليه ليتزوج بها خدعة وسألته القدوم عليها، فأجابها إلى ذلك وخرج في ألف فارس وخلف باقي جنوده مع ابن أخته وقد كان قصير أشار عليه بأن لا يتوجه إليها فلم يقبل، فلما قرب الجزيرة استقبلته جنود الزباء بالعدة ولم ير منهم إكراما له، فأشار عليه قصير بالرجوع، وقال: من شأن النساء الغدر، فلم يقبل، فلما دخل عليها قتلته.. فعندها قال قصير: لا يطاع لقصير أمر.. فصار مثلاً لكل ناصح عصي^(٢)! فأبيتُم عليَّ إباء المخالفين الجُفأة، والمنابذين العُصاة، حتى ارتاب الناصح بنصحه، وضمن الزند بقدحه، فكنتُ أنا وإياكم كما قال أخو هوازن:

(١) (تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٩٠)

(٢) (بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٢٢)

أمرتكم أمري بمنعرج اللوى فلم

تستبينوا النصح إلا ضحى الغد^(١)

وهكذا انتهى التحكيم بين المسلمين؛ لقد اشترط أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام على الحكمين أن يحكما بكتاب الله ولا يتبعان الهوى ولا يدهنان. فلم يأخذا من كتاب الله إلا مثلين ضربهما الله. مثل الحمار ومثل الكلب، وضرب كل واحد منهما صاحبه بمثل. ومن أجمل ما قرأت في هذا المقام. قول الأستاذ العقاد وهو يعلق على التحكيم قال: كلب وحمار فيما حكم به على نفسيهما غاضبين. وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه.. وانتهت المأساة بهذه المهزلة؛ أو انتهت المهزلة بهذه المأساة.^(٢)

ومن أطرف الآراء التي قرأتها عن التحكيم رأي ابن كثير، فلقد قال: فقال عمرو: إن هذا قد قال ما سمعتم وأنه قد خلع صاحبه، وإنني قد خلعت كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية، فإنه ولي عثمان وهو أحق الناس بمقامه.. ثم يعلق ابن كثير على ما فعله ابن العاص فيقول: وكأن عمرو رأى أن ترك الناس بلا إمام والحالة هذه يؤدي إلى مفسدة طويلة عريضة أربى مما الناس فيه من الاختلاف، فأقر معاوية لما رأى ذلك من المصلحة، والاجتهاد يخطئ ويصيب.^(٣)

فيا لله والاجتهاد.. هذا النعمة الكبرى التي فتحها الله ورسوله على الأمة الإسلامية لتواكب العصور وتتلاءم مع الدهور فيسير الفقه مع العصر

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٣٥، بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٢٢؛ أنساب الأشراف: ٣/ ١٤٠، مروج الذهب:

٢/ ٤١٢ والإمامة والسياسة: ١/ ١٦٣

(٢) (عبرية الإمام/ العقاد ص ٨٥)

(٣) (البداية ٢٨٤/ ٧)

ليحكم الدين الأمة الإسلامية دائماً وأبداً..

هذا الباب أغلقوه علينا منذ عقود وقالوا ممنوع عليكم الاجتهاد بعد فلان وعلان.. والذي مضى عليهما ألف عام.. وجاؤوا لكل عمل عمله السلاطين والمتنفذين من الحكام ليبرروه بالاجتهاد وقالوا: المجتهد مأجور على كل حال..

فمن أين الاجتهاد لعمر بن العاص، أو لسيد معاوية ابن هند يا عقلاء الدنيا؟ ولماذا كل من مات ولم ينصب خليفة يدخل الأمة في المفسدة والمجهول إلا رسول الله ﷺ لم يوص لأحد، وليس له حتى أن يورث أخبرونا مأجورين؟

ونسأل مع الأستاذ (سعيد أيوب): يا ترى هل في هذا إقرار لفقه الكيد والمكر تحت عنوان: إن ابن العاص خاف على الأمة أن تنام ليلة واحدة بدون إمام؟ لأن من مات في هذه الليلة فستكون ميتته ميتة جاهلية أو يلقي الله تعالى بإمامة معاوية بن أبي سفيان.

فلهذا أسرع بتنصيب إمام الزمان معاوية، وهو من هو وأسرته لها فضل عظيم على الإسلام والمسلمين كما تعلم أنت وأولوا العلم من هذه الأمة (إن هذا عجب عجاب حقاً).

(وأقسم لو أن عبداً جاء إلى الله بولاية أي عبد فقير مؤمن أحب إلى الله من أن يأتيه بولاية وإمامة ابن هند الهنود لأن الرجل لم يمت على الملة أصلاً، ولم يمت حتى لبس الصليب في رقبتة..)

وإذا كان ابن كثير يرى أن ابن العاص لو لم يفعل ذلك لوصل الأمر إلى مفسدة طويلة، فابن كثير كواحد من كتاب التاريخ يعلم قبل غيره، أن الاختلاف والافتراق على امتداد التاريخ بعد صفين يعود أصله إلى ما

فعله عمرو بن العاص يوم التحكيم، ويعلم قبل غيره أن هذا التحكيم الذي رضيه من عمرو بن العاص لم يقبله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي يعدّه ابن كثير من الخلفاء الراشدين.. ولا ندري كيف لا يقبل خليفة راشد التحكيم ثم تقبله أمة ملتزمة العذر لابن العاص، على اعتبار أنه متأول مجتهد له أجر على اجتهاده كما يدّعون إلا أن يكون أجره ولاية مصر!!

فأي أجر والله ذمّ الاختلاف وابن العاص له عمود كبير في دائرة الاختلاف، ومن أنصف ما قرأت في هذا المقام، ما ذكره الدميري في حياة الحيوان، قال: روي أن معاوية عندما صار خليفة قال لأبي الأسود الدؤلي: ما كنت تصنع لو جعلك أبو تراب حكماً؟

فقال: كنت أجمع ألف رجل من المهاجرين وأولادهم، وألفاً من الأنصار وأولادهم، ثم أقول: يا معشر الحاضرين، أيما أحق بالخلافة رجل من المهاجرين أم رجل من الطلقاء؟

فلما سمع منه معاوية لعنه وطرده من مجلسه؛ وصحيح أن هذا الرأي أغضب الحاكم (الظالم وهو من باب كلمة حق أمام سلطان جائر).. لكنه فيه إنصاف ويقره العقل، وإدخال المهاجرين والأنصار طرفاً في القضية فيه روح الشورى وبُعد النظر، أما أن تترك الساحة للشعالب ويلتمس لهم الأعذار فيما بعد، فهذا من أفدح الذنوب وكبائر الأخطاء بالدين الحنيف والسياسة الحكيمة..^(١)

(١) (معالم الفتن، سعيد أيوب: ٢/ بتصرف)

المعركة الثالثة: النهروان

حرب المارقين وفتنة الخوارج

«يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»

الرسول الأعظم (ص)

الفصل الأول:

مقدمات وإرهاصات

قلنا: بأن أهم نتائج معركة صفين مصيبة التحكيم، وأبشع نتائج التحكيم فتنة المارقين والخوارج على الدين فكراً وممارسة.. فقد وصفت النصوص التاريخية والحديثية مثيري حرب النهروان بخمس صفات أساسية، هي:

١. المارقون: أول من نعتهم بهذا الاسم هو رسول الله ﷺ، وذلك أنه كان يرى بالبصيرة الإلهية بأن هذه الفئة بسبب تطرفها الديني تمرق من الدين بسرعة بحيث لا يبقى عليها أي أثر من الآثار الحقيقية للدين؛ فقال في هذا المجال: «يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية (أي يجوزونه ويخرقونه ويتعدونه كما يخرق السهم الشيء المرمي به ويخرج منه، ومنه حديث علي:» أمرت بقتال المارقين

«يعني الخوارج»^(١)

فينظر الرامي إلى سهمه، إلى نصله، إلى رصافه، فيتمارى في
الفوقه هل علق بها من الدم شيء»^(٢)

٢. الحرورية: أما سبب تسميتهم بالحرورية فقد أورد المبرد في كتابه
«الكامل» ما يلي: وكان سبب تسميتهم الحرورية أن عليا (سلام الله
عليه) لما ناظرهم - بعد مناظرة ابن عباس إياهم - كان فيما قال لهم:
«ألا تعلمون أن هؤلاء القوم لما رفعوا المصاحف قلت لكم: إن هذه
مكيدة ووهن، وأنهم لو قصدوا إلى حكم المصاحف لم يأتوني.. ثم
سألوني التحكيم، أفعلتم أنه ما كان منكم أحد أكره لذلك مني؟
قالوا: اللهم نعم.. فرجع معه منهم ألفان من حروراء، وقد كانوا
تجمعوا بها.. فقال لهم علي عليه السلام: ما نسميكم؟ ثم قال: أنتم الحرورية؛
لاجتماعكم بحروراء»^(٣)

٣. الشراة: وهذا الاسم يحمل معنيين متضادين:

أ. مأخوذ من «شرى» بمعنى «غضب وقيل في معناه: سُموا بذلك
لأنهم غضبوا ولجوا»^(٤)

ب. مأخوذ من «شرى» بمعنى «باع». وكان الخوارج يعتبرون أنفسهم

(١) (النهاية: ٤/ ٣٢٠)

(٢) (صحيح البخاري: ٦/ ٢٥٤٠ / ٦٥٣٢، صحيح مسلم: ٢/ ٧٤٣ / ١٤٧ كلاهما عن أبي سعيد،
سنن أبي داود: ٤/ ٢٤٣ / ٤٧٦٥)

(٣) (الكامل للمبرد: ٣/ ١٠٩٩، شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٧٤: بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٥٠ وراجع
مروج الذهب: ٢/ ٤٠٥) وحروراء: هي قرية بظاهر الكوفة، وقيل: موضع على ميلين منها؛ نزل
به الخوارج الذين خلفوا علي بن أبي طالب (سلام الله عليه)، فنسبوا إليها.. (معجم البلدان:
٢/ ٢٤٥)

(٤) (تاج العروس: ١٩/ ٥٦٨، لسان العرب: ١٤/ ٤٢٩)

«شراً» بهذا المعنى، بزعمهم أنهم شروا دنياهم بالآخرة، وأنهم مصداق للآية الكريمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾^(١)

وقال علي عليه السلام في رد هذه التصور الجاهل: بل إنهم مصداق لهذه الآية: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾^(١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا^(٢)

٤. الخوارج: وهذا الاسم من الأسماء المعروفة لمثيري حرب النهروان، وسموا بهذا الاسم لخروجهم عن طاعة الإمام علي عليه السلام وتمردهم على حكمه..^(٣)

٥. البغاة: مشتق من البغي بمعنى التعدي والظلم والفساد. فعندما سئل الإمام علي عليه السلام عن أصحاب النهروان: هل هم مشركون أم منافقون؟ سماهم بغاة، ولهذه التسمية جذر قرآني حيث يقول الباري تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَاقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٤)

ومما ينبغي الالتفات إليه في هذا المضممار أن الأسماء الثلاثة الأولى خاصة بأصحاب النهروان، أما لفظتي: «الخوارج» و «البغاة» فلا تختصان بهم، وإنما تشملان الناكثين والقاسطين أيضا، وكل من يتمرد على الإمام العادل.

(١) (البقرة: ٢٠٧) (تاج العروس: ١٩/ ٥٦٨، لسان العرب: ١٤/ ٤٢٩)

(٢) (الكهف: ١٠٣ و ١٠٤)

(٣) (مجمع البحرين: ١/ ٥٠٢)

(٤) (الحجرات: ٩)

١ . حكم نبوية تصفهم

رسول الله ﷺ - في الحرورية - : يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية.. (الرمية: الصيد الذي ترميه فتقصده وينفذ فيه سهمك. وقيل: هي كل دابة مرمية^(١))

عنه ﷺ: إن أقواما يتعمقون في الدين، يمرقون كما يمرق السهم من الرمية^(٢)

صحيح البخاري عن أبي سلمة وعطاء بن يسار: إنهما أتيا أبا سعيد الخدري فسألاه عن الحرورية: أسمعت النبي ﷺ؟ قال: لا أدري ما الحرورية؟ سمعت النبي ﷺ يقول: يخرج في هذه الأمة - ولم يقل منها - قوم تحقرون صلاتكم، مع صلاتهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حلوقهم أو حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية فينظر الرامي إلى سهمه، إلى نصله، إلى رص رصافه (الرصاف: عقب يلوى على مدخل النصل فيه)^(٣)، فيتمارى (تمارى: شك^(٤)) في الفوق (الفوق من السهم: موضع الوتر^(٥))، هل علق بها من الدم شيء (أراد أنه أنفذ سهمه في الرمية حتى خرج منها ولم يعلق من دمها بشيء لسرعة مروقه).^(٦)

(١) (النهاية: ٢ / ٢٦٨) (صحيح البخاري: ٦ / ٢٥٤٠ / ٦٥٣٣ عن عبد الله بن عمر، مسند ابن حنبل: ٤ / ٦٧ / ١١٢٨٥)

(٢) (مسند ابن حنبل: ٤ / ٣١٨ / ١٢٦١٥ عن أنس بن مالك، كنز العمال: ١١ / ٢٨٨ / ٣١٥٤٣)

(٣) (النهاية: ٢ / ٢٢٧)

(٤) (لسان العرب: ١٥ / ٢٧٨)

(٥) (لسان العرب: ١٠ / ٣١٩)

(٦) (لسان العرب: ٣ / ٥٠٤) (صحيح البخاري: ٦ / ٢٥٤٠ / ٦٥٣٢، صحيح مسلم: ٢ / ٧٤٣ / ١٤٧، سنن أبي داود: ٤ / ٢٤٣ / ٤٧٦٥ عن أبي سعيد وأنس بن مالك، مسند ابن حنبل: ٤ / ١٢١ / ١٢١)

صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري: إن النبي ﷺ ذكر قوما يكونون في أمته يخرجون في فرقة من الناس، سيماهم التحالق، هم شر الخلق - أو من أشر الخلق - يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق..^(١)

صحيح مسلم عن أبي ذر: قال رسول الله ﷺ: إن بعدي من أمتي - أو سيكون بعدي من أمتي - قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حلقيمهم، يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه. هم شر الخلق والخلقة^(٢)

رسول الله ﷺ: تمرق مارقة في فرقة من الناس، فيلي قتلهم أولى الطائفتين بالحق..^(٣)

عنه ﷺ: تكون في أمتي فرقتان؛ فتخرج من بينهما مارقة، يلي قتلهم أولا هم بالحق..^(٤)

عنه ﷺ: إن فرقة تخرج عند اختلاف الناس، تقتلهم أقرب الطائفتين بالحق..^(٥)

١١٧٥٩ عن أبي سعيد وكلاهما نحوه

(١) (صحيح مسلم: ٢/ ٧٤٥ / ١٤٩، مسند ابن حنبل: ٤/ ١٢ / ١١٠١٨)

(٢) (الخلق: الناس، والخلقة: البهائم، وقيل: هما بمعنى واحد، ويريد بهما: جميع الخلائق (النهاية: ٢/ ٧٠). (صحيح مسلم: ٢/ ٧٥٠ / ١٥٨، سنن ابن ماجه: ١/ ٦٠ / ١٧٠، سنن الدارمي: ٢/ ٦٦٠ / ٢٣٤٤، المعجم الكبير: ٥/ ٢٠)

(٣) (صحيح مسلم: ٢/ ٧٤٦ / ١٥٢ وص ٧٤٥ / ١٥٠، سنن أبي داود: ٤/ ٢١٧ / ٤٦٦٧، مسند ابن حنبل: ٤/ ٦٥ / ١١٢٧٥)

(٤) (صحيح مسلم: ٢/ ٧٤٦ / ١٥١، مسند ابن حنبل: ٤/ ١٥٨ / ١١٧٥٠، خصائص أمير المؤمنين للنسائي: ٣٠١ / ١٦٩ كلاهما نحوه وكلها عن أبي سعيد الخدري)

(٥) (المصنف لابن أبي شيبة: ٨ / ٧٣٧ / ٣٤)

سنن أبي داود عن أبي سعيد الخدري وأنس بن مالك عن رسول الله ﷺ: سيكون في أمتي اختلاف وفرقة، قوم يحسنون القيل ويسيوون الفعل، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، لا يرجعون حتى يرتد على فوقه، هم شر الخلق والخلقة، طوبى لمن قتلهم وقتلوه، يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه في شيء، من قاتلهم كان أولى بالله منهم. قالوا: يا رسول الله ما سيماهم؟ قال: التحليق..^(١)

رسول الله ﷺ: يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم؛ فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم يوم القيامة..^(٢)

المستدرك على الصحيحين عن أنس: إن النبي ﷺ قال: سيكون في أمتي اختلاف وفرقة، وسيجيء قوم يعجبونكم وتعجبهم أنفسهم، الذين يقتلونهم أولى بالله منهم، يحسنون القيل ويسيوون الفعل، ويدعون إلى الله وليسوا من الله في شيء، فإذا لقيتموهم فأنيموهم. (أي اقتلوهم، وهو مجاز)^(٣)

قالوا: يا رسول الله، أنعتهم لنا. قال: آيتهم الحلق، والتسبيت. يعني

(١) (سنن أبي داود: ٤/ ٢٤٣، مسند ابن حنبل: ٤/ ٤٤٦ وزاد فيه «يحقر أحدهم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم» بعد «تراقيهم»، السنن الكبرى: ٨/ ٢٩٧، المستدرك على الصحيحين: ٢/ ١٦١)

(٢) (صحيح البخاري: ٣/ ١٣٢٢، سنن أبي داود: ٤/ ٢٤٤، السنن الكبرى: ٨/ ٣٢٥، صحيح مسلم: ٢/ ٧٤٦)

(٣) (تاج العروس: ١٧/ ٧١٧)

استئصال التقصير، قال: والتسببت استئصال الشعر..^(١)

وفي مسند ابن حنبل عن سعيد بن جهمان: كنا نقاتل الخوارج وفيما عبد الله بن أبي أوفى وقد لحق له غلام بالخوارج، وهم من ذلك الشط ونحن من ذا الشط، فناديناه: أبا فيروز، أبا فيروز! ويحك! هذا مولاك عبد الله بن أبي أوفى، قال: نعم الرجل هو لو هاجر! قال: ما يقول عدو الله؟ قال: قلنا: يقول: نعم الرجل لو هاجر! قال: فقال: أ هجرة بعد هجرتي مع رسول الله ﷺ؟ ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: طوبى لمن قتلهم وقتلوه..^(٢)

وفي صحيح البخاري عن يسير بن عمرو: قلت لسهل بن حنيف: هل سمعت النبي ﷺ يقول في الخوارج شيئاً؟ قال: سمعته يقول - وأهوى بيده قبل العراق - : يخرج منه قوم يقرؤون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية..^(٣)

وفي شرح نهج البلاغة: قد تضافرت الأخبار - حتى بلغت حدّ التواتر - بما وعد الله تعالى قاتلي الخوارج من الثواب على لسان رسوله ﷺ.^(٤)

وهنا وبعد هذه الأحاديث الشريفة عن شرف الإنسانية الحبيب المصطفى ﷺ والتي يصف بها بعضاً ممن ينتسبون إلى أمة، وهم شرار خلق الله، وجرثومة الفساد فيها، ولذا تراه -روحي فداه- يأمر الأمة الإسلامية بقتلهم.

(١) (المستدرک علی الصحيحین: ٢/ ١٦٠)

(٢) (مسند ابن حنبل: ٧/ ٥٤، الطبقات الكبرى: ٤/ ٣٠١)

(٣) (صحيح البخاري: ٦/ ٢٥٤١، صحيح مسلم: ٢/ ٧٥٠، مسند ابن حنبل: ٥/ ٤١٠)

(٤) (شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٦٥)

ويصفهم لنا بسيماهم (التحليق، والتسبيت، والقشرية، والعصبية) ولا أراني بحاجة لتذكيرك - وأنت النبي اللبيب - إلى الطائفة التي تكون الأمة الإسلامية والعالم كله بنيرانها وتوسع ظهورنا بسياسات التكفير والتفسيق وهم يتصفون بذات الصفات، التي ذكرها حبيبنا المصطفى ﷺ.

ألا تراهم أنهم الذين قال عنهم أمير المؤمنين ﷺ: بعد أن أبادهم في النهروان فقال أصحابه: لقد أبيدوا وانتهت فتنهم، فقال: بل هم في أصلاب الرجال وأرحام النساء، يعرف بهم الزمان.

نعم، إنهم رعا فاسد من أنف هذه الأمة التي ابتليت بهم من ذاك الزمن الأول وما زالت كذلك إلى اليوم، وهاهم ما زالوا يحاربون الدين وأهل البيت ﷺ باسم الإسلام ورسوله الكريم ﷺ.. أما أن لنا أن نستيقظ لننمهم إلى الأبد؟

٢. السيدة عائشة تصف قاتلهم

عائشة تروي أن علياً ﷺ أفضل الأمة! فرح المسلمون بالآيات والمعجزات التي رأوها من أمير المؤمنين ﷺ في أمر الخوارج، وخاصة بمقتل حرقوص بن زهير، أو المخدج، أو ذي الخويصرة، أو ذي الثدية، أو ذي الشدوة، أو سفعة الشيطان، أو شيطان الردهة، أو شيطان الوهدة، وكلها أسماء لحرقوص الذي كانوا رووا حديثه عن النبي ﷺ وأنه وحزبه (شر الخلق والخلقة)! لكن بقي النصف الآخر من الحديث وأنه (يقتلهم خير الخلق بعدي، أو خير الخلق والخلقة وأقربهم إلى الله وسيلة)! فقد غصَّ به رواة الخلافة القرشية وتحيروا به؟! فكيف يعترفون لعلي ﷺ بأنه خير الخلق بعد رسول الله ﷺ فيدينون

السقيفة وما تعبت قريش على إشاعته من أن أبا بكر وعمر وعثمان خير الخلق بعد النبي ﷺ؟ لكنهم في نفس الوقت يحتاجون إلى هذا الحديث في شرعية قتال الخوارج، ليكون حجة لمعاوية ومن بعده في قتالهم إياهم!

ولهذا السبب، صرت تجد العجائب في مصادرهم! فبعضهم يروي الحديث، ويحذف نصفه الأخير! وبعضهم يستبدل آخره بأن النبي ﷺ، قال: (طوبى لمن قتلهم)! وبعضهم يستبدله بأن النبي ﷺ قال: (تقتلهم أقرب الطائفتين إلى الحق)! وبعضهم يبدل كلمة: خير الخلق بخيار الخلق، حتى لا تختص بعلي ﷺ! وبعضهم يروي أن النبي ﷺ وصف عبد الله بن مسعود بأنه أقرب الخلق وسيلة إلى الله! فليس هذا الوصف لعلي ﷺ، أو ليس مختصاً به! أما من يرويه كاملاً، فتراه يعمل معوله في تأويله ليفرغه من معناه!

وقد شاء الله تعالى أن تروي عائشة هذا الحديث كاملاً! وأن يكون السبب أن عمرو بن العاص كذبَ عليها فكتب لها أنه هو قتل ذا الثدية بمصر وليس علياً ﷺ! ففي شرح النهج، وفي كتاب صفين أيضاً للمدائني عن مسروق، أن عائشة قالت له لما عرفت أن علياً ﷺ قتل ذا الثدية: لعن الله عمرو بن العاص، فإنه كتب إليّ يخبرني أنه قتله بالإسكندرية! ألا أنه ليس يمنعني ما في نفسي أن أقول ما سمعته من رسول الله ﷺ يقول: يقتله خير أمتي من بعدي^(١)

وعند البزار من طريق الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت: ذكر رسول الله ﷺ الخوارج فقال: هم شرار أمتي يقتلهم خيار أمتي.. وعند الطبراني من هذا الوجه مرفوعاً: هم شر الخلق والخلقة يقتلهم خير

(١) شرح النهج: ٢ / ٢٦٨

الخلق والخليقة.^(١)

وقد نقل في شرح النهج، عن مسند أحمد، عن مسروق قال قالت لي عائشة: إنك من ولدي ومن أحبهم إلي فهل عندك علم من المخدج؟ فقلت: نعم قتله علي بن أبي طالب على نهر يقال لأعلاه تأمرا ولأسفله النهروان، بين لخافيق وطرفاء، قالت: أبغني على ذلك بينة، فأقمت رجالاً شهدوا عندها بذلك، قال: فقلت لها: سألتك بصاحب القبر ما الذي سمعت من رسول الله ﷺ فيهم؟ فقلت: نعم سمعته يقول: إنهم شر الخلق والخليقة، يقتلهم خير الخلق والخليقة، وأقربهم عند الله وسيلة^(٢)

وقال الصدوق في علل الشرائع: وهذا سعد بن أبي وقاص لما أنهى إليه أن عليا (صلوات الله عليه) قتل ذا الثدية، أخذه ما قدم وما أخر، وقلق ونزق، وقال: والله لو علمت أن ذلك كذلك لمشيت إليه ولو حبوا^(٣)

عن أبي سعيد الرقاشي: دخلت على عائشة فقالت: ما بال أبي الحسن يقتل أصحابه القراء؟! قال: قلت: يا أم المؤمنين، إنا وجدنا في القتل ذاك الثدية. قال: فشهقت أو تنفست ثم قالت: كاتم الشهادة مع شاهد الزور، سمعت رسول الله ﷺ يقول: يقتل هذه العصاة خير أمتي..^(٤)

شرح نهج البلاغة عن مسروق: إن عائشة قالت له لما عرفت أن علياً عليه السلام قتل ذا الثدية: لعن الله عمرو بن العاص! فإنه كتب إلي يخبرني

(١) فتح الباري: ٢٥٣/١٢

(٢) شرح النهج: ٢٦٧/٢

(٣) علل الشرائع: ٢٢٢/١

(٤) (السنة لابن أبي عاصم: ٥٨٥/١٣٢٧، المعجم الأوسط: ٧/٢١٠)

أنه قتله بالإسكندرية، ألا إنه ليس يمنعني ما في نفسي أن أقول ما سمعته من رسول الله ﷺ، يقول: يقتله خير أمتي من بعدي..^(١)

شرح نهج البلاغة عن مسروق: قالت لي عائشة: إنك من ولدي، ومن أحبهم إلي، فهل عندك علم من المخدج؟ فقلت: نعم، قتله علي بن أبي طالب على نهر يقال لأعلاه: تأمرا، ولأسفله: النهروان، بين لخاقيق^(٢) وطرفاء. قالت: ابغني على ذلك بينة، فأقمت رجلا شهدوا عندها بذلك. فقلت لها: سألتك بصاحب القبر، ما الذي سمعت من رسول الله ﷺ فيهم؟ فقلت: نعم، سمعته يقول: إنهم شر الخلق والخلقة، يقتلهم خير الخلق والخلقة، وأقربهم عند الله وسيلة.^(٣)

فالسيدة عائشة لم تستطع أن تخفي ما سمعته من الرسول الأعظم ﷺ بحق أولئك الشذاذ رغم كل ما في نفسها على أمير المؤمنين علي عليه السلام وما ملأ قلبها عليه من حقد وبغض.. تصرح بأنه خير الخلق والخارج أنهم شر الخلق.. وأمير المؤمنين علي عليه السلام أولى بالحق، وأنه صاحب الوسيلة الأقرب عند الله تعالى..

وعليك أن لا تنسى كذب عمرو بن العاص، ولعن السيدة الأم له.. فهذا ينفعلك بلعنه وأمثاله، والبراءة منهم إذا قال لك المتقولون: أنهم من الصحابة..

فالصحابي ليس له فضيلة ذاتية، ولا عليه جنة واقية إلا تقواه

(١) (شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٦٨؛ كشف الغمة: ١/ ١٥٨ عن أبي اليسر الأنصاري نحوه، بحار الأنوار: ٣٣/ ٣٤٠)

(٢) (اللخاقيق: واحدا لخصوق؛ وهي شقوق في الأرض (لسان العرب: ١٩/ ٢٠٥)

(٣) (شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٦٧، المناقب لابن المغازلي: ٥٦/ ٧٩؛ شرح الأخبار: ١/ ١٤١/ ٧٤، كشف الغمة: ١/ ١٥٩)

وإحترامه لمن صحبه رسول الله ﷺ ..

واما الصحابي الذي يفسق ويغدر وينافق ويفجر فإنه يستحق اللعن والبراءة منه، لأنه الصحبة تكون حجة عليه لا حجة له كما هو واضح لأصحاب البصائر من المؤمنين من أمثالك إن شاء الله..

٣. كلمات علوية تنصفهم

عن الإمام الحسين عن الإمام علي عليه السلام: أنه سئل عن أهل النهروان: أمشركين كانوا؟ قال: من الشرك فروا..

فقيل: يا أمير المؤمنين، منافقين كانوا؟ قال: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلا..

فقيل له: فما هم؟ قال: قوم بغوا علينا، فنصرنا الله عليهم..^(١)

الفتوح عن حبيب بن عاصم الأزدي قيل للإمام علي عليه السلام: يا أمير المؤمنين، هؤلاء الذين نقاتلهم، أكفار هم؟ فقال علي: من الكفر هربوا، وفيه وقعوا. قال: أم منافقون؟ فقال علي عليه السلام: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا. قال: فما هم يا أمير المؤمنين حتى أقاتلهم على بصيرة ويقين؟ فقال علي عليه السلام: هم قوم مرقوا من دين الإسلام، كما مرق السهم من الرمية؛ يقرؤون القرآن فلا يتجاوز تراقيهم، فطوبى لمن قتلهم أو قتلوه..^(٢)

المستدرک علی الصحیحین عن عامر بن واثلة: سمعت عليا عليه السلام قام فقال: سلوني قبل أن تفقدوني، ولن تسألوا بعدي مثلي. فقام ابن

(١) (الجغريات: ٢٣٤، مسند زيد: ٤١٠، السنن الكبرى: ٨ / ٣٠٢)

(٢) (الفتوح: ٤ / ٢٧٢)

الكواء فقال: من ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾^(١)؟

قال عليه السلام: منافقو قريش، قال: فمن ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾؟^(٢)

قال عليه السلام: منهم أهل حروراء..^(٣)

وفي نهج البلاغة: سمع علي عليه السلام رجلا من الحرورية يتهجّد ويقرأ، فقال: نوم على يقين خير من صلاة في شك..^(٤)

إرشاد القلوب: إنه [عليه السلام] خرج ذات ليلة من مسجد الكوفة متوجّها إلى داره وقد مضى ربع من الليل ومعه كميل بن زياد - وكان من خيار شيعة ومحبيه - فوصل في الطريق إلى باب رجل يتلو القرآن في ذلك الوقت، ويقرأ قوله تعالى: ﴿أَمَنْ هُوَ قَنِيتُ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٥)

بصوت شجي حزين، فاستحسن ذلك كميل في باطنه، وأعجبه حال الرجل من غير أن يقول شيئا، فالتفت إليه عليه السلام وقال: يا كميل، لا تعجبك طنطنة الرجل، إنه من أهل النار وسأنبئك فيما بعد، فتحير كميل لمشافهته له على ما في باطنه، وشهادته للرجل بالنار مع كونه

(١) (إبراهيم: ٢٨)

(٢) (الكهف: ١٠٤)

(٣) (المستدرک علی الصحیحین: ٢/ ٣٨٣، السنة لابن أحمد بن حنبل: ٢٧٨ نحوه)

(٤) (نهج البلاغة: الحكمة ٩٧، خصائص الأئمة (□): ٩٥ وغرر الحكم: ٩٩٥٨ وكنز العمال: ٣/

(٨٠٠

(٥) (الزمر: ٩)

في هذا الأمر، وفي تلك الحالة الحسنة ظاهرا في ذلك الوقت، فسكت كميل متعجبا متفكرا في ذلك الأمر.. ومضى مدة متطاولة إلى أن آل حال الخوارج إلى ما آل، وقاتلهم أمير المؤمنين عليه السلام، وكانوا يحفظون القرآن كما أنزل، والتفت أمير المؤمنين إلى كميل بن زياد وهو واقف بين يديه والسيف في يده يقطر دما، ورؤوس أولئك الكفرة الفجرة محلقة على الأرض، فوضع رأس السيف من رأس تلك الرؤوس، وقال: يا كميل (أمن هو قنت آناء الليل ساجدا وقائما) أي هو ذلك الشخص الذي كان يقرأ في تلك الليلة فأعجبك حاله. فقبل كميل مقدم قدميه واستغفر الله..^(١)

الإمام علي عليه السلام: إنما أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام على ما دخل فيه من الزيف والاعوجاج والشبهة والتأويل^(٢)

٤. الإمام علي عليه السلام يفخر بقتالهم

قال الإمام علي عليه السلام: قال رسول الله ﷺ: يا علي! أنت مني وأنا منك، يا علي! لولا أنت لما قوتل أهل النهر، فقلت: يا رسول الله! ومن أهل النهر؟ قال: قوم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية..^(٣)

عنه عليه السلام: أما بعد حمد الله والثناء عليه، أيها الناس! فإني فقأت عين الفتنة، ولم يكن ليجتري عليها أحد غيري بعد أن ماج غيبتها، واشتد كلبها.. (الكلب: داء معروف يصيب الكلاب، فكل من عضته

(١) (إرشاد القلوب: ٢٢٦، بحار الأنوار: ٣٣ / ٣٩٩ / ٦٢٠)

(٢) (نهج البلاغة: الخطبة ١٢٢، الاحتجاج: ١ / ٤٤٠ / ١٠٠، بحار الأنوار: ٣٣ / ٣٦٩ / ٦٠٠)

(٣) (الأُمالي للطوسي: ٢٠٠ / ٣٤١، إرشاد القلوب: ٢٥٥، كشف الغمة: ٢ / ٢٠)

أصيب به فجئ ومات إن لم يبادر بالدواء.^(١)

عنه عليه السلام: أنا فقأت عين الفتنة، ولولا أنا ما قوتل أهل النهروان، وأهل الجمل، ولولا أنني أخشى أن تتركوا العمل لأخبرتكم بالذي قضى الله عز وجل على لسان نبيكم صلوات الله عليه وآله لمن قاتلهم مبصرًا لضلالهم عارفاً بالهدى الذي نحن عليه^(٢)

وفي الغارات عن زر بن حبيش: خطب علي عليه السلام بالنهروان.. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس! أما بعد؛ أنا فقأت عين الفتنة، ولم يكن أحد ليجترأ عليها غيري.. ولو لم أك فيكم ما قوتل أصحاب الجمل، وأهل النهروان. وأيم الله، لولا أن تنكلوا، وتدعوا العمل، لحدثتكم بما قضى الله على لسان نبيكم صلوات الله عليه وآله لمن قاتلهم مبصرًا لضلالهم، عارفاً للهدى الذي نحن عليه.^(٣)

نعم، يفتخر أمير المؤمنين عليه السلام بقتالهم وقتلهم لأنه تكليف شرعي (أي أنه عبادة) من جهة، وهو تشريع ديني لقتال أمثالهم من البغاة من بعده ولولا عليه السلام لما عرفت الأمة تلك الأحكام من جهة ثانية..

ويفتخر أمير النحل عليه السلام بقتلهم لأنهم أصل الفساد في هذه الأمة وجرثومته الفاتكة، وعلى يديه المباركتين تتحقق أقوال الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله فينفذها ويقتفي أثرها، وبهذا كل الفخر بالحقيقة..

(١) (صبحي الصالح) (نهج البلاغة: الخطبة ٩٣، بحار الأنوار: ٤١ / ٣٤٨؛ ينابيع المودة: ٣ / ٤٣٣)

(٢) (خصائص أمير المؤمنين للنسائي: ٣٢٤ / ١٨٨، السنة لابن أحمد بن حنبل: ٢٧٣ / ١٤٢١، حلية الأولياء: ٤ / ١٨٦؛ الغارات: ١ / ١٦ كلها عن زر بن حبيش)

(٣) (الغارات: ١ / ٤، تاريخ اليعقوبي: ٢ / ١٩٣، كشف الغمة: ١ / ٢٤٤)

٥. نهى الإمام عليه السلام عن قتالهم بعده

في نهج البلاغة: قال عليه السلام: لا تقاتلوا الخوارج بعدي؛ فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه.^(١)

قال ابن أبي الحديد: «مراده أن الخوارج ضلوا بشبهة دخلت عليهم، وكانوا يطلبون الحق، ولهم في الجملة تمسك بالدين، ومحاماة عن عقيدة اعتقدوها، وإن أخطؤوا فيها، وأما معاوية فلم يكن يطلب الحق وإنما كان ذا باطل، لا يحامي عن اعتقاد قد بناه على شبهة، وأحواله كانت تدل على ذلك.. فإنه لم يكن من أرباب الدين، ولا ظهر عنه نسك، ولا صلاح حال، وكان مترفا يذهب مال الفيء في مآربه وتمهيد ملكه، ويصانع به عن سلطانه، وكانت أحواله كلها مؤذنة بانسلاخه عن العدالة، وإصرار على الباطل، وإذا كان كذلك لم يجز أن ينصر المسلمون سلطانه، وتحارب الخوارج عليه وإن كانوا أهل ضلال، لأنهم أحسن حالا منه، فإنهم كانوا ينهون عن المنكر، ويرون الخروج على أئمة الجور واجبا»^(٢)

قال الإمام الباقر عليه السلام: ذكرت الحرورية عند علي عليه السلام قال: إن خرجوا مع جماعة أو على إمام عادل فقاتلوهم، وإن خرجوا على إمام جائر فلا تقاتلوهم؛ فإن لهم في ذلك مقالا..

وقال عبد الله بن الحارث عن رجل من بني نضير بن معاوية: كنا عند علي فذكروا أهل النهر، فسبهم رجل فقال الإمام علي عليه السلام: لا تسبوهم، ولكن إن خرجوا على إمام عادل فقاتلوهم، وإن خرجوا على إمام جائر فلا تقاتلوهم؛ فإن لهم بذلك مقالا..

(١) نهج البلاغة الخطبة ٦١، بحار الأنوار: ٣٣ / ٤٣٤

(٢) (شرح نهج البلاغة: ٥ / ٧٨)

هنا الدين الحق، والفهم الصحيح له، وهذه هي الفتوى الصحيحة والتي تتفق مع أصول الدين الحنيف وفروعه، ولم تنبع من هوى نفسي..
وهنا الإنصاف الذي ذكرناه من قبل: فأمر المؤمنين (ع) ينهى الأمة عن قتال الخوارج - وهم الوحيدون الذين يكفرونه من هذه الأمة - من بعده لأنهم طلبوا الحق فأخطؤوه.

وينهاهم عن قتالهم إلا مع الإمام العادل: لأن لهم مقالاً معتبراً بقتال الإمام الجائر فلا يجوز قتالهم إذن..

٦. أصولهم الفاسدة

اتفق جميع المؤرخون على أن الذي بذر بذرة الخوارج وأصل غرستهم وشجرتهم الزقومية: هو حرقوص بن زهير التميمي، الذي اعترض على الرسول الأعظم ﷺ في أعقاب غزوة حنين! وبنفس الطريقة والكلمات اعترضوا على أمير المؤمنين ﷺ بعد معركة الجمل، حيث قالوا له: اعدل فكيف تحل لنا دماءهم وتحرم علينا سبيهم؟ فخصمهم بالسيدة أمهم عائشة.. وهم الذين نجم قرنهم في صفين للفتنة فكان الرجل ذاته (حرقوص) من رؤوسهم الفاسدة وأما لسانهم فكان عرف النار الأشعث..

وقد روى الجميع قصته، وعرف له أسماء منها: المُخَدَّج، وذي الخويصرة، وذي الثدية، لأن إحدى يديه كانت كثدي المرأة!

عن أبي سعيد الخدري قال: (بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً إذ أتاه ذو الخويصرة، وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله (يا محمد) اعدل! فقال: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل! قد

خَبْتُ وَخَسَرْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ!

فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه..

فقال ﷺ: دعه فإن له أصحاباً يحقّر أحداكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه وهو قدحه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم.. آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر، ويخرجون على حين فرقة من الناس!

قال أبو سعيد: فأشهد أنني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالتمس فأتي به حتى نظرت إليه على نعت النبي ﷺ الذي نعت..^(١)

وعن شريك بن شهاب قال كنت أتمنى أن ألقى رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يحدثني عن الخوارج فلقيت أبا برزة في يوم عرفة في نفر من أصحابه، فقلت يا أبا برزة حدثنا بشيء سمعته من رسول الله ﷺ يقوله في الخوارج.

قال: أحدثك بما سمعت أذناي ورأت عيناي: أتني رسول الله ﷺ بدنانير فكان يقسمها وعنده رجل أسود مطموم الشعر عليه ثوبان أبيضان بين عينيه أثر السجود، فتعرض لرسول الله ﷺ فأتاه من قبل وجهه فلم يعطه شيئاً، فأتاه من قبل يمينه فلم يعطه شيئاً، ثم أتاه من خلفه فلم يعطه شيئاً، فقال: والله يا محمد ما عدلت في القسمة منذ اليوم! فغضب

(١) (صحيح البخاري: ٤ / ١٧٩)

رسول الله ﷺ غضبا شديدا ثم قال: والله لا تجدون بعدي أحدا أعدل عليكم مني قالها ثلاثا! ثم قال: يخرج من قبل المشرق رجال كأن هذا منهم هديهم هكذا، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، لا يرجعون إليه ووضعه يده على صدره، سيماهم التحليق لا يزالون يخرجون حتى يخرج آخرهم، فإذا رأيتموهم فاقتلوهم! قالها ثلاثا، شر الخلق والخليقة، قالها ثلاثا.^(١)

وفي الإرشاد للمفيد: لما قسم رسول الله ﷺ غنائم حنين أقبل رجل طوال آدم أجنا، بين عينيه أثر السجود، فسلم ولم يخص النبي ﷺ ثم قال: قد رأيتك وما صنعت في هذه الغنائم.

قال ﷺ: وكيف رأيت؟ قال: لم أرك عدلت! فغضب رسول الله ﷺ وقال: ويلك! إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟! فقال المسلمون: ألا نقتله؟ فقال: دعوه سيكون له أتباع يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، يقتلهم الله على يد أحب الخلق إليه من بعدي.. فقتله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في من قتل يوم النهروان من الخوارج.^(٢)

ويظهر أن حرقوصاً أجاد العمل في البصرة والأهواز وكرمان، فصار له حزب وأتباع، فقد ظهروا في حرب الجمل عندما نادى منادي أمير المؤمنين عليه السلام بعد النصر: (أن لا يقتل مدبر، ولا يدفع على جريح، ولا يكشف ستر، ولا يؤخذ مال..) فقال قوم يومئذ: ما له يحلل لنا دماءهم ويحرّم علينا أموالهم؟! فيومئذ تكلمت الخوارج! وكان متكلمهم رجل اسمه عباد بن قيس، قال: يا أمير المؤمنين والله ما قسّمت بالسوية، ولا

(١) (مجمع الزوائد : ٦ / ٢٢٨، فتح الباري : ١٢ / ٢٥٣)

(٢) (الإرشاد للشيخ المفيد : ١ / ١٤٨)

عدلت بالرية! فقال: ولم ويحك؟! قال: لأنك قسمت ما في العسكر وتركت الأموال والنساء والذرية.

فقال: أيها الناس من كانت به جراحة فليداوها بالسمن! (أي أعرض عنه، وعلم المسلمين مداواة الجراحة)، فقال عباد: جئنا نطلب غنائمنا فجاءنا بالترهات! فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: إن كنت كاذبا فلا أماتك الله حتى يدركك غلام ثقيف.. يا أخا بكر أنت أمرؤ ضعيف الرأي، أو ما علمت أنا لا نأخذ الصغير بذنب الكبير، وأن الأموال كانت لهم قبل الفرقة، وتزوجوا على رشدة، وولدوا على فطرة، وإنما لكم ما حوى عسكرهم، وما كان في دورهم فهو ميراث، فإن عدا أحد منهم أخذناه بذنبه، وإن كف عنا لم نحمل عليه ذنب غيره.. فمهلا، مهلا رحمكم الله، فإن لم تصدقوني وأكثرتم عليّ، وذلك أنه تكلم في هذا غير واحد، فأياكم يأخذ عائشة بسهمه؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين أصبت وأخطأنا وعلمت وجهلنا، فنحن نستغفر الله تعالى!

لكن حرقوصاً، وعباداً، ومسعر بن فدكي، وعبد الله بن وهب الراسبي، وغيرهم من قيادات الخوارج، لم يقتنعوا! وواصلوا عملهم في نشر أفكارهم ووجدوا أتباعاً على شاكلتهم، وكثروا في البصرة والكوفة والأهواز ومناطق أخرى، يحملون أفكارهم العنيفة التي تكفر من خالفهم، ثم وصلوا إلى تكفير أنفسهم! وكانت صفين فرصة لهم لإعلان وجودهم كطائفة لها قاداتها وجنودها ومنطقها الخشن، وميلها الدائم إلى القتال وإثبات الذات! وكانوا الجمهور الذين لعب بعقولهم الأشعث بن قيس في صفين ودفعهم إلى مواجهة الإمام علي عليه السلام فطالبوه أن يوقف القتال وقبول التحكيم والحكمين، وإلا قتلوه أو سلموه إلى معاوية! لكنهم بعد توقيع وثيقة التحكيم التي أجبروا عليها، قلبوا

موقفهم رأساً على عقب، وقالوا إنهم كفروا بقبولهم تحكيم الرجال في دين الله، وإنهم تابوا ورجعوا إلى الإسلام، وطلبوا من الإمام علي عليه السلام وشيعته أن يعترفوا مثلهم على أنفسهم بالكفر، ويتوبوا ليصيروا مسلمين! والوقائع تدل على أن تغيير موقفهم حدث بعد توقيع الوثيقة مباشرة، وأنهم واجهوا به أصحابهم وعرايهم الأشعث!

قال الطبري في تاريخه: (خرج الأشعث بذلك الكتاب يقرؤه على الناس ويعرضه عليهم فيقرؤنه، حتى مر به على طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أديه وهو أخو أبي بلال، فقرأه عليهم، فقال عروة بن أديه: تحكمون في أمر الله عز وجل الرجال! لا حكم إلا لله، ثم شد بسيفه فضرب به عجز دابته ضربة خفيفة، واندفعت الدابة وصاح به أصحابه: أن أملك يدك، فرجع فغضب للأشعث قومه وناس كثير من أهل اليمن، فمشى الأحنف بن قيس السعدي، ومعقل بن قيس الرياحي، ومسعر بن فدكي، وناس كثير من بني تميم، فتنصلوا إليه واعتذروا فقبل وصفح).^(١)

ويمكن أن نفسر هذا التغير الحاد في موقفهم، بعد إصرارهم الحاد على إيقاف الحرب والقبول بالتحكيم، بأن (ماكنة) أذهانهم تعمل بشكل غير متناسق، فقد توصلت أذهانهم بعد خطبة الأشعث وتوجيه بعض رؤسائهم إلى وجوب التحكيم، ثم توصلت بتوجيه بعض رؤسائهم إلى أن التحكيم كفر محض!

كما يمكن أن نفسره بأن معاوية أرسل أموالاً إلى الأشعث فوزع منها على بعض رؤسائهم فوقفوا معه، ثم غلب على أمرهم الرؤساء الذين لم يقبضوا، وكان أكثرهم حماساً عروة بن أديّة التميمي الذي صاح بشعار (لا حكم إلا لله) ونهض إلى الأشعث ليقتله! وهذا هو الراجح والله العالم!

(١) (تاريخ الطبري: ٤ / ٣٨)

وقد وصف نصر بن مزاحم سرعة تغير موقفهم بعد إمضاء وثيقة الهدنة، فقال: (فنادت الخوارج أيضاً في كل ناحية: لا حكم إلا الله، لا نرضى بأن نحكم الرجال في دين الله، قد أمضى الله حكمه في معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا معنا في حكمنا عليهم، وقد كانت منا خطيئة وزلة حين رضىنا بالحكمين، وقد تبنا إلى ربنا ورجعنا عن ذلك، فارجع) يخاطبون أمير المؤمنين عليه السلام كما رجعنا وإلا فنحن منك براء.

فقال الإمام علي عليه السلام: ويحكم أبعـد الرضا والعهد والميثاق أرجع؟! أو ليس الله يقول: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١]. قال: فبرئوا من علي وشهدوا عليه بالشرك، وبرئ علي منهم! ^(١)

وبالفعل نعم ما قاله ابن أبي الحديد: كل فساد كان في خلافة علي عليه السلام، وكل اضطراب حدث فأصله الأشعث، ولولا مُحاقته أمير المؤمنين عليه السلام في معنى الحكومة في هذه المرة لم تكن حرب النهروان، ولكان أمير المؤمنين عليه السلام ينهض بهم إلى معاوية، ويملك الشام؛ فإنه (صلوات الله عليه) حاول أن يسلك معهم مسلك التعريض والمواربة.

وفي المثل النبوي (صلوات الله على قائله): «الحرب خدعة»، وذاك أنهم، قالوا له: تُبْ إلى الله مما فعلت كما تبنا ننهض معك إلى حرب أهل الشام، فقال لهم كلمة مُجَمَّلة مرسلـة يقولها الأنبياء والمعصومون، وهي قوله: «أستغفر الله من كل ذنب»، فرضوا بها، وعدُّوها إجابة لهم إلى سؤلهم، وصفت له عليه السلام نياتهم، واستخلص بها ضمائرهم، من غير أن تتضمن تلك الكلمة اعترافاً بكفر أو ذنب.

(١) (راجع كتاب صفين ص ٥١٤ و ٥١٨)

قال المبرد في الكامل: يروى أن علياً عليه السلام في أول خروج القوم عليه دعا صعصعة بن صوحان العبدى، وزيايد بن النضر الحارثي مع عبد الله بن العباس، فقال لصعصعة: بأي القوم رأيتم أشد إطفاء؟

فقال: بيزيد بن قيس الأرحبي. فركب علي عليه السلام إليهم إلى حروراء، فجعل يتخللهم حتى صار إلى مضرب يزيد بن قيس، فصلى فيه ركعتين، ثم خرج فاتكأ على قوسه، وأقبل على الناس، ثم قال: هذا مقام من فلج فيه فلج يوم القيامة، أنشدكم الله، أعلمتم أحدا منكم كان أكره للحكومة مني؟

قالوا: اللهم لا.

قال: أفعلمتم أنكم أكرهتموني حتى قبلتها؟

قالوا: اللهم نعم.

قال: فعلام خالفتموني ونابذتموني؟

قالوا: إنا أتينا ذنبا عظيما، فتبنا إلى الله، فتب إلى الله منه واستغفره نعد لك. فقال علي عليه السلام: إني أستغفر الله من كل ذنب.

فرجعوا معه، وهم ستة آلاف، فلما استقروا بالكوفة أشاعوا أن علياً رجع عن التحكيم ورآه ضاللاً، وقالوا: إنما ينتظر أمير المؤمنين أن يسمن الكراع، ويجبى المال، فينهض إلى الشام. فأتى الأشعث بن قيس علياً عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، إن الناس قد تحدثوا أنك رأيت الحكومة ضاللاً، والإقامة عليها كفرًا! فخطب علي عليه السلام الناس فقال: من زعم أنني رجعت عن الحكومة فقد كذب، ومن رآها ضاللاً فهو أضل.

فخرجت الخوارج من المسجد، فحكمت، فقليل لعلي: إنهم

خارجون عليك. فقال: لا أقاتلهم حتى يقاتلوني، وسيفعلون..

وهكذا فلم يتركه الأشعث، فجاء إليه مستفسراً وكاشفاً عن الحال، وهاتكاً ستر التورية والكناية، ومخرجاً لها من ظلمة الإجمال وستر الحيلة إلى تفسيرها بما يُفسد التدبير، ويوغر الصدور، ويعيد الفتنة، ولم يستفسره عليه السلام عنها إلا بحضور مَنْ لا يمكنه أن يجعلها معه هدنة على دخن، ولا ترقيقاً عن صبح، وألجأ بتضييق الخناق عليه إلى أن يكشف ما في نفسه، ولا يترك الكلمة على احتمالها، ولا يطويها على غرها، فخطب بما صدع به عن صورة ما عنده مجاهرة، فانتقض ما دبّره، وعادت الخوارج إلى شبهتها الأولى، وراجعوا التحكيم والمروق.

وهكذا الدول التي تظهر فيها أمارات الانقضاء والزوال، يتاح لها أمثال الأشعث من أولي الفساد في الأرض ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدَلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]^(١)

فأصل القوم كان ذاك المأفون الملعون (مرقوص) الذي طعن برسول الله صلى الله عليه وآله وجهاً لوجه دون خجل أو وجل، ودون رادع من دين، أو وازع من ضمي أو أخلاق..

وموقفه كان ينبع من عقيدة باطلة هي لعبادة الذات وهوى النفس أقرب منها إلى الدين وإلى عبادة رب العالمين.

والعقيدة الباطلة كان يلزمها تفكير قشري ساذج يتعلق بالمظاهر وينفي الجواهر، فيصلّي، ويصوم، ويحج، ويزكي للمظاهر فقط ولا شأن له بالمقاصد، والبواطن فتكليفه يتعلق بهذه المناظر وتلك الظواهر فقط..

(١) (شرح نهج البلاغة:)

والتفكير القشري رافقه لسان حاد تكفيري، وعمل حاقد تدميري فكفروا الأمة الإسلامية جمعاء وقتلوا من طالته أيديهم، وللأسف الشديد ما زالت الأمة تعاني من هؤلاء المارقين الأمرين..

٧. هوية رؤسائهم

انبثق الخوارج من قلب فئة كانت تسكن الكوفة وتعرف باسم «القراء»، وجاءت نشأتهم في ظلّ مشاعر جياشة استفحلت في الأيام الأخيرة من معركة صفين، ولم تأت من نوازع قائمة على التفكير والتعقل.. كان زمام زعامتهم الدينية والفكرية بيد عبد الله بن الكواء.. فيما كان زمام قيادتهم العسكرية بيد شيث بن ربعي.

وفي أعقاب تقلص حدة المشاعر، ومن بعد المناظرات والاحتجاجات التي أجراها معهم الإمام علي عليه السلام وعبد الله بن عباس، انشق هذان الشخصان عن الخوارج وعادا إلى جيش الإمام علي عليه السلام، وكانا في عداد جيشه عند اضطرام معركة النهروان، وتولى شيث بن ربعي قيادة ميسرة جيش الإمام.. وأخذ بزمام قيادة الخوارج فيما بعد أفراد؛ مثل شريح بن أوفى، وزيد بن الحصين، وحمزة بن سنان في عداد الشخصيات البارزة للخوارج.. وسنتحدث عن أصلهم الخبيث الذي كان في زمن الرسول الأعظم ﷺ، ثم عن رأسهم في القتال، وهما:

١٠٧. حرقوص بن زهير

كان حرقوص من الصحابة (كما يسمونهم)، ولكنه خاوٍ من الاعتقاد الراسخ والإيمان المخلص.. وقد ذكرنا موقفه وكلمته البذيئة النابية لرسول الله ﷺ في غزوة حنين، إذ قال له: اعدل يا محمد! وكذلك جواب

النبي ﷺ له. شارك في الثورة على عثمان.. وهم أصحاب الجمل بقتله، لكنه استطاع الفرار من أيديهم.

كان في عداد أصحاب الإمام أمير المؤمنين ﷺ أيام خلافته، لكنه انخدع بمكيدة عمرو بن العاص في صفين، ووقف بوجه الإمام ﷺ، وقام بدور مهم في فرض التحكيم، بما كان يحمله من أرضية فكرية وروحية منحرفة كما أشرنا إلى ذلك سلفاً..

في تاريخ الطبري عن عون بن أبي جحيفة، قال: إن علياً لما أراد أن يبعث أبا موسى للحكومة أتاه رجلان من الخوارج: زرعة بن البرج الطائي، وحر قوص بن زهير السعدي، فدخلوا عليه، فقالا له: لا حكم إلا لله! فقال علي ﷺ: لا حكم إلا لله.

فقال له حر قوص: تُب من خطيئتك، وارجع عن قضيتك، واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا! فقال لهم علي ﷺ: قد أردتكم على ذلك فعصيتُموني، وقد كتبنا بيننا وبينهم كتاباً، وشرطنا شروطاً، وأعطينا عليها عهودنا ومواثيقنا، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

فقال له حر قوص: ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه.

فقال علي ﷺ: ما هو ذنب، ولكنه عجز من الرأي، وضعف من الفعل، وقد تقدمت إليكم فيما كان منه، ونهيتكم عنه.

فقال له زرعة بن البرج: أما والله يا علي لئن لم تدع تحكيم الرجال في كتاب الله ﷻ قاتلتك؛ أطلب بذلك وجه الله ورضوانه! فقال له علي ﷺ: بؤساً لك، ما أشقاك! كأنني بك قتيلاً تسفي عليك الريح.

قال: وددت أن قد كان ذلك.. فقال له علي عليه السلام: لو كنت محققاً كان في الموت على الحق تعزية عن الدنيا، إن الشيطان قد استهواكم، فاتقوا الله عز وجل، إنه لا خير لكم في دنيا تقاتلون عليها.

فخرجوا من عنده يحكمون^(١)..

وهو الذي عُرِضت عليه الأمانة في المؤتمر الأول لهم فرفضوها، وقال في ذلك المؤتمر: إن المتاع بهذه الدنيا قليل، وإن الفراق لها وشيك، فلا تدعونكم زينتها وبهجتها إلى المقام بها، ولا تلفتنكم عن طلب الحق وإنكار الظلم، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

فكان الرجل عنصراً مؤثراً أيضاً في تنظيم الخوارج لحرب الإمام عليه السلام فيما بعد، كما كان متشدداً في عداوته لأمر المؤمنين عليهم السلام، وحقده عليه، والعياذ بالله.

وهو رفض الإمارة على أصحاب النهروان حين عرضوها عليه أولاً، لكنه كان على رجالتهم في تلك المعركة، حيث قتله الإمام عليه السلام فيها.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أخبر بهلاكه في النهروان، وعن كيفية ذلك، وبعد معركة النهروان، قال الإمام عليه السلام: اطلبوه، فلم يجدوه، فقال عليه السلام مؤكداً: ارجعوا، فوالله ما كذبت ولا كذبت مرتين أو ثلاثاً.. ثم وجدوه في خربة^(٢).

فهذا التأكيد دليل على حقانية الإمام عليه السلام من جهة، وعلى انحراف الخوارج وضلالهم الثابت من جهة أخرى، وهو خطوة لتثبيت قلوب أصحاب الإمام عليه السلام الذين كان قد شق عليهم قتال أناس يتظاهرون

(١) تاريخ الطبري: ج ٤/٥٢، البحار: ج ٤١/٣٢٩.

(٢) صحيح مسلم: ج ٢/٧٤٩، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: ج ١/٣٠٥.

بالزهد والعبادة. وهكذا أصحح الإمام عليه السلام بحقه وثبات خطاه هو وأصحابه مرارا في معركة النهروان.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أتاه رجل - يعني النبي صلى الله عليه وآله - وهو يقسم تبراً يوم حنين، فقال: يا محمد! اعدل، فقال: ويحك! إن لم أعدل عند من يلتمس العدل؟ ثم قال: يوشك أن يأتي قوم مثل هذا يسألون كتاب الله وهم أعداؤه، يقرؤون كتاب الله، محلقة رؤوسهم، إذا خرجوا فاضربوا أعناقهم^(١).

الكامل للمبرد: يروى أن رجلاً أسود شديد بياض الثياب وقف على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقسم غنائم خيبر - ولم تكن إلا لمن شهد الحديبية - فأقبل ذلك الأسود على رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: ما عدلت منذ اليوم! فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله حتى رآي الغضب في وجهه، فقال عمر بن الخطاب: ألا أقتله يا رسول الله؟

فقال: إنه سيكون لهذا ولأصحابه نبأ.

قال أبو العباس: وفي حديث آخر: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال له: ويحك! فمن يعدل إذا لم أعدل؟

ثم قال لأبي بكر: اقتله، فمضى ثم رجع، فقال: يا رسول الله، رأيته راکعاً. ثم قال لعمر: اقتله، فمضى ثم رجع، فقال: يا رسول الله، رأيته ساجداً. ثم قال لعلي: اقتله (إن وجدته)، فمضى ثم رجع، فقال: يا رسول الله، لم أره^(٢)..

مسند أبي يعلى عن أنس بن مالك: كان رجل على عهد رسول

(١) المستدرک علی الصحیحین: ج ٢/١٥٩، کنز العمال للمتقی الهندي: ج ١١/ص ٣١٦.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣/١٠٨، دعائم الإسلام: ج ١/٣٨٩.

الله ﷺ يغزو مع رسول الله ﷺ، فإذا رجع وحط عن راحلته، عمد إلى مسجد الرسول، فجعل يصلي فيه فيطيل الصلاة، حتى جعل بعض أصحاب النبي ﷺ يرون أن له فضلا عليهم.. فمر يوما ورسول الله ﷺ قاعد في أصحابه. فقال له بعض أصحابه: يا نبي الله، هذا ذاك الرجل - فإما أرسل إليه نبي الله ﷺ، وإما جاء من قبل نفسه - فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلا قال: والذي نفسي بيده إن بين عينيه سفعة من الشيطان. فلما وقف على المجلس قال له رسول الله ﷺ: أقلت في نفسك حين وقفت على المجلس: ليس في القوم خير مني؟ قال: نعم! (١) تفكر وتأمل بهذا الرجل ومدى غروره وتكبره حتى أنه يرى نفسه أعظم من رسول الله ﷺ والمجلس الذي كان يضمه.. نستجير بالله من السخط..

٢٠٧. عبد الله بن وهب الراسبي

تولى قيادة الخوارج - بعد أن بايعوه في المؤتمر الأول لهم، وذلك في العاشر من شوال سنة ٣٧/ للهجرة، بعد أن رفض أكثرهم التصدي للقيادة - في معركة النهروان.. وليس في أيدينا معلومات تذكر عن ماضي الرجل، علما أنه لم يقم بالأمر في بداية تبلور التيار الخارجي؛ فقد كان ابن الكواء أمير الصلاة، وشيث بن ربيعي أمير الحرب..

وكان المرشحون للقيادة: هم زيد بن حصين، وحرقوص بن زهير، وحمزة بن سنان، وشريح بن أوفى، بيد أنهم رفضوا ذلك، فتأمر عبد الله بن وهب عليهم، ونظمهم من أجل الحرب، ودعاهم إليها في خطبه الحماسية، وحذرهم من التحدث إلى الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي

(١) مسند أبي يعلى: ج ٤/ ١٥٤، المناقب ابن شهر آشوب: ج ٣/ ١٨٧.

طالب عليه السلام، والاستماع إلى خطبه ، وتدل بعض النصوص التاريخية على أنه لم يكن ثابت العقيدة في طريقه الذي كان قد اختاره لنفسه، ونقل المؤرخون أنه دعا الإمام علياً عليه السلام إلى البراز بكل وقاحة وصلافة، ولكنه قتل في اللحظات الأولى التي واجه فيها ليث الوغى الذي لا ندَّ له..

روى صاحب الفتوح قائلاً: تقدم عبد الله بن وهب الراسبي حتى وقف بين الجمعين، ثم نادى بأعلى صوته: يا بن أبي طالب! حتى متى يكون هذه المطاولة بيننا وبينك؟! والله، لا نبرح هذه العرصة أبداً أو تأبى على نفسك، فابرز إلَيَّ حتى أبرز إليك وذر الناس جانباً..

تبسم علي (سلام الله عليه) ثم قال: قاتله الله من رجل ما أقلَّ حياءه! أما إنه ليعلم أنني حليف السيف وجديل الرمح، ولكنه أيس من الحياة، أو لعله يطمع طمعاً كاذباً (أي يطمع بقتل الأمير عليه السلام).

قال: وجعل عبد الله يجول بين الصفين وهو يرتجز ويقول:

أنا ابن وهب الراسبي الثاري
أضرب في القوم لأخذ الثار
حتى تزول دولة الأشرار
ويرجع الحق إلى الأخيار

ثم حمل فضربه علي عليه السلام ضربة ألحقه بأصحابه^(١)..

(١) راجع موسوعة الإمام علي عليه السلام للري شهري: ج ٦/ ٣١٤ وما قبلها.

الفصل الثاني:

التحضير والمسير

١. المؤتمر الأول للمارقين

لما بعث أبا موسى لإنفاذ الحكومة لقيت الخوارج بعضها بعضا فاجتمعوا في منزل عبد الله بن وهب الراسبي، فحمد الله عبد الله بن وهب وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن وينيبون إلى حكم القرآن، أن يكون هذه الدنيا التي الرضا بها والركون بها والإيثار إياها عناء وتبار، أثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالحق. وإن من ضرر فإنه في يمن ويضر في هذه الدنيا، فإن ثوابه يوم القيامة رضوان الله عَزَّ وَجَلَّ والخلود في جناته.. فأخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال أو إلى بعض هذه المدائن، منكرين لهذه البدع المضلة!

فقال له حرقوص بن زهير: إن المتاع بهذه الدنيا قليل، وإن الفراق لها وشيك، فلا تدعونكم زينتها وبهجتها إلى المقام بها، ولا تلفتنكم عن طلب الحق وإنكار الظلم، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

فقال حمزة بن سنان الأسدي: يا قوم إن الرأي ما رأيتم، فولوا أمركم رجلا منكم فإنه لا بدّ لكم من عماد وسناد، وراية تحفون بها وترجعون إليها.

فعرضوها على زيد بن حصين الطائي فأبى، وعرضوها على حرقوص بن زهير فأبى، وعلى حمزة بن سنان وشريح بن أوفى العبسي فأبىا، وعرضوها على عبد الله بن وهب، فقال: هاتوها أما والله لا أخذها رغبة في الدنيا، ولا أدعها فرقا من الموت! فبايعوه لعشر خلون من شوال، وكان يقال له ذو الثفنت! ثم اجتمعوا في منزل شريح بن أوفى العبسي، فقال ابن وهب: إشحصوا بنا إلى بلدة نجتمع فيها لإنفاذ حكم الله، فإنكم أهل الحق.

قال شريح: نخرج إلى المدائن فننزلها ونأخذ بأبوابها ونخرج منها سكانها، ونبعث إلى إخواننا من أهل البصرة فيقدمون علينا.

فقال زيد بن حصين: إنكم إن خرجتم مجتمعين أثبتتم، ولكن أخرجوا وحدانا مستخفين، فأما المدائن فإن بها مَنْ يمنعكم، ولكن سيروا حتى تنزلوا جسر النهروان، وتكاتبوا إخوانكم من أهل البصرة.. قالوا: هذا الرأي، وكتب عبد الله بن وهب إلى مَنْ بالبصرة منهم يعلمهم ما اجتمعوا عليه ويحثهم على اللحاق بهم، وسير الكتاب إليهم فأجابوه أنهم على اللحاق به! فلما عزموا على المسير تعبّدوا ليلتهم وكانت

ليلة الجمعة ويوم الجمعة، وساروا يوم السبت، فخرج شريح بن أوفى العبسي وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاءَ مَدِينَةٍ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿[القصص: ٢١-٢٢]

وسار جماعة من أهل الكوفة يريدون الخوارج ليكونوا معهم فردّهم أهلهم كرها، منهم القعقاع بن قيس الطائي عم الطرماح بن حكيم، وعبد الله بن حكيم بن عبد الرحمن البكائي، وبلغ علياً عليه السلام أن سالم بن ربيعة العبسي يريد الخروج فأحضره عنده ونهاه، فانتهى.

ولما خرجت الخوارج من الكوفة أتى علياً عليه السلام أصحابه وشيعته فبايعوه، وقالوا: نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت، فشرط لهم فيه سنة رسول الله ﷺ فجاءه ربيعة بن أبي شداد الخثعمي، وكان شهد معه الجمل وصفين ومعه راية خثعم، فقال له: بايع على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ..

فقال ربيعة: على سنة أبي بكر وعمر! قال له علي عليه السلام: ويلك لو أن أبا بكر وعمر عملاً بغير كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لم يكونا على شيء من الحق! فبايعه، فنظر إليه الإمام علي عليه السلام وقال: أما والله لكأني بك وقد نفرت مع هذه الخوارج فقتلت، وكأني بك وقد وطئت الخيل بحوافرها! فقتل يوم النهر مع خوارج البصرة! (١)

وأما خوارج البصرة فإنهم اجتمعوا في خمسمائة رجل وجعلوا عليهم مسعر بن فدكي التميمي، فعلم بهم ابن عباس فأتبعهم أبا الأسود الدؤلي فلحقهم بالجسر الأكبر فتواقفوا حتى حجز بينهم الليل وأدلى مسعر بأصحابه وأقبل يعترض الناس وعلى مقدمته الأشرس بن عوف

(١) (تاريخ الطبري: ٤ / ٥٤)

الشييباني، وسار حتى لحق بعبد الله بن وهب بالنهر.

لما خرجت الخوارج وهرب أبو موسى إلى مكة (بعد التحكيم وخوفه من غضب الناس عليه) قام (الإمام علي عليه السلام) في الكوفة فخطبهم فقال: الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجليل...

وزاد الطبري فيها: ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموها حكمين قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما وأحيا ما أمات القرآن، واتبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله، فحكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية، واختلفا في حكمهما وكلاهما لم يرشد، فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين.. استعدوا وتأهبوا للسير إلى الشام، وأصبحوا في معسكرهم إن شاء الله يوم الاثنين^(١).

ثم نزل وكتب إلى الخوارج بالنهر: بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى زيد بن حصين وعبد الله بن وهب ومنّ معهما من الناس.. أما بعد، فإن هذين الرجلين اللذين ارتضينا حكمهما قد خالفا كتاب الله واتبعا أهواءهما بغير هدى من الله، فلم يعملوا بالسنة ولم ينفذا للقرآن حكما، فبرئ الله ورسوله منهما والمؤمنون.. فإذا بلغكم كتابي هذا فأقبلوا فإننا سائرون إلى عدونا وعدوكم، ونحن على الأمر الأول الذي كنا عليه والسلام.

فكتبوا إليه عليه السلام: أما بعد فإنك لم تغضب لربك إنما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة، نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا فقد نابذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين!

فلما قرأ كتابهم أيس منهم، فرأى أن يدعمهم ويمضي بالناس إلى

(١) تاريخ الطبري: ج ٥/٧٧، الكامل في التاريخ: ج ٢/٤٠٠، مروج الذهب: ج ٢/٤١٢.

أهل الشام حتى يلقاهم فيناجزهم.

وتباطأ أهل البصرة عنه عليه السلام فلم يلتحق منهم بمعسكر الإمام علي عليه السلام في النخيلة إلا ثلاثة آلاف ومئتا نفر، مع أن واليه ابن عباس حثهم! قال الطبري: (وبلغ علياً عليه السلام أن الناس يقولون: لو سار بنا إلى هذه الحرورية فبدأنا بهم فإذا فرغنا منهم وجهنا من وجهنا ذلك إلى المُحليين، فقام في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإنه قد بلغني قولكم لو أن أمير المؤمنين سار بنا إلى هذه الخارجة التي خرجت عليه فبدأنا بهم فإذا فرغنا منهم وجهنا إلى المحليين، وإن غير هذه الخارجة أهم إلينا منهم، فدعوا ذكرهم وسيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين ملوكا ويتخذوا عباد الله خولا..

فبلغ ذلك عليا ومن معه من المسلمين من قتلهم عبد الله بن خباب واعتراضها الناس، فبعث إليهم الحارث بن مرة العبدى ليأتيهم فينظر فيما بلغه عنهم، ويكتب به إليه على وجهه ولا يكتمه، فخرج حتى انتهى إلى النهر ليسألهم فخرج القوم إليه فقتلوه! وأتى الخبر أمير المؤمنين عليه السلام والناس، فقام إليه الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا؟! سر بنا إلى القوم فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام، وقام إليه الأشعث بن قيس الكندي فكلمه بمثل ذلك..

٢. مسير جيش الحق

كان تجمع جيش الحق في معسكراته في النخيلة بظهر الكوفة، ثم توجه شمالا حتى مر الجيش بكرבלاء، ووصل حتى الأنبار حيث قطع

الفرات وتوجه مباشرة إلى النهروان حيث كانت المعركة..

وهكذا نادى أمير المؤمنين عليه السلام بالرحيل، وخرج فعبر الجسر فصلى ركعتين بالقنطرة، ثم نزل دير عبد الرحمن، ثم دير أبي موسى، ثم أخذ على قرية شاهي، ثم على دباها، ثم على شاطئ الفرات.. وبعث إلى أهل النهر: ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم نقتلهم بهم، ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل الشام، فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم.

فبعثوا إليه فقالوا: كلنا قتلتم، وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم!. قيس بن سعد بن عبادة قال لهم: عباد الله أخرجوا إلينا طلبتنا منكم وادخلوا في هذا الأمر الذي منه خرجتم، وعودوا بنا إلى قتال عدونا وعدوكم، فإنكم ركبتهم عظيماً من الأمر: تشهدون علينا بالشرك والشرك ظلم عظيم، وتسفكون دماء المسلمين، وتعدونهم مشركين!!

فقال عبد الله بن شجرة السلمي: إن الحق قد أضاء لنا، فلسنا نتابعكم أو تأتوننا بمثل عمر! فقال: ما نعلمه فينا غير صاحبنا فهل تعلمونه فيكم؟! وقال: نشدكم بالله في أنفسكم أن تهلكوها فإني لأرى الفتنة قد غلبت عليكم!

وخطبهم أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري فقال: عباد الله إنا وإياكم على الحال الأولى التي كنا عليها، ليست بيننا وبينكم فرقة، فعلام تقاتلوننا؟ فقالوا: إنا لو بايعناكم اليوم حكمتكم غدا! قال: فإني أنشدكم الله أن تعجلوا فتنة العام مخافة ما يأتي في قابل^(١)!!

(١) تاريخ الطبري: ج ٥/٨٣، الكامل: ج ٢/٤٠٤.

٣. مسير المارقين إلى النهروان

ساروا من الكوفة وتجمعوا في حروراء على الفرات، ثم توجهوا إلى المدائن، وخرجوا منها إلى النهروان حيث كان مقتلهم..

ما أبشع الفرقة بعد الإتحاد، وما أشنع الكفر والإلحاد بعد الإسلام والإيمان، فعساكر الحق خرجوا لحرب صفيين وهم بغاية القوة والبصيرة النافذة، ولكن كيف عادوا بعد الغدر والمكيدة؟

يروى عن عمارة بن ربيعة قوله: خرجوا مع علي عليه السلام إلى صفيين وهم متوادون أحباء، فرجعوا متباغضين أعداء، ما برحوا من عسكرهم بصفيين حتى فشا فيهم التحكيم، ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله، ويتشاتمون، ويضطربون بالسياط؛ يقول الخوارج: يا أعداء الله! أدهنتم في أمر الله عز وجل، وحكمتم!

وقال الآخرون: فارقتم إمامنا، وفرقتم جماعتنا! فلما دخل علي عليه السلام الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا حروراء، فنزل بها منهم اثنا عشر ألفاً، ونادى مناديتهم: إن أمير القتال شبت بن ربعي التميمي، وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري، والأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..^(١)

فلما سمع علي عليه السلام ذلك وأصحابه قامت الشيعة، فقالوا له: ما في أعناقنا بيعة ثانية، نحن أولياء من واليت، وأعداء من عاديت. فقالت الخوارج: استبقتم أنتم وأهل الشام إلى الكفر كفرسي رهان؛ بايع أهل الشام معاوية على ما أحبوا وكرهوا، وبايعتم أنتم علياً على أنكم أولياء من والى، وأعداء من عادى.

(١) (تاريخ الطبري: ج ٥/٦٣، الكامل: ج ٢/٣٩٣)

فقال لهم زياد بن النضر: والله، ما بسط عليّ يده فبايعناه قط إلا على كتاب الله، وسنة نبيه، ولكنكم لما خالفتموه جاءته شيعته فقالوا له: نحن أولياء من واليت، وأعداء من عاديت، ونحن كذلك، وهو على الحق والهدى، ومن خالفه ضال مضل^(١)..

في تاريخ الطبري عن جبر بن نوف قال: إن علياً عليه السلام لما نزل بالنخيلة وأيس من الخوارج، وأراد أن يتوجه إلى صفين ثانية، قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنه من ترك الجهاد في الله وأدهن في أمره كان على شفا هلكه، إلا أن يتداركه الله بنعمة، فاتقوا الله، وقاتلوا من حاد الله، وحاول أن يطفئ نور الله، قاتلوا الخاطئين الضالين، القاسطين المجرمين، الذين ليسوا بقراء للقرآن، ولا فقهاء في الدين، ولا علماء في التأويل، ولا لهذا الأمر بأهل سابقة في الإسلام. والله، لو ولوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل؛ تيسروا وتهيؤوا للمسير إلى عدوكم من أهل المغرب، وقد بعثنا إلى إخوانكم من أهل البصرة ليقدموا عليكم، فإذا قدموا فاجتمعتم شخصنا إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(٢).

٤. حوار الحجة على المارقين

كان من عادة أمير المؤمنين عليه السلام أن يقيم الحجة على كل من أراد أن يحاربه حتى يبرأ منه ويقيم عليه الحجة مباشرة كان ذلك منه حتى على المشركين في الحرب.. وأول ما نزل المارقون في حروراء بعث إليهم الإمام علي عليه السلام عبد الله بن العباس لينظر في أمرهم وماذا يريدون،

(١) تاريخ الطبري: ج ٥/٦٣، الكامل: ج ٢/٣٩٣

(٢) تاريخ الطبري: ج ٥/٧٨، الكامل: ج ٢/٤٠١.

فبعثه للاحتجاج عليهم، وكان مما أوصاه به، قال له (ع): لا تخصمهم بالقرآن؛ فإن القرآن حمّل ذو وجوه؛ تقول ويقولون، ولكن حاججهم بالسنة، فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً^(١)..

وبالتفاصيل، قال في الفتوح: بينا علي (كرم الله وجهه) مقيم بالكوفة ينتظر انقضاء المدة التي كانت بينه وبين معاوية ثم يرجع إلى محاربة أهل الشام، إذ تحركت طائفة من خاصّة أصحابه في أربعة آلاف فارس، وهم من النّسّاك العبّاد أصحاب البرانس، فخرجوا عن الكوفة وتحزبوا، وخالفوا علياً (كرم الله وجهه) وقالوا: لا حكم إلا لله، ولا طاعة لمن عصى الله.

وانحاز إليهم نيف عن ثمانية آلاف رجل ممن يرى رأيهم، فصار القوم في اثني عشر ألفاً، وساروا حتى نزلوا بحروراء، وأمّروا عليهم عبد الله بن الكواء للصلاة..

فدعا علي (سلام الله عليه) بعبد الله بن عباس، فأرسله إليهم، وقال: يا بن عباس امض إلى هؤلاء القوم فانظر ما هم عليه، ولماذا اجتمعوا. قال: فأقبل عليهم ابن عباس، حتى إذا أشرف عليهم ونظروا إليه ناداه بعضهم، وقال: ويلك يا بن عباس، أكفرت بربك كما كفر صاحبك علي بن أبي طالب؟

فقال ابن عباس: إني لا أستطيع أن أكلمكم كلكم، ولكن انظروا أيكم أعلم بما يأتي ويذر فليخرج إليّ؛ حتى أكلمه.. فخرج إليه رجل منهم يقال له: عتاب بن الأعور الثعلبي حتى وقف قبالة، فجعل يقول ويحتج ويتكلم بما يريد، وابن عباس ساكت لا يكلمه بشيء، حتى إذا فرغ من كلامه أقبل عليه ابن عباس فقال: إني أريد أن أضرب لك مثلاً،

(١) نهج البلاغة: كتاب ٧١، البحار: ج ٢/٢٤٥، ربيع الأبرار للزمخشري: ج ١/٦٩١.

فإن كنت عاقلاً فافهم.

فقال الخارجي: قل ما بدا لك. فقال له ابن عباس: خبرني عن دار الإسلام هذه هل تعلم لمن هي، ومن بناها؟ فقال الخارجي: نعم، هي لله عز وجل، وهو الذي بناها على أنبيائه وأهل طاعته، ثم أمر من بعثه إليها من الأنبياء أن يأمرؤا الأمم أن لا تعبدوا إلا إياه، فأمن قوم، وكفر قوم، وآخر من بعثه إليها من الأنبياء محمد ﷺ

فقال ابن عباس: صدقت؛ ولكن خبرني عن محمد حين بعث إلى دار الإسلام فبناه كما بناها غيره من الأنبياء - هل أحكم عمارتها، وبيّن حدودها، وأوقف الأمة على سبلها وعملها وشرائع أحكامها ومعالم دينها؟ قال الخارجي: نعم، قد فعل محمد ذلك.

قال ابن عباس: فخبرني الآن عن محمد هل بقي فيها، أو رحل عنها؟ قال الخارجي: بل رحل عنها. قال ابن عباس: فخبرني رحل عنها وهي كاملة العمارة بينة الحدود، أم رحل عنها وهي خربة لا عمران فيها؟ قال الخارجي: بل رحل عنها وهي كاملة العمارة، بينة الحدود، قائمة المنار.

قال ابن عباس: صدقت الآن، فخبرني هل كان لمحمد ﷺ يقوم بعمارة هذه الدار من بعده أم لا؟ قال الخارجي: بلى، قد كان له صحابة وأهل بيت ووصي وذرية يقومون بعمارة هذه الدار من بعده. قال ابن عباس: ففعلوا أم لم يفعلوا؟ قال الخارجي: بلى، قد فعلوا وعمرؤا هذه الدار من بعده.

قال ابن عباس: فخبرني الآن عن هذه الدار من بعده هل هي اليوم على ما تركها محمد ﷺ من كمال عمارتها وقوام حدودها، أم هي خربة

عاطلة الحدود؟ قال الخارجي: بل هي عاطلة الحدود خربة.

قال ابن عباس: أفذريته وليت هذه الخراب، أم أمته؟ قال: بل أمته. قال: قال ابن عباس: أفأنت من الأمة أو من الذرية؟ قال: أنا من الأمة. قال ابن عباس: يا عتاب فخبرني الآن عنك كيف ترجو النجاة من النار وأنت من أمة قد أخربت دار الله ودار رسوله، وعطلت حدودها؟

فقال الخارجي: إنا لله وإنا إليه راجعون، ويحك يا ابن عباس! احتلت والله حتى أوقعتني في أمر عظيم، وألزمتني الحجة، حتى جعلتني ممن أخرب دار الله. ولكن ويحك يا ابن عباس فكيف الحيلة في التخليص مما أنا فيه؟

قال ابن عباس: الحيلة في ذلك أن تسعى في عمارة ما أخربته الأمة من دار الإسلام. قال: فدلني على السعي في ذلك. قال ابن عباس: إن أول ما يجب عليك في ذلك أن تعلم مَنْ سعى في خراب هذه الدار فتعاديهِ، وتعلم مَنْ يريد عمارتها فتواليهِ. قال: صدقت يا ابن عباس، والله ما أعرف أحدا في هذا الوقت يحب عمارة دار الإسلام غير ابن عمك علي بن أبي طالب عليه السلام لولا أنه حكم عبد الله بن قيس في حق هو له.

قال ابن عباس: ويحك يا عتاب، إنا وجدنا الحكومة في كتاب الله تعالى؛ إنه قال تعالى: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥]

وقال تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥]

قال: فصاحت الخوارج من كل ناحية، وقالوا: فكأن عمرو بن العاص عندك من العدول، وأنت تعلم أنه كان في الجاهلية رأساً، وفي الإسلام

ذنباً، وهو الأبتَر ابن الأبتَر، ممن قاتل محمداً ﷺ، وفتن أمته من بعده! قال: فقال ابن عباس: يا هؤلاء! إن عمرو بن العاص لم يكن حكماً، أفتحتجون به علينا؟ إنما كان حكماً لمعاوية، وقد أراد أمير المؤمنين علي (سلام الله عليه) أن يبعثني أنا فأكون له حكماً، فأبيتُم عليه وقتلتم: قد رضينا بأبي موسى الأشعري، ولكن أبو موسى خُذع فقال ما قال، وليس يلزمنا من خديعة عمرو بن العاص لأبي موسى، فاتقوا ربكم، وارجعوا إلى ما كنتم عليه من طاعة أمير المؤمنين، فإنه وإن كان قاعداً عن طلب حقه فإنما ينتظر انقضاء المدة ثم يعود إلى محاربة القوم، وليس علي (سلام الله عليه) ممن يقعد عن حق جعله الله له.

قال: فصاحت الخوارج؛ فقالوا: هيهات يا بن عباس! نحن لا نتولى علياً بعد هذا اليوم أبداً، فارجع إليه وقل له فليخرج إلينا بنفسه؛ حتى نحتج عليه، ونسمع كلامه، ويسمع من كلامنا، فلعلنا إن سمعنا منه شيئاً يعلق إما أن نرجع عما اجتمعنا عليه من حربه. قال: فخرج عبد الله بن عباس إلى علي (سلام الله عليه) فخبّره بذلك^(١).

شرح نهج البلاغة عن عمر مولى غفرة: لما رجع علي عليه السلام من صفين إلى الكوفة، أقام الخوارج حتى جموا، ثم خرجوا إلى صحراء بالكوفة تسمى حروراء، فنادوا: لا حكم إلا لله ولو كره المشركون. ألا إن علياً ومعاوية أشركا في حكم الله. فأرسل علي عليه السلام إليهم عبد الله بن عباس، فنظر في أمرهم، وكلمهم، ثم رجع إلى علي عليه السلام، فقال له: ما رأيت؟

فقال ابن عباس: والله، ما أدري ما هم! فقال له علي عليه السلام: رأيتهُم منافقين؟

(١) الفتوح لابن الأعمش: ج ٤/ ٢٥١.

قال: والله، ما سيماهم بسيما المنافقين، إن بين أعينهم لأثر السجود، وهم يتأولون القرآن.

فقال علي عليه السلام: دعوهم ما لم يسفكوا دما، أو يغصبوا مالا. وأرسل إليهم: ما هذا الذي أحدثتم، وما تريدون؟

قالوا: نريد أن نخرج نحن وأنت ومن كان معنا بصفين ثلاث ليال، ونتوب إلى الله من أمر الحكمين، ثم نسير إلى معاوية فنقاتله، حتى يحكم الله بيننا وبينه.

فقال علي عليه السلام: فهلا قلتم هذا حين بعثنا الحكمين، وأخذنا منهم العهد، وأعطيناهموه! ألا قلتم هذا حينئذ!

قالوا: كنا قد طالت الحرب علينا، واشتد البأس، وكثر الجراح، وخلا الكراع والسلاح. فقال لهم: أفحين اشتد البأس عليكم عاهدتم، فلما وجدتم الجمام قلتم: ننقض العهد! إن رسول الله كان يفي للمشركين، أفتأمروني بنقضه^(١)!

الكامل للمبرد: ذكر أهل العلم من غير وجه أن عليا عليه السلام لما وجه إليهم عبد الله بن العباس ليناظرهم، قال لهم: ما الذي نقمتم على أمير المؤمنين؟

قالوا: قد كان للمؤمنين أميرا، فلما حكم في دين الله خرج من الإيمان، فليتب بعد إقراره بالكفر نعد له.

فقال ابن عباس: ما ينبغي لمؤمن لم يشب إيمانه شك أن يقر على نفسه بالكفر.

قالوا: إنه قد حكم. قال: إن الله عَزَّ وَجَلَّ قد أمرنا بالتحكيم في قتل

(١) شرح النهج: ج ٢/ ٣١٠، البحار: ج ٣٣/ ٣٤٣، والجمام: الراحة.

صيد، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥]، فكيف في إمامة قد أشكلت على المسلمين؟!

فقالوا: إنه قد حكم عليه فلم يرض. فقال: إن الحكومة كالإمامة، ومضى فسق الإمام وجبت معصيته، وكذلك الحكماء، لما خالفوا نبذت أقاويلهما.

فقال بعضهم لبعض: لا تجعلوا احتجاج قريش حجة عليكم؛ فإن هذا من القوم الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]،

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُذِرُ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ [مريم: ٩٧]^(١)

٥. خروج الإمام إلى حروراء

لما عزم عَليُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ على المسير إلى الخوارج عرض له رجلا من أصحابه فقال له: يا أمير المؤمنين إن سرت في هذا الوقت خشيت أن لا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم..

فقال عَليُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء، تخوف من الساعة التي من سار فيها حاق به الضر؟ فمن صدقك بهذا فقد كذب القرآن، واستغنى عن الاستعانة بالله تعالى في نيل المحبوب ودفع المكروه، وتبتغي في قولك للعامل بأمرك أن يوليكَ الحمد دون ربه، لأنك بزعمك أنت هديته إلى الساعة التي نال فيها النفع وأمن فيها الضر.

ثم أقبل عَليُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ على الناس، فقال: أيها الناس! إياكم وتعلم النجوم

(١) شرح النهج: ج ٢/ ٢٧٣ عن الكامل.

إلا ما يهتدى به في بر أو بحر، بإنها تدعو إلى الكهانة، المنجم كالكاهن، والكاهن كالساحر، والساحر كالكاfer، والكاfer في النار.. سيروا على اسم الله وعونه^(١)..

وروى ابن أبي الحديد هذه الرواية بوجه آخر أبسط مما أورده السيد رحمته الله في النهج نقلاً من كتاب صفين لابن ديزيل مرسلًا قال: عزم علي عليه السلام على الخروج من الكوفة إلى الحرورية، وكان في أصحابه منجم، فقال له: يا أمير المؤمنين لا تسر في هذه الساعة، وسر على ثلاث ساعات مضين من النهار، فإنك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصحابك أذى وضر شديد، وإن سرت في الساعة التي أمرتك بها ظفرت وظهرت وأصبت ما طلبت..

فقال له علي عليه السلام: أتدري ما في بطن فرسي هذا أذكر أم أنثى؟

قال: إن حسبت علمت..

فقال عليه السلام: فمن صدقك بهذا فقد كذب بالقرآن، قال الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ (لقمان/٣٤)

ثم قال عليه السلام: إن محمداً صلوات الله عليه ما كان يدعي علم ما ادعت علمه، أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي يصيب النفع من سافر فيها، وتصرف عن الساعة التي يحقق السوء بمن سار فيها؟ فمن صدقك بهذا فقد استغنى عن الاستعانة بالله تعالى في صرف المكروه عنه، وينبغي للموقن بأمرك أن يولييك الحمد دون الله جل جلاله، لأنك بزعمك هديته إلى الساعة التي يصيب النفع من سار فيها، وصرفته عن الساعة التي يحقق السوء بمن سار فيها، فمن آمن بك في هذا لم آمن عليه أن يكون كمن

(١) (الاحتجاج: ١٢٥، النهج: ج ١ ص ١٢٨)

اتخذ من دون الله ضدا وندا، اللهم لا طير إلا طيرك، ولا ضير إلا ضيرك، ولا إله غيرك..

ثم قال: بل نخالف ونسير في الساعة التي نهيتنا، ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس! إياكم والتعلم للنجوم، إلا ما يهتدى به في ظلمات البر والبحر، إنما المنجم كالكاهن، والكاهن كالكاfer، والكاfer في النار.. أما والله إن بلغني أنك تعمل بالنجوم لأخلدنك السجن أبدا ما بقيت، ولأحرمنك العطاء ما كان لي سلطان..

ثم سار في الساعة التي نهاه عنه المنجم فظفر بأهل النهر، وظهر عليهم، ثم قال: لو سرنّا في الساعة التي أمرنا بها المنجم لقال الناس سار في الساعة التي أمر بها المنجم وظفر وظهر، أما إنه ما كان لمحمد ﷺ منجم ولا لنا من بعده حتى فتح الله علينا بلاد كسرى وقيصر.. أيها الناس توكّلوا على الله وثقوا به، فإنه يكفي ممن سواه.^(١)

ولما وصل أمير المؤمنين ﷺ إليهم ركب إلى القوم في مائة رجل من أصحابه، حتى وافاهم بحروراء، فلما بلغ ذلك الخوارج ركب عبد الله بن الكواء في مائة رجل من أصحابه حتى واقفه.

فقال له علي ﷺ: يا بن الكواء إن الكلام كثير، ابرز إليّ من أصحابك حتى أكلمك. قال ابن الكواء: وأنا آمن من سيفك.

قال علي ﷺ: نعم، وأنت آمن من سيفي..

فخرج ابن الكواء في عشرة من أصحابه ودنوا من علي (سلام الله عليه). قال: وذهب ابن الكواء ليتكلم فصاح به رجل من أصحاب الإمام علي ﷺ وقال: اسكت؛ حتى يتكلم مَنْ هو أحقّ بالكلام منك.

(١) بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٥٥ - ص ٢٦٤ - ٢٦٦

قال: فسكت ابن الكواء، وتكلم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فذكر الحرب الذي كان بينه وبين معاوية، وذكر اليوم الذي رُفعت فيه المصاحف، وكيف اتفقوا على الحكمين، ثم قال له علي عليه السلام: ويحك يا بن الكواء، ألم أقل لكم في ذلك اليوم الذي رفعت فيه المصاحف: كيف أهل الشام يريدون أن يخدعوكم بها؟ ألم أقل لكم بأنهم قد عضهم السلاح وكاعوا عن الحرب، فذروني أناجزهم، فأبستم علي وقلتم: إن القوم قد دعونا إلى كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ فأجبهم إلى ذلك، وإلا لم نقاتل معك، وإلا دفعناك إليهم! فلما أجبتكم إلى ذلك وأردت أن أبعث ابن عمي عبد الله بن عباس ليكون لي حكما، فإنه رجل لا يبتغي بشيء من عرض هذه الدنيا ولا يطمع أحد من الناس في خديعته، فأبى علي منكم من أبى، وجئتموني بأبي موسى الأشعري وقلتم: قد رضينا بهذا. فأجبتكم إليه وأنا كاره، ولو أصبت أعوانا غيركم في ذلك الوقت لما أجبتكم. ثم إنني اشتطت على الحكمين بحضرتكم أن يحكما بما أنزل الله من فاتحته إلى خاتمته أو السنة الجامعة، فإن هما لم يفعلا ذلك فلا طاعة لهما علي، أكان ذلك أم لم يكن؟

فقال ابن الكواء: صدقت، قد كان هذا بعينه، فلم لا ترجع إلى حرب القوم إذ قد علمت إن الحكمين لم يحكما بالحق، وأن أحدهما خدع صاحبه؟ فقال علي عليه السلام: إنه ليس إلى حرب القوم سبيل إلى انقضاء المدة التي ضربت بيني وبينهم.

قال ابن الكواء: فأنت مجمع على ذلك؟

قال عليه السلام: وهل يسعني إلا ذلك؟ انظر يا بن الكواء أني أصبت أعوانا وأقعد عن حقي؟

قال: فعندها بطن (٢) ابن الكواء فرسه وصار إلى علي عليه السلام مع العشرة الذين كانوا معه، ورجعوا عن رأي الخوارج، وانصرفوا مع علي إلى الكوفة، وتفرق الباقيون وهم يقولون: لا حكم إلا لله، ولا طاعة لمن عصى الله ^(١).

وفي تاريخ الطبري عن عمارة بن ربيعة، قال: بعث علي زياد ابن النضر إليهم، فقال له (ع): انظر بأي رؤوسهم هم أشد إطفافة.

فنظر إليهم وخبرهم، فأخبره أنه لم يرههم عند رجل أكثر منهم عند يزيد بن قيس.. فخرج علي في الناس حتى دخل إليهم، فأتى فسطاط يزيد بن قيس، فدخله فتوضأ فيه، وصلى ركعتين، وأمره على أصبهان، والري. ثم خرج حتى انتهى إليهم وهم يخاصمون ابن عباس، فقال: انتة عن كلامهم، ألم أنهلك رحمك الله! ثم تكلم فحمد الله عز وجل وأثنى عليه، ثم قال: اللهم إن هذا مقام من أفلج فيه كان أولى بالفلج يوم القيامة، ومن نطق فيه وأوعث (٤) فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا. ثم قال لهم: من زعيمكم؟ قالوا: ابن الكواء.

قال علي عليه السلام: فما أخرجكم علينا؟ قالوا: حكومتكم يوم صفين. قال: أنشدكم بالله، أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف، فقلتم: نجيبهم إلى كتاب الله، قلت لكم: إني أعلم بالقوم منكم، إنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إني صحبتهم وعرفتهم أطفالا ورجالا، فكانوا شر أطفال وشر رجال.. امضوا على حقكم وصدقكم، فإنما رفع القوم هذه المصاحف خديعة ودهنا (١) ومكيذة، فرددتهم علي رأبي، وقلتم: لا، بل نقبل منهم. فقلتم: اذكروا قولي لكم، ومعصيتكم إياي، فلما أبيتم إلا الكتاب اشترطت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن، وأن يميتا ما

(١) الفتوح لابن الأعمش: ج ٤/٢٥٣، كشف الغمة: ج ١/٢٦٤.

أما القرآن، فإن حكماً بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكماً يحكم بما في القرآن، وإن أبيا فنحن من حكمهما برآء.

قالوا له: فخبّرنا أترأه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء؟

فقال ﷺ: إنا لسنا حكمنا الرجال، إنما حكمنا القرآن، وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق، إنما يتكلم به الرجال.

قالوا: فخبّرنا عن الأجل، لم جعلته فيما بينك وبينهم؟

قال ﷺ: ليعلم الجاهل، ويتثبت العالم، ولعل الله عزّ وجلّ يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة. ادخلوا مصركم رحمكم الله. فدخلوا من عند آخرهم^(١)..

هكذا خاطب أتباع الشيطان أمير المؤمنين ﷺ، لقد رموا إمام المتقين بالكفر.. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على أنهم لا يعلمون من الإسلام إلا اسمه، وتحت هذا الاسم ساروا وراء أمير المؤمنين ﷺ، ليأكلوا باسم الشعار، وعندما رفع أهل الشام المصاحف وجدوا أنفسهم في الشعار وليس في الشعور، وطالبوا الإمام بوقف القتال.. وعندما انتهى القتال بطلب التحكيم راح الذين يقرؤون القرآن ولا يجاوز تراقيهم يوزعون الأخطاء، وها هم يرمون أمير المؤمنين بالكفر، وعندما نقول بأنهم أتباع الشيطان فإن هذا القول حق، لأن أمير عسكرهم كان عبد الله بن وهب الراسبي، وهو المعروف لهم اسماً ونسباً، أما الأستاذ الذي يغذيهم بالعلوم فهو شيطان الردهة (ذو الشدية).^(٢)

وروي أن أمير المؤمنين علي ﷺ عندما تحرك بقواته في اتجاه

(١) تاريخ الطبري: ج ٥/٦٥، الكامل: ج ٢/٣٩٣، الإرشاد: ج ١/٢٧٠.

(٢) (معالم الفتن: ١٢١/٢)

الخوارج كان يسير بجانبه جندب الأزدي فقال أمير المؤمنين: يا جندب أترى تلك الراية؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، فقال: فإن رسول الله ﷺ أخبرني أنهم يقتلون عندها..^(١)

وكان طليق بن علي اليمامي يقول: قال النبي ﷺ: يوشك أن يجيء قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، طوبى لمن قتلهم وطوبى لمن قتلوه، أما إنهم سيخرجون بأرض قومك يا يمامي يقاتلون بين الأنهار، قال قلت: بأبي أنت وأمي ما بها أنهار قال: إنها ستكون..^(٢)

وهكذا أخبر النبي ﷺ بهذه الأنماط البشرية أخبر بمجيئهم وقتالهم بين الأنهار في وقت لم يكن هناك وجود للأنهار، ثم دل علي بن أبي طالب عليه السلام على رابية في هذه الأرض وأخبره بأنهم عندها يقتلون.. إنه الإخبار بالغيب عن الله، الإخبار بخطوات الشيطان قبل أن تظهر آثارها على الأرض.. إن الإخبار بالغيب حصار للشيطان وانتصار للإنسان، ولكن أكثر الناس لا يعقلون.

٦. صبر الإمام علي عليه السلام عليهم

كم كان أمير المؤمنين عليه السلام واسع الصدر صابراً في ذات الله، ساكتاً على المضض، غاضياً على القذى، متوقفاً على حدود الله في كل لمحة أو لحظة أو طرفة عين، ورغم كل تلك الجبال من الحلم والصبر على المارقين فإنه (روحي له الفداء) عال صبره وقلت حيلته بهم..

(١) (كنز العمال ٣٠٢/ ١١)

(٢) (كنز العمال ٢٠٨/ ١١)

فآذوه بشخصه العظيم، وشخصيته المباركة، واعترضوا عليه في القيام والقعود، في الجهاد والصلاة، بقيامها والسجود، في المجلس وفوق المنبر.. وهو مازال صابراً عليهم..

ومما نقله الرواة الشيء الكثير وأكتفي ببعضها فقط.. فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: إن علياً عليه السلام كان في صلاة الصبح فقرأ ابن الكوا وهو خلفه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. فأنصت علي عليه السلام؛ تعظيماً للقرآن حتى فرغ من الآية، ثم عاد في قراءته، ثم أعاد ابن الكوا الآية، فأنصت علي عليه السلام أيضاً، ثم قرأ، فأعاد ابن الكوا فأنصت علي عليه السلام، ثم قال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، ثم أتم السورة، ثم ركع^(١)

وفي مروج الذهب عن الصلت بن بهرام: لما قدم علي الكوفة جعلت الحرورية تناديه وهو على المنبر: جزعت من البلية، ورضيت بالقضية، وقبلت الدنية، لا حكم إلا لله. فيقول: حكم الله أنتظر فيكم. فيقولون: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. [الزمر: ٦٥] فيقول علي: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]^(٢)

وفي تاريخ الطبري عن كثير بن بهز الحضرمي: قام علي عليه السلام في الناس يخطبهم ذات يوم، فقال رجل - من جانب المسجد -: لا حكم إلا لله. فقام آخر فقال مثل ذلك، ثم توالى عدة رجال يحكمون.

فقال علي: الله أكبر، كلمة حق يلتمس بها باطل! أما إن لكم عندنا

(١) تاريخ الطبري ج ٥/٧٣، البداية والنهاية ج ٧/٢٨٥، تهذيب الأحكام ج ٣/٣٥

(٢) مروج الذهب ج ٢/٢٠٦.

ثلاثاً ما صحبتهمونا: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفياء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدؤونا. ثم رجع إلى مكانه الذي كان فيه من خطبته^(١).

وفي دعائم الإسلام: خطب [علي عليه السلام] بالكوفة فقام رجل من الخوارج فقال: لا حكم إلا لله. فسكت علي، ثم قام آخر وآخر، فلما أكثروا عليه قال: كلمة حق يراد بها باطل، لكم عندنا ثلاث خصال: لا نمنعكم مساجد الله أن تصلوا فيها، ولا نمنعكم الفياء ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نبدؤكم بحرب حتى تبدؤونا به، وأشهد لقد أخبرني النبي الصادق عن الروح الأمين عن رب العالمين أنه لا يخرج علينا منكم فرقة - قلت أو كثرت إلى يوم القيامة - إلا جعل الله حتفها على أيدينا، وأن أفضل الجهاد جهادكم، وأفضل الشهداء من قتلتموه، وأفضل المجاهدين من قتلكم؛ فاعملوا ما أنتم عاملون، فيوم القيامة يخسر المبطلون، و﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾^(٢) [الأنعام: ٦٧]

وفي تاريخ الطبري عن عبد الملك بن أبي حرة الحنفي: إن علياً خرج ذات يوم يخطب، فإنه لفي خطبته إذ حكمت المحكمة في جوانب المسجد، فقال علي عليه السلام: الله أكبر، كلمة حق يراد بها باطل! إن سكتوا عممناهم، وإن تكلموا حججناهم، وإن خرجوا علينا قاتلناهم.

فوثب يزيد بن عاصم المحاربي فقال: الحمد لله غير مودع ربنا، ولا مستغنى عنه.. اللهم، إنا نعوذ بك من إعطاء الدنية في ديننا؛ فإن إعطاء الدنية في الدين إدهان في أمر الله عز وجل، وذل راجع بأهله إلى سخط الله. يا علي، أبالقتل تخوفنا؟ أما والله، إني لأرجو أن تضربكم بها عما قليل

(١) تاريخ الطبري: ج ٥/٧٣، الكامل: ج ٢/٣٩٨.

(٢) دعائم الإسلام: ج ١/٣٩٣.

غير مصفحات، ثم لتعلمن أينا أولى بها صلياً. ثم خرج بهم هو وإخوة له ثلاثة هو رابعهم فأصيبوا مع الخوارج بالنهر، وأصيب أحدهم بعد ذلك بالنخيلة^(١)..

قال الإمام علي عليه السلام - من كلام له في الخوارج لما سمع قولهم: لا حكم إلا لله - : كلمة حق يراد بها باطل! نعم، إنه لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلا لله، وإنه لا بد للناس من أمير؛ بر أو فاجر؛ يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، ويبلغ الله فيها الأجل، ويجمع به الفياء، ويقا تل به العدو، وتأمين به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوي، حتى يستريح بر، ويستراح من فاجر^(٢).

وكان قد بعث الإمام علي عليه السلام إلى الخوارج: أن سيروا إلى حيث شئتم، ولا تفسدوا في الأرض؛ فإنني غير هائجكم ما لم تحدثوا حدثاً.. ولكن فعلوا أفعالاً مهولة من الفساد الذي يطاق..

٧. قتلهم ابن خباب

هو عبد الله بن خباب بن الارت بن جندلة بن سعد بن خزيمة، كان أباه من الصحابة، وكان هو يرى رأي الخوارج بادئ ذي بدء، إلا أنه تاب وتركهم وأخذ زوجته وهرب منهم ولهذا كان يخاف منهم..

وكان مما فعلوه من أفعال تشيب الأطفال من هولها، لاسيما استهانتهم بالدماء المسلمة البريئة من كل ذنب، وأشنع ما فعلوه مع عبد الله بن خباب الصحابي وامرأته وهي حبلى، إليك الرواية..

(١) تاريخ الطبري: ج ٥/٧٢، الكامل: ج ٢/٣٩٨.

(٢) نهج البلاغة: خ ٤٠، البحار: ج ٣٣/٣٥٨.

في مسند أحمد بن حنبل عن أيوب عن حميد بن هلال عن رجل من عبد القيس كان من الخوارج ثم فارقههم قال: دخلوا قرية، فخرج عبد الله بن خباب، ذعراً يجزّ رداءه، فقالوا: لم ترع؟ قال: والله لقد رعتموني! قالوا: أنت عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم.

قالوا: فهل سمعت من أبيك حديثاً يحدثه عن رسول الله ﷺ تحدثناه؟ قال: نعم، سمعته يحدث عن رسول الله ﷺ أنه ذكر فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي. قال: فإن أدركت ذلك فكن عبد الله المقتول - قال أيوب: ولا أعلمه إلا قال: ولا تكن عبد الله القاتل - قالوا: أنت سمعت هذا من أبيك يحدثه عن رسول الله ﷺ؟ قال: نعم.

قال: فقدموه على ضفة النهر، فضربوا عنقه، فسال دمه كأنه شراك نعل (رباط الحذاء) ما ابذقر (أو امذقر دمه، أي جرى مستطيلاً متفرقاً، فيقال: امذقر اللبن واذمقر: تقطع وتفلق، وكذلك الدم، يجتمع ثم يتقطع ولا يختلط بالماء)^(١)، وبقرؤا أم ولده عما في بطنها..^(٢)

تاريخ الطبري عن حميد بن هلال: إن الخارجة التي أقبلت من البصرة جاءت حتى دنت من إخوانها بالنهر، فخرجت عصابة منهم، فإذا هم برجل يسوق بامرأة على حمار، فعبروا إليه، فدعوه، فتهددوه وأفزعوه، وقالوا له: من أنت؟ قال: أنا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ.. ثم أهوى إلى ثوبه يتناوله من الأرض، وكان سقط عنه لما أفزعوه. فقالوا له: أفزعاك؟ قال: نعم. قالوا له: لا روع عليك، فحدثنا عن أبيك بحديث سمعه من النبي ﷺ؟ لعل الله ينفعنا به. قال: حدثني أبي

(١) (لسان العرب: ١٣/٥٩ مذاق)

(٢) (وقعة النهروان، علي عبد الحسين الهاشمي ٥٤: عن عدة مصادر)

عن رسول الله ﷺ: أن فتنة تكون، يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه، يمسي فيها مؤمناً ويصبح فيها كافراً، ويصبح فيها كافراً ويمسي فيها مؤمناً. فقالوا: لهذا الحديث سألناك، فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى عليهما خيراً. قالوا: ما تقول في عثمان، في أول خلافته وفي آخرها؟ قال: إنه كان محققاً في أولها وفي آخرها.

قالوا: فما تقول في علي قبل التحكيم وبعده؟ قال: إنه أعلم بالله منكم، وأشد توكيفاً على دينه، وأنفذ بصيرة. فقالوا: إنك تتبع الهوى، وتوالي الرجال على أسمائها لا على أفعالها، والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحداً.

فأخذه فكتفوه، ثم أقبلوا به وبامراته وهي حبلى متم (آخر أيامها)، حتى نزلوا تحت نخل موافر، فسقطت منه رطبة، فأخذها أحدهم فقفز بها في فمه، فقال أحدهم: بغير حلها وبغير ثمن! فلفظها وألقاها من فمه (تأمل بهذا الفقه، وهذا الاحتياط بالتمرة).

ثم أخذ سيفه؛ فأخذ يمينه فمر به خنزير لأهل الذمة، فضربه بسيفه، فقالوا: هذا فساد في الأرض! فأتى صاحب الخنزير فأرضاه عن خنزيره (فلا تتعجب من فقه القوم هذا فهم يحتاطون بقتل خنزير لأهل الذمة).

فلما رأى ذلك منهم ابن خباب، قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى فما علي منكم بأس، إني لمسلم، ما أحدثت في الإسلام حدثاً، ولقد أمنتوني؛ قلت: لا روع عليك.. (فاطمأن الرجل فعنده أمانان: أمان الإسلام، وأمان الرجال)..

(ولكن للأسف لم ينفعه كل ذلك ففقه الاحتياط بدماء الخنازير

حكم عليه وذريته بالإعدام ذبحاً ودون رحمة)، فجاؤوا به فأضجعوه، فذبحوه، وسال دمه في الماء(الفرات). وأقبلوا إلى المرأة، فقالت: أني إنما أنا امرأة، ألا تتقون الله! فبقروا بطنها(وذبحوا ولدها بذلك الفقه)، ولم يكتفوا بهذا الرجل وولده وزوجته بل عدوا يعثون في البلاد فسادا وافسادا لم يتحدث التاريخ بمثله، فقتلوا ثلاث نسوة من طيء، وقتلوا أم سنان الصيداوية..

فكان لا بد لأمير النمل عليه السلام وإمام المسلمين من تأديبهم وأخذ الحق منهم مهما كان عددهم أو حجتهم فالفساد في البلاد ممنوع، وسفك الدماء حرام، وفقه الاحتياط بدماء الخنازير هذا لا يقره أمير المؤمنين علي عليه السلام أبداً..

الفصل الثالث:

خوض معركة النهروان

١. مواصفات الحرب

١.١. تاريخها

بعدهما يقرب من سنة واحدة على واقعة صفين، وفي وقت لم تكن قد أخدمت فيه نيران هذه الحرب الدامية، اندلع لهيب ثالث حرب داخلية منطلقا هذه المرة من داخل جيش الإمام عليه السلام وبزعامة المتطرفين من المسلمين. وهكذا كان الإمام منذ تسلمه لزمام السلطة السياسية يواجه في كل عام حربا أهلية. إن تاريخ وقوع معركة النهروان غير محدد على وجه الدقة؛ فقد ذكر بعض المؤرخين أنها وقعت سنة ٣٨ هـ^(١)

(١) ((تاريخ الطبري: ٥ / ٩١ وفيه «وهذا القول عليه أكثر أهل السير»، الكامل في التاريخ: ٢ / ٤٠٧، مروج الذهب: ٢ / ٣٦١ وص ٤١٥، أنساب الأشراف: ٢ / ٣٦٢، تاريخ الإسلام للذهبي:

ويبدو أن الرأي الأول أقرب إلى الصواب؛ فبالإضافة إلى أن الكثير من أصحاب السير - أو أكثرهم كما يقول الطبري - يذهبون إلى هذا القول؛ فإن تتبع الدقيق لمجريات الأحداث في عهد حكومة الإمام علي عليه السلام يؤكد هذا الرأي أيضا. وأما الشهر الذي وقعت فيه معركة النهروان فلم يشر إليه أكثر المؤرخين إلا أن البعض منهم يرى أنها حدثت في (التاسع من شهر صفر وصادف ذلك يوم النيروز أي ٢١/آذار/ من السنة الشمسية)^(١) سنة ٣٨ هـ ويرى آخرون أنها كانت في شهر شعبان سنة ٣٨ هـ^(٢) ويبدو أن القول الصحيح هو الأول أي في شهر صفر سنة ٣٨ هـ؛ لأن وقت التحكيم كان قد عين في شهر رمضان، ومن بعده جهز الإمام عليه السلام جيشا وسار به نحو الشام، وإذا به يواجه تمرد الخوارج عليه. وكانت مدة الحرب قصيرة جدا وما لبثت أن خمدت على وجه السرعة..

٢.١. مدتها

كانت المعركة سريعة وخاطفة وربما لم تتجاوز الساعتين^(٣) فهي أشبه منها بالغارة، أو الكمين المنصوب على طريق العدو، فلم

٣/ ٥٨٨، بينما ذكر آخرون أنها وقعت سنة ٣٧ هـ (أسد الغابة: ١/ ٧١٤ / ١١٢٧، التنبيه والإشراف: ٢٥٦)

وأشار غيرهم إلى وقوعها سنة ٣٩ هـ ((تاريخ يعقوبي: ٢/ ١٩٣)

(١) (البحار: ٣٣/ ٤٠٤، أنساب الأشراف: ٣/ ١٣٦، تاريخ الإسلام للذهبي: ٣/ ٥٨٨)

(٢) ((تاريخ الإسلام للذهبي: ٣/ ٥٨٨)

(٣) (تاريخ الطبري: ٥/ ٨٦ وفيه «فأهمدوا في الساعة»، الكامل في التاريخ: ٢/ ٤٠٦ وفيه «فأهلكوا في ساعة»، الأخبار الطوال: ٢١٠ وفيه «وقتل الخوارج كلها ربيعة واحدة»، الفتوح: ٤/ ٢٧٤ وفيه «لم تكن إلا ساعة حتى قتلوا بأجمعهم»: تاريخ يعقوبي: ٢/ ١٩٣ وفيه «التحمت الحرب بينهم مع زوال الشمس؛ فأقامت مقدار ساعتين من النهار»، كشف الغمة: ١/ ٢٦٧ وفيه «لم يكن إلا ساعة حتى قتلوا»

تستغرق إلا ساعتين من الزمن، وبدأت مع زوال الشمس، كعادة أمير المؤمنين عليه السلام أنه لا يبدأ الحرب إلا بعد أن يصلي الظهر، فأقامت مقدار ساعتين من النهار فقط، وتاريخ الطبري يقول: فما لبثناهم، فكأنما قيل لهم: موتوا، فماتوا قبل أن تشتد شوكتهم، وتعظم نكايتهم..

وفي الإمامة والسياسة عن الثعلبي: فلا والله ما لبثوا فواقا (حلب ناقة)، حتى صرعهم الله، كأنما قيل لهم: موتوا فماتوا..

٣.١. مكانها

دارت رحى الحرب في النهروان وهي كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي، حدها الأعلى متصل ببغداد، وفيها عدة بلاد متوسطة، على أربعة فراسخ من بغداد.^(١)

٤.١. عدد المشاركين فيها

شكل جيش الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أكثر من ثمانية وستين ألفاً؛ وذلك أن الإمام عليه السلام تهيأ لقتال أهل الشام، ولم يكن عزم على قتال الخوارج.

وأما جيش الخوارج فكان اثنا عشر ألف تاب منهم من تاب ورجع إلى أهله من رجع، والذين خاضوا المعركة فكانوا أربعة آلاف (على الأرجح)، أو ألفين وثمانمائة، كما في بعض المصادر. ففي تاريخ الطبري عن أبي سلمة الزهري: كانوا أربعة آلاف، فكان الذين بقوا مع عبد الله بن وهب منهم ألفين وثمانمائة..

وفي تاريخ الطبري عن جبر بن نوف: جمع [الإمام عليه السلام]

(١) (معجم البلدان: ٥ / ٣٢٤)

إليه رؤوس أهل الكوفة، ورؤوس الأسباع، ورؤوس القبائل، ووجوه الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أهل الكوفة! أنتم إخواني، وأنصاري، وأعواني على الحق، وصحابتني على جهاد عدوي المحلين.. بكم أضرب المدبر، وأرجو تمام طاعة المقبل، وقد بعثت إلى أهل البصرة فاستنفرتهم إليكم فلم يأتني منهم إلا ثلاثة آلاف ومائتا رجل، فأعينوني بمناصحة جلية، خلية من الغش، إنكم مخرجنا إلى صفين، بل استجمعوا بأجمعكم، وإني أسألكم أن يكتب لي رئيس كل قوم ما في عشيرته من المقاتلة، وأبناء المقاتلة الذين أدركوا القتال، وعبدان عشيرته ومواليهم، ثم يرفع ذلك إلينا.

فقام سعيد بن قيس الهمداني فقال: يا أمير المؤمنين سمعاً وطاعةً، ووداً ونصيحةً، أنا أول الناس جاء بما سألت وبما طلبت.

وقام معقل بن قيس الرياحي، فقال له نحوا من ذلك.. وقام عدي بن حاتم، وزباد بن خصفة، وحجر بن عدي، وأشرف الناس والقبائل فقالوا مثل ذلك.. ثم إن الرؤوس كتبوا من فيهم، ثم رفعوهم إليه، وأمروا أبناءهم وعبيدهم ومواليهم أن يخرجوا معهم، وألا يتخلف منهم عنهم أحد، فرفعوا إليه (أربعين ألف مقاتل، وسبعة عشر ألفاً من الأبناء ممن أدرك، وثمانية آلاف من مواليهم وعبيدهم)، وقالوا: يا أمير المؤمنين أما من عندنا من المقاتلة وأبناء المقاتلة ممن قد بلغ الحلم وأطاق القتال فقد رفعنا إليك منهم ذوي القوة والجلد، وأمرناهم بالشخص معنا، ومنهم ضعفاء وهم في ضياعنا وأشياء مما يصلحنا.

فكانت العرب (سبعة وخمسين ألفاً) من أهل الكوفة، ومن مواليهم ومماليكهم (ثمانية آلاف)، وكان جميع أهل الكوفة (خمسة وستين ألفاً، وثلاثة آلاف ومائتي) رجل من أهل البصرة، وكان جميع من معه عليه السلام

(ثمانية وستين ألفاً ومائتي) رجل^(١)..

٥.١. قادة جيش الحق

القائد العام: الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام..

قائد الميمنة: حجر بن عدي الكندي.

قائد الميسرة: شيبث بن ربعي، أو معقل بن قيس الرياحي.

قائد الخيالة: أبو أيوب الأنصاري.

قائد الرجال: أبو قتادة الأنصاري.

قائد أهل المدينة: قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري..

٦.١. قادة جيش المارقين

القائد العام: عبد الله بن وهب الراسبي.

قائد الميمنة: زيد بن حصين الطائي، وقيل: يزيد بن حصين.

قائد الميسرة: شريح بن أوفى العبسي.

قائد الخيالة: حمزة بن سنان الأسدي.

قائد الرجال: حرقوص بن زهير السعدي..

٢. خطبة الإمام عليه السلام بين الصفين

الأخبار الموفقيات عن علي بن صالح: لما استوى الصفان بالنهروان تقدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بين الصفين، ثم قال: أما

(١) راجع موسوعة الإمام علي عليه السلام للري شهري: ج ٦/ ٣١٥ وما بعدها.

بعد، أيتها العصابة التي أخرجتها عادة المرء والضلالة، وصدف بها عن الحق الهوى والزيغ، إني نذير لكم أن تصبحوا غدا صرعى بأكناف هذا النهر، أو بملطاط من الغائط، بلا بينة من ربكم ولا سلطان مبين. ألم أنحكم عن هذه الحكومة وأحذركموها، وأعلمكم أن طلب القوم لها دهن منهم ومكيدة؟! فخالفتهم أمري وجانبتم الحزم فعصيتهموني حتى أقررت بأن حكمت، وأخذت على الحكمين فاستوثقت، وأمرتهما أن يحييا ما أحيا القرآن، ويميتا ما أمات القرآن، فخالفا أمري وعملا بالهوى، ونحن على الأمر الأول، فأين تذهبون؟ وأين يتاه بكم؟

فقال خطيبهم: أما بعد، يا علي! فإنا حين حكمنا كان ذلك كفرا منا، فإن تبت كما تبنا فنحن معك ومنك، وإن أبيت فنحن منابذك على سواء إن الله لا يحب الخائنين. فقال علي عليه السلام: أصابكم حاصب ولا بقي منكم وابر، أبعد إيماني بالله، وجهادي في سبيل الله، وهجرتي مع رسول الله ﷺ أقر بالكفر؟! لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين، ولكن منيت بمعشر أخفاء الهام، سفهاء الأحلام، والله المستعان..

وروي أنه عليه السلام قال للخوارج وقد خرج إلى معسكرهم وهم مقيمون على عنادهم ومصرون على القتال، فقال عليه السلام: أكلكم شهد معنا صفين؟

قالوا: منا من شهد ومنا من لم يشهد.

قال عليه السلام: فامتازوا فرقتين فليكن من شهد صفين فرقة ومن لم يشهدا فرقة حتى أكلم كلا بكلامه.. ونادى الناس فقال: أمسكوا عن الكلام وانصتوا لقولي وأقبلوا بأفئدتكم إليّ فمن نشدناه شهادة فليقل بعلمه فيها.. ثم كلمهم عليه السلام بكلام طويل منه.. ألم تقولوا عند رفعهم المصاحف حيلة وغيلة ومكرا وخديعة: إخواننا وأهل دعوتنا استقالونا

واستراحوا إلى كتاب الله سبحانه فالرأي القبول منهم والتنفيس عنهم! فقلت لكم: هذا أمر ظاهره إيمان وباطنه عدوان، وأوله رحمة وآخره ندامة، فأقيموا على شأنكم والزموا طريقكم وعضوا على الجهاد بنواجذكم ولا تلتفتوا إلى ناعق نعق إن أجيب أضل وإن ترك ذل، وقد كانت هذه الفعلة وقد رأيتمكم أعطيتموها والله لئن أبيتها ما وجبت علي فريضتها ولا حملني الله ذنبها ووالله إن جئتها إني للمحق الذي يتبع وإن الكتاب لمعي ما فارقت مذكرته.

فلقد كنا مع رسول الله ﷺ وإن القتل ليدور بين الآباء والأبناء والإخوان والقربات فما نزداد على كل مصيبة وشدة إلا إيمانا ومضيا على الحق وتسليما للأمر وصبرا على مضض الجراح ولكننا إنما أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام على ما دخل فيه من الزيف والاعوجاج والشبهة والتأويل فإذا طمعنا في خصلة يلتم الله بها شعنا ونددنا بها إلى البقية فيما بيننا رغبنا فيها وأمسكنا عما سواها.^(١)

ثم قال ﷺ للخوارج بعد جدال: فإن أبيتم إلا أن تزعموا أنني أخطأت وضللت فلم تضللون عامة أمة محمد ﷺ بضاللي وتأخذونهم بخطأي وتكفرونهم بذنوبي؟ سيوفكم على عواتكم تضعونها مواضع البراءة والسقم وتخلطون من أذن بمن لم يذنب وقد علمتم أن رسول الله ﷺ رجم الزاني ثم صلى عليه ثم ورثه أهله وقتل القاتل وورث ميراثه أهله وقطع السارق وجلد الزاني غير المحصن ثم قسّم عليهما من الفيء ونكح المسلمات فأخذهم رسول الله ﷺ بذنوبهم وأقام حق الله فيهم ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام ولم يخرج أسماءهم من بين أهله. ثم أنتم شرار الناس ومن رمى به الشيطان مراميه وضرب به تيهه

(١) السيد الرضي نهج البلاغة: (١٢٠)

وسيهلك في صنفان محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق وخير الناس في حالاً النمط الأوسط فالزموه والزموا السواد الأعظم فإن يد الله على الجماعة وإياكم والفرقة فإن الشاذ من الناس للشيطان كما أن الشاذة من الغنم للذئب.

ألا من دعا إلى هذا شعار فاقتلوه ولو كان تحت عمامتي هذه وإنما حُكِّمَ الحكماء ليحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن وإحياءه الاجتماع عليه وإماتته الافتراق عنه، فإن جرننا القرآن إليهم اتبعناهم وإن جرهم إلينا القرآن اتبعونا.. فلم آت - لا أبا لكم- بُجرا ولا ختلتم عن أمركم ولا لبسته عليكم وإنما اجتمع رأي ملئكم على اختيار رجلين أخذنا عليهما أن لا يتعديا القرآن فتاها عنه وتركوا الحق وهما يبصرانه وكان الجور هواهما فمضيا عليه وقد سبق استثنائنا عليهما في الحكومة بالعدل والصمد للحق سوء رأيهما وجور حكمهما.^(١)

وروي أن الإمام علي عليه السلام قال لأهل النهر: يا هؤلاء إن أنفسكم قد سولت لكم فراق هذه الحكومة التي أنتم ابتدأتموها وسألتموها وأنا لها كاره، وأنبأتكم أن القوم سألوكموها مكيدة ودهنا، فأبيت علي إباء المخالفين، وعدلتم عني عدول النكداء العاصين، حتى صرفت رأيي إلى رأيكم، وأنتم والله معاشر أخفاء الهام سفهاء الأحلام، فلم آت - لا أبا لكم- حراما.. والله ما خبلتكم عن أموركم ولا أخفيت شيئا من هذا الأمر عنكم، ولا أوطأتكم عشوة، ولا دنيت لكم الضراء، وإن كان أمرنا لأمر المسلمين ظاهرا فأجمع رأي ملئكم على أن اختاروا رجلين، فأخذنا عليهما أن يحكما بما في القرآن ولا يعدوا، فتاها وتركوا الحق وهما يبصرانه، وكان الجور هواهما، وقد سبق استثنائنا عليهما في

(١) (البحار العلامة المجلسي ج ٣٣ / ٣٧٣ نهج البلاغة: (١٢٧)

الحكم بالعدل والصمد للحق، بسوء رأيهما وجور حكمهما والثقة في أيدينا لأنفسنا حين خالفا سبيل الحق وأتيا بما لا يعرف، فبينوا لنا بماذا تستحلون قتالنا والخروج من جماعتنا إن اختار الناس رجلين أن تضعوا أسيافكم على عواتقكم ثم تستعرضوا الناس تضربون رقابهم وتسفكون دماءهم؟! إن هذا لهو الخسران المبين! والله لو قتلتم على هذا دجاجة لعظم عند الله قتلها، فكيف بالنفس التي قتلها عند الله حرام؟!

فتنادوا: لا تخاطبوهم ولا تكلموهم، وتهيؤا للقاء الرب! الرواح، الرواح إلى الجنة! فخرج الإمام علي عليه السلام فعبأ الناس بنفسه، فجعل القيادة على الشكل الذي تقدم..

وبعث الإمام علي عليه السلام الأسود بن يزيد المرادي في ألفي فارس حتى أتى حمزة بن سنان وهو في ثلاثمائة فارس من خيلهم للقائهم..

٣. رفع راية الأمان

في تاريخ الطبري عن أبي سلمة الزهري: رفع علي عليه السلام راية أمان مع أبي أيوب، فناداهم أبو أيوب: من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن، إنه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سفك دمائكم.

فقال فروة بن نوفل الأشجعي: والله، ما أدري على أي شيء نقاتل عليا؟! لا أرى إلا أن أنصرف حتى تنفذ لي بصيرتي في قتاله أو اتباعه، وانصرف في خمسمائة فارس حتى نزل البندنجين (٢) والدسكرة، وخرجت طائفة أخرى متفرقين فنزلت الكوفة، وخرج إلى علي منهم

نحو من مائة، وكانوا أربعة آلاف، فكان الذين بقوا مع عبد الله بن وهب منهم ألفين وثمانمائة.. وزحفوا إلى جيش الإمام علي عليه السلام الذي كان يقارب السبعين ألف مقاتل..

في الأخبار الطوال: وخرجت طائفة أخرى حتى لحقوا بالكوفة، واستأمن إلى الراية منهم ألف رجل، فلم يبق مع عبد الله بن وهب إلا أقل من أربعة آلاف رجل..

وتهيب المسلمون أن يقاتلوا الخوارج بسبب مظهرهم الخادع، وقد استهم المزيقة! فظاهرهم الصلاح وأنهم عبّاد وقُراء قرآن، وأهل تدين وتنسك! فلم يكن باستطاعة أحد أن يسفك دم هذه القداسة المزيقة إلا صاحب القداسة الحقيقية الإمام علي عليه السلام، المشهود له من رسول الله ﷺ بمعجزاته التي رآها منه المسلمون في فتنة الخوارج وغيرها، فخشعوا لها وكبروا، ومنها هذا النموذج:

روى جندب، فقال: لما فارقت الخوارج علياً عليه السلام خرج في طلبهم وخرجنا معه، فانتهينا إلى عسكر القوم وإذا لهم دوي كدوي النحل من قراءة القرآن، وإذا فيهم أصحاب الثفنات وأصحاب البرانس، فلما رأيتهم دخلني من ذلك شدة، فتنحيت فركزت رمحي ونزلت عن فرسي ووضعت برنسي فنثرت عليه درعي، وأخذت بمقود فرسي فقامت أصلى إلى رمحي، وأنا أقول في صلاتي: اللهم إن كان قتال هؤلاء القوم لك طاعة فائذن لي فيه، وإن كان معصية فأرني براءتك!

قال: فأنا كذلك إذ أقبل علي بن أبي طالب عليه السلام على بغلة رسول الله ﷺ فلما حاذاني قال: تعوذ بالله، تعوذ بالله يا جندب من شر الشك! فجئت أسعى إليه ونزل فقام يصلي، إذ أقبل رجل على برذون يقرب به، فقال يا أمير المؤمنين؟ قال: ما شأنك؟ قال ألك حاجة في القوم؟ قال: وما

ذاك؟ قال: قد قطعوا النهر. قال: ما قطعوه! قلت: سبحان الله!

ثم جاء آخر أرفع منه في الجري فقال يا أمير المؤمنين؟ قال: ما تشاء؟ قال ألك حاجة في القوم؟ قال: وما ذاك؟ قال: قد قطعوا النهر فذهبوا. قلت: الله أكبر.

قال علي عليه السلام: ما قطعوه، ثم جاء آخر يستحضر بفرسه، فقال يا أمير المؤمنين؟ قال: ما تشاء؟ قال ألك حاجة في القوم؟ قال: وما ذاك؟ قال: قد قطعوا النهر. قال: ما قطعوه ولا يقطعونه وليقتلن دونه، عهد من الله ورسوله!

قلت: الله أكبر، ثم قمت فأمسكت له بالركاب فركب فرسه، ثم رجعت إلى درعي فلبستها، وإلى قوسي فعلقته وخرجت أسايره، فقال لي: يا جندب، قلت لبيك يا أمير المؤمنين قال: أما أنا فأبعث إليهم رجلاً يقرأ المصحف يدعو إلى كتاب الله ربهم وسنة نبيهم فلا يقبل علينا بوجهه حتى يرشقوه بالنبل! يا جندب أما إنه لا يقتل منا عشرة ولا ينجو منهم عشرة!

فانتهينا إلى القوم وهم في معسكرهم الذي كانوا فيه لم يبرحوا!

٤. القتال

١.٤. دعاء الإمام عليه السلام قبل القتال

قال الإمام الباقر عليه السلام: إن علياً عليه السلام كان يدعو على الخوارج فيقول في دعائه: اللهم رب البيت المعمور، والسقف المرفوع، والبحر المسجور، والكتاب المسطور، أسالك الظفر على هؤلاء الذين نبذوا

كتابك وراء ظهورهم، وفارقوا أمة أحمد عتوا عليك^(١)..

٢.٤. خطة القتال الحكيمة

عندما اعتزل القتال منهم من اعتزل، وتاب إلى جيش الحق من أراد الله له الحسنی، وأصر أهل الزيغ والنفاق، الذين غلا الحقد بصدورهم، والحسد بقلوبهم، على الحرب والقتال، ورأى منهم أمير المؤمنين عليه السلام ذلك فكانوا على قلتهم بالنسبة إلى جيش الحق شرذمة فأراد الإمام القائد (ع) أن يعطي للأمة درساً في التكتيك العسكري..

نظر الإمام عليه السلام إلى المارقين، فرأهم أربعة آلاف ليس فيهم إلا حوالي ثلاث مائة فارس فقط، أي أن معظم الجيش كان من الرجال، وهؤلاء يتعبون أثناء التقدم والاندفاع للقتال جرياً أو هرولة..

فكانت الخطة العلوية الحكيمة على الشكل التالي: قدّم الإمام علي عليه السلام الخيل دون الرجال، وصفّ المقاتلين وراء الخيل صفّين، وصفّ المرامية (رماة النبل) أمام الصف الأول وقال لأصحابه: كفوا عنهم حتى يبدؤوكم، فإنهم لو قد شدوا عليكم وجّلهم رجال لم ينتهوا إليكم إلا لاغبين (تعبين)، وأنتم رادون جامون (مرتاحون).

وأعطى أمره للخيلة بأن تفرج يمينا ويسارا إذا هجمت المارقة عليهم ليدخلوا في عمق الجيش ثم ينقضوا عليهم بعد شدة تعبهم من كل الجهات، فيقضى عليهم بدقائق معدودة..

٣.٤. الأمر بالقتال

أعطى الإمام علي عليه السلام تعليماته القتالية للقادة والجند، ثم نادى

(١) قرب الإسناد : ٣٧/١٢، البحار : ج ٣٣/٣٨١.

في أصحابه بعد أن صَفَّهم، وكان يأتي الصف من رأسه ذا إلى رأسه ذا مرتين وهو، يقول: مَنْ يأخذ هذا المصحف فيمشي به إلى هؤلاء القوم فيدعوهم إلى كتاب الله ربهم وسنة نبيهم وهو مقتول وله الجنة؟ فلم يجبه إلا شاب من بني عامر بن صعصعة، فلما رأى علي عليه السلام حادثة سنه، قال له: ارجع إلى موقفك، ثم نادى الثانية فلم يخرج إليه إلا ذلك الشاب، ثم نادى الثالثة فلم يخرج إليه إلا ذلك الشاب، فقال له علي عليه السلام: خُذْ، فأخذ المصحف، فقال له: أما إنك مقتول ولست مقبلاً علينا بوجهك حتى يرشقوك بالنبل!

فخرج الشاب بالمصحف إلى القوم فلما دنا منهم حيث يسمعون، قاموا ونشبو الفتى قبل أن يرجع! قال: فرماه إنسان فأقبل علينا بوجهه فقعده، فقال الإمام علي عليه السلام: دونكم القوم!

قال جندب: فقتلت بكفي هذه بعد ما دخلني ما كان دخلني ثمانية قبل أن أصلي الظهر، وما قتل منا عشرة ولا نجا منهم عشرة كما قال عليه السلام! ^(١)

مروج الذهب: لما أشرف [علي عليه السلام] عليهم قال: الله أكبر، صدق الله ورسول الله ﷺ. فتصاف القوم، ووقف عليهم بنفسه، فدعاهم إلى الرجوع والتوبة، فأبوا ورموا أصحابه، فقليل له: قد رمونا. فقال: كفوا. فكرروا القول عليه ثلاثاً وهو يأمرهم بالكف، حتى أتى برجل قتيل متشطح بدمه. فقال علي: الله أكبر، الآن حل قتالهم، احملوا على القوم..

في شرح نهج البلاغة عن أبي عبيدة قال: استنطقهم علي عليه السلام بقتل عبد الله بن خباب، فأقروا به، فقال: انفردوا كتائب لأسمع قولكم كتيبة كتيبة. فتكتبوا كتائب، وأقرت كل كتيبة بمثل ما أقرت به الأخرى من

(١) (مجمع الزوائد: ٢٤١/٦: رواه الطبراني في الأوسط)

قتل ابن خباب، وقالوا: ولنقتلنك كما قتلناه! فقال علي: والله، لو أقر أهل الدنيا كلهم بقتله هكذا وأنا أقدر على قتلهم به لقتلتهم. ثم التفت إلى أصحابه فقال لهم: شدوا عليهم، فأنا أول من يشد عليهم^(١)..

٥. قتال الإمام عليه السلام بنفسه

الكامل للمبرد: خرج منهم رجل بعد أن قال علي (سلام الله عليه): ارجعوا وادفعوا إلينا قاتل عبد الله بن خباب.

فقالوا: كلنا قتله وشرك في دمه! ثم حمل منهم رجل على صف علي - وقد قال علي عليه السلام: لا تبدوؤوهم بقتال - فقتل من أصحاب علي ثلاثة وهو يقول:

أقتلهم ولا أرى عليا

ولو بدا أوجرته الخطيا

فخرج إليه علي (صلوات الله عليه) فقتله، فلما خالطه السيف قال: حبذا الروحة إلى الجنة! فقال عبد الله بن وهب: ما أدري أإلى الجنة أم إلى النار؟ فقال رجل من بني سعد: إنما حضرت اغترارا بهذا، وأراه قد شك!! فانخزل بجماعة من أصحابه، ومال ألف إلى ناحية أبي أيوب الأنصاري..

وفي مروج الذهب: حمل رجل من الخوارج على أصحاب علي عليه السلام، فجرح فيهم، وجعل يغشى كل ناحية، ويقول:

أضربهم ولو أرى عليا

ألبسته أبيض مشرفيا

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٢/ ٢٨٢، البحار: ج ٣٣/ ٣٥٥.

فخرج إليه علي (سلام الله عليه)، وهو يقول:
يا أيهذا المبتغي عليا
إنني أراك جاهلا شقيا
قد كنت عن كفاحه غنيا
هلم فابرز هاهنا إلينا
وحمل عليه علي عليه السلام، فقتله. ثم خرج منهم آخر، فحمل على
الناس، ففتك فيهم، وجعل يكر عليهم، وهو يقول:
أضربهم ولو أرى أبا حسن
ألبسته بصارمي ثوب غبن
فخرج إليه علي عليه السلام وهو يقول:
يا أيهذا المبتغي أبا حسن
إليك فانظر أينما يلقي الغبن
وحمل عليه علي عليه السلام وشكه بالرمح، وترك الرمح فيه، فانصرف
علي عليه السلام وهو يقول: لقد رأيت أبا حسن فرأيت ما تكره^(١)

٦. مقاتلة الإمام عليه السلام عبد الله بن وهب

الفتوح: تقدم عبد الله بن وهب الراسبي حتى وقف بين الجمعين،
ثم نادى بأعلى صوته: يا بن أبي طالب! حتى متى يكون هذه المطاولة
بيننا وبينك؟! والله، لا نبرح هذه العرصة أبداً أو تأبى على نفسك، فابرز
إليّ حتى أبرز إليك وذو الناس جانبا..
تبسم علي (سلام الله عليه) ثم قال: قاتله الله من رجل ما أقلّ حياءه!

(١) البحار: ج ٤٥٠/٣٤، مروج الذهب: ج ٢/٤١٦.

أما إنه ليعلم أنني حليف السيف وجديل الرمح، ولكنه أيس من الحياة،
أو لعله يطمع طمعا كاذبا.

قال: وجعل عبد الله يجول بين الصنفين وهو يرتجز ويقول:

أنا ابن وهب الراسبي الثاري
أضرب في القوم لأخذ الثار
حتى تزول دولة الأشرار
ويرجع الحق إلى الأخيار
ثم حمل فضربه علي عليه السلام ضربة ألحقه بأصحابه^(١)..

٧. حملة حرقوص على الإمام عليه السلام

وفي كشف اليقين: حمل ذو الشدية ليقتل عليا عليه السلام، فسبقه
علي عليه السلام وضربه ففلق البيضة ورأسه، فحملة فرسه فألقاه في آخر
المعركة في جرف دالية على شط النهر وان^(٢)..

٨. سرعة دمارهم

وبعد المباراة أقبلت الخوارج.. بعد أن تنادوا الرواح، الرواح إلى
الجنة، فشدوا على الناس والخييل أمام الرجال، فلم تثبت لهم خيل
أمير المؤمنين عليه السلام، وافترقت الخيل فرقتين فرقة نحو الميمنة وأخرى
نحو الميسرة، وأقبلوا نحو الرجال، فاستقبلت المرامية وجوههم
بالنبل، وعطفت عليهم الخيل من الميمنة والميسرة، ونهض إليهم

(١) الفتوح: ج ٤/٢٧٤، كشف الغمة: ج ١/٢٦٧.

(٢) كشف اليقين: ص ٢٠٥.

الرجال بالرماح والسيوف، فو الله ما لبثوهم أن أناموهم (أي قتلوهم عن آخرهم)..^(١)

وحمزة بن سنان صاحب خيلهم لما رأى الهلاك نادى بأصحابه: أن أنزلوا فذهبوا لينزلوا، فلم يستقروا على الأرض حتى حمل عليهم الأسود بن قيس المرادي بخيله، وجاءتهم الخيل من نحو الإمام علي عليه السلام، فأهمدوا جميعا في الساعة.

وفي تاريخ الطبري عن حكيم بن سعد - في وصف حرب النهروان - : ما هو إلا أن لقينا أهل البصرة، فما لبثناهم، فكأنما قيل لهم: موتوا، فماتوا قبل أن تشتد شوكتهم، وتعظم نكايتهم..^(٢)

وفي الإمامة والسياسة عن الثعلبي: لقد رأيت الخوارج حين استقبلتهم الرماح والنبل كأنهم معز اتقت المطر بقرونها، ثم عطفت الخيل عليهم من الميمنة والميسرة، ونهض علي في القلب بالسيوف والرماح، فلا والله ما لبثوا فوفا، حتى صرعهم الله، كأنما قيل لهم: موتوا فماتوا^(٣)

وقيل: لما أتاهم أمير المؤمنين عليه السلام فاستعطفهم فأبوا إلا قتاله، وتنادوا أن دعوا مخاطبة علي عليه السلام وأصحابه وبادروا الجنة، وصاحوا الرواح، الرواح إلى الجنة، وأمير المؤمنين يعبئ أصحابه، ونهاهم أن يتقدم إليهم أحد، فكان أول من خرج أخنس بن العيزار الطائي فقتله أمير المؤمنين عليه السلام مبارزة.. وخرج إلى أمير المؤمنين عليه السلام الوضاح بن الوضاح من جانب وابن عمه حرقوص من جانب، فقتل الوضاح، وضرب ضربة على رأس الحرقوص فقطعه، ووقع رأس سيفه على الفرس فشرد

(١) الطبري: ج ٥/ ٨٧.

(٢) السياسة والإمامة: ج ١/ ١٦٩، والفواق: الراحة بين حلتين للناقة.

ورجله في الركاب ، حتى أوقعه في دولاب..^(١)

(١) مناقب آل أبي طالب : ٣٧١ / ٢

الفصل الرابع:

النتائج والآثار لمعركة النهروان

١. ظهور آية من آيات النبوة

آيات النبوة ومعجزات الرسول الأعظم ﷺ لا تنتهي وكان له في المارقين آيات معاجز لم يستطع الزمان أن يبلوها لعظمتها، ولم يستطع الأعداء أن يخفوها لقوتها ودالاتها، منها ما جاء في مسند أحمد بن حنبل عن أبي كثير مولى الأنصار: كنت مع سيدي مع علي بن أبي طالب (سلام الله عليه) حيث قتل أهل النهروان، فكأن الناس وجدوا في أنفسهم (أي تضايقوا وانزعجوا) من قتلهم.

فقال علي (سلام الله عليه): يا أيها الناس! إن رسول الله ﷺ قد حدثنا بأقوام يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ثم لا يرجعون فيه أبدا حتى يرجع السهم على فوقه، وإن آية ذلك أن فيهم

رجلاً أسود مخدج (الناقص) اليد، إحدى يديه كثدي المرأة، لها حلمة كحلمة ثدي المرأة، حوله سبع هلبات، فالتمسوه، فإني أراه فيهم.

فالتمسوه فوجدوه إلى شفير النهر تحت القتلى، فأخرجوه. فكبر علي (سلام الله عليه) فقال: الله أكبر، صدق الله ورسوله، وإنه لمتقلد قوساً له عربية، فأخذها بيده فجعل يطعن بها في مخدجته ويقول: صدق الله ورسوله، وكبر الناس حين رأوه واستبشروا، وذهب عنهم ما كانوا يجدون^(١)..

وفي مروج الذهب، قال: كان جملة من قتل من أصحاب علي عليه السلام تسعة، ولم يفلت من الخوارج إلا عشرة، وأتى علي عليه السلام على القوم، وهم أربعة آلاف، فيهم المخدج ذو الثدي إلا من ذكرنا من هؤلاء العشرة.. وأمر علي عليه السلام بطلب المخدج، فطلبوه، فلم يقدروا عليه، فقام علي وعليه أثر الحزن لفقد المخدج، فأنتهى إلى قتلى بعضهم فوق بعض. فقال: أفرجوا. ففرجوا يمينا وشمالا واستخرجوه. فقال علي عليه السلام: الله أكبر، ما كذبت علي محمد، وإنه لناقص اليد ليس فيها عظم، طرفها حلمة مثل ثدي المرأة، عليها خمس شعرات أو سبع، رؤوسها معقفة، ثم قال: ائتوني به. فنظر إلى عضده، فإذا لحم مجتمع على منكبه كثدي المرأة عليه شعرات سود إذا مدت اللحم امتدت، حتى تحاذي بطن يده الأخرى، ثم تترك فتعود إلى منكبه. فثنى رجله ونزل، وخر لله ساجدا^(٢)..

تاريخ الطبري عن عبد الملك بن أبي حرة: إن علياً عليه السلام خرج في طلب ذي الثدي ومعه سليمان بن ثمامة الحنفي أبو جبرة، والريان بن صبرة بن هوذة، فوجده الريان بن صبرة بن هوذة في حفرة على شاطئ

(١) مسند أحمد بن حنبل: ج ١/١٩١، البداية والنهاية: ج ٧/٢٩٤.

(٢) مروج الذهب: ج ٢/٤١٧، مسند أحمد: ج ١/٢٣٠.

النهر في أربعين أو خمسين قتيلاً.

قال: فلما استخرج نظر إلى عضده، فإذا لحم مجتمع على منكبه كثدي المرأة، له حلمة عليها شعرات سود، فإذا مدت امتدت حتى تحاذي طول يده الأخرى، ثم تترك فتعود إلى منكبه كثدي المرأة. فلما استخرج قال علي: الله أكبر! والله ما كذبت ولا كذبت، أما والله لولا أن تنكلوا عن العمل، لأخبرتكم بما قضى الله على لسان نبيه ﷺ لمن قاتلهم مستبصرًا في قتالهم، عارفاً للحق الذي نحن عليه^(١).

والمبرد في الكامل في التاريخ يقول: قد روى جماعة أن علياً كان يحدث أصحابه قبل ظهور الخوارج؛ أن قوماً يخرجون يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، علامتهم رجل مخدج اليد، سمعوا ذلك منه مراراً. فلما خرج أهل النهروان سار بهم إليهم علي وكان منه معهم ما كان، فلما فرغ أمر أصحابه أن يلتمسوا المخدج، فالتمسوه، فقال بعضهم: ما نجده، حتى قال بعضهم: ما هو فيهم، وهو يقول: والله، إنه فيهم، والله، ما كذبت ولا كذبت! ثم إنه جاءه رجل فبشره، فقال: يا أمير المؤمنين، قد وجدناه^(٢).

وقال الإمام علي عليه السلام: نقتل اليوم أربعة آلاف من الخوارج، أحدهم ذو الشدية.. فلما طحن القوم ورام استخراج ذا الشدية، أمرني أن أقطع له أربعة آلاف قصبة، وركب بغلة رسول الله ﷺ وقال: إطرح على كل قتيل منهم قصبة.. فلم أزل كذلك وأنا بين يديه وهو راكب خلفي، والناس يتبعونه حتى بقيت في يدي واحدة، فنظرت إليه وإذا وجهه أربد وإذا هو يقول: والله ما كذبت ولا كذبت، فإذا خرير ماء عند موضع دالية،

(١) تاريخ الطبري: ج ٥/٨٨، كشف الغمة: ج ١/٢٦٧.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٢/٤٠٧.

فقال: فتش هذا، ففتشته فإذا قتيل قد صار في الماء، وإذا رجله في يدي فجذبتها وقلت: هذه رجل إنسان، فنزل عن البغلة مسرعاً، فجذب الرجل الأخرى وجررناه، حتى صار على التراب، فإذا هو المخدج! فكبر الإمام علي عليه السلام بأعلى صوته ثم سجد، فكبر الناس كلهم..

قال: فرجع يومئذ من الخوارج ألفان وأقام أربعة آلاف، والتحمت الحرب بينهم مع زوال الشمس فأقامت مقدار ساعتين من النهار، فقتلوا من عند آخرهم وقتل ذو الشدية، ولم يفلت من القوم إلا أقل من عشرة، ولم يقتل من أصحاب علي إلا أقل من عشرة.. وكانت وقعة النهروان سنة (٣٩)^(١)

ويقال إن هؤلاء الذين أفلتوا من القتل كانوا تسعة، وقد أصبحوا بذرات أخرى للخوارج في مناطق عديدة فيما بعد.. فقد سار منهم رجلان إلى سجستان، ورجلان إلى عُمان، ورجلان إلى اليمن، ورجلان إلى ناحية الجزيرة، ورجل إلى تل مورون في اليمن، فالخوارج في هذه البلاد من أتباع هؤلاء.^(٢)

٢. كلام الإمام عليه السلام عند المرور بقتلى الخوارج

مر الإمام علي عليه السلام بقتلى الخوارج يوم النهروان، فقال: بؤسا لكم، لقد ضرکم من غرکم! فقليل له: من غرهم يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: الشيطان المضل، والأنفس الأمارة بالسوء، غرتهم بالأمني، وفسحت لهم بالمعاصي، ووعدتهم الإظهار، فاقتحمت بهم النار.

(١) (شرح النهج: ٢/ ٢٧٦ يعقوبي: ٢/ ١٩٣)

(٢) (علي والخوارج: ١/ ٢٠٠ الملل والنحل: ١/ ١١٧ والفرق ص ٨٠ و٨١ والفتوح لابن أعثم: ٤/

لما قتل الإمام علي عليه السلام الخوارج، قيل له: يا أمير المؤمنين، هلك القوم بأجمعهم، قال: كلا والله، إنهم نطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء، كلما نجم منهم قرن قطع، حتى يكون آخرهم لصوصا سلابين^(١)..

وفي المصنف عن قتادة: لما قتلهم - الخوارج - قال رجل: الحمد لله الذي أبادهم وأراحنا منهم. فقال علي عليه السلام: كلا والذي نفسي بيده، إن منهم لمن في أصلاب الرجال لم تحمله النساء بعد، وليكونن آخرهم لصاصا جرادين^(٢)..

المعجم الأوسط عن أبي جعفر الفراء: سمع علي أحد ابنه - إما الحسن أو الحسين (عليهم سلام الله) - يقول: الحمد لله الذي أراح أمة محمد من هذه العصابة. فقال علي: لو لم يبق من أمة محمد إلا ثلاثة لكان أحدهم على رأي هؤلاء، إنهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء^(٣)..

وقد صح إخباره عليه السلام عنهم أنهم لم يهلكوا بأجمعهم في وقعة النهروان، وأنها دعوة سيدعو إليها قوم لم يخلقوا بعد، وهكذا وقع، وصحَّ إخباره عليه السلام أيضا أنه سيكون آخرهم لصوصا سلابين، فإن دعوة الخوارج اضمحلت، ورجالها فنيت، حتى أفضى الأمر إلى أن صار خلفهم قطاع طريق، متظاهرين بالفسوق والفساد في الأرض^(٤)..

تاريخ بغداد عن حبة العرني: لما فرغنا من النهروان قال رجل: والله

(١) نهج البلاغة: ج ٦٠، البحار: ج ٣٣/٤٣٣.

(٢) المصنف لعبد الرزاق: ج ١٠/١٥٠، كنز العمال: ج ١١/٢٨٧.

(٣) المعجم الأوسط: ج ٧/٣٣٩.

(٤) (شرح نهج البلاغة: ج ٥/٧٣)

لا يخرج بعد اليوم حروري أبدا. فقال علي عليه السلام: مه! لا تقل هذا، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء، ولا يزالون يخرجون حتى تخرج طائفة منهم بين نهرين، حتى يخرج إليهم رجل من ولدي فيقتلهم فلا يعودون أبدا^(١)

٣. سياسة الإمام في الجرحى والغنائم

تاريخ الطبري عن عبد الملك بن أبي حرة: طلب [علي عليه السلام] مَنْ به رمق منهم، فوجدناهم أربعمئة رجل، فأمر بهم علي فدفعوا إلى عشائريهم، وقال: احملوهم معكم فداووهم، فإذا برئوا فوافوا بهم الكوفة، وخذوا ما في عسكرهم من شيء. قال: وأما السلاح والدواب وما شهدوا به عليه الحرب، فقسمه بين المسلمين، وأما المتاع والعبيد والإماء فإنه حين قدم رده على أهله

وطلب عدي بن حاتم ابنه طرفة (حيث كان من الخوارج) فوجده فدفنه، ثم قال: الحمد لله الذي ابتلاني بيومك على حاجتي إليك^(٢).

٤. خطبة الإمام عليه السلام بعد قتلهم

ولما فرغ من قتال المارقين من الدين والخوارج وصي رسول رب العالمين، أراد أن يبين العذر بقتال القوم حتى لا يرتاب في ذلك أحد من جديد، عاد إلى الكوفة بعد أن تملل الناس من مواصلة المسير إلى الشام، وراح يتجرع الغصص تلو الغصص منهم حتى قال فيهم الكثير

(١) تاريخ بغداد للخطيب: ج ٨/ ٢٧٥، مروج الذهب: ج ٢/ ٤٠٨.

(٢) (تاريخ الطبري: ٤/ ٦٢ بتصرف)

من الأقوال بعد أن فعل بهم عدو الله وعدوهم معاوية الأفعال بغاراته المتواصلة على أطراف البلاد للقتل والنهب والفساد في الأرض، حتى ملّهم وسئم منهم، وكم بكى أسفا على إخوانه من الشهداء الأبطال الذين كانوا من أصحاب البصائر بالولاية له.

كنز العمال عن عبد الملك بن قريب: سمعت العلاء بن زياد الأعرابي يقول: سمعت أبي يقول: صعد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام منبر الكوفة بعد الفتنة وفراغه من النهروان فحمد الله وخنقته العبرة، فبكى حتى اخضلت لحيته بدموعه وجرت، ثم نفّض لحيته فوق رشايشها على ناس من الناس، فكنا نقول: إن من أصابه من دموعه فقد حرمه الله على النار، ثم قال: يا أيها الناس! لا تكونوا ممن يرجو الآخرة بغير عمل، ويؤخر التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا قول الزاهدين، ويعمل فيها عمل الراغبين، إن أعطي منها لم يشبع، وإن منع منها لم يقنع، يعجز عن شكر ما أوتي، ويتغنى الزيادة فيما بقي، ويأمر ولا يأتي، وينهى ولا ينتهي، يحب الصالحين ولا يعمل بأعمالهم، ويبغض الظالمين وهو منهم، تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما يستيقن، إن استغنى فتن، وإن مرض حزن، وإن افتقر قنط ووهن، فهو بين الذنب والنعمة يرتع، يعافى فلا يشكر، ويبتلى فلا يصبر، كأن المحذر من الموت سواه، وكأن من وعد وزجر غيره.

يا أغراض المنايا! يا رهائن الموت! يا وعاء الأسقام! يا نهبة الأيام!
ويا ثقل الدهر! ويا فاكهة الزمان! ويا نور الحدثان! ويا خرس عند
الحجج! ويا من غمرته الفتن وحيل بينه وبين معرفة العبر بحق!
أقول: ما نجا من نجا إلا بمعرفة نفسه، وما هلك من هلك إلا من

تحت يده، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾^(١)

جعلنا الله وإياكم ممن سمع الوعظ فقبل، ودعي إلى العمل فعمل..

٥. نتائج وآثار معركة النهروان

إن معركة النهروان كانت نتيجة للغدر والمكر الذي استخدمه قادة القاسطين الذين كسروا في معركة صفين، حيث رفعوا المصاحف ودعوا العراقيين إلى تحكيمه، بعد أن اتصلوا برؤوس المنافقين ومنوهم بالمناصب والولايات، وغمروهم بالمال من الدرهم والدينار كالأشعث بن قيس الذي كان له الدور المركزي والرئيسي بكل تلك الفتنة العمياء وأكاد أجزم لو أن معاوية نفسه الخبيثة أراد أن يحكم بأمر المؤمنين عليه السلام لما تجرأ عليه بهذه الجرأة التي فعلها الأشعث..

فكان عرف النار الأشعث معاويا أمويا أكثر من معاوية نفسه، وخدمه خدمة ما كان لأحد من ذاك العسكر أن يفعلها بتلك القوة والوقاحة، فمن كان يستطيع أن يجبر الإمام عليه السلام المنتصر، على قبول التحكيم، وجنوده على خطوات من معاوية الداهية؟

ومن كان يجرؤ على إكراه أمير المؤمنين عليه السلام على وقف القتال قبل فواق الناقة إلا من كان تحت إمرته أكثر من عشرين ألف سيف من جند الإمام عليه السلام يستجيبون له ويطيعونه أكثر من طاعة الإمام القائد نفسه؟

ومن من أهل العراق كان يرضى بأبي موسى الأشعري حكما بعد أن سمعوا منه ما سمعوا ورأوا بأمر أعينهم تصغيره من الإمام الحسن السبط عليه السلام، والصحابي الجليل عمار بن ياسر قبيل الجمل، وسمعوا

(١) كنز العمال: ج ١٦/ ٢٠٥.

وصف أمير المؤمنين عليه السلام له عندما عزله، فهل عاقل من أهل العراق يحكم برقبته مثل أبا موسى وهو العدو اللدود لهم ولأميرهم أمير المؤمنين عليه السلام؟

فمعركة النهروان كانت ثمرة فاسدة، من شجرة خبيثة.. أو هي نتيجة خاطئة، لقرار التحكيم الخطأ، في صفين، الذي رفضه جازماً أمير المؤمنين عليه السلام وقيادته الحكيمة، وحذرهم منه، فلم يقبلوا إلا بالمضي قدماً بالخطأ حتى رأوا النتائج المفجعة لإصرارهم على قبول التحكيم والحكم أبو موسى الأشعري المنافق الفاسق..

وعلى ذلك لا بد لنا من أن نقول إن لمعركة النهر نتيجتين استراتيجيتين لا يمكن غض الطرف عنهما وهما:

١.٥. قطع الطريق لصفين ثانية:

رغم النصر الساحق على المارقين، والخطة الحكيمة في القتال بحيث حمت العبقرية الحيدرية جيشه من بطش أولئك المقاتلين الذين كانوا يتميزون بالقوة والشجاعة بسبب ما يجدونه في أنفسهم من حقد على أصحاب الحق كما وصفه مولانا الإمام الصادق (ع) يوماً..

فإن الجيش العراقي أبادهم فلم يفلت منهم إلا ثمانية والجرحى، ولم يقتل من جنوده إلا سبعة، أليست عبقرية بأن تخوض معركة ضد جيش قوامه أربعة آلاف من المقاتلين الأشداء فلا تخسر من جندك إلا هذا العدد وتبيدهم فلا يبق منهم إلا من ذكر؟

ورغم ذلك فإن لهذه المعركة القصيرة النتائج الخطيرة على الجيش العراقي لأن أفكار وصور تلك الرجال مازالت في الأذهان وهم منهم وفيهم، وهذا فتح عليهم أبواباً من الشر فراحوا يفرون من معسكراتهم

في النخيلة ويدخلون إلى الكوفة ويرفضون العودة إليها، فبعد أن فرغ الإمام عليه السلام من الخوارج دعا الناس إلى موافاته في النخيلة للمسير إلى الشام لإنهاء تمرد معاوية فيها، ووضع الأمور في نصابها الصحيح.. فأظهر قسم منهم الكراهة وتعللوا بأنهم بحاجة لإصلاح سلاحهم، والتزود بما ينقصهم من عدد القتال، كالأقواس والنبال، والسيوف والرماح وغيرها..

لكن الإمام توجه إلى النخيلة ونزل فيها منتظراً إكمال تحشد قواته فيها فوافاه فيها بعض أهل الكوفة ولكنهم بدؤوا يتسللون من معسكر النخيلة سراً عائدين إلى الكوفة، فلم يبق معه إلا وجوه القوم، وأعيانهم، حتى أوشك معسكره أن يخلو من المقاتلة إلا قليلاً من المخلصين له، مما اضطره إلى العودة والرجوع إلى الكوفة وصرف النظر مؤقتاً عن التوجه إلى الشام.^(١)

٢٠٥. تحليل الجيش العراقي قتالياً، ومعنوياً:

والضربة القاصمة للجيش لا تكون إلا بضرب روحه المعنوية بالتأثير على نفوس المقاتلين فتخور القوى، وتحلل العزائم، وينهار الانضباط في الجيش ويتخلخل النظام العام فيه..

فكان لخروج الخوارج أعظم الأثر على الروح المعنوية للجيش بحيث أحدث انقساماً عجبياً وخطيراً بين صفوفه، مما أدى إلى تدني الروح المعنوية للجيش إلى مستويات خطيرة تستحيل على أي جيش مواصلة القتال بتلك الحالة التي كانوا عليها..

فالروح المعنوية انهارت لديهم، وإرادة القتال فقدت من عندهم فأبي جيش كان عند الإمام علي عليه السلام إذن؟

(١) (الإمام علي والحرب: ١٦٢)

ولم تكتف الخوارج بما فعلته بل واصلت أعمالها التخريبية في الدولة الإسلامية، وقد بين هذه الحقيقة السيد جعفر مرتضى في كتاب علي والخوارج حين، قال: إن هناك أقواما من الناس قد يكون أكثرهم من أولئك الذين استأمنوا في النهروان، أو أنهم رجعوا بسبب احتجاجات علي عليه السلام وأصحابه عليهم، أو ممن يشبهون الخوارج في عقلياتهم، ونظرتهم إلى الأمور.. إن هذه الجماعات والأقوام قد جنح بهم شذوذهم وجهلهم وحماسهم الأعمى إلى أن يغامروا بحياتهم وبمستقبلهم، فيعلنوا العصيان، ويخرجوا عن الطاعة، فكانت لهم بعد النهروان خرجات على الإمام علي عليه السلام في شراذم قليلة، في بضعة مئات، أو أقل أو أكثر، وخرج في بعضها عليه ألفان منهم.. فكان يقضي على تلك الحركات الواحدة تلو الأخرى بيسر وسهولة.. فخرجوا عليه بالإضافة إلى النخيلة في: الأنبار، وما سندان، وجرجرايا، والمدائن وسواد الكوفة.^(١)

هذا وبالإضافة إلى كل ذلك: إعلان معاوية نفسه خليفة وبعثه المخربين والشذاذ للانقضاض على أطراف العراق وبقية البلدان البعيدة عنه كمصر واليمن مرورا بالحجاز، بغارات كبيرة وصغيرة ولكن كان لها التأثير الكبير والواضح على مجريات الأحداث التي تلت معركة النهروان..

(١) (راجع الفرق بين الفرق ص ٨١، ومقالات الإسلاميين: ١/ ١٩٥ / ١٩٦ وتاريخ ابن خلدون: ٣/ ١٤٢ والكامل لابن الأثير: ٢/ ٣٧٢ / ٣٧٣ وغير ذلك).

الخاتمة



خاتمة الكتاب

١. نقد وتحليل لحروب التأويل

أعتقد أن حروب التأويل بدأت مع أفول شمس التنزيل، أعني به رسول الله الأعظم ﷺ وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، لأن بانتقاله انقطع عصر التنزيل، وبدأ عصر التأويل وهذا يعني أنه بدأ عصر الأوصياء بعد النبي (عليه وعليهم صلوات الله وسلام المسلمين).

وعصر التأويل: هو عصر الأئمة الأطهار عليهم السلام من أئمة المسلمين، من أهل البيت النبوي الشريف، وهي مستمرة مع الليالي والأيام إلى انقضاء الليالي والأيام (لن يفترقان مع القرآن) إلى أن يأذن الله بالفرج لوليه الخاتم صاحب هذا العصر والزمان الحجة بن الحسن المهدي المنتظر عليه السلام، وأرانا غرته المباركة، وجعلنا من أهل ولايته، والمستشهادين بين يديه المباركتين

وعليه فان حروب التأويل هي سلسلة المنازعات على القيادة، والتي

تسميها الأمة الولاية والخلافة، ولم يسَلَّ سيف في الإسلام كما سل على الولاية والإمامة والخلافة كما قال الأقدمون..

وأول هذه المنازعات لأصحاب الحق الإلهيين والشرعيين ظهرت في أواخر أيام صاحب الرسالة، رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ وذلك برزية يوم الخميس كما سماها عبد الله بن العباس الذي يسمونه حبر الأمة الإسلامية، علما أنه لم يدرس إلا قليلا عند ابن عمه باب مدينة العلم اللدنية، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام..

وبعدها أكملت المسيرة بالنضال في سبيل تأويل آيات الكتاب الحكيم سيدة النساء فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) التي اغتصب حقها وصودرت أموالها المنقولة وغير المنقولة، والمادية منها وحتى المعنوية فلو استطاعوا لنزعوا منها نسبته لرسول الله ﷺ وذلك بقرار التأميم الذي أصدرته السلطات الجديدة..

فناضلت، وطالبت، وخطبت وقالت جهاراً نهاراً: يا أمة أبي المرحومة أنا فيك مظلومة..ومازالت مناضلة حتى كانت أول شهيدة لحروب التأويل - رuchi لتراب نعلها الفداء - فلم تمهلها السلطات الحاكمة باسم أبيها ﷺ فواقا، ولم تنصفها إطلاقا، فكذبوها، وغصبوها حتى على البكاء على أبيها، وضربوها حتى أسقطوا جينها المحسن، ومازالت بها الشكوى، وتعالج الحزن والأسى حتى قضت شهيدة وشاهدة على هذه الأمة الغادرة..

وبعد ربع قرن من التهميش المتعمد لصاحب الولاية العظمى، والقيادة الأولى لهذه الأمة ذاك أمير المؤمنين، ويعسوب الدين، وقائد الغر المحجلين، ووالد السبطين الحسن والحسين، الضارب بالسيفين، والطاعن بالرمحين، ولي الله، وسيف الله الغالب الإمام علي بن أبي

طالب عليه السلام..

جاءته الأمة الإسلامية بزمام القيادة لها وقالت له: أنت أحق من وطأ الثرى بها.. فقال لها: إليك عني بعد أن صرفت، وصدفت عنا أيام الرخاء والبناء، وجئت إلينا عند القلاقل الجسيمة، والهزاهز العظيمة تريدين النجاة، ولا نجاة لك إلا بآل بيت نبيك(ع)..

فقلت: نقيم عليك الحجة، بهدم الإسلام يا صاحب المحجة السوية..

فقال: أنا لكم وزير خير لكم مني أمير، فاخترأوا - يا أهل الشورى - من أردتم فأنا أسمع وأطع..

فقالوا: ليس لها إلا أبو حسن علي، ولا نرضى بغيرك يا ولي..

فقال: أستعين بالله، ولكنني سأحملكم على المحجة التي أعلم، ولا أقبل قول عاتب أو لائم، وأرد إلى الحق كل من حاد عنه أو ظلم..

فقالوا: رضينا بك يا ولينا، لدنيانا وأخرانا.. فبايعه القوم إلا شذاذا من أولئك وهم لا يتجاوزون عدد أصابع اليدين..

وما أن بايعته الأمة على الرضا والطاعة، وفرح بها الرجال، وزغردت النساء، ورقص الأطفال سرورا، وإذا بالأم تصرخ من جوار بيت الله الحرام: اقتلوا نعتلاً فقد غير دينكم أو كفر، ولما لم يبايعوا ابن عمها طلحة، نادى: يا غيرة الدين... قتل عثمان مظلوما وسوف أطلب بثأره..

وصرخ ابن عمها طلحة: أريد ولاية البصرة، أو أنا أول طالب بدم ابن عفان، الذي أجلب عليه ومنع دفنه إلا بمقابر اليهود..

وصاح زوج أختها الزبير: أبغي ولاية الكوفة، أو أقتل في سبيل

عثمان الذي ظلمه حتى قتله مع صاحبه وأمهما..

ولما وصلت القوافل الأموية بقميص عثمان إلى الشام، فعلقها معاوية ابن هند الهنود، وراح يندب عليه كالنساء، ويقول: قتل إمامكم مظلوما فابكوا عليه واطلبوا بثأره فبكوا سنة كاملة، ولكنه ترك اسم الغريم فارغا لأنه كان كل خليفة لا تأتيه منه رسالة الولاية على ما هو عليه فهو غريمه، وقاتل ابن عمه الخليفة المظلوم..

وهكذا بدأت حروب التأويل - بالعهد العلوي الشريف - بضراوة أشد، وعداوة أحد، ورجال أجد في الطلب لدماء أهل البيت الأطهار عليهم السلام وهم براء من كل ذنب، أو عيب في هذه الأمة، وذنبهم الوحيد أنهم أهل البيت الأبرار، وأصحاب هذا الدين الحنيف بالوصية، والوراثة، والعلم، والحلم، والتقوى وكل مؤهلات القيادة..

وثارت حروب التأويل العلوية بمعاركها الثلاث:

معركة الناكثين: في الجمل على أبواب البصرة..

معركة القاسطين: في صفين على ضفاف الفرات بقرب الرقة.

معركة النهروان: في أثناء دجلة الخير بضواحي واسط..

هذه المعارك التي قلنا بأنها حرب واحدة، ولكن بمعارك ثلاث، قادها الحزب القرشي برئاسة معاوية بن أبي سفيان، الداهية الطليق من كل خير وفضيلة ودين.. وهو ابن رأس الأحزاب الذين حاربوا رسول الله ﷺ في حروب التنزيل الطويلة بطول الرسالة في مكة والمدينة.. حتى جاء أمر الله ونصره وهم كارهون..

ورسول الله ﷺ لم يترك أمته هملا كما يظن أكثر الجهلاء، بل تركهم على المحجة البيضاء، والخطبة السمحاء المتكاملة، والشرعية

الإسلامية المباركة، لا لبس فيها، لا ابهام وأوصى إلى خير خلق الله بنص كتاب الله، وأعطاه مقاليد الأمور، وأمرهم بطاعته في كل يوم، وكل مكان وزمان، وأخذ عليهم البيعة له في أعقاب حجة الوداع في منطقة غدير خم، فهل تنسى بيعة الغدير يا أمة الخير؟

ولهذا عندما عضت الأمة الأيام، وعصفت بها رياح الأحداث الهوج، وضربتهم الفتن بالموج تلو الموج لجؤوا إلى سفينة النجاة في هذه الحياة، التي حددها لهم رسولهم الكريم ﷺ بقوله: مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى^(١).

فجأؤوا إلى السفينة راجين النجاة كبنى إسرائيل عندما كانت تنزل بهم الآيات يهرعون إلى سيدنا موسى (ع) قائلين: يا موسى ادع لنا ربك.. ولم يقولوا ربنا..

فسلموا قيادهم، وقيادتهم إلى صاحب البيعة الشرعية وأمير الأمة المحمدية، قائد جبهة الحق، ولسان الصدق، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ليخرجهم من ظلمات الفتن التي دخلوا فيها إلى أنوار الرسالة الربانية..

ولكن أصحاب المصالح من الطبقات الأرستقراطية، وأصحاب رؤوس الأموال من التجار، والطامعين بالمناصب، والراغبين بالقيادة، والطامحين إلى السلطان وبريق الصولجان كان لهم رأي آخر في القضية، لأن أمير المؤمنين عليه السلام سيقضي عليهم بالحق..

رأي أعلنته الطبقة الحاكمة من قريش في مكة المكرمة في بدء الدعوة الإسلامية المباركة، حيث رفضوها رفضا جازما، وحاربوها حربا

(١) راجع البحار: ج ٢٣/ ١٣٥.

حازمة، وأرادوا إطفاء نورها، وإهماد أنفاسها في مهدها إلا أن الله تعالى قال كلمته لها بالثبات، وكتب لها النصر والظفر، ودارت عليهم الأيام بالكسر لشوكتهم، والهزيمة المخزية لجموعهم إلى أبد الدهر بإذن الله تعالى..

فدخلوا فيها مع الأفواج التي دخلت في دين الله مكرهين، خانعين، سماهم رسول الله ﷺ بالطلقاء، وألف قلوبهم بالأموال حتى تهدأ ثائرتهم، وتخمد نيران حقدهم التي تغلي بها قلوبهم.. فكان منهم الخمود والركود ولكن إلى أجل، حيث تمكن الفرصة فتكون الوثبة الناجحة إلى الهدف المنشود..

لأنهم وكما قال ربنا سبحانه: ﴿وَحَدِّدُوا بِهَا وَاسْتَيَقِّنْهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].. أو كما قال الإمام المعصوم (ع): والله ما أسلموا ولكن استسلموا وأصروا الكفر ولما رؤوا أعوانا عليه أظهروه..

فناهم كانت تحت الرماد، وجذوتهم خفيت تحت نفاقهم إلى أن قبلهم المجتمع الإسلامي الجديد فأدخلتهم السلطات الحاكمة باسم القرشية لحاجتها لهم إلى المراكز الحساسة في الجيش والفتوحات والسلطة والولايات، وأعطوهم الأمن والأمان وأرخي لهم الزمام في زمن رأس بني أمية عثمان بن عفان..

فقويت شوكتهم، وكشفوا عن جذوتهم، وبدت نواجزهم، ونبغ قرن الشيطان من جديد، وراحوا يخططون بالسر والعلن لتسليم قيادة الأمة الإسلامية، التي عملوا كل جهدهم لكي لا ترى النور أبدا، ولكن لا بأس بها إذ رأت النور أن نركب موجتها لنصل لحكم العالم بها وليس مكة فقط، فذاك الهدف أكبر مما كنا نأمل في حياتنا..

هكذا ظهرت حركة الأحزاب القرشية من جديد، بزعامة أموية بامتياز من الخليفة الثاني، وإن لم تكن بشخص أبو سفيان فهي بشخصية ولده ووارثه وداهية الدواهي معاوية، ويسانده أخاه على الظن، وشبيهه بالفعل، عمرو ابن النابغة.. الذين قال عنهما رسول الله ﷺ: لن يجتمعا على خير أبدا، وأمر أن يفرق بينهما متى اجتمعا.. ولعنهما بأحاديث كثيرة مر عليك بعضها من قبل..

فهل انتصرت الأحزاب هنا، بعد أن انكسرت على أبواب المدينة المنورة من قبل؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال الهام جدا، والتي ما قامت هذه الدراسة المطولة إلا للإجابة عليه.. علينا أن نعرف الأهداف التي من أجلها حارب المحاربين في كلا الطرفين، ونتلمس الغايات من وراء تلك الأعمال التي جرت، ونبحث في الوسائل التي استخدمت فهل تتطابق مع الموازين الشرعية أم أنها محض ميكيا فيلية نفعية؟

فإذا دققنا النظر في كل ذلك سنتوصل إلى النتيجة، ونعرف المنتصر في حروب التأويل كلها.. بدأ من رزية يوم الخميس، وانتهاء بوقعة كربلاء الدامية، هذا إذا لم نرفع بصرنا وبصيرتنا إلى آخر الزمان حيث حتمية انتصار الإمام المهدي عليه السلام، حفيد الإمام علي عليه السلام، على السفيناني حفيد أبي سفيان بإذن الله تعالى..

١. أهداف الحروب

إن الحديث عن أهداف حروب التأويل يطول ويقصر، وبما أننا بينا الأهداف والغايات لكل الأطراف المتحاربة، فسأكتفي هنا بالإجمال

والتقصير، للإشارة (والحر تكفيه الإشارة) كما قال القدماء..

١.١. أهداف الإمام علي عليه السلام:

لدينا لكل عمل عسكري أهداف استراتيجية وأخرى تكتيكية

استراتيجياً: إن الهدف الأسمى والرئيس للإمام علي عليه السلام قائد جبهة وجيش الحق كان رضا الله ونصرة الدين الحنيف، وتأويل آيات القرآن على أرض الواقع في هذه الحياة الدنيا، وليس للإمام (ع) هدف أعظم من هذا الهدف.. وهذا الهدف لا يتحقق إلا ببناء دولة قوية يرأسها رأس الدين والذي يقوم مقام الرسول الكريم ﷺ بتطبيق الشرائع والأحكام..

تكتيكياً: والهدف القريب التكتيكي كان لأmir المؤمنين عليه السلام لبناء الدولة القوية تثبيت أركان السلطة بأخذ البيعة من الأمة وبعث الولاة، والقادة، والأمراء بالكفاءة والدين وليس بالمال، أو الحسب، أو النسب، أو العشيرة فكل ذلك من تقسيمات الجاهلية التي حاربها أمير المؤمنين عليه السلام تحت راية الإسلام بقيادة الرسول الأعظم ﷺ..

ولأجل هذا قامت المعارك الثلاث التي خاضها الإمام القائد عليه السلام فلم يتركوه ينفذ أي خطة من خطته لبناء الأمة والدولة القوية بالحق.

٢.١. أهداف القيادة المعادية

استراتيجياً: استلام الخلافة والسيطرة على رأس السلطة.. فهدف كل من (طلحة والزبير والسيدة الأم ومعاوية وعمرو) كلها كانت تصب بهدف واحد هي الخلافة وأصابها الأدهى والأطول نفساً فيهم معاوية.. وأما الخوارج فلم تكن لهم استراتيجيا لأنهم غوغاء وهدفهم الفساد والإفساد في الأرض..

تكتيكياً: وأما الهدف التكتيكي لهم فكان قتل الإمام علي عليه السلام باعتبارَه الحجر العثرة والعقدة الكأداء أمام تحقيق أطماعهم.. وضرب جيشه والتخلص من كبار شيعته بأي طريقة كانت..

٢. وسائل الحروب

قائد جبهة الحق: كانت حربه نظيفة تقية نقية لا تشوبها شائبة من ظلم أو جور على أحد من أعدائه وهذا دأب أصحاب الرسائل الربانية من الأنبياء والأوصياء(ع) في هذه الحياة.. وصحيح أن(الحرب خدعة) ولكن بشرطها وشروطها عند الإمام علي عليه السلام وليشت مطلقاً..

القيادة المعادية: كانت حروبهم حروبا عادية فيها كل أنواع الظلم والجور ولذا استخدمت القيادات وعلى مختلف المستويات منهم كل أنواع الحرب النفسية التي قدمنا الحديث عنها في أكثر من موضع، فكل أنواع المكر والحيلة والخديعة والغارة والكمين والرشوة والكذب والدجل والنفاق.. فهي بكلمة معاصرة كانت ميكيا فلية نفعية بكل المقاييس فالغاية عندهم تبرر الوسيلة فإذا كانت غايتهم الخلافة فكل عمل يخدمهم استخدموه ولو كان سباب ولعن أهل البيت لأكثر من أربعين عاما (والعياذ بالله)..

٣. نتائج الحروب

جبهة الحق: الحق دائماً وأبداً منتصر لأن الحق اسم من أسماء الله تعالى، والله غالب على أمره..ومن يمثل الحق لا يهزم أبداً ورسول الله ﷺ قال: علي مع الحق والحق مع علي لا يفترقان حتى يردا علي

الحوض.. وقال عليه السلام: علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار..
 الجبهة المعادية: ما يقابل الحق هو الباطل والباطل أبدا زاهق وزائل
 لا محالة وإن طال تماديه، وتعالى رؤوس أصحابه فما هو إلا كالدخان
 الذي يعلو إلى طبقات الجو وهو وضع ونسمة من نسيمات الحق تبدده
 في يوم من الأيام..

٤. النصر والهزيمة في الصراع

١.٤ رأي أنصار الدنيا

قال بعض قاصري النظر أو مَنْ كان في قلبه مرض: إن معاوية بن
 أبي سفيان انتصر في معركته مع الإمام علي عليه السلام، وهذا يعني أن الإمام
 علي عليه السلام قد انهزم، وجيشه انكسر، ولهم على ذلك فزلكات وشواهد،
 لأن معاوية كان يتصور نفسه أنه سياسي عبقرى، وداهية الدواهي، يعرف
 كيف تؤكل الكتف، وهكذا يظنه محبوبه، ومن تلك العبقریات والدواهي
 ما يلي:

١. تثبيت نفسه وإثبات جدارته: فقد استطاع الرجل أن يثبت أقدامه على
 حكم بلاد الشام في زمن عمر وعثمان، كما استطاع أن يتجنب موجة
 النقمة على عثمان من الصحابة وأهل مصر والعراق والحجاز وذلك
 بوقوفه على الحياد والترقب عن بعد إلى أن قتل، فظهر للعلن على
 أنه وارث عثمان والمطالب بدمه! ثم استطاع بدهاء حقيقي أن يوجه
 الناكثين في معركة الجمل إلى مقتلهم (طلحة والزبير) وهزيمة عائشة
 وأنصارها تلك الهزيمة المنكرة، ليستثمر ذلك لمصلحته أفضل
 استثمار، فيجمع إليه كل قبائل قريش من الأحزاب والطلقاء..!

٢. إثبات التهمة على الإمام علي عليه السلام: واستطاع أن يقذف ويتهم علياً عليه السلام بدم عثمان، أو لا أقل بحماية وإيواء قاتليه، فقد رفع قميص عثمان المُلطخ بدمه علماً وشعاراً، ودار به في بلاد الشام، وعقد له مجالس النوح والبكاء لمدة سنة كاملة، وأقنع أغلب أهل الشام - الذي رباهم على يديه - بذلك أو جعلهم يظنون بمسؤولية الإمام علي عليه السلام عن ذلك.. ولولا قميص عثمان ما كان لابن هند ذكر ولا شأن!

٣. إمكانية التعبئة العامة: وإمكانية التعبئة، وتجميع الجيوش كان يعني حُسن سياسة، وتمكن إدارة، ففي السنة الثانية لمقتل عثمان استطاع معاوية أن يعدّ جيشاً عرمرماً يعدُّ أكثر من تسعين ألف مقاتل، من أهل الشام ومُساكنيهم من أهل اليمن، وطلقاء قريش وأتباعهم من الأحزاب القرشية، ويشن بهم حرباً شعواء على الإمام علي عليه السلام في صفين!

٤. تحكمه بحركة القتال في الساحة: فالقائد العسكري هو الذي يتحكم بوقائع المعارك لصالحه في أحلك الظروف بما لديه من ذكاء وسرعة بديهة، ودهاء سياسي.. فعندما شارف معاوية على الهزيمة وتهياً للفرار - بوضع رجله في الركاب - من صفين، استطاع بمساعدة عمرو بن العاص الداهية، ونفاق الأشعث بن قيس وسعة نفوذه في جيش الإمام علي عليه السلام، أن يوقف الحرب برفع المصاحف، وأن يفرض الحكمين اللذين يرتضيهما هو، ويعود إلى الشام ومعه مُهلة سنة وخمسة أشهر، حتى يجتمع الحكمان..!

٥. فرضه لقراره على عدوه: استطاع الرجل فعلاً أن يجعل الحكم الذي يمثل طرف الإمام علي عليه السلام عدو الإمام علي عليه السلام وصديقه هو،

وهو أبو موسى الأشعري الذي يعرفه جيداً بالبلاهة وقرب القعر، فبدأ كمضحكة للناس يوم التحكيم!

بعد أن أقنعه ابن النابغة أن يخطب في نهاية المحكمة ويخلع علياً عليه السلام من الخلافة لعدم أهليته لها كما يخلع خاتمه من يده.. أو عمامته عن رأسه، وجاء بعده الحكم الذي يمثل طرف معاوية، وهو ابن العاص ليثبت معاوية في الخلافة كما يثبت خاتمه في يده.. أو العمامة على رأسه..

٦. إمكانية ضرب العدو وتشتيته بدون حرب: كان معاوية يرى نفسه أنه حقق نجاحات باهرة على الإمام علي عليه السلام فقد أوقع الخلاف بين أصحابه وأفراد جيشه، فانشق منهم الخوارج، ثم أعد لابن العاص جيشاً فغزا مصر وانتصر على حاكمها محمد بن أبي بكر وقتله رحمته الله، وبذلك وقى بوعده لابن العاص، وصارت مصر وكل المناطق المفتوحة من إفريقيا تبعاً لها، تحت حكمه، طعمة له كل حياته لا يأخذ معاوية شيئاً من خراجها..! وأمير المؤمنين عليه السلام يحارب أنصاره في النهروان وأفراخها من مواقع الخوارج التي لم تنته حتى بعد شهادته على أيديهم الآثمة..

٧. إمكانية مواصلة حرب الاستنزاف: وحرب العصابات، وحروب الاستنزاف تحتاج إلى قيادة ماهرة، وإمكانيات كبيرة، ومعنويات عالية، ليكتب لها النجاح.. ولذا ما أن توقف القتال في صفين وعاد الجيش إلى الشام بدأ الرجل بحرب استنزاف طويلة الأمد، كان لها الأثر الواضح على العراق وجيشه، وعلى الإمام علي عليه السلام شخصياً لأنه كان لا يطاع في ردها، وذلك بشن الغارات المتتالية على الحجاز والعراق واليمن، فأوجد الرعب في نفوس المسلمين الذين تحت

حكم الإمام علي عليه السلام، ونشط عملاؤه في تخذيل المسلمين وعصيان دعوة الإمام علي عليه السلام واستنفاره إياهم للحرب.

٨. إعلان معاوية نفسه خليفة وهو من الطلقاء: فبعد أن رجع عمرو ابن النابغة إلى معاوية سلم عليه بالخلافة، فصار خليفة وأمير المؤمنين عليه السلام مخلوعاً منها، وعلى هذا بايعه أهل الشام..

فكان معاوية يرى أن نجمه في صعود، ودولته تزداد قوة، فقد بايعه أهل الشام بالخلافة، وهم مطيعون له، جاهزون لتنفيذ أوامره مهما كانت! بينما نجم الإمام علي عليه السلام في أفول، فقد خسر النصر المحقق في صفين، ثم خسر حكم لجنة التحكيم، ثم خسر مصر ووزيره الأشتر ومعاونه محمد بن أبي بكر!

والأهم من ذلك أنه خسر طاعة أصحابه (الخوارج) الذين هم ثقل الجيوش الإسلامية في الكوفة والبصرة، فالخوارج صار لهم ثأر عنده، وهم فاتكون يطلبون رأسه الشريف، وبقية الناس أكثرهم انحسروا عنه خوفاً من جيش الشام وغاراته المتتالية عليهم، أو شكاً في جدارة الإمام علي عليه السلام بفعل دعايات معاوية وجماعته من رؤساء أصحاب الإمام علي عليه السلام وفي طليعتهم الأشعث بن قيس رئيس قبائل كندة، وصاحب النفوذ المتزايد على قبائل اليمن! حتى قال قائلهم: أن الإمام علي رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب..

٩. السيطرة على العراق بدون قتال: فقد اهتم معاوية بالنشاط السياسي السري ضد الإمام علي عليه السلام حتى كان يقول: (حاربت عليا بعد صفين بغير جيش ولا عناء!)^(١)

(١) (أنساب الأشراف ص ٣٨٣)

فكانت مراسلاته، وأمواله تصل إلى عملائه المنافقين في الكوفة وغيرها، خاصة رئيسهم الأشعث، فتفعل فعلها في النفوس الضعيفة لأغراض تحريك الخوارج على الإمام علي عليه السلام، وتقوية المعترضين عليه علناً في المسجد، والذين يبثون الدعاية ضده في الناس! وكانت أهم دعاية معاوية التخريبية والتسقيطية ضده: أنه شريك في دم عثمان، وأنه عدو لأبي بكر وعمر، وأنه يكذب على النبي صلى الله عليه وآله! ويخبر عن المستقبل كأنه يعلم الغيب! والعجيب أن معاوية كان يعتمد على أقوال وأخبار الإمام علي عليه السلام في كل تحركاته وعندما كان يشك في مسألة يبعث من يستشير الجواب من الإمام عليه السلام ليقينه بصدقه، فيعرف الحقائق وما تنطوي عليه الأيام القادمة، ويثير بين الناس أن أبا الحسن كاهن، أو ساحر، أو كاذب والعياذ بالله.. ولا غرو في ذلك فقد رمى أبو سفيان وأحزابه رسول الله صلى الله عليه وآله بأكثر من ذلك..

وهذه التصورات لمعاوية عن نفسه ونجاحه السياسي، يشاركه فيها المستشرقون والكتاب الغربيون ومن لف لفهم من الأمويين، وأذئابهم من أبواق السلاطين في هذه الأمة في كل زمان ومكان ومن تأثر بهم من بسطاء المسلمين..

وهو - بالحققة - تصور صحيح بناء على الرؤية المادية للحياة التي تسقط من حسابها الدين، وحساب الآخرة، وتسقط كل القيم الإسلامية، والأخلاق الإنسانية!! فبهذا المنظار معاوية داهية وسياسي بارع، وقائد لا ينكره عاقل من بني البشر..

٢٠٤. رأي أنصار المبادئ والقيم

أما أهل النظرة الأعماق، والتدين المحقق، الذين ينظرون إلى الأمور

بميزان الدين والعقل، والقيم الإنسانية، والأخلاق والقيم والفضائل فيرون أن معاوية هو الخاسر الأكبر، وأمير المؤمنين علي عليه السلام هو الرابع الأول.

فمعاوية بميزان الدين والإنسانية: شخص وصولي (ميكافيلي) طالب حكم، وإمام الفئة التي شهد في حقها رسول الله ﷺ بأنها فئة باغية وداعية إلى النار، فهو باغ خارج على إمام عصره، سفاك لدماء ألوف مؤلفة من خيار الصحابة والتابعين، ومنتهك لحرمت الإسلام، وآكل للمال الحرام!

ولئن استطاع أن يتغلب بالقتل والغدر والمكر ويحكم المسلمين عشرين سنة، فقد ذهب إلى ربه يحمل أوزارا كافية لتخليده في عذاب جهنم وبئس المصير، وبقيت أعماله وأساليبه مضرب مثل في مخالفة قيم الدين والإنسانية، من أجل هدف دنيوي! فهو صاحب الشعرة اللعينة. فكل من قرأ معاوية يوافق على شهادة هؤلاء النسوة البدويات اللواتي صحن في وجه بسر بن أرطاة لمنعه من قتل طفلين هاشميين لعبيد الله بن العباس والي ابن عمه على اليمن: (وخرجت نسوة من بني كنانة فقلن: يا بسر ما هذا! الرجال يقتلون فما بال الولدان! والله ما كانت الجاهلية تقتلهم، والله إن سلطاناً لا يشتد إلا بقتل الصبيان ورفع الرحمة، لسلطان سوء! فقال بسر: والله لقد هممت أن أضع فيكن السيف!)^(١)

أما أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام فكان يفكر بعقله المنفتح على المطلق بشكل أرقى، ويعمل في الحياة لهدف أسمى:

(١) (تاريخ يعقوبي: ٢/ ١٩٧)

١.٢.٤ الإمام علي عليه السلام هو الحجة

فكان يرى - روعي له الفداء - أن الله تعالى سمح أن تجري في هذه الأمة بعد نبيها ﷺ سنن التاريخ في الأمم السابقة، وأن تتأمر قریش على أوصياء النبي الشرعيين من عترته ﷺ، وتغصب خلافة النبي ﷺ منهم وتعزلهم وتضطهدهم! ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾^(١).

وقد أخبره النبي ﷺ بذلك وفصل له أحداثه، وأمره أن يستنهض الأمة ويذكرها ببيعة الغدير، وبوصية النبي المؤكدة بالقرآن والعتره، وأن يستنهض الأنصار خاصة ويذكرهم ببيعتهم للنبي ﷺ على أن لا ينازعوا الأمر أهله، وأن يحموه وأهل بيته مما يحمون منه أنفسهم وأهليهم! فإن لم يجد أنصارا، فعليه أن يحفظ نفسه وأهل بيته من القتل ويصبر، فإنه ستأتيه فرصة فتولية الأمة أمرها وسيقاتل المنحرفين على تأويل القرآن، كما قاتلهم النبي ﷺ على التنزيل الحكيم..

٢.٢.٤ نصر الدين بالمخلصين

كان الإمام علي عليه السلام يرى أن ما حققته السلطة القرشية بعد النبي ﷺ من انتصارات وفتوحات ونشر للإسلام، فهو بسبب توضحيات أولئك المؤمنون الكبار، وضغطه (ع) عليها وحسن تديره وسياسته لها، وجهاد الفرسان القادة من شيعته والجنود المخلصين من الأمة، وليس بفضل تلك الشراذم الأرستقراطية المتسلطة من القرشيين وأذئابهم..

(١) (البقرة: ٢٥٣)

٣.٢.٤. نتائج السقيفة على الأمة

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يرى أن الأمة في زمن عثمان تحصد ما زرعه أبو بكر وعمر وسهيل بن عمرو، فقد كانت نتيجة سقيفتهم أن نقلوا قيادة أمة النبي صلى الله عليه وآله ودولته الفتية من عترته الطاهرة إلى بني أمية، الذين قادوا الحروب ضده حتى عجزوا!

وكان عليه السلام يرى أن عثمان أموي إلى العظم قبل أن يكون صحابيا وخليفة للنبي صلى الله عليه وآله، وليس عنده فهم بني عبد شمس ولا دهاؤهم، فهو ينقاد لمروان إلى حتفه كما ينقاد الجمل من خزامته! ومروان شيطان ملعون على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله! قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصف عثمان وخلافته: (إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه، بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع! إلى أن انتكث قتله، وأجهز عليه عمله، وكبت به بطنته!)^(١)

٤.٢.٤. دور الإصلاح والترميم

كان الإمام عليه السلام يرى في نقمة الصحابة والأمة على عثمان، ومحاصرته وقاتله، ومجيئهم إليه مطالبين أن يقبل بيعتهم بالخلافة، أنها الفرج الذي وعده به النبي صلى الله عليه وآله لأن الرجل وولاته من بني أبيه أذاقوا الأمة الأمرين في كل الولايات، وأنه جاء الوقت لكي يقدم إلى الأمة مشروع التصحيح والترميم والإصلاح، وإدانة الانحراف الأموي والقرشي، وإعادة العهد النبوي، وتركيز خط أهل البيت عليهم السلام، فكان يقول: (أخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله بما الأمة صانعة بي بعده، فلم أك بما صنعوا حين عايته بأعلم مني ولا أشد يقينا مني به قبل ذلك، بل أنا بقول رسول

(١) (نهج البلاغة: ٣١/١)

الله ﷻ أشد يقيناً مني بما عاينت وشهدت).^(١)

والسبب في ذلك أن الكشف عن الواقع بما فيه المستقبل الذي يخبر به النبي ﷺ إنما هو وحي من رب العالمين ﷻ، فلا يرد فيه أدنى احتمال خلاف، فهو أعلى درجة وأرقى في الكشف عن الواقع عن طريق المعاينة، مهما كان مستجمعا لشروط الجزم واليقين! فتصرف أمير المؤمنين ﷺ كان نابعا من العلم الحقيقي بالمآل ولذا كان يخبر بالنتائج قبل الأعمال، فكان يعلم نتيجة الجمل قبل المعركة، وأخبرهم عنها، وكذلك صفين، والتحكيم، والنهروان وأنه لا ينجوا منهم عشرة، وغيرها كثير..

٥.٢.٤. حرب الإمام علي ﷺ حرب رسول الله ﷺ بامتياز

رباني:

الإمام علي ﷺ هو التلميذ الأول للنبي ﷺ والإسلام الخالص فكان يرى: أن (ميكافيلية) معاوية، والمكر، والدهاء، والعنف بإراقة الدماء، مهما كانت وسائل نافعة ومفضلة عند أصحاب المشاريع الدنيوية، ومهما حققت من أهداف قريبة، فهي لا تصلح وسائل عمل لمن يتقي الله تعالى ويريد الفوز برضوانه، ولا لمن يريد إرساء مبادئ رسالة إلهية في الأمة والعالم، ويعلم أجيالها على تطبيقاتها النظيفية.

وبما أن قضيته ﷺ هي النصر والغلبة الدينية الرسالية على خصومه وليست الدنيوية، وغلبة العقائد والقيم الإسلامية على مفاهيمهم المادية الجاهلية، فلا يصح أن يستعمل معهم وسائلهم التي يحاربها، ويدعو الأمة للابتعاد عنها! فكان يرى ﷺ أنه وإن غلبه خصومه آنياً

(١) (سليم بن قيس: ٢١٣)

وانتصرت وصوليتهم القرشية على الإنسانية والنزاهة الإسلامية الهاشمية، فهو في الحقيقة المنتصر، لأنه بسلوكه وسياسته يتم الحجة على الأمة، ليحيى من حيٍّ عن بينة، ويعرّف العالم وأجياله رسالة الإسلام وقيمه، حتى يأتي أمر الله تعالى!

فقد قال ﷺ في خطبة له: (إن الوفاء توأم الصدق، ولا أعلم جنة أوقى منه، ولا يغدر من علم كيف المرجع.. ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة! ما لهم قاتلهم الله! قد يرى الحوّل القلب وجه الحيلة ودونه مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها وينتهاز فرصتها من لا حريجة له في الدين)^(١)

وقال ﷺ بكلمة أخرى له: (والله ما معاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر! ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدره فجرة، وكل فجرة كفر، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة! والله ما استغفل بالمكيدة، ولا أستغمر بالشديدة)^(٢)

وزيادة على هذا، فإن علياً ﷺ وأهل بيت النبي ﷺ يرون أن الذي يستعمل أساليب غير مشروعة، لا عقل له، مهما كان داهية في الوصول إلى هدفه! فقد سأل رجل الإمام الصادق ﷺ: ما العقل؟ قال: ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان. قال قلت: فالذي كان في معاوية؟ فقال: تلك النكراء، تلك الشيطنة! وهي شبيهة بالعقل، وليست بالعقل)^(٣)

(١) (نهج البلاغة: ١/ ٩٢)

(٢) (نهج البلاغة: ١/ ١٨٠)

(٣) (الكافي: ١/ ١١)

والسبب في ذلك أن الدهاء والمكر الذي تكون نتيجته حكم الناس عشرين سنة، أو ألف سنة، ثم الخلود في عذاب الجحيم، والسمعة السيئة عند خيار الناس.. ليس من العقل في شيء فالعادل يكسب نعيم الأبد ولا يلتفت على حكم بلد فقط!

٦.٢.٤. الإمام علي عليه السلام إمام الحرية

كان باستطاعة الإمام علي عليه السلام أن يجبر الناس على بيعته كما فعل أبو بكر وعمر لنفسيهما ولعثمان! ولكنه لم يفعل لأن الواجب عنده إعادة الإرادة الحرة للإنسان المسلم التي صادرتها قريش بمجرد أن أغمض النبي ﷺ عينيه عن هذه الدنيا! فلا إجبار عنده على بيعة، ولا حطب عنده ولا حرق بيوت على أصحابها، مهما كانت الخسارة عليه! وكان باستطاعته أن يمنع طلحة والزبير من مغادرة المدينة للتآمر مع عائشة، فقد كان على علم بذلك وأخبرهم به! ولكنه لا يفعل، بل يعطي الحرية لمن خالف النظام أن يفعل ما يريد، ولا يحرمه من شيء من حقوقه المدنية حتى يرفع السيف على النظام أو المجتمع! وهكذا كانت سياسته مع كل الخوارج عليه!

٧.٢.٤. الإمام علي عليه السلام إمام دين وليس حاكم بلد:

فالقضية عند الإمام علي عليه السلام ليست أن يحكم ويكون خليفة، بل أن ينفذ أمر ربه وأمر نبيه ﷺ أولاً وقبل كل شيء، والفرق عميق وشاسع بين مَنْ يطلب الملك لنفسه، ومَنْ يطلبه لرسالة ربه! إنهما يبدوان في المظهر سواء، لكن أين الثريا من الثرى، وأين التبر من التبن، وأين علي عليه السلام من غيره من البشر؟!!

فلو كان الإمام علي عليه السلام يطلب الحكم لنفسه - وهو أجدر خلق

الله بها - لقبل الخلافة عندما قدمت إليه على طبق من ذهب، طعاماً شهياً يسيل له لعاب طلاب الحكم، فرآها ميتة ونفر منها! كان ذلك في الشورى التي رتبها عمر لقتله مع الزبير، وجعل لعبد الرحمن بن عوف صهر عثمان حق النقض (الفيتو) فيها، فعرض ابن عوف على الإمام علي عليه السلام أن يبايعه على كتاب الله وسنة رسوله وسنة أبي بكر وعمر!

فبادر الإمام علي عليه السلام بالرفض ولم يحتج إلى تفكير ليجيب بالنفي! لأنه يرى أن قبوله بذلك إقرار بأن سنة شيخي قريش جزء من الإسلام، وإن ألف ضربة بسيف أهون على الإمام علي عليه السلام من أن يأتي ربه يوم القيامة فيسأله: لماذا جعلت سنة هذين جزء من ديني؟!

روى في شرح النهج قائلًا: (فبدأ بعلي وقال له: أبايك على كتاب الله وسنة رسول الله وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر.

فقال عليه السلام: بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي.

فعدل عنه إلى عثمان فعرض ذلك عليه، فقال: نعم، فعاد إلى علي فأعاد قوله، فعل ذلك عبد الرحمن ثلاثاً، فلما رأى أن علياً غير راجع عما قاله وأن عثمان ينعم له بالإجابة، صفق على يد عثمان وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فيقال: إن علياً عليه السلام قال له: والله ما فعلتها إلا لأنك رجوت منه ما رجا صاحبكما من صاحبه، دقَّ الله بينكما عطر منشم. قيل: ففسد بعد ذلك بين عثمان وعبد الرحمن، فلم يكلم أحدهما صاحبه حتى مات عبد الرحمن!)^(١)

وجاءه رجل لبيعته، فقال له: بايع على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.. فقال الرجل: على سنة أبي بكر وعمر!

(١) شرح النهج: ١/ ١٨٨

قال له علي عليه السلام: ويلك لو أن أبا بكر وعمر عملاً بغير كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لم يكونا على شيء من الحق! ^(١)

فعلي إنما يريد الخلافة ليصحح المسار القرشي القبلي الذي وضعوا فيه الإسلام والأمة! وهو الذي يقول: (إني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: كيف أنتم إذا لبستم فتنة يربو فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير، يجري الناس عليها ويتخذونها سنة، فإذا غير منها شيء قيل قد غيّرت السنة، وقد أتى الناس منكراً!)

ثم تشتد البلية وتُسبى الذرية وتدهم الفتنة كما تدق النار الحطب وكما تدق الرّحا بثفالها، ويتفقهون لغير الله ويتعلمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا بأعمال الآخرة!

ثم أقبل بوجهه وحوله ناس من أهل بيته وخاصته وشيعته، فقال: قد عملت الولاية قبلي أعمالاً خالفوا فيها رسول الله ﷺ متعمدين لخلافه، ناقضين لعهد، مغيرين لسنته، ولو حملت الناس على تركها وحولتها إلى مواضعها وإلى ما كانت في عهد رسول الله ﷺ، لتفرق عني جندي حتى أبقى وحدي! أو قليل من شيعتي الذين عرفوا فضلي وفرض إمامتي من كتاب الله ﻋَزَّوَجَلَّ وسنة رسول الله ﷺ!

أرأيتم لو أمرت بمقام إبراهيم عليه السلام فرددته إلى الموضع الذي وضعه فيه رسول الله ﷺ، ورددت فذك إلى ورثة فاطمة عليها السلام... إلى أن قال عليه السلام: والله لقد أمرت الناس أن لا يجتمعوا في شهر رمضان إلا في فريضة، وأعلمتهم أن اجتماعهم في النوافل بدعة، فتنادى بعض أهل عسكري ممن يقاتل معي: يا أهل الإسلام غيّرت سنة عمر! ينهانا عن الصلاة في شهر رمضان تطوعاً! ولقد خفت أن يثوروا في ناحية جانب

(١) وفي الطبري: ٥٦ / ٤

عسكري! ما لقيت من هذه الأمة من الفرقة وطاعة أئمة الضلالة والدعاة إلى النار.^(١)

٨.٢.٤. الإمام علي عليه السلام إمام العدل والمساواة:

وكان باستطاعة الإمام علي عليه السلام أن يستعمل أسلوب معاوية وعثمان، وأبي بكر، وعمر، في إجبار الناس وتخويفهم، والتميز بينهم في العطاء، واستمالة رؤساء القبائل بالمال، وترويضهم بالإذلال والدُّرة، وبذلك يحكم قبضته على العالم الإسلامي الذي كان بيده ما عدا الشام، ويعطي معاوية مطلبه فيجعله حاكماً على الشام من قبله كما نصحه المغيرة بن شعبة وعبد الله بن العباس، مدى حياته، ثم يدبر اغتياله وقتله بعد شهور من ذلك!

ولأُمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام من شخصيته وشجاعته وعلمه وتاريخه، كل المقومات التي تجعل اسمه مرعياً للناس كحاكم، كما كان صوته مرعياً للأبطال يخلع قلوبهم من صدورهم إذا صاح بهم! ولو فعل علي عليه السلام ذلك، لخضعت له العرب والعجم، وكان إمبراطوراً دونه أبهة كسرى وقيصر! ولرأيت كل المنافقين المعترضين عليه، والمعارضين الطامعين في الحكم إمعان متزلفين له، آخذين بالركاب، أو مقتولين تحت التراب!

فما أسهل لعلي بن أبي طالب عليه السلام أن (يصلح) شعبه بالقوة والاضطهاد والقتل، كما فعل غيره! لكنه لا يستحل ذلك، ولا هو قضيته، ولا من هدفه! فليس هدف الإمام علي عليه السلام من الأمة مجرد الطاعة، بل القناعة بالطاعة! فطاعة الخوف طاعة أبدان وأبشار، وغرض

(١) (الكافي: ٨ / ٥٩)

الإمام علي عليه السلام في العقول والأفكار!

نعم، كان باستطاعة الإمام علي عليه السلام أن يؤسس ملكاً عريضاً لبني هاشم، ويورث الحسن والحسين عليه السلام إمبراطورية أعظم مما ورث الأكاسرة والقيصرة لأبنائهم! لكنها إمبراطورية كغيرها تقوم على الدماء والأشلاء، وظلم العباد والبلاد، والغارة على أموال الفقراء، دونها غارة الذئاب الكاسرة على المعزى الكسيرة! ونتيجتها في الدنيا أن يعتمل الظلم في نفوس الشعوب بعد حين، فيستغله ثوار محترفون، ويحدثون موجة كاسحة على بني هاشم، كما حدثت على بني أمية الذين أخذهم طوفان ظلمهم بعد ثمانين سنة، حتى قال شاعر الثوار لقائدهم:

لا يغرنك ما ترى من رجال

إن تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط

حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

ودخل عليه آخر: (وقد أجلس ثمانين من بني أمية على سمط

الطعام، فأنشده:

أصبح الملك ثابت الأساس

بالبهاليل من بني العباس

طلبوا وتر هاشم وشفوها

بعد ميل من الزمان ويأس

لا تقيلن عبد شمس عثارا

واقطعن كل رقلة وأواسي

ذلها أظهر التودد منها

وبها منكم كحز المواسي

ولقد غاظني وغاز سوائي
 قربها من نمارق وكراسي
 أنزلوها بحيث أنزلها الله
 بدار الهوان والإتعاس
 واذكروا مصرع الحسين
 وزيد وقتيلا بجانب المهراس
 والقتيل الذي بحران أضحي
 ثاويا بين غربة وتناسي

فأمر بهم عبد الله فشدخوا بالعمد، وبسطت البسط عليهم وجلس عليها، ودعا بالطعام، وإنه ليسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا!^(١)

فلو استعمل الإمام علي عليه السلام هذا الأسلوب، لكانت النتيجة القريبة إمبراطورية بني هاشم! لكن لم يكن أثر ولا خبر عن مبادئ دين إلهي، ولا قيم إنسانية ولا عربية!

ثم لا تسأل كيف سيلاقي علي عليه السلام ربه ونبيه وحبيبه المصطفى صلى الله عليه وآله!! فهل هذا هدف الإمام علي عليه السلام؟ كلا ثم كلا، وحاشا لأصفى معدن إنساني من سلالة إبراهيم الخليل عليه السلام، ووصي أكرم الخلق وسيد المرسلين صلى الله عليه وآله! وحامل لواء النبي صلى الله عليه وآله لواء رئاسة المحشر يوم القيامة، وقسيم الجنة والنار بأمره!

قال عليه السلام: (والله قد دعوتكم عودا وبدء وسرا وجهارا، في الليل والنهار والغدو والآصال، فما يزيدكم دعائي إلا فرارا وإدبارا، أما تنفعكم العظة والدعاء إلى الهدى والحكمة! وإني لعالم بما يصلحكم ويقيم

(١) (شرح النهج: ٧ / ١٢٨ - ١٢٧)

أودكم، ولكنني والله لا أصلحكم بإفساد نفسي! ولكن أمهلوني قليلا، فكأنكم والله قد جاءكم من يحزنكم ويعذبكم، فيعذبه الله كما يعذبكم! إن من ذل المسلمين وهلاك الدين أن ابن أبي سفيان يدعو الأراذل والأشرار فيجاب، وأدعوكم وأنتم الأفضلون الأخيار فتراوغون وتدافعون، ما هذا بفعل المتقين^(١).

٩.٢.٤. زيّ الحاكم من لباس الأمة:

لقد أخبر النبي ﷺ الإمام علي عليه السلام بأن التناسب بين حالة الأمة ومن يتولى عليها قانون وسنة إلهية! فكما تكونوا يولى عليكم.. فالهبوط الذي تشهده الأمم بعد أنبيائها عليهم السلام يعني أن كمية الخير ومعدّله الكلي فيها ليس مرتفعا لتستحق به أن يحكمها وصي نبيها، فيجب أن يغلب على قيادتها من هو بمستواها أو دونه!

فقيادة النبوة فرض على الأمة، أما قيادة الإمامة فهي فرض واستحقاق! ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٢٥٢﴾ ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾^(٢)

وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يتعجب من هذا الهبوط الحاد الذي كشف عنه موت النبي ﷺ حتى بميزان عادي، فضلا عن ميزان النص

(١) (الغارات للثقفى: ٢/ ٦٢٤، وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٩٧)

(٢) (البقرة: ٢٥٢ - ٢٥٣)

النبوي وبيعة الغدير، فيقول: (ألا إن العجب كل العجب من جهال هذه الأمة وضلالها وقادتها وساقطها إلى النار، لأنهم قد سمعوا رسول الله ﷺ يقول عوداً وبدءاً: ما ولت أمة رجلاً قط أمرها وفيهم أعلم منه إلا لم يزل أمرهم يذهب سفلاً حتى يرجعوا إلى ما تركوا!)

فولوا أمرهم قبلي ثلاثة رهط ما منهم رجل جمع القرآن، ولا يدّعي أن له علماً بكتاب الله ولا سنة نبيه! وقد علموا يقيناً أنني أعلمهم بكتاب الله وسنة نبيه وأفقههم وأقرؤهم لكتاب الله، وأقضاهم بحكم الله.. وأنه ليس رجل من الثلاثة له سابقة مع رسول الله ﷺ ولا غناء معه في جميع مشاهدته، فلا رمى بسهم ولا طعن برمح ولا ضرب بسيف، جبناً ولؤماً ورغبة في البقاء.^(١)

وكان عليّ السلام يعتبر أن دفعة الإيمان التي شهدتها الأمة في انتفاضها على عثمان وبيعته النورانية عليّ السلام، كانت استثناء من ذلك بتدبير إلهي، ليدخل في تاريخها وثقافتها مشروع عترة النبي ﷺ وقاتلهم على التأويل، تكميلاً لقتاله ﷺ على التنزيل!

هذه الأمور تعني أن أمير المؤمنين عليّ السلام حقق في مدة حكمه القصيرة رغم الحروب الثلاث التي شنت عليه، إنجازاً غير عادي! فقد قدّم للأمة المشروع الذي أوكله إليه النبي ﷺ في تصحيح الانحراف وقتال الناكثة، والقاسطة، والمارقة.

وأعاد بذلك الحيوية والزخم الديني للإسلام، فثبت في الأمة كدين من عند الله، ودخل عمله في تاريخها وثقافتها، فصار حكم الإمام علي، وعدله عليّ السلام ميزاناً بيد عامة الناس، وشعاراً للطامحين للإصلاح

(١) (كتاب سليم: ص ٢٤٧)

والثائرين على الفساد! ولم يكن غيره ليستطيع أن يحقق ذلك! لقد كشف الإمام علي عليه السلام للأمة بعمله خطورة الفتنة الأموية على الإسلام، وفقاً عينها!

وعرّف أجيال الأمة مدى الظلامه التي أوقعتها السقيفة بالإسلام والأمة! قال عليه السلام: (أما بعد أيها الناس، فأنا فقأت عين الفتنة، ولم يكن ليجتري عليها أحد غيري، ولو لم أكن فيكم ما قوتل الناكثون، ولا القاسطون، ولا المارقون!

ثم قال: سلوني قبل أن تفقدوني، فإني عن قليل مقتول، فما يحبس أشقاها أن يخضبها بدم أعلاها، فو الذي فلق البحر وبرا النسمه لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فتنة تضل مائة أو تهدي مائة، إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها، إلى يوم القيامة).^(١)

فهل عرفت المنتصر في حروب التأويل في الإستراتيجيا والتكتيك، أمير المؤمنين عليه السلام أو محاربيه من الناكثين، أو القاسطين، أو المارقين؟

فأعظم هدف لحروب التأويل كان تثبيت المشروع الإسلامي في الحياة الدنيا، كمشروع ديني للحكم في هذا العالم، وإثبات أحقية وجدارة وأهلية أهل البيت الأطهار عليهم السلام لقيادة الأمة إلى الخير والحق والعدل في كل زمان ومكان.. إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بدولة الحق المنتظرة على يدي مخلص البشرية من البؤس والحرمان في آخر الزمان مهدي هذه الأمة المنتظر أرواحنا وأرواح العالمين له الفداء..

(١) (نهج البلاغة: ١/ ١٨٢، وتاريخ يعقوبي: ٢/ ١٩٣، اعتمدنا هنا على معالم الفتن للأستاذ أيوب بتصرف كبير من مأجوراً ومشكوراً)

ولكن نتائجها كانت مروّعة فعلاً، ولكن أعظم فاجعة كانت فاجعة استشهاد قائد جبهة الحق - وهذه سنة هذه الجبهة فكل ممثليها من الأنبياء والأوصياء والصلحاء يقضون شهداء (فالموت لنا عادة وكرامتنا من الله الشهادة) - على أيدي الخوارج المارقين من هذا الدين الحنيف ففجعونا في ليلة القدر بأميرنا أرواحنا وأرواح العالمين لتراب نعليه الفداء..

فلماذا وكيف كانت الكارثة الكبرى، والفاجعة العظمى؟

٢. اغتيال قائد جيش الحق شهادة الإمام علي عليه السلام

١. إخبار الرسول الأعظم ﷺ

قال الإمام علي عليه السلام: قال رسول الله ﷺ: من أشقى الأولين؟ قلت: عاقر الناقة، قال: صدقت. قال: فمن أشقى الآخرين؟ قلت: لا علم لي يا رسول الله، قال: الذي يضربك على هذا، وأشار بيده إلى يافوخه..^(١)

وعن عبد الله بن سبع، قال: سمعت علياً عليه السلام على المنبر، يقول: ما ينتظر أشقاها؟ والذي فلق الحبة وبرأ النسمة عهد إليّ أبو القاسم رسول الله ﷺ: لتخضبن هذه من هذه، وأشار إلى لحيته ورأسه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، من هو؟ لنبيرنه (لنقتلنه).. قال: أنشدكم الله أن يقتل غير قاتلي..^(٢)

ولما خرج علي عليه السلام لطلب الزبير، خرج حاسراً، وخرج إليه

(١) (أسد الغابة ٤/ ٣٥، تاريخ دمشق ٣/ ٢٨١، تذكرة الخواص: ١٥٨)

(٢) (تاريخ بغداد ١٢/ ٥٧، الرياض النضرة للطبري ٣ - ٤/ ٢٣٣)

الزبير دارعاً مدججاً.. ففيل له في ذلك، فقال عليه السلام: إنه ليس بقاتلي، إنما يقتلني رجل حامل الذكر ضئيل النسب غيلة، في غير ما قط حرب ولا معركة ولا رجال، ويل له، إنه أشقى البشر، ليودن أن أمه هبلت به، أما إنه وأحيمر ثمود لمقرونان في قرن..^(١)

وعن أنس بن مالك، قال: دخلت مع النبي على علي بن أبي طالب عليه السلام يعودده وهو مريض، وعنده أبو بكر وعمر فتحولا حتى جلس رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم، فقال أحدهما لصاحبه: ما أراه إلا هالك! فقال رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم: إنه لن يموت إلا مقتولاً، ولن يموت حتى يملأ غيظاً..^(٢)

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أشقى الأولين عاقر الناقة، وأشقى الآخرين من هذه الأمة الذي يطعنك يا علي، وأشار إلى حيث طعن..^(٣)

وعن عبيدة السلماني، قال: كان علي بن أبي طالب عليه السلام إذا أعطى الناس فرأى ابن ملجم قال:

أريد حياته ويريد قتلي

عذيرك من خليلك من مراد^(٤)

عن سكين بن عبد العزيز العبدي أنه سمع أباه يقول: جاء عبد الرحمن بن ملجم يستحمل علياً عليه السلام فحمله، ثم قال: إن هذا قاتلي، قيل: فما منعك منه؟ قال: إنه لم يقتلني بعد..^(٥)

(١) (شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد المعتزلي - ١ / ٧٨ طبعة القاهرة)

(٢) (المستدرک ٣ / ١٣٩، تاريخ دمشق ٣ / ٢٦٦)

(٣) (أنساب الأشراف ٢ / ٤٩٩)

(٤) (الأغاني - للأصبهاني - ١٤ / ٦٩، مقاتل الطالبين: ٣١، ابن سعد في طبقاته ٣ / ٣٤)

(٥) (الرياض النضرة ٣ - ٤ / ٢٣٤)

الحريث بن مخشى أن علياً قتل صبيحة إحدى وعشرين من رمضان، قال: فسمعت الحسن بن علي عليه السلام يقول وهو يخطب - وذكر مناقب علي - فقال: قتل ليلة أنزل القرآن، وليلة أسري بعيسى، وليلة قبض موسى..^(١)

١.١. أبشع مؤامرة في التاريخ

قيل أنه: نزل فريق من الخوارج إلى مكة المكرمة، فعقدوا فيها ما يشبه مؤتمراً تذكروا فيه مصارع إخوانهم الذين قتلوا في النهروان، كما تذكروا فيه الأحداث الجسام التي يواجهها العالم الإسلامي وما يفعله معاوية بن أبي سفيان وجنوده من فساد في البلاد والعباد، والتي أدت إلى اختلاف كبير في الأمة وتفككها، وعزوها إلى ثلاث - حسب ما يزعمون - الإمام علي عليه السلام، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وقد عقدوا النية بعد تبادل الرأي على اغتيالهم جميعاً، وتعاهدوا وتعاهدوا على ذلك، وانبرى لتنفيذ هذا المخطط كل من.

١. عبد الرحمن بن ملجم المرادي تعهد بقتل الإمام علي عليه السلام في الكوفة.

٢. الحجاج بن عبد الله الصريمي تعهد بقتل معاوية بن أبي سفيان في الشام.

٣. عمرو بن بكر التميمي التزم بقتل عمرو بن العاص في مصر.

وقد اتفقوا على القيام بعملية الاغتيال هذه في ليلة التاسع عشر من شهر رمضان المبارك ساعة خروج الناس إلى صلاة الصبح، وقد أقاموا بمكة أشهراً، واعتَمروا في رجب، ثم تفرقوا وقصد كل واحد الجهة

(١) (المستدرک ٣/ ١٤٣، وتلخيصه للذهبي - ٣/ ١٤٣)

المحددة لتنفيذ ما عهد إليه.

٢.١. اغتيال الإمام علي عليه السلام

وقدم الشقي ابن اليهودية عبد الرحمن بن ملجم المرادي الكوفة لعشر بقين من شعبان سنة أربعين من الهجرة الشريفة، فلما بلغ علياً عليه السلام قدومه قال: أوقد وافى؟ أما إنه ما بقي عليّ غيره، وهذا أوانه (أي لم يبق لي إلا الموت والشهادة وهذا أوانها). فنزل ابن ملجم على عرف النار الأشعث بن قيس الكندي، فأقام عنده شهراً يستعد ويشحذ سيفه.^(١)

واطل على المسلمين شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، وقد كان الإمام عليه السلام على يقين بانتقاله إلى حظيرة القدس في بحر هذا الشهر العظيم، تحقيقاً لما قاله له الرسول الأعظم يوماً.. فكان يُجهد نفسه ويرهقها على أن يُفطر على خبز الشعير وجريش الملح، وإن لا يزيد على ثلاث لقم حسب ما يقوله المؤرخون، وكان يحيى ليالي هذا الشهر بالعبادة، ولما أقبلت ليلة التاسع عشر أحس الإمام عليه السلام بنزول الرزء القاصم فكان برماً تساوره الهموم والأحزان، وجعل يتأمل في الكواكب وهي مرتعشة الضوء كأنها ترسل أشعة حزنها إلى الأرض، وطفق يقول: «ما كذبت ولا كذبت انها الليلة التي وعدت فيها».

وقضى الإمام عليه السلام ليله ساهراً، وقد راودته ذكريات جهاده وعظيم عنائه في الإسلام، وزاد وجيبه وشوقه لملاقاة ابن عمه رسول الله ﷺ ليشكو إليه ما عاناه من أمته من الأود.. وتوجه الإمام بمشاعره وعواطفه إلى الله يطلب منه الفوز والرضوان وقبل أن تشرق أنوار ذلك

(١) (تاريخ يعقوبي: ٢/ ٢٢٢ بتصرف)

الفجر الذي دام في ظلامه على البؤساء والمحرومين انطلق الإمام فأسبغ الوضوء، وتهيأ إلى الخروج من البيت، فصاحت في وجهه إوزٌ كأنها صاحت ملتاعةً حزينةً تنذر بالخطر العظيم الذي سيدهم أرض العرب والمسلمين، وتنبأ الإمام من لوعتهن بنزول القضاء، فقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله صوائح تتبعها نوائح» (١).

وخرج الإمام إلى بيت الله فجعل يوقظ الناس على عادته إلى عبادة الله ثم شرع في صلاته وبينما هو مائل بين يدي الله وذكره على شفيته إذ هوى عليه المجرم الخبيث عبد الرحمن بن ملجم، وهو يهتف بشعار الخوارج «الحكم لله لا لك يا علي» فعلا رأس الإمام بالسيف فقدّ جبهته الشريفة التي طالما عفرها بالسجود لله، وانتهت الضربة الغادرة إلى دماغه المقدس الذي ما فكر فيه إلا في سعادة الناس، وجمعهم على صعيد الحق.

ونأخذ التفاصيل من ذاك البيت الأصيل الشكيل بأمر المؤمنين عليه السلام من عزيزته وكريمته السيد أم كلثوم الذي كان مفطرا عندها في تلك الليلة كما يرويها العلامة المجلسي في بحار الأنوار..

قالت أم كلثوم بنت أمير المؤمنين (صلوات الله عليه وعليها): لما كانت ليلة تسع عشرة من شهر رمضان قدمت إليه عند إفطاره طبقا فيه قرصان من خبز الشعير وقصعة فيها لبن وملح جريش، فلما فرغ من صلاته أقبل على فطوره، فلما نظر إليه وتأمله حرك رأسه وبكى بكاء شديدا عاليا، وقال: يا بنية ما ظننت أن بنتا تسوء أباهما كما قد أسأت أنت إليّ..

قالت: وماذا يا أباه؟

قال: يا بنية أتقدمين إلى أبيك إدامين في فرد طبق واحد؟ أتريدين أن يطول وقوفي غدا بين يدي الله عز وجل يوم القيامة أنا أريد أن أتبع أخي وابن عمي رسول الله ﷺ ما قدم إليه إدامان في طبق واحد إلى أن قبضه الله، يا بنية ما من رجل طاب مطعمه ومشربه وملبسه إلا طال وقوفه بين يدي الله عز وجل يوم القيامة، يا بنية إن الدنيا في حلالها حساب وفي حرامها عقاب وقد أخبرني حبيبي رسول الله ﷺ أن جبرئيل عليه السلام نزل إليه ومعه مفاتيح كنوز الأرض، وقال: يا محمد السلام يقرؤك السلام، ويقول لك: إن شئت صيرت معك جبال تهامة ذهباً وفضة، وخذ هذه مفاتيح كنوز الأرض ولا ينقص ذلك من حظك يوم القيامة..

قال: يا جبرئيل وما يكون بعد ذلك؟ قال: الموت..

فقال: إذا لا حاجة لي في الدنيا، دعني أجوع يوماً وأشبع يوماً، فالיום الذي أجوع فيه أتضرع إلى ربي وأسأله، واليوم الذي أشبع فيه أشكر ربي وأحمده..

فقال له جبرئيل: وفقت لكل خير يا محمد..

ثم قال عليه السلام: يا بنية الدنيا دار غرور ودار هوان، فمن قدم شيئاً وجده، يا بنية والله لا أكل شيئاً حتى ترفعين أحد الإدامين.

فلما رفعته تقدم إلى الطعام فأكل قرصاً واحداً بالملح الجريش، ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قام إلى صلاته فصلّى ولم يزل راکعاً وساجداً ومبتهلاً ومتضرعاً إلى الله سبحانه، ويكثر الدخول والخروج وهو ينظر إلى السماء وهو قلق يتململ، ثم قرأ سورة «يس» حتى ختمها، ثم رقد هنيئاً وانتبه مرعوباً، وجعل يمسح وجهه بثوبه، ونهض قائماً على قدميه وهو يقول: «اللهم بارك لنا في لقائك» ويكثر من قول: «لا حول ولا

قوة إلا بالله العلي العظيم» ثم صلى حتى ذهب بعض الليل، ثم جلس للتعقيب، ثم نامت عيناه وهو جالس، ثم انتبه من نومته مرعوباً.

قالت أم كلثوم: كأني به وقد جمع أولاده وأهله وقال لهم: في هذا الشهر تفقدوني، إني رأيت في هذه الليلة رؤيا هالتي وأريد أن أقصها عليكم، قالوا: وما هي؟ قال: إني رأيت الساعة رسول الله ﷺ في منامي وهو يقول لي: يا أبا الحسن إنك قادم إلينا عن قريب، يجيء إليك أشقاها فيخضب شيبتك من دم رأسك، وأنا والله مشتاق إليك، وإنك عندنا في العشر الآخر من شهر رمضان، فهلم إلينا فما عندنا خير لك وأبقى..

قال: فلما سمعوا كلامه ضجوا بالبكاء والنحيب وأبدوا العويل، فأقسم عليهم بالسكوت فسكتوا، ثم أقبل يوصيهم ويأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر، قالت أم كلثوم: ولم يزل تلك الليلة قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً، ثم يخرج ساعة بعد ساعة يقلب طرفه في السماء وينظر في الكواكب وهو يقول: والله ما كذبت ولا كذبت، وإنها الليلة التي وعدت بها، ثم يعود إلى مصلاه، ويقول: اللهم بارك لي في الموت، ويكثر من قول: «إنا لله وإنا إليه راجعون» «ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» ويصلي على النبي وآله، ويستغفر الله كثيراً.

قالت أم كلثوم: فلما رأيته في تلك الليلة قلقاً متململاً كثير الذكر والاستغفار أرقّت معه ليلتي وقلت: يا أبتاه ما لي أراك هذه الليلة لا تذوق طعم الرقاد؟

قال: يا بنية إن أباك قتل الأبطال وخاض الأهوال وما دخل الخوف له جوف، وما دخل في قلبي رعب أكثر مما دخل في هذه الليلة، ثم قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.. فقلت: يا أباه مالك تنعي نفسك منذ الليلة؟

قال: يا بنية قد قرب الأجل وانقطع الأمل، قالت أم كلثوم: فبكيت فقال لي: يا بنية لا تبكين فإني لم أقل ذلك إلا بما عهد إلي النبي ﷺ، ثم إنه نعس وطوى ساعة، ثم استيقظ من نومه وقال: يا بنية إذا قرب وقت الأذان فأعلميني، ثم رجع إلى ما كان عليه أول الليل من الصلاة والدعاء والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى..

قالت أم كلثوم: فجعلت أرقب وقت الأذان، فلما لاح الوقت أتته ومعي إناء فيه ماء، ثم أيقظته، فأسبغ الوضوء وقام ولبس ثيابه وفتح بابه، ثم نزل إلى الدار وكان في الدار إوز قد أهدي إلى أخي الحسين ﷺ، فلما نزل خرجن وراءه ورفرفن وصحن في وجهه، وكان قبل تلك الليلة لم يصحن، فقال ﷺ: لا إله إلا الله صوائح تتبعها نوائح، وفي غداة غد يظهر القضاء..

فقلت له: يا أباه هكذا تتطير؟ فقال: يا بنية ما منا أهل البيت من يتطير ولا يتطير به، ولكن قول جرى على لساني، ثم قال: يا بنية بحقي عليك إلا ما أطلقتيه، فقد حبست ما ليس له لسان ولا يقدر على الكلام إذا جاع أو عطش، فأطعميه وأسقيه وإلا خلي سبيله يأكل من حشائش الأرض..

فلما وصل إلى الباب فعالججه ليفتحه فتعلق الباب بمئزره فانحل مئزره حتى سقط، فأخذه وشده وهو يقول:

اشدد حيازيمك للموت

فإن الموت لاقيك

ولا تجزع من الموت

إذا حل بناديكا

ولا تغتر بالدهر
وإن كان يواتيك
كما أضحك الدهر
كذاك الدهر يبكيك

ثم قال: اللهم بارك لنا في الموت، اللهم بارك لي في لقاءك..

قالت أم كلثوم: وكنت أمشي خلفه، فلما سمعته يقول ذلك قلت: وا غوثاه يا أبتاه أراك تنعي نفسك منذ الليلة، قال: يا بنية ما هو بنعاء ولكنها دلالات وعلامات للموت تتبع بعضها بعضا فأمسكي عن الجواب، ثم فتح الباب وخرج.

قالت أم كلثوم: فجئت إلى أخي الحسن عليه السلام فقلت يا أخي: قد كان من أمر أبيك الليلة كذا وكذا، وهو قد خرج في هذا الليل الغلس فألحقه، فقام الحسن بن علي عليه السلام وتبعه، فلحق به قبل أن يدخل الجامع فقال يا أباه: ما أخرجك في هذه الساعة وقد بقي من الليل ثلثه؟

فقال: يا حبيبي وبا قرّة عيني خرجت لرؤيا رأيتها في هذه الليلة أهالتي وأزعجتني وأقلقنتني، فقال له: خيرا رأيت وخيرا يكون فقصها عليّ؟

فقال عليه السلام: يا بني رأيت كأن جبرئيل عليه السلام قد نزل عن السماء على جبل أبي قبيس فتناول منه حجرتين ومضى بهما إلى الكعبة وتركهما على ظهرها، وضرب أحدهما على الآخر فصارت كالرميم، ثم ذرهما في الريح، فما بقي بمكة ولا بالمدينة بيت إلا ودخله من ذلك الرماد..

فقال له: يا أبت وما تأويلها؟

فقال: يا بني إن صدقت رؤياي فإن أباك مقتول، ولا يبقى بمكة حينئذ ولا بالمدينة بيت إلا ويدخله من ذلك غم ومصيبة من أجلي..

فقال الحسن عليه السلام: وهل تدري متى يكون ذلك يا أبت؟

قال: يا بني إن الله يقول: ﴿تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾^(١)

ولكن عهد إلي حبيبي رسول الله ﷺ أنه يكون في العشر الأواخر من شهر رمضان، يقتلني ابن ملجم المرادي..

فقلت له: يا أبتاه، إذا علمت منه ذلك فاقتله..

قال: يا بني لا يجوز القصاص إلا بعد الجناية والجناية لم تحصل منه، يا بني لو اجتمع الثقلان الإنس والجن على أن يدفعوا ذلك لما قدروا، يا بني ارجع إلى فراشك، فقال الحسن عليه السلام: يا أبتاه أريد أمضي معك إلى موضع صلاتك، فقال له: أقسمت بحقي عليك إلا ما رجعت إلى فراشك لئلا يتغص عليك نومك، ولا تعصني في ذلك..

فرجع الحسن عليه السلام فوجد أخته أم كلثوم قائمة خلف الباب تنتظره، فدخل فأخبرها بذلك، وجلسا يتحادثان وهما محزونان حتى غلب عليهما النعاس، فقاما ودخلا إلى فراشهما وناما.

وسار أمير المؤمنين عليه السلام حتى دخل المسجد، والقناديل قد خمدت ضوءها، فصلى في المسجد ورده وعقَّب ساعة، ثم إنه قام وصلى ركعتين، ثم علا المئذنة ووضع سبابتيه في أذنيه وتنحنح ثم أذن وكان عليه السلام إذا أذن لم يبق في بلدة الكوفة بيت إلا اخترقه صوته.

قال الراوي: وأما ابن ملجم فبات في تلك الليلة يفكر في نفسه،

(١) (لقمان: ٣٤)

ولا يدري ما يصنع، فتارة يعاتب نفسه ويوبخها ويخاف من عقبي فعله، فيهم أن يرجع عن ذلك، وتارة يذكر قطام لعنها الله وحسنها جمالها وكثرة مالها فتميل نفسه إليها، فبقي عامة ليله يتقلب على فراشه وهو يترنم بشعره ذلك إذا أتته الملعونة ونامت معه في فراشه، وقالت له: يا هذا من يكون على هذا العزم يرقد؟

فقال لها: والله إنني أقتله لك الساعة،

فقلت: اقتله وارجع إليّ قرير العين مسرورا، وافعل ما تريد فإنني منتظرة لك، فقال لها: بل أقتله وأرجع إليك سخين العين محزوننا منحوسا محسورا..

فقلت: أعوذ بالله من تطيرك الوحش، قال: فوثب الملعون كأنه الفحل من الإبل، قال: هلمّني إليّ بالسيف، ثم إنه اتزر بمئزر واتشح بإزار، وجعل السيف تحت الإزار مع بطنه، وقال: افتحي لي الباب ففي هذه الساعة أقتل لك علياً، فقامت فرحةً مسرورةً وقبّلت صدره، وبقي يقبلها ويتشرّفها ساعة، ثم راودها عن نفسها فقلت له: هذا علي أقبل إلى الجامع وأذن، فقم إليه فاقتله ثم عُد إليّ فها أنا منتظرة رجوعك، فخرج من الباب وهي خلفه تحرّضه بهذه الأبيات:

أقول إذا ماحية أعيت الرقا

وكان ذعاف الموت منه شرا بها (١)

رسنا إليها في الظلام ابن ملجم

همام إذا ما الحرب شب لها بها

فخذها علي! فوق رأسك ضربة

بكف سعيد سوف يلقي ثوابها

قال الراوي: فالتفت إليها وقال لها: أفسدت والله الشعر في هذا البيت الآخر، قالت: ولم ذاك؟ قال لها: هلا قلت: «بكف شقي سوف يلقي عقابها»

قال المجلسي: هذا الخبر غير صحيح، بل إنا كتبناه كما وجدناه، والرواية الصحيحة أنه بات في المسجد ومعه رجلان: أحدهما شبيب بن بحيرة والآخر وردان بن مجالد، يساعده على قتل علي عليه السلام، فلما أذن عليه السلام ونزل من المئذنة وجعل يسبح الله ويقدس ويكبره ويكثر من الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال الراوي: وكان من كرم أخلاقه (عليه السلام) أنه يتفقد النائمين في المسجد ويقول للنائم: الصلاة يرحمك الله الصلاة، قم إلى الصلاة المكتوبة عليك، ثم يتلو عليه السلام: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَنَهَّى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(١)

ففعل ذلك كما كان يفعله على مجاري عادته مع النائمين في المسجد، حتى إذا بلغ إلى الملعون فرآه نائماً على وجهه قال له: يا هذا قم من نومك هذا فإنها نومة يمقتها الله، وهي نومة الشيطان ونومة أهل النار، بل نم على يمينك فإنها نومة العلماء أو على يسارك فإنها نومة الحكماء، ولا تنم على ظهرك فإنها نومة الأنبياء.

قال: فتحرك الملعون كأنه يريد أن يقوم وهو من مكانه لا يبرح فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: لقد هممت بشيء تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا، ولو شئت لأنبأتك بما تحت ثيابك..

ثم تركه وعدل عنه إلى محرابه، وقام قائماً يصلي، وكان عليه السلام يطيل الركوع والسجود في الصلاة كعادته في الفرائض والنوافل حاضراً قلبه، فلما أحسَّ به فنهض الملعون مسرعاً وأقبل يمشي حتى وقف بإزاء

(١) (العنكبوت: ٤٥)

الأسطوانة التي كان الإمام عليه السلام يصلي عليها، فأمهله حتى صلى الركعة الأولى وركع وسجد السجدة الأولى منها ورفع رأسه، فعند ذلك أخذ السيف وهزه، ثم ضربه على رأسه المكرم الشريف، ف وقعت الضربة على الضربة التي ضربه عمرو بن عبد ود العامري يوم الخندق، ثم أخذت الضربة إلى مفرق رأسه إلى موضع السجود، فلما أحس الإمام عليه السلام بالضرب لم يتأوه وصبر واحتسب، ووقع على وجهه وليس عنده أحد قائلاً: بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله، ثم صاح وقال: قتلني ابن ملجم قتلني اللعين ابن اليهودية ورب الكعبة، أيها الناس لا يفوتنكم ابن ملجم..

وسار السم في رأسه وبدنه وثار جميع من في المسجد في طلب الملعون، وماجوا بالسلاح فما كنت أرى إلا صفق الأيدي على الهامات وعلوا الصرخات، وكان ابن ملجم ضربه ضربة خائفاً مرعوباً، ثم ولى هارباً وخرج من المسجد، وأحاط الناس بأمر المؤمنين عليهم السلام وهو في محرابه يشدُّ الضربة ويأخذ التراب ويضعه عليها، ثم تلا قوله تعالى: ﴿مَنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾.. (طه: ٥٥)

ثم قال عليه السلام: جاء أمر الله وصدق رسول الله صلوات الله عليه وآله، ثم إنه لما ضربه الملعون ارتجت الأرض وماجت البحار والسموات، واصطفقت أبواب الجامع، قال: وضربه اللعين شبيب بن بجرة فأخطأه ووقعت الضربة في الطاق.

قال الراوي: فلما سمع الناس الضجة ثار إليه كل من كان في المسجد، وصاروا يدورون ولا يدرون أين يذهبون من شدة الصدمة والدهشة، ثم أحاطوا بأمر المؤمنين عليهم السلام وهو يشد رأسه بمئزره، والدم يجري على وجهه ولحيته، وقد خضبت بدمائه وهو يقول: هذا ما وعد

الله ورسوله وصدق الله ورسوله.

قال الراوي: فاصطفقت أبواب الجامع، وضجت الملائكة في السماء بالدعاء، وهبت ريح عاصف سوداء مظلمة، ونادى جبرئيل عليه السلام بين السماء والأرض بصوت يسمعه كل مستيقظ: «تهدمت والله أركان الهدى، وانطمست والله نجوم السماء وأعلام التقى، وانفصمت والله العروة الوثقى، قتل ابن عم محمد المصطفى، قتل الوصي المجتبي، قتل علي المرتضى، قتل والله سيد الأوصياء، قتله أشقى الأشقياء»

قال: فلما سمعت أم كلثوم نعي جبرئيل فلطمت على وجهها وخدها وشقت جيها وصاحت: وا أبتاه، وا علياه، وا محمداه، وا سيده، ثم أقبلت إلى أخويها الحسن والحسين عليهما السلام فأيقظتهما وقالت لهما: لقد قتل أبوكما: فقاما يبكيان، فقال لها الحسن عليه السلام: يا أختاه كفي عن البكاء حتى نعرف صحة الخبر كيلا تشمت الأعداء.. فخرجنا فإذا الناس ينوحون وينادون: وا إماماه، وا أمير المؤمنيناه، قتل والله إمام عابد مجاهد لم يسجد لصنم، كان أشبه الناس برسول الله صلوات الله عليه فلما سمع الحسن والحسين عليهما السلام صرخات الناس ناديا: وا أبتاه، وا علياه ليت الموت أعدمنا الحياة، فلما وصلا الجامع ودخلا وجدا أبا جعدة بن هبيرة ومعه جماعة من الناس، وهم يجتهدون أن يقيموا الامام في المحراب ليصلي بالناس، فلم يطق على النهوض وتأخر عن الصف وتقدم الحسن عليه السلام فصلى بالناس وأمير المؤمنين عليه السلام يصلي إيماء من جلوس، وهو يمسح الدم عن وجهه وكريمته الشريف، يميل تارة ويسكن أخرى، والحسن عليه السلام ينادي: وا انقطاع ظهراه يعز والله عليّ أن أراك هكذا، ففتح عينه وقال: يا بني لا جزع على أبيك بعد اليوم، هذا جدك محمد المصطفى وجدتك خديجة الكبرى وأمك فاطمة الزهراء

والحور العين محدقون منتظرون قدوم أبيك، فطب نفسا وقر عينا وكف عن البكاء، فإن الملائكة قد ارتفعت أصواتهم إلى السماء.

قال: ثم إن الخبر شاع في جوانب الكوفة وانحشر الناس حتى المخدرات خرجن من خدرهن إلى الجامع ينظرن إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، فدخل الناس الجامع فوجدوا الحسن ورأس أبيه في حجره، وقد غسل الدم عنه وشد الضربة وهي بعدها تشخب دما، ووجهه قد زاد بياضا بصفرة، وهو يرمق السماء بطرفه ولسانه يسبح الله ويوحده، وهو يقول: «أسألك يا رب الرفيع الأعلى» فأخذ الحسن عليه السلام رأسه في حجره فوجده مغشيا عليه، فعندها بكى بكاء شديدا وجعل يقبل وجه أبيه وما بين عينيه وموضع سجوده، فسقط من دموعه قطرات على وجه أمير المؤمنين عليه السلام، ففتح عينيه فرآه باكيا، فقال له: يا بني يا حسن ما هذا البكاء؟ يا بني لا روع على أبيك بعد اليوم، هذا جدك محمد المصطفى وخديجة وفاطمة والحور العين محدقون منتظرون قدوم أبيك، فطب نفسا وقر عينا، واكفف عن البكاء فإن الملائكة قد ارتفعت أصواتهم إلى السماء، يا بني أتجزع على أبيك وغدا تقتل بعدي مسموما مظلوما؟ ويقتل أخوك بالسيف هكذا، وتلحقان بجدكما وأبيكما وأمكما، فقال له الحسن عليه السلام: يا أبتاه ما تعرفنا من قتلك ومن فعل بك هذا؟

قال: قتلني ابن اليهودية عبد الرحمن بن ملجم المرادي، فقال: يا أباه من أي طريق مضى؟ قال: لا يمضي أحد في طلبه فإنه سيطلع عليكم من هذا الباب - وأشار بيده الشريفة إلى باب كندة - قال: ولم يزل السم يسري في رأسه وبدنه، ثم أغمي عليه ساعة والناس ينتظرون قدوم الملعون من باب كندة، فاشتغل الناس بالنظر إلى الباب، ويرتقبون

قدوم الملعون، وقد غص المسجد بالعالم ما بين باك ومحزون، فما كان إلا ساعة وإذا بالصيحة قد ارتفعت وزمرة من الناس وقد جاؤوا بعدو الله ابن ملجم مكتوفا، وهذا يلعنه وهذا يضربه، قال: فوقع الناس بعضهم على بعض ينظرون إليه، فأقبلوا باللعين مكتوفا وهذا يلعنه وهذا يضربه، وهم ينهشون لحمه بأسنانهم ويقولون له: يا عدو الله ما فعلت؟ أهلك أمة محمد وقتلت خير الناس، وإنه لصامت وبين يديه رجل يقال له حذيفة النخعي، بيده سيف مشهور، وهو يرد الناس عن قتله، وهو يقول: هذا قاتل الإمام علي عليه السلام حتى أدخلوه المسجد.

قال الشعبي: كأني أنظر إليه وعينه قد طارتا في أم رأسه كأنهما قطعتا علق، وقد وقعت في وجهه ضربة قد هشمت وجهه وأنفه، والدم يسيل على لحيته وعلى صدره، وهو ينظر يمينا وشمالا وعينه قد طارتا في أم رأسه، وهو أسمر اللون حسن الوجه، وفي وجهه أثر السجود! وكان على رأسه شعر أسود منشورا على وجهه كأنه الشيطان الرجيم، فلما حاذاني سمعته يترنم بهذه الأبيات:

أقول لنفسي بعد ما كنت أنهاها
وقد كنت أسناها وكنت أكيدها
أيا نفس كفي عن طلابك واصبري
ولا تطلبي هما عليك يبيدها
فما قبلت نصحي وقد كنت ناصحا
كنصح ولود غاب عنها وليدها
فما طلبت إلا عنائي وشقوتي
فيا طول مكثي في الجحيم بعيدها

فلما جاؤوا به أوقفوه بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام، فلما نظر إليه

الحسن عليه السلام قال له: يا ويلك يا لعين يا عدو الله أنت قاتل أمير المؤمنين ومثكلنا إمام المسلمين هذا جزاؤه منك حيث آواك وقربك وأدناك وآثرك على غيرك؟ وهل كان بئس الإمام لك حتى جازيته هذا الجزاء يا شقي؟

قال: فلم يتكلم بل دمعت عيناه! فانكب الحسن عليه السلام على أبيه يقبله، وقال له: هذا قاتلك يا أباه قد أمكن الله منه، فلم يجبه وكان نائماً، فكره أن يوقظه من نومه، ثم التفت إلى ابن ملجم وقال له: يا عدو الله هذا كان جزاؤه منك بؤك وأدناك وقربك وحباك وفضلك على غيرك؟ هل كان بئس الإمام لك حتى جازيته بهذا الجزاء يا شقي الأشقياء؟

فقال له الملعون: يا أبا محمد أفأنت تنقذ من في النار؟ فعند ذلك ضجت الناس بالبكاء والنحيب، فأمرهم الحسن عليه السلام بالسكوت، ثم التفت الحسن عليه السلام إلى الذي جاء به حذيفة رضي الله عنه، فقال له: كيف ظفرت بعدو الله وأين لقيته؟ فقال: يا مولاي إن حديثي معه لعجيب، وذلك أنني كنت البارحة نائماً في داري وزوجتي إلى جانبي وهي من غطفان، وأنا راقد وهي مستيقظة، إذ سمعت هي الزعقة وناعيا ينعي أمير المؤمنين عليه السلام وهو يقول: «تهدمت والله أركان الهدى، وانطمست والله أعلام التقى، قتل ابن عم محمد المصطفى، قتل علي المرتضى، قتله أشقى الأشقياء» فأيقظتني وقالت لي: أنت نائم وقد قتل إمامك علي بن أبي طالب؟ فانتبهت من كلامها فزعا مرعوباً وقلت لها: يا ويلك ما هذا الكلام رضى الله فاك لعل الشيطان قد ألقى في سمعك هذا أو حلم القي عليك، يا ويلك إن أمير المؤمنين ليس لأحد من خلق الله تعالى قبله تبعه ولا ظلامة، وإنه لليتيم كالأب الرحيم، وللأرملة كالزوج العطوف، وبعد ذلك فمن ذا الذي يقدر على قتل أمير المؤمنين وهو الأسد الضرغام والبطل الهمام والفارس القمقام؟

فأكثر عليّ وقالت: إني سمعت ما لم تسمع وعلمت ما لم تعلم، فقلت لها: وما سمعت؟ فأخبرتني بالصوت فقالت لي: سمعت ناعيا ينادي بأعلى صوته «تهدمت والله أركان الهدى، وانطمست والله أعلام التقى، قتل ابن عم محمد المصطفى، قتل علي المرتضى، قتله أشقى الأشقياء» ثم قالت: ما أظن بيتا في الكوفة إلا وقد دخله هذا الصوت، قال: فبينما أنا وهي في مراجعة الكلام وإذا بصيحة عظيمة وجلبة وضجة عظيمة وقائل يقول: «قتل أمير المؤمنين» فحس قلبي بالشر، فمددت يدي إلى سيفي وسللته من غمده وأخذته، ونزلت مسرعا وفتحت باب داري وخرجت، فلما صرت في وسط الجادة فنظرت يميناً وشمالاً وإذا بعدو الله يجول فيها يطلب مهرباً فلم يجد، وإذا قد انسدت الطرقات في وجهه فلما نظرت إليه وهو كذلك رايني أمره، فناديته: يا ويلك من أنت؟ وما تريد لا أم لك في وسط هذا الدرب تمر وتجيء؟ فتسمى بغير اسمه، وانتفى إلى غير كنيته فقلت له: من أين أقبلت؟ قال: من منزلي، قلت: وإلى أين تريد أن تمضي في هذا الوقت؟ قال: إلى الحيرة، فقلت: ولم لا تقعد حتى تصلي مع أمير المؤمنين عليه السلام صلاة الغداة وتمضي في حاجتك؟ فقال: أخشى أن أقعد للصلاة فتفوتني حاجتي، فقلت: يا ويلك إني سمعت صيحة وقائل يقول: قتل أمير المؤمنين عليه السلام فهل عندك من ذلك خبر؟ قال: لا علم لي بذلك، فقلت له: ولم لا تمضي معي حتى تحقق الخبر وتمضي في حاجتك؟ فقال: أنا ماض في حاجتي وهي أهم من ذلك، فلما قال لي مثل ذلك القول قلت: يا لكع الرجال حاجتك أحب إليك من التجسس لأمر المؤمنين عليه السلام وإمام المسلمين؟ وإذا والله يا لكع مالك عند الله من خلاق، وحملت عليه بسيفي وهممت أن أعلو به فراغ عني، فبينما أنا أخاطبه وهو يخاطبني إذ هبت ريح فكشفت إزاره، وإذا بسيفه يلمع تحت الإزار كأنه مرآة مصقولة فلما

رأيت بريقه تحت ثيابه قلت: يا ويلك ما هذا السيف المشهور تحت ثيابك؟ لعلك أنت قاتل أمير المؤمنين؟ فأراد أن يقول: «لا» فأنطق الله لسانه بالحق فقال: «نعم» فرفعت سيفي وضربته، فرفع هو سيفه وهوى أن يعلوني به، فأنحرفت عنه فضربته على ساقيه، فأوقفته ووقع لحينه، ووقعت عليه وصرخت صرخة شديدة وأردت أخذ سيفه فمانعني عنه، فخرج أهل الحيرة فأعانوني عليه حتى أوثقته كتافا وجئتكم به، فها هو بين يديك، جعلني الله فداك فاصنع ما شئت. فقال الحسن عليه السلام: الحمد لله الذي نصر وليه وخذل عدوه، ثم انكب الحسن عليه السلام على أبيه يقبله وقال له: يا أباه هذا عدو الله وعدوك قد أمكن الله منه، فلم يجبه وكان نائما، فكره أن يوقظه من نومه، فرقد ساعة ثم فتح عليه السلام عينيه وهو يقول: ارفقوا بي يا ملائكة ربي.. فقال له الحسن عليه السلام: هذا عدو الله وعدوك ابن ملجم قد أمكن الله منه وقد حضر بين يديك، قال: ففتح أمير المؤمنين عليه السلام عينيه ونظر إليه وهو مكتوف وسيفه معلق في عنقه، فقال له بضعف وانكسار صوت ورأفة ورحمة: يا هذا لقد جئت عظيما واركتبت أمرا عظيما وخطبا جسيما أبئس الإمام كنت لك حتى جازيتني بهذا الجزاء؟ ألم أكن شفيقا عليك وآثرتك على غيرك وأحسنيت إليك وزدت في إعطائك؟ ألم يكن يقال لي فيك كذا وكذا فخليت لك السبيل ومنحتك عطائي وقد كنت أعلم أنك قاتلي لا محالة؟ ولكن رجوت بذلك الاستظهار من الله تعالى عليك يا لكع وعل أن ترجع عن غيك، فغلبت عليك الشقاوة فقتلتني يا شقي الأشقياء..

قال: فدمعت عينا ابن ملجم لعنه الله تعالى وقال: يا أمير المؤمنين أفأنت تنقذ من في النار؟ قال له: صدقت، ثم التفت عليه السلام إلى ولده الحسن عليه السلام وقال له: أرفق يا ولدي بأسيرك وارحمه، وأحسن إليه

وأشفق عليه، ألا ترى إلى عينيه قد طارتا في أم رأسه، وقلبه يرجف خوفاً ورعباً وفزعاً..

فقال له الحسن عليه السلام: يا أباه قد قتلك هذا اللعين الفاجر وأفجعنا فيك وأنت تأمرنا بالرفق به؟! فقال له: نعم يا بني نحن أهل بيت لا نزداد على الذنب إلينا إلا كرماً وعفواً، والرحمة والشفقة من شيمتنا لا من شيمته، بحقي عليك فأطعمه يا بني مما تأكله، واسقه مما تشرب، ولا تقيد له قدماً، ولا تغل له يداً، فإن أنامت فاقتص منه بأن تقتله وتضربه ضربة واحدة وتحرقه بالنار، ولا تمثل بالرجل فإني سمعت جدك رسول الله ﷺ يقول: إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور، وإن أنا عشت فأنا أولى بالعفو عنه، وأنا أعلم بما أفعل به، فإن عفوت فنحن أهل بيت لا نزداد على المذنب إلينا إلا عفواً وكرماً.

قال مخنف بن حنيف: إني والله ليلة تسع عشرة في الجامع في رجال نصلي قريباً من السدة التي يدخل منها أمير المؤمنين عليه السلام فبينما نحن نصلي إذ دخل أمير المؤمنين عليه السلام من السدة وهو ينادي: الصلاة، ثم صعد المئذنة فأذن، ثم نزل فعبر على قوم نيام في المسجد فناداهم: الصلاة، ثم قصد المحراب، فما أدري دخل في الصلاة أم لا إذ سمعت قائلاً يقول: الحكم لله لا لك يا علي، قال: فسمعت عند ذلك أمير المؤمنين عليه السلام يقول: لا يفوتنكم الرجل..

قال: فشد الناس عليه وأنا معهم، وإذا هو وردان بن مجالد، وأما ابن ملجم لعنه الله فإنه هرب من ساعته ودخل الكوفة ورأينا أمير المؤمنين عليه السلام مجروحاً في رأسه.

قال محمد بن الحنفية: ثم إن أبي عليه السلام قال: احملوني إلى موضع مصلاي في منزلي، قال: فحملناه إليه وهو مدنف والناس حوله، وهم

في أمر عظيم باكين محزونين، قد أشرفوا على الهلاك من شدة البكاء والنحيب، ثم التفت إليه الحسين عليه السلام وهو يبكي. فقال له: يا أبتاه من لنا بعدك؟ لا كيومك إلا يوم رسول الله ﷺ من أجلك تعلمت البكاء، يعز والله عليّ أن أراك هكذا، فناداه عليه السلام فقال: يا حسين يا أبا عبد الله اذن مني، فدنا منه وقد قرحت أجفان عينيه من البكاء، فمسح الدموع من عينيه ووضع يده على قلبه وقال له: يا بني ربط الله قلبك بالصبر، وأجزل لك ولإخوتك عظيم الاجر، فسكن روعتك واهدأ من بكائك، فإن الله قد أجرك على عظيم مصابك..

ثم ادخل عليه السلام إلى حجرته وجلس في محرابه.

قال الراوي: وأقبلت زينب وأم كلثوم حتى جلستا معه على فراشه، وأقبلتا تند بأنه وتقولان: يا أبتاه من للصغير حتى يكبر؟ ومن للكبير بين الملا؟ يا أبتاه حزنا عليك طويل، وعبرتنا لا ترقأ، قال: فضج الناس من وراء الحجرة بالبكاء والنحيب، وفاضت دموع أمير المؤمنين عليه السلام عند ذلك، وجعل يقلب طرفه وينظر إلى أهل بيته وأولاده، ثم دعا الحسن والحسين عليه السلام وجعل يحضنهما ويقبلهما، ثم أغمى عليه ساعة طويلة وأفاق، وكذلك كان رسول الله ﷺ يغمى عليه ساعة طويلة ويفيق أخرى، لأنه ﷺ كان مسموما، فلما أفاق ناوله الحسن عليه السلام قعبا من لبن، فشرب منه قليلا ثم نحاه عن فيه وقال: املوه إلى أسيركم، ثم قال للحسن عليه السلام: بحقي عليك يا بني إلا ما طيبتم مطعمه ومشربه، وارفقوا به إلى حين موتي، وتطعمه مما تأكل وتسقيه مما تشرب حتى تكون أكرم منه، فعند ذلك حملوا إليه اللبن وأخبروه بما قال أمير المؤمنين عليه السلام في حقه، فأخذ اللعين وشربه.

ولما حمل أمير المؤمنين عليه السلام إلى منزله جاؤوا باللعين مكتوفا إلى

بيت من بيوت القصر فحبسوه فيه، فقالت له أم كلثوم وهي تبكي: يا ويلك أما أبي فإنه لا بأس عليه، وإن الله مخزيك في الدنيا والآخرة، وإن مصيرك إلى النار خالدا فيها..

فقال لها ابن ملجم لعنه الله: أبكي إن كنت باكية فوالله لقد اشتريت سيفي هذا بألف وسَمَّمته بألف، ولو كانت ضربتي هذه لجميع أهل الكوفة ما نجا منهم أحد.

وفي ذلك يقول الفرزدق:

فلا غرو للاشراف إن ظفرت بها
ذئاب الأعادي من فصيح وأعجمي
فحربة وحشي سقت حمزة الردي
وحتف علي من حسام ابن ملجم

قال محمد بن الحنفية عليه السلام: وبتنا ليلة عشرين من شهر رمضان مع أبي وقد نزل السم إلى قدميه، وكان يصلي تلك الليلة من جلوس، ولم يزل يوصينا بوصاياه ويعزينا عن نفسه ويخبرنا بأمره وتبياهه إلى حين طلوع الفجر، فلما أصبح استأذن الناس عليه، فأذن لهم بالدخول، فدخلوا عليه وأقبلوا يسلمون عليه، وهو يرد عليهم السلام، ثم قال: أيها الناس اسألوني قبل أن تفقدوني وخففوا سؤالكم لمصيبة إمامكم، قال فبكى الناس عند ذلك بكاءً شديداً، وأشفقوا أن يسألوه تخفيفاً عنه، فقام إليه حجر بن عدي الطائي وقال:

فيا أسفى على المولى التقى
أبو الأطهار حيدرة الزكي
قتله كافر حنث زنيم
لعين فاسق نغل شقي

فيلعن ربنا من حاد عنكم
ويبرء منكم لعنا وبني
لأنكم بيوم الحشر ذخري
وأنتم عترة الهادي النبي

فلما بصر به وسمع شعره قال له: كيف لي بك إذا دعيت إلى البراءة مني، فما عساك أن تقول؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين لو قطعت بالسيف إربا إربا وأضرمت لي النار وألقيت فيها لآثرت ذلك على البراءة منك، فقال: وفقت لكل خير يا حجر، جزاك الله خيرا عن أهل بيت نبيك.

ثم قال: هل من شربة من لبن؟ فأتوه بلبن في قعب، فأخذه وشربه كله، فذكر الملعون ابن ملجم وأنه لم يخلف له شيئا، فقال عليه السلام: «وكان أمر الله قدرا مقدورا» اعلّموا أنني شربت الجميع ولم أبق لأسيركم شيئا من هذا، ألا وإنه آخر رزقي من الدنيا، فبالله عليك يا بني إلا ما أسقيته مثل ما شربت، فحمل إليه ذلك فشربه.

واستدعوا طبيب الجراحات الصعبة قال حبيب بن عمرو: دخلت على سيدي ومولاي أمير المؤمنين عليه السلام وعنده الأشراف من القبائل وشرطة الخميس، وما منهم أحد إلا وماء عينيه يترقق على سوادها حزنا لأمر المؤمنين عليه السلام، ورأيت الحسن والحسين عليهما السلام ومن معهما من الهاشميين، وما تنفس منهم أحد إلا وظننت أن شظايا قلبه تخرج مع نفسه، وقد أرسلوا خلف أثير بن عمرو الجراح، وكان يعالج الجراحات الصعبة، فلما نظر أثير إلى جرح أمير المؤمنين عليه السلام دعا برئة شاة حارة، فاستخرج منها عرقا وأدخله في الجرح، ثم نفخه ثم استخرجه، وإذا عليه بياض الدماغ.

فقال الناس: يا أثير كيف جرح أمير المؤمنين عليه السلام فخرس أثير عن جوابهم وتلجلج. ثم قال: يا أمير المؤمنين أعهد عهدك فإن عدو الله قد وصلت ضربته إلى أم رأسك! فدعا علي عليه السلام عند ذلك بدواة وصحيفة، وكتب وصيته..

قال محمد بن الحنفية رضي الله عنه: لما كانت ليلة إحدى وعشرين وأظلم الليل وهي الليلة الثانية من الكائنة جمع أبي أولاده وأهل بيته وودعهم، ثم قال لهم: الله خليفتي عليكم وهو حسبي ونعم الوكيل، وأوصاهم الجميع منهم بلزوم الايمان والأديان والاحكام التي أوصاه بها رسول الله صلوات الله وسلاماته عليه..

ثم تزايد ولوج السم في جسده الشريف، حتى نظرنا إلى قدميه وقد احمرتا جميعاً، فكبر ذلك علينا وأيسنا منه، ثم أصبح ثقيلاً، فدخل الناس عليه، فأمرهم ونهاهم وأوصاهم، ثم عرضنا عليه المأكول والمشروب فأبى أن يشرب فنظرنا إلى شفثيه وهما يختلجان بذكر الله تعالى، وجعل جبينه يرشح عرقاً وهو يمسحه بيده قلت: يا أبت أراك تمسح جبينك فقال: يا بني إني سمعت جدك رسول الله صلوات الله وسلاماته عليه يقول: إن المؤمن إذا نزل به الموت ودنت وفاته عرق جبينه وصار كاللؤلؤ الرطب وسكن أنينه، ثم قال: يا أبا عبد الله ويا عون، ثم نادى أولاده كلهم بأسمائهم صغيراً وكبيراً واحداً بعد واحد، وجعل يودعهم ويقول: الله خليفتي عليكم أستودعكم الله وهم يبكون، فقال له الحسن عليه السلام: يا أبة ما دعاك إلى هذا؟ فقال له: يا بني إني رأيت جدك رسول الله صلوات الله وسلاماته عليه في منامي قبل هذه الكائنة بليلة، فشكوت إليه ما أنا فيه من التذلل والأذى من هذه الأمة، فقال لي: ادع عليهم، فقلت: اللهم أبدلهم بي شرا مني وأبدلني بهم خيراً منهم..

فقال لي: قد استجاب الله دعاك، سينقلك إلينا بعد ثلاث، وقد مضت الثلاث، يا أبا محمد أوصيك - ويا أبا عبد الله - خيرا، فأنتما مني وأنا منكما، ثم التفت إلى أولاده الذين من غير فاطمة عليها السلام وأوصاهم أن لا يخالفوا أولاد فاطمة يعني الحسن والحسين عليهما السلام.

ثم قال: أحسن الله لكم العزاء، ألا وإني منصرف عنكم، وراحل في ليلتي هذه، ولاحق بحبيبي محمد صلوات الله عليه كما وعدني، فإذا أنامت يا أبا محمد فغسلني وكفني وحنطني ببقية حنوط جدك رسول الله صلوات الله عليه فإنه من كافور الجنة جاء به جبرئيل عليه السلام إليه، ثم ضعني على سريري، ولا يتقدم أحد منكم مقدم السرير، واحملوا مؤخره واتبعوا مقدمه، فأني موضع وضع المقدم فضعوا المؤخر، فحيث قام سريري فهو موضع قبري، ثم تقدم يا أبا محمد وصل علي يا بني يا حسن وكبر علي سبعا، واعلم أنه لا يحل ذلك على أحد غيري إلا على رجل يخرج في آخر الزمان اسمه القائم المهدي، من ولد أخيك الحسين يقيم اعوجاج الحق، فإذا أنت صليت علي يا حسن فنح السرير عن موضعه، ثم اكشف التراب عنه فترى قبرا محفورا ولحدا مثقوبا وساجة منقوبة، فأضجعني فيها، فإذا أردت الخروج من قبري فافتقدني فإنك لا تجدني، وإني لاحق بجدك رسول الله صلوات الله عليه واعلم يا بني ما من نبي يموت وإن كان مدفونا بالشرق ويموت وصيه بالمغرب إلا ويجمع الله عز وجل بين روحيهما وجسديهما، ثم يفترقان فيرجع كل واحد منهما إلى موضع قبره وإلى موضعه الذي حط فيه، ثم أشرح (شرح الحجارة: نضدها وضم بعضها إلى بعض) اللحد باللبن وأهل التراب علي ثم غيب قبري - وكان غرضه عليه السلام بذلك لئلا يعلم بموضع قبره أحد من بني أمية، فإنهم لو علموا بموضع قبره لحفروه وأخرجوه وأحرقوه كما فعلوا بزيد بن علي بن الحسين عليه السلام.

- ثم يا بني بعد ذلك إذا أصبح الصباح أخرجوا تابوتا إلى ظهر الكوفة (النجف) على ناقه، وأمر بمن يسيرها بما عليها كأنها تريد المدينة، بحيث يخفى على العامة موضع قبري الذي تضعني فيه، وكأني بكم وقد خرجت عليكم الفتن من ههنا وههنا فعليكم بالصبر فهو محمود العاقبة.

ثم قال: يا أبا محمد ويا أبا عبد الله كأني بكم وقد خرجت عليكما من بعدي الفتن من ههنا، فاصبرا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين. ثم قال: يا أبا عبد الله أنت شهيد هذه الأمة، فعليك بتقوى الله والصبر على بلائه، ثم أغمي عليه ساعة، وأفاق وقال: هذا رسول الله ﷺ وعمي حمزة وأخي جعفر وأصحاب رسول الله ﷺ وكلهم يقولون: عجل قدومك علينا فإننا إليك مشتاقون، ثم أدار عينيه في أهل بيته كلهم وقال: أستودعكم الله جميعا سددكم الله جميعا حفظكم الله جميعا، خليفتي عليكم الله وكفى بالله خليفة.

ثم قال: وعليكم السلام يا رسل ربي، ثم قال: ﴿لِمَثَلِ هَذَا فليعمل الْعَمَلُونَ﴾ [الصفات: ٦١] ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ وعرق جبينه وهو يذكر الله كثيرا، وما زال يذكر الله كثيرا ويتشهد الشهادتين، ثم استقبل القبلة وغمض عينيه ومد رجله ويديه وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، ثم قضى نحبه ﷺ، وكانت وفاته في ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان، وكانت ليلة الجمعة سنة أربعين من الهجرة.

قال: فعند ذلك صرخت زينب بنت علي ﷺ وأم كلثوم وجميع

نسائه، وقد شقوا الجيوب ولطموا الخدود، وارتفعت الصيحة في القصر، فعلم أهل الكوفة أن أمير المؤمنين عليه السلام قد قبض، فأقبل النساء والرجال يهرعون أفواجا أفواجا، وصاحوا صيحة عظيمة، فارتجت الكوفة بأهلها وكثر البكاء والنحيب، وكثر الضجيج بالكوفة وقبائلها ودورها وجميع أقطارها، فكان ذلك كيوم مات فيه رسول الله صلى الله عليه وآله فلما أظلم الليل تغير أفق السماء وارتجت الأرض وجميع من عليها بكوه وكنا نسمع جلبة وتسبيحا في الهواء، فعلمنا أنها من أصوات الملائكة، فلم يزل كذلك إلى أن طلع الفجر، ثم ارتفعت الأصوات وسمعنا هاتفا بصوت يسمعه الحاضرون ولا يرون شخصه يقول:

بنفسي ومالي ثم أهلي وأسرتي
فداء لمن أضحى قتيل ابن ملجم
علي رقى فوق الخلائق في الوغي
فهدت به أركان بيت المحرم
علي أمير المؤمنين ومن بكت
لمقتله البطحا وأكناف زمزم
يكاد الصفا والمشعران كلاهما
يهدا وبان النقص في ماء زمزم
وأصبحت الشمس المنير ضياؤها
لقتل علي لونها لون دلهم^(١)
وضل له أفق السماء كآبة
كشقة ثوب لونها لون عندم^(٢)

(١) الدلهم: المظلم.

(٢) العندم: خشب نبات يصبغ به.

وناحت عليه الجن إذ فجعت
 به حيناً كثكلى نوحها بترنم
 وأضحى إليها الجود والنبيل مقتما^(١)
 وكان التقى في قبره المتهم
 وأضحى التقى والخير والحلم
 والنهى وبات العلى في قبره المتهم
 يكاد الصفا والمستجار كلاهما
 يهدا وبان النقص في ماء زمزم
 لفقد علي خير من وطئ الحصى
 أخا العالم الهادي النبي المعظم
 فالمعنى عند ذلك أن السماوات والأرض والملائكة والجن والإنس
 قد بكت ورثته في تلك الليلة، وسمعنا في الهواء جلبة عظيمة وتسبيحا
 وتقديسا، فعلمنا أنها أصوات الملائكة، فلم تزل كذلك حتى بدا
 الصباح، فارتفعت الأصوات فخرجنا وإذا بصائح في الهواء وهو يقول:
 يا للرجال لعظم هول مصيبة
 قدحت فليس مصابها بالهازل
 والشمس كاسفة لفقد إمامنا
 خير الخلائق والإمام العادل
 يا خير من ركب المطي ومن مشى
 فوق الثرى من حافي أو ناعل
 يا سيدي ولقد هددت قواءنا
 والحق أصبح خاضعا للباطل

(١) قتم وجهه: تغير واسود.

قال محمد بن الحنفية: ثم أخذنا في جهازه ليلاً وكان الحسن عليه السلام يغسله والحسين عليه السلام يصب الماء عليه، وكان عليه السلام لا يحتاج إلى من يقلبه، بل كان يتقلب كما يريد الغاسل يميناً وشمالاً، وكانت رائحته أطيب من رائحة المسك والعنبر، ثم نادى الحسن عليه السلام بأخته زينب وأم كلثوم وقال: يا أختاه هلمي بحنوط جدي رسول الله ﷺ، فبادرت زينب مسرعة حتى أتته به، قال الراوي: فلما فتحته فاحت الدار وجميع الكوفة وشوارعها لشدة رائحة ذلك الطيب، ثم لفوه بخمسة أثواب كما أمر عليه السلام ثم وضعوه على السرير، وتقدم الحسن والحسين عليه السلام إلى السرير من مؤخره وإذا مقدمه قد ارتفع ولا يرى حامله، وكان حامله من مقدمه جبرائيل وميكائيل، فما مر بشيء على وجه الأرض إلا انحنى له ساجدا وخرج السرير من ميل (جهة) باب كندة، فحملاً مؤخره وسارا يتبعان مقدمه.

قال ابن الحنفية رحمته الله: والله لقد نظرت إلى السرير وإنه ليمر بالحيطان والنخل فتنحني له خشوعاً، ومضى مستقيماً إلى النجف إلى موضع قبره الآن، قال: وضجت الكوفة بالبكاء والنحيب، وخرجن النساء يتبعنه لاطمات حاسرات، فمنعهم الحسن عليه السلام ونهاهم عن البكاء والعويل، وردهن إلى أماكنهن والحسين عليه السلام يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم إنا لله وإنا إليه راجعون يا أباه وانقطاع ظهراه، من أجلك تعلمت البكاء، إلى الله المشتكى.. فلما انتهيا إلى قبره وإذا مقدم السرير قد وضع، فوضع الحسن عليه السلام مؤخره ثم قام الحسن عليه السلام وصلى عليه والجماعة خلفه، فكبر سبعا كما أمره به أبوه عليه السلام ثم زحزحنا سريره وكشفنا التراب وإذا نحن بقبر محفور ولحد مشقوق وساجة منقورة مكتوب عليها: «هذا ما ادخره له جده نوح النبي للعبد الصالح الطاهر

المطهر» فلما أرادوا نزوله سمعوا هاتفا يقول: أنزلوه إلى التربة الطاهرة، فقد اشتاق الحبيب إلى الحبيب، فدهش الناس عند ذلك وتحيروا، وألحد أمير المؤمنين عليه السلام قبل طلوع الفجر.

ولما ألحد أمير المؤمنين عليه السلام وقف صعصعة بن صوحان العبدي رضي الله عنه على القبر، ووضع إحدى يديه على فؤاده والأخرى قد أخذ بها التراب ويضرب به رأسه، ثم قال: بأبي أنت وأمي يا أمير المؤمنين، ثم قال: هنيئاً لك يا أبا الحسن، فلقد طاب مولدك، وقوي صبرك، وعظم جهادك، وظفرت برأيك، وربحت تجارتك، وقدمت على خالقك، فتلقاك الله بشارته، وحفتك ملائكته، واستقررت في جوار المصطفى، فأكرمك الله بجواره، ولحقت بدرجة أخيك المصطفى، وشربت بكأسه الأوفى، فاسأل الله أن يمن علينا باقتفائنا أثرك والعمل بسيرتك، والموالاة لأوليائك، والمعاداة لأعدائك، وأن يحشرنا في زمرة أوليائك، فقد نلت ما لم ينله أحد، وأدركت ما لم يدركه أحد، وجاهدت في سبيل ربك بين يدي أخيك المصطفى حق جهاده، وقمت بدين الله حق القيام، حتى أقمت السنن، وأبرت الفتن (أبره: أصلحه) واستقام الاسلام، وانتظم الايمان، فعليك مني أفضل الصلاة والسلام، بك اشتد ظهر المؤمنين، واتضحت أعلام السبل، وأقيمت السنن، وما جمع لاحد مناقبك وخصالك، سبقت إلى إجابة النبي صلى الله عليه وآله مقدما مؤثرا، وسارعت إلى نصرته، ووقيته بنفسك، ورميت سيفك ذا الفقار في مواطن الخوف والحذر، قصم الله بك [كل جبار عنيد، ودل بك] كل ذي بأس شديد وهدم بك حصون أهل الشرك والكفر والعدوان والردى، وقتل بك أهل الضلال من العدى، فهنيئاً لك يا أمير المؤمنين، كنت أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وآله قرباً وأولهم سلماً، وأكثرهم علماً وفهماً، فهنيئاً

لك يا أبا الحسن، لقد شرف الله مقامك وكنت أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ نسبا، وأولهم إسلاما، وأوفاهم يقينا، وأشدّهم قلبا، وأبذلهم لنفسه مجاهدا، وأعظمهم في الخير نصيبا، فلا حرّمنّا الله أجرك ولا أذلنا بعدك، فوالله لقد كانت حياتك مفاتيح للخير ومغالق للشر، وإن يومك هذا مفتاح كل شر ومغلاق كل خير، ولو أن الناس قبلوا منك لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ولكنهم آثروا الدنيا على الآخرة.

ثم بكى بكاء شديدا وأبكى كل من كان معه، وعدلوا إلى الحسن والحسين ومحمد وجعفر والعباس ويحيى وعون وعبد الله ﷺ فعزّوهم في أبيهم (صلوات الله عليه)، وانصرف الناس، ورجع أولاد أمير المؤمنين ﷺ وشيعتهم إلى الكوفة، ولم يشعر بهم أحد من الناس، فلما طلع الصباح وبزغت الشمس أخرجوا تابوتا من دار أمير المؤمنين ﷺ وأتوا به إلى المصلى بظاهر الكوفة، ثم تقدم الحسن ﷺ وصلى عليه، ورفعته على ناقه وسيرها مع بعض العبيد.

وروى رجب البرسي في مشارق الأنوار عن محدثي أهل الكوفة: أن أمير المؤمنين ﷺ لما حمّله الحسن والحسين ﷺ على سريه إلى مكان البئر المختلف فيه إلى نجف الكوفة وجدوا فارسا يتضوع منه رائحة المسك، فسلم عليهما ثم قال للحسن ﷺ: أنت الحسن بن علي رضي الوحي والتنزيل وفطيم العلم والشرف الجليل خليفة أمير المؤمنين وسيد الوصيين؟ قال: نعم،

قال: وهذا الحسين بن أمير المؤمنين وسيد الوصيين سبط الرحمة ورضيع العصمة وربيب الحكمة ووالد الأئمة؟ قال نعم..

قال: سلّماه إليّ وأمضيا في دعة الله، فقال له الحسن ﷺ: إنه

أوصى إلينا أن لا نسلم إلا إلى أحد رجلين: جبرئيل أو الخضر فمن أنت منهما؟ فكشف النقاب فإذا هو أمير المؤمنين عليه السلام، ثم قال للحسن عليه السلام: يا أبا محمد إنه لا تموت نفس إلا ويشهدها أفما يشهد جسده؟.

قال: وروي عن الحسن بن علي عليه السلام أن أمير المؤمنين قال للحسن والحسين عليه السلام: إذا وضعتما في الضريح فصليا ركعتين قبل أن تهيلا علي التراب، وانظرا ما يكون، فلما وضعاه في الضريح المقدس فعلا ما أمرا به، ونظرا وإذا الضريح مغطى بثوب من سندس، فكشف الحسن عليه السلام مما يلي وجه أمير المؤمنين، فوجد رسول الله ﷺ وآدم وإبراهيم يتحدثون مع أمير المؤمنين عليه السلام، وكشف الحسين مما يلي رجله فوجد الزهراء وحواء ومريم وآسية (عليهن السلام) ينحن على أمير المؤمنين عليه السلام ويندبنه..^(١)

٢. القصص

قال الراوي: فلما كان الغداة اجتمعوا لأجل قتل الملعون، قال أبو مخنف: فلما رجع الحسن عليه السلام دخلت عليه أم كلثوم وأقسمت عليه أن لا يترك الملعون في الحياة ساعة واحدة، وكان قد عزم على تأخير ثلاث أيام، فأجابها إلى ذلك، وخرج لوقته وساعته، وجمع أهل بيته وأهل البصائر من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ كصعصة والأحنف وما أشبههما رضي الله عنهما وتشاوروا في قتل ابن ملجم (لعنه الله تعالى)، فكل أشار بقتله في ذلك اليوم، واجتمع رأيهم على قتله في المكان الذي ضرب فيه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

(١) (بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٤٢ - ص ٣٠٠ - ٣٠١)

قال الراوي: ثم إنه لما رجع أولاد أمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه إلى الكوفة واجتمعوا لقتل اللعين عدو الله ابن ملجم فقال عبد الله بن جعفر: اقطعوا يديه ورجليه ولسانه واقتلوه بعد ذلك، وقال ابن الحنفية رضي الله عنه: اجعلوه غرضاً للنشاب وأحرقوه بالنار، وقال آخر: اصلبوه حياً حتى يموت، فقال الحسن عليه السلام: أنا ممثّل فيه ما أمرني به أمير المؤمنين عليه السلام أضربه ضربة بالسيف حتى يموت فيها، واحرقه بالنار بعد ذلك.. قال: فأمر الحسن عليه السلام أن يأتوه به، فجاءوا به مكتوفاً حتى أدخلوه إلى الموضع الذي ضرب فيه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام والناس يلعنونه ويوبخونه، وهو ساكت لا يتكلم، فقال الحسن عليه السلام: يا عدو - الله قتلت أمير المؤمنين عليه السلام وإمام المسلمين، وأعظمت الفساد في الدين؟

فقال لهما: يا حسن ويا حسين (عليكما السلام) ما تريدان تصنعان بي؟ قالاً له: نريد قتلك كما قتلت سيدنا ومولانا.

فقال لهما: اصنعا ما شئتما أن تصنعا، ولا تعنفا من استذله الشيطان فصده عن السبيل، ولقد زجرت نفسي فلم تنزجر! ونهيتها فلم تنته! فدعها تذوق وبال أمرها ولها عذاب شديد، ثم بكى..

فقال له: يا ويلك ما هذه الرقة؟ أين كانت حين وضعت قدمك وركبت خطيئتكَ؟ فقال ابن ملجم لعنه الله: ﴿أَسْتَحْذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ولقد انقضى التوبيخ والمعايرة، وإنما قتلت أباك وحصلت بين يديك، فاصنع ما شئت وخذ بحقك مني كيف شئت، ثم برك على ركبتيه، وقال: يا ابن رسول الله الحمد لله الذي أجرى قتلي على يديك، فرقاً له الإمام الحسن عليه السلام لأن قلبه كان رحيماً (صلّى الله عليه)..

ثم قام الإمام الحسن عليه السلام وأخذ السيف بيده وجردّه من غمده فهز به حتى لاح الموت في حده ثم ضربه ضربة أدار بها عنقه فاشتد زحام الناس عليه، وعلت أصواتهم، فلم يتمكن من فتح باعه فارتفع السيف إلى باعه فأبرأه فانقلب عدو الله على قفاه يخور في دمه، فقام الحسين عليه السلام إلى أخيه، وقال: يا أخي أليس الأب واحدا والأم واحدة ولي نصيب في هذه الضربة ولي في قتله حق؟ فدعني أضربه ضربة أشفي بها بعض ما أجده، فناوله الحسن عليه السلام السيف فأخذه وهزه وضربه على الضربة التي ضربه الحسن عليه السلام فبلغ إلى طرف أنفه، وقطع جانبه الآخر، وابتدره الناس بعد ذلك بأسيا فهم، فقطعوه إربا، إربا، وعجل الله بروحه إلى النار وبئس القرار، ثم جمعوا جثته وأخرجوه من المسجد، وجمعوا له حطبا وأحرقوه بالنار، وقيل: طرحوه في حفرة وطموه بالتراب..

وأقبلوا إلى قطام الملعونة الفاسقة الفاجرة فقطعوها بالسيف إربا، إربا، ونهبوا دارها، ثم أخذوها وأخرجوها إلى ظاهر الكوفة وأحرقوها بالنار، وعجل الله بروحها إلى النار وغضب الجبار، وأما الرجلان اللذان كانا مع ابن ملجم بالجامع يساعده على قتل الإمام علي عليه السلام فقتلا من ليلتهما، لعنهما الله وحشرهما محشر المنافقين الظالمين في جهنم خالدين مع السالفين.

وأما الرجلان اللذان تحالفا معه: وأما البرك بن عبد الله فإنه قعد لمعاوية في تلك الليلة التي ضرب فيها علي فلما خرج معاوية ليصلي الغداة شد عليه بالسيف فوقع السيف في أليته فأخذ فقال إن عندي خبرا أسرك به فإن أخبرتك فنافعي ذلك عندك؟ قال: نعم.

قال: إن أخوا لي قد قتل علياً هذه الليلة.

قال: فلعله لم يقدر على ذلك قال: بلي، إن علياً ليس معه أحد يحرسه فأمر به معاوية فقتل. وبعث معاوية إلى الساعدي وكان طبيباً فلما نظر إليه قال اختر إما أن أحمي حديدة فأضعها موضع السيف وإما أن أسقيك شربة تقطع منك الولد وتبرأ منها فإن ضربتك مسمومة.

فقال معاوية: أما النار فلا صبر لي عليها وأما الولد فإن في يزيد وعبد الله ما تقر به عيني فسقاه شربة فبرئ ولم يولد له ولد بعدها. وأمر معاوية عند ذلك بالمقصورات وحرس الليل وقيام الشرط علي رأسه إذا سجد وهو أول من عملها في الإسلام. وقيل إن معاوية لم يقتل البرك وإنما أمر فقطعت يده ورجله وبقي إلى أن ولي زياد البصرة وكان البرك قد صار إليها وولد له فقال له زياد يولد لك وتركت أمير المواطنين لا يولد له فقتله وصلبه.

وأما عمرو بن بكر فإنه جلس لعمر بن العاص تلك الليلة فلم يخرج وكان اشتكي بطنه فأمر خارجة بن أبي حبيبة وكان صاحب شرطته وهو من بني عامر بن لؤي فخرج ليصلي بالناس فشد عليه وهو يري أنه عمرو بن العاص فضربه فقتله فأخذته الناس إلى عمرو فسلموا عليه بالإمرة فقال: من هذا؟

قالوا: عمرو.. قال: فمن قتلت؟ قالوا: خارجة.. قال: أما والله يا فاسق ما ظننته غيرك.. فقال عمرو: أردتني وأراد الله خارجة فقدمه عمرو فقتله.^(١)

وكانت هذه هي وصيته العامة صلوات الله عليه. فعند ذلك يئس الناس من أمير المؤمنين عليه السلام وقام لهم بكاء وعويل، فسكتهم

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير - ج ٣ - ص ٣٩٣ - ٣٩٦

الحسن عليه السلام لكيلا تهيج النساء ويضطرب أمير المؤمنين عليه السلام، فسكتوا وصاروا ينشجون نشيجا خفيفا، إلا الأصبع بن نباتة شرق بعبرته وبكى بكاء عاليا، فأفاق أمير المؤمنين من غشوته فقال: لا تبك فإنها والله الجنة،

فقال: نعم يا أمير المؤمنين وأنا أعلم والله أنك تصير إلى الجنة، وإنما أبكي لفراقك يا سيدي. قال حبيب بن عمرو: فما أحببت أن الأصبع يتكلم بهذا الكلام مع أمير المؤمنين عليه السلام، فأردت أن أرفع ما وقع في قلب أمير المؤمنين من كلام الأصبع فقلت: لا بأس عليك يا أبا الحسن، فإن هذا الجرح ليس بضائر، وما هو بأعظم من ضربة عمرو بن عبد ود، فإن البرد لا يزلزل الجبل الأصم، ولفحة الهجير لا تجفف البحر الخصم، والليث يضرى إذا خدش، والصل يقوى إذا ارتعش! فنظر إلي نظرة رافة ورحمة وقال: هيهات يا ابن عمرو، نفذ القضاء، وأبرم المحتوم، وجرى القلم بما فيه، وإني مفارقك. فسمعت أم كلثوم كلامه فبكت، فقال لها أمير المؤمنين: يا بنية لو رأيت مثل ما رأيت، لما بكيت على أبيك.

قال حبيب فقلت له: وما الذي ترى يا أمير المؤمنين؟

قال: يا حبيب أرى ملائكة السماوات والنبين بعضهم في أثر بعض، وقوفا إلي يتلقوني، وهذا أخي محمد رسول الله ﷺ جالس عندي يقول: أقدم فإن أمامك خير لك مما أنت فيه، قال: فما خرجت من عنده حتى توفي صلوات الله عليه).^(١)

(١) (الأنوار العلوية للنقدي ص ٣٣٢)

٣. رثاء الخضر لأmir المؤمنين (عليه السلام)

عن أسيد بن صفوان صاحب رسول الله ﷺ قال: لما كان اليوم الذي قبض فيه أمير المؤمنين ﷺ ارتج الموضع بالبكاء، ودهش الناس كيوم قبض النبي ﷺ وجاء رجل باكيا وهو مسرع مسترجع وهو يقول: اليوم انقطعت خلافة النبوة حتى وقف على باب البيت الذي فيه أمير المؤمنين ﷺ فقال: رحمك الله يا أبا الحسن، كنت أول القوم إسلاما، وأخلصهم أيما، وأشدّهم يقينا، وأخوفهم لله، وأعظمهم عناء، وأحوطهم على رسول الله ﷺ، وآمنهم على أصحابه، وأفضلهم مناقب، وأكرمهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم من رسول الله ﷺ، وأشبههم به هديا وخلقا وسمتا وفعلا، وأشرفهم منزلة، وأكرمهم عليه، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسوله وعن المسلمين خيرا. قويت حين ضعف أصحابه، وبرزت حين استكانوا، ونهضت حين وهنوا، ولزمت منهاج رسول الله ﷺ إذ هم أصحابه، وكنت خليفته حقا، لم تنازع ولم تضرع برغم المنافقين وغيظ الكافرين وكره الحاسدين وصغر الفاسقين! فقمتم بالأمر حين فشلوا، ونطقت حين تتعتعوا، ومضيت بنور الله إذ وقفوا، فاتبعوك فهدوا.

وكنت أخفضهم صوتا، وأعلاهم قنوتا، وأقلهم كلاما، وأصوبهم نطقا، وأكبرهم رأيا، وأشجعهم قلبا، وأشدّهم يقينا، وأحسنهم عملا، وأعرفهم بالأمر.

كنت والله يعسوبا للدين أولا وآخرا: الأول حين تفرق الناس، والآخر حين فشلوا! كنت للمؤمنين أبا رحيمًا، إذ صاروا عليك عيالا، فحملت أثقال ما عنه ضعفوا، وحفظت ما أضاعوا، ورعيت ما أهملوا، وشمّرت

إذ اجتمعوا، وعلوت إذ هلعوا، وصبرت إذ أسرعوا، وأدركت أوتار ما طلبوا، ونالوا بك ما لم يحتسبوا.. كنت على الكافرين عذابا صبا ونهبا، وللمؤمنين عمدا وحصنا، فطرت والله بنعمائها وفزت بحبائها، وأحرزت سوابقها، وذهبت بفضائلها، لم تفلل حجتك، ولم يزغ قلبك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك ولم تخر.. كنت كالجبل لا تحركه العواصف، وكنت كما قال: أمن الناس في صحبتك وذات يدك، وكنت كما قال: ضعيفا في بدنك قويا في أمر الله، متواضعا في نفسك عظيما عند الله، كبيرا في الأرض جليلا عند المؤمنين.

لم يكن لأحد فيك مهمز، ولا لقائل فيك مغمز، ولا لأحد فيك مطمع، ولا لأحد عندك هوادة، الضعيف الذليل عندك قوي عزيز حتى تأخذ له بحقه، والقوي العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق، والقريب والبعيد عندك في ذلك سواء، شأناك الحق والصدق والرفق، وقولك حكم وحتم، وأمرك حلم وحزم، ورأيك علم وعزم فيما فعلت.. وقد نهجت السبيل، وسهلت العسير، وأطفأت النيران، واعتدل بك الدين، وقوي بك الإسلام، فظهر أمر الله ولو كره الكافرون، وثبت بك الإسلام والمؤمنون، وسبقت سبقا بعيدا، وأتعبت من بعدك تعباً شديداً، فجللت عن البكاء، وعظمت رزيتك في السماء، وهددت مصيبتك الأنام، فإننا لله وإنا إليه راجعون، رضينا عن الله قضاة، وسلمنا لله أمره، فو الله لن يصاب المسلمون بمثلك أبدا.. كنت للمؤمنين كهفا وحصنا، وقنة راسيا، وعلى الكافرين غلظة وغيظا، فألحقك الله بنبيه، ولا أحرمتك أجرك، ولا أضلنا بعدك. وسكت القوم حتى انقضى كلامه، وبكى وبكى أصحاب رسول الله ﷺ، ثم طلبوه فلم يصادفوه^(١).

(١) (الكافي: ١/ ٤٥٤)

٤. من وصايا الرحيل

١.٤. الوصايا العامة

دعا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ابنه حسناً وحسيناً عليهما السلام، فقال: أوصيكمما بتقوى الله، وألا تبغيا الدنيا الفانية وإن بغتكما، ولا تبكيا على شيء زوي عنكما، وقولا الحق، وارحما اليتيم، وأعيننا الضائع، واصنعا للآخرة، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم ناصراً، اعملا بما في الكتاب، فلا تأخذكما في الله لومة لائم.

ثم نظر إلى محمد بن الحنفية، فقال عليه السلام: هل حفظت ما أوصيت به أخويك؟ قال: نعم. قال: فإني أوصيك بمثله، وأوصيك بتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك، ولا تؤثر أمرا دونهما.

ثم قال للحسن والحسين عليهما السلام: أوصيكمما به، فإنه أخوكمما وابن أبيكمما، وقد علمتما أن أباكمما كان يحبه..

فلما حضرته الوفاة أوصى، فكانت وصيته:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أوصى به علي بن أبي طالب عليه السلام: أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ثم إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين.

ثم أوصيك يا حسن وجميع ولدي وأهلي ومن يبلغه كتابي بتقوى الله ربكم، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً، ولا تفرقوا، فإني سمعت أبا القاسم عليه السلام يقول: إن صلاح ذات البيت أفضل من عامة الصلاة والصيام.

انظروا إلى ذوي أرحامكم فصلوهم يهون عليكم الحساب.

الله، الله في الأيتام فلا تغيروا أفواههم، ولا يضيعوا بحضرتكم.

الله، الله في جيرانكم فإنهم وصية نبيكم، ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم.

الله، الله في القرآن فلا يسبقنكم بالعمل به غيركم.

الله، الله في الصلاة فإنها عماد دينكم.

الله، الله في بيت ربكم فلا يخلون ما بقيتم، فإنه إن ترك لم تناظروا.

الله، الله في شهر رمضان، فإن صيامه جنة من النار.

الله، الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم.

الله، الله في الزكاة فإنها تطفئ غضب الرب.

الله، الله في ذمة أهل بيت نبيكم، فلا يظلموا بين ظهرانيكم.

الله، الله في أصحاب نبيكم فإن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم أوصى بهم.

الله، الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معاشكم.

الله، الله فيما ملكت أيما نكم، فإن آخر ما تكلم به رسول الله صلوات الله عليه وآله.

أن، قال: أوصيكم بالضعيفين، نساؤكم وما ملكت أيما نكم.

الصلاة، الصلاة، لا تخافن في الله لومة لائم، يكفيكم من أرادكم وبغي عليكم، وقولوا للناس حسنا كما أمركم الله، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيتول الأمر شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم، عليكم بالتواصل والتبادل، وإياكم والتدابير والتقاطع، والتفرق، وتعاونوا على البر والتقوى، واتقوا الله إن الله شديد العقاب.. حفظكم الله من أهل بيت، وحفظ فيكم نبيكم، أستودعكم الله، وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله..^(١)

عن أبي وائل بن سعد، قال: كان عند علي مسك، فأوصى أن يحنط به، وقال: هو فضلة حنوط رسول الله ﷺ..^(٢)

٥. الوصية باستخلاف الإمام الحسن عليه السلام

عن سليم بن قيس قال: شهدت وصية أمير المؤمنين عليه السلام حين أوصى إلى ابنه الحسن، وأشهد على وصيته الحسين عليه السلام ومحمدا وجميع ولده، ورؤساء شيعته وأهل بيته، ثم دفع إليه الكتاب والسلاح وقال لابنه الحسن: يا بني أمرني رسول الله ﷺ أن أوصي إليك وأن أدفع إليك كتبي وسلاحي، كما أوصى إلي رسول الله ﷺ ودفع إلي كتبه وسلاحه، وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين، ثم أقبل على ابنه الحسين فقال: أمرك رسول الله ﷺ أن تدفعها إلى ابنك هذا، ثم أخذ بيد علي بن الحسين، ثم قال لعلي بن الحسين: وأمرك رسول الله ﷺ أن تدفعها إلى ابنك محمد بن علي، وأقرأه من

(١) (المناقب - للخوارزمي: ٢٧٨، تاريخ الأمم والملوك ٥/ ١٤٧، مقاتل الطالبين: ٣٩)

(٢) (كنز العمال ١٣/ ١٩١)

رسول الله ﷺ ومني السلام^(١).

ذكروا أن جندب بن عبد الله دخل على علي عليه السلام يسليه (بعد إصابته) فقال: يا أمير المؤمنين، إن فقدناك فلا نفقدك فنباع الحسن؟ قال: نعم..^(٢)

عن أبي بكر الهذلي، قال: أتى أبا الأسود الدؤلي نعي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وبيعة الحسن عليه السلام، فقام على المنبر فخطب الناس ونعى لهم عليا عليه السلام حتى قال: وقد أوصى بالإمامة بعده إلى ابن رسول الله ﷺ، وابنه وسليته وشبيهه في خلقه وهديه، وإني لأرجو أن يجبر الله عز وجل به ما وهى، ويسد به ما انثلم، ويجمع به الشمل، ويطفئ به نيران الفتنة، فبايعوه ترشدوا. فبايعت الشيعة كلها..^(٣)

٦. الوصية بقاتله والقصاص منه

إن هذا الخلق العظيم لم يسجله التاريخ إلا لأهل بيت النبوة (عليهم الصلاة والسلام)، فهل أوصى مقتول بقاتله قط، إنها كلمة تدل على جوهر نفيس ونفس عالية ومحشوة بالفضائل وحسن السمائل، ولا غرو فإنه أمير المؤمنين، ووالد الحسين علي بن أبي طالب (عليهم سلام الله أبداً، أبداً، أبداً)..^(٤)

ومن وصاياه تلك، قال الإمام علي عليه السلام: إنه أسير، فأحسنوا نزله، وأكرموا مثواه فإن بقيت قتلت أو عفوت، وإن مت فاقتلوه قتلتني، ولا

(١) الكافي: ١/ ٢٩٧

(٢) (المناقب - للحافظ أخطب خوارزم - : ٢٧٨)

(٣) (الأغانى - لأبي الفرج الأصبهاني - ١٢/ ٣٢٨)

تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين..^(١)

وقال عليه السلام موصياً وصيه الإمام الحسن عليه السلام: أنظر يا حسن، إن أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة، ولا تمثل بالرجل فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور..^(٢)

ثم التفت الإمام علي عليه السلام إلى ابن ملجم وقال له: ولقد كنت أعلم أنك قاتلي، وإنما أحسنتُ إليك لأستظهر بالله عليك، ثم قال لبنيه: يا بني، إن هلكت النفس بالنفس، اقتلوه كما قتلني، وإن بقيت رأيت فيه رأياً..^(٣)

وقال عليه السلام لعموم بني هاشم الأكارم: يا بني عبد المطلب، لا تخوضوا دماء المسلمين خوفاً تقولون: قتل أمير المؤمنين، قتل أمير المؤمنين، ألا لا تقتلن بي إلا قاتلي، انظروا، إذا أنا مت من ضربته هذه فاضربوه ضربة (ضربة بضربة)، ولا تمثلوا به، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور..^(٤)

وقال الإمام علي عليه السلام عندما أدخل عليه ابن ملجم بعد أن ضربه: النفس بالنفس، إن هلكت فاقتلوه كما قتلني، وإن بقيت رأيت فيه رأيي. وقال لابن ملجم: يا عدو الله ألم أحسن إليك؟! ... ألم أفعل بك...؟! قال: بلى^(٥) ولكن أنت تنقذ من النار..

وعن ابن شهاب، قال: قدمت دمشق وأنا أريد العراق، فأتيت عبد

(١) (أنساب الأشراف ٢/ ٥٠٢، أسد الغابة ٤/ ٣٥، ومثله الإمامة والسياسة - لابن قتيبة - ١٦٠)

(٢) (تاريخ الطبري ٤/ ١١٤)

(٣) (تذكرة الخواص: ١٦٢)

(٤) (الرياض النضرة ٣ - ٤/ ٢٣٨)

(٥) (مجمع الزوائد ٩/ ١٣٩)

الملك لأسلم عليه، فوجدته في قبة على فرش تفوت القائم وتحتة
سماطان، فسلمت ثم جلست، فقال لي: يا ابن شهاب، أتعلم ما كان في
بيت المقدس صباح قتل علي بن أبي طالب؟ قلت: نعم. قال: فقامت من
وراء الناس حتى أتيت خلف القبة، وحول إلي وجهه وأحنى علي فقال:
ما كان؟! فقلت: لم يرفع حجر في بيت المقدس إلا وجد تحتة دم.^(١)

وعن الزهري أن أسماء الأنصارية، قالت: ما رُفع حجر بإيلياء ليلة
قتل علي عليه السلام إلا ووجد تحتة دم عبيط..^(٢)

وللشاعر عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون من شعره قصيدته الرائية
التي رثى بها ملوك بني الأفطس وذكر فيها مَنْ أباده الحدثان من ملوك
كل زمان وهي، ويذكر المولى أبا الحسن عليه السلام، وهي:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر
فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة عن
نومة بين ناب الليث والظفر
فلا يغرنك من دنياك نومتها
فما صناعة عينيها سوى السهر
والدهر حرب وإن أبدى مسالمة
والسود والبيض مثل البيض والسمر
ما لليالي أقال الله عثرتنا
من الليالي وخانتها يد الغير

(١) (الرياض النضرة ٣ - ٤ / ٢٣٧)

(٢) (مستدرک الحاكم ٣ / ١٤٤)

ولا رعت لأبي اليقظان صحبته
ولم تزوده غير الضيخ في الغمر
وأجزرت سيف أشقاها أبا حسن
وأمكنك من حسين راحتي شمر
وليتها إذ فدت عمرا بخارجة
فدت علياً بمن شاءت من البشر

أي والله ليتها - وهل تفيد ليت هنا - فدتك يا أمير المؤمنين بمن شاءت من البشر فكل من كان فوق التراب يدين لك بالفضل عليه ولا فضل لأحد عليك إلا الله، ولذا فكل مصيبة بعدك هينة سهلة..

ولكن للزمان وتقلب الحدثان، ومصائب الدهر الخؤون، ونوازل ريب المنون لارادّ لها ولا دافع للقضاء إذا نزل بساحة أحد من بني البشر، وهل فاد الفضل أفضل خلق الله وأكرمهم أعني الحبيب المصطفى محمد ﷺ، أو آله الأطهار عليهم السلام أفضل خلق الله بعده؟

٧. فرح معاوية

ومن أسف الزمان أن تقع يد القدر على رأس أمير المؤمنين عليه السلام فتهلكه، وينجو كل من معاوية وعمرو بن العاص، فيشمت معاوية، ويفرح فرحاً شديداً ويتخذ من هذا اليوم يوم عيد وفرح وسرور في الشام بسبب مقتل أمير المؤمنين عليه السلام كما تروي كتب التاريخ الإسلامي!

فلما بلغ نعي أمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية فرح فرحاً شديداً. وفي رواية الراغب عن شريك أنه كان متكئاً فاستوى جالسا، ثم قال: يا

جارية غنيني، فاليوم قرت عيني.^(١)

ولكن للرجل عبارة مشهورة عنه وهي أنه لما بلغه مقتل الإمام علي عليه السلام: تأسف على موت العلم والفقه بموته!

* وأما فرحه وإقامته مجلس غناء وشراب فواضح، لأن أمير المؤمنين عليه السلام كان أكبر عقبة أمام مشروعه الدنيوي وهو إقامة إمبراطورية أموية التي كان يحلم بها منذ أن تولى أمر الشام من أخيه في عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب..!

* وأما تأسفه على خسارة الأمة للعلم، والفقه، فهو تأسف على خسارته هو كذلك لأنه كان كلما أشكلت عليه مسألة، أو سألها عنها الروم والنصارى واليهود، لجأ إلى الإمام علي عليه السلام ليحل له المعضلات التي لا يحلها إلا الأوصياء، وكم له مسائل في هذا الباب..

وكان الإمام علي عليه السلام يجيب على تلك المسائل وهو يعلم أن مصدرها طاغية الشام عدوه اللدود معاوية، ولكنه كان يريد نصرته الإسلام وتطبيق شرع الله تعالى، حتى لو استفاد منه معاوية!

فقد ذكر ابن عبد البر في استيعابه: أنه كان يكتب (معاوية) فيما ينزل به ليسأل علي بن أبي طالب عليه السلام، فلما بلغه قتله قال: ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبي طالب.^(٢)

وأخرج الإمام مالك والشافعي، وسعيد بن منصور بن شعبة المروزي، وعبد الرزاق، والبيهقي بإسنادهم جميعاً عن سعيد بن المسيب قال: إن رجلاً من أهل الشام يقال له: ابن خبيري وجد مع امرأته

(١) نهج السعادة: ٨ / ٥٠٧

(٢) (الإستيعاب ٢ / ٤٦٣)

رجلاً فقتله أو قتلها معاً، فأشكل على معاوية بن أبي سفيان القضاء فيه، فكتب إلى أبي موسى الأشعري يسأل له علي بن أبي طالب عن ذلك.. فسأل أبو موسى عن ذلك علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال له الإمام علي عليه السلام: إن هذا الشيء ما هو بأرضي عزمت عليك لتخبرني!

فقال له أبو موسى: كتب إلي معاوية بن أبي سفيان أن أسألك عن ذلك.. فقال علي عليه السلام: أنا أبو الحسن القرم، إن يأت بأربعة شهداء فليعط برمته..

وقال المناوي في فيض القدير: في شرح قول النبي صلى الله عليه وآله (علي عيبة علمي): أي مظنة استفصاحي وخاصتي، وموضع سري، ومعدن نفائسي.. والعيبة ما يحرز الرجل فيه نفائسه.. قال ابن دريد: وهذا من كلامه صلى الله عليه وآله الموجز الذي لم يسبق ضرب المثل به في إرادة اختصاصه بأموره الباطنة التي لا يطلع عليها أحد غيره، وذلك غاية في مدح علي عليه السلام، وقد كانت ضمائر أعدائه منطقية على اعتقاد تعظيمه..

وفي شرح الهمزية: أن معاوية كان يرسل يسأل علياً عن المشكلات فيجيبه، فقال له أحد بنيهِ: تجيب عدوك؟! قال: أما يكفيننا أن احتاجنا وسألنا..^(١)

وفي نفس الوقت نجد أن أمير المؤمنين عليه السلام تأسف عندما وقعت الكتب التي كتبها لمحمد بن أبي بكر رضي الله عنه في يد معاوية، لأنه سيستطيل بها ويسيء استغلالها!

قال الثقفى في الغارات: فلما ظهر عليه (محمد بن أبي بكر رضي الله عنه) وقتله، أخذ عمرو بن العاص كتبه أجمع، فبعث بها إلى معاوية بن أبي

(١) فيض القدير: ٤ / ٤٦٩

سفيان، وكان معاوية ينظر في هذا الكتاب ويعجبه (كتاب القضاء الذي كتبه له علي عليه السلام فقال الوليد بن عقبة وهو عند معاوية لما رأى إعجاب معاوية به: مُرْ بهذه الأحاديث أن تحرق، فقال له معاوية: مه يا ابن أبي معيط، إنه لا رأي لك، فقال له الوليد: إنه لا رأي لك! أضمن الرأي أن يعلم الناس أن أحاديث أبي تراب عندك تتعلم منها وتقضي بقضائه! فعلام تقاتله!

فقال معاوية: ويحك أأمرني أن أحرق علماً مثل هذا! والله ما سمعت بعلم أجمع منه ولا أحكم ولا أوضح! فقال الوليد: إن كنت تعجب من علمه وقضائه فعلام تقاتله!

فقال معاوية: لولا أن أبا تراب قتل عثمان، ثم أفتانا لأخذنا عنه! ثم سكت هنيئة ثم نظر إلى جلسائه فقال: إنا لا نقول إن هذه من كتب علي بن أبي طالب، ولكننا نقول: إن هذه من كتب أبي بكر الصديق كانت عند ابنه محمد، فنحن نقضي بها ونفتي! فلم تزل تلك الكتب في خزائن بني أمية حتى ولي عمر بن عبد العزيز فهو الذي أظهر أنها من أحاديث علي بن أبي طالب عليه السلام!

فلما بلغ الإمام علي أبي طالب عليه السلام أن ذلك الكتاب صار إلى معاوية اشتد ذلك عليه.

قال أبو إسحاق: صلى بنا علي عليه السلام فلما انصرف قال:

لقد عثرت عشرة لا أعتذر
سوف أكيس بعدها وأستمر
وأجمع الأمر الشتيت المنتشر

قلنا: ما بالك يا أمير المؤمنين سمعنا منك كذا؟ قال: إني استعملت

محمد بن أبي بكر على مصر، فكتب إلي أنه لا علم لي بالسنة، فكتبت إليه كتابا فيه السنة فقتل وأخذ الكتاب.^(١)

كم لهذا النصوص من دلالات كبيرة لو أنصف الدهر وعقل الناس الأقوال، فهل لاحظت العلاقة الوثيقة بين ابن هند وأبو موسى الأشعري؟ وهل انتبهت لمدى التزوير والتحوير في الحقائق ومدى جرأة هذا الرجل على الكذب، والدجل والنفاق؟

وهل فطنت لمدى العدا والحقد المركوز في قلوب بني أمية العفنة على أهل البيت الأطهار عليهم السلام؟ وسأدعك للتأمل هنا يا أيها الزكي. لكن أبا الأسود الدؤلي ألقى الحجة على بني أمية بفرحهم لمقتل الإمام عليه السلام، وذلك في مقطوعة رثا بها الإمام الشهيد عليه السلام واتهم به بني أمية، فقد جاء فيها:

ألا أبلغ معاوية بن حرب
فلا قرت عيون الشامتين
أفي شهر الصيام فجعتونا
بخير الناس طرا أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا
ورحلها ومن ركب السفينا

٨. فرح السيدة عائشة

ومر معنا سابقا مدى فرح السيدة الأم (عائشة بنت أبي بكر) وشماتها بمقتل أمير المؤمنين عليه السلام وعدم تأسفها! وقد وصلت إلينا نصوص عن

(١) الغارات: ٢٥٠/١

فرحها أكثر مما وصل عن فرح معاوية!

قال شيخنا المفيد رحمته الله: هذا مع الأخبار التي لا ريب فيها ولا مرية في صحتها لاتفاق الرواة عليها، أنها لما قتل أمير المؤمنين عليه السلام جاء الناعي فنعى أهل المدينة، فلما سمعت عائشة بنعيه استبشرت وقالت متمثلة:

فإن يك ناعيا فلقد نعاها لنا

مَنْ ليس في فيه التراب

فقلت لها زينب بنت أبي سلمة: أ لعلّي تقولين هذا؟! فتضحكت، ثم قالت: أنسى، فإذا نسيت فذكروني! ثم خرّت ساجدة شكراً على ما بلغها من قتله، ورفعت رأسها وهي تقول:

فألقت عصاها واستقر بها النوى

كما قرّ عينا بالإياب المسافر

هذا وقد روي عن مسروق أنه قال: دخلت عليها فاستدعت غلاماً باسم عبد الرحمن، قالت عبدي.. قلت لها: فكيف سميت عبد الرحمن؟ قالت: حباً لعبد الرحمن بن ملجم، قاتل علي..! ^(١)

قال الشريف المرتضى معلقاً على كلمتها لزينب: وهذه سخرية منها بزينب وتمويه عليها، تخوفاً من شناعتها، ومعلوم ضرورة أن الناسي الساهي لا يتمثل بالشعر في الأغراض التي تطابق مراده، ولم يكن ذلك منها إلا عن قصد ومعرفة.. ^(٢)

يروى أنها قالت للعبد الذيب أخبرها الخبر: مَنْ قتله؟ قال: عبد الرحمن بن ملجم، قالت: فأنت حر لوجه الله، وقد سميتك عبد

(١) (الجميل الشيخ المفيد: ص ٨٣)

(٢) الشافعي: ٤/ ٣٥٥

الرحمن.. مجاهرة بعداوة أمير المؤمنين، وغبطة بقتله!^(١)

وقال الشيخ الطوسي: وروى الطبري في تاريخه أنه لما انتهى قتل أمير المؤمنين عليه السلام إلى عائشة، قالت:

فألقت عصاها واستقر بها النوى
كما قرَّ عينا بالإياب المسافر

ثم قالت: مَنْ قتله؟ فقليل: رجل من مراد.. فقالت:

فلإن يك نائياً فلقد نعاه

غلام ليس فيه التراب^(٢)

فهل تعلم يا عزيزي أن الشماتة بالعدو غير صحيحة أخلاقياً، واطهار الشماتة من أبشع الأخلاق لاسيما إذا كانت المصيبة هي مصيبة الموت: فما في الموت شماتة لأنه سبيلنا جميعاً..ولكن للأسف نفوس ضعيفة وأحقاد عظيمة تأبى الخمود..

ولذا فلا يأخذك العجب إذا قرأت قول ذاك المأفون الملعون مادحاً لابن ملجم المرادي، بأبيات تفوح منها رائحة الحقد المنتنة، يقول عمران بن حطان الخارجي:

يا ضربة من تقي ما أراد بها إلا
ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إنني لأذكره حيناً فأحسبه
أوفى البرية عند الله ميزانا

فأجابه أبو بكر بن حماد التاهرتي، كما في الاستيعاب وغيره قال:

(١) تقريب المعارف لأبي الصلاح الحلبي ص ٤١١

(٢) الإقتصاد الشيخ الطوسي ص ٢٢٨

قل لابن ملجم والأقدار غالبية:
 هدمت ويلك للإسلام أركاننا
 قتلت أفضل من يمشي عدم
 قدم وأول الناس إسلاما وإيماننا
 وأعلم الناس بالقرآن ثم بما
 أسن الرسول لنا شرعا وتبياننا
 صهر النبي ومولاه وناصره
 أضحت مناقبه نورا وبرهاننا
 وكان منه على رغم الحسود له
 مكان هارون من موسى بن عمراننا
 وكان في الحرب سيفا صارما
 ذكرنا ليثا إذا لقي الأقران أقرانا
 ذكرت قاتله والدمع منحدر فقلت:
 سبحان رب العرش سبحانا
 إني لأحسبه ما كان من بشر
 يخشى المعاد ولكن كان شيطانا
 أشقى مراد إذا عدت قبائلها
 وأخسر الناس عند الله ميزانا
 كعاقر الناقة الأولى التي جلبت
 على ثمود بأرض الحجر خسرانا
 قد كان يخبرهم أن سوف
 يخضبها قبل المنية أزمانا فأزمانا

فلا عفا الله عنه ما تحمله ولا
سقى قبر عمران بن حطانا
لقوله في شقي ظل مختبلا
ونال ما ناله ظلما وعدونا
يا ضربة من تقي ما أراد بها إلا
ليبلغ من ذي العرش رضوانا
بل ضربة من شقي أو زدته لظي
مخلدا قد أتى الرحمن غضبانا

وقبل السلام والوداع لا بد من بعض الكلام لأمل القاء في أبحاث
قادمة بإذن الله تعالى، فقد وصلنا إلى نهاية حروب التأويل في الفترة
العلوية الشريفة، فهي لم تنته إلا بشهادة هذا الإمام العظيم الذي عقلت
النساء أن يلدن مثله من بعده، ولم يسبقه إلا ابن عمه رسول الله ﷺ
ولكنه سبق الآخرين فلا يمكن اللحاق به، فهو الذي ينحدر عنه السيل
ولا يرقى إليه الطير..

وكلنا أمل بدعائك - أخي العزيز - لكي نلتقي بك بدراسة فترة
الإمام الحسن السبط عليه السلام هذا العظيم الذي ظلم من الأمة الإسلامية
ومن أصدقائه وشيعته قبل أعدائه - للأسف الشديد - فلعلنا نتوصل إلى
الخيطة الناظم لهذه الحروب بعد أن وفقنا الله لدراسة ثورة الإمام الحسين
السبط الشهيد عليه السلام بدراستنا المسماة (معركة السماء في أرض كربلاء)..

فصلح الإمام الحسن عليه السلام ثورة صامتة، ونهضة الإمام
الحسين عليه السلام صرخة إصلاح في هذه الأمة الإسلامية..

وتبقى المقدمات (السقيفة، وفدك) ومحاولة نهوض سيدة النساء

فاطمة الزهراء عليها السلام لها حديث آخر نسأل الله تعالى التوفيق للدراسة والتوثيق العلمي لها..

فإلى أن نلتقي بدراسة صلح (هدنة) الإمام الحسن عليه السلام، وثورة فدك الفاطمية، أستودعكم الله.. وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين..واللعن الدائم على أعدائهم أعداء الدين.. إله الحق آمين..

الحسين أحمد السيد

أبو علي

حُرر في دمشق يوم الخميس الموافق ٢٠٠٨/٧/١٦م

مولد أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام ١٣/رجب المرجب/١٤٢٩

من جوار مسجد الإمام الحسين عليه السلام في حي الإمام الحسين عليه السلام في القابون..

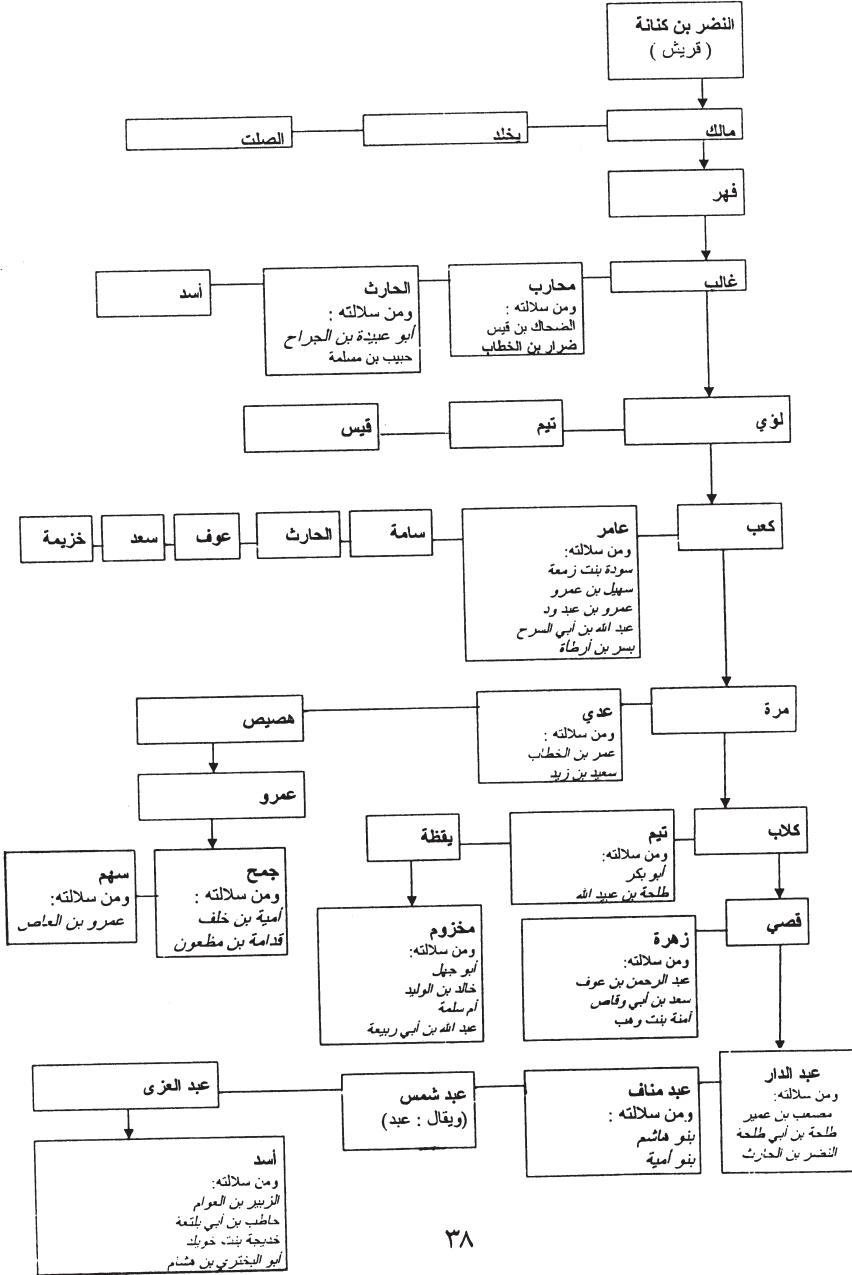


موقع معركة الجمل و مسير الجيشين

(خريطة ٤)



الرسم (1) : بطون قبيلة قريش



المحتويات

٧	الفصل الثالث
٧	خوض المعركة والقتال (الجمل الكبرى)
٧	١. تنظيم المعركة
٩	٢. مواصفات المعركة
١٣	٢. ١. وصف جيش الحق
٢٤	٢. ٢. الإمام علي عليه السلام ينظم الجيش
٢٩	٢. ٣. خطبة عبد الله بن الزبير:
٣٠	٢. ٤. خطبة الإمام الحسن السبط عليه السلام
٣١	٢. ٥. خطبة طلحة
٣٢	٢. ٦. خطبة أمير المؤمنين عليه السلام
٣٦	٢. ٧. أمر القتال
٣٦	٢. ٨. توجيهات القتال
٥٤	٢. ٩. رواية أخرى للمعركة
٥٥	٢. ١٠. ومن تعليمات القتال

- ٦٣ ٢ . ١١. أهوال المعركة من صاحبة الهودج..
- ٦٦ ٢ . ١٢. تسيير عائشة إلى المدينة
- ٦٨ ٣. ما بعد المعركة
- ٦٨ ٣ . ١. الإمام القائد يكلم القتلى
- ٧٣ ٣ . ٢. في البصرة المنهزمة
- ٧٥ ٣ . ٣. ذمه أهل البصرة
- ٧٦ ٣ . ٤. خطبة الإمام علي عليه السلام:
- ٧٨ ٣ . ٥. رسائل الفتح إلى المدينة والكوفة
- ٧٩ ٣ . ٦. اعتراف مروان بالظلم:
- ٨٤ الفصل الرابع:
- ٨٤ النتائج والآثار لمعركة الجمل
- ٩٩ ٤. ابن عباس والي البصرة:

المعركة الثانية

حرب القاسطين في معركة صفين.

- ١٠٣ مواصفات الحرب
- ١٠٦ ٦. جيش الإمام علي عليه السلام
- ١٠٦ ٦ . ١. قادة جيش الحق
- ١٠٨ ٦ . ٢. أكابر جيش الحق
- ١١١ ٧. وجوه أصحاب معاوية
- ١١٤ الفصل الأول:
- ١١٤ المقدمات والإرهاصات
- ١١٤ ١. السياسة العلوية
- ١١٥ ٢. معاوية والبيعة العلوية النورانية

١٢٠. ٢. ١. إبقاء معاوية في منصبه لا يدعوه إلى البيعة..
١٢١. ٢. ٢. إبقاء معاوية كان يزعزع الحكومة المركزية..
٢. ٣. إبقاء معاوية يتعارض مع المباني السياسية للإمام عليه السلام..
١٢٢. ٢. ٤. رفضاً لسياسة المداينة
١٢٤. ٢. ٥. الإمام يدعو معاوية إلى البيعة
١٢٦. ٢. ٦. سياسة معاوية في جواب الإمام عليه السلام
١٢٩. ٢. ٧. استعداداً لحرب معاوية في الشام
١٣٨. هوية رؤساء القاسطين
١٤٠. ١. معاوية بن صخر (أبو سفيان)
١٤٠. ١. ١. معاوية ابن مَنْ؟
١٥٣. ١. ٢. قصة أرينب بنت اسحق
١٥٤. ١. ٣. وصية والديه
١٥٧. ١. ٤. عمر بن الخطاب ومعاوية
١٥٨. ١. ٥. معاوية بالأحاديث والأقوال
١٦٠. ١. ٦. رأي الإمام علي عليه السلام بمعاوية
١٦٤. ١. ٧. شهادات أخرى معتبرة
١٧٤. ١. ٨. مع عبادة بن الصامت
١٨٥. ١. ٩. معاوية وعثمان
١٩٠. ١. ١٠. بلاغ تعميمي للمعتضد العباسي
٢٠٣. ١. ١١. عمرو بن العاص
٢٠٦. ١. ١٢. كلام ابن عباس في مثالبه
٢١٦. ١. ١٣. معاوية وعمرو بن العاص
٢١٧. ١. ١٤. شرط بيعته لمعاوية
- ٢٢٠.

- ٢٢٦ ١٥ . ١. اعترافه بحق الإمام علي عليه السلام
- ٢٢٨ ١٦ . ١. أهداف معاوية من صفين
- ٢٤٢ الحرب النفسية في صفين
- ٢٤٨ ١٧ . ١. رأي عمرو بن العاص
- ٢٤٩ ١٨ . ١. معاوية وسياسة التشكيك
- ٢٦٨ ٢. الإمام علي عليه السلام يقيم الحجة
- ٢٧٣ ٣. أهداف معاوية في حرب النفسية
- ٢٧٩ الفصل الثاني
- ٢٧٩ التحضير والمسير للمعركة
- ٢٧٩ ١. مسير جيش الحق
- ٢٨٠ ١. ١. الإستطلاع واستعراض القوة
- ٢٨٤ ٢. ١. محور مسير جيش الحق
- ٢٩٨ ٣. ١. حركة المقدمة لجيش الحق
- ٣٠١ ٤. ١. أول قتال في صفين
- ٣٠٢ ٢. مسير جيش القاسطين
- ٣٠٢ ١. ٢. معاوية بن أبي سفيان (في الشام)
- ٣٠٦ ٢. ٢. المصالحة مع الروم
- ٣٠٧ ٣. ٢. كتابته لأهل مكة والمدينة
- ٣٠٩ ٤. ٢. أول مواجهة (مواجهة مقدمة الجيشين)
- ٣١٢ الفصل الثالث
- ٣١٢ خوض المعركة في صفين
- ٣١٢ ١. مواجهة الجيشين
- ٣١٢ ٢. حرب الماء
- ٣١٨ ٣. إقامة الحجة قبل القتال

- ٣٢١ ٤. أول المناوشات
- ٣٢١ ٥. الهدنة رجاء الصلح
- ٣٢٤ ٦. مناقشات وفد معاوية
- ٣٢٦ ٧. الحرب الشاملة
- ٣٢٦ ٧. ١. أمر القتال
- ٣٢٦ ٧. ٢. تحريض الإمام عليه السلام أصحابه على القتال
- ٣٢٨ ٨. دعاء الإمام عليه السلام قبل القتال
- ٣٣٠ ٩. المعركة في الأسبوع الأول
- ٣٣٢ ١٠. المعركة في الأسبوع الثاني
- ٣٣٥ ١١. حيلة معاوية للنجاة من الحرب
- ٣٣٦ ١٢. جواب الإمام عليه السلام له
- ٣٣٨ ١٣. معاوية يتوسل بابن عباس
- ٣٣٩ ١٤. جواب ابن عباس
- ٣٤٠ ١٥. كتاب معاوية إلى ابن عباس
- ٣٤١ ١٦. جواب ابن عباس
- ٣٤٢ ١٧. أشد الأيام
- ٣٤٢ ١٧. ١. وقعة الخميس «يوم الهير»
- ٣٤٥ ١٧. ٢. ليلة الهير
- ٣٤٩ ١٧. ٣. دعاء الإمام عليه السلام ليلة الهير ويومه
- ٣٥٦ ١٨. دعاء الإمام (عليه السلام) قبل رفع المصاحف
- ٣٥٧ ١٩. رفع المصاحف
- ٣٦٢ ٢٠. الإمام في حصار أصحاب الجباه السود
- ٣٦٤ ٢١. رجوع الأشر من المعركة
- ٣٦٨ ٢٢. فرح معاوية

٣٦٩. ٢٣. رسالة معاوية إلى الإمام عليه السلام
٣٧٠. ٢٤. جواب الإمام (عليه السلام) عنه وقبوله التحكيم
٣٧١. ٢٥. كلام الإمام في ذم أصحابه
٣٧٢. الفصل الرابع:
٣٧٢. النتائج والآثار لصفين
٣٧٢. ١. توقف الحرب
٣٧٢. ١. ١. مكر الليل وبريق المال
٣٧٥. ١. ٢. رأس النفاق الأشعث
٣٨٤. ١. ٣. تعيين الحكم
٣٨٩. ١. ٤. كتابة وثيقة التحكيم
٣٩٠. ١. ٥. وثيقة التحكيم
٣٩٤. ١. ٦. اختلاف الكلمة في أصحاب الإمام عليه السلام
٣٩٥. ١. ٧. الانصراف من صفين
٣٩٧. ٢. صور استبسال في القتال
٣٩٧. ١. ٢. صور فردية (بطولات نادرة)
٤٢٠. ٢. ٢. مالك الأشر
٤٦٦. ٢. ٣. صور جماعية
٤٧٩. ٣. صورة الهمدانين وقتالهم
٤٨٦. ٤. مصيبة التحكيم
٤٨٧. ٥. بدء تدفق الاعتراض
٤٩٠. ٦. كلمات حول التحكيم
٤٩١. ٦. ١. سبب قبول التحكيم
٤٩٢. ٦. ٢. الحكم المفوض من قبل أهل العراق
٤٩٤. ٦. ٣. موضوع التحكيم

- ٤٩٦ ٤. ٦. سبب انخداع جيش الإمام عليه السلام
- ٤٩٧ ٥. ٦. دور المنافقين
- ٤٩٨ ٦. ٦. الحكمة من عدم اغتنام الفرصة بعد توبة الخوارج
- ٥٠١ ٧. خيمة التحكيم الكارثة
- ٥٠٤ ٨. كلمات ووصايا
- ٥٠٤ ٩. نصيحة الإمام لعمر بن العاص
- ٥٠٥ ١٠. وصية ابن عباس لأبي موسى
- ٥٠٦ ١١. وصية شريح بن هاني لأبي موسى
- ٥٠٨ ١٢. وصية الأحنف بن قيس لأبي موسى
- ٥٠٩ ١٣. وصية معاوية لعمر بن العاص
- ٥١٠ ١٤. أبو موسى الأشعري
- ٥١٥ ١٥. المفاوضات ونتيجة التحكيم
- ٥٢٢ ١٦. كلام الإمام (عليه السلام) لما بلغه أمر الحكمين

المعركة الثالثة: النهروان

حرب المارقين وفتنة الخوارج

- ٥٢٩ الفصل الأول:
- ٥٢٩ مقدمات وإرهاصات
- ٥٣٢ ١. حكم نبوية تصفهم
- ٥٣٦ ٢. السيدة عائشة تصف قاتلهم
- ٥٤٠ ٣. كلمات علوية تنصفهم
- ٥٤٢ ٤. الإمام علي عليه السلام يفخر بقاتلهم
- ٥٤٤ ٥. نهى الإمام عليه السلام عن قتالهم بعده
- ٥٤٥ ٦. أصولهم الفاسدة

- ٥٥٣ ٧. هوية رؤسائهم
- ٥٥٣ ٧. ١. حرقوص بن زهير
- ٥٥٧ ٧. ٢. عبد الله بن وهب الراسبي
- ٥٥٩ الفصل الثاني:
- ٥٥٩ التحضير والمسير
- ٥٥٩ ١. المؤتمر الأول للمارقين
- ٥٦٣ ٢. مسير جيش الحق
- ٥٦٥ ٣. مسير المارقين إلى النهروان
- ٥٦٦ ٤. حوار الحجة على المارقين
- ٥٧٢ ٥. خروج الإمام إلى حروراء
- ٥٧٨ ٦. صبر الإمام علي عليه السلام عليهم
- ٥٨١ ٧. قتلهم ابن خباب
- ٥٨٥ الفصل الثالث:
- ٥٨٥ خوض معركة النهروان
- ٥٨٥ ١. مواصفات الحرب
- ٥٨٥ ١. ١. تاريخها
- ٥٨٦ ١. ٢. مدتها
- ٥٨٧ ١. ٣. مكانها
- ٥٨٧ ١. ٤. عدد المشاركين فيها
- ٥٨٩ ١. ٥. قادة جيش الحق
- ٥٨٩ ١. ٦. قادة جيش المارقين
- ٥٨٩ ٢. خطبة الإمام عليه السلام بين الصنفين
- ٥٩٣ ٣. رفع راية الأمان
- ٥٩٥ ٤. القتال

- ٥٩٥ ٤ . ١. دعاء الإمام عليه السلام قبل القتال
- ٥٩٦ ٤ . ٢. خطة القتال الحكيمة
- ٥٩٦ ٤ . ٣. الأمر بالقتال
- ٥٩٨ ٥. قتال الإمام عليه السلام بنفسه
- ٥٩٩ ٦. مقاتلة الإمام عليه السلام عبد الله بن وهب
- ٦٠٠ ٧. حملة حرقوص على الإمام عليه السلام
- ٦٠٠ ٨. سرعة دمارهم
- ٦٠٣ الفصل الرابع:
- ٦٠٣ النتائج والآثار لمعركة النهروان
- ٦٠٣ ١. ظهور آية من آيات النبوة
- ٦٠٦ ٢. كلام الإمام عليه السلام عند المرور بقتلى الخوارج
- ٦٠٨ ٣. سياسة الإمام في الجرحى والغنائم
- ٦٠٨ ٤. خطبة الإمام عليه السلام بعد قتلهم
- ٦١٠ ٥. نتائج وآثار معركة النهروان
- ٦١١ ٥ . ١. قطع الطريق لصفين ثانية:
- ٦١٢ ٥ . ٢. تحليل الجيش العراقي قتالياً، ومعنوياً:

الخاتمة

- ٦١٧ خاتمة الكتاب
- ٦١٧ ١. نقد وتحليل لحروب التأويل
- ٦٢٣ ١. أهداف الحروب
- ٦٢٤ ١ . ١. أهداف الإمام علي عليه السلام:
- ٦٢٤ ١ . ٢. أهداف القيادة المعادية
- ٦٢٥ ٢. وسائل الحروب

- ٦٢٥ ٣. نتائج الحروب
- ٦٢٦ ٤. النصر والهزيمة في الصراع
- ٦٢٦ ٤. ١. رأي أنصار الدنيا
- ٦٣٠ ٤. ٢. رأي أنصار المبادئ والقيم
- ٦٤٦ ٢. اغتيال قائد جيش الحق شهادة الإمام علي عليه السلام
- ٦٤٦ ١. إخبار الرسول الأعظم ﷺ
- ٦٤٨ ١. ١. أبشع مؤامرة في التاريخ
- ٦٤٩ ١. ٢. اغتيال الإمام علي عليه السلام
- ٦٧٧ ٢. القصاص
- ٦٨٢ ٣. رثاء الخضر لأمر المؤمنين (عليه السلام)
- ٦٨٤ ٤. من وصايا الرحيل
- ٦٨٤ ٤. ١. الوصايا العامة
- ٦٨٦ ٥. الوصية باستخلاف الإمام الحسن عليه السلام
- ٦٨٧ ٦. الوصية بقاتله والقصاص منه
- ٦٩٠ ٧. فرح معاوية
- ٦٩٤ ٨. فرح السيدة عائشة